

الإمام محمد أبو زهرة



اللَّهُ وَهُوَ سَلَامٌ
صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

خاتم النبیین

المجلد الثانی
والمجلد الثالث

ملئز الطبع والمشر

دار الفکر العربی

الإمام محمد أبو زهرة

خاتمة النبيين
صلى الله عليه وسلم

المجلد الثاني

ملزمة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الجزء الثانى

بناء الدولة الاسلامية - معاهدة جوار مع اليهود - نقضهم لها
اجلاؤهم من المدينة - المنافقون - الاذن بالجهاد - الغزوات
والسرايا - غزوة بدر - غزوة أحد - غزوة الأحزاب - الأحكام
الشرعية التى شرعت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلق الله ، وعلى آله وأصحابه
الذين اتبعوا هداه .

أما بعد فهذا هو الجزء الثانى من السيرة الطاهرة سيرة خاتم النبيين
وسيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه ابتداء قيام الدولة
الاسلامية التى من الله تعالى بها على عباده المؤمنين الذين استضعفوا ، ثم مكن
الله تعالى لهم فيها . وصاروا الأئمة والهداة وبدلهم بها من الضعف قوة ومن
الذلة عزة بعزة الله ، وقد أذن فيها بالجهاد ، وتعددت ضرويه ، فجهاد للنفس ،
وجهاد للشرك ، وجهاد لليهود ، وجهاد للنفاق ، وجعل الله تعالى كلمة الله
والحق هى العليا .

وانه ينتهى بانتهاى الجهاد مع المشركين ، وقف أذى قريش ، والصلح
معهم فى الحديبية الذى عده الله تعالى فتحا مبينا .

والله تعالى هو الموفق والهادى الى طيب القول وصراط العزيز الحميد
كتب الله لنا التوفيق ؟

محمد أبو زهرة

انشاء دولة الاسلام

٣٣٤ — هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخرج من مكة المكرمة ، وهى أحب أرض الله تعالى اليه ، لأن بها البيت الحرام ، ولأنها منزل الوحي ، ولأن بها الأهل والأقربين ، وأن بها مآثر ابراهيم ، ولكنه انتقل مع كل هذا الى المدينة المنورة ، وما كان ذلك الا لأنه بأمر ربه انشأ دولة ، ولأنه ماجاء لرهبانية أو روحانية مجردة ، أو لتهديب النفوس فقط ، بل بعث رحمة للعالمين ولابد من أن تقوم دولة تقيم الحق ، وتخفف الباطل ، وتمنع الظلم ، وتجمع الانسانية ، وتنشر التعاون بين الناس ، وتمحو كل الفوارق التى تجعل بعض بنى الانسان يتحكم فى الآخر ، وتمنع الفساد فى الأرض *

ولذلك هاجر عليه الصلاة والسلام حيث يستطيع اقامة الدولة المؤمنة التى تنتهى عن الشر ، وتتعاون على الخير ، وكذلك كل رسول يأتى بشريعة تقوم عليها دولة ، كما فعل موسى ، اذ خرج من أرض فرعون ، لينشئ من قومه قوة ترفع الحق ، وحاول ذلك مع بنى اسرائيل ، وحاول أن يربى فيهم روح العزة والكرامة ، وهما لا يسكنان فى قلب الا اذا سكن معهما حب الانصاف ، وحب الرحمة والمؤاخاة ، والرفق ، فالعزيم الكريم هو الذى ينصف ويرحم ، ويرفق ، واللئيم هو الذى يظلم ، ويشق على الناس ، ولا ينزل بهم رحمة ، بل عداوة وبغضاء ، حاول موسى عليه السلام أن يبيث فيهم البأس بعد البؤس والخنوع ، فقالوا له ، وهو يريد بهم العزة والدفاع عن أنفسهم ، فقالوا « انه أنت وريك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون » *

وعيسى عليه السلام الذى أثر عنه قوله « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » لم يشن حربا ، ولم يقم دولة ، وان دعا الى الفضيلة والمحبة ، والروحانية فى وسط الغلظة المادية التى آل اليها اليهود ، فكانوا متنايذين مع الانسانية ، ولكن خاضعون خائعون للدولة الرومانية ، لا يتمردون ، ولا يلاحون ، ولكن يرضون بالمنزل الهون ، كما قال الله تعالى « ضريت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس » ، فعيسى لم يحاول أن يكون دولة ، ولكن كان داعى رحمة ومحبة ، ورفق ومؤاخاة فى قوم غلاظ الرقاب يثيرون العداوة والبغضاء ، مع من لا قوة لهم ، ويخضعون فى ذلك للقوى ، ويعيشون بالسعاية والافساد *

جاء محمد عليه الصلاة والسلام على فترة من الرسل لاقامة الدولة الفاضلة
لأنه خاتم النبيين ، ولأنه آخر صرح فى بناء النبوة الالهية ، فكان لابد من أن
تودع رحمته فى جماعة مؤمنة ، وأن تكون هى حاملة تبليغ الرسالة
من بعده تقاوم فى سبيلها ، وتسالم فى الدعوة اليها ومد مبادئها ، وتنتقل
الرسالة فى الأجيال مع هذه الأمة التى حملت الأمانة ، ومع دولة تحميتها .

وان قيام الدولة الفاضلة . بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى
حياته والحواريين من بعده فيه تطبيق عملى للفضيلة والعدالة والمساواة ،
واذهاب روح التفاوت والعنصرية ، وبث الايمان والفداء ، ورجاء ما عند الله
تعالى ويكون ذلك حجة فى الارض على الذين يدعون أن قيام دولة فاضلة على
مبادئ الأخلاق ليس حلما لا يتأتى تطبيقه ، ولكنه عمل ثبت تحقيقه ، وقامت
فى الوجود أعلامه ، وأن الذين يفرطون فى حقوق الانسانية ، ويسرفون على
الناس فى ظلمهم زاعمين أن الفضيلة والأخلاق علاقات شخصية ، ولا تصلح
أن تكون أساسا للعلاقات الاجتماعية والانسانية عامة .

وان قيام الدولة الاسلامية حجة قائمة على الذين يزعمون أن الدين
علاقة بين العبد وربّه ، وأنه مقصور على المساجد والكنائس والصوامع ،
لأنه لو كان الدين كذلك ما هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،
ولارتضى البقاء فى مكة المكرمة ، واكتفى أن يطلب من المشركين أن يتركوه
وما يعبد ، وأن يتركهم وما يعبدون ، ولعلمهم كانوا يرتضون بذلك ، وخصوصا
أنهم كانوا يعلمون فيه الأخلاق الفاضلة ، والصدق وشرف المحتد ، والنسب
الرفيع .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت رسالته أبعد من ذلك أثرا ،
وأعم من ذلك عملا ، وأنا نقول مقالة الذين يقولون الدين هو العلاقة بين العبد
 وربّه ، ولكننا نعمم العلاقة بين العبد وربّه ، فنجعلها عامة شاملة ، وليست
خاصة بالصلاة والصوم ، إنما علاقة العبد بربه تقتضى الرحمة بعباده ،
والعدل بينهم أيا كان جنسهم ، وأيا كان لونهم ، كما قال صلى الله تعالى عليه
وسلم « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشئ لا يحبه الا الله » وان كل عمل خير
فيه صلاح الجماعة من عدل يقام ، وظلم يخفض ، وإعلان مساواة ورفق
بالناس ، كل هذا عبادة اذا قصد به وجه الله ، ولا يمكن أن يكون مصلح قادرا
على الإصلاح ، الا اذا أخلص النية لله تعالى ، وأراد نفع الناس مرضاة لله
تعالى العلى القدير ، فالذين يفصلون بين عباد الله تعالى وحده ، وحسن
المعاملة ، وتنظيم المعاملات بين الناس ، يفصلون بين الدين ولازمه ، والحقيقة
وما يترتب عليها ، والمقدمة والنتيجة .

٣٣٥ — وان العرب كانوا أصلح الناس لتجربة الدولة الفاضلة التى وضع الله تعالى فى الكتاب الكريم وعلى لسان رسوله الأمين ، دعائها ، وأسس أقامتهم ، وقد سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السنن العملية لتطبيق أحكام الله تعالى ، فبين العبادات المفروضة من صلاة وصوم ، وحج وزكاة ، وان كانت الصلاة قد ابتدأت فى آخر أيامه صلى الله تعالى عليه وسلم فى مكة المكرمة ، عند الاسراء والمعراج .

ووضع سبحانه وتعالى لهذه الدولة أسس تكوين المجتمع من الأسرة الى الجماعة الى العلاقات الانسانية فى السلم والحرب ، ويصح لنا فى هذا المقام أن نشير الى الأهداف الاجتماعية والدولية للدولة الاسلامية بكلمات موجزات لا تغنى الاشارة فيها عن العبارة . ولا الاجمال عن التفصيل .

اول الأهداف الاجتماعية تهذيب الآحاد ليكون منهم وحدات متلائمة يتكون منها مجتمع ، ولهذا شرعت العبادات ونفذت أحكامها ، تطهيرا للمجتمع من آثامه ، وتوقيا للأخيار من شرور الأشرار ، فكانت الصلاة ، التى قال تعالى فى بيان غايتها وثمرتها : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » وشرع الصوم لتطهر النفس وتسيطر عليها الروح ، وتقوى الارادة ولا يكون الواحد من المؤمنين خاضعا للهوى بل يسيطر عقله على شهوته ، فتكون له أمة ذلولا ، ولا تكون سيدا مطاعا .

وشرع الحج للتعارف الانسانى ، وتهذيب الوجدان بالاقامة فى ضيافة الرحمن ، وشرعت الزكاة ليعين الغنى الفقير وليعيش الناس فى وئام ، فكان تطهير المجتمع ايجابيا بتزكية الروح وتطهيرها ، وتنمية العلاقات الاجتماعية ، وبث روح الرحمة فى القلوب ، والتعاون بين الناس .

وقد شرعت الكفارات تطهيرا للنفوس اذا اثمت ، وفتحا لباب التوبة عمليا ونفسيا ، وجعل الصدقة تطهيرا من كل اثم كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار » اذ كل معصية مهما تضوّل فيها اعتداء على الناس ، فكان تكفيرها بمعاونة الناس .

(ب) واتجه الاسلام الى تكوين الأسرة الفاضلة ، لأن الأسرة نواة البناء الاجتماعى ، وهى الوحدة الاولى فى اقامة دعائمه ، ولذلك عنى القرآن الكريم ببيان أحكامها ، وشرح الواجبات والحقوق فيها بين الزوجين ، وبين الآباء والأبناء ، وان كل الأحكام الشرعية الخاصة بالعبادات والتعامل جاءت مجملة ، وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تفصيلها بالعمل ، لا بالقول فقط ، الا أحكام الأسرة ، فقد تولى الله سبحانه وتعالى بيانها تفصيلا فى كتابه الكريم ،

بين التزامات الزوجية والعلاقات الأسرية ، وعلاجها اذا أصابتها آفة ، وبين أحكام الميراث تفصيلا لا اجمال فيه ، وأحوال الطلاق وما يتصل به .

وان ذلك كله حجة قائمة على الذين يريدون أن يحسروا الشرع عن مواضعه ، ويجعلوا للأسرة نظاما ، لم يأت به كتاب الله تعالى ، وهو عند الله منكر ، لأنه تقليد للذين لا يعرفون مكانة الأسرة ، ولا حرمتها .

رأى عام

(ج) وقامت الدولة الاسلامية التي أقامها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لحكم الله على تكوين رأى عام فاضل ، ولذلك حث الاسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتبرهما عنوانا للأمة الفاضلة ، واذا كان الرأى العام الذى قام فى مكة المكرمة كان وثنيا ، ولذلك حارب الوجدانية وأباج الخبائث ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهداية القرآن الكريم والوصايا الالهية اتجه الى تكوين رأى عام فاضل يقوم المعوج ، ويمنع الخبائث ، ولقد قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، وبين أن اللعنة تكون على الذين يفسدون الرأى العام فيها فقال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود ، وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

وفى سبيل تكوين رأى عام فاضل ، أوجب على كل مؤمن أن يستنكر الشر ، ويستجهنه ، ولا يقره ، ويستحسنه ، والا اضطربت أمور الجماعة ، وهوت سفينة الحياة .

ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « مثل المدهن فى حدود مثل قوم استهموا فى سفينة ، فصار بعضهم فى أسفلها ، وبعضهم فى أعلاها ، فكان الذى فى أسفلها يمر بالماء على الذى فى أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأسا ينقر به أسفل السفينة ، فاتوه ، فقالوا مالك ؟ قال تأذيتم ولا بد لى من الماء ، فان أخذوا على يديه أنجوه ، ونجوا بأنفسهم ، وان تركوه أهلكوا ، وأهلكوا أنفسهم » .

وان الرأى العام الفاضل الذى أراد الاسلام أن يتكون هو الذى يمنع الظلم ، ويقيم العدل ، ولذلك يقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدى الظالم ، ولتأطرنه على

الحق أطرا ، أو ليضرين بقلوب بعضكم على بعض ، ثم تدعون ، فلا يستجاب لكم » .

وان الرأى العام الفاضل تسوده الفضيلة ، وتقتل فيه الرذيلة ، فلا تظهر ولذلك يحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الحياء الذى يجعل صاحبه لا يظهر أمام الناس الا بالخير ، فيقول عليه الصلاة والسلام « الحياء خير كله » ويقول عليه الصلاة والسلام « لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء » .

وان الجماعات الانسانية التى انحرفت ، وسادتها الرذيلة ، أول مظاهرها فقدان الحياء ، وكذلك يدعو المترفون على أنفسهم ، وعلى أقوامهم الى هجر الحياء وازهار الرذيلة ، ويسمون ذلك بأسماء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان .

الكرامة

وان دولة الاسلام التى ألفها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة تدعو الى تكريم الانسان ، لأنه انسان لا لكونه شريفا نسبيا ، ولا لكونه أبيض أو أسود ، ولا لكونه مسلما ، بل للانسانية فيه ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك ، « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، وكرم الله تعالى الرقيق ، ودعا القرآن الكريم الى عتقهم ، ومنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يذل المالك من يملكه ، أو يرهقه بأن يكلفه ما لا يطيق ، وروى الامام أحمد ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « من لطم عبده ، فكفارته عتقه » وقد سوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين نفس الحر ، ونفس العبد ، بل سوى بين نفس العبد ، ونفس ماله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من جوع عبده جوعناه ، ومن قتله قتلناه » .

العدالة

(د) وأوجب القرآن الكريم العدالة بكل ضروبها ، وعداها عنوان الاسلام ، ويروى فى ذلك أن أكثم بن صيفى لما بلغته دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل بنيه ليعرفوا دعوته عليه الصلاة والسلام ، فتلا عليهم قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

وان العدالة مطلوبة على المولى والعدو على سواء ، ولذلك قال الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدوا ، اعدوا هو اقرب للثقوى » فالعدل حتى مع العدو المشنوء اقرب للثقوى •

والعدالة فى مضمونها تشمل ما يسمى العدالة القانونية ، وهى ان يكون القانون الذى تحكم به الناس واحدا ، وأن يكون تطبيقه على الجميع واحدا ، فلا يضار الفقير فى تطبيقه ، ولا يحابى الغنى فى معاملته ، وأساسه المساواة فى التطبيق ، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « كلكم لادم وادم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالثقوى » ولقد تأسى بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أبو بكر اذ قال : « الثقوى منكم ضعيف ، حتى أخذ الحق منه ، والضعيف منكم قوى حتى أخذ الحق له » •

وتشمل العدالة فى مضمونها العدالة الاجتماعية بأن يمكن كل انسان من أن يعيش عيشة كريمة غير مقطوع ولا ممنوع ، وأن يمكن من استغلال مواهبه فيما يفيد شخصه ، وجماعته ، وأن تهيأ الفرص لكل انسان أن يعمل بطاقته جسمية كانت أو عقلية •

وليس معنى العدالة الاجتماعية محو الفقر واذابته ، فان الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان فى الوجود ، لا يمكن محو أحدهما ، أو اذابته ، كما جاء التعبير على لسان بعض الناس ، انما العدالة الاجتماعية ، تقتضى محو التفرقة بين الطبقات ، وأن يسيطر ناس بحكم الطبقية ، وأن يستطيل غنى على فقر ، بحكم غناه ، ولا نسيب على ضعيف بحكم نسبه ، انما الجمع سواء أمام القانون الإسلامى السامى فى معناه ، وتطبيقه •

ولابد أن تتوافر العيشة الكريمة لكل مؤمن ، والدولة الإسلامية المباشرة تتكفل بالعاجزين ، عملا بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا ، فالى وعلى » •

ويشمل مضمون العدالة الدولية ، وهى تقوم على ثلاثة مبادئ متدرجة فى حكم القرآن الكريم ، ويعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى الوفاء بالعهد ، والمعاملة بالمثل من غير أن يجارى الأعداء فى انتهاكهم لحرمة الفضيلة فاذا قتلوا النساء والذرية لا نجاريهم ، واذا انتهكوا حرمت الفضيلة لا ننتهكها ، لأن دين العدل والفضيلة لا يجارى الناس فى ماثمهم وثالث الأمور

فى العدالة الدولية أن الأساس فى علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم ، حتى يكون اعتداء أو استعداد للاعتداء ، أو محاربة لحرية الاعتقاد ووقوف ضد الدعوة الإسلامية التى تدعو الى أن يكون الدين كله لله تعالى ، بحيث لا تفتن مؤمن ، ولا يعتدى على اعتقاد .

التعاون

(هـ) وقامت الدولة الإسلامية على أساس التعاون ، فقال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعانوا على الاثم والعدوان » وأن كل جماعة نظمها الاسلام تقوم على أساس من التعاون ، فالتعاون فى الأسرة هو قوامها ، فالمرأة هى السكن ، وهو الحمى ، والآباء والأبناء يتعاونون فى شدائد الحياة ، ويشتركون فى سرائرها .

واذا تجاوزنا الأسرة الى المجتمع الصغير المكون من الجيران وأهل الحي وأهل القرية ، وجدنا التعاون قوام الترابط بينهم ، وقد أوصى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيران ، وأمر القرآن الكريم بالاحسان الى الجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والجار فى العمل ، والجار فى السفر .

واذا تجاوزنا المجتمع الصغير من الجيران وأهل الحي أو القرية واتجهنا الى مجتمع الأمة أو الشعب ، وجدنا التعاون دعامة بنيانه تتعاون كل طوائفها فى جهودها المختلفة فى رفع شأنها ، وكأن تلك الجهود أنهار مختلفة تلتقى عند مصب واحد ، لا يذهب فيه الماء هدرا ، بل ينتج الخصب وأطيب الثمار .

فكل دلائفة قوة فى ذاتها ، فمهرة الصناع قوة ، ومهرة الزراع قوة متعاونة ، والعلماء يمدون الجميع بالمعارف ، فتعمل كل القوى متعاونة متضافرة .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقام الدولة الإسلامية بالتعاون والتأزر ، وجاء القرآن مقررا ذلك المبدأ الكريم بأدق معانيه ، وكانت الدولة الإسلامية التى أوصى بها القرآن الكريم ، ونفذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أتت بمبدأ لم يسبق اليه سابق ، ولم يلحقها فيه لاحق ، وهو سداد دين المدينين الذين استدانوا فى غير فساد أو سرف ، وعجزوا عن سداد الدين ، فان ذلك مصرف من مصارف الزكاة ، وبينما كان القانون الرومانى فى بعض أدواره أجاز للدائن أن يسترق الدين ، كانت الدولة الإسلامية التى

أنشأها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بإذن الله تعالى تعمل على سد الدين
عن المدينين .

ولئن انتقلنا من الأمة الى الجماعة الانسانية نجد ان القرآن الكريم
والسنة المحمدية يوجبان أن يكون التعاون أساس العلاقات الانسانية عامة ،
ويعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الدولة التي أقامها على التعاون
الانسانى العام استجابة لقوله تعالى « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وان القرآن
الكريم فى سبيل دعم التعاون يقرر ان الانسانية أمة واحدة ، وتنتهى فى نسبها
الى نفس واحدة ، فقد قال الله تعالى : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من
نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا
الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيباً » .

مع اليهود

ولقد نفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول اقامته بالمدينة
المنورة مبدأ الاتحاد الدولى والتعايش السلمى ، فعقد المعاهدة مع اليهود
ومع كثير من القبائل العربية .

وقد يقول قائل ألا يتعارض مبدأ التعاون مع الحرب ؟ ونحن نقول لو
كان الناس جميعاً أخياراً ، ولم يكن قانون الغلبة مسيطراً على بعض الدول
لكانت الحرب مناقضة لمبدأ التعاون ، ولكن فى الدول أشرار ، كما فى الأحاد
أشرار ، وإذا كان الأشرار يمنعون من الشر بالعقوبات الرادعة ، فأشرار الدول
يمنعون من شرهم بالحرب المانعة ، ولذلك قال سبحانه : « ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

فكانت حرب الأشرار من قبيل التعاون على الخير ، ودفع الأثم
والعدوان ، وكذلك كانت حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لدفع
الأشرار ، ومنع الملوك الغاشمين من أن يرهقوا شعوبهم بمنع حرياتهم .

الرحمة والمودة

(و) وقيام دولة الاسلام على أساس الرحمة الشاملة والمودة المقربة ،
ومنع البغضاء المنفرة ، ولقد قامت الدولة الاسلامية على أساس الرحمة
والمودة ، أما الرحمة فأساسها الرحمة بالأخيار ، لا بالأشرار ، فليست الرحمة

فى الاسلام مجرد انفعال نفسى ، بل هى الرحمة بالكافة ، ولقد قال بعض الصحابة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول الله اكثر من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذرياتنا ، فقال عليه الصلاة والسلام ما هذا أريد ، انما أريد الرحمة بالكافة » ، ولذلك شرعت العقوبات الزاجرة رحمة بالكافة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « من لا يرحم لا يرحم » وان بعض أنواع الرأفة يشمل فى أطوائه أشد أنواع القسوة ، وهى الرأفة بالمجرم ، ولذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن الرأفة بالزناة ، فقال الله تعالى : « الزانية والزاني ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فكان من قانون الرحمة العادل أن يعاقب المذنبون .

وان الرحمة العادلة التى تكون للأحاد ، انما تكون على الضعفاء من العبيد ، والفقراء واليتامى ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ابقونى فى ضعفائكم ، انما تنصرون وترزقون ، بضعفائكم » ، ولذلك أوصى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برحمة المرأة الضعيفة ، وأوصى بالرحمة بالعبيد ، وأوصى برحمة اليتامى باصلاح أحوالهم ، ورعاية أموالهم .

هذه اشارات الى مبادئ الرحمة فى الدولة الاسلامية التى كونها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر القرآن الكريم .

أما المودة فهى قوام الروابط الانسانية دعا اليها الآحاد والجماعات ، ولذلك عد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم افشاء السلام الذى هو مظهر المودة ، واطعام الطعام الذى هو ادامها عدهما أحسن الاسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وأحسن الاسلام أن تطعم الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف » .

نعم كان الأمر بالمودة ، وجعلها قوام الأسرة ، كما قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وأوجب صلة الرحم مودة فى القربى ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ومن أراد منكم أن يبارك له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » .

وان المودة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الأمة الاسلامية وحدهم ، بل هى واجبة حتى للمخالفين فى الدين ما داموا لم يعادوا المسلمين أو لم يعتدوا

عليهم ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى تلك الحقيقة ، وهي القانون الشامل في معاملة المسلمين لغيرهم ، فقال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » وقال الله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » .

ويروى أنه في مدة الحديبية بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن قريشاً نزلت بهم جائحة فأرسل مع حاطب بن أبي بلتعة خمسمائة دينار ليشتري بها برا ، ويوزعها على فقراء قريش .

بل انه في أثناء الحرب ، لا تنقطع المودة مع شعوب الدولة المحاربة من غير المقاتلين ، ولا تنقطع المودة الا مع المقاتلين أو من يشتركون في القتال بالعقل والتدبير ، والترتيب والتنظيم ، فأولئك هم الذين يحادون الله ورسوله .

والخلاصة أن الاسلام لا يقطع المودة ، بل يصلها دائما ، ويعد القاطعين لها في غير الدائرة المذكورة يقطعون ما أمر الله به أن يوصل .

(ز) المصلحة ودفع الفساد : وقد قامت الدولة الاسلامية النى بينت أسسها في القرآن الكريم ، وطبقها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأرسى قواعدها عمليا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قامت على رعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة على القاعدة التي ذكرت في القرآن الكريم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين » .

وهكذا كانت المصلحة الجماعية هي من غايات الاسلام ، على أنه يجب ملاحظة أمرين :

أولهما : أن الاعتبار في المنفعة منفعة المجموع أولا ، وبأوفر حظ ، وأن مصلحة الأفراد غير مطلوبة ، بل هي تكون في مصلحة المجموع ، وتتفرد عن مصلحة المجموع . ان لم يترتب عليها ضرر عام ، فان الضرر يزال ، ومنفعة العامة مقدمة على منفعة الخاصة ان لم يمكن الجمع بينهما . ولذلك شرع الجهاد ، وحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليه ، ولو كان فيه ضرر ، لآلام تنزل بالمجاهدين . ولكن تركه يؤدي الى تهلكة الجماعة ، وغلبة الشر على الخير .

الأمر الثانى : أن المصلحة المعنوية بأداء الواجب والتزام الحقوق ، وتهذيب النفس — مطلوبة كالمصلحة المادية بل هى أشد طلبا ، وأكثر رعاية فى الاسلام ، والمصلحة الأصلية تلاحظ قبل المصلحة العاجلة ، ولذلك كانت ملاحظة العبادة قبل ملاحظة المعاش ، ان الدنيا سبيل الخير فى الآخرة ، وان النظر الى الآخرة خير مالا وغاية « وان الدار الآخرة لله الحيوان لو كانوا يعلمون » •

وان الاسلام لا يدعو الى الزهد فى الحياة . ولكن يدعو الى أن يطلب المؤمن الحياة من حلالها ، ويجتنب محرماتها ، وما كان تجنب المحرمات الا لأن تناولها يفوت المصالح الحقيقية التى عدها الاسلام مصالح ، وما من مصلحة مخسرة . الا ومعها تناول محرم حرمه الله تعالى لأن المحرم اعتداء على غيره •

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتناول المباحثات ، وينهى عن تحريم ما أحل الله تعالى من طيبات فى هذه الدنيا . ولقد استنكر الله تعالى على الذين يحرمون الطيبات ما يصنعون ، فقال الله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ويقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » •

وهكذا نجد أن دولة الفضيلة لا تقوم على الحرمان ، بل الحرمان المجرى نقيضها ، وقد منع النبى صلى الله عليه وسلم بأمر الله أن يحرم مؤمن على نفسه ما أحل الله ، ولقد روى الامام أحمد رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا والبسوا فى غير سرف ولا مخيلة » •

ولقد روى أن الامام أحمد رضى الله عنه سئل عن الورع . فقال رضى الله تعالى عنه : « الورع طلب الحلال » فليس فى الدولة الاسلامية الفاضلة زهادة لمجرد الحرمان ، واذا كان زهد ، فهو لتعويد النفس القدرة على قطعها عن الشهوات عندما يلج داعيها •

وان المصلحة فى دولة الاسلام تقوم على المحافظة على النفس والدين ،
والعقل ، والنسل ، والمال ، ولذلك أوجب الله العقوبات على من يعتدى
على مصلحة من هذه المصالح بمقدار اعتدائه ، فان كان الاعتداء على أمر
لا تتحقق الحياة الا به ، فان العقوبة تكون بقدر الاعتداء ، وان كان الاعتداء
على أمر تتحقق الحياة مع الاعتداء ولكن بمشقة ، فان العقوبة تكون دون
السابقة ، وان كان الاعتداء على أمر ترفيهى أو كمالى ، فالعقوبة دون العقوبة
فيما سبق ٠

وهكذا كانت العقوبات من حدود وقصاص ، لأجل مصلحة العباد ، وهى
كما ذكرنا رحمة بهم ٠

وهكذا كانت الدولة الاسلامية رحمة للعباد ، ومصلحة لهم ، ويتحقق
فيها قوله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ٠

أول أعمال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٣٣٦ — استطردنا الى الكلام فى الدولة المحمدية التى أقامها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه ، مشيرين الى دعائم هذه الدولة ، غير مفصلين النظم ، ولا الأحكام ، ولكن نبين مقاصدها وغاياتها بالاشارة الموجزة المبينة ، لا بالعبارة المفصلة الموضحة ، ليعلم الناس أمرين :

أولهما : أن المبادئ التى تقوم هذه الدولة عليها مبادئ تقبلها العقول السليمة التى تسيطر عليها الأهواء ، ولم تتحكم فيها منازع التقليد من غير تفكير ، ولا اتباع للهوى فى ذاته ، وان جعلها مستمدة من أحكام القرآن الكريم والسنة المحمدية بوحي من الله تعالى لا يجعلها مضطربة ، ولا مزلزلة بأهواء الناس ، وهى متفقة مع مصالح الناس ، ولقد سئل اعرابى لماذا أمنت بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ فقال الاعرابى المستقيم الفكر والنفس : « ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل ، والعقل يقول لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل ، والعقل يقول افعل » .

الأمر الثانى الذى جعلنا نشير الى هذه الدولة لرد أقوال الذين يقولون على الله تعالى بغير الحق ، أن الدين للعبادة ، أما الدنيا ، فان الناس ينظمون أمرها ، فبينما أن العبادة لله تعم كل طاعاته ، ومن طاعاته كل اتباع ما أحل وما حرم ، وما نظم .

ولقد كانت التجارب الانسانية تؤيد اقامة دولة اسلامية تمنع الظلم وتقيم الحق والعدل بين الناس ، ولقد رأينا من أقدم العصور دولا تقوم ، وأخرى تهبط ، والرعايا ضائعون بين الحكام المتغالبين ، وبمقدار استعلاء الحكام يكون الظلم المستمر الذى يعم ولا يخص ، فمن عهد الرومان والرعايا هم فرائس لمغالبة المتحكمين .

وان القرآن الكريم الذى نظم الحكم فى الاسلام يدعو الى أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها ، وأن الحاكم مسئول امام الله تعالى ينفذ أحكامه أولا : وأمام الشعوب لا يرهقهم ولا يظلمهم ، ولا يشق عليهم . ثانيا : الا ان يكون فى المشقة تنفيذ حكم الله تعالى .

الإخاء

٣٣٧ — وقد ابتدأ عمله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة بإيجاد الروابط التى تربط آحاد الجماعة الإسلامية ، وتكون وحدة تضم بها العناصر المختلفة الأنساب والأماكن ، وأن يجعل من ذلك المجتمع المختلف أنسابا وقبائل مجتمعا مؤتلفا فى شعوره ، تمحى فيه الفوارق ، والأمور التى تفرق ولا تجمع .

وجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرين من بطون مختلفة ، ووجد أنصارا أووا ونصروا ، ولكن الدماء لم تكن قد جفت بينهم ، فجاء الى ذلك الجمع الذى كان متنافرا ، ليؤلف بين قلوبهم ، والأمم انما تتكون بتأليف القلوب المتنافرة ، وجمعها على الحق ، وأشد ما يجمع توثيقا — الايمان بالله والخضوع لأحكامه ، فى ظل أظهر من فى الوجود وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال السهيلي فى كتابه الروض الأنف : « أخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة المنورة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض » .

وعندى أن ذلك أحد أغراض المؤاخاة ، ولكن المؤاخاة أولا وبالذات تنجى الى تكوين وحدة الجماعة المؤمنة ، ولذلك كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أولا ، وكانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض ثانيا ، وبين الأنصار بعضهم مع بعض ثالثا ، أوسهم مع خزرجه ، ليقضى الرسول عليه الصلاة والسلام على الثغرة السابقة بالآلفة التى تجمع القلوب ، وتزيل نفارها .

فالمؤاخاة كانت لتكون الاخوة هى العلاقة بين النسيب الشريف ، والمولى الضعيف ، ولذلك كانت المؤاخاة جاعلة حمزة بن عبد المطلب أخا لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فالمؤاخاة كانت لتكون الجماعة كما ذكرنا ، ولوضع مبدأ المساواة عمليا ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق يشرح ما كان فيه .

يقول ابن اسحاق فى سيرته بسنده « أخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا ، ونعوذ بالله تعالى أن نقول عليه ما لم يقل . « تأخوا فى الله أخوين » ثم أخذ بيد على ابن أبى طالب ، فقال هذا أخى ، فكان رسول الله سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلى ابن

أبى طالب رضى الله تعالى عنه أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله تعالى ، وأسد رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخوين ، واليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضروا القتال اذا حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ، الطيار فى الجنة ، ومعاذ بن جبل أخو بنى سلمة أخوين (وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة) .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وخارجة بن زهير .
أخوين .

وهكذا أخذ يحصى الأخوة بهذا التأخى بين المهاجرين والأنصار ، فذكر المؤاخاة بين بلال مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبى رويحة . . . وقد استمرت الأخوة بينهما لا تنقطع ، كالمشاة فى كل من أخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بينهم .

ولما دون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج الى الشام ، وأقام بها مجاهدا ، قال له عمر الى من تجعل ديوانك ، فقال مع أبى رويحة ، لا أفارقه أبدا ، للأخوة التى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عقدها بينه وبينى ، فضم اليه .

وقد أنكر ابن القيم مؤاخاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى ابن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، وقال فى ذلك : « وقد أخى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار » وذكر ما نقلناه عن محمد ابن اسحاق ، ثم قال :

« وقد قيل ان نبيه أخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها عليا أخا لنفسه » . والثابت الأول « أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فقط » والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الاسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو أخى بين المهاجرين ، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق اليه ، ورفيقه فى الهجرة ، وإنيسه فى الغار ، وأفضل الصحابة ، وأكرمهم عليه ، أبو بكر الصديق ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا » .

وهكذا نرى الامام ابن القيم ينكر الرواية لمجرد الاستبعاد ، ولم يتعرض للطعن فى الرواية ، ويقصر المؤاخاة والباعث عليها على ما كان بين المهاجرين

والأنصار ، لأجل توثيق الايواء ، وحاجة المهاجرين اليه ، ولا يحتاج اليه المهاجرون بعضهم لبعض ، ولا الأنصار بعضهم لبعض .

ولقد وافق ابن القيم في هذا ابن كثير فقال فيما نقله ابن اسحاق : « وفي بعض ما ذكره نظر ، أما مؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمن العلماء من ينكر ذلك ، ويمنع صحته ، ومستنده في ذلك ، أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض ، لتتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد منهم ، ولا للمهاجري آخر ، كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة اللهم الا أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجعل مصلحة على الى غيره ، فانه كان ممن ينفق عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من صغره في حياته أبيه أبي طالب وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح موله زيد بن حارثة فأخاه بهذا الاعتبار ، والله تعالى أعلم » (١) .

وما ينكره ابن القيم نحن نثبته ، ونرجح أن المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض نقررها ؛ وذلك لأن الحافظ ابن كثير لم يتكلم في صحة هذه الرواية المثبتة ، ولأن قصر الباعث في المؤاخاة مجرد تمكين المهاجرين من الارتفاق من اخوانهم الأنصار قصر لا دليل عليه ، بل هو أخذ من ظاهر الهجرة ، والايواء والنصرة ، كما صرح بذلك القرآن الكريم .

أن المؤاخاة ليس المقصود منها فيما نحسب هذا الارتفاق فقط ، ولكن اثار غير ذلك منها :

أولاً : عقد الألفة بين الضعيف والقوى ، وتمكين الصحبة بين المؤمنين والأتعالى مؤمن على مؤمن ، وناهيك بمؤاخاة حمزة الشريف النسب مع زيد بن حارثة المولى الذي كان عبداً ، ومن عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بالعق ، وكان قد أعلاه ، وجعله ابناً له ، حتى حرم الله تعالى الأدياء وقال سبحانه : « وما جعل أدياءكم أبناءكم » فكان من حكمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن جعله أخاً لابن عبد المطلب .

وثانياً : أن المهاجرين كانوا من قبائل مختلفة ، والقرشيون منهم من كانوا من بيوت متنافسة ، فكان لابد من محو العصبية والدمج بينهم بحكم أخوة الاسلام .

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٧ .

وثالثا : أن الأنصار لم يكونوا متالفين فيما بينهم ، فكانت على مقربة من هدايتهم العداوة المستعرة الأوار بينهم ، بين الأوس والخزرج ، فكان لابد من العمل على نسيانها ، وذلك بالمؤاخاة المحمدية .

رابعا : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عقد عقد المؤاخاة كان يشرع للأمة من بعده هذا النظام الذي يجمع المسلمين ، ولم يكن حكما لحادثة واقعة ، ولا علاجاً مقصوراً ، على ما بين المهاجرين والأنصار بل هو تأليف للمؤمنين ونظام متبع ، وربما تكون الحاجة اليه من بعد أشد وأكبر ، ولذلك كان ولاء المؤالاة الذي تقرر أنه لم ينسخ ، وأنه بين العرب وغيرهم من الأعاجم الذين يدخلون في الاسلام من بعد .

٣٣٨ — وقد أثمرت المؤاخاة ثمرتها ، وربطت بالمودة على قلوب المؤمنين ، روى البخارى ومسلم والامام أحمد عن أنس أن عبسد الرحمن ابن عوف قدم المدينة ، فأخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بينه وبين سعد ابن الربيع الأنصارى فقال له سعد أنت أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فأنظر شطر مالى ، فخذته وتحتى امرأتان ، فأنظر أيهما أعجب لك حتى أطلقها ، فقال عبد الرحمن : « بارك الله فى أملك ومالك ، دلونى على السوق ، فدلوه ، فذهب ، فاشترى وپاع ، فربح ، فجاء بشيء من اقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله تعالى أن يلبث فجاء وعليه ودك من زعفران ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مهيم (١) ، فقال يا رسول الله تزوجت امرأة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أصدققتها ، قال وزن نواة من ذهب قال عليه الصلاة والسلام اولم ولو بشاة » .

وقد كان المهاجرون غير طامعين فى غير الايواء والكفاسف ، يروى البخارى عن ابي هريرة « قالت الأنصار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقسم بيننا وبين اخواننا النخيل ، قال عليه الصلاة والسلام : لا ، ويشرككم فى التمرة ، قالوا سمعنا وأطعنا » . ولقد كان المهاجرون رضى الله تعالى عنهم يستكثرون ما من به اخوانهم الأنصار عليهم من أموال ، فروى الامام أحمد عن أنس أن المهاجرين قالوا يا رسول الله « ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله » قال عليه الصلاة والسلام : لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله تعالى لهم ، .

(١) الودك الدهن ، ولعل دهن الزعفران عطرا ومهيم ، استقها من الحال أى ما هذه الحال التى أثنت عليها .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل المهاجرين يعملون ليستفيد
الأنصار منهم كما آوهم ونصروهم ، فانه يروى أن رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم قال مخاطباً الأنصار : « ان اخوانكم قد تركوا لكم الأموال
والأولاد ، وخرجوا اليكم ، فقال الأنصار أموالنا بيننا قطائع • فقال رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم : « أو غير ذلك • قالوا وما زال يا رسول الله يثنى
عليهم حتى قال هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم • وتقاسمونهم الثمر » •

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « أبى أن يعمل المهاجرون مع
الأنصار ، ويكون الثمر بينهم قسمة عادلة للأرض حصتها ، وللعمل حصته » •

الألفة بين سكان المدينة المنورة

٣٣٩ — كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار • والمهاجرين بعضهم
مع بعض • والأنصار بعضهم مع بعض تأليفاً من الآحاد • وتعاوناً بينهم •
وهو عقد أوامر الودة الشخصية • وهى أساس للألفة الاجتماعية • والروابط
الجماعية ولكن كان لابد أن يكون بجوار تنظيم للعلاقات القبلية أو الأسرية •
والتعاون بين البطون والقبائل • بعد التعاون بين الآحاد بالأخاء • أن يكون
الاتصال بينها على أساس التعاون على الخير • ودفع الأثم بينهم • وأن يكونوا
جميعاً فيما بينهم متماسكين فى دفعة الخير • ودفع الشر •

ولذلك اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى تأليف الجماعات
التي كانت تسكن المدينة المنورة من مهاجرين وأنصار ويهود بل مشركين ممن
بقوا على وثنياتهم •

وقد قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه (البداية والنهاية) : كان بها — أى
يثرب — من أحياء اليهود بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان
نزولهم بالحجاز قبل الأوس والخزرج • وقد نزلوا به أيام بختنصر حين دوح
بلاد المقدس فيما ذكره الطبرى •

ثم لما كان سيل العرم ، وتفرقت اليمن شذر مذر نزل الأوس والخزرج
بالمدينة عند اليهود ، فحالفوهم ، وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من
فضل العلم بالماثور عن الأنبياء •

وبعد الهجرة قد صار اليهود حانقين على المؤمنين الذين آمنوا ، وعلى
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأنه مبعوث من بين أولاد اسماعيل ، لا أولاد

اسحاق ، مع أنهم كانوا يستفتحون على الذين أشركوا به ، ويرجون النصرة فى بعثه ، فلما جاء ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الظالمين .

ويقول ابن القيم انه بعد الهجرة صارت المدينة المنورة بها أنواع من النفوس ، فكان فيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار وكان فيها اليهود من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، وفيها المشركون ، وكان من خارجها من يناصبونه العداوة ، وقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه فى ذلك :

« لما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة - صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم وواعدهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم ، وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة ، وقسم تركوه ، فلم يصالحوه ، ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يثول اليه أمره ، وأمر أعوانه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره ، وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه ، وانتصارهم ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين ، وهؤلاء المنافقون ، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه تبارك وتعالى » .

كان قدوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة فى هذه الطوائف ، ولكن لم تظهر هذه الأقسام فى وقت واحد ، فالنفاق فيما أحسب وكما تدل الوقائع التاريخية لم يظهر إلا بعد النصر فى غزوة بدر الكبرى ، وكما سنبين ، ولما شرق بنو قينقاع بهذا النصر ، وأبدوا العداوة ، واعتزموا الشر ، فقتلوا حتى أخلوا ، عندئذ ظهر النفاق ، وأعلن الاسلام من بعض أعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومهما يكن من أمر تاريخ ظهور بعض الطوائف ، فإنه من المؤكد أنه كان أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مشركو قريش الذين ناصبوه العداوة ، وأخرجوه من داره ، وإن كان الإخراج أمرا مقدورا ، وأن الهجرة كانت أمرا لا بد منه كما أشرنا ، وكان إمامه اليهود ، وهم يساكنون أهل يثرب ولهم المقام معهم ، يدنيهم المكان والجوار ، ويبعدهم الاعتقاد ، وإمامه الذين اعتزلوا المؤمنين ، فلم يقاتلوه ، ولم يمالئوا عليه أعداءه .

وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتكشف القلوب ممن يريدون ظهوره على أعدائه ، ومن يريدون ظهور أعدائه عليه ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ شريعة تحكم بما ظهر ، وتترك لله ما بطن ، وإن كانت تأمر بالاحتياط والحذر فالله تعالى منزل هذه الشريعة ، يقول تبارك وتعالى فى كتابه العزيز : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » .

القائيف الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والحربى :

٣٤ — كتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هو بالنسبة للمؤمنين أمر من الله تعالى بتنظيم مجتمهم ، وتعاونهم الاجتماعى والاقتصادى وتنظيم لشئون السياسة بينهم ، وتآليف بين بطونهم ، وقبائلهم ، وتعاون على اقامة الخير ، ودفع الشر ، وبيان حكم الاسلام فى العمل على منع الظلم ، والتظالم بينهم آحادا وجماعات .

وجعل ما يسرى على المؤمنين فى شعوبهم وقبائلهم يسرى على اليهود وغيرهم ، على أن يكون لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما عليهم ، لا يضارون فى دينهم ، ولا يعتدى عليهم فى اعتقادهم ، وعلى أن تكون الرئاسة الكبرى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولذلك كان هذا الكتاب بالنسبة لليهود عهدا عاهدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أن لنا أن ننشر الكتاب كما رواه ابن اسحاق ، وكما روته صحاح السنة ، واليك الكتاب الشريف .

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى « صلى الله تعالى عليه وسلم » بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم :

بأنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ريعتهم (الحال التى هم عليها يتعاقلون) (١) وهم يقدون عانيهم (٢) بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين .

وينو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وينو مساعدة على ريعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وينو الحارث على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١) أى يدفعون دياتهم بعضهم مع بعض .

(٢) العانى الأسير .

وبنو جشم على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم
تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين •

وبنو النجار على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم
تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين •

وبنو عمرو بن عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة
منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين •

وبنو النبيت على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى
عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين •

وان المؤمنين لا يتركون مفرجا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء
أو عقل •

والا يحالف مؤمن مولى مؤمن مؤمن دونه (٢) •

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى وسيعة (٣) ظلم أو
اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد
أحدهم •

ولا يقتل مؤمن فى كافر ، ولا ينصر كافر على مسلم •

وان ذمة الله تعالى واحدة يجير عليهم أدناهم •

وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس •

وان من تبعنا من يهود ، فان له النصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا
متناصرين عليهم •

(١) المفرج المثلث بالدين والكثرة العيال •

(٢) معناه الا يكون بين مؤمن وآخر ولاء ، فيجىء مؤمن ويأخذ الولاء
لأنه لحمه كلحمة النسب •

(٣) الوسيعة العظيمة •

وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، الا على سواء وعدل بينهم وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال وباءهم فى سبيل الله تعالى .

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وانه لا يجبر مشرك مالا ولا نكريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

وانه من اعتبط (١) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود الا أن يرضى ولى المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه .

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه ، وأن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وانكم مهما اختلفتم فيه فى شيء ، فان رده الى الله عز وجل ، والى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

هذا كله بالنسبة للمؤمنين ، وقد عاهدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على كل ما فيها ، أما ما جاء بالصحيفة خاصا باليهود فقد كان عهدا عاهدهم عليه ، وعلى طرفيه الوقاد به ، وقد جاء فى الصحيفة بهذا النص .

عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على اليهود

٣٤١ — ان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته .

وان ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الحارث،

(١) اعتبط معناها قتله من غير أى مبرر (يوقع يعنى يهلكه) .

مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، ، وان ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته •

وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم •

وان ليهود الشطبية مثل ما ليهود بنى عوف ، وان البر دون الاثم •

وان موالى ثعلبة كأنفسهم ، وان بطانة يهود كأنفسهم •

وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) ،
وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وان من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته الا من ظلم ، وان الله على أيد هذا (أى على الرضا به) •

وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم •

وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وانه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ،
وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين •

وان يثرب حرام صد لأهل هذه الصحيفة •

وان الجار كالنفس غير مضار وأثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها •

وانه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وان الله تعالى على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره •

وانه لا تجار قريش ، ولا من نصرها •

وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصلحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا مثل ذلك فانه مهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين •

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذين قبلهم •

وان يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الأثم لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وان الله تعالى على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم ، وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن الا من ظلم أو أثم ، وان الله جار لمن بر وأتقى ومحمد رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) .

نظرة فى هذه الوثيقة :

٣٤٢ — هذه وثيقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى نظم بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المجتمع الجديد لسكان المدينة المنورة لا فرق بين مهاجرين وأنصار ، ولا فرق بين مؤمنين ويهود ، ويلاحظ فيها :

(١) أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذى انشاء فى المدينة المنورة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ، ولذلك لم يبيح لطائفة من اليهود أن تخرج فى حرب الا بأذنه ، حتى لا تتورط فى أمر يضطرب أمر هذا المجتمع الذى أريد له أن يقوم على أساس التعاون فى جلب الخير ، ودفع الشر ، يتصادقون ويتوادون ولا يتعاونون على اثم أو عدوان .

(ب) انه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة ، فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم ، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة ، والا يكون لأحد عليهم سبيل فيها ، وأن عليهم حكم الله تعالى ، وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يحكم بينهم اذا وجد مصلحة ، ويبين هذا قوله تعالى فى شأنهم : « فان جاءوك فاحكم بينهم ، أو اعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين » .

وان هذا يدل على أنهم كانوا خاضعين فيما يتعلق بالنظام العام كحرمة الدماء ، والظلم ، ولكن شئونهم الخاصة لا يحكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيها بينهم الا اذا جاءوا اليه ، فله أن يحكم ، وله أن يعرض .

ولذا لا نستطيع أن نقول أنهم كالذميين تماما فى الأحكام ، ولكنهم من جهة كالذميين ، ومن جهة ثانية جيران ، يستمتعون بحقوقهم فى المعاملات الخاصة من غير اثم .

(ج) ان العهد كان أساسه التعاون بين العشائر بحيث تحمى كل عشيرة ضعيفها ، وتعطى الفضيلة بينها وتفك أسر أسيرها ، وتدفع ديات قتلها ، وذلك يشير الى حرمة كل شخص على أهله فى دائرة البر لا فى دائرة الاعتداء أو الانتقام .

(د) أنه مع التعاون بين العشيرة ، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا بل الجماعة فى عون المظلوم ، ولذلك عندما كان النص على القود أوجب على المؤمنين جميعا معاونة أولياء المقتول فى القصاص ، وتتعاون الجماعة كلها فى دفع أذى كل من يحدث حدثا أو اشتجارا ، أو ما يثير العداوة والبغضاء ، وأنه بهذا التعاون الفاضل تستقر الأمور على خير الجماعة ، وما يجلب لها النفع ، ويدفع عنها الضر ، وأنه لو نفذ هذا العهد بكل ما فيه لتكونت من المؤمنين وجيرانهم مدينة فاضلة .

وان الحلف يوجب أن يكون عدو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عدوا لليهود ، فلا يجار قرشى ، ولا من يناصر قريشا ، فعلى اليهود الا يوالوا المشركين ؛ لأنهم أعداء الله تعالى ، وأعداؤهم ، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة المنورة مسلمين ويهودا أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ، ومناصرتهم واحدة ، وذلك ليكون أمن الجميع واحدا ، فمن هاجم فريقا من أهل المدينة المنورة فقد هاجم المدينة كلها ، وذلك بلا ريب يلزم لليهود ، لأن الوثيقة أعطتهم حقوقا ، وأوجب عليهم واجبات ، فاذا أخلوا بما يجب عليهم ، فقد أسقطوا ما لهم من حقوق ، لأن الحقوق والواجبات متقابلة .

وما دام الولاء واحدا ، فانه لا يصح أن يتعاون اليهود وأعداء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على شئ دون ما نص عليه ، وقد وفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العهد .

فهل وفى اليهود !! ، ان الأمور التى تجرى كفيلة بالجواب ، مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجانبين ، وان أخل أحدهما ذهب الحقوق التى تضمنتها الوثيقة له ، واذا كان الإخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية ، وهى موالاة اليهود للمشركين على المؤمنين ، فانه فى هذه الحالة تزول صفة الجوار ، ويكون من الواجب على من ينكث أن يترك الجوار ، ويتخلى عن الإقامة فى المدينة ، وحل للطرف الآخر أن يخرج طوعا أو كرها ، فان لم يفعل كان يحل له أن يحمى ظهره ، ولو بقتله ، لأنه صار عدوا له ، وأصبح كالثعبان يكون فى بطانة الرجل ، فيجب أن يبعده ، ولو بقتله ، لأن الأمر اما سلم فيها الأمن ، واما حرب فيها الخوف .

الآذان

٣٤٣ — تكونت جماعة الاسلام ، ووضع صلى الله تعالى عليه وسلم نظم هذا الاجتماع ، وألف القلوب فيه ، بالاخاء بين المؤمنين . ووضع النظم للتأليف بين من يدخلون في الاسلام من بعد .

ثم كان عقد الوثيقة التي ألفت بين الجماعات في المدينة المنورة كما ألفت الاخاء بين الآحاد ، وبين الواجب على كل جماعة ثم عقد العهد مع اليهود على أن يكون لهم ما للمؤمنين في الشئون العامة ، ولهم شئونهم الخاصة ، يتحالمون فيها فيما بينهم ، وان احتكموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فله أن يحكم بينهم بما أنزل الله تعالى في القرآن الكريم .

وبعد هذا التأليف وذاك التكوين بين ما يربط جماعة المؤمنين قلبيا ، بعد أن سن ما ألف بين قلوبهم اجتماعيا ، وذلك بتنظيم الجماعات في الصلاة والتنبيه العام بمواقيتها ، والدعوة اليها ، لتؤدي جماعة في أوقاتها ، وذلك بالآذان ، فكان شرعه في هذا الابان .

يقول في ذلك ابن اسحاق : « فلما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واجتمع اليه اخوانه من المهاجرين ، واجتمع اليه أمر الأنصار ، استحکم أمر الاسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصوم وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوا الاسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والايمان . وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قدمها ، انما يجتمع الناس اليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل بوقا كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به للمسلمين » .

ويلحظ على هذا الكلام أمران :

أولهما : أن ما ذكره من قيام الصلاة وفرضية الزكاة والصوم ، واقامة الحدود وفرض الحلال والحرام انما كان في أوقات مختلفة من بعد ذلك ، وبعضها كان قبل الهجرة ، وهو فرض الصلاة ، فقد فرضت في الاسراء والمعراج ، كما هو مذكور في موضعه ، ولعل الذى جد في المدينة المنورة هو قيامها جماعة في أمن واطمئنان ، وعبارة ابن اسحاق قد توميء لذلك .

الأمر الثاني : أن كلام ابن اسحاق فيه أن خاطر البوق اليهودى خطر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك ناقوس النصارى .

ولكن روى ابن ماجه عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استشار الناس لما يهمهم من الصلاة ، فذكروا البوق ، فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس ، فكرهه من أجل النصارى .

وهذا الخبر يخالف ما قاله ابن اسحاق فى روايته من جهتين :

أولاهما : فى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى هم بالبوق ، والرسول فى الرواية الثانية قد استشار ، وكره عليه الصلاة والسلام ما أشاروا به .

الثانية : أن رواية ابن اسحاق فيها ما يفيد أنه أخذ فى تنفيذ فكرة الناقوس ، مع أن الرواية الأولى تقول أنه كرهه ، ونحن نرى أن هذه الرواية الأخيرة هى الأليق بمقام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى الأنسب ، فهى عندى أصح ، والله أعلم .

ويسترسل ابن اسحاق فى أمر الأذان ، فيقول : « فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه « النداء » فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : « انه طاف بى هذه الليلة طائف : مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ! قلت ندعو به الى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ! قلت : وما هو ؟ قال : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا اله الا الله أشهد أن لا اله الا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر . لا اله الا الله » . فلما أخبر بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال انها لرؤيا حق أن شاء الله . فقم على بلال فألقها عليه ، فانه أئدى صوتا منك ، فلما اذن بلال سميعها عمر بن الخطاب . وهو فى بيته . فخرج الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجر رداءه ، ويقول : « يا نبي الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فله الحمد على ذلك . »

هذا سياق ابن اسحاق فى هذا الاهتداء الى صيغة الأذان . وأن ذلك كان برؤيا رآها بنصه اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

وان هذا نتيجة لرواية الشورى التى استشار بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه .

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقر الرؤيا فكان الأذان على ذلك شرعا باقرار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك على ان اقرار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى شرع الأذان لا الرؤى والأحلام .

ولكن علق ابن هشام فى سيرته على رواية ابن اسحاق بأن الوحي قد نزل بالأذان ، وصيغته ، فقال : « ذكر ابن جريج قال : قال لى عطاء : سمعت عبيد الله بن عمير الليثى يقول : « ائتمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد ان يشتري خشبتين للناقوس اذ رأى فى المنام : « لا تجعلوا الناقوس ، بل اذنوا للصلاة ، فذهب عمر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الوحي بذلك ، فما راع عمر الا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين أخبره بذلك ، قد سبقك بذلك الوحي .

وان هذه الرواية تصرح بأن الوحي نزل على النبى عليه الصلاة والسلام وفيه تفصيل الأذان بأركانه وهى ليست رؤيا عبد الله بن ثعلبة بن ربيعة .

وانا نميل الى هذه الرواية ، وذلك ، لأن الأذان شعار من شعائر الاسلام ، وانه تعرف به الجماعات الاسلامية ، وما يكون كذلك من العبادات لا يكون من الأمور التى تكون بشورى الناس ، وقد تكون الشورى ابتداء لمعرفة طريق الاعلام ، فجاء الوحي بهذا الطريق الذى يعتبر سنة ، وما كانت السنة تعرف بطريق رؤى الآحاد ، انما تكون بوحي من الله تعالى ، وان الأذان لكل صلاة سنة مؤكدة ، وكثيرون من العلماء يقولون انه بالنسبة للجماعات فرض كفاية تأثم الجماعة كلها اذا تركته .

وان تفصيل الأذان وبيان اجزائه التى لا يمكن ان يجزى الأذان الا بها لا تكون الا بأمر من الله تعالى ، لأن الأذان عبادة ، ولا تعرف اجزاء العبادة الا بوحي من الله تعالى لنبيه ، لا برؤيا لغيره مهما تكن مكانته فى الاسلام .

الاذن بالقتال

٣٤٤ — بعد أن استقر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اتجاهه الى تعميم الدعوة وحماية الضعفاء من المؤمنين الذين كانوا يفتنون في دينهم ، ويؤذون في اعتقادهم ، وكان لابد أن يكون ذلك بقتال المشركين الذين يؤذون المؤمنين ، ولابد من استنقاذ البيت الحرام من عبادة الأوثان ، وأن تحطم الأوثان التي تحيط به .

ولذلك شرع الله تعالى القتال ، فقال تعالى في كتابه المبين : ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور ، اذن للمؤمنين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » .

كان الاذن بالقتال ، وفتح باب الجهاد ، وفي هذا النص الكريم بيان الباعث عليه ، والنتيجة التي ينتهي اليها ، وانها خير ، ووسائل الخير تكون خيرا ولو كانت أمرا كريها ، مادام قد تعين ما هو الطريق ، وانه اذا تعين كان خيرا ، ولذلك قال تعالى : « كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تکرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » .

والآية التي كان فيها الاذن بالقتال فيها اشارات بيانية تليق بالقرآن الكريم ابلغ كلام في هذا الوجود الانساني .

أولها : أن فيها الاذن بالقتال ، ولكنه لم يصرح بها ، اذ انه صرح بأشد ما يبعث عليه ، وهو أن القتال من جانب الأعداء قد وقع فعلا ، لأنه سبحانه وتعالى عبر بقوله « يقاتلون » بالبناء للمجهول ، أي أن المشركين قاتلوا المؤمنين فعلا ، فقد أذوهم وحاولوا أن يفتنهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل كما قال الله تعالى ، وحاولوا قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحاولوا أن يقتلوا المباعين في بيعة العقبة الثانية ، فكان التعبير بالبناء للمفعول دليلا على أن قتال المؤمنين في مقابل أنهم ابتدعوا ، وهو دفع للأذى ، وللفساد في الأرض ، كما قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

الإشارة البيانية الثانية أن الله تعالى صرح بأن القتال دفع للظلم أو منع لاستمراره .

الثالثة : أن أهل الإيمان هم أهل الحق ، فإن قاتلوا فهو دفاع عنه ، وعن التوحيد ، والإيمان به ، فهو قتال يحمل في باعته ، وفي ذاته ، الدعوة إلى الله تعالى .

الرابعة : أن القتال الذي يكون جهادا في سبيله هو دفع الباطل ، والا كان الفساد في الأرض ، وألا يعبد الله تعالى فتهدم بيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . فالقتال نصره لله تعالى ، وحماية للحق ، « ولينصرن الله من ينصره » ، إن الله لقوى عزيز » .

الخامسة : أن القتال فيه تمكين للحقائق الإسلامية ، فنتيجة القتال تمكين للذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، فالقتال من نتيجته أنه يمكن أهل الحق من الدعوة إليه بالقول وبالعمل ، وبذلك تقوم شريعة الله سبحانه .

وفي هذا إشارة إلى أن غاية القتال بعد دفع الاعتداء ومنع الظلم ، هو التمكين للدعوة الإسلامية ، وأن يدخل الناس في دين الله تعالى مختارين من غير فتنة ، ومن غير أرهاق لهم في عقائدهم .

وبذلك نأخذ من الآية الكريمة أن الباعث على الجهاد في الإسلام أمران :

أولهما : دفع الظلم ومنع الفتنة — كما قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . وأن الاعتداء يرد بمثله ، فمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي جاء بالحق لا يدفع أرادة الأذى بالسكوت عليه واستمراره ، بل يدفع الاعتداء بمثله ، كما قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

الأمر الثاني : هو التمكين للدعوة الإسلامية ، بأن تزال المحاذرات التي يقيمها الملوك والحكام الظالمون بين دعوة الإسلام ، والاستجابة لدين الحق أو أن يعوقوه ، وليس معنى ذلك حمل الشعوب على الدخول في الإسلام كرها بقوة السيف ، بل أن مؤداه أن يعرفوا الإسلام ، ويتمكنوا من تلقى الدعوة الإسلامية ، فإذا عرفوها فقد تبين الرشد من الغي ، والحق من الباطل ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ولذلك قال تعالى : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

أول القتال

٣٤٥ — أخرج المشركون من قريش المؤمنين من مكة المكرمة ، وجردوهم من أموالهم ، وفتنهم في دينهم ، فكان لا بد من أن يضايقوهم كما ضايقوا المؤمنين ويردوهم عن غيهم ، ويعلموهم أن الباطل لا يبقاء له ، بل أن للحق قوة ، وأنه أبلج ، ابتداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بإرسال السرايا ، وهي طوائف صغيرة من الجيش على رأسها قائد من القواد ، فهي تشبه كتيبة يرسلها القائد الأكبر ، لتحارب ، أو لتمنع الطريق عن قوم من الأعداء ، أو كسرية الجيوش في هذه الأيام ، وقد فهم بعض الكتاب من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتداءً بالسرايا تصادر غير قريش ، أو طائفة من تجار المشركين ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتداءً بالحصار الاقتصادي ، ونحن نفهم من الحصار الاقتصادي الحصار الذي يفرض على موارد الجماعة كلها من رزق ، أي أن الحصار يفرض على قريش كلها .

ونحسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يريد أن تصاب قريش كلها بمجاعة ، فما كانت قريش كلها على طريقة أبي جهل وأبي سفيان ومن على شاكلتهما من الذين ناووا الدعوة ابتداءً ، واستمروا على غيهم إلى أن كان الفتح المبين ، وكان منهم الساكتون الذين لم يعادوا ، ولم يناوئوا ، وإن لم يؤمنوا ، وليس من شأن المبادئ الإسلامية أن يؤخذ المطيع بظلم المعاص أو المعتزل بظلم الذي يرتكب الشر ، وفي قريش من كان مكرهاً غير مختار ومظلوماً مأسوراً ، ومنهم من كان يربطه بالمؤمنين مودة وصلة ، بل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

والحصار الاقتصادي يعم ولا يخص ؛ إذ يعم من بلغوا أقصى غايات الشر ، ومن سكتوا ، ومن توادوا ، « ولا تزر وازرة زر أخرى » .

ولكن هذه السرايا كانت لمناهضة زعماء قريش ، إذ كانوا أصحاب المتاجر التي تحملها العير وقتاً لآخر ، ولأن أولئك الزعماء ، أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، فكان حقاً على هؤلاء أن يضايقوا من الذين أخرجوهم من أموالهم معاملة بالمثل ، وليأخذوا مقابلاً لبعض ما أخذ منهم ، وليذيقوا أولئك الزعماء ويال ما صنعوا .

أول السرايا

سرية حمزة رضى الله عنه :

٣٤٦ — فى السنة الأولى من الهجرة ، ابتدأت السرايا ، وهى عدد ليس بكثيف من المجاهدين يعترضون رجالا من قريش يتجهون الى الشام بأموال لهم ، ليمنعوهم من الذهاب الى الشام ، ويستولوا على ما معهم من المال أو يقاتلوهم .

ويلاحظ أن هذه السرايا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يختار رجالها من قريش ، وليس معهم من الأنصار أحد ، وأول سرية كان قد عقدها صلى الله تعالى عليه وسلم لحمزة بن عبد المطلب ، وخرج حمزة فى رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة على سيف البحر ، وكانت عدة هذه السرية ثلاثين رجلا من المهاجرين وكذلك كانت سرايا هذه السنة ، وكان لواؤها أبيض ، وقد اعترضوا طريقا لغير لقريش ، وكانت لكبرائهم ، وكانت عدة من تعرض لهم حمزة ثلاثمائة ، على رأسهم عمرو بن هشام (أبو جهل) .

تقابل الفريقان المؤمنون بقيادة أسد الاسلام حمزة والثانية بقيادة لثيم قريش وخبيثها أبى جهل ، ولكن تحاجز الفريقان عن القتال ، وذلك لتوسط رجل من العرب كان موادعا الفريقين اسمه ابن عمرو الجهنى ولذلك لم يحدث قتال .

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب :

٣٤٧ — وفى شوال من هذه السنة عقد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعبيدة بن الحارث لواء أبيض ، وأمره بالسير الى بطن رابغ ، فى ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصارى .

التقت هذه السرية بمشركى قريش وكانت عدتهم مائتين ، عليهم أبوسفيان صخر بن حرب .

وقد كان اللقاء عند ماء يقال له الاخياء حيث كان المشركون ، والمؤمنون قد بلغوا ثنية المرة ولم يكن بينهم قتال ، ولكن كان بينهم رمى بالسهام .

ولقد رمى سعد بن أبي وقاص الذى كان فى هذه السرية وان لم يكن قائدها فقد رمى بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الاسلام .

هذا هو الترتيب الذى ذكره الواقدي فى ترتيب السرايا ، فذكر أن سرية حمزة كانت أولا ، وأنها كانت أول سرية ، وتليها سرية عبيدة بن الحارث .

ولكن ابن اسحاق يذكر أن أول راية السرية كانت سرية عبيدة ابن الحارث ، لا سرية حمزة ، ويقول فى ذلك : (وبعض الناس يقول راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من المسلمين ، ذلك أن بعثة حمزة وبعثة عبيدة كانا معا فشبه ذلك على الناس) .

هذا ما ذكره ابن اسحاق ، ولكن الواقدي لا يذكر أنهما كانا معا ، بل يذكر أن واحدة كانت فى الشهر السابع بعد الهجرة ، وهى سرية حمزة ، والثانية كانت فى الشهر الثامن بعدها وهى بعثة عبيدة .

وهناك اختلاف آخر بين رواية الواقدي ورواية ابن اسحق ، فالواقدي يقول أن حمزة التقى بأبى جهل ، وابن اسحق يقول ، أنه التقى بعكرمة ابن أبى جهل .

وابن كثير يظهر من لحن قوله أنه يرى رواية الواقدي أثبت على ما سنبين ان شاء الله تعالى .

سرية سعد بن أبى وقاص :

٣٤٨ — وفى ذى القعدة من سنة الهجرة أتى على رأس عشرة شهور من الهجرة أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سعد بن أبى وقاص فى سرية ؛ لأنه علم عليه الصلاة والسلام أن عيرا لقريش ستمر بها ، فأرسل سعدا فى عشرين من المهاجرين ساروا الى مكان اسمه الخزار ، وقد عينه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يتجاوزوه ، ويقول سعد رضى الله تعالى عنه : « خرجت فى عشرين رجلا على أقدامنا ، فكنا نكنم النهار ونسير الليل حتى صبحنا الخزار صبح خامسة ، وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد عهد الى ألا أجاوز الخزار وكانت العير قد سبقتنا قبل ذلك اليوم » وعلى ذلك لم يلق سعد أحدا من قريش ، ولم يأمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمتابعتهم ؛ لأنه يظهر أنه عليه الصلاة والسلام كان يريد مباغتتهم فى الطريق ، والمفاجأة تفزع العدو فينال منه ، والملاحقة لا تكون

ففيها هذه المفاجأة ، ولأنهم كانوا راجلين ، فلا يوغلون في الصحراء حيث لا مركب لهم .

والواقدي يذكر في روايته أن سرية سعد كانت عدتها عشرين أو إحدى وعشرين ، كما نقل عن سعد رضى الله عنه ، ولكن ابن اسحاق يقول انه خرج ومعه ستمائة من المهاجرين .

ولعل رواية الواقدي أوضح وأقرب الى المعقول ، لأنه ثبت أن العير كان بها نحو ستين رجلا ويناسبهم عشرون وانهم راجلون .

٣٤٩ — والسرايا الثلاث على كلام الواقدي كانت في السنة الأولى ، وقد حد موافقتها ، فالأولى كانت في رمضان ، والثانية كانت في شوال ، والثالثة كانت في ذى القعدة .

ولكن قال أبو جعفر بن جرير رضى الله عنه في تاريخه ، وعند ابن اسحاق أن هذه السرايا الثلاث كانت في السنة الثانية من الهجرة .

ونلاحظ أن ابن اسحاق يعين أن كان في السنة الثانية أم كان في الأولى ، ولكن قد يفهم ذلك لأنه ذكرها بعد غزوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أولى غزواته ، وكانت في ودان ، وهي كانت في صفر من السنة الثانية ، وقد صرح بذلك ابن اسحاق ، وذكر بعدها الغزوات الثلاث ، وإذا كانت الأحداث ترتب في الذكر بترتيب زمنها ، فانه تكون هذه السرايا في السنة الثانية ، ولكن نلاحظ أن ابن اسحاق في سيرته يتكلم في بعض الوقائع في غير وقت وقوعها . لمناسبة اقتضت ذكرها في غير أوانها .

وعلى فرض أن ابن اسحاق يعد هذه السرايا في السنة الثانية ، فان الحافظ ابن كثير رجح ما قاله الواقدي ، ويقول : الواقدي رحمه الله عنده زيادات حسنة ، وتاريخ محرر غالبا ، فانه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق في نفسه ، كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا المرسوم بالتكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهل ، والله الحمد والمنة .

٣٥٠ — وهناك ملاحظة أخرى غير ملاحظة الزمن ، والروايات فيه ، وهي تتعلق بقريش ، ومقدار استمساكها في اعتقادها .

ذلك أن الذين كانوا يخرجون لحماية غيرهم كان منهم من هو مؤمن ، ولكن يكتم إيمانه ، وكانوا يخرجون في متاجر قریش عساهم يجدون سبيلا لأن

يلحقوا بالمؤمنين اذا كانت الهجرة قد فاتتهم عند خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانها لن تفوتهم من بعد ، فانه قد حدث عند التقاء سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بعير قریش ، التي انصرف الفريقان فيها ، ولم يتقاتلا فر من القرشيين الى المسلمين ابن عمرو البهراني حليف بنى زهرة ، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، وكانا مسلمين ولكنهما توصلا بالكفار الى المسلمين ، فوصلا الى المسلمين بطريق المشركين ليهنا الايذاء والشر .

خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للجهاد

٣٥١ — اذن للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال ، كما تلونا في الآية الصريحة بالاذن وهي قوله تعالى « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » الى آخر هذه الآيات التي تلوناها من قبل .

عندئذ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة ، وأخذ يرسل السرايا سرية بعد سرية ، ثم كانت الغزوات ، ونرى في اصطلاح مؤرخي السيرة أنهم يطلقون السرية على كل بعث يبعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعدد من المؤمنين قل أو كثر ، (وفي الغالب لا يكون كثيرا) الى لقاء المشركين ، ولم يخرج عليه الصلاة والسلام مع ذلك الجيش ، أما الغزوة فانه صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج فيها مجاهدا بنفسه ، سواء اقاتل بالفعل أم لم يقاتل .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتداء الجهاد بالسرايا الثلاث التي بعثها في رمضان وشوال وذى القعدة ، وهي سرية حمزة بن عبد المطلب ، وسرية عبيدة بن الحارث ، وسرية سعد بن ابى وقاص .

ثم ابتدأت الغزوات في السنة الثانية .

وقد اختلف المؤرخون في عدد غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما كان اختلافهم في أصل الوقائع أو عددها ، انما كان سبب الاختلاف هو اختلافهم في خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الجيش أو عدم خروجه أيعد غزوة أو سرية .

وعند التحقيق نجدهم متفقين على العدد ، واختلفوا قليلا في وصف

الخروج ، وكلمة مغازى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامة تشتمل على الغزوات والسرائيا •

وعدتهم كما روى الامام أحمد فى مسنده ثلاث وأربعون ، فقد روى عن قتادة أن مغازى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث وأربعون ، أربع وعشرون بعثا ، وتسع عشرة غزوة ، خرج فى ثمان منها بنفسه ، بدر وأحد والأحزاب ، والمريسيع ، وخيبر ، وفتح مكة المكرمة ، وحنين •

وروى عن الزهرى فى هذه الغزوات الثمانى أنه قال : هذه مغازى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل فيها يوم بدر فى رمضان سنة ثنتين ، ثم قاتل يوم أحد فى شوال سنة ثلاث ، ثم قاتل أحد فى شوال سنة ثلاث ، ثم قاتل بنى المصطلق وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس ، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست ، ثم قاتل يوم الفتح فى رمضان سنة ثمان ، ثم قاتل يوم حنين ، وحاصر أهل الطائف فى شوال سنة ثمان ، ثم حج أبو بكر سنة تسع ، ثم حج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع سنة عشر •

ومن هذا السياق التاريخى يتبين أن الغزوات تسع عشرة ، والبعوث أربع وعشرون ، وأن الغزوات منها ما كان فيه قتال بين المؤمنين والمشركين ، ومنها ما لم يكن فيه قتال ، أو جاء شبه الانهزام لخطأ كان من المقاتلين ، وقد يكون انتصار للمؤمنين بغير قتال ، بل كان برعب وريح ، كما كان فى الخندق فانه لا يعد فيها قتال ، ولو كانت الهزيمة للمشركين ، وانما كان القتل والقتال فى بنى قريظة ، وقد كانت هناك غزوات لا قتال فيها ، وأول غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن فيها قتال ، ومنها الايواء والعشيرة ، وغطفان وبدر الأولى ، ومن أعظم الغزوات التى لم يقاتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحديبية فقد كانت فتحا لابتداء سلام بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش ، ولذلك قال الله تعالى فيها : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » •

الحرب الفاضلة أو حرب النبوة

٣٥٢ — لم يكن فى السرايا التى بعث بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قتال ، بل كانت نتيجهتها سلما ، وما كان الفريقان يلتقيان الا ليفترقا فى سلام ، وان لم يكن ذلك دائما ، الا ما كان من رمية رماها سعد بن أبى وقاص

فى سرية عبيدة بن الحارث • ومع أنه لم يكن فى هذه السرايا قتل ولاقتال كانت ذات فائدة ، لأنها أعلمت قريشا أن الاسلام صارت له قوة ، فاما أن يسارعوا اليه • ولا يكونوا آخر الناس ، واما أن يسارع القصاص ، والرد على ما سبقوا به من الاعتداء • أو من جهة أخرى يشعرون بأن قوة الاسلام ستقذ المؤمنين الذين لايزالون يفتنونهم عن دينهم الذى ارتضوه والفتنة أشد من القتل • كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم • ومن جهة ثالثة يحسون بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سيضايقهم بالحق • كما ضايقه بباطلهم •

وكما يضايقون اصحابه من المستضعفين فى ديارهم ، وذلك بمصادرة أموالهم كفاء لما أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم •

فكانت هذه السرايا الأولى فى السنة الأولى من الهجرة اشعارا لهم بأن الاسلام قد أمده الله تعالى بالقوة ، ليرهبوه ماداموا لم يسالموه ، بل انهم لم يرغبوه •

وكانت كذلك غزوات النبی صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى فى الايواء والعشيرة ، وغطفان ، وبدر الأولى ، فقد كانت خالية من القتل والقتال ، بل كانت لهذا الاشعار •

حتى اذا شعرت قريش بهذه القوة المؤمنة ، وكونوا جيشا كثيفا ، وساروا به ولم يسبق عيرا ، وبدأ أنهم يرومون الحرب ، اذ استعدوا لها ، وأرادوا الاعتداء بها ، كان القتال ، لانهم كانوا المهاجمين ، وما كان محمد عليه الصلاة والسلام لينظر حتى يغزو المدينة المنورة بجيشهم ، بل لابد أن يلقاهم ، لأنه ما غزى قوم فى عقر دارهم الا نلوا ، كما قال بطل الجهاد على كرم الله وجهه الذى رياه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمه الحكمة وفصل الخطاب •

ولكن قد يسأل سائل لماذا كان النبی صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا • ونقول فى الجواب عن ذلك انه لم يكن بدعا من الرسل فى ذلك ، لأن موسى وهو من أولى العزم من الرسل حارب ، ودعا بنى اسرائيل الى الايمان ، ولكنهم ارتدوا على اديارهم فانقلبوا خاسرين ، وقالوا وحال الذلة والجبن تدفعهم « اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » •

والمذكور فى التوراة التى بأيديهم أن موسى عليه السلام حارب ملوكا ، واخترق بجيشه ديارهم • ودأود عليه السلام حارب وقاتل • وكذلك ابنه سليمان •

وإذا كان عيسى عليه السلام لم يقاتل ، فلأنه ما شرع له القتال ، وكأنه كان تمهيدا للبعث المسمى إذ أن بينهما مدة ليست كبيرة ، تبلغ نحو ستمائة سنة أو تزيد .

وان رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كانت للناس كافة ، للأحمر والأسود والأبيض ، فكانت لا بد أن تجتاز الأقطار ، وتصل الدعوة قوية الى الامصار ، وان ذلك لا يكون الا بالاستعداد للقتال ، إذ ان العالم كان محكوما بالملوك الغاشمين ، والرؤساء الظالمين .

وان شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاءت بمبادئ هي ضد الحاكم ، وقد قاتلوه عليها ، فكان لا بد أن تكون قوة مانعة من الظلم دافعة بالحق ، فكان لا بد من الحرب أو الاستعداد لها .

وان الناس لا يستقيم امرهم اذا لم تكن للمبادئ العادلة قوة تحميها بالحق من غير اعتداء ، وفضيلة الاسلام ليست فضيلة خائفة ضعيفة مستسلمة ، ولكنها فضيلة قوية دافعة للشر ، حاملة على الخير ، فليس فيه من ضربه على خذك الأيمن فأدر له الأيسر ، وانما فيه . « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

وفيه العفو والصبر ، إذ يقول سبحانه وتعالى « فاعفوا واصفحوا » والعفو لا يكون الا بعد أن يكون الامر للاسلام فلا عفو الا عن مقدرة ، ويكون عزا ولا يكون استسلاما ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (ما زاد عبد بعفو الا عزا) وأمر سبحانه وتعالى بالصبر ، فقال سبحانه « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » وان الصبر يوجب ألا يندفع الجيش الى القتال ، بل يصابر ، عسى أن يكون الصلح ، وألا تخرج السيوف من أغمادها ، كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يوصي جيوشه بذلك .

وان المصفح الجميل عمن آذوا أهل الايمان يحتاج الى صبر وقوة نفس ، فليس الصبر فقط في لقاء الأعداء ، انما يكون في ذلك ، وفي عظم النفس عن شهوة الانتقام .

وان حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما سنرى حرب فاضلة فيها الرفق وفيها الفضيلة ، وان اشتجرت السيوف ، وتلاقى الناس بالختوف فهي تعلم الناس كيف تكون الفضيلة ، والسيوف تقطر دما ، وكيف تكون الرحمة في الحرب ، وهي في أصلها أمر مكروه في ذاته ، فاذا دخلتها

الرحمة ، فانها تكون كالنسيم العليل فى الحر اللافح ، وكالظل فى الحرور ، وقبل أن نتكلم فى غزوات النبی صلى الله تعالى عليه وسلم نتكلم فى بيان الفضيلة فيها ، وانا نأخذ ذلك من أوامر القرآن الكريم للمجاهدين وعمل النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فى سيرها وفى انتهائها ، وفى وصاياه عليه الصلاة والسلام لجيوشه • وقد كان أصحابه من بعده يتبعونها ويحكمونها غير منحرفين عنها •

الفضيلة فى الحرب

٣٥٣ — ان الرحمة من الفضائل الانسانية العالية ، ورحمة الاسلام ليست انفعالا نفسيا وقتيا ، ولا شفقة أو رأفة شخصية تكون على الفاضل والآثم ، والبر والفاجر ، بل ان رحمة الاسلام هى الرحمة بالعامه وقد تكون الحرب رحمة بالعامه ، بل انها يجب أن تكون كذلك ما دامت حربا فاضلة ، كما تلونا من قبل قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » • فالشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه ليست من الرحمة فى شيء ، لأنها تخفى فى ثناياها قسوة على المظلوم ، ولذلك قال النبی صلى الله تعالى عليه وسلم : « من لا يرحم لا يرحم » •

فالحرب الاسلامية شرعتها الرحمة ، وأظلتها الرحمة ، وأنهتها الرحمة . وإذا كان من الرحمة بجسم الانسان أن تقطع بعض الأجزاء المؤفة ، حتى لا يفسد الجسم ، فان من الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد ، لأنها تؤف الجماعة ، وأن يرد الاعتداء بقطع عناصره لسلامة الناس ، وأن يعيشوا آمنين ، وكلمة الحق تسرى بينهم ولا محاجزات تحول دون النطق بها •

١ ولنتكلم فى حرب النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، معتمدين على كتاب الله تعالى ، وعلى السنة النبوية •

فالباعث عليها ، كما نص القرآن الكريم رد الاعتداء على المسلمين ، فقد قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » وبين سبحانه أنه يعامل المعتدين بمثل اعتدائهم ، قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » وذلك بعد قوله تعالى • « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » •

ونجد من هذه النصوص أن ابتداء الاعتداء كان من المشركين ، وأنه كان لاعتداء المشركين على الحرية الدينية وفتنة المؤمنين فى عقائدهم ليحملوهم على تركها • واننا اذا أمرنا برد الاعتداء بمثله ، طلب منا مع ذلك طلبان حليان آخران وهما النهى عن الاعتداء ، فنهينا عن الاعتداء ، والاعتداء بأن نقاتل من لم يبدانا بالقتال ، ولم يمنع الدعوة الاسلامية من السير فى طريقها ، والطلب الثانى أمرنا بالتقوى ، وهو التزام الفضيلة ، فان كانوا يعتدون على الاعراض لا نحاربهم ، وان كانوا يمثلون بالقتلى لا نمثل بقتلهم كما سنبين ان شاء الله تعالى •

لقد علمنا مما قصصنا من السيرة الطاهرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكث يدعو الى الاسلام ثلاث عشرة سنة توالى فيها الأذى على المؤمنين ، وخصوصا ضعفاءهم ، ولم يسلم من أذاهم الا من يكون ذا بطش يخشى بطشه كعمر بن الخطاب وحمره بن عبد المطلب ، ومع ذلك لم يسلموا من الأذى تماما ، بل كانت سلامتهم نسبية •

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسلم من أذاهم ، حتى رموا عليه وهو ساجد فرث جزور ، وحتى لقد هموا بقتله عليه الصلاة والسلام ، ليلة الهجرة ، وقد هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهاجر من كان عنده قدرة على الهجرة •

ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم الذى ارتضوا ، والمشركون سادرون فى غيهم • وترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ضعفاء ، لا قدرة عندهم على الهجرة ، وهم يعذبون أشد العذاب ، فهل من مقتضى الرحمة أن يترك هؤلاء يعذبون ، ويلقى بهم فى المحابس ، انه لا بد من أن يذوق الذين يؤذونهم وبال أمرهم •

وننتهى من هذا ومن النصوص السابقة الى أن الباعث على الحرب دفع الاعتداء ، ومنع الأذى المستمر ، وعقوبة الظالمين ، وتأمين الدعوة الاسلامية حتى لا تكون فتنة فى الدين ، ويتبع الناس الدليل ، ولم يتبعوا الحكام الذين يرهقونهم ويسومونهم الخسف والهوان •

هذا هو أمر القتال فى شبه الجزيرة العربية ، الذى ابتدأ فى قريش • ثم عمم أجزاءها عندما اجتمعت القبائل على حربه فى غزوة الأحزاب ، أو غزوة الخندق ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من قصبته فى المدينة الظاهرة ، فنزل قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » •

أما بالنسبة لغير من كانوا فى الجزيرة العربية ، فقد أرسل الى الملوك
والرؤساء الكتب على أيدي رسل من حكماء أصحابه ، أرسل الى هرقل ، الى
عظيم مصر ، والى كسرى وغيرهم من الملوك • وبعض أمراء البلاد النائية
من البلاد العربية •

ولكن لم يجب الى الاسلام من غير العرب أحد ، ومنهم من أساء الرد ،
ومنهم من أحسن فى الاجابة ، ولكن لم يحب داعى الله تعالى الى الاسلام ،
ومنهم من لم يرد بالقول ، ورد بالعمل ، وأعلن برده العداء كالمشركين فكسرى
هم بأن يرسل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يقتله ، وهرقل قتل
واليه على الشام من أسلم من أهل الشام • ولذلك اتجه النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم الى الشام ، فكانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة تبوك ، ثم وصيته بانفاذ
جيش أسامة بن زيد الى الشام •

وبهذا نرى أن الباعث لحرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو دفع
الاذى ، وتمكين الدعوة ، ولم يكن ثمة اكراه على الدين ، لأن الله تعالى يقول :
« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ولم يثبت أن النبى صلى الله
تعالى عليه وسلم أكره أحدا على الدين ، بل ثبت أنه أراد بعض الأنصار أن
يكره ولده على الاسلام ، فنهاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك •

قبل المعركة :

٣٥٤ — وكانت تتجلى الفضيلة فى حرب النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم عندما أخذ يرسل الجيوش الى الجهات النائية ، فقد كان عليه الصلاة
والسلام يأمر جيشه بالتأنى قبل أن يتقدم للقتال ، وكان يدعو المؤمنين الى
الآيتمنوا القتال ، لأنه امتحان القلوب وهدم الأجسام ، فكان عليه الصلاة
والسلام يقول (لا تتمنوا لقاء العدو ، واذا لقيتموهم فاصبروا) •

واذ تعين القتال خيرهم بين الاسلام ، أو أن يعاهدوه ، ليأمن الاعتداء
من جانبهم ، وذلك ما يشبه فى العصر الحاضر ميثاق عدم الاعتداء ، أو أن
يكون القتال ، وأنهم اذا قبلوا العهد أمن جانبهم ، وأمن أن تسير الدعوة
فى طريقها ، وأن يخلو له وجه الناس ، ويقنعهم بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ،
ومن أساء فعليها •

واننا اذ نتجه الى ذلك الوادى المقدس يسترعى انتباهنا دعاء النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم عند القتال الذى يدل على شعوره صلى الله تعالى

عليه وسلم بوحدة الانسانية ووحدة الخالق ، فهو يقول فى دعائه عليه الصلاة والسلام (اللهم انا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم) ، وما كان ذلك الجزء الاخير الا لأنهم معتدون على الحق ، وعلى الحرية الدينية بقتلتهم الناس عن دينهم ، وجحود بالحق . ولقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة ، فهو يقول لمعاذ بن جبل وقد أرسله الى اليمن قائدا .

« لا تقتلوهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقتلوهم ، حتى يبدؤكم ، فان بدؤكم ، فلا تقتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدى الله على يدك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت . »

ونجد من هذه الوصية أن نية السلم قائمة والجيشان قد تلاقيا ، فالقائد المسلم لا يقاتلهم الا بعد أن يدعوهم الى العهد الذى يكون فيه تأمين حصرية الدعوة ، ثم هو لا يبدأ القتال ، بل يتركهم يبدؤون القتال ، وحتى بعد هذا البدء لا يقاتلهم حتى يقتلوا فعلا ثم يبين لهم العبرة فى ذلك الدم الذى أراقوه ظلما وعدوانا ، فان لم يعتبروا لم يبق الا السيف ليحكم بأمر الله بينه وبينهم والله خير الفاصلين .

فى المعركة :

٣٥٥ — والرفق ملازم المعركة ذاتها ، كما كان فى ابتدائها ، ذلك أنها حرب نبوة ، وليست مغالبة ولا تناحرا ، ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى وصف دعوته وحربه : (أنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة) ، وفى الحق أن الرحمة والملحمة متلاقيتان ، فما كانت الملحمة الا لأجل الرحمة ، إذ الرحمة الحقيقية فى هذا العالم هى فى قطع الفساد ومنع الشر ، وإذا كانت الملحمة فقد تعينت سبيلا للرحمة .

وانه كان يصاحب حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند ابتداء المعركة العمل على تأليف القلوب حتى وقد اشتجرت السيوف ، ولذلك يوصى عليه الصلاة والسلام جنده وقد أرسلهم للقتال بقوله : « تألفوا الناس وتأمنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر أو وبر أن تأتونى بهم مسلمين أحب الى من أن تأتونى بأبنائهم ونساءهم وتقتلوا رجالهم . »

هى حرب رفيقة تتسم بالتأليف ، لا بالتقتيل ، وبالحفاظة على الأنفس

والرجال الا أن تكون ضرورة ملجئة . فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى بالأى يقوم الجيش بأتلاف زرع أو قطع شجر أو قتل الضعاف من الذرية والنساء ، والرجال الذين ليس لهم رأى فى الحرب ، ولم يشتركوا فيه بأى نوع ، ومن ذلك قوله فى احدى وصاياه :

« انطلقوا باسم الله وعلى بركة الله لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ، ولا امرأة . ولا تغلوا ، وضءوا غنائمكم . وأصلحوا وأحسنوا ان الله تعالى يحب المحسنين » .

وفى معنى هذه الوصية وصية أخرى ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام « سبىروا باسم الله فى سبيل الله تعالى ، وقتلوا أعداء الله ولا تغلوا (تخونوا) ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد : « لا تقتل ذرية ولا عسيفا » (أى عاملا) .

وبهذه الوصايا يتبين أن الحرب النبوية الفاضلة لا يصح أن تكون أتالفا وأفسادا ، وتحللا من القيود الانسانية ، وأذلك لا يباح فى القتال كل شئ . ولا يفعل ما يفعله القواد فى هذه الأيام من اهلاك الحرث ، والنسل ، وأفساد الزرع والقاء السم فيه . ليتسمم الأحياء .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شدد فى منع قتل الأطفال والشيوخ الذين لا يحاربون وليس لهم رأى فى الحرب ، والنساء ، لأن القتال الذى كان من المسلمين انما كان لدفع الاعتداء والقصاص من المعتدين ماداموا مستمرين أو على نية الاعتداء ، وأولئك ما كانوا يقاتلون ولا يعتدون ، وليس فى طاقتهم أن يقفوا محاربين الدعوة الاسلامية أن تسير فى طريقها .

وقد مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على القتلى فرأى امرأة مقتولة، فقال عليه الصلاة والسلام ما كانت هذه لتقاتل ، وأرسل الى خالد ابن الوليد يأمره بالأى يقتل عسيفا ولا ذرية .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يغضب اذا بلغه أن جنده قتلوا صبيانا ، ولقد بلغه أن بعض الأطفال قتلهم جند المسلمين ، فوقف عليه الصلاة والسلام يقول لجنده : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية . . ألا لا تقتلوا الذرية » .

وكان عليه الصلاة والسلام يمنع قتل العمال ، وكرر منع قتل العسقاء وهم العمال الذين يستأجرون للعمل ، لأن حربه عليه الصلاة والسلام لم تكن لقتل الأقوياء القادرين ، انما كانت لمنع اعتداء الذين يحملون السلاح ، أو يدبرون الاعتداء ، والعمال ليسوا كذلك ، اذا لم يكن عملهم لتهينة أسباب القتال .

وكان عليه الصلاة والسلام ينهى عن التخريب ، فكان يمنع قطع الشجر لأنه لا ضرورة توجب قطعه الا أن يتخذ العدو مستترا له ، ليجعل منه كميناً ، يكمن فيه لجيش المسلمين ، فما كانت حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تسمح بالتخريب .

الفضيلة :

٣٥٦ — ليست حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كحرب الأندال للوأماء الذين يضعون السيف فى موضع البرء وموضع السقم ، انما هى حرب الخلق القوى الذى لا يضع السيف الا حيث يكمن الداء ، ويستقر ، ليقتل الشر من مكمته ، فلا يقتل الا من اعتدى وحمل السيف ، أو دبر الأمر لمن يحمله .

ولذلك كانت الفضيلة هى المسيطرة فى كل أدوارها فى ابتدائها وسيورها وانتهائها ، وانها ان كانت لرد الاعتداء بمثله ، فهى مقيدة بالفضيلة لما ذكرنا من أن الله تعالى أمرنا بالتقوى عند رد الاعتداء ، فالمعاملة بالمثل مع التقيد بالتقوى توجب على جيش الايمان ألا ينتهك حرمة الفضيلة لأجل المعاملة بالمثل ، فاذا تعارضت الفضيلة مع المعاملة بالمثل كان الواجب مراعاة الفضيلة لأنها المبدأ الذى لا يقبل التخلف كيفما كانت الحال .

وقد يعجب بعض الناس من الفضيلة تحكم فى وسط السيوف ، وحيث تستباح النفوس ، فانها حيث استبيحت لا يبقى شيء يحترم ، ولكننا نقول انها حرب النبوة المقيدة بقانون السماء ، قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليعلمها للناس ، فانه مادامت الحرب فى نظام الوجود الانسانى ، فانه لا بد من أن تقيد بالفضيلة ، وأن يتولى تعليمها خاتم النبيين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو آخر صرح فى نبوة السماء ، وأن حرب النبوة هى حرب الفضيلة التى تدفع الرذيلة دفعا ، وليس من المعقول أن يكون الباعث عليها الدفاع عن الحق والفضيلة ، وتنتهك الحرمات من أهلها فى الميدان مجارة لأرادل المعتدين ، فاذا كان العدو منطلقا من كل القيود الخلقية فجيش

الفضيلة مقيد بالفضيلة ، فإذا كان العدو يهتك الأعراض ان استمكن ، أو يقتل النساء والولدان والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ، فان جيش الاسلام المؤمن لا يجاريهم لأنه مقيد بالفضيلة والخلق القوى .

وإذا كان العدو يمثل بالقتلى ، ويشوه أجسامهم بعد القتل ، فان جيش الفضيلة لا يفعل لقول القائد الأعظم المعلم الأول للحروب الفاضلة : « اياكم والمثلة » .

ولقد قتل المشركون فى غزوة أحد حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحبيبه ، أدنى قرابته اليه ، وسيد الشهداء كما سماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومثلوا بجسمه الطاهر ، ومع منزلته منه عليه الصلاة والسلام لم يفكر فى أن يمثل بأحد من قتلهم فيما جد من بعد ذلك .

وإذا كان الأعداء يجيعون الأسرى ، أو يقتلوهم بالعطش ، فان جيش المسلمين يعد من أقرب القربان أطعام الأسير ، تحقيقاً لقوله تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين فى ايمانهم : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » .

احترام الكرامة الانسانية :

٣٥٧ — وإذا كانت الفضيلة لا بد من احترامها فى أثناء الحرب ، للأمر بتقوى الله تعالى عند رد الاعتداء بمثله فمن الفضيلة المحافظة على الكرامة ، بقوله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ، فكرامة العدو محترمة ككرامة الولي على سواء ، وقد يعد بعض الناس ذلك أمراً غريباً ، حيث كانت السيوف متشابكة ، إذ أن هذا ليس وقت التكريم ، بل هو وقت التقتيل ، ولكن لا غرابة ، فهي ليست حرب انتقام ، ولكنها قمع للشر ، ومنع لاستمراره ، ولا استمرار يتصور من مقتول .

ولذلك أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بدفن قتلى قريش ، لم يترك جثثهم نهياً لوحوش الأرض وسباع الطير ، أمر عليه الصلاة والسلام بوضع جثث القتلى من قريش فى القليب وهو بئر جافة .

ولقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاجهاز على جريح ، كما نهى عن تعذيب القتلى ، إذ ضعفت قوة الجريح عن أن يقاوم ، وذلك كله

لا احترام الانسانية ، ولأن القتال ليس القصد منه الا اضعاف قوة الطغاة ،
ودفع الاعتداء وليس منها الانتقام .

وان المعاملة بالمثل التى تفرضها قوانين الحرب ، والتى تفرض بحكم رد
الاعتداء به لا يسير به المسلم الى أقصى مداه ولو انتهكت الفضيلة والكرامة
الانسانية ، بل ان المسلم يأمر الله تعالى مأمور بالتقوى عند رد الاعتداء ،
وكانت حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى المثل السامى فى تنفيذ
ذلك لأنه الذى يتعلم منه الانسان ان حارب أخاه الانسان ، فعندئذ يكون
قانون الأخلاق هو الذى يحكم لا قانون الغابة .

انتهاء الحرب

٣٥٨ — كانت نهاية حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنتهى
بأحد أمور ثلاثة :

أولها - المودعة - وقد كانت عهود المودعة التى كان يبرمها النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم مرغوبا فيها منه صلى الله تعالى عليه وسلم
استجابة لقول الله سبحانه وتعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل
على الله » ولقول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم
كافة » ولأن الأصل فى العلاقة هو السلم ، والحرب لا تكون الا اذا دفعت اليها
ضرورة رد الاعتداء بمثله مع التزام الفضيلة كما ذكرنا ، واذا كانت المودعة
فقد زالت ضرورة الحرب ، والضرورة تقدر بقدرها .

وقد عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مودعات ، كما عقد صلحا ،
وعقد من بعده أصحابه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما معاهدات صلح
أخذين بهديه ، مقتبسين من نوره ، وكلها كانت تبدو فيها الرغبة فى الصلح
من جانب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم يدخل فى الحرب الا بعد عرض الصلح ، حتى تتحقق ضرورة
الحرب .

وان المودعة لا يفرضها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القوة ،
ان كان هو الغالب ، بل يفرضها بالسماحة وادناء القلوب النافرة .

ولعل أوضح الامثال فى الدلالة على ذلك صلح الحديبية ، فقد ذهب الى مكة المكرمة ومعه جيش كثيف فى عدده ، قوى فى رجاله ، مستعد فى عدته ، ليحج بيت الله الحرام ، ولكن ما ان عرضت فكرة المهادنة ، حتى سارع عليه الصلاة والسلام اليها وقبل من الشروط ما لا يقبله الا السماح الكريم ، وفيها كما يدل ظاهرها من الاجفاف بالمسلمين ما كان لغير نبي أن يقبله ، ولكنه قبله راضيا • ولنذكر الخبر فيها ، كما روته الصحاح فى السنة •

روى البخارى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج فى ذى القعدة من العام السادس ليحج الى بيت الله الحرام ، على الا يقاتل الا اذا منع ، فلما بلغ قريشا عزمه عليه الصلاة والسلام ، ومجيئه مع أصحابه ، جمعوا له الجموع ليصدوه ، ومن معه ، فلما علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقد لبس لباس الحج ونواه ومعه الجيش الكبير - جمع أصحابه ، وقال : « أشيروا على » ، فقال أبو بكر : « يا رسول الله خرجت قاصدا البيت ، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فمن صدنا عنه قاتلناه » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « امضوا على بركة الله » حتى اذا أشرف على مكة المكرمة قال : « والله لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمت الله الا أعطيتهم اياها » •

ولما جاءت رسلم اليه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم : « انا لم نجىء لقتال ، ولكننا جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب ، وأخذت بهم • فان شاءوا ما رد لهم ، وأخلوا بينى وبينهم » •

عرض عليه الصلاة والسلام المهادنة ، وهو القوى بجيشه ، وينصر الله الذى فوق كل شيء ، فقبلوا المهادنة بشروط كان جلها كما يرغبون : اولها - أن يعود ولا يحج فى عامه هذا ، وأن توضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأن يعتمر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه فى العام القابل •

وثانيها - أن من قدم المدينة المنورة من قريش مجتازا الى الشام فهو آمن على دمه وماله •

وثالثها - أن من أتى محمدا عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة مسلما بغير إذن وليه رده عليهم •

ورابعها : أن من جاء ممن مع محمد عليه الصلاة والسلام مرتدا عن دينه لم يرد اليه •

هذه كلها شروط كتبت برغبة قريش ،

وهناك شرط واحد لمصلحة الدعوة الاسلامية ، وهى غاية الغايات ، وذلك الشرط أن من قدم مكة المكرمة من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام حاجا أو يبتغى الرزق فهو آمن على دمه وماله •

وهناك شرط سياسى لمصلحة الطرفين ، وهو أن من أراد أن يدخل فى عقد مع محمد عليه الصلاة والسلام دخل ، ومن أراد أن يدخل فى عقد قريش دخل •

وربما تكلمنا عن تفصيل لهذا الكلام عليها فى موضعها •

الأمر الثانى الذى تنتهى به الحرب – هو الصلح بانتهاء القتال ، لا بالوادعة المجردة فيه ، والصلح حينئذ يكون على أساس العدالة والوفاء بكل ما يلتزم كلا الطرفين فيه من حقوق ، ويكون ذلك عهدا يجب الوفاء فيه بكل الشروط الجائزة شرعا ، وأن العهد الذى لا يكون فيه الدخول فى الاسلام تكون قبل الحرب عند التخيير بين الاسلام أو العهد أو الحرب ، فيكون للحرب من أن تقع ، لا أن يكون منهيها لها بعد وقوعها •

أما الصلح المنهى للحرب بعد وقوعها ، فيكون باعلان الاسلام فى ربوع الديار التى كان النصر فيها للمؤمنين •

والأمر الثالث الذى ينهى الحرب هو الانتصار للمؤمنين ، والاستسلام من الكافرين ، وهو النوع الثالث من الصلح الذى ذكرناه آنفا •

معاملة المهزومين

٣٥٩ — تبدو السماحة الحمدية ، والرفق على أهله فى الحرب النبوية عند هزيمة العدو واستسلامه ، ويلاحظ أنه فى حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم يهزم المؤمنون هزيمة فيها استسلام قط ، إذ أنه لم ينتصر خصوم الاسلام انتصارا ساحقا قط فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والراشدين من بعده •

وانه لما هزم المسلمون فى غزوة أحد لم يستسلموا ، لأن الاستسلام فيه زلة ، والاسلام دين العزة والكرامة ، فلا يمكن أن يستسلم المؤمنون بقيادة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه غلبه الصلاة والسلام جمع متفرق

الجيش ، وأراد أن يتبع به المشركين ، فلما علموا هم بذلك مضوا في طريقهم قافلين ، ورضوا من الغنيمة بالأياب ، إذ علموا أنه مؤيد من عند الله ، وأنه يجاهد في سبيله •

وإذا كانت الحرب تنتهي باستسلام العدو فمحمد عليه الصلاة والسلام في حرب النبوة لا يقول مقالة الغاشمين ، ويل للمغلوب ، بل تكون العدالة ، وتكون السماحة والرفق المحمدي •

كانت آخر حرب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع قريش هي التي انتهت بفتح مكة المكرمة للإسلام والمسلمين ، وهنا يلتقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع من آذوه ، وأعتوا أصحابه ، وساموهم سوء العذاب ، ومنهم من مات من شدة التعذيب ، وقد هموا بقتله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم كانوا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين •

التقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم ، وبكبير حرب الشرك أبي سفيان فنشر عليه الصلاة والسلام ، وهو الغالب والمسيطر راية الأمان عليهم ، فنادى مناديه عليه الصلاة والسلام : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن » •

وهكذا كان انتصار النبي عليه الصلاة والسلام الرفيق الرفوف الرحيم نشرا للأمان في ربوع مكة المكرمة حول بيت الله سبحانه وتعالى الحرام • ولما التقى بالملأ من قريش ، قال لهم : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال لهم : أقول ما قاله أخى يوسف : لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، انهبوا فأنتم الطلقاء » • أي حرب تنتهي بهذه السماحة وذلك الرفق غير حرب النبوة التي قام بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللناس في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة •

الأسرى

• ٣٦ — لعل أبلغ ما يدل على أن الحرب النبوية التي دافع بها صلى الله تعالى عليه وسلم عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، هي حرب لتعليم الناس أن الخلق الكريم يلزمها ، وأن الفضيلة تظلها في كل أدوارها ، هو معاملة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للأسرى ، لقد كان رفيقا بالأسرى لا يهدر آدميتهم ، ولا يعرف تاريخ الانسانية محاربا كان رفيقا بأسراه كمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان صلى الله

تعالى عليه وسلم يوصى بالأسرى ، ولما أسر من أسر فى غزوة بدر ، نزلوا فى بيوت الأنصار ، وكانهم فى ضيافة لا فى أسر ، وذلك لقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « استوصوا بالأسرى خيرا » ولماذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى بالأسرى ، ويبالغ فى الإيصال بهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة ، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين فيكون الاعتداء عليه متوقعا وغلظا لشدة الغيظ ، وانبعث الرغبة فى الانتقام ، كما فعل الأوربيون والأمريكان فيمن سموهم مجرمى الحرب ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يضرب الأمثال السامية فى تلك الحرب النبوية منع إيذاء الأسرى وأمر باكرامهم منعا لتلك الروح الانتقامية الغليظة .

وقد اخذ المسلمون فى أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة ، حتى ان الذين قد نزلوا فى ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام .

وان أولئك الكرام كانوا فى جهادين : أولهما جهاد السيف ونيران الحرب ملتبهة ، حتى اذا انطفأت كان الجهاد الثانى ، وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ ، فيكون منها ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمغلوبين ، وخصوصا الأسرى .

لقد تلونا فيما مضى من قولنا قول الله سبحانه وتعالى : « ويعطمون الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما وأسيرا » وان الاسلام يوجب بالنسبة للأسير أمرين :

أولهما : أنه ليس لجيش الاسلام أن يأسر حتى يثخن فى الأرض بأن يثقل جيش العدو بالجراح ، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » .

الأمر الثانى : أن القرآن الكريم الذى كان ينفذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويبينه كما قال سبحانه وتعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » ان هذا القرآن الكريم يذكر بالنسبة للأسرى أمرين لا ثالث لهما ، وهما اما المن عليهم باطلاق سراحهم ، واما الفداء بالمال أو الرجال ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد ، واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » .

وكما أشرنا : ان الفداء قد يكون بالرهوس ، فيطلق من أسارى المسلمين
فى نظير أن يطلق المسلمون من أسرى الأعداء ، وقد يكون بالمال •

واذا كان الأسير فقيرا ولا مال له ، فانه يتعين تسريحه ، ويكون ذلك من
الصفح الجميل الذى أمر الله سبحانه وتعالى نبيه به بقوله : « فاصفح الصفح
الجميل » ، ومن أخذ الأمور بالعفو ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « خذ العفو
وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » •

حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبادة

٣٦١ — أعظم العبادات الجهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى ، واذا
كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم المؤمنين الصلاة ، وقال : « صلوا
كما رأيتمونى أصلى » فقد علمهم الحرب الفاضلة أيضا ، بل علم الانسانية كلها
الحرب الفاضلة ، ولسان حاله عليه الصلاة والسلام يقول : « حاربوا فى سبيل
الفضيلة وبالفضيلة كما رأيتمونى أحارب » فحرب النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم قد أدت مقصدها ، وهو جعل كلمة الله سبحانه وتعالى هى العليا وكلمة
الذين كفروا السفلى ، ولاتزال المثل السامية التى صورتها الحرب المحمدية
قائمة تهدى وترشد العالمين ، ولقد وعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى
درجات الزهادة والعبادة الجهاد ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم :
« الجهاد سنام الدين » •

وقد منع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرهبانية ، وقال لا رهبانية
فى الاسلام ، وبين أن رهبانية الاسلام هى الجهاد ، فقد قال صلى الله تعالى
عليه وسلم : « فى كل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد » ، وقد علل
ذلك الامام السرخسى بأن فيه العشرة مع الناس ، والتفرغ عن عمل الدنيا
والاشتغال بما فيه سنام الدين ، وفيه أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وهو
صفة هذه الأمة •

وانه يتشابه المجاهد مع الراهب فى ثلاثة أمور ، ويختلفان فى أمر •

أما الامور المتشابهة فهى :

أولا — اعتزال الناس جملة ، والخروج عن الحياة التى يحياها الناس
لأنفسهم أكليين شاربيين متمتعين بحلاوة الحياة وما فيها •

وثانياً - أن الراهب يعتزل النساء ، والمجاهد التقى الذى نال شرف الجهاد ومعناه يعتزل النساء وينقطع عن الأولاد فى مدة الجهاد ، وهم فلذات كبده .

وثالثاً - أن كليهما قد قدم نفسه لله سبحانه وتعالى - الراهب بالعبادة ليسمو فى نظره الى الروحانية التى تقربه من الله سبحانه وتعالى فى زعمه . والمجاهد قد قدم نفسه فعلاً لله سبحانه وتعالى ليحمى الحق الذى أمر الله بنصرته ، ونرى أن المشابهة قائمة ، وإن اختلف القصد فى كليهما .

ومن هنا كان موضع الافتراق ، فالراهب يعتزل الناس لأجل نفسه وعبادته الانفرادية ، أما المجاهد فيعتزل الناس ، ليحمى الناس ، وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته فى دائرة وجوده الشخصى لا تعدوه ، والثانى عبادته فى دائرة النفع العام . والأول لا تخلو عبادته من اثره ، والثانى عبادته كلها ايثار .

وإن الاسلام منع الرهينة ، لأنها فرار من الحياة ومتاعبها ، ولذلك تعتبر القوانين الأوروبية الرهبان فى حكم الأموات ، والرهبنة موتاً اختياريًا ، والاسلام لا يريد للمتعب هذا الموت ولا ذلك الفرار ، ولكنه يريد المؤمن نافعاً للناس . حياً فى وسط الأحياء ، حامياً لهم من المضار ، جالباً لهم المنافع ، إذ ليست العبادات الاسلامية سلبية ، بل هى ايجابية - هى المشاركة فى رفعة النوع الانسانى ، ولذلك يعد كل نفع للأحياء صدقة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه انسان أو دابة الا كتب له به صدقة ، وأنه ليس معنى ذلك أن الروحانية فى الاسلام لا وجود لها ، بل ان لها المقام الأول ، ففى الصوم والصلاة والحج روحانية ، بل كلها روحانى ، وفى الاعتكاف روحانية ، ولكن روحانية الاسلام ليست انقطاعاً عن الحياة والأحياء ، بل هى مع ما فيها من سمو نفسى ، وتجرد من الجسم وأهوائه وشهواته ، هى لتحسين العلاقات الانسانية ، وإن يكون المؤمن مألفاً يالفاً للناس ، ويألفونه .

الخلاصة

٣٦٢ — هذه كلمة تقدمنا بها عند الكلام فى حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لنرد بها قول الذين يتقولون الأقاويل فى حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويزعمون أن الحروب والدمار ليست من أعمال النبيين ، وهى فرية افتروها ، فانه مادام الانسان ابن الانسان ، فانه لابد من مغالبة .

ومن وقت أن امتنع إبليس عن السجود لآدم استكبارا أو استعلاء ،
والمعركة بين الخير والشر قائمة ، والعداوة مستحكمة بين الرذيلة تعتدى ،
والفضيلة تدفع ، ومن وقت أن نزل آدم وذريته الى الأرض ، وإبليس الذى قال
« لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » ، من هذا الوقت وقد تحقق قول
الله سبحانه وتعالى : « اهبطوا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو » والنزاع
بين الخير والشر قائم . وليس من الفضيلة أن يترك الشر يرتفع ، ولا يدفع ،
ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » *

وان أولئك الذين يعترضون على قتال النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ،
لا يتصورون الحرب الا مغالبة بشرية كما تتغالب الوحوش على فريسة تأكلها ،
أو على غابة تحتلها ، ولا يتصورون لفرط ماديتهم أن الحرب تكون لاعلاء الحق
وخفض الباطل ، وكذلك كانت حروب النبيين موسى وداود ، وسليمان ، وغيرهم
من الأنبياء ، وما كان قتالهم شرها الى الدماء ، فمعاذ الله وتنزهت ذاته الكريمة
فلا يرسل الا ملكا كريما *

وننتهى من هذا الى تقرير هذه الحقائق التى بدت من البحث واضحة
نيرة *

الحقيقة الأولى : أن حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كانت أمرا
لا بد منه ، ليقم الحق ويخفض الباطل ، وما كانت رسالته تدعو الى استخذاء
الخير أمام الشر ، وما كانت دعوتهم لتسير فى مسارها الا اذا أزال الحواجز
التي كانت تحاجز دونها ، ليتم التبليغ ، والناس بعد ذلك يختارون الهداية أو
يستمررون على الغواية : « فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما
ريك بظلام للعبيد » *

الحقيقة الثانية : أن حرب النبی صلى الله تعالى عليه وسلم كانت حربا
فاضلة مثالية تعلم الانسان أنه قد يكون محاربا وهو فاضل ، وأن الانسانية
تحترم ، والسيوف مشتجرة *

الحقيقة الثالثة : أن حرب النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يتبعونه
فى هديه ، ويتخذونه أسوة فى حربه وفى سلمه هى عبادة ، لأن رفع الحق
والحرب لرفعه هو فى ذاته عبادة ، فليست عبادة الاسلام عكوبا فى الصوامع
من غير عمل نافع ، بل كل عمل نافع فيه عبادة اذا نواها المؤمن : « انما
الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى » *

أدوار الحرب المحمدية

٣٦٣ — كان لابد قبل أن نخوض فى حروب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأدوارها ، والمعارك التى خاضها — من أن نسبق بالقول فى أوصاف حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان ذكر الحرب قد يفزع ، ويهرب ، فكان من الضرورى أن نعرف القارئى بأنها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظفر ، والناّب ، وأنها حرب نبوة تدفع اليها الفضائل الانسانية ، ويظهرها الحق والخلق الكريم فى المباحث عليها ، وفى ابتدائها ، وفى سيرها ، وفى الانتهاء منها ، وفى معاملة المغلوبين ، لىتميز الخبيث من الطيب ، ولكيلا يتناول ملحد فى دين الله على مقام الرسالة ، ومكان الهداية ، ويقع فى القول بغير حق ويفترى بالباطل ، فنضع الحقائق بين يديه ، فان شاء استنار بها ، وان طمس الله تعالى على بصيرته فما له من هاد ، ويكون كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وبعد هذه التقدمة نقول ان حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذت أدوارا ثلاثة :

الدور الأول : توجه عليه الصلاة والسلام للتصدى لمتاجر قريش ليشعرهم بقوة الحق ، وليحملهم على منع الفتنة فى الدين ، وليدركوا نور الحق ، بعد أن تبين نوره قويا وهاجا ، وليعلموا أنه لا ملجأ لهم من الله سبحانه وتعالى الا اليه .

والدور الثانى : تلقيه لمن يهاجمون المدينة المنورة لينالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه . ظانين أنهم بذلك يقتلعون الاسلام من جذوره ولينالوا منه نيلا ، قد ابتدأوه فى مكة المكرمة ، وحاولوا أن يقطعوا شجرته فى المدينة المنورة ، حاسبين أنه قد استغلظ سوقها .

وفى هذا الدور كانت بدر الكبرى ، وأحد ، والخندق أو الأحزاب ، ومعها كان اجلاء بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة .

الدور الثالث : كان فى الخروج الى العرب الذين قاتلوه كافة ، فكان حقا عليه أن يقاتلهم كافة ، كما أمره الله سبحانه وتعالى بقوله : « **وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » وفى تلك الغزوات كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعمم الدعوة الى الاسلام ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يخيرهم بين الاسلام ، ويبين حقيقته وأركانه ، وبين

القتال ، وإذا اختاروا السلم كان ، وإن اختاروا الحرب ، وهزموا ، وجدوا
فى رفق المعاملة ولين القوى وعطفه ما لم يحتسبوا ، فيألفونه ، ويدخل الإيمان
فى قلوبهم •

وانه فى هذا الدور قد أخذت الحرب تنتقل من جزيرة العرب الى خارجها ،
لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ يدعو الملوك ورؤساء الدول الى
الاسلام ، أو أن يفتحوا الطريق أمام الدعوة الاسلامية ، فما آمن منهم الا
النجاشى ملك الحبشة ، ومنهم من لم يجب ، ومنهم من أساء فى الرد ، ومنهم من
أجاب جوابا رقيقا ولكنه لم يؤمن •

وحدث أن ملك الروم قد قتلت جيوشه من أسلم من أهل الشام ، فتعرض
المسلمون لفتنة دينية كالتى كانت فى مكة المكرمة ، وأمر الله سبحانه وتعالى
بالقتال لأجلها ، فقال الله سبحانه وتعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ،
ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ، ولذلك كانت غزوة
مؤتة ، وغزوة تبوك من بعدها •

وقد تجمع اليهود الذين أجلاهم من المدينة المنورة فى خيبر ، لينقضوا
على المدينة المنورة ، فكان لابد أن يساورهم ، قبل أن يساوروا المدينة المنورة •
وهكذا •••

الدور الأول

٣٦٤ — وإن هذا الدور يصح أن نقسمه الى قسمين : أحدهما لم يلق
فيه حربا ، ولا قتالا ، بل كان اللقاء ينتهى بالمسالة ، وكان فيه تأليف للقلوب
النافرة ، وتقريب الاسلام من العقول والنفوس ، وفيه بيان لقريش أن الاسلام
قد أعزه الله سبحانه وتعالى ، وأن المسلمين صاروا فوق منالهم ، والناس
يستقبلونه ، وقد أرادوا أن يحولوا بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم •

والقسم الثانى كان فيه قتل وقتال •

وفى القسم الأول كانت غزوات أربع خرج فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
وقبل غزوة بدر الكبرى التى هى ابتداء القسم الثانى من هذا الدور •

وتلك الغزوات التى لم يكن فيها قتال هى غزوة الأبواء ، وتسمى البدوان
وغزوة بواط ، وغزوة العشيرة وغزوة بدر الأولى ، وكانت بينهما سرية عبد الله

ابن جحش والغزوات الثلاث الأولى كانت فى الطريق بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، وأما بدر فكانت قرب المدينة المنورة ، وان كانت على هذا الطريق وغزوة أبواء ، أو ودان كانت فى صفر فى السنة الثانية ، وودان قرية كبيرة من أمهات القرى ، وقريب منها الأبواء ، وكانت الغزوة بينهما ، ولذا صح أن تسمى بكل واحدة منهما • وهما على مقربة من الجحفة ، وبين المدينة المنورة ، وتبعد عن المدينة المنورة بنحو ثلاثة وعشرين فرسخا •

وقد كان خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع من المهاجرين ليس فيهم أنصارى وسبب الخروج أنه علم أن عيرا لقريش قد خرجت ، فترصد لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لكن وصل بعد فصل العير عنها ، ولقى بنى ضمرة ، فتوادع معهم على أن ينصروا المسلمين اذا دعوهم الى النصرى وأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن على المسلمين نصرهم على من يعتدى عليهم •

وكان الذى تولى العقد عن بنى ضمرة مخشى بن عمر الضمرى ، وكان سيدا فى قومه فى زمانه ، وقد خلف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سعدا بن عبادة على المدينة المنورة •

وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية صفر ، وكانت غيبته عن المدينة المنورة خمس عشرة ليلة (١) •

غزوة بواط :

٣٦٥ — فى ربيع الأول بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش مقبلة من الشام ، أميرها أمية بن خلف فيها مائة رجل ، ومعها ألفا بغير وخمس مائة ، فخرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع مائة من المهاجرين وخلف عنه فى المدينة المنورة سعد بن معاذ ، وحمل لواءه سعد بن أبى وقاص ، وبواط — بفتح الواو — جبل من جبال جهينة من ناحية رضوى •

ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وصل الى هذا المكان لم يلق كيدا •

(١) نهاية الارب للنويرى ج ١٧ ص ٤ •

غزوة العشيرة (١) :

٣٦٦ — فى جمادى الأولى من هذه (السنة) علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش ذاهبة الى الشام ، فخرج عليه الصلاة والسلام لملاقاتها ، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهري يقال لها ذات الساق ، فصلى عندها ، فكانت مسجده ، وصنع للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم طعام فأكل وأكل أصحابه ، ثم استقى له من ماء يقال له المشيرب ، وأخذ يتابع البحث عن تلك الشعاب المتعرجة ، ثم اعتدل فى الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها ، جمادى الأولى ، وليالى من جمادى الآخرة .

ولكن العير قد سبقت ولم يدركها ، فلم يلق حربا ، ولكنه عاد بتألف القلوب ، فودع بنى مدلج ومن معهم من حلفاء لهم ، فإذا كان لم يدرك العير ، ولم يكسب منها مالا ، فقد كسب قلوبا ، وألفها ، وذلك هو أول أعمال الرسالة المحمدية .

وقد خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة المنورة أبا سلمة الأسدي ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، ويذكر ابن اسحاق أنه فى هذه الخرجة ، كنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه بكنية (أبو تراب) فيقول : « ويومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : فحدثنى يزيد بن خيثم ٠٠٠ عن عمار بن ياسر ، قال كنت أنا وعلى بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بطن ينبع ، فلما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام بها شهرا ، فصالح بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، فودعهم فقال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه : هل لك يا أبا اليقظان أن هؤلاء النفر من بنى مدلج يعملون فى عين لهم ننظر كيف يعملون فأتيناهم ، فنظر اليهم ساعة ، فغشنا النوم ، فعمدنا الى صور من النخل فى دقعاء من الأرض ، فقمنا فيه ، فوالله ما أهبنا الا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحركنا بقدمه ، فجلسنا ، وقد تتربنا من تلك الدقعاء ، فيومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى يا أبا تراب لما عليه من التراب ، فأخبرنا بما كان من أمرنا ، فقال : ألا أخبركم بأشقى رجلين قلنا بلى يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على ، على هذه ، ووضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم — حتى بل منها هذه ووضع يده على لحيته » .

(١) يقال عنها العسيرة والعشيرة بالمهمله ، ويحذف التاء فيهما .

وقد علق على ذلك الخبر ابن كثير ، فقال : « وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، له شاهد من وجه آخر فى تسمية على أبا تراب ، كما فى صحيح البخارى أن عليا خرج مغاضبا فاطمة ، فجاء المسجد ، فنام فيه فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأل عنه ، فقالت خرج مغاضبا ، فجاء عليه الصلاة والسلام الى المسجد فأيقظه ، وجعل يمسح التراب عنه ، ويقول : « قم يا أبا تراب » .

ونستطرد فى ذكر هذه الكنية النبوية الشريفة ، فنقول انها كانت أحب كنية الى على كرم الله وجهه فى الجنة ، لأنها تسمية من حبيبه وكافله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنها اقترنت بمسحه بيده الكريمة التى أزال بها التراب عن بدنه ، كما أزال الغبار عن الحقائق الانسانية بالشرع الذى حملة وبلغه للخلق .

والخبران متلاقيان كما ذكر الحافظ ابن كثير . فانهما يدلان على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ناداه بذلك النداء الحبيب اليه فى عدة مواطن .

ولقد فسق ناس عن أمر ربهم ، فأذاعوا بين من تبعوهم على غيهم أن هذه الكنية تدل على الحط من مكانة على عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فساء قولهم كما ساء فعلهم .

وفى هذه الغزوة كما أشرنا وادع بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة ، وقد ذكر السهيلي فى الروض كتاب المواعدة بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبنى ضمرة ، وهذا نصه كما جاء فيه « كانت نسخة المواعدة فيما ذكر غير ابن اسحاق » بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، فأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم الا أن يحاربوا فى دين الله ما بل بحر صدقة - وإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا دعاهم لنصرة أجابوه ، عليهم بذلك طاعة الله تعالى وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى .

بدر الأولى :

٣٦٧ — أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى العشيرة ليلالى من جمادى الأولى وبعض ليال من جمادى الآخرة كما ذكرنا ، ثم عاد الى المدينة المنورة ، ولكنه لم يقيم فيها الا ليلالى قلائل حتى أحس بشبه غارة

أزمعتها قريش على المدينة المنورة لتوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لاتزال عندهم همة للقتال ولم تكف عزيمة تلك الانذارات التي قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن أرسله ، فقد أغار كرز بن فهر القرشي على سرح المدينة المنورة أى على فنائها فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه واستعمل على المدينة المنورة زيد بن حارثة ، وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى بلغ واد يقال له صفوان من ناحية بدر ، ولكن كرزاً ومن معه نجوا بأنفسهم ، فلم يدركهم جيش الايمان والفضيلة ثم رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة فأقام بها بقية جمادى ورجب وشعبان ، وتسمى هذه الغزوة التي لم يلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتالا فيها • بغزوة بدر الأولى ، وهى فى مقابل غزوة بدر الكبرى التي سماها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم يوم الفرقان ، ان جعل الله تعالى فيه الكلمة العليا لله والحق والايمان ، والكلمة السفلى للشيطان والكفر ، ولقد كان حامل لوائه فى بدر الأولى سيف الله على بن أبى طالب •

سرية عبد الله بن جحش :

٣٦٨ — قد علمت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما جاء الى المدينة المنورة سالم الذين يقيمون فيها ، وعقد معهم الأحلاف البرة من جانبه عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أن غزواته صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى لم يكن فيها قتال ولكن كان فيها سلم وموائق تؤخذ ، وتأليف بين القلوب النافرة • ولو استمرت على كفرها ، ان أن وراء التأليف أن تخلص النفوس بطلب الحق ، فتشرق من غير أن يدخلها ظلام النفرة •

ومن القبائل من كانت تجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلقى بالمودعة من غير نفاق ولا ريبية ومنهم قبيلة جهينة فقد روى الامام أحمد بمسنده عن سعد بن أبى وقاص ، أنه قال : « لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة جاءت جهينة ، فقالوا انك قد نزلت بين أظهرنا ، فأوثق حتى نأتيك وقومنا ، فأوثق لهم فأسلموا فبعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى رجب ، وكنا مائة ، وأمرنا أن نغير على حى من بنى كنانة الى جنب جهينة فأغرنا عليهم ، وكانوا كثيرا ، فلجأنا الى جهينة ، فمنعونا وقالوا لم تقاتلون فى الشهر الحرام ، فقال بعضهم لبعض ما ترون ، فقال بعضهم : نأى نبي الله فنخبره ، وقال قوم : بل نقيم ها هنا ، وقلت أنا أبى عبد الله ابن جحش فى أناس معى ، لا بل نأى غير قريش ، فنقتطعها ، وكان الفىء ان ذاك من أخذ شيئا فهو له ، فانطلقنا الى العير ، وانطلق أصحابنا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه ، فقام غضبان محمر الوجه ، فقال :

أذهبتم من عندي جميعا ، ورجعتم متفرقين ، انما أهلك من كان قبلكم الفرقة ،
لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش » .

هذه رواية عند الامام أحمد ، وليس في سنده من عرف الطعن فيه ،
وقد روى مثله مع بعض زيادة في السند البيهقي في دلائل النبوة ، وزاد في
متن الحديث أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استنكر القتال في الشهر
الحرام .

والحديث برواية الامامين احمد والبيهقي يدل على ثلاثة أمور :

أولها - ما جاء من أن جبهة أمنت إذ بدت البيئات ، واستعدت لنصرة
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وثانها - أن المسلمين لم يقاتلوا فعلا ، وإن هموا بالقتال ، وترددوا
عندما نهبوا الى الشهر الحرام .

والأمر الثالث - أنه كانت ثمة عير لقريش على أهبة القدوم ، ولعل هذا
هو الباعث على السرية ، ومهما يكن من أمر هذه الرواية التي اتفق عليها امامان
من أئمة الحديث ، فإن الأمر الذي أشارت اليه تلك الرواية هو أن السرية سارت
بأمره عبد الله بن جحش ، ولكن الذين كانوا في هذا على رواية
ابن اسحاق كانوا ثمانية ولم يكونوا مائة ، وقد عدهم بأسمائهم .
وكانوا من المهاجرين ، ولم يكن أحد من الأنصار ، كشأن كل البعوث والغزوات
التي سبق ذكرها ، ولعل هذا العدد المحدود . قد قرره النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم بعد أن رأى الاختلاف ، ولعل عدد المائة كان من أسبابه ، وكلما قل
العدد بعد الاختلاف ، وفي الفرقة الهلاك كما قرر النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم على أن النص لا يدل على قصر العدد على ثمانية ، انما يدل على أن
فيهم هؤلاء المذكورين مع عدد ليس بالقليل ، وقد ذكر ابن اسحق أن النبي صلى
الله تعالى عليه وسلم كتب كتابا لعبد الله بن جحش أمير السرية وأمره ألا ينظر
فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، فلما سار بهم يومين فتح الكتاب ، فإذا
فيه اذا نظرت في كتابي . فامض حتى تنزل نخلة بين مكة المكرمة والطائف
فترصد بها قريشا ، وتعلم من الناس أخبارهم ، فلما نظر في الكتاب ، قال سمعا
وطاعة ، وأخبر أصحابه بما في الكتاب ، وقال قد نهاني رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم أن استكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب
فيها فلينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فامض .

وان هذا التخيير يدل على ان العدد لم يكن ثمانية ، والا ما كان ذلك التخيير ، فانه لا يكون الا فى عدد كبير ولو نسبيا . ولا يمكن فى العادة أن يكون فى ثمانية .

ولعل ذلك التخيير ، ما كان من قبل من الافتراق ، اذ قد يكون سببه وهنا فى بعض القلوب ، فأراد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا يسير الا من اعتزم وأراد ، واستولى على قلبه ، وذهب عنه الوهن أو احتماله سارت السرية بامرة أميرها ، سالكة طريق الحجاز .

ولكن ضل عنهم سعد بن أبى وقاص وعقبه بن غزوان وكانا من الثمانية المقدمين ، وكان معهما بعير يعتقبان فى ركوبه .

ولكن القافلة سارت ، وكان رجاء فى أن يهتديا اليها .

مضى عبد الله مع من بقى من أصحابه ، حتى وجدا عيرا فيها من قریش وحواليهم الحضرمى بن عبد الله بن عباد ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة البخزومى ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى المغيرة بن شعبه .

لما رأى السرية أصحاب العير ، هابوا لقاءهم ، ولكنهم رأوا عكاشة ابن محصن من سرية النبوة قد علق فقالوا آمنوا وقالوا عمار « أى ناو العمرة ، لا بأس عليكم منهم » .

تشاور الصحابة من أهل السرية ، وقد كانوا فى آخر رجب ، وهو رابع الأشهر الحرم الذى بينها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنها ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ترددوا أيقاتلون فى الشهر الحرام ، أم يتركونهم ، هذه الليلة ، وحينئذ يدخلون الحرم ، فيمتنعون عليهم ، ولا يمكن انتظارهم هذه الليلة الباقية ، من رجب الحرام .

وانتهت الشورى بالاجماع على القتال ، فرمى أحد السرية عمرو بن الحضرمى فقتله . وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان ، وأفلت من القوم ، نوفل بن عبد الله .

وعادت السرية بالعير ، والأسيرين حتى قدموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

القتال في الشهر الحرام :

٣٦٩ — قدمت السرية الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالغير والأسيرين ، ولكن مع ذلك كان قتال في الشهر الحرام ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحريص على احترام الحرمات قد تأثم من ذلك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام ، ووقف توزيع العير ، وحبس الأسيرين ، فسقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وكان الكلام اللائم من اخوانهم الذين لم يشتركوا في القتال ، ولم يبلا بلاءهم » .

أما الأسيران فوقف عليه الصلاة والسلام إطلاقهما حتى يعود سعد ابن أبي وقاص وصاحبه ، فلما عادا أطلقهما .

وقد قامت قائمة من التشنيع على محمد عليه الصلاة والسلام ، جاهر بها المشركون من قريش ، وما حركهم احترام الحرمات ، والمناسك ، وإنما حركهم العير التي أخذت في مقابل ما أخذوا من أموال المهاجرين ، وحركهم الغيظ من أن يكون لمحمد عليه الصلاة والسلام قوة تتولى تأديبهم والقصاص منهم ، وأنه قد ابتدأ أمر جديد قد انبلج فجره . فظهروا بمظهر المدافعين عن الحرمات ، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام ينتهكها وهم يصونونها ، ونسوا أنهم هم الذين فتنوا المسلمين عن دينهم ، وانتهكوا حرمات البيت الحرام ، ونسوا أنه حرم الله سبحانه وتعالى الآن غير مفرقين في هذا الايذاء بين شهر حرام وشهر حلال .

واليهود قد وجدوها فرصة لائحة تشفى غيظهم ، فأخذوا ينثرون من أفواههم ما تنغر به قلوبهم من احن ، وعداوة للإسلام أخفوها ابتداء ، ولكن بدت من أفواههم . رغم أنوفهم . وما تخفى صدورهم أكبر .

حدث هذا ، والمجاهدون الأطهار تكاد نفوسهم تذهب حشرات حتى نزل قوله الله سبحانه وتعالى : « يسألك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وأخرج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

كانت هذه الآيات الكريمات برذا وسلاما للمؤمنين ، وردا قاطعا حاسما للكافرين ، وأنه ليس لأولئك الذين انتهكوا الحرمات ، من كفر بالله وبالمسجد

الحرام وصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى . وقتل فى البيت الحرام أن يتكلموا فى انتهاك الأشهر الحرام .

على أنه يجب أن يعلم أن الذين ابتدعوا بالقتال هم المشركون ، فقد أغاروا ابتداء على فناء المدينة المنورة ، نعم انهم لم ينالوا مأربا ، وفروا فرارا ، فهل كان لأهل الايمان أن يتركوهم ليعيدوا الكرة عليهم ، لا يمكن أن يتركوهم ليغزوهم فى عقرب دارهم .

ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هذه الغزوة ارهاصا لبدر الكبرى ، فقد كانت العير هى التى استولى عليها المؤمنون .

لماذا كانت هذه الغزوات ؟ :

٣٧. --- قد خرجت غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث مرات ، وخرجت أربع سرديات لم يحصل قتال فى السرايا ، ولا فى الغزوات الا سدهما أرسله سعد بن أبى وقاص فى سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسهما قتل ابن الحضرمى فى سرية عبدالله بن جحش ، وكانت سهما عائرة ، لأخذ العير ، ولا يمكن أن يسمى ذلك قتالا ، انما يسمى محاولة لأخذ مال هو من بين ما اغتصبه المشركون من المؤمنين ، ان أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله .

إذا لم يكن قتال بمعنى كلمة قتال التى تكون مفاعلة من الجانبين ، فلماذا كلف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه ورجاله مؤنة هذا الخروج ، ونقول فى الاجابة عن ذلك :

(١) ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج من مكة المكرمة ، وهو هضيم ، أو شبه مطرود فى ظاهر الأمر ، وما هو الا ليجمع قوة الحق ، فكان لابد أن يعمل على اظهار ما أيده الله سبحانه وتعالى به من قوة ، تستطيع أن تشعر الظالمين بأن للحق شوكة ، وأنهم اذا لم يتركوا الدعوة فى طريقها رغبا ، فانهم لابد أن يتركوها رهبا ، ولابد للحق فى هذه من صولة تكفى أذى الباطل ، أو على الأقل تجعل الباطل يتردد عند انزال أذاه ، وأنه ان لم يخش صوت الضمير ، فانه يخشى صلصلة السيوف . فكانت هذه السرايا وتلك الغزوات مظاهر من صولة الحق ليرتكوا الدعوة الى الحق تسير فى سبيلها ، ولتستيقظ ضمائر كانت نائمة ، فمن الضمائر ما لا يستمع لصوت الحق الوادع الرفيق ،

ولكنه يستيقظ • اذا رأى جلجلة القوة ، فيخفف من حدة الأذى ، ويثبّع ذلك أن يسير فى طريق الهداية ان لم يكن الضلال قد كتب عليه •

(ب) وانه اذا لم يكن قتال ، فقد كان هنا دراسة للمؤمنين فى البلاد العربية يتعرفون وهادها ، وجبالها • ويدرسون مجاهلها ، فيعرفها من لم يكن يعرفها ، ويلتقون فيها بالأعراب فى أخبيتهم ، ومساكنهم ، وفى ذلك اعلان الدعوة لمن لم يكن يعلمها ، وتوجيه العقول اليها وتوضيحها وبيانها •

وان فى هذه الجولات التى كان يجولها أولئك المؤمنون فى السرايا التى بعث بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تعرفا لمسائر غير قريش ، وما كانت الا للتجار الأغنياء فيهم ، فما كان للشعب فيها الا النزر اليسير ، وما كانت تلك البعوث التى تتبع غير قريش لأخذها ، الا ليكون هذا بدل ما اغتصبوا ، وقد قلت من قبل ، ان ذلك لم يكن حصارا اقتصاديا ، كما يجرى فى عبارات الكاتبين والمحاربين والسياسيين فى هذا الحصار كالذى تجرى كلماتها فى عصرنا يقصد به التضيق على الأمة التى يعادونها فى موارد رزقها ، فلا يرسل اليها طعام ، ولا المواد الضرورية للحياة والعمران ، بحيث يعم الضيق الشعب كله ، وما كان ذلك فى سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا فى غزواته انما كان الاتجاه الى محاربة التجار الذين كانوا يقومون بالتجارة ، وجلهم أو كلهم ممن حاربوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واشتركوا فى اىذاء أصحابه ، واخراجهم من أموالهم وديارهم ، فما كان فعله عليه الصلاة والسلام حربا اقتصاديا يعم البرىء والسقيم ، بل هو مصادرة لمال ظالم اغتصب أموال المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، كما تلونا من الآيات من قبل ذلك •

(ج) وان غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع ما فيها من نشر الدعوة الى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كان فيها تأليف للقلوب ، ففيها عقدت اتفاقات على النصرة والايواء ، وفى غزوة بوان اتفق عليه الصلاة والسلام مع بنى ضمرة على أن ينصروه اذا دعاهم الى النصرة ، وينصرهم اذا دعوه •

وفى غزوة العشيرة عقد مع بنى مدلج ، وحلفائهم من بنى ضمرة اتفاقا على المناصرة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم ووثقه بكتاب كتب ، كما نقلناه من قبل من الروض الأنف للسهيلى •

وإذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغز لحرب ، فقد غزا قلوبا ،
وألّفها لتكون قوة لأهل الحق ، وليدخل الايمان الى قلوبهم ، لأن تألف القلوب
المسبيل الى دخول الحق اليها لكيفا تنفر ، فتعمى .

ويلاحظ أن هذه البعوث كلها كان جنودها من المهاجرين ، فأمرأؤها من
المهاجرين ، وغزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان الجنود فيها من
المهاجرين ، ولم يكن فيهم من الأنصار أحد . فلم يندب النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم أحدا من الأنصار الا فى بدر ، ولذا كان ذلك ! ولا بد أنه كان
مقصودا منه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يجيء اذا اتفاقيا من غير قصد له
بالذات .

والجواب عن ذلك :

أولا : أن المهاجرين هم الذين أودوا فى أبدانهم وكراماتهم من أولئك
المشركين ، فهم أشد الناس رغبة فى القصاص ممن أذوهم والقصاص شريعة
لحكمهم ، فكانوا أولى بقاء قریش من غيرهم ، ولأنهم هم الذين استضعفوا
وأراد المشركون اذلالهم ، فكانوا فى لقائهم بالمشركين وفرارهم منهم أشد
تبينا لبيان أن الحق قد علا . وأنهم مكن لهم فى الأرض وأن ذلك يكون أروع
وأوقع ، وماذا تكون حال الصناديد من قریش اذا رأوا عمار بن ياسر وقد
أوذى هو وأبوه وماتت أمه تحت حر العذاب . حتى قال لهم رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم : « اصبروا آل ياسر فان موعدكم الجنة » ، فماذا
يكون وقع ذلك فى نفوس الغلاظ اذا رأوا عمارا العملاق واقفا لهم بتمكين الله
سبحانه وتعالى .

ثانيا : أن الذين أخرجوا من أموالهم وديارهم هم المهاجرون ، فكانوا
أحق الناس بأن يطالبوا بما لهم الذى اغتصب ، وديارهم التى خربت ، وأن
يكفوا عن أهلهم وضعفائهم الذين لم يهاجروا شر أولئك العتاة أو يعطوهم
وبال أمرهم جزاء بما اكتسبوا .

ثالثا : وهو عمدة الأسباب وقوتها - أن عهد النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم كان على الايواء والنصرة وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونسائهم

وذرّياتهم ، ولم يكن فى ذلك النص على أن يخرجوا معه فى حرب ، وإن فهم ضمنا أنهم يكونون معه فى الحرب والسلم ، فلم يرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا معه فى غير ما نص عليه العقد نصها صريحا لا تأويل فيه ، ولذا لم يدعهم الى الخروج معه فى هذه الغزوات وتلك السرايا ، وكان فى المهاجرين غناء بالنسبة لهذا الغزو المحدود .

ولذلك لما جد الجد ، وجاء جيش كثيف من المشركين عدته تجاوزت الألف استشارهم ، لتكون الاجابة رضا بأن يشتركوا فى الحرب ، وتلك الاستشارة كانت عند الاقدام من قريش برجلها وعتادها وفرسها ، فكانوا عند رجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، وعلى ما دفعهم اليه ايمانهم ، وهو أوثق العهود .

تحويل القبلة وفرض الصوم

٣٧١ — لم يكن عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب وارسال البعث ، وعقد المعاهدات ، وتنظيم شئون المدينة المنورة وما حولها • لم يكن ذلك عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقط ، بل كان عمل النبي عليه الصلاة والسلام مع ذلك تنظيم الدولة بوحى من الله سبحانه وتعالى ، فما كان ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، فأصل الجهاد بوحى من الله سبحانه وتعالى ، ولكن الترتيبات الجزئية والترتيبات التنفيذية ، وكل ذلك الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليقوم بمثله من بعده عند انقطاع الوحي ، وله فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة ، ولم يكن تنظيم الدولة فقط ، بل كانت التكليفات التى يتلقاها عن الله سبحانه وتعالى من العبادات ، والتكليفات الاجتماعية التى من شأنها أن تربي روحاً قوية لتجعل من اتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة متحدة ، فى نظام اجتماعى متماسك قوى تربطه أشد عناصر الترابط الاجتماعى الذى يكون مجتمعاً متكافلاً •

ولذلك كانت الفترة ما بين جمادى الآخرة ، أو بالأحرى ما بين رجب ورمضان ، أو الشطر الأكبر منه كانت تلك الفترة زمان شرعية أمور من العبادة ، تتصل بتقوية النفس وتقوية المجتمع •

وفى هذه الفترة شرع تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة المشرفة . وفى هذه الفترة فرض صوم رمضان ، وفرض مع صوم رمضان صدقة الفطر ، وهما فرضان اجتماعيان كما سنبين •

وتحويل القبلة ايدان من الله سبحانه وتعالى بأزالة الأصنام ، أو الأخذ فى أسباب هذه الازالة •

تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة

٣٧٢ — عندما فرضت الصلاة بعد الاسراء والمعراج على انها خمس صلوات ، وان كان لها ثواب خمسين صلاة ، ان اقيمت على وجهها ، كانت قبلة المسلمين الى الشام ، الى بيت المقدس ، ولكن تتوسط الكعبة الشريفة ، فيكون الاتجاه الى الكعبة الشريفة على ناحية بيت المقدس ، فكان المصلى يجمع فى صلاته بين القبلتين بأمر ربه .

ولما هاجر الى المدينة المنورة لم يكن الجمع ممكنا ، بل لابد من استدبار احدى القبلتين ، وقد ترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ، والكعبة الشريفة تحيط بها الأوثان ، ولم يكن ثمة ما يؤذن من الأمور بزوالها ، فكان استقبالها لا يخلو من استقبال الأوثان المحيطة بها ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على أن تكون الكعبة الشريفة هى القبلة ، وحريصا على أن تزول الأصنام عنها .

وقد أمره الله سبحانه وتعالى بأن تكون القبلة الى بيت المقدس مؤقتا ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يؤذن بأن تخرج الكعبة الشريفة عما هى ، ولعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم بأمر ربه أن استقبال بيت المقدس ، واستدبار الكعبة الشريفة أمر مؤقت وأن النهاية الى الكعبة الشريفة ، وأن الاتجاه اليها ايدان بذهاب دولة الأوثان ، وطهارة البيت الحرام .

ولذلك كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يقرب الوقت الموعود بالعودة الى الكعبة الشريفة ، لأن العودة الى الكعبة الشريفة عودة الى كعبة ابراهيم أبى الأنبياء ، ولأن الاتجاه اليها ، ايدان بنصر الله سبحانه وتعالى ، وايدان بازالة الأوثان بعد زمن طلال أو قصر ، وان كان فى عمر السنين والحساب ليس كثيرا .

وفى هذا الوقت كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يقرب البعيد ، وكان اليهود يتوهمون أن جعل القبلة الى بيت المقدس معناه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لا يكون خارجا عن انبياء بنى اسرائيل ، وهو وهم باطل سكن فى نفوسهم التى تتخيل ثم تحال ثم تعتقد ، كشأن أصحاب الديانات الذين لا يؤمنون بالديانة الا على أن تكون امانى لهم أو تتفق مع امانهم .

قبيل بدر كان الايذان بزوال دولة الأوثان التي كان يومها يوم الفرقان ،
قد اذن الله سبحانه وتعالى بتحويل القبلة الى الكعبة الشريفة ، أو بالأحرى
اعادة القبلة الى الكعبة الشريفة ، اذ نزل قول الله سبحانه وتعالى :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل
الله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » وكذلك جعلناكم أمة
وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا
القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان
كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم ، ان الله
بالناس لرؤوف رحيم . قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة
ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم
شطره ، وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ، وما الله بغافل
 عما يعملون . ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما انت
بتابع قبلتهم . وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما
جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين » .

كان تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة ، بهذا النص وهو يدل على أمرين :

أحدهما : أن أهل الكتاب هم الذين كانوا يقولون : ما ولاهم عن قبلتهم
التي كانوا عليها ، وأنهم كانوا فرحين ، اذ أن المؤمنين كانوا يتبعون قبلة بيت
المقدس .

ثانيهما : أن نص الآية يشير الى أن جعل القبلة الى بيت المقدس كان
حكما مؤقتا يزول بزوال سببه ، ولذلك لا نعتقد أنه نسخ ، ولكنه انتهاء حكم
مؤقت بانتهاء وقته المعلوم ، وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك .

بقي أن تعرف الميقات الذي كان فيه التحويل !! لقد رويت في هذا
روايات ظاهرها الاختلاف ، ولكن الاتفاق على أنها كانت بعد جمادى الآخرة ،
والاختلاف أكان ذلك التحويل في رجب أم كان في شعبان فروى عن قتادة
وزيد بن أسلم وعبد الله بن عباس أن ذلك كان في رجب ، وروى أنه كان في
شعبان ، وكلام ابن اسحاق يومئذ الى ذلك ، اذ يقول انها كانت بعد سرية
عبد الله بن جحش ، وما كانت في آخر رجب ويقول في هذا المقام :

« قال ابن اسحاق كانت بعد غزوة عبد الله بن جحش ، ويقال صرفت
القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم رسول الله » (صلى الله
عليه وسلم) . وحكى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس ، وناس من

الصحابة ٠٠ قال الجمهور الأعظم انما حولت فى النصف من شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة ٠٠ وعن محمد بن سعد الواقدى انها حولت يوم الثلاثاء فى النصف من شعبان ٠

ومهما يكن فقد ذكر الحافظ بن كثير ، أنه يميل الى هذه الرواية التى تقول انها فى النصف من شعبان وذلك لأنه رأى الجمهور الأعظم ، كما يقرر ابن كثير ، وما كان الجمهور ، ليتجه الى رواية الا اذا ثبتت لديه صحتها ، ورأينا دائما أن ما يتلقاه الناس وفيهم العلماء بالقبول لا يرد الا اذا ثبت بدليل قاطع أو راجح بطلانه ٠

واننا قد رأينا أن نصف شعبان يحتفل به المسلمون على أساس أنه يوم مبارك ، والاحتفال به يتفق مع كونه اليوم الذى تحولت فيه القبلة من بيت المقدس الى الكعبة الشريفة ، وكلاهما مقدس ، اذ هو فرحة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

على اننا نلاحظ أن ابن كثير قدر المدة بين الهجرة ، أو مقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بثمانية عشر شهرا ، وأنه باستقراء عدد الأشهر من وقت مقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى منتصف شعبان لا يكون قد مضى ثمانية عشر شهرا ، ذلك أن الهجرة كانت فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ، فاذا احتسبنا ربيع الثانى وجمادى الأولى والآخرة ، ورجبا يكون سبعة عشر شهرا وإياما ٠

صوم رمضان

٣٧٣ — هذا ما يتعلق بالقبلة ، أما فرضية صوم رمضان ، فقد روى ابن جرير أن ذلك كان فى شعبان كما كان فيه تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة ، فهو شهر مبارك •

وقد روى أن فرضية الصوم أخذت ثلاثة أدوار :

الدور الأول : كانت عندما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ، فقد وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عنه ، فقالوا هذا يوم نجى الله سبحانه وتعالى فيه موسى ، فقال عليه الصلاة والسلام : نحن أحق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر الناس بصيامه هذا هو الدور الأول ، وقد يفهم منه أن ذلك كان باجتهاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونحن لابد أن نقدر مع ذلك وحى الله سبحانه وتعالى ، والا ما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليأمر الناس بعبادة أن لم يكن قد نزل وحى الله سبحانه وتعالى بذلك •

الدور الثانى : عندما نزل قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون • أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم أن كنتم تعلمون » •

وقد قال ابن كثير فى هذا الدور انه كان المؤمن بخيار بين أن يصوم ، وبين أن يفطر ، وهذا نص قوله فى هذا الدور ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينا ، فأجزأ عنه ، وفى ذلك نظر سننبيه ، أن شاء الله تعالى بعد ذكر الدور الثالث •

الدور الثالث : هو فرضية الصيام فى شهر رمضان ، فقد سبحة وتعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيّن من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر ، فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » •

ويذكر ابن كثير فى هذا الدور حاليين :

أحدهما : أنهم كانوا يأكلون ويشربون حتى يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا •

والحال الثانية : وهى الأخيرة أن الله سبحانه وتعالى أباح لهم الرفث إلى نسائهم وأن يأكلوا ويشربوا حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذه الحال الأخيرة بقوله سبحانه وتعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تخفون أنفسكم فتأب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا ، حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » •

ولنا أن ننظر فى كلام الحافظ بن كثير من ناحيتين :

الأولى : أنه ذكر أنه عند فرضية الصوم كان المؤمن مخيرا بين أن يصوم ، وأن يفطر ، ويقدم فدية طعام مسكين ، ولعله فهم هذا من قول الله سبحانه وتعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ونحن نرى متبعين للسلف أو على الأقل لبعضهم أنه لم يكن تخيير بين الصوم والافطار - أولا ، لأن ذلك يناهى الفرضية ، وقد ثبتت الفرضية مؤكدة فى قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات » • فقد تأكدت الفرضية بالتعبير عنها « بكتب » وبيان أن فرضية الصيام شريعة أزلية ، دائمة كتبت على المؤمنين ، كما كتبت على غيرهم ، ثم أفاد كلام الله سبحانه وتعالى أنها ذريعة إلى تقوى الله ، وتقوى الله مطلوبة فى كل الأحوال •

الثانية : أن الله سبحانه وتعالى فرض على المترخص بالسفر أو المرض أن يصوم فى أيام أخر ، فدل على أن الأيام محدودة معلوم وقتها ، وعلى أنها لا تفوت وتترك إذا كانت أعذار ، بل يجب أن تقضى ، ولو كان ثمة تخيير لذكر التخيير هنا وما وجب القضاء فى أيام أخر ، ويكون ذلك للمسافر أو المريض المقيم •

والثالثة : أن آية كتب عليكم الصيام ، فى سياقها « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فلا يعقل أن تكون آيتان فى نص واحد ، أحدهما ناسخة

والأخرى منسوخة ، بل المعنى المتسق هو أن يكون قول الله سبحانه وتعالى :
شهر رمضان بيان للأيام المعدودة •

والرابعة : أن قول الله سبحانه وتعالى : « يطيقونه » ، معناها الذين
يبلغون أقصى الطاقة في الصوم ، ولا قبل لهم بالاعادة من بعد ، فإن عليهم
القدية ، وقد روى أن هذا النص ينطبق على الشيخ والشيخة اللذين يبلغان
أقصى الطاقة في الصيام ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، ومثلهما الزمن
والمرضى بمرض ، لا رجاء في البرء منه •

والخامسة : أن قول الله سبحانه وتعالى : « فمن تطوع خيراً فهو خير
له وإن تصوموا خير لكم » لا تدل على التخيير ، لأن الواضح منها هو صوم
التطوع ، لا صوم الفريضة •

بقى أن ننظر نظرة فاحصة فيما ذكره من أنه بعد الفرضية ، كان الفرض
أن يمنع الأكل والشرب ، والرفث إلى أزواجهم بعد النوم ، وأنه من بعد ذلك
أبيح إلى الفجر ، ونقول في ذلك انه لم يثبت من نص قرآني ، ولا من حديث
نبيي أنه بمجرد النوم تنتهي إباحة الأكل والشرب ، وغيرهما ، بل الثابت
أنهم فعلوا ذلك ، أو أن بعضهم على التحقيق فعل ذلك ، أكان هذا من فهم
فهموه ، أم من نص أدركوه ، وإذا كنا نبحت عن النص المروي في ذلك عن
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلا نجد أن المراجع أن يكون ذلك من فهمهم
لفرط تورعهم ، ويرشح لهذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى : « علم الله أنكم
كنتم تخفانون أنفسكم » والمعنى أنكم تريدون صيانة أنفسكم ، وقد فسر الراغب
الأصفهاني الاختيان بأنه مرارة الخيانة ، وإنى أرى أن خيانة النفس بتكليفها
مالاتطبيق •

ولهذا أرى أن ذلك فهم فهموه ، فصحح القرآن الكريم الأمر ووضحه
وبينه فلم تكن هذه حالا جديدة •

وإنى أعتقد مؤمنا أن الآيات الكريمة من أول فرضية الصيام إلى آخر
الآيات الكريمة المتعلقة به نسق واحد ، ليس فيها ناسخ ومنسوخ ، والله أعلم •

فرضية زكاة الفطر

٣٧٤ — وفى هذه السنة فرض الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر ، ويبدو من سياق الحوادث أنها كانت تابعة لفرضية الصوم ، ولذلك روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بفرض صدقة الفطر ، قبل الإفطار فى رمضان هذه السنة بيوم أو يومين ، وقال الحافظ ابن كثير : وفيها أى فى السنة الثانية صلى النبي عليه الصلاة والسلام صلاة العيد ، وخرج بالناس فصلى بالناس الى المصلى ، فكانت أول صلاة عيد ، وخرج بالناس الى المصلى وصلوها ، وخرجوا بين يديه بالحرية ، وكانت للزبير وهبها له النجاشي ، فكانت تحمل بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الأعياد .

وكان حملها بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مجتمع الأعياد الجامع ، اشعاراً بالوحدة الجماعية التى تقوم بالعبادة ، وأنها قوية عزيزة بعون الله سبحانه وتعالى لا ذلة فيها ، بل فيها العزة والكرامة .

وان زكاة الفطر يبدو من السياق التاريخي أنها شرعت بعد واقعة بدر الكبرى ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بها قبل عيد الفطر بيوم أو يومين .

أما الصوم ، فمن المؤكد أنه فرض قبل يوم الفرقان فى شعبان على الأرجح .

وان من الرواة المتأخرين من يقول : ان الزكاة التى تفرض فى المال ، وتسمى زكاة المال قد فرضت فى هذه السنة ، فيقول : وفى هذه السنة — أى السنة الثانية — فرضت الزكاة ذات النصب كما ذكر غير واحد من المتأخرين .

وقبل أن ننهى الكلام فى رمضان وصدقة الفطر نذكر أمرين جديرين بالنظر :

أولهما : أن صريح الأحاديث الواردة فى صدقة الفطر يفيد بأنها فرض ، ليست سنة مؤكدة ، ولا واجبة وجوباً دون الفرض ، كما يقرر الحنفية ، ولقد روى الترمذى بسند أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث منادياً فى حجاج مكة المكرمة « ألا ان صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر وإنثى ، حر وعبد

صغير أو كبير « أى أنه يجب على الغنى أن يدفع زكاة كل واحد من هؤلاء
لأنه يمولهم » .

ولقد قال ابن القيم : « وكان من هديه صلى الله تعالى عليه وسلم
تخصيص المساكين بصدقة الفطر ، ولم يكن يقسمها على الأصناف الثمانية
(أى المذكورة فى قول سبحانه وتعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين
والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والمسلمين وفى سبيل الله وابن
السييل » ولا أمر بذلك ، ولا فعله أحد من أصحابه ، ولا من بعدهم ، بل أحد
القولين عندنا (أى الحنابلة) أنه لا يجوز اخراجها الا على المساكين عامة ،
وهذا القول أرجح » .

وان هذه الصدقة فيها معنى اشراك المساكين فى أفراح العيد بأن
يغنونهم عن السؤال فى هذا اليوم ، كما ورد عن النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم .

ثانى الأمرين اللذين يجب التنبيه اليهما : أن الصيام فرض قبل غزوة
بدر يوم الفرقان ، لأن الصوم ، يربى ضبط النفس وينمى روح الصبر ، ويعلى
الإرادة ، وهذه هى أدوات الجهاد النفسية ، فان عدة الجهاد هو الصبر .

فكان فرضه تمهيدا لما يجىء من بعد ، وهو يوم الفرقان .

يوم الفرقان

بدر العظمى

٣٧٥ — كانت الغزوات التي قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أول العام الثاني من الهجرة ، والسرايا التي قام بها أصحابه بأمر منه ، لاشعار قريش بأن الاسلام صارت له قوة تناوئ من أدوا أهله • وحاولوا فتنه الضعفاء عن دينهم ، فأرهبهم ليحولهم عن اعتقادهم ، فلم ينالوا خيرا •

وكانت ليتعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخل البلاد العربية ، ويشعرهم بوجود الاسلام ، ويتألف قلوبهم ليجمعهم من بعد على كلمة الحق ، وقد عقد عليه الصلاة والسلام مع بعضهم موثيق عدم اعتداء ، والنصرة لهم وبهم •

وكان من بعد ذلك أن يلاقى صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لا بسرية يرسلها ، ولكن بغزوة يغزوها بنفسه ، وقد مهدت الأسباب ، وعلم المشركون أنه صار للمسلمين قوة يقدرون معها عواقب أمرهم •

وانه عليه الصلاة والسلام قاطع عليهم طريق تجارتهم ، فقد صارت الحرب قائمة بعد أن أخرج المؤمنون من ديارهم ، وبعد أن هموا بقتله ، وأخذوا العدة . فما ان علم بتجارة لهم ذاهبة الى الشام أو عائدة ، حتى يبادر اليها •

ولما قتل عبد الله بن جحش في سريته ابن الحضرمي كما أسلفنا ، وأسر المسلمون من أسروا أحس المشركون من قريش فكانوا يحصنون تجارتهم بحراس •

خرجت قريش بتجارة عليها نحو أربعين مقاتلا ، وسارع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل سرية ابن جحش ليدركها ، ولكنها أفلتت ، وكانت فيها أموال ذوى المال من قريش ، فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يترصدها عند عودتها من الشام ، وتتبع أخبار قريش وأخبارها •

العيير :

٣٧٦ — علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عير قريش قافلة راجعة من الشام ، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا ، فندب المسلمين اليهم ، وقال عليه الصلاة والسلام :

« هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله سبحانه وتعالى ينفلكموها » .

فخف بعضهم استجابة لنداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وثقل بعضهم ، وإن كان على استعداد ، لأنهم لم يتوقعوا قتالا ، كما كان في السرايا والغزوات السابقة ، فأنهم لم يلتقوا بالمشركين ، ولم يكن قتال .

وإن أبا سفيان الذي كان على رأس العير التي حملتها ألف بعير ، كان يتخوف من أن يلقاه المسلمون فيأخذوه ، كما أخذوا عير ابن الحضرمي وقتلوه ، ولذلك كان يتحسس أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، ويتعرف حركاتهم .

فكان يسأل من يلقى من الركبان ، حتى أصاب خبرا ، بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استنفر أصحابه للقاء أبي سفيان ، وعيره ، وتأكد أن المصير الذي سيلقاه هو والعير هو ما لقيه ابن الحضرمي وعيره .

وقد دفع به الحرص على عير قريش الى أمرين :

أحدهما — أنه مال عن طريق بدر ، ونجا بعيره ، وجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المهاجرين فوجدوا العير قد أفلتت منهم ، ولم ينالوا منها ، وعلموا أن وراءها القتال .

الأمر الثاني : أنه أرسل الى قريش يستغيث بها لتحمل عيرها التي معه ، وليعمل على أمن الطريق من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وليجهز جيشا يقضى على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أصحابه .

أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري يبين ما تتعرض له العير ، وإن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصحبه يتعرضون لها ، فذهب ضمضم يصرخ ببطن الوادي ، واقفا على بعيره وقد جدعه وحول رحله ، وشق قميصه ليستدعى

الناس ، وبينهم الى ما يقول ، ثم قال : « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة (١) أموالكم مع أبى سفيان ، قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث » .

كانت تلك الكلمات الحارة مع المظهر الذى ظهر به دافعة القوم الى أن يندفعوا معتمزين الدفاع عن أموالهم ، وانقاذها ، فكانت قريش ما بين رجلين ، رجل اعتزم أن يخرج بنفسه ، وآخر ينيب عنه من يدافع عن ماله ، ومال قريش كلهم ، وبينما هم قد تجهزوا وأعدوا العدة بلغهم أن العير قد نجا بها أبو سفيان إذ غير الطريق كما أشرنا ، فأرسل الى قريش يبشرهم بنجاة العير ، إذ قال لهم : « انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ، ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله ، فأرجعوا » .

وبذلك ذهب السبب الذى كان من أجله الخروج ، ولكن لأجل الحقد والعنف فى قلوب بعض المشركين ، وعلى رأسه أبو جهل أبى الا مضى الى بدر ، فقال : « والله لا نرجع حتى نرد بدرا » .

فرد كلامه بعض حلفاء بنى زهرة ، وقال وهم بالحجفة :

« يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة ابن نوفل (وكان فى حماة العير) وانما كفرتم بنعمته وماله ، فاجعلوا لى جنبها وارجعوا ، فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا على غير ضيعة ، لا ما يقول هذا الرجل (أى أبو جهل) فلم يشهدا زهرى واحد » .

ولم يكن بقى من قريش بطن الا وقد نفر منهم ناس ، وبنو عدى بن كعب لم يخرج منهم .

وكانت محاورات فى صفوف الذين خرجوا للقتال من شأنها أن توجد ترددا فى الخروج ، وقد قال بعضهم فى محاوراة لطالب بن أبى طالب ، وقد استعد للخروج « لقد عرفنا يابنى هاشم ، وان خرجتم معنا . ان هواكم لمع محمد » . فغضب لذلك طالب . ورجع مع من رجع .

كان هذا التردد والرجوع من بعضهم بعد أن خرجت رجالات تريش للدفاع عن العير ، ولا شك أن من بقى مصررا على القتال قد نهته من عزيمته ذلك الخلاف ، مع رجوع بعضهم ، وخصوصا أن سبب الخروج قد زال .

(١) اللطيمة : الابل التى تحمل الحرير والطيب وغيرهما .

ومهما يكن من أمر ذلك التردد فقد خرجت قريش على الصعب والزلول
فى خمسين وتسعمائة مقاتل معهم مائتا فرس يقودونها ، وأعداد من الابل
تجاوزت الحسبة ، ومعهم القيان يضربن بالدقوف ، ويتغنين بهجاء المسلمين •

٣٧٧ — لنترك هؤلاء وغيرهم وجيشهم وقيانهم ، ولنذكر العطر من
أخبار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقد خرج رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم بنحو تسعة وثلاثمائة أو حول هذا العدد ، وكان فى هذه المرة
من المهاجرين والأنصار قاصدين بدر ، ليلقوا العير هنالك ، فلم يدركوها ،
وفر بها أبو سفيان مخالفا طريق بدر جاعلا بدر على يساره ، وبذلك نجا العير
ومن معه •

وعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مما تحسس من أخبار أن قريشا
قد خرجت فى هذا العدد بجيش لجب فيه الأفراس والابل ، وأنه إذ فر منه العير
فقد لقى النفير ، وانها الحرب لا محالة •

ولذلك أخذ بجمع قلوب جنده ، بعد جمع عددا وان كان قليلا فى عدده هو
قوى فى إيمانه ، انه واثق من المهاجرين والأنصار ، ولكن خشى أن يفهم الأنصار
أن العهد لا يلزمهم أن يخرجوا معه ، بل يلزمهم العهد ان دهم فى المدينة المنورة
وأن ليس عليهم أن يسيروا معه لقتال عدو لم يجرى الى بلادهم ذلك أن صيغة
العهد أنهم قالوا : يا رسول الله (عليه الصلاة والسلام) انا براء من ذمامك
حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع به
أبناءنا ونساءنا •

وربما توهم بعضهم أن هذا العهد لا يلزمهم بالخروج ولابد من اليقين
عند الحروب ، لذلك أراد أن يتعرف ما فى قلوب أولئك الذين آووا ينصرونه فى
هذا الموطن ، وقد خرجوا للعير ، لا للنفير •

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ليظفر بمشورة
رجل حسن المشورة ، وليتعرف حال جنده مهاجرين وأنصارا بصفة خاصة •

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال أبو بكر وأحسن
القول ، وقال عمر بن الخطاب فأحسن القول ، وما كان يريد قول عمر
وأبى بكر ، فهو مستيقن بإيمانهما وإقدامهما ، ولكنه يريد من وراءهم •

فقام المقداد بن عمرو واقفا وقال :

يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) امض يا أراك الله ، فنحن ، والله

لا نقول لك ، كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « اذهب انت وريك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب انت وريك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك ، من دونه ، حتى نبليغه » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له .

وهنا استيقن من المهاجرين ، وبقي أن يطمئن الى الأنصار الذين قد يتوهمون أن العهد الأول لا يلزمهم بالخروج ، فقال : اشيروا على ايها الناس (يريد الأنصار) .

قال سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أجل » .

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

عندئذ آمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى قد صدق وعده ، وأن معه جيشا يؤمن بالله وبالحق ، وأنه لا يتردد ، ولذلك سر عليه الصلاة والسلام بقول سعد ، ونشطه قوله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » .

هذا هو جيش النبی صلى الله عليه وسلم عقد العزم وتأييده قوة الله سبحانه وتعالى .

الجيشان

٣٧٨ — رأيت الجيش النبوى قد ربط نفسه وقلبه بالحق ، ولكن عدده قليل ، وعدته ناقصة ، فلم يكن فيه الا فرسان وأربعون بعيرا لأكثر من ثلاثمائة مجاهد ، فكانوا يعتقبون البعير ، يتبادلون أكثر من أربعة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعتقب معهم ، حتى اذا كان سيره أرادوا اعفاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست أقل منكم قوة ، ولا أقل منكم طلبا للأجر .

وجيش الشر كان خمسين وتسعمائة كما ذكرنا ، وكان معهم سبعون فرسا ، وكان معهم العدد الكثير الذى يركبونه والذى يذبحونه فى ماكلتهم ، ولكنه تنقصه العزيمة والايمان ، بل الرغبة القاطعة فى القتال فالتردد فيه قد كان من كثيرين منهم ، ومنهم من تورط فى القتال ، ولم يكن له فيه ارادة .

(أ) انهم خرجوا من أجل حماية عيرهم ، ودفعتهم الرغبة فى حماية حماها ، الى أن يتقدموا على الصعب والزلول لحمايتها ، وانهم ان لم يفعلوا فقدوا المال ومعه النعمة . ونالتهن المهانة فى العرب ، وقد أرسل اليهم أبو سفيان يذكر لهم أنه نجا بالبعير ، وقال : « انما خرجتم لتمعنوا عيركم ورجالكم واموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا » .

واذا زال السبب ، فليس لهم ما يبعث حميتهم لقتال ، ولكن الحقد الدفين ، والحسد لبني هاشم حرك أبا جهل ، فدفعهم الى المضى فى القتال حقا وحسدا ، واندفع معه من هو على شاكلته .

(ب) وجاء بنو زهرة فتخلفوا جميعا لهذا السبب ، وقال قائلهم ، لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة ، ورموا أبا جهل بالحمق والجهل .

(ج) ان بعض القرشيين الأقوياء الذين لهم مكانة فى قومهم ترددوا فى الخروج كأمية بن خلف ، فانه امتنع عن الخروج ، جاء فى سيرة ابن اسحاق أن أمية بن خلف ، كان قد أجمع القعود ، وكان شيخا جليلا جسيما فأتاه عقبة ابن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهرائى قومه بمجرة يحملها نارا ومجر (أى بخور) حتى وضعها بين يديه . ثم قال : يا أبا على استجمر فانما أنت من النساء .

قال أمية : قبحك الله ، وقبح ما جئت به – وتجهز ذلك الرجل ذو المكانة من غير حماسة ، ولكن خشية الملامة وأبو لهب الذى كان يخذل الوفود العربية فى الحج عن متابعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يذهب الى القتال بنفسه وأتاب عنه العاصى بن هشام بن المغيرة فى نظير تركه ديناً له كان قد أفلس به ، فجعله فى نظير خروجه •

ولم يذهب طالب بن أبى طالب ، لأنه كما قال بعض القرشيين : كان هوى بنى هاشم مع محمد الهاشمى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكان خروج العباس ، وهو الهاشمى الأول غريباً ، لأنه كان يذهب مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند لقائه مع الأوس والخزرج فى العقبة الثانية ، ويطمئن على حمايتهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويبين لهم أنه فى منعة من قومه ، وأنهم أن لم يمنعوه ، فليتركوه فى حماية قومه ، فما كان ليخرج ويقاى جيش ابن أخيه • وهو يريد هزيمته ، بل خرج ليديراً عن نفسه ملامة قريش الذى يعد من كبرائها ، وليكون له دائماً السلطان فيهم ، ولا يكون فرداً ما بينهم •

وأنا نحسب أن أبا سفيان نفسه لم يكن مؤمناً بضرورة هذه الحرب بدليل رسالته التى أرسلها الى قريش •

(د) وان قريشا فى جملتها خافت من الحرب ذلك أنهم بعد أن فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب ، فخشوا أن يأتوهم من ورائهم ، وقال قائلهم انا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، ونراهم قد فزعوا من الحرب ، وظنوا أن ما وراءهم من عورات أكثر مما يستقبلهم من حروب ، فما كانوا مؤمنين بالحرب ، ولا معتزمين لها الا ما كان ممن أعماهم الحقد والجهل والحسد – وهم أيضاً كانوا يرهبون المؤمنين ، ويخافونهم ، وكان من بعضهم عندما التقى الجمعان أو أوشكا على اللقاء فى وقت يثبط عن القتال ، وقد صارقاب قوسين أو أدنى ولعله كان يثبط لحقن الدماء ، وقد بدا من كلامه ما يدل على أنه يريد الرحم لا الحرب مع الاختلاف فى العقيدة •

روى ابن اسحاق بسنده ، أنه لما اطمأن القوم (أى المشركون) بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا احرزوا لنا أصحاب محمد • فاستجبال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع اليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً ، أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمين أو مدد فضرى فى الوادى حتى أبعد ،

فلم ير شيئاً ، فقال ما وجدت شيئاً ولكنه بين رهبة الموقف وإن العبرة ليست بالعدد ، ولكن بقوة النفس وإرادة الموت ، فقال مخاطباً الجيش ، وهو على أهبة القتال :

« يا معشر قريش ، البلى لا تحمل المنايا ، نواضح (١) يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم ، حتى يقتل رجل منكم ، فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، قروا رأيكم » .

سمع حكيم بن حزام ذلك القول ، ومشى فى الناس ، فذهب الى عتبة ابن ربيعة فقال له يا أبا الوليد انك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل الى أمر لا تزال تذكر فيها بخير الى آخر الدهر ، قال : وماذا يا حكيم ، قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي (أى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش) قال : قد فعلت أنت على بذلك . إنما هو حيلفى ، فعلى عقله .

بعد ذلك مباشرة قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، وقال :

يا معشر قريش ، انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لأن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه أخيه يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه . أو ابن خاله . أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك القاكم ، ولم تتعرضوا منه ما يريدون .

تسامع الجيش بذلك ، ولكن كان أبو جهل حامل الحطب يريد ما ويدفعه الحسد ، فحرض عامر بن الحضرمي أخا عمرو الذى قتله أصحاب النبی صلى الله تعالى عليه وسلم على المتأداة بثأره فصرخ وأعمراه . فحميت النفوس واشتد الناس واجتمعوا على ما هم عليه من الشر .

وننتهى من هذا الى أن إرادة الحرب كانت ضعيفة مترددة عند قريش وفى جيشها ، إذ زال باعثها وداعيتها وتردد ذور الرأى فيهم ، ومنهم من تنادى بالرحم ، ومنهم من أفزعه حال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وإرادتهم الموت فى سبيل الله سبحانه وتعالى .

وفوق ذلك كان الجيش القرشي يخشى ما وراءه .

(١) النواضح : الأبل التى يستقى بها الماء ، أو تحملها .

فكانت ارادة القتال غير ثابتة ، وقوة الجيش تبتدىء بالعزيمة والارادة ، وما كان من بعضهم الا انفعالة الحقد ، وهى ان أجدت فى الابتداء والتحريض لا تستمر عند اللقاء ، وعندما تعض الحرب بنابها ، هذه حال جيش الباطل يبدو التخاذل فى صفوفه ، ووراء التخاذل والتردد الهزيمة لا محالة •

وانا نقول ان رحمة الله سبحانه وتعالى بأهل الايمان ان جعل جيش الباطل يحمل فى نفسه ذرائع انهزامه ، وعوامل خذلانه •

٣٧٩ — ولنتنقل الى الجانب الفاضل ، وهو جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أجمع القتال، ولم يكن الباعث عليه مالا يبتغونه، ولا عرضا من أعراض الدنيا يريدونه ، ولكنه عدو الله قد جاء اليهم ، فلا بد لهم من أن يخوضوا استجابة لله سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وان لهم احدي الحسنين ، اما الغنم واما الشهادة وكلاهما غنيمة فى ذات نفسه •

عندما رأى المشركون المؤمنين بعين التحسس منهم هالهم حالهم ، فاسترهبوهم ، وهم القلة الذين بلغوا نحو ثلاثمائة وازدادوا تسعة ، وقال ابن كثير : انهم كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة عدا •

وعلى ذلك ارى الله سبحانه وتعالى المؤمنين المشركين قلة يستهان بها ، ولاتهلولهم حالها ، وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بالرؤيا الصادقة ، ورأوهم كذلك رأى العين ، وقد قال الله سبحانه وتعالى فى ذلك : « اذ يريكم الله فى منامك قليلا ، ولو اراكم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور ، واذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلا ، ويقللكم فى اعينهم ليقضى الله امرا كان مفعولا ، والى الله ترجع الأمور » •

ونرى من هذا ان المشركين كانوا يهلعون من اللقاء ، ويترددون ساعته الا من ركبت الحماقة رموسهم ، بينما المؤمنون فى بشرى من الله سبحانه وتعالى ، يستصغرون شأنهم ، ويتقدمون غير راهبين ، ولا يستغيثون الا بالله ، والله سبحانه وتعالى يلقى فى نفوسهم الطمأنينة ، والروحانية تظلمهم والله سبحانه وتعالى يعينهم ، ويمدهم فى ذات انفسهم بالملائكة فى قلوبهم بالأمن والدعة ، وهم ينامون مطمئنين واثقين بالنصر راجين ما عند الله سبحانه وتعالى،

ولا يستعينون الا بذاته الكريمة ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حالهم ،
وهم مقبلون على المعركة :

« ان تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم انى ممدكم بالف من الملائكة مردفين ،
وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله ان الله
عزيز حكيم ، ان يغشيكم النعاس امنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ،
ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به
الاعدام ، ان يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، ساقى فى
قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك
بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » •

ثم يقول سبحانه : « نلکم وانی موهن کید الکافرين » •

جيشان قد تلاقيا أحدهما كثير العدد ، والعدة ، ولكنه فاقد الايمان ، حتى
بالحرب التى اقدم عليها ، فقد أوهن الله سبحانه وتعالى كيده وتديبره ، أوهنه
بازالة الباعث على القتال ، وأوهنه بالتردد فى بعض كبرائهم ، وأوهنه بانفصال
بعض بطونهم ، وأوهنهم بأشارة الأرحام التى قطعوها ، وألقى الله سبحانه
وتعالى فى قلوبهم الرعب عندما التقى الجمعان •

هذه حالهم أما حال المؤمنين فارادة مؤمنة مجمعة ، وبشرى من الله
سبحانه وتعالى بالملائكة وإيحاء الى الملائكة بتثبيت المسلمين والقاء البطمانية
فى قلوبهم ، حتى غشاهم النعاس أمنة ، وأرسل لهم المطر خفيفا لتثبت الأرض
تحت أقدامهم ، واستبدلوا بطلب العير طلب العزة ، فقد أرادوا المال ابتداء •
ثم أرادوا اعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ، كانوا يودون المال ، وبعزة الله
سبحانه وتعالى أرادوا القوة والعلواء ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « واذا
يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ،
جيشان درع أحدهما بالعدد والعدة مع الوهن ، والثانى ادرع بالعزيمة
والايمان والصبر ، والرغبة فى الشهادة ، وانها احدى الحسينين ، فاما
نالوها ، واما نالوا النصر ، وفى كلاهما الغنم الكثير •

فهل هما متكافئان ؟ أقول ان أهل الخبرة فى الحروب يقولون انهما غير
متكافئين ، ذلك أن قواد الحروب فى القرنين الحاضر والسابق قدسوا أثر
القوة الحربية المادية بالنسبة للقوة المعنوية بواحد الى ثلاثة أى أن نتائج النصر
أو الهزيمة يكون للقوة المادية فيها الربع • وللقوة المعنوية الروحية ثلاثة
الأرباع ، واذا كان عدد المشركين ألفا فهو ألف ، أما عدد المؤمنين فى ميزان

القوة فهو مائتان وألف على الأقل فوق تأييد الله سبحانه وتعالى بالملائكة » إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، « وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى » *

وان تقدير النسبة بين قوة المادية الى قوة الروح بواحد الى ثلاثة هو تقدير أهل الخبرة ، وهم يخطئون ويصيبون ، أما تقدير الله تعالى فهو أعلى من ذلك إذ قدر الواحد من أهل الايمان فى حال القوة التى لا ضعف معها ، بعشرة من أهل الكفر ، فقال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها النبى حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين ، يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » *

ونرى من هذا النص أن القوة المعنوية عشرة أمثال القوة المادية اذا لم يكن فى أوساط المؤمنين ضعاف الايمان ، الذين يخالطون المؤمنين الصادقين خصوصا عندما كان فى المسلمين منافقون ، لا يريدون بأهل الايمان الا خبالا كما قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم ، يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » *

هذا هو الضعف فى الصفوف ، وقد ظهر فى غزوة أحد ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسرى الصفوف للقتال ، كما قال الله سبحانه وتعالى « واذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم ، اذ هممت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » *

هذه هى النسبة فى حال قوة الايمان ، والا يخالط المؤمنين نفاق قط . وهى قوة الواحد بعشرة *

فاذا خالط المؤمنين منافقون مع مرضى القلوب كان هناك ضعف . فيكون الواحد من المؤمنين يقابل اثنين من المنافقين ، فالنسبة الكبرى فى حال قوة الايمان الخالص ، والنسبة الثانية اذا كان مرضى القلوب فى صفوف المؤمنين ، فلا ناسخ ولا منسوخ . كما يقال ان الثانية نسخت الاولى *

التقاء الجمعين يوم الفرقان

٣٨٠ — ذهب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ليديره العير ، فلم يدركها ، وأدركه النفير فلم يكن من القتال بد ، وقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فتعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العدو ، فقدره بين تسعمائة وألف ، مما كانوا يعقرون من ابل ، فقد قيل له وقد سأل عن عددهم فقال المسئول انهم كثير لا يحصون فسألهم عما ينحرون من ابل ، فقال يوم تسع ، ويوم عشر ، فقال هم بين تسع مائة وألف ، فكانوا خمسين وتسعمائة وسأل عن أشراف رجالاتهم ، فذكروا عتبة بن ربيعة وأخاه شيبه ، وغيرهم من أشرافها ، فقال عليه الصلاة والسلام لمن معه من جند المسلمين ليحثهم على القتال ويحرضهم : « هذه قريش قد ألفت اليكم أفلاذ أكبادها » .

وقد نزلوا من بدر بالعدوة القصوى ، وهى كثيب من الرمل مرتفع ، بعيد عن بدر ، ونزل أهل الايمان بالعدوة الدنيا من بدر ، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة » .

كان اختيار المكان يتوفيق الله سبحانه وتعالى ، لا بإرادة أحد ، ولو كان بإرادتهم وأمرهم لاختلفوا فى المكان والزمان ، ولكن الله سبحانه وتعالى دبر الميقات ، فجعله فى هذا الزمان ، ودبر المكان فكان هذا المكان ، وكان منزل المؤمنين دهمسا رمالا يعوق السير ، فأنزل الله سبحانه وتعالى مطرا خفيفا لبد الأرض ، وجعلها معبدة يسهل السير فيها ، وأنزل أمامهم على قريش مطرا كثيرا عوق سيرهم .

روى النسائي عن مجاهد : أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم المطر ، فأطفأ الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بجيش الايمان ، فنزل على أقرب ماء من بدر ، وعرض الأمر على الصحابة فجاء اليه الحباب بن منذر بن الجموح وقال :

يا رسول الله أرايت هذا المنزل ، أمزلا أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال : يا رسول الله هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس ، حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فتنزله ثم تغور (١) ما وراءه من القلب ، ثم تبني عليه حوضا ، فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك المنزل ، وأخذ برأى الحباب ابن منذر كاملا ، وبني الحوض على البئر التي اختارها ، وامتألت ماء لأنه أل إليها كل ماء الآبار التي غورت رأى المشركون ذلك فأحسوا بأنها المكيدة التي تحرمهم من الماء .

وقد تواجعت الفئتان وتقابل الفريقان ، وحضر الخصمان ، واستغاث بررب العالمين سيد الانبياء . وقد ابتدأت المناوشات بأن رجلا شرسا من بني مخزوم أحس بمكيدة الماء ، وظن أنه يستطيع أن يهدم على المؤمنين الحوض الذي بنوه ، فقال : لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فخرج اليه وانقض حمزة بن عبد المطلب أسد الله فانقض عليه ، فلما التقيا قطع حمزة بسيفه رجله الى نصف ساقه ، ولكنه لحرصه على أن ينفذ ما أقسم عليه حبا الى الحوض ، فضربه حمزة حتى قتله .

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجيش كسائر جنده ، ولكنه رأى أن يكون فى مكان مرتفع ليشرف على حركة جنده ، فاتخذ له عريشا على مرتفع من الأرض ، ويروى أن معاذ بن جبل هو الذى أشار به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . يروى ابن اسحاق بسنده أن سعد بن معاذ قال : يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحققت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ، ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ، ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحنك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودعا له بخير .

بنى له عليه الصلاة والسلام العريش ، وكان فيه فائدة ، وهو الرقابة على حركة الجند وعمله ، وليكون مع الجند كله ببصره ، لا مع فريق منه ، فهو يراقبهم ، ويعرف أعمالهم .

(١) رويت فى هذه الكلمة بحرف الغين ، المعجمة ، ومعناها تفوير ما حولها ليذهب ماؤها ، ورويت بالعين ومعنى تعويرها إفسادها بما يشبه ردمها فينحصر الماء فى القليب المختار .

ولا شك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بوجوده وشعور العطف والرحمة بجيشه يغلب عليه الاشفاق ، فعندما رأى جيش قريش ضرع الى ربه داعيا قائلاً :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم أهنهم (١) الغداة » .

وكان أبو بكر مع رسول الله فى العريش ، ومعاذ بن جبل فى نفر من الأنصار يطوفون حوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم دائم الدعاء والضراعة الى ربه يقول فوق ما رويما ما رواه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، « كان رسول الله يكثر الابتهاال والتضرع والدعاء ، ويقول فيما يدعو « اللهم ان تهلك هذه العصاة لا تعبد بعدها فى الأرض ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول :

« اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم نصرک ، ويرفع يديه الى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ، ويسوى عليه رداءه ، ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهاال ، يا رسول الله : بعض مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك ، وهكذا كان القائد الرشيد الحكيم لمحبتة لجيشه ، ولكل رجل من رجاله ، ولحرصه على الأمر المباعث على الجهاد ، وهو حماية الوحدة الوطنية ، والقضاء على البرثنية ، كان يشتد فى الابتهاال الى الله سبحانه وتعالى . وبجوار ذلك كان يجتهد فى بث العزيمة على القتال فى جيشه الحبيب اليه ، فهو يلجأ الى جنده لياخذ الأهمية ، ويعمل على النصر ، ثم يضرع الى ربه متوكلاً عليه مستغيثاً ، لتجتمع له ولجيشه قوة العمل ، وقوة الاعتماد على الله سبحانه وتعالى الذى لا يغير أمر الا بأمره .

ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يحرض على القتال استجابة لقول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال » فقال عليه الصلاة والسلام :

والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر الا دخل الجنة ، هذا بعض تحريض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحريض الله تعالى كان أقوى من ناحية التحذير فقد قال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ، فلا تولوهم

(١) أهنهم : من الحين والهالك .

الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متصرفا لقتال او متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله وماواه جنهم وناس المصير » •

واذا كان تحريض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبشيرا ، فتحريض الله سبحانه وتعالى كان تحذيرا ، فالأول يبين عاقبة الخير ان أقدموا ، وكلام الله سبحانه وتعالى يبين العاقبة المسوء اذا فروا أو أحجموا •

القيادة والتنظيم

٣٨١ — كانت القيادة حكيمة ، وكانت رحيمة ، وكانت حازمة ، وكانت قوية ، فكان عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة • لقائد الحرب العادلة ، كما هو أسوة حسنة للمؤمنين فى عمله وخلقه وسننه وقد قال الله سبحانه وتعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » •

(١) وأول مظاهر قيادته الحكيمة المرشدة ، أنه كان وسط الجند فى القتال ، فلم يكن بعيدا عنهم ، بل كان يشرف عليهم ويوجههم ، ويشترك فى شدائد الحرب ، كما يشترك فى ثمراتها ، سواء أكانت حلوة أم كانت مرة •

روى عن على رضى الله تبارك وتعالى عنه أنه قال : « كنا اذا اشتد الخطب ، وحمل الوطيس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد اقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو اقرب الى العدو » ، فالنبي القائد كان فى المعركة ولم يكن بمنأى عنها ، بنى له أصحابه عريشا ، ويظهر أنه لم يستقر فيه الا بالقدر الذى أشرف به على الجيش ، وحرك الجند ، ليتبعوا نظامه •

ولقد رأينا من بعد قوادا مسلمين اتبعوا هديه ، كصلاح الدين الأيوبي الذى كان يعيش فى جيشه وقطن الذى كان جنديا مع الجنود • فكان النصر •

وخالف طريقه ناس سموا أنفسهم قوادا كانوا يديرون دفة الحرب ، وهم فى قصور مشيدة ، فكانت الهزيمة ، وذهب جند الله باهمالهم •

وثانى مظاهر قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، المساواة بينه ، وبين جنده ، فقد كان يشعر كل جندي ان النبي صلى الله تعالى عليه

وسلم بجواره ، ويتساوى معه فى الحقوق والواجبات الجندية وليس أدل على ذلك من أنه كان يتعاقب مع على بن أبى طالب ومرثد فى جمل واحد ، فلما جاءت نوبته فى السير أراد أن يعفياه ، فرفض ، وقال : لستم أقوى منى ، ولا أنا أغنى عن الأجر منكم ، وأذن بين هذا ، وبين جيوش المسلمين ، وخصوصا المصريين فى العصر الأخير ، والأمور المفرقة التى تجعل فريقا يكتوى بنيران الحرب ، والآخر ينعم بالخيرات ، وينال الفخر إن كان انتصار ، ولا شرف يناله الذين اکتووا بنارها ، ولذلك كانت الهزيمة تتلوها اختها •

وثالث مظاهر القيادة النبوية ، اشعار الجند بأنهم يعملون مختارين ، ولا يعملون مسخرين ، وأنهم يطلبون الثواب بحربهم ، وأنهم إن انتصروا بهدى الله تعالى نالوا نصرا لأنفسهم ، وللحق الذى يدافعون عنه • وإن قتلوا نالوا شرف الشهادة وجنة الرضوان ، وما بينهم وبين دخول الجنة إلا أن يقاتلوا ويقتلوا ، فهم ينالون إحدى الحسنين ، فهم يقاتلون مختارين لله وللحق ، ولأنفسهم ، فهم فى صفقة رابحة اختاروها ولم يسخرها لها ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » •

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أودع قلب كل مؤمن من الجند بأنه يقاتل مختارا لنفسه ، لا لدنيا يصيبها ، ولكن لله وللحق فى ذات الحق ، فلم يكن أى واحد من جند الله بهداية الايمان ، وقيادة النبي عليه الصلاة والسلام مسخرا أو مجندا ، ولكن كان جنديا مختارا •

ورابع الأمور التى لوحظت فى قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انها كانت لينة مع حزمه وقوة تنظيمه ، فقد كان رفيقا سهلا لينا فى قيادته ، لا سيطرة ، ولكن قيادة رفيقة هادئة هادية مرشدة من غير أعنات ولا غلظة ، فكانت القلوب مستجيبة ، والأجسام لها تبع ، فالتفوا حول القائد الحكيم ، يفدون معه الحق طوعا واختيارا ، لا كرها واضطارا ، ولقد كان ذلك من رحمة النبوة ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » •

والأمر الخامس الذى لوحظ فى قيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه على جنده ، واشفاقه عليهم ، واعظامه لأمر آحادهم وجماعتهم ، كما ثبت فى ضراعتة لربه ، وخوفه عليهم ، فلم يكن الجند معه الا الاحباب والأولياء ، ودعاة الحق وهداته ، وأنهم عصاة الله ان هلكوا لا يعبد الله فى الأرض فتتربى فيهم عزة ، ويحسون بأنهم موضع المحبة .

واذا أحسوا بذلك باعوا أنفسهم لله ، فلم ينظر اليهم القائد الحكيم ، كما ينظر بعض قواد المسلمين اليوم ، على أنهم أدوات الحرب ، كالاتها .

وسادس الأمور التى لوحظت فى قيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اشراكهم معه فى تحمل التبعة بالشورى يقيمها فيهم ، كأمر الله سبحانه وتعالى بقوله فيما تلونا « وشاورهم فى الأمر » وان الشورى مع الجند ، تجعل الجندى يحس بتحمل التبعة ، وأنه ذو رأى فى توجيهاته ، وذلك يوجد فيه عزة الجندى المتحمل للتبعة وليس كالآلة المتحركة ، وفوق ذلك يشارك فى تدبير القتال ، فيزداد قوة نفس ، ومن قوة النفس تكون الارادة الحازمة الراغبة غير المترددة .

بهذه القيادة الحكيمة للينة الحازمة ، الرقيقة الرحيمة ، تربى جند الله تعالى . فكان النصر والغلب .

التنظيم :

٣٨٢ — أول ما اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنظيم جيشه جعله صفوفاً متتالية أمام العدو ، وذلك كقول الله سبحانه تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » ، فهذا توجيه من الله تعالى فى القيادة الى أن يصف الجنود صفوفاً ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يبين القرآن الكريم بعمله ، وقوله ، ان احتاج القرآن الكريم الى بيان .

وأول معركة فى الحرب النبوية كانت بدر الكبرى ، فطبق نظام الصف الذى يحبه الله سبحانه وتعالى .

روى ابن اسحق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عدل صفوف أصحابه ، وفى يده قدح يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزبة ، وهو

مستنتل (١) من الصف ، قطعن عليه الصلاة والسلام فى بطنه بالقدح ، استنوا ياسود فقال : يا رسول الله اوجعتنى ، وقد بعثك الله تعالى بالحق والعدل • فاقدنى (٢) فكشف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن بطنه • وقال استقد قال فاعتنقه فقبل بطنه !! فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حملك على هذا ياسود ؟ قال يا رسول الله • حضر ما ترى • فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له بخير •

وأصدر أمره الى جيشه جيش الايمان الا يحمل على العدو الا عندما يصدر اليهم الأمر بذلك •

وأمرهم أن ينضحوهم ، فلا يقاتلون مهاجمين حتى يصدر أمره عليه الصلاة والسلام ، لكى يهجموا هجمة رجل واحد غير متفرقين ، ولا مانع من أن يكون النبل ، فرادى ، ومع ذلك كانت أوامره الا يسرقوا فى النبل ، بل يتخيرون من يرمونه ، ليكون ذلك أنكى للعدو ، وأبقى للعدة •

روى ابن اسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر أصحابه الا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال ان اكتنفكم القوم ، فانضحوهم عنكم بالنبل •

وفى صحيح البخارى عن أبى أسيد قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر اذا اكتبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم ، وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تقطع الأجراس من أعناق الابل لئلا يشغل الناس بها •

وقد جعل شعار الصحابة فى هذه الحرب العادلة « أحد أحد • • وشعار المهاجرين يابنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج يابنى عبد الله ، وشعار الأوس يابنى عبد الله » •

وكانت عدة المؤمنين كما ذكرنا ٣١٣ ثلاثة عشر وثلاثمائة ، وكانت عدة المهاجرين نيفا وستين على رواية البخارى ، وعند الامام أحمد ستة وسبعين •

(١) مستنتل : معناها متقدم فى الصف ، وفى رواية مستنصل ومعناها : خارج من الصف •

(٢) أى مكنى من القصاص •

وقد أعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اللواء لمصعب بن عمير ، وكان أبيض ، وأعطى راية المهاجرين وكانت سوداء لعلى بن أبى طالب ، وراية الأنصار وكانت سوداء أيضا لسعد بن معاذ ، وروى أن راية الأنصار كانت مع الحباب بن المنذر .

وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قيس بن أبى صعصعة معه .

هذا تنظيم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جعل على المهاجرين رجلا منهم ، وهو من صناديد الاسلام ، وجعل على الأنصار رجلا منهم ، لا للتفريق بين المهاجر والأنصارى ، ولكن لئلا ينس كل فريق بصاحبه ، وليكون الجهاد الذى يراه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والناس ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

المعركة

٣٨٣ — بعد ذلك التنظيم الذى لم يكن للعرب عهد به كان لابد من اللقاء ، بين جيشين أحدهما قوى الايمان وقد عقد العزم ، والثانى غير مؤمن بالله ، ولا عزيمة عنده كما بينا فى حال الفريقين ، وينطبق عليهما قول الله سبحانه وتعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم ، فالذين كفروا قطعتم لهم نيباب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد » الى آخر الآيات الكريمة .

وانها اذا كانت الآية فيما يلقاه الكافرون يوم القيامة ففى لفظها ما يومىء الى حالهم فى المعركة . ابتداء القتال بالمبارزة ، طلبها بعض كبار المشركين ، فأجيسوا اليها ، وجندلوا بسيفى أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب ، وقارس الاسلام على بن أبى طالب .

خرج عتبة بن ربيعة ، ومعه أخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد يطلبون المبارزة فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا مالنا بكم من حاجة ، ولكن نريد اكفائنا من قومنا ، ثم نادى مناديههم : يا محمد أخرج الينا اكفائنا من قومنا ، فاختار لهم الأكفاء من ذوى قرابته الأقربين عمه وابنى عمه ، وقد أثمرهم بالجهاد والعمل ، ولم يرض لهم القعود .

أخرج عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة ، وعلي ، فلما رأوهم سألوهم عن أنفسهم ، ويظهر أنهم قد تقننوا بالسلاح ، فلم يعرفوهم

فعرّفوهم بأنفسهم ، فقالوا اكفء كرام ، فبارز عبدة عتبة ، وبارز حمزة شيبية ، وبارز على الوليد ، فقتل كل من حمزة وعلى صاحبه ، أما عبدة وعتبة ، فاختلفا ضربتين كلاهما أصاب صاحبه • فكر حمزة وعلى بأسيا فهما على عتبة فأجهزا عليه •

بعد ذلك أخذ النبل يرمى من الجانبين ، وأصيب به بعض المسلمين ، وأرمى الجيش الحمدي نبلهم بمهارة متخيرا كبارهم ، متصيذا زعماءهم ، والرمى يمكن التصيد فيه ، أما الملاقاة بالسيف ، فلا تحيز فيها ، ولكن اللقاء هو الذى يحدها •

عندما رأى المشركون ذلك هجموا ، فكان لابد من ملاقاتهم •

وعندئذ تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر جيشه بأن يحمل على المشركين حملة رجل واحد ، وأخذ حفنة من تراب ، فاستقبل بها قريشا ، وقال : شاهت الوجوه ، وتفحم بها فلم يكن منهم الا اُصيب منها ، ثم قال لأصحابه : شدوا •

فالتحم الجيشان والنبي عليه الصلاة والسلام ينظر من فوق العريش ، وهو يحس بأن الله تعالى أنجز وعده ، وهزم قريشا وحده « وهارميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » •

وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشح السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يخافون كرة العدو •

وقد أخذ الجيش الحمدي فى تقتيل صناديد قريش وزعماء الشرك الذين كانوا يفتنون الناس • عن دينهم ، ويأسرون فريقا • وقد اشتدت النازلة بالمشركين ، وعلموا أن كلمة الله تعالى العليا •

٣٨٤ — هذا ويجب أن نلاحظ أمرين جديرين بالنظر •

أولهما — أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينس رحمه وواجب الوفاء وأن يكون جزاء الاحسان لبنى هاشم الذين ذاقوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماذا قوا ، وقريش تقاطعهم فى شعبهم ، وهم على مثل قومهم من الشرك ، فما كان من الوفاء بالعهد ، وجزاء المعروف بمعروف مثله أن يقتلهم فى الميدان وقد خرجوا لحربه كارهين وكان من بعض رجال قريش من لم يؤذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • بل من سعى سعيه فى منع

حصار بنى هاشم وبنى المطلب ، فكان النبی صلی الله علیه وسلم الوفی
الأمین ، لن ینسی احسان محسن ، والله سبحانه وتعالی یقول : « هل جزاء
الاحسان الا الاحسان » •

وهذا العباس بن عبد المطلب الذی کان یذهب مع النبی صلی الله تعالی
علیه وسلم فی بیعة الأوس والخزرج لیستوثق من منعة یثرب للنبی صلی
الله تعالی علیه وسلم ، فهل یترکه تعتوره السیوة . ١ •

ولذلك قال لجیشہ فی رواية ابن عباس :

« انی عرفت أن رجالا من بنی هاشم و غیرهم قد أخرجوا کرها ،
لا حاجة لنا بقتالهم ، فمن لقی منکم أحدا من بنی هاشم ، فلا یقتله ، ومن لقی
أبا البختری فلا یقتله ، ومن لقی العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلی
الله تعالی علیه وسلم ، فلا یقتله » •

فقال بعض من قتل ذووه ، وهو أبو حذيفة ، (ویظهر أن قوله لم یکن
فی حضرة النبی صلی الله تعالی علیه وسلم) ، أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ،
ونترك العباس ، والله لئن لقیته لألجمنه السیف فبلغت هذه القالة رسول الله
صلی الله تعالی علیه وسلم ، فأثرت فی نفسه ، فقال لعمر بن الخطاب آسیا :
یا أبا حفص : أیضرب وجه عم رسول الله (علیه الصلاة والسلام) بالسیف ،
وفی ذلك اشارة الى موقف العباس فی العطف علی رسول الله علیه الصلاة
والسلام ، والفرق بینه وبين أبی لهب •

ولقد ندم أبو حذيفة (ولعله قالها لقتل أبيه) أشد الندم ، فكان یقول
ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت یومئذ ، ولا أزال منها خائفا الا أن تكفرها
عنی الشهادة ، فقتل یوم الیمامة شهیدا •

هذا وان الذین حضروا الموقعة من بنی هاشم لم تمسهم السیوف
استجابة لطلب النبی صلی الله تعالی علیه وسلم ، لرحمه ، ولحدیهم علیه ،
ولشاركتهم له فی الضراء ، وما كان القتال لأجل الکفر ، بل كان للاعتداء •

أما أبو البختری وله مقام مشہود فی نقض الصحیفة ، وقد عرفها
النبی صلی الله تعالی علیه وسلم له فی شہیدته كما كانت منه المعونة فی
الشہادة ، فقد لقیه المجذر بن زیاد البلوی حلیف الأنصار ، فقال
لأبی البختری : ان رسول الله صلی الله تعالی علیه وسلم قد نهانا عن قتلك •

وكان أبو البختری له زمیل قد خرج معه من مكة المكرمة ، فجمعتهما رفقة السفر ولعله كانت بينهما مودة موصولة ، فطلب ألا يقتل صاحبه ، فقال المجذر : « والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا بك وحدك » .

فقال أبو البختری : لا والله : اذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ولا نتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصا على الحياة .

فتنازلا ، ولم يسلم أبو البختری سيفه الا أن يكون مقتولا ، وقال فى ذلك :

لن يسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

هذا وفاء محمد عليه الصلاة والسلام فى ميدان القتال ، والبلاء بلاء .

الملاحظة الثانية : أن الشرك وان فرق النفوس ، قد كانت المودة بين بعض الرجال مازالت موصولة ، لقد كان أمية بن خلف صديقا ودودا لعبد الرحمن بن عوف ، فلقية فى بدر فلم يرد أن يقتله بل أراد أن ينقذه ، لقد رآه وابنه عليا ، وانه ليقودهما بدل أن يقتلهما - ان رآه بلال الذى كان عبدا لأمية ، وكان يعذبه ليترك الاسلام ، فيخرجه الى رمضاء مكة المكرمة اذا حميت فيضجعه على ظهره ، ثم يأتى بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد فيقول بلال : أحد أحد .

وجدها بلال الفرصة التى يقتص فيها منه جزاء ما فتنه فى دينه ، فقال رضى الله تعالى عنه : رأس الكفر أمية بن خلف لانجوت ان نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت ان نجا ، فأحاطوا به ، وعبد الرحمن بن عوف يذب عنه ، ولكنه قتل هو وابنه .

القتل والأسر :

٣٨٥ — كان الجيش الاسلامى يقتل ويأسر ، لأنه فى حال حرب ، ولكن معاذ بن جبل الذى كان يحوط عريش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره الأسر ، ولا يريد الا القتل ، وأن يثخن فيهم .

يقول ابن اسحاق « رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم : « والله لكأنك يأسعد تكره ما يصنع القوم !! قال أجل والله يارسول الله كانت أول واقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الاثنان في القتل بأهل الشرك أحب الى من استبقاء أحد » .

ونرى من هذا أن القرآن الكريم نزل بموافقة سعد إذ قال الله سبحانه وتعالى : « ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » .

نتائج المعركة وأعقابها

٣٨٦ — هذه المعركة اكتفينا في ذكرها بالاجمال لضيق ، فلم تمكث الا يوما واحدا من صبيحة الليلة السابعة عشرة من رمضان في السنة الثانية ، وكان شهرا مباركا ، وهو يوم بدر ، وفيه آخر فتح بازالة الاوثان وتطهير بيت الله الحرام .

واذا كنا ذكرنا المعركة بإيجاز ، لأنها كانت في وقت قصير ، فقد كانت نتائجها بعيدة الأثر في حياة المسلمين ، ذلك أن زعماء الشرك الذين ما كان يرجى فيهم خير ، قد قتلوا ، ومنهم من كان يؤذى النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ، ولا يالو في ذلك ولا يقصر ، ومنهم أشد مشعلها ، ومؤججها .

وكان عدة من قتل من المشركين سبعين ، وأسر منهم سبعون ، وكان ممن أسر النضر بن الحارث الذي كان شريك أبي جهل في إيذاء المسلمين والمبالغة في الأذى ، وعقبة بن أبي معيط الذي كان يقف ضد كل داعية للإسلام ، حتى أشعلت الحرب ، فوقف ضد ابنه ، وغيره بأنه رضى أن يعيش كالنساء ، والحرب قد قامت أسبابها ، فقتل النضر على بن أبي طالب ، وروى أنه هو أيضا الذي قتل الثاني .

وفي غيب المعركة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يعرف مال أبي جهل الذي سمي فرعون هذه الأمة ، فاذا أдал الله سبحانه وتعالى منه ، فقد أдал من فرعون .

يروى ابن اسحاق أنه لما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عدوه أمر بأبي جهل أن يلتبس في القتلى ، وقد كان هو مقصودا في القتال ، لأنه رأس الفتنة ، ولقد أحيط بمن يدفعون عنه أن أريد قتله ، فكان معه عكرمة

وبعض سفهاء القوم ، وكان أول من لقيه بضربة معاذ بن عمرو ابن الجموح أخو بني مسلمة ، فقال رأيته كالحرجة (أى كالشجرة الكبيرة) وهم يقولون لا يخلص اليه أحد ، فضربته ضربة أطنت قدمه الى نصف ساقه (أى قطعتها) وضربني عكرمة على عاتقي فطرح يدي . لم يستطع معاذ الاجهاز عليه ، حتى جاء معوذ بن عفراء ، فاثبتته ، ولكن لم يقض عليه أيضا ، وان منعه الحركة حتى جاء عبد الله بن مسعود ، وبه رمق فوضع رجله على عنقه ، وكان قد آذاه ، ثم قلت له اخذاك الله يا عدو الله ، ثم حز رأسه ، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

انتهى امر زعماء الشرك ، والذين بقوا منهم كانوا أقل عداء وإيذاء ، وان كان قتل ذويهم قد أرت قلوبهم بالأحقاد .

وانه فى هذه المعركة لم يستشهد من المؤمنين الا اربعة عشر ، أى نحو خمس من قتل من المشركين ، واذا أضيف المأسورون ، يكون ما أصيب من المسلمين من عشر أصيب من المشركين ، ولقد كانت هذه المعركة شفاء لغيظ المؤمنين الذين أوذوا فى الحق وأخرجوا من ديارهم كمال قال الله سبحانه وتعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصرم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء » .

وان الأمور الأربعة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى قد كانت ، فقد عذبهم الله سبحانه وتعالى بأيدي الذين عذبوهم ، وأخزاهم الله بالهزيمة ، وشفى الله قلوب المؤمنين وأذهب غيظهم وكانت المعركة سبيلا لأن يذهب غرور بعض الناس ، ويفكروا من جديد فى دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى دعوة الحق .

ويقول ابن كثير فى تاريخه فى قتل أبى جهل : « كان قتل أبى جهل على يد شاب من الأنصار ، ثم بعد ذلك وقف عليه عبد الله بن مسعود وأمسك بلحيته ، وصعد على صدره ، حتى قال له لقد رقيت مرتقى صعبا يا روى الغنم ثم بعد هذا حز رأسه وحمله حتى وضعه بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فشفى الله تعالى به قلوب المؤمنين ، وكان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة ، أو أن يسقط عليه سقف منزله أو يموت حتف أنفه - والله أعلم .

وقد ذكر مؤرخو السيرة أنه فىمن خرج يوم بدر بعض المسلمين الذين شهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكنهم بقوا فى مكة المكرمة ،

وهم مؤمنون فخرجوا مع المشركين تقية ، كما خرج بعض بنى هاشم وهو أهم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان لم يكونوا قد آمنوا من بعد .

ومن هذه الجماعة المسلمة الحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس ابن الفاكه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص ابن منبه بن الحجاج .

وقد قتل هؤلاء يوم بدر . . .

قال ابن اسحق ، وفي هؤلاء نزل قول الله سبحانه وتعالى « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساعت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » .

وسواء أصبح ان تكون حال هؤلاء هى سبب النزول ام لم يصح ، فان الآية توجب على كل مؤمن يقيم فى أرض الكفر ان يخرج مهاجرا الى الله حيث يكون قوة للاسلام ، ولا يتخذ قوة الكفر ، وان ثبت ان النزول كان لذلك السبب ، فان الآية عامة ، وكما يقول علماء الأصول ان العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

الكرامة الانسانية فى اعقاب المعركة :

٣٨٧ — قلنا ان حرب الاسلام هى حرب الفضيلة — لا يستباح فيها الا الدماء ، ولا تباح فيها المثلة تكريما للانسان ولا يترك فيها اشلاء الانسان تنهشها الذئاب والغربان ، بل انها تدفن تكريما للانسان ، وذلك لقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كرم الانسان حيا وميتا ، والقتل فى الميدان عند الاعتداء ، لا يتنافى مع تكريم الانسان ، لانه العدل ، والعدل فيه تكريم الانسانية دائما ، ففيه تكريم الانسان الفاضل باخذ الحق له ، وتقويم الفاسد باخذ العدل منه .

ومن هذا المبدأ السامى لم يترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتلى بدر من المشركين تنوش جثثهم سباع الحيوان ، ولا تنقرها الغربان جيفا ملقاة فى الأرض ، كما فعلت جيوش فى قتلاها انفسهم ، لا فى قتل أعدائهم فقط .

بل أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء الى حيث القتلى من قريش فى هذه المعركة المباركة فدفنهم فى القليب ، وهو بئر جافة ، وتقول عائشة فيما رواه عنها ابن اسحاق : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقليب فطرحوا فيه ، الا ما كان من أمية بن خلف ، فانه انتفخ فى درعه ، فملأها ، فذهبوا ليخرجوه فتزائل لحمه » فأقره ، وألقوا عليه ما غييه من التراب والحجارة •

وهكذا ، فعل ليوارى سوءاتهم ، وليحمى أجسامهم من سباع البهائم ، وسباع الطير •

قال ابن اسحق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال مخاطبا جثث القتلى : « يا أهل القليب ، بثس عشيرة كنتم لنبيكم كذبتمنى ، وصدقتنى الناس ، وأخرجتمونى ، وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، هل وجدتم ما وعد ربيكم حقا ، فانى قد وجدت ما وعدنى ربي حقا » •

ويروى أنه نادى طائفة من زعماء النضر فيهم ، أو كبارهم ، فقد روى أنه كان يقول : « يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام - فعدد من كان منهم بالقليب - هل وجدتم ما وعدكم ربيكم حقا ، فانى قد وجدت ما وعدنى ربي حقا » ويظهر أن الواقعة قد تعددت •

فقال الحاضرون : يا رسول الله ، أتنادى قوما قد جيفوا ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » •

ومعنى أسمع أعلم بحقيقة ما أقول لهم ، لأن السمع الحقيقى يحتاج الى جراحة السمع ، وقد فقدوها بالقتل ولأن الله سبحانه وتعالى يقول : « وما أنت بمسمع من فى القبور » وفى رواية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لقد علموا ما أقول » •

والعبرة فى هذه المسألة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد عمل على كرامة الانسان بموازاة سوءات هؤلاء ، وليبين للأحياء المسلمين الاعتبار فى هذه المعركة ، وهو أن الله صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم عدو الله سبحانه وتعالى وعدوه •

الأسرى

٣٨٨ — أسر من المشركين سبعون ، وقد علمت أن سعد بن معاذ رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يكره الأسر ، ويريد القتل ، حتى يثخن المشركين ، وذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأيه ، وأنه كره الأسر ، ولكن سياسة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تتجه الى الاستبقاء بدل القتل ، عسى أن يسلموا ، ويكونوا قوة للإسلام ولأن يكونوا مؤمنين ، ولو مالا خيرا من أن يقتلوا كفارا فى عجلة الحرب .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعمل عملا الا بمشورة أصحابه ، مادام الوحي لم ينزل بأمر ، فهو يجتهد فيما يفعل ، لا فيما يشرع ، وإذا اجتهد فى عمل ، فالشورى روح العمل ، وقوة الجماعة .

قال الامام أحمد فى سننه بروايته : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم ، واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذبوك ، قريبهم فأضرب أعناقهم ؟

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فأدخلهم ثم أضرمه عليهم نارا .

استمع اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ابتدأ الراى رفيقا ثم اشتد حتى صار حريقا ، فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركهم مليا ، ليتدبروا مغبة كل قوم ، ثم خرج عليهم .

فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله ليلين قلوب رجال ، حتى تكون الين من اللبن ، وان الله سبحانه وتعالى ليشد قلوب رجال ، حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك أبا بكر كمثلك إبراهيم ، قال : « فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى ، فإنك غفور رحيم » ، ومثلك يا أبا بكر كمثلك عيسى ، قال : « ان تعذبهم ، فإنهم عبادك ، وان تغفر لهم ، فإنك أنت العزيز الحكيم » .

وان مثلك يا عمر كمثلك نوح ، قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، وان مثلك يا عمر ، كمثلك موسى ، قال : « ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

انتهت الاستشارة بأن أبدى رأيان أحدهما رفيق مؤلف ، لا جفوة فيه وهو رأى الصديق رضى الله تعالى عنه ، والثانى رأى مخيف ، وهو رأى

الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ويتبع ذلك فى عنقه بأشد فى طريقته ، وهو رأى عبد الله بن رواحة ، إذ كان رأى القتل بالحرق •

وقد رأى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذ بمبدأ الفداء ، إذ فيه رفق أبى بكر ، ونفع لجماعة المسلمين ، وقد كانوا فى غير غنى ، ورخص فى غير ذلك ، فرخص لنفسه فى القتل ، ورخص لنفسه فى المن من غير فداء ، وإن كان الأكثر كان الفداء ، وكان يسير فى الفداء على مقدار الثروة للأسير ، وفى العفو بالمن على مبدأ من كان يظن أنه أسلم ، وخرج تقيّة ، ويمن أيضا على من يرى فى المن عليه كسبا للمسلمين •

وإنه يلاحظ أنه لم يمن على أحد من بنى هاشم مع أنه نهى عن قتلهم ، وأنه يعلم أنهم خرجوا مستكرهين ولم يخرجوا محاربين •

وكيفما كانت حالهم من من أو فداء قد أوصى بهم خيرا ، وقد نزلوا عند الأنصار ، وكانهم فى ضيافة ، لا فى أسر ، حتى أن الأنصارى كان يفضل الأسير فى الطعام على أهله وعياله ، وكان يرى الأسير ذلك ، فيتعفف ، فيشدد عليه الأنصارى • فكانوا يؤثرون على أنفسهم • ولو كان بهم خصاصة •

٣٨٩ — لقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة ابن أبى معيط ، والنضر بن الحارث • لأنهما كانا قائدى الشرك فى المعركة ، ولأن عقبة هو الذى كان يحرض على القتال بعد أن نجت العير ، وأراد بعض كبراء قريش أن يكتفوا بذلك ، ولا يقاتلوا حفظا للرحم ، كأمية بن خلف • وعقبة ابن ربيعة •

وروى الشعبى أنه لما أمر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة قال : أتقتلنى يا محمد من بين قريش ، قال نعم ، ثم التفت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه ، وقال : أتدرون ما فعل هذا بى !! جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى ، وغمزها فما دفعها حتى ظننت أن عيني تدوران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة ، فنسلت عن رأسى •

وكان مثل ذلك النضر بن الحارث ، وكان حامل لواء المشركين ، فكان قتله لما قدم من أذى ، ولما فيه من اذلال الشرك وأهله •

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء من ذوى الثراء من بنى هاشم ، بل شدد فى الأخذ منهم ولم يقبل منهم الا الفداء •

ولعل أدل شيء على شدته في أخذ الفداء من بنى هاشم مجاوبته مع عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان يحبه ، وكان يألم لأسره ، والشدة عليه بالوثائق .

ادعى العباس أنه أسلم من قبل ، ومعنى ذلك أنه ليس عليه فداء ، لأنه جاء مكرها لا محاربا .

فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم بإسلامك ، وسيجزيك خيرا ، فادعى أنه لآمال عنده يفدى به نفسه ، ومن معه من بنى هاشم عقيل ونوفل ولدى أخيه ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين المال الذي أودعت أنت وأم الفضل ، وقلت لو أصيب في سفرى هذا فهذا لبنى الفضل وعبد الله وقثم ، فقال العباس رضى الله عنه والله انى لأعلم أنك رسول الله : ان هذا شيء ما علمه الا أنا وأم الفضل .

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مائة أوقية من ذهب فداء له ولابنى أخيه عقيل ونوفل ، وعن حليف له هو عتبة بن عمرو أحد بنى الحارث بن فهر .

وهكذا أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء ، لاينى عن ثرى ، ولا يعفو الا عمن يرجى منه خير للإسلام ، أو من يمن عليه في نظير أن يمن على مسلم أخذوه عنوة من غير حرب ، كما فعل أبو سفيان في معتمر من أصحاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذه ، حتى يفك اسار ابن له ، ففك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اساره لذلك .

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل من الفداء نوعا معنويا ، وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان الأسير ليس له مال يفدى به نفسه ، ولكن له علم بالقراءة ، فانه يكون فداؤه أن يعلم بعض الأميين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القراءة .

وقد من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ناس من الأسرى ، منهم من كان يظن فيه الاسلام ، وقد شهد عبد الله بن مسعود لسهيل بن بيضاء بالاسلام فقد قال سمعته يذكر الاسلام .

فقبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته ، ومن عليه .

وممن من عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو العاص ابن الربيع الأموى زوج زينب بنت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان زوجا بارا مكرما لزوجته غير مضار لها • وقد أرادت قریش أن تحمله على طلاقها كما طلق ابن أبى لهب ابنة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأبى عن ذلك •

ولقد كانت زينب رضى الله تعالى عنها بمكة المكرمة فأرسلت فداء لزوجها البار الطيب ، وبعثت فى ضمن الفداء قلادة لها ، كانت أم المؤمنين خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها ، فلما رآها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أثارت ذكريات الزوج الرفيقة الشفيقة والرحم ، فرق لذلك رقة شديدة •

وكان للرسول الأمين أن يطلق سراحه ، كما أطلق سراح غيره من بنى مخزوم وغيرهم ، ولكن لكيلا يكون فى نفس أحد ضيق أو حديث نفس ، ولتطيب النفوس كلها جعل إطلاق سراحه للصحابه ، فقال : « ان رأيتم أن تطلقوا أسيرها ، وتردوا عليها الذى لها ، ففعلوا » •

ويجب أن ننبه هنا لأمرين :

أولهما - أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ألا تبقى من بعد فى مكة المكرمة ، وألا تكون فى فراش العاص من بعد ، فأخذ عليه عهدا أن يخلى سبيلها رضى الله عنها ، بأن تهاجر الى المدينة المنورة ، فوفى أبو العاص بذلك •

ثانيهما - أنه لم يكن قد نزل التفريق بين المسلم وغير المسلم ، لأنها لا حل له ، إذ أن ذلك نزل عند الحديبية فى سورة الممتحنة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات ، فلا ترجعهن الى الكفار ، ولا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما انفقوا ، ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا اتيتموهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسئلوها ما انفقتن ، وليسألوا ما انفقوا ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » •

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أشار الى سبب التحريم وهو الكفر ، إذ قال الله سبحانه وتعالى : « فلا ترجعهن الى الكفار » ولم يقل الى المشركين ، والكفر يشمل الشرك وما عليه النصارى واليهود الذين

كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وآمنوا بالتثليث ، والوهية المسيح ،
كما قال الله سبحانه وتعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن
مريم » وقال الله سبحانه وتعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » .

وهكذا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على اناس كان يرى
خيرا فى المن عليهم ، أو يرى فيهم عجزا عن أن يقدموا فداء .

فمن على المطلب بن حنطب بن الحارث من بنى مخزوم ، ومن على
صيغى بن رفاعه بن عائد من بنى مخزوم ، وممن من عليه أبو عزة عمرو ابن
عبد الله بن عثمان ، وكان محتاجا ذا عيال فمن عليه رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم وأخذ عليه عهدا ألا يظهر عليه أحدا ، وكان شاعرا ،
ولكنه نقض ما عاهد عليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولعب
المشركون بعقله ، فرجع اليهم بعد أن قرب من الاسلام أو دخل فيه ، فقد قال
مادحا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ من عليه من غير فداء فى
قصيدة :

من مبلغ عنى الرسول محمدا فانك حق والميك حميد

فلما كان يوم أحد أسر أيضا ، فطلب أن يمن عليه النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا أدعك تمسح
عارضيك ، وتقول خدعت محمدا مرتين » ويروى أن النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم قال فيه « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

وهكذا فوض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتصرف فى الأسرى
بما يكون خيرا فى ذاته وللمؤمنين ، فقتل من قتل منهم ، وفدى كثيرين ،
ومن على بعضهم .

بيان الله تعالى لخطأ الأسر

٣٩٠ — نزل القرآن الكريم من بعد القيام بما اتجهت اليه الشورى
بالنسبة للأسرى — ببيان الخطأ فى أن المسلمين أسروا قبل أن يثخنوا ، وهو
ما كان يميل اليه سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ولقد
ذكر الخبر كما رواه ابن اسحاق « أنه لما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجه سعد بن معاذ ، فقال له كائى
بك يا سعد تكره ما يصنع القوم . قال أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة
أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الأثخان فى القتل أحب الى من استبقاء

الرجال » ولقد قال الله سبحانه وتعالى بعد انتهاء ما أشار اليه الشورى :
 « ما كان لنبى أن يكون له أسرى ، حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض
 الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم
 فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، واتقوا الله ، ان الله
 غفور رحيم ، يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، ان يعلم الله فى
 قلوبكم خيرا ، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم » .

اذن كان الخطأ ، لا فى أنهم فسدوهم ، ولا فى أنهم منوا عليهم ، ولكن
 فى أنهم أخذوا الأسرى قبل الاثخان أى قبل أن يثقلوهم بالجراح ، حفر
 لا يستطيعوا أن يثيروا عليهم معركة أخرى ، أو تكون صعبة عليهم لكثرة
 القتلى ، ومن بعد ذلك يكون الأسر ، ويكون المن أو الفداء ، كما قال الله
 سبحانه وتعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا
 اثخنتموهم قشدوا الوثاق ، فاما منا بعد ، واما فداء ، حتى تضع الحرب
 أوزارها » .

ويجب أن نذكر هنا ثلاثة أمور ،

أولها - فى معنى قول الله سبحانه وتعالى : « لولا كتاب من الله سبق
 لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » فان الكتاب الذى قرره الله سبحانه وتعالى ،
 هو أنه لا عقوبة الا بنص على المنع ، ولم يكن ثمة نص على منع أخذ الأسر ،
 قبل الاثخان ، وان ما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اجتهاد ، ولا عقوبة
 على الاجتهاد فى الخطأ .

ثانيا - أن كثيرين ممن كتبوا فى الماضى ، وتبعهم أهل الحاضر أن
 القرآن الكريم نزل موافقا لرأى الامام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله
 تعالى عنه ، فى الأسرى ، ونحن نرى أن ما جاء به القرآن الكريم لا يوافق
 رأى الفاروق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم ، انما كان معارضة لأصل الأسر
 قبل الاثخان ، ولم يعترض الفاروق على الأسر قبل الاثخان .

انما الذى كرهه الأسر قبل الاثخان فى القتل سعد بن معاذ رضى الله
 تبارك وتعالى عنه ، فاذا كان ثمة فضل فى نزول القرآن الكريم موافقا لما
 كرهه سعد ، فله فى هذا الفضل ، « يختص بفضله من يشاء » .

ثالثا - وهو الأمر الجدير بالاعتبار عند أهل الاعتبار ، وهو أن الله
 سبحانه وتعالى وحده يعلم الغيب ، ويعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه
 وتعالى يعلم أن أخذ الأسرى قبل اثخان العدو ، خطأ ، فلماذا ترك النبى

رسوله وحبيبه ، ومعه صحابته يخطئون ، وقد كان وحده هو الذى يعلم الصواب .

والجواب عن ذلك ان هذا فيه عظة وعبرة ، ذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم الذى يوحى اليه ، والذى علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه ، اذا ترك يتصرف باجتهاده فقد يخطئ ، ولا ينزه عن الخطأ أحد ولو كان نبيا ، الا ان يعلمه الله سبحانه وتعالى ، فهو وحده العليم الحكيم الذى يعلم المستقبل كالحاضر والماضى ، وفى ذلك توجيه للذين يستبدون ، وبيان انهم يخطئون ، وليس لهم ان يدفعهم الغرور ، فيحسبوا ان آراءهم منزهة عن الخطأ فيتردون بأممهم فى افسد النتائج .

ان ترك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الذى يوحى اليه ، ثم هو فى ذاته أعقل الرجال ، ان كانوا قبل البعثة يهتدون برأيه - يخطئ فى رأيه ، ثم ينبه الى الصواب ، فيه عبرتان لأولى الأبصار .

أولاهما - أنه لا يصح لأحد ان يفتر برأيه ، فيحسبه الصواب الذى لا يقبل الخطأ ، ويعتقد فى نفسه العلم ، وفى غيره الجهل .

الثانية - أنه ليس لأحد ان يستبد فى تفكيره الذى يعمل فيه للجماعة ، فلا يقول ما قاله فرعون . « ما أرىكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيلا الرشاد » .

فعلينا معشر المؤمنين ان نتأدب بأدب الله سبحانه وتعالى ، وهو الا ندلى أنفسنا وجماعتنا بالغرور ، فتكون السوءى ، فى حاضر الأمة ومستقبلها ، وعلينا ان يكون لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، ولا يكون لنا من فرعون ، متبوع يتبع ، فالحق أحق ان يتبع .

ولقد رأينا فى عصرنا اخوان فرعون يطلبون ان يتلى ما يكتب لهم كانه تنزيل من التنزيل وقد بوءوا بهذا الغرور عنهم ، والخنوع من غيرهم - أمتهم سوء الدار ، وبئس القرار ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع ، وهو شهيد » .

الأنفال

٣٩١ — كان المشركون يحاربون في غير ديارهم وأرضهم ، وكان المؤمنون كذلك ، ولكن كانوا على مقربة من ديارهم ، وكانت الهزيمة قد نزلت بالمشركين ، فكانوا شبه فارين بعد المعركة لا يلوون على شيء إلا ما يمكنهم من أن يعودوا إلى ديارهم راضين بأياض بعضهم سألين •

فكان لابد أن يغتم المسلمون منهم غنائم ، وكانت هذه الغنائم أول ما غنمه المسلمون في الحروب ، لأنها كانت أول حرب كان الاتجاه فيها إلى المنازلة ، وأخذ الغنم نتيجة لهذه المنازلة ، ولم تكن عيرا مصادرة بل كانت حربا شعواء •

ولذلك اختلف المقاتلون في الأنفال ، وهي الغنائم التي تكون قبل القسمة ، ولم يكونوا على علم بقسمتها ، والمقسطون منهم سألوا عما يفعلون بشأنها ، وبعض القاسطين ظنوها لمن أخذها •

وذلك أن المجاهدين كانوا ثلاثة أقسام ، قسم واجه العدو كعلى وحمزه وغيرهم ، وقسم كان من ورائهم ، وأولئك جمعوا الغنائم ، وقسم حاط العريش الذي كان به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم •

ويقول في ذلك عبادة بن الصامت وهو من البدرين ، « خرجنا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشهدت معه بدرا ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة وراءهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يصيب أحد منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب •

وقال الذين خرجوا في طلب العدو لبستم بأحق بها منا ، فنحن نفينا منها العدو ، وهزمتهم •

وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، كان هذا الخلاف ، وكان معه تساؤل لمن تكون الغنائم ، فنزل قول الله سبحانه وتعالى : « يسألك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، ان كنتم مؤمنين » •

كانت هذه المناقشة فى الغنائم قبل أن ترفع الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر الله سبحانه وتعالى ٠ ما يحسم الخلاف ، ويقطع مادة النزاع ، وهو أن يكون أمرها الى الله تعالى ، وما يحكم به سبحانه وتعالى ، والى الرسول عليه الصلاة والسلام الذى ينفذ حكم الله سبحانه وتعالى ، فليس لهم أن يقتسموا بأنفسهم ، بل الأمر لغيرهم فليصلحوا ذات بينهم ، ولا يصح أن تكون المادة مفرقة بينهم ، وقد جمعهم الحق وجمعهم الجهاد فى سبيله ٠٠

وما الذى اتبعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قسمة الأنفال ، فقال بعض الرواة ، انه قسمها بين المجاهدين بالسوية ، ان لم يكن حكم تخميس الغنائم قد نزل فى قول الله سبحانه وتعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسة ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شئ قدير » ٠

فالنبى عليه الصلاة والسلام على رواية هؤلاء وزع بالسوية بين كل المجاهدين ، لأنه لم يكن ما يوجب التفاوت ، ولا دليل يرجح طائفة على أخرى ٠

ويرى ابن كثير أن التوزيع كان حسب التخميس الذى نص عليه قول الله سبحانه وتعالى : « واعلموا أنما غنمتم ٠٠ » الآية ، لأنها متصلة الواقعة ، فالأمر فى التوزيع كان الى الله سبحانه وتعالى والى رسوله عليه الصلاة والسلام على حسب هذا الحكم الذى شرعه الله تعالى ، فأية الغنائم متصلة بأول السورة التى أشارت الى التوزيع ، وفوق ذلك فان الآية تشير الى أن ذلك ما أنزله الله سبحانه وتعالى يوم التقى الجمعان يوم الفرقان ٠

ولقد روى أن عليا ذكر أن الناقتين اللتين نحرهما عمه حمزة ، وهو شارب كانتا من خمسه فى الغنائم ، ونحن نميل الى ما اختاره الحافظ ابن كثير ٠

أثر المعركة فى المدينة المنورة

٣٩٢ — كان أثر المعركة فى العرب عامة بعيد المدى ، فقد سارت الركبان فى الصحراء العربية بهزيمة قريش على يد طريدها الذى أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم ، لأنه ينكر الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية

ويقول انه يوحى اليه من عند الله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك النصر منبها للعرب بحقيقة الدعوة الحمديّة وسلامتها وقوتها ، فوهنت العقيدة الوثنيّة بين العرب ، وأخذت عقول تدرك الحقائق وتطرح الأوهام التي نسجها الخيال الضال حول الأحجار ، وبذلك صارت كلمة الله سبحانه وتعالى هي العليا ، وكلمة الشرك هي السفلى ، وكان يوم الغزوة بحق يوم الفرقان ، إذ فرق فيه الناس وانتقل المسلمون من مستضعفين في الأرض الى أقوياء يكثرثون الناس بقوتهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

« واذكروا ان أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس ، فأواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » •

هذه اشارة الى أثر ذلك النصر المبين في البلاد العربية ، لقد نظر اليه العرب على أن الاسلام هو القوة الحقيقية في البلاد العربية ، وكان من ذلك أن أخذ الناس يفكرون •

هذا اثره بشكل عام في الجزيرة العربية ، أما اثره في المدينة المنورة وما حولها ، فقد صار القوة المروية فيها ، وكان فيها أخلط من الوثنيين الذين بقوا على وثنيّتهم من الأوس والخزرج ، وكانوا يظهرون عقائدهم ولا يخفونها ، وكان فيهم يهود ، قد أكل الحقد قلوبهم ، وإن أخفوه ، وإن كانوا يعرفون في لحن القول وفي استهزائهم بالمؤمنين أحيانا •

فلما ظهرت قوة المسلمين في بدر ، وجد في الفريقين منافقون يظهرون الاسلام بالسنتهم ، ويخفون الكفر ، ويقولون ما لا يفعلون ، وينطقون بما لا يعتقدون ، ولقد نزل فيهم سورة كاملة ، وأولها - قوله الله سبحانه وتعالى : « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » •

فالقوة الاسلاميّة التي ظهرت في بدر ، هي التي جعلت هؤلاء من المشركين واليهود ، يتخذون مظهرهم الاسلامي جنة يتقون بها قوة اهل الاسلام ويشيعون الخيال في صفوف المسلمين ، ويخدعون الذين في قلوبهم ضعف •

ان قوة المسلمين جعلت من لا يؤمن بالله سبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام يخضع ببذنه ولا يؤمن بقلبه •

كان ذلك في السنة الثانية التي كانت فيها غزوة بدر • قال ابن كثير « وفيها خضع المشركون من أهل المدينة المنورة واليهود الذين هم بها من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، ويهود بنى حارثة ، وصانعو المسلمين ، وأظهر الاسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود ، وهم في الباطن منافقون ، منهم من هو على ما كان عليه ، ومنهم من انحل بالكلية فبقى مذبذبا ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء كما وصفهم الله تعالى في كتابه » •

وهو بهذا يشير الى قول الله سبحانه وتعالى : « ان المنافقين يخادعون الله ، وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » •

وانه يتبين من هذا الكلام انه بعد ان اظهر الله سبحانه وتعالى قوة المسلمين وأعلى كلمة الدين ، صار الذين يخالفونه ، ويعاشرون المؤمنين بالجوار على ثلاثة اقسام :

أولهم الذين نطقوا بكلمة الاسلام والكفر يسكن قلوبهم ، ويستولى عليها وهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم ، انما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون » فهؤلاء بقوا على كفرهم ، وأمد الله تعالى في طغيانهم ، لأن مظهرهم كان غير مخبرهم ، وقد استمروا ذلك حتى زادوا عتوا وفسادا •

والقسم الثاني قوم ضعفت نفوسهم ، وانحل تفكيرهم ، فهم منافقون ، في اظهارهم الاسلام ، ولا عقيدة لهم يؤمنون بها ، وان كانوا الى عقيدتهم الأولى أميل ، ولكن قد انحلت بالتعارض ، بين ما يظهرون وما يبيطنون ، فقد خدعوا المؤمنين وأرغلوا في الخديعة ، حتى خدعوا انفسهم ، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » ، وقد وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذا النوع من المنافقين بقوله عليه الصلاة والسلام : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين لا ندرى الى أيهما تذهب » •

والقسم الثالث وهم أكثر اليهود الذين ثبتوا على دينهم من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة وبنى الحارث ، وأولئك ثبت أكثرهم على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه ، والاعتراض الديني على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم نافقوا في أنهم لم يخلصوا في العهد الذين عاهدهم عليه النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يخفون الخيانة ، ويترصدون بالمسلمين الدوائر ، ويكاتبون أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويحرضونهم عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، فينافقون المشركين ، ويقولون ان ما هم عليه من شرك خير مما يدعو اليه النبي من توحيد .

وفى الجملة ظهر النفاق بعد النصر المحمدى من أعداء هذا الدين .

ولنخص اليهود ، ومن والاهم بكلمة موجزة موضحة :

اليهود

٣٩٣ — عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حلفا مع اليهود ، جعل فيه له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وتعاهد معهم على البر والتقوى ، لا على التعاون على الاثم ، وأنهم فى أحيائهم متعاونون على دفع الاثم ، وعقل الجانى الذى يجب عليه الدية ، وفى الجملة أعطاهم الحرية والحماية ، وعقد معهم جماعة ، وأحياء متفرقة عقدا ملزما ، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الذى بعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد اسحق لا من ولد اسماعيل ، وقد كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسدا من عند أنفسهم ، وكلما استيقنوا أنه النبي المبشر به فى التوراة ازدادوا ضيقا وغضبا وكفرا ، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا ، وعتوا وفسادوا فى الأرض ، وكانهم وحدهم سسلالة قابيل الذى قتل أخاه ، لأنهما قريا قريانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر (قابيل) .

ولنتقل شهادة أم المؤمنين صفية بنت حبيب بن أخطب ، قالت رضى الله تبارك وتعالى عنها .

عندما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى حبيب بن أخطب ، وعمى أبو ياسر ابن أخطب مغلسين (أى فى غلس) قلت فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا ساقطين يمشيان الهوينى ، قالت فهششت اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت الى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى حبيب بن أخطب أهو هو ؟ قال نعم والله اتعرفه وتثبتته ؟ قال نعم ، قال ما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ؟ .

تلك شهادة صادقة من سيدة برة على أبيها ، فما جعلته الآية المثبتة لرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا مصدقا بل جعلته عدوا لجوجا فى عداوته ، وذلك فعل الحسد الذى كان من قابيل على أخيه هابيل اذ تقبل منه الايمان وحده ، والله تعالى يختص برحمته من يشاء .

وحىى بن الخطب وأخوه صورة نفسية لكل يهودى ممن كان بجوار المسلمين بالمدينة المنورة ، وبهذه العداوة كانوا يتحركون ، وطويت قلوبهم على الضغينة المستكنة .

فلما انتصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ازدادوا ضيقا ، وظنوا أن الدائرة من بعد ستدور عليهم ، فأرادوا بغريزة حب البقاء أن يعملوا عملا يظنون فيه بقاءهم ، لكيلا يجد المسلمون السبيل لآخراجهم ، واتحدوا مع المشركين ممن بقوا فى المدينة المنورة ، وحملوا أولئك على أن يظهروا الايمان ، ويخفوا الكفران اذ أوعزوا اليهم بخلقهم ، الذى اشتهروا به فى ماضى أمرهم ونفوذهم فى حاضرهم .

ولقد انضاف بذلك الى اليهود باغرائهم من كانوا قد بقوا على الوثنية من الأوس والخزرج ، وأن لم يكونوا الكثرة ، ولكنهم كانوا بما أظهروا من ايمان يبثون الوهن فى قلوب المؤمنين ، ويلقون بأسباب الفشل ، وقد ظهرت رموسهم فيما ظهر بعد بدر من الغزوات .

وقد ذكر ابن اسحاق كثيرين ممن نافقوا من اليهود الذين أظهروا الاسلام ، وأخفوا عقيدتهم ، وأكفوا الأذى للمسلمين . والكيد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

كما ذكر من الأوس والخزرج من لف لف اليهود ، وأظهر الاسلام ، وكان كثيرون منهم من الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول ، واليه كانوا يجتمعون ، وهو الذى قال : « لكن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فى غزوة بنى المصطلق .

والنفرة من منافقى الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول هم يماثلون بنى النضير ويدسون اليهم أنهم معهم عندما خافوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنكثوا فى أيمانهم وعهدهم الذى عاهدوه ، وأرادوا معاونة المشركين ، فقد أرسل اليهم ابن سلول وشيعته أنهم ان خرجوا يخرجون معهم ، عندما حاصرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حصونهم ، وأخذوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، لقد قال ابن أبى والنفر معه ، « أثبتوا لكن

أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم «
وقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيهم «الم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم
الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا
أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون
معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون
لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ٠٠٠ » الى ان
قال الله سبحانه وتعالى فى وصف ابن أبى ومن معه : « كمثل الشيطان اذ قال
للإنسان اكفر ، فلما كفر قال انى برىء منك ، انى أخاف الله رب العالمين » ٠

وكان المنافقون من بقية الأوس والخزرج واليهود يحضرون مسجد رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون
ويستهزئون ، ويبيثون الشك فى قلوب المؤمنين بأوهام يذكرونها ، وبأسئلة
مشككة يستجوبون بها ٠

إخراجهم من المسجد :

٣٩٤ — يقول ابن اسحاق اجتمع يوما بالمسجد من المنافقين اناس ،
فراهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى صوتهم ،
قد لصق بعضهم ببعض ، فأمرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،
فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا ٠

فكان المؤمن يأخذ برجل المنافق ، فيسحبه سحبا ، وأحيانا يجذب المؤمن
المنافق ، وينثره نثرا شديدا ويلطم وجهه وهو يشيعه باللعنات قائلا له :
« أف لك منافقا خبيثا ، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم » ٠

وأحيانا يجيء المؤمن الى ذى اللحية الطويلة منهم ، فيأخذ بلحيته ،
ويقوده منها قودا عنيفا ، حتى يخرج من المسجد ، وأحيانا يأخذ المؤمن
بجمة المنافق ذى الجمة « فيسحبه منها سحبا عنيفا » ٠

وذلك العنف فى الفعل يصحبه عنف فى القول ، من مثل « لا تقربين
مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانك نجس ، وقول بعضهم ،
غلب عليك الشيطان وأمره » ٠

وذلك غير الذين كانوا يدفعون من أقفيتهم ٠

وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود اشد الناس اذى للنبي عليه الصلاة والسلام واصحابه ، فالمنافقون كانوا ييثون فى المسلمين روح التردد والهزيمة ، وفى المسلمين سماعون لهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولاوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون » •

واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم ، ويكيدون معهم ، ويمكرون ، ويمكر الله سبحانه وتعالى بافساد تدبيرهم ، وكان اليهود ليلقوا الشك فى قلوب المؤمنين يظهرهم الايمان ، ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثالا لمن يخرج من الاسلام بعد الدخول فيه ، وهؤلاء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » • قل ان الهدى هدى الله ، ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، او يحاجوكم عند ربكم ، قل ان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء ، والله واسع عليم » •

وهكذا كان الافساد اليهودى ، ينافقون ، ويدعون الوثنيين الى النفاق ، وييثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين ، ويستهنئون ويسخرون من أهل الايمان ، ويجعلون من انفسهم مثالا لمن يخرج عن الاسلام ، فيظهرون الاسلام ثم يخرجون ليكونوا مثالا سيئا للمسلمين لعلهم يرجعون ، كما عبر القرآن الكريم عنهم •

افساد اليهود بين المسلمين

٣٩٥ — كانت الحرب بين الأوس والخزرج قائمة بين الفريقين ، حتى جمع الله سبحانه وتعالى بينهما بالاسلام ، وألف بين قلوبهم ، فكانت القوة ، ولكن اليهود كانوا يعلمون بانباء العداوة السابقة ، فكانوا ييثون فيهم ما يحيى نار العداوة بعد موتها ، ويثيرون نارها بعد اطفائها ، وفى كل فريق من يسمع لضعف فى ايمانه ، أو لبقايا العصبية ، أو لترات بقت. بعد الحرب •

لقد كان رجل من شيوخ اليهود ، وذوى الضغن والحسد اسمه شماس ابن قيس ، قد هاله أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أكرمه الله

سبحانه وتعالى به من نصر فى بدر ، وهاله أن الأوس والخزرج اجتمعوا وقد يعيشون على الفرقة بينهم ، فيوالون فريقا على فريق ؛ ويتخذون ممن يوالونهم قوة يثبتون بها أقدامهم ، فلما رأوا اجتماعهم بالاسلام ، فقال شماس هكذا اجتمع بنو قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم اذا اجتمع ملؤهم من قرار •

قدر ذلك الشيخ الخبيث ودبر ، فوجد أن يثير الخلاف القديم جذعا ، فاثار ما كان يوم بعث ، وهو الذى كان بين الأوس والخزرج ، وانتصر فيه الأوس ، وكانت عقبة البيعة الأولى ، ثم الثانية •

اثار الأمر فى هذا اليوم بين الأنصار رضى الله تبارك وتعالى عنهم ، وفيهم ضعاف العقول يستطارون فتكلم هؤلاء وتنازعوا ، وتفاخروا ، واشتدت المجاورة فتواثب رجالان من الحيين ، واحد من الأوس والآخر من الخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه ، ان شئتُم ردناها الآن جذعة ، فغضب الحاضرون من الفريقين ، واتفقوا على مكان يكون فيه اللقاء ، وقالوا موعدهم الظاهرة •

بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلم أنها فتنة يهودية ، وخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

« يا معشر المسلمين ، الله ، الله أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله تعالى للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم به أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » •

أدرك أنصار الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق بعضهم بعضا - ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سامعين مطيعين موقورين •

ورد الله سبحانه وتعالى كيد الكافرين من اليهود فى نحورهم •

وانزل الله سبحانه وتعالى فى اليهود قول الله سبحانه وتعالى : « قل يا اهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ، وانتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » •

وانزل الله سبحانه وتعالى فى المسلمين الذين انساقوا وراء شر اليهود : « يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون ، وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ، يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق

تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا
واذكروا نعمة الله عليكم ، ان كنتم اعداء فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته
اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم
آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ،
وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، واختلفوا
من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » *

ففى هذا النص الكريم تحذير للمؤمنين من اليهود الذين يفرقون جمعهم ،
وتذكير بما كانت عليه حالهم من قبل ، وبيان الطريق لأن يمتنعوا الاشرار من
الدخول بينهم ، وذلك بالتواصى بالخير بينهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن
المنكر ، فمن يقع فى الغواية منهم يرشده ذو العقل والحكمة فيهم وان التفرق
بعد البينات اثم كبير ، وله عذاب عظيم *

ليسوا سواء

٣٩٦ — اذا كان ما نكرناه صادقا على اليهود الذين كانوا بالمدينة
المنورة عندما هاجر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم اليها ، فالحكم فيه بنى
على الغالب الكثير ، لا على الجميع ، فمنهم ناس اختاروا الاسلام ديناً ،
وآمنوا بالله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حق الايمان ، كما
قال الله سبحانه وتعالى : « من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله اثناء
الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من
خير قلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين » فهؤلاء من اهل الكتاب ، واهل الايمان
بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وسيجزون أجرهم مرتين *

ونذكر من هؤلاء اثنين كان كلاهما من احبار اليهود :

وهما عبد الله بن سلام ، ومخيرق *

وجاء من اخبار السيرة فى اسلام عبد الله انه قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرفت صفته واسمته
وزمانه الذى كنا نتوكف له أى نترقبه فكنت أسر ذلك صامتاً له ، حتى قدم
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ...

فهو قد عرف النبی صلی الله تعالى علیه وسلم قبل قدومه المدينة المنورة وتعرف صفات النبوة فيه التي بشر فيها في التوراة ، وخاطب بذلك بعض أهل بيته ، إذ كان فرحاً بقدومه ، ولم يوافق ابتداء من عرف من أهل بيته ، حتى قالت له عمته في فرحته : « والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قائداً ما زدت فقال لها المؤمن المخلص الذي لم يشب اخلاصه تعصب لنحلة سابقة : أي عمه هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه بعث ولم تلبث أن وافقته » .

وإذا كان عبد الله بن سلام الحبر اليهودي المخلص قد عرف الحق وأدرك فقد عرف قومه من اليهود وأدرك انحرافهم ، وأنهم اتخذوا آلهتهم هوامهم ، وهوامهم هو شهوة التحيز ، حتى جعلوا الدين عنصراً ، وليس اعتقاداً خالصاً فأراد أن يكشف حالهم .

ذهب إلى رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم بعد أن آمن ، ولم يعلن إيمانه ، فقال له :

يا رسول الله ان يهود قوم بهت (أي يبهتون ويكذبون بالباطل) ، واني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك ، وتغيبي عنهم ، ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فانهم ان علموا بهتوني ، وعابوني .

وأدخلني الرسول صلى الله تعالى علیه وسلم في بعض بيوته ، فدخلوا عليه وكلموه ، وسألوه ثم سألهم أين الحصين (١) بن سلام ، فقالوا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم ، فقال لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، والله انكم لتعلمون انه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فاني أشهد انه رسول الله ، وأؤمن به وأصدقعه وأعرفه ، فقالوا كذبت .

فقلت لرسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم : ألم أخبرك انهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب ، وفجور ، فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي جميعاً .

ولقد كانوا يكثرون من الطعن فيه ، ويقولون انه من الأشرار عندنا ،

(١) وكان اسمه هذا قبل الإسلام .

وهو الذى نذكروا أنه من خيرهم وأعلمهم وأعدلهم ، ولكنهم يكفرون بما يعلمون ، ويكتمون ما عندهم •

وأما الثانى وهو مخيرق ، فقد كان علما من اعلامهم ، وحبرا من أخبارهم •

وكان رجلا ذا مال أعطاه الله تعالى بسطة من العلم والمال ، وكان يعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصفته فى القوارة •

ولم يكن ممن يجعلون الاعتقاد عنصرية ، بل كان ممن يؤمنون بالحق ، ويعلمون أن الحق أحق أن يتبع ، ويقول ابن اسحاق « غلب عليه الف دينه ، حتى اذا كان يوم أحد ، قال : يا معشر يهود ، والله انكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق •

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأحد ، ودخل فى جنده وعهد الى من وراءه من أهله ، فقال ان قتلت هذا اليوم ، فأموالى ل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله سبحانه وتعالى •

فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول :

مخيرق خير يهود

وقد أسلم فى ساعته الشديدة ، يوم جاءت قريش تريد أن تغزو المدينة المنورة ثارا وانتقاما ، فأبى إلا أن يكون مع المؤمنين ، فاستشهد فى سبيل الله تعالى ، فكان خيرا فى ذاته ، وكان خيرا من فى اليهود •

الغيرة :

٣٩٧ — صدق الله سبحانه وتعالى ان يقول فى شأن أهل الكتاب عامة ، واليهود خاصة ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون ، ولكن الكثرة هى التى كان لها لجب وصخب ، وهى التى ظهرت بلجاجتها ، وعنقها فى الكراهية وحسد الناس ، وهؤلاء هم الذين ظهروا ، وهم الذين ظهر زبدهم ، واستمر ظاهرا ، فهم يكرهون الناس ، أينما كانوا ، وحينما ثقفوا •

وقد ذكرنا حالهم بعد غزوة بدر ، وأعمالهم التي كانت أثرا لانتصار أهل
الايان ، فان الخير يجىء الى المحسود ، فيزيد الحاسد بغضا وضرارة .

لقد سكتوا فى السنة الأولى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على
أثر المعاهدة ، التي عقدها ، والمؤالة التي أولاهم بها ، ليكون منهم جماعة
مندمجة معه ، وهى على دينها ، ولسان حاله ، يقول لهم « لكم دينكم ولى دين »
وليس بيننا وبينكم من بعد الا التواد ، والتعاون على البر والتقوى ، والتناصر
على أعداء المدينة المنورة التي يهاجمونها .

كان ذلك ، والحسد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللمؤمنين أمنوا
يملاً قلوبهم ، والضغن يأكل صدورهم فاذا كان المؤمنون قد أخلصوا فى ولائهم
فأولئك قد أضمروا البغض . *

ولما كان الانتصار ، كان أول ثمرات الانتصار فى قلوبهم المندفة بالحسد
ان تحركوا لافساد أهل الايمان وتعاونوا فى ذلك مع المشركين .

اجتنبوهم الى النفاق ، فانجذبوا اليه ، وكان منهم منافقون ، والنفاق
يسكن القلوب الحاقدة الحاسدة الضعيفة المستكينة ، فكان أول أثر مرير من
أثار تلك الغزوة المباركة أن ظهر النفاق ناتئا برأسه ، ويفت فى جماعات
المسلمين ، ويعملون على تفريق صفوفهم ويشدد أثر النفاق فى مدة الحروب ،
حيث تشتجر السيوف ، وتلتحم الأجسام .

ففى غزوة أحد التي كانت فى السنة الثالثة ، كانوا يبيتون فى جيش
المسلمين روح التمرد والهزيمة ، ويأخذون قلوب الضعفاء من المؤمنين يبيتون
فيها الذعر ، والخوف ، حتى همت طائفتان من جيش الاسلام أن تفشلا ، كمال
قال تعالى : « وإن غدوت من أهلك ، فبؤىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع
عليم » إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل
المؤمنون ، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أنلة ، فاتقوا الله لعلمكم تشكرون » *

وهاتان الطائفتان كانتا من المنافقين ، وضعاف الايمان ، فاذا كان
المؤمنون فى غزوة بدر قد دخلوا وقلوبهم مستبشرة ، فقد دخلوا فى غزوة
أحد ، والمنافقون يبيتون فيهم روح التردد والعجز ، ولكن الله سبحانه وتعالى
عليه نصر المؤمنين ان لم يأخذوا فى أسباب الهزيمة ، وان استقاموا على
الطريقة ، ولم يخالفوا ، وأنه اذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعيش
فى المدينة المنورة والمؤمنون من أصحابه يحيط بهم أولئك المنافقون والمفتنون

والحاسدون ، فإنه يجب عليه الحذر منهم ، وقد نفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بأمر ربه ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون هانتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، ان الله عليم بذات الصدور ، انتم سسكم حسنة تسوهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما تعملون محيط » ، وهكذا نجد حقد اليهود وصددهم قد أفسد النفوس ، وفرق ما بينهم وبين أهل الايمان .

ولم يقفوا عند حد العمل على افساد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ومحاولة اضعاف الايمان ، واغراء غير المؤمنين بالتفان ، حتى شاركهم بل كانوا يحاولون التشكيك فى قلوب المؤمنين ، لأنهم يودون أن يكفروا حسدا من عند أنفسهم .

وكانوا فى سبيل ذلك يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة معنئة لا لتبين نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرجون من توجيه هذه الأسئلة ألا يجيب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن بعضها ، فيتخذوا ذلك ذريعة للتشكيك ، والقاء الريب فى قلوب المؤمنين ، ولنذكر شيئا من هذه المحاولة .

ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن

٣٩٨ — جادلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالتي هي أحسن ، وهو يعلم أنهم يريدون الكيد بالمسلمين والمقاء الرعب فى قلوبهم ، رجاء أن يجدوا ثغرة فى الرسالة يطيطرون بها فرحا ، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يجادلهم ، فقال الله سبحانه وتعالى « وجادلهم بالتي هي أحسن » لأن ذلك سبيل من سبيل الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

كانوا يسألون ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبهم بما آتاه الله سبحانه وتعالى من علم القرآن الكريم والحكمة ، فيرتد كيدهم فى نحرهم ، وتتثبت الرسالة المحمدية ، ويذهب ريب كل مرتاب .

لقد سألوه متى تقوم الساعة ، وهم يعلمون من علم الكتاب أن الساعة لا يعلمها الا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم سألوا السؤال ، وهم يعلمون الاجابة ، فيشككون فى أمر البعث الذى يجادل فيه المشركون ، وقد حكى الله سبحانه وتعالى السؤال والجواب الحكيم الصادق ، فقال الله سبحانه وتعالى :

« يسألونك عن الساعة ، ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » •

ولقد كان صيغة السؤال من بعضهم تومىء بالتشكيك فى الرسالة ، فقد قال قائلهم : أخبرنا متى تقوم الساعة ، ان كنت نبيا كما تقول •

فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يجيب ذلك الجواب الصادق ، ولو كان السؤال ممن لا يؤمن لأن ذلك هو الحق ، والحق أحق أن يتبع •

وسألوه عن الروح ، ليعنتوه أيضا ، وليلقوا بالريب فى نفوس المؤمنين فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يقول انها من أسرار هذا الوجود الذى لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى ، فقال الله سبحانه وتعالى فى السؤال والجواب « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » •

وان حقيقة الروح لاتزال سرا من أمر الله لا يعلمها أحد سواه ، نرى مظاهر وجودها ، ولا نعرف حقيقة أمرها ، لقد عرف ابن الانسان الكون وظواهره ، وأدرك بالاستقراء الأفلاك ، وأبراجها وارتفع ابن الأرض الى السماء ، ووصل الى القمر ، بأسباب المادة ، لكنه الى الآن لا يعرف حقيقة الروح ولا كنهها ، وان كان يعرف بعض ظواهرها ، وأعراضها •

٣٩٩ — وسألوه عن ذى القرنين ما هو وما كان أمره ، وما فعله ، فذكر الله سبحانه وتعالى السؤال ، وأعلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجواب فى قول الله سبحانه وتعالى :

« ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فى الأرض وأتيناه من كل شىء سبيبا فاتبع سبيبا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين ، اما ان تعذب ، واما ان تتخذ فيهم حسنا ، قال اما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى

ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا ، فله جزاء الحسنى ،
وستقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها
تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحننا بما لديه خيرا ،
ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون
قولا ، قالوا ياذا القرنين أن ياجوج وماجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل
لك خرجا ، على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، قال ما مكنى فيه ربي خير ،
فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، أتوني زبر الحديد ، حتى إذا ساوى
بين الصدفين ، قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا ، قال أتوني أفرغ عليه قطرا ،
فما استطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقيا ، قال هذا رحمة من ربي ،
فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقا » *

هذا سؤال قصد به الإعجاز ، وإذا عجز محمد عليه الصلاة والسلام
عن الإجابة طاروا فرحا ، وألقوا بالريب في النفوس ، وذلك ما يقصدون ،
واليه يهدفون *

ولكن الإجابة كانت علما غزيرا ، وتتبعنا دقيقا لسيرة نبي القرنين ، وما
كان له من أعمال لها أثر وذكر ولسان صدق ، وكان ذلك البيان العجيب
الصادق مستترعا لعقول وقلوب الذين يستمعون عليه ، فكان أثر الإجابة حجة
لأهل الإيمان مثبتا لدينهم الذي ارتضوا *

وقد سألوا سؤالا آخر يتعلق بالقرآن الكريم ليشككوا في أمره ، وهو
حجة الرسالة الحميدة ، ودليلها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه *

قالوا أحق يا محمد ، أن هذا الذي جئت به الحق من عند الله ، فانا
لأنراه منسقا ، كما تنسق التوراة *

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انكم لتعرفون أنه من
عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة ، ولو اجتمعت الانس والجن على
أن يأتوا بمثله ما جاءوا به » *

فوجهوا السؤال الى ناحية أخرى ، لأن اعتراضهم واهن ، إذ أن نسق
القرآن الكريم لا يمكن أن يوزن به نسق التوراة ، ولو كانت هي الألواح العشر
التي نزلت على موسى ، فكل نبي معجزته وآياته *

حولوا السؤال الى ناحية أخرى قد توجد شككا ، قالوا : يا محمد * أما
يعلمك هذا انس ولا جن ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « والله

انكم لتعلمون انه من عند الله ، وانى لرسول الله تجدون ذلك مكتوبا عنكم فى
التوراة » .

قالوا فى لاجاة ، يا محمد ، فان الله يصنع لرسوله اذا بعثه ما يشاء ،
وبقدر منه على ما اراد ، فانزل علينا كتابا نقرؤه ، والا جنناك بمثله .

يذكرون بهذا انهم يستطيعون ان يأتوا بمثله ، فيقول الله سبحانه وتعالى
على لسان نبيه : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

ولسان الحال يقول : اتوا ان استطعتم ، ولكنكم لا تستطيعون ، وفيصل
الأمر ان تأتوا ، ليتبين أمركم ، وينكشف خبيء مكرهم وضلالكم ، اذ تسفهون
فى أنفسكم بما لم يسفه به المشركون .

ويسألون سؤالاً آخر يدل على عقليتهم المادية ، وعلى عدم معرفتهم الله
سبحانه وتعالى ، وصفاته العلية الذى ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم .

وذلك انهم كانوا متأثرين بالفلسفة الايونية التى كانت تؤمن بالأسباب
والمسببات ، ولا تؤمن بغيرها . فالأسباب العادية جعلوها قانون الوجود ،
فكل شيء نشأ بالعلية ، فالوجود الانسانى والخلق كله معلول لعلة ، والعللة
سبب عن آخر ، وبهذا أخذت الفلسفة اليونانية ، فيحسبون ان العالم كله نشأ
بقانون العلية ، عن الأول ، وهو علة لما قبله ، وبذلك يكون التسلسل لما
لا نهاية .

أرادوا ان يظهر عجز النبى صلى الله عليه وسلم بسؤال من هذا النوع ،
وتناسوا ان الله سبحانه وتعالى هو الفاعل المختار ، الفاعل لما يريد ، وان
انشائه للكون ، ليس بالسببية أو العلية ، بل انشاءه بإرادته المختارة ، وهذا
سؤالهم الذى دل على كفرهم .

قالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد ، هذا الله خلق
الخلق ، فمن خلق الله ؟ » فغضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتقع
لونه ، ثم ساورهم غضبا لربه .

ولقد كان غضب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن هذا السؤال
كان من اليهود ، وهم أهل كتاب مفروض انهم يعرفون الله سبحانه وتعالى
ويعرفون صفاته ، وانه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وانه الفاعل المختار ،
القادر على كل شيء ، وليس فوقه شيء ، وهو مبدع الوجود ، بديع السموات
والارض .

ولم يقع من العرب مثل هذا السؤال ، فهم كانوا يعرفون أن الله سبحانه وتعالى وحده خالق الوجود ، وأنه ليس فوقه أحد ، وإنما شركهم في أنهم كانوا يعبدون مع الله الأوثان التي ابتدعوها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن اليهود أهل الكتاب أسفوا في تفكير إلى ما لم ينزل إليه المشركون أهل الأوثان ، وهكذا تذهب اللجاجة في التعصب إلى أن قالوا ما لا يعقلون •

ويقول راوى هذا الخبر ، وهو سعيد بن جبير ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وهو غضبان أسفا ، فسكنه وقال له : خفض عليك يا محمد (صلى الله عليه وسلم) وجاءه بجواب ما سألوه عنه : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » •

كان هذا تنبيها لهم إلى ما أسفوا فيه ، ولكنهم نزلوا مرة ثانية عن مرتبة الوثنيين من العرب ، وظنوا الله تعالى مادة كالأحياء ، وتلك بقية من نزعتهم المادية •

قالوا : « فصف يا محمد ، كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ، كيف عضده » •

فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كغضبه الأولى ، وساورهم ، فاتاه جبريل الأمين وجاءه بجواب من الله سبحانه وتعالى عما سألوه ، وهو قوله الله سبحانه وتعالى « وما قدرنا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » •

هذه بعض مجاوبات بين اليهود الذين لا يتقيدون بفكر ولا منطق ، ولا علم بكتاب ، ولا إيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجادلهم ، بالتي هي أحسن ، مع سوء قصدهم ، اطاعة لقوله سبحانه وتعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » •

نترك الآن اليهود وأثر الانتصار المحدث النبوي عليهم ، وكيف نافقوا واتجهوا إلى الإيذاء النفسى بكل ضروبه ، والنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون الذين صابروا في ميدان القتال ، صابروا اليهود وعلموا شرهم في ميدان الدس ، والنميمة والخيانة ، والفت في العضد أو ما يسمى بلغة عصرنا الحرب الباردة ، فصبروا وانتصروا في الحالين ، وكان النصر مؤزرا له ما بعده في تاريخ الإسلام •

فى الفترة بين بدر وأحد

• • • — كانت فيما بين الغزوتين اللتين كان فيهما تعليم للمسلمين فى الحروب ، فالأولى علمتهم أسباب النصر ، والثانية أرثتهم أسباب الهزيمة ، وإن طاعة القائد الحكيم فيها النصر ، والتقاء القلوب ، وكان الظفر المؤزر من بعد ذلك ، وإذا لم يكن انتصار حاسم فى بعض المواقع كحنين فى ابتدائها ، وكبعض الغزوات مع الروم ، فلم يكن انهزام ، ولم يكن خذلان •

وأنه فى هذه الفترة بعد الانتهاء من الأولى ، والابتداء فى الثانية قد كانت شرائع الإصلاح الاجتماعى بتنظيم التعامل بين الناس ، والإصلاح الاجتماعى ، هو الذى يقيم الجماعة الإسلامية على التعاون الجماعى فوق التعاون الأحادى •

إذا كان الإخاء الذى كونه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تأليفاً أحادياً ، فقد شرع الله سبحانه وتعالى بعد غزوة بدر الزكاة وهى التعاون الاجتماعى •

لقد شرع الله سبحانه وتعالى قبيل غزوة بدر صدقة الفطر ، وهى معاونة من الغنى للفقير والمساكين ، ولا يتجاوز المصروف فيها الفقراء والمساكين ، على ما حققه الأكثرون من الفقهاء ، ومنهم ابن القيم ، كما ذكرنا ، وأنه لا تصرف فى كل مصارف الزكاة على ما سنشير من بعد ، ولأنه ورد فى الأثر أن الواجب فى صدقة الفطر ، هو إغناء المساكين عن الحاجة فى ذلك اليوم الذى هو فرحة المسلمين جميعاً ، وهو فرحة عيد الفطر ، فيعم الفرح بهذه الصدقة المفروضة على رأى الأكثرين •

وأما الزكاة ، فإنها تعاون اجتماعى عام يشمل الفقير والمساكين وذوى الخصاصة ، ويشمل غيرهما ممن يكونون فى حاجة اجتماعية وإن لم تكن خصاصة •

ولقد بين الله سبحانه وتعالى المصارف بقوله الله سبحانه وتعالى :
« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ، والمغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » •

فهنا نجد أصنافا ثمانية تصرف لها الزكاة التي يجمعها ولى الأمر فى كل اقليم من الأقاليم ، كما قال عليه الصلاة والسلام « خذها من أغنيائهم ، وردها على فقرائهم » .

والمصرفان الأولان الفقراء والمساكين ، وخلاصة ما انتهى اليه الفقهاء من التفرقة بين الفقير والمسكين ، أن الفقير المحتاج ، ولو كان له كسب ، ولكن لا يتكافأ مع حاجاته ، أما المسكين فهو العاجز عن الكسب لعاهة أو لشيخوخة أو لمرض مزمن أو نحو ذلك من الأسباب التي تعجز صاحبها عن الكسب قليلا كان أو كثيرا ، فكلاهما يستحق ، وإن كان المسكين أشد استحقاقا ، فإن ضاق بيت المال عن الانفاق عليهما معا كان المقدم المسكين .

والصنف الثالث من الأصناف الثمانية العاملون عليها ، أى الجامعون لها من الأغنياء الذين يجب عليهم أدائها ، والذين ينفقونها على مستحقيها ، من بقية الأصناف الثمانية ، وإن ذكر العاملین لجمع الزكاة وصرفها فى ضمن المصارف يدل على أن الزكاة تكون لها حصيلة مالية قائمة بذاتها توزن فيها مواردها بمصارفها ، وتكون جزءا منفصلا عن ميزانية الدولة ، ولذلك جعل لها المنظمون لبيوت المال بيت مال للزكاة قائما بذاته . والصنف الرابع المؤلفة قلوبهم ، وهم يدخلون فى الاسلام ، وتؤلف قلوبهم بقدر من المال تثبتت لايمانهم وليدعوا الى الاسلام قبائلهم ، ويدنوههم الى الاسلام .

وهذا مبدأ لم يلغ ، وكذب ما ادعاه بعض الناس من أن عمر رضى الله عنه قد ألغاه ، إنما كان عمل الفاروق أنه لم يعطه لناس كان النبی صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطاهم ، وفعل أبو بكر ما فعل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء عمر رضى الله عنه ومنعهم ، لكيلا يكون حقا مكتسبا ، وليس عطاء لمقصد ، واجمع الفقهاء على أنه إذ وجد ما يوجب وجب صرفه .

ويصح أن يصرف فى الدعوة الى الاسلام ، كما يصح الصرف من حصة المؤلفة قلوبهم على الذين يدخلون فى الاسلام فيقطعون من ذويهم ، ويضيق عليهم فى أسباب رزقهم ، فيجب أن يعطوا تاليفا لقلوبهم ، وتثبيتا لايمانهم ، ومعاونة لمن يستحق المعاونة .

والصنف الخامس - اعتاق الرقيق ، وذلك لأن الاسلام دين الحرية ودين الكرامة والانسانية ودين العدالة الحقيقية ، ودين الاخاء ، فلا يمكن أن يرضى عن أن يكون انسانا مملوكا لغيره ، وإذا كانت المدينة فى عهد النبی عليه الصلاة والسلام والراشدين من بعده هى الصورة الاجتماعية العالية التي

تنفذ فيها أحكام الاسلام كاملة موفرة ، فان الزكاة قد بينت احكامها فى السنة الثانية ، واخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ فى المجتمع الأحكام الاجتماعية العادلة التى تحمى المجتمع من آفاته ، وان اعتاق العبيد يكون بمعاونة المكاتبين وهم الذين عقدوا مع مالكيهم عقدا على أن يسددوا لهم قيمتهم المالية فى سبيل أن تحرر رقابهم ، فهؤلاء يعانون من الزكاة بما يمكنهم من سداد ما عليهم من المال ، وقد قال الله سبحانه وتعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم ، ان علمتم فيهم خيرا ، وأتوهم من مال الله الذى آتاكم » *

ويكون منه اعتاق من فى الرقاب بشرائهم وعقدهم ، وقد كان السلف الصالح يفعلون ذلك ، يروى أنه فى عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز كتب اليه والى الصدقات فى افريقية يشكو من أن بيت المال قد اكتظ ، ولا يجد فقيرا يعطيه . فأرسل اليه الحاكم العادل أن سدد الدين عن المدينين . فسددما ، وأرسل اليه يشكو من اكتظاظ بيت مال الصدقات ، فأرسل اليه اشتر عبيدا من عبيد المسلمين وأعتقهم ، وبهذا تلاقى الأصرار على نصره الاسلام ، فى عهد سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام *

والمصرف السادس - الغارمون ، وهم الذين أثقلهم الديون ، وكانوا قد استدأوا فى غير معصية وأنفقوا فى غير سرف اذا عجزوا عن سداد الدين ، فان بيت مال الصدقات يسدد الدين عنهم ، رفعا لخسيسهم ، وكذلك يسدد الدين عمن استدأوا لأمر اجتماعى كالاصلاح بين متخاصمين ، أو تحملوا ديوات بين المتنازعين فى الدماء ، فان بيت المال يعاونهم على سداد ما عليهم من ديون ، ولو لم يكونوا عاجزين ، لكى يتقدم أهل المروءة لاصلاح ذات البين ، ولتخفف عنهم المغارم ، فى هذا السبيل *

وانه يجب المقارنة فى هذا بين شريعة الله تعالى التى نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقانون الرومان الذى كان يعاصر نزولها فانه بينما كان ذلك القانون يبيح فى بعض عصوره أن يسترق الدائن المدين اذا عجز عن السداد ، جاءت الشريعة بمعاونة المدين فى سداد دينه ، وذلك فرق ما بين شريعة الله وشريعة الانسان *

والمصرف السابع ، هو معاونة ابن السبيل ، وهو من كان غريبا لا مال فى يده ، وان كان له مال فى بلده ، فانه يعان من بيت مال الصدقات ، حتى يثوب ، ويصح لبيت المال أن يعنيه بالمال ، ديناً عليه ، حتى يعود الى أهله اذا كان ذا مال يستطيع السداد منه من غير ارهاق ولا مشقة ، والأصل أن تكون المعاونة تمليكاً لا أن تكون ديناً *

والمصرف الثامن هو الانفاق في سبيل الله تعالى ، وهو الانفاق في الجهاد ، فللجهاد قدر في مال الزكاة يعادل الثمن أو أكثر على حسب حاجة الجند في عتادهم والانفاق عليهم .

وبعض العلماء يقول ان كلمة في سبيل الله تشمل كل ما يكون من المنافع العامة ، مثل انشاء الجسور وتعبيد الطرق ، وقد قال ذلك القفال المشاشي ، على أن يدخل ذلك في المصرف الثامن ، لا أن تدخل فيه كل المصارف السابقة ، كما فهم بعض الذين يحاولون تعطيل تلك الفريضة الشرعية وهي فريضة الزكاة .

المعاقل والديات

١ . ٤ — ذكرنا أنه في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين كان اصلاح اجتماعي عملي واسع النطاق فانه قبل غزوة بدر كان الاصلاح النفسى بالصلاة والصوم ، والاجتماعي المحدود ، بصدقة الفطر ، وما كان الاصلاح النفسى الا لتتألف النفوس بالقرب من الله سبحانه وتعالى ، والمشعور بجلاله وعظمته ، فمن قرب من الله رحم عباد الله ، ومن رحم عباد الله انتلف معهم ، وكان معهم قوة مصلحة ، رافعة دعائم الحق والخير .

وكانت الزكاة من بعد ذلك اصلاحا عمليا يؤخذ بقوة الحاكم الذى يستمد السلطان من الله سبحانه وتعالى لا بمجرد الرغبة والاختيار ، وان الثواب على مقدارهما .

وكانت هذه الفريضة من دعائم المدينة الفاضلة .

ولكن المدينة الفاضلة يجب أن تكون فيها الزواجر الاجتماعية التي تحمى الفضيلة ، لأن فضيلة الاسلام ايجابية ، فيجب أن يكون لها من القوة ما تدفع به الرذائل .

وكما أن القوة الحربية في الدولة لحمايتها من الاعتداء ، فالزواجر الاجتماعية من الحدود والقصاص هي القوة التي تحارب بها الرذائل .

ولقد ذكر ابن جرير الطبرى أنه في السنة الثانية من الهجرة شرعت المعاقل أى الديات ، وإذا كانت الديات والمعاقل قد شرعت ، فانه قد شرع

القصاص فى النفس وفى الأطراف - وذلك لأن الديات قصاص معنوى ، عند عدم استيفاء القصاص صورة ومعنى بالقتل قصاصا أو قطع الأطراف •

فالقصاص قد شرع وجوبه فى السنة الثانية ، اذ نزل قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنتى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم ، ولكم فى القصاص حياة ، يا أولى الألباب لعلكم تتقون » •

وان ذلك بلا ريب اصلاح اجتماعى خطير ، لأنه يحمى الانسان من أخيه الانسان ولأنه بقيام القصاص تكون حياة كريمة آمنة لا اعتداء فيها ولا افساد ولأن ذلك ابطال للعادات الجاهلية التى كان فيها الألف بالواحد ولا يقتل قاتل الكبير ، بل يقتل من يرى أهله أو قبيله قتله ممن يحسبون أن يكون له كفء ، ولا يرضون أن تكون النفس بالنفس •

ولقد كان فى القصاص قتل لروح الحسد والحقد فى النفس ، أو تخفيف لأثار الحسد ، أو حمل للحسود على أن يضبط نفسه ، اذ يرى العقاب يترصده ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى « أثر الحسد الذى حمل قابيل على أن يقتل هابيل أخاه الذى تقبل الله سبحانه وتعالى قربانه » من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكانما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكانما أحيا الناس جميعا » •

وان أحكام الديات بأنواعها كما ذكرنا تابعة لأصل الحكم بالقصاص فى هذه الآية ، وقد بينت آية القصاص فى التوراة أن شريعة النبيين فى التوراة القصاص واستمرت فى الاسلام ، فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » •

وبهذا يتبين أنه فى الفترة بين الغزوتين كان الاصلاح الاجتماعى باقامة العدل بين الناس ، وسن سنة القصاص ، وبيان الديات ، حيث لا تتوافر شروط القصاص ، أو حيث لا يمكن ، والله سبحانه وتعالى أعلم •

بناء على بن أبي طالب بقاطمة رضى الله عنهما :

٢٠٤ — فى هذه السنة بعد غزوة بدر بنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه بقاطمة الزهراء رضى الله تبارك وتعالى عنها وصلى الله وسلم على أبيها سيد الخلق أجمعين .

وقد روى البخارى بسنده فى ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : قال : كان لى شارف من نصيبى من المغنم يوم بدر ، اذ كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعلنانى شارفين مما أفاء الله من الخمس يومئذ - فلما أردت أن أبني بقاطمة بنت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واعدت رجلا صواغمان بنى قينقاع أن يرتحل معى فنأتى بأذخر (نبات نفيس بالصحراء) فأردت أن أبيعه من الصواغين ، فأستعين به فى وليمة عرسى ، فبينما أنا أجمع لشارقى من الأقتاب والغرائر والحبال ، وشارفائى مناخان الى جنب حجرة رجل من الأنصار ، حتى جمعت ما جمعت فاذا بشارفى قد أخبت (أى قطعت) أسنمتها ، وبقرت خواصرها وأخذ من أكبادهما فلم أملك عيني حين رأيت المنظر ، فقلت من فعل هذا ، قالوا فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو فى هذا البيت فى شرب من الأنصار ، وعنده قنيتة وهى تغنيه ، وجاء فى غنائها : « ألا يا خمر للشرف النواء ٠٠٠ فانطلقت حتى دخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده زيد بن حارثة ٠٠ فقلت يا رسول الله ما رأيت كالיום ، عدا حمزة على ناقتي فأجيب أسنمتها ، وبقر خواصرها ، وهما هو ذا فى البيت مع شرب (أى ندامى يشربون الخمر) ، فدعا الى ردائه ، فارتداه ، ثم انطلق يمشى ، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذى فيه حمزة ، فاستأذن ، فأذن له ، فطفق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمرة عينه فنظر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر الى ركبتيه ، ثم صعد النظر ، فنظر الى وجهه ، ثم قال : وهل أنتم الا عبيد لأبى ، فعرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا معه . هذا لفظ البخارى فى روايته .

سقنا هذا الخبر لأن فيه خبرا عن زواج فارس الاسلام على بن أبى طالب وقد كان يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وانا نتيمن دائما بذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واله الأبرار .

والخبر يدل فوق ذلك على أمور :

أولها : أن عليا المجاهد العظيم ، ما كان عنده مال لعرسه ، فخرج يجمع

المال من جوف الصحراء ليستعين بجهد على ذلك ، وهو ابن عمه ، وربيبه
الذى رياه .

ثانيا : أنه يصرح بأن الناقتين من نصيبه فى الخمس الذى كان للنبي
صلى الله عليه وسلم وآله ، فدل هذا على أن أنفال بدر خمست ولم توزع
بالتساوى ، كما ادعى أبو عبيد فى كتابه الأموال .

وثالثها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الوقت المثير ، لم
ينس الاستئذان ، فاسأذن على الشرب .

ورابعها : ما تفعله الخمر فى النفوس ، فمحال أن يصدر عن أسد الله
حمزة فى صحوه ما صدر عنه .

وخامسها : أن الخمر لم تكن حرمت تحريما قاطعا ، ولم يكن قد تبين
حكمها بيانا شافيا .

وانها تغرى بالعداوة والبغضاء ، وكادت توجد العداوة بين على
وحمزة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحمزة ، لولا أنهم الحكماء
الأبراء .

حروب فى الفترة

بين الغزوتين الكبيرين

٣٠٤ — بعد غزوة بدر الكبرى كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما حوله من القبائل ، ويسير اليهم ، فبعد سبع ليال من قفوله الى المدينة المنورة كما قال ابن اسحاق اتجه الى بنى سليم ، فذهب اليهم ، وبلغ ماء من مياههم اسمه الكدر ، فأقام ثلاث ليال متعرفا أجوالهم ، وبيتهم ، ثم عاد ، ولم يلق كيذا وأقام بالمدينة المنورة ، وكان ذلك فى شوال من السنة الثانية للهجرة ، وتسمى غزوة الكدر .

وقد كانت من جولات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القبائل يتعرف أحوالهم ، ويعرف من يلقاه بالدعوة الاسلامية ، فهذه تسميتها بالغزوة هى وأشباهاها ، لا يعنى الحرب ، ولكن هى نشر الدعوة ، والاستعداد لما يكون من بعد .

وكان كلما خرج خرقة من هذا النوع وغيره ، أقام فى المدينة المنورة من يخلفه عليها ، لا يختص أحداً دون غيره .

غزوة السويق

٤٠٤ — فى ذى الحجة كانت غزوة السويق :

وسببها أن رجوع فلول جيش قريش المهزوم قد أرت حقد كبراء قريش الذين بقوا من معاندى النبوة ، ومحاربى الدعوة المحمدية الى التوحيد ، وهجر الأوثان ، وعبادة الرحمن وحده .

وأخص من تألم منهم أبو سفيان السذى ألت اليه زعامة الشرك بعد أبي جهل ، وعقبة بن أبى معيط ، وقد كان أظهر قواد المشركين فى بدر .

نذر أبو سفيان ألا يمس الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمدا عليه الصلاة والسلام ، وقد كانت رهبة من المسلمين شديدة اثر الهزيمة المنكرة التي منى بها قومه ، وقتل الأشياخ منهم ، فأورثهم ذلك فزعا وخوفا مع الرغبة الشديدة فى الانتقام .

ومع هذه الحال أراد التحلة من يمينه ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ، فسلك الطرق النجدية ، فنزل بصدر قناة الى جبل يقال « يثب » يقرب من المدينة المنورة ثلاثة فراسخ ، ولكنه لم يتجه الى أحد من المسلمين حتى يتصل بيهود بنى النضير الذين كانوا يجاورون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة ، وقد علم ما كان يسكن نفوسهم من احن وبغض للمسلمين مع العقد الذى بينهم ، ويظهر أنهم كانوا معهم على مودة كونتها عداوة المسلمين عامة ، وعداوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة .

التقى أبو سفيان ببنى النضير ، تحت الليل ، فأتى حنّى بن أخطب فضرب عليه بابيه ، فلم يفتح له ، ودفعه الحرص ألا يعاونه ، فانصرف الى سلام ابن يشكم ، وكان السيد على بنى النضير فى زمانه ، وصاحب كنزهم الذى اكتنزوه ، فقرى أبا سفيان ، وأخبره ما كان خفيا عليه من أخبار المؤمنين .

خرج أبو سفيان من المدينة المنورة بعد أن عرف من أسرار المسلمين ما كان يعلمه بنو النضير ، فأرسل رجلا ممن معه حتى أتوا ناحية من المدينة المنورة يقال لها العريض ، فحرقوا النخيل ، وخرّبوا ، ثم وجدوا بها رجلا من الأنصار ، وحليفا فى حرث يزرعونه ، فقتلوهما ، وانصرفوا راجعين هاربين ، غير مقاتلين ، وتخففوا مما يحملون ، حتى يسهل الهرب ، وتركوا أزوادا مما تزودوا بها .

علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أشد حرصا وسبقا الى الفزع والهيعة اذا تنادوا بها ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام على المدينة المنورة أبا لبابة .

فسار حتى بلغ المكر ، ولكن كان أبو سفيان ومن معه قد أمعنوا فى الهرب فلم يدركوه ، ولكن وجدوا زاد جيشه الذى كان يبلغ نحو المائتين .

وكان أكثر مما تركوا سويقا من أزوادهم ، فأخذ المسلمون سويقا كثيرا ، وجدوا فيه غذاء طيبا .

ولذا سميت الغزوة ذات السويق •

وقد كانت نتيجة هذه الغزوة ارهابا شديدا للمشركين ، واشعار أولئك الأعداء باليقظة من جانب أهل الايمان ، والحذر من ألا يؤخذوا على غره •

وكان من نتيجتها أيضا أن علم المشركون أن الطريق لهم والمالهم غير الهزيمة ، وأحسوا بذلك أن الاسلام صار قوة للحق لا ينال منه بغرة ، وإذا كانوا قد قتلوا اثنين في حرثهما ، فما كان ذلك منالا لأبطال •

★ ★ ★

غزوة ذي أمر

٥٠٤ — أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة السويق بالمدينة المنورة بقية شهر ذي الحجة يدبر أمر المسلمين وينفذ أحكام القرآن الكريم .

ولم يلبث الا قليلا حتى اتجه الى تعرف أحوال البلاد العربية ، واتجه الى نجد التي كان قد أتى من طريقها جيش أبي سفيان الذي فاز بقتلى الحرث ، ولم يظفر بمقاتل ، فكان مخربا لا محاربا ، ثم فر هاربا .

غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نجدا يريد غطفان ، وخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .

ولقد ذكر الواقدي في تاريخه ، فقال : « بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن جمعا من غطفان من بني ثعلبة تجمعوا بذى أمر يريدون حربته ، فخرج اليهم من المدينة المنورة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من العام الثالث ، واستعمل على المدينة المنورة عثمان بن عفان .

وكان معه أربعمائة وخمسون رجلا وهربت الأعراب ، في رؤوس الجبال حتى بلغ ماء يقال له ذو أمر فعسكر به ، ولم يمكث في هذه الغزوة أكثر من أحد عشر يوما وعاد .

ويذكر الواقدي في هذه الغزوة أن المسلمين أصابهم مطر كثير ، ابتلت منه أثواب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل تحت شجرة نشر عليها ثيابه لتجفف على مرأى من المشركين الذين شغلهم خوفهم وهربهم .

ولكن رجلا مندفعاً منهم يقال له غورث بن الحارث أغروه بأن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في أمنه ، فiaأخذه على غرة .

فذهب ذلك الرجل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه سيف صقيل ، حتى قام على رسول الله عليه الصلاة والسلام شاهرا السيف عليه ، وقال : « يا محمد من يمنعك مني ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله ، فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

وقال : من يمنعك منى ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والله لا أكثر عليك جمعا أبدا •

ذكر هذه القصة الواقدي في تلك الغزوة وهي غزوة ذي أمر ، ولكن البيهقي ذكر في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه ، وحمل السيف منسوب الى غورث •

وبعضهم يقول انهما قصتان ، ولكن يلاحظ ابن كثير أن غورث المنسوب اليه حمل السيف واحد في الروايتين ، فلا يمكن أن تكون ثمة واقعتان الا اذا فرضنا أن غورث هذا لم يسلم ، ولم يعط عهدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن لا يكثر عليه جمعا أبدا •

والله تعالى أعلم بالحق في الأمر •

غزوة الفرع من بحران

٦٠٤ — كانت قريش لا تريد أن يعيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين فى أمن ، وما كان يمنعهم من الاغارة على المدينة المنورة الا أنهم فى غب هزيمة ، وهى توجد الفرع ، فكان الخوف يردهم عن غاياتهم .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعمل على تتبع احوالهم ، وتقصى اخبارهم ، ونقص الأرض عليهم من اطرافها ، وهو يريد بهذا مع تخويفهم أن يتعرف احوال قبائل العرب ، وينشر نور الاسلام متنقلا فى احياء العرب وقبائلهم فى منتجعاتهم ، ومتعرفا ارضهم .

لذلك خرج من المدينة المنورة تاركا عليها ابن أم مكتوم ، وسار يريد قريشا ، حتى بلغ بحران ، وهو معدن من ناحية مكان يقال الفروع .

ذهب الى ذلك المكان فاقام به شهر ربيع الآخر ، وجمادى الاولى ، وهو فى هذه المدة يدرس حال القبائل ويتعرف جالها ، ويدعو الى الاسلام فى ربوعها ، غير وان ولا مقصر ، فذلك عمله الذى بعث له .

فما كان مبعوثا لأجل الحرب ، وانما كان مبعوثا لأجل الهداية ، والحرب كانت لحماية الدعوة من الأذى ، ولمنع الفتنة فى الدين ، ولفتح الطريق لها .

ولذلك لا يصح لأحد أن يعترض فيقول اذا كان لم يلق كيدا ، ولا حربا ولا غيرا ولا فقيرا فلماذا يترك المدينة المنورة تلك المدة التى ليست قصيرة ، لأن الغاية نشر الاسلام ، لا مكيدة حرب ولا مصادرة مال ، فالغاية هى نشر دعوة التوحيد .

تكشف الوجه اليهودى فى قينقاع

٧٠٤ — نكرنا بايجاز ما كان يقوم به اليهود ، من اثاره للريب فى قلوب المسلمين ، وما كانوا يحاولون به أن يثيروا روح التردد والهزيمة فى المجاهدين ، وما ملأ قلوبهم من غيظ بعد غزوة بدر الكبرى ، وكيف علموا الوثنيين الحقد وسبقوهم اليه ، وكيف أخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المنافقين من المسجد ، عندما رأهم يهزمون ويلمزون نكرنا ذلك ، ولكن طائفة منهم تكشف غيظها ، ولم تخف أمرها ، لأنها كانت تعيش فى وسط المدينة المنورة مع المسلمين ، ولم تكن فى أطرافها ، وأولئك هم بنو قينقاع *

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يدعوهم الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، تاركا ما يعرف من أن قلوبهم تنضح بالحقد يبدو على أسنتهم ، فالداعى الى الحق لا يبنى عن الدعوة اليه ، ولو كان من يدعوهم يهوديا لا يؤمن بشيء ، ولا يرضى الا بالخبال للمؤمنين *

التقى بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسوق قينقاع فحدثهم حديث الجار لجاره الذى عاهد يدعوهم الى الرشيد ، قال عليه الصلاة والسلام لهم : « يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا ، فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله تعالى اليكم » فأجابوا هذا الحديث الرشيد الودود بكلام فيه جفوة وحدة قائلين :

يا محمد ، انك ترى أننا قومك ، لا يغررك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبحت منها فرصة ، وأنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا الناس *

لقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الجواب المرعد المنذر بالاغضاء ، فما كان يحارب المعتدى بالقول ، ولكن كان يحارب الفعال *

وذكر ابن اسحاق أن الله تعالى قد أجاب عنه بقوله سبحانه وتعالى : « قل للذين كفروا سيقفلون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فتنة تقتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » *

وهذه الرؤية المضاعفة كانت حال اللقاء فى الحرب ، إذ كانوا يرون أنفسهم رأى أعينهم مثل المؤمنين ، والله تعالى هو الذى يؤيد بنصره من يشاء قلة كانوا أو كثرة ، وكمن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .

ولكن بنى قينقاع لم يقفوا عند حد القول ، فى بث روح التفرقة والشك فى أنفسهم ، بل انتقلوا من الاساءة بالقول الى الاساءة بالفعل ، وهم على كتب من المسلمين ، وكانوا يجاهرون بنقض العهد وانهم لا يحترمونه ، ويتناولون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذم ، والأذى .

ولقد قال ابن اسحاق : ان امرأة من المسلمين قدمت تبيع فى سوق بنى قينقاع ، وجلست الى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبى ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ الماخن فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فكان الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

عندئذ كان لابد من الحرب دفاعا عن الفضيلة وعفة النفس ، وقد نقضوا العهد بأقبح طريقة .

موقعة بنى قينقاع :

٤٠٨ — أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة ، وما كان من تهديد يتناولون على المسلمين بالسب والأذى ، والتحامل ، وعدم صون لسانهم عن المسلمين والاسلام ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصابهم ويوفى بعهدهم ، حتى كان منهم القتل .

حاصرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ديارهم ، وأقام على المدينة المنورة فى اثناء محاصرته لهم التى دامت خمس عشر ليلة بشير ابن عبد المنذر وهو أبو لبابة .

ولما اشتد الحصار عليهم واستطال ، نزلوا على حكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . فأجلهم ، ولم يقتلهم ، وقد كانوا حلفاء الخزرج الذين منهم رأس المنافقين عبيد الله بن أبى ، كما كان منهم عبادة بن الصامت ، وقد

ناصرهم ابن أبى ، وتعرض للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رأس
النفاق :

يا محمد أحسن فى موالى ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، فقال : يا محمد أحسن فى موالى فأبطأ عليه رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد أحسن فى موالى ، ومع تبججه فى نداء
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وصف الرسالة ، اذ غلبه النفاق
فى النداء ، فبدأ فى لحن قولهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « ولتعرفنهم
فى لحن القول » مع هذا التبجح تجرأ فوضع يده فى جيب درع النبي صلى
الله تعالى عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرسلنى ،
وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال ويحك أرسلنى ، قال المنافق : « والله
لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمئة حاسر (١) ، وثلاثمئة دارع (٢)
قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، انى والله امرؤ
أخشى الدوائر » وكأنه حسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيقتلهم ،
والنبي عليه الصلاة والسلام أراد اجلاءهم . ولم يرد قتلهم ، فقال له : هم
لك ، أى أنه يجلبهم ، ولا يقتلهم ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دفع
شرهم بأقل ضرر ينزله بهم .

هذا موقف رأس النفاق ، أما موقف المؤمن عبادة بن الصامت ، وهو
حليفهم مثله ، فانه قال : « أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف
هؤلاء الكفار وولايتهم .

• ذانكم رجالان مؤمن ومنافق •

يقول ابن اسحاق ان فى ابن أبى وعبادة نزل قول الله سبحانه
وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم
أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين ،
فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا
دائرة ، فعسى الله أن ياتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا
فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم
أنهم لبعكم ، حببنا أعمالهم فاصبحوا خاسرين ، يا أيها الذين آمنوا من يرتد

(١) الحاسر : الذى لا درع له •

(٢) الدارع : لابس الدرع •

منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا السذين يقيمون الصلاة ، ويؤتُونَ الزكاة ، وهم راعون ، ومن يقول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » .

وإذا صح أن الآيات الكريمات نزلت لمناسبة موقف رئيس المنافقين ، ورجل مؤمن من المؤمنين ، فان الآيات فيها وصف عام ، لن يكون ولاؤهم لله ومن يكون ولاؤهم لغيره .

وان أمر بنى قينقاع قد انتهى باجلائهم ، وطهرت المدينة المنورة من أرجاسهم ، وما كان ذلك اعتداء من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان ذلك لرد اعتدائهم ، ولنقضهم للعهد ، ولأنهم صاروا جيران سوء ، يحق اجلؤهم ليسلم الناس من فسادهم .

سرية زيد بن حارثة

٤٠٩ — بعد غزوة بدر ، وما أصاب قريشاً فيها ، خافوا طريق المدينة المنورة فى وصولهم بمتاجرهم الى الشام فاختاروا طريقاً حسبوه أسلم من هذا الطريق وان كان أطول ، فاختاروا طريق العراق وهو طريق مع بعده لم يكونوا من قبل يسلكونه ، فلم يعرفوا مسالكه ؟ فاستأجروا رجلاً من بنى بكر بن وائل حليف بنى سهم ليكون لهم دليلاً ، وليستمدوا من حلفه أماناً لهم .

ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان يتعرف الصحراء وطرائقها علم بمسلكهم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم زيد بن حارثة ، يتتبع مسالكهم ، فلم يفلتوا منه ، ولقيهم على ماء يقال له ماء القردة ، وهم يستسقون ، فأصاب العير ، فأحضرها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقسمت غنائم ، ولكن الرجال الذين كانوا يصحبون العير قد نجوا بأنفسهم فارين .

ويقول الواقدي فى تاريخ هذه السرية ، والعلم بالعير « كان خروج زيد بن حارثة فى هذه السرية فى مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة (فى السنة الثالثة) وكان رئيس العير صفوان

ابن أمية ، وكان سبب بعثة زيد بن حارثة أن نعيم بن مسعود قدم المدينة المنورة ومعه خبر هذه العير ، وهو على دين قومه ، واجتمع بكثافة بن أبي الحقيق في بني النضير ، ومعهم سليط بن النعمان ، فشربوا فتحدثوا بشأن العير ٠٠٠ فخرج سليط من ساعته ، فأعلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث من وقته زيد بن حارثة ، فلقوهم فأخذوا الأموال ، وأعجزهم الرجال وانما أسروا رجلا أو رجلين ، وقدموا بالعير ، فخمسها ، فبلغ خمسها عشرين ألفا ، وقسم أربعة أخماسها على السرية ٠ وكان فيمن أسر الدليل فرات بن حيان ، فأسلم رضى الله عنه « وإن هذا الخبر ، يعين الوقت ، ويذكر طريق العلم بهذه العير ٠ »

وانى أرى أن خبر نعيم الذى وصل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حينه كان من أحد طرق المعرفة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقظا عالما بما يفعل قريش من أوقات متاجرهم وخروجها الى الشام ، وميقاته ، وخروجها الى اليمن وميقاته ، فقد كانوا يالفون مواعيد معلومة يعدون فيها المتاجر ، والله سبحانه وتعالى قد أعلم بما يالف قريش ، فقال : « لا يلاف قريش أيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ٠ وأمّتهم من خوف ٠ »

فالنبى لابد أن يكون بفراصة المؤمن يعلم أنهم سيخرجون فى تلك الوقت وانهم اذا لم يمروا به ، فأنهم لابد أن يمروا بطريق آخر ، وهو طريق العراق فجاء الخبر ، متفقا مع ما نحسب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد حسبه والله أعلم ٠

كعب بن الأشرف اليهودى

١٠ ع — هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب ، بين أهل مكة المشركين والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان يقوم به اليهود فى هذه المعارك أحادا وجماعات من تحريض للمشركين وتخذيّل للمؤمنين ، وبث روح التردد والهزيمة فى أهل المدينة المنورة ، وإثارة الحروب فى مكة المكرمة ، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله سبحانه وتعالى ٠

وكان كعب بن الأشرف يقوم فى ذلك بأعمال خطيرة ، تؤجج النيران ضد المؤمنين ، وذلك كعبا من طييء ، وأمه من بني النضير ، وظاهر حاله أنه لم يدخل فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يقف من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا المؤمنين موقف المسألة أو يعتزل ، فلم يكن مع

هؤلاء وأولئك ، بل أظهر العداوة ، وعمل تحت سلطانها ، وبدا ذلك فيما يأتى :

(أ) أنه لما علم بمقتل المشركين من أهل بدر ، أعلن غضبه على المؤمنين قال : « لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وبذلك أعلن العداوة المكنونة فى نفسه ، وماذا يصنع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع عدو أظهر عداوته ، ولم يكن له عهد مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم » .

(ب) أنه كان يهجو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويشدد فى الهجاء ، غير ملاحظ كرامة ، ولا حرمة ، بل كان منخلعا من كل عهد ، ومن كل فضيلة ، وكان كالذين آذوا موسى من اخوانه اليهود ، وهو متحلل من كل مروءة .

(ج) أنه قدم المدينة المنورة يعلن عداوته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويجاهر بها ، ويحرض اليهود على المؤمنين ، ويلقى بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير حريجة من خلق أو دين أو عهد ، وجعل يشيب بنساء المؤمنين ، ويشيع قالة السوء عن فضليات هؤلاء النساء .

(د) وكان يحرض يهود على أن تنقض عهدها مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان بأفعاله يجرىء كل من لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام على الخروج عليه ، وشن الحرب ، ولم يترك بابا من أبواب الكيد ، الا دخل اليه ، وليس له أهل يرد عليهم فيمنعوه ، بل هو منفرد بأعماله مقيم فى حصن ، لا ينتمى الى بنى النضير الا من جهة أمه ، ولا تسرى عليه عهودهم .

(هـ) انه لم يقف عمله عند العداوة والبغضاء ، وإشاعة الفساد ، وتحريض يهود ، بل انه تجاوز ذلك ، اذ ذهب الى مكة المكرمة ، واستعدى قريشا ، فنزل على الذين أودوا فى غزوة بدر ، وأخذ يحرضهم على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وربط حباله بحبالهم ، ونفسه بنفوسهم ، حتى لقد قال له أبوسفيان من فرط ما امتزجت نفوسهم به : « أناشدك أدينا أحب الى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأينا أهدى فى رأيك ، وأقرب الى الحق ، أننا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ماهبت الشمال » فقال له كعب اليهودى الكتابى أنتم أهدى سبيلا ، وقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك

الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ، أم لهم نصيب من الملك ، فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » .

وهكذا قد بدت العداوة من أفواههم ، والتحريض من أعمالهم ، واردة الفساد ، وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين من تصرفاتهم ، وكان كعب المثل الواضح في ذلك ، وكان يقول القصائد محرضا المشركين على المؤمنين ، ويقول في شعره محرضا قريشا :

طحنت رحي بدر لمهلك أهله ولثمل بدر تستهول وتدمع

ويقول في التحريض من هذه القصيدة :

ويقول أقوام أسر بسخطهم	ان ابن أشجرف قل كعبا يفرع
ويقول : نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبي الحكم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه	ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم	في الناس بيني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وانما	نحى على الحسب الكريم الأروع

وهكذا يحرض على القتال ، ويرثى القتلى بعبارات تؤجج نيران الحقد ليدفعها الى النار .

١١٤ — هذا ما يفعله الرجل اليهودي المنطلق من كل العهود والمواثيق ، أيسكت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذي يهجم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو ، أم يعلنها على قومه أو من ينتمى اليهم من بنى النصير ، وأكثرهم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلن الحرب الا على من أعلنها ، ولما أعلنوها .

أم يسكت ويترك الشر يستشري ، ويحاكيه في أفعاله بقية يهود ، لاشك ان آخر الدواء الكى ، انه لابد أن يجتث الداء في موضعه ، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله ، ولا منجاة حينئذ ، لم يبق الا أن يقتل كعبا حسما لمادة الفساد ، وما السبيل لدفع شره غير القتل ، انه لا سبيل الا هو ، وأن يقضى

على الداء ، أن يعلن عليه النبي عليه الصلاة والسلام الحرب ، وهل تعلن الحرب على واحد ، لقد قلنا ان من ينتمى اليهم لم يكن منهم مثل ما فعل •

فلم يبق الا أن يقتل ، وأن يدعو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يتولى قتله فى مأمنه ، وقد اتخذ حصنا يأوى اليه ، فحرض عليه الصلاة والسلام من يقتله من غير ضجة ، ولا ازعاج لأحد من الأمنين ، ولقد انتدب لذلك من رأى فى نفسه القدرة من الصحابة ، واستأذنوا الرسول فى أن يخدموه بالقول فاذن •

ولقد وجدنا من الغربيين الذين يكتبون فى تاريخ الاسلام من اثاروا زوبعة حول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • وكيف يأمر بالقتل غيلة ، وهو نبي مرسل ، قالوا ذلك ، ونسوا انه نبي محارب لا يدعو الى الاستسلام للشر ، بل يقاومه ، ويحتاج لحماية الناس من الدماء ، وانه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفع الضرر الكثير بالضرر القليل ، وانه فى سبيل أن تحقق الدماء فى القتال يجب منع أسبابها ، وان الذى كان يثير الحرب جذعا هو واحد وقتل واحد شرير خير من قتل جماعة فى ميدان الحرب ، فهو كان يحرض على الحرب •

قالوا ان القتل كان غيلة ، ونحن نقول فى ذلك ان الرجل جاهر بالعداوة ، وشبب بنساء المسلمين ، وحررض اليهود على الانقضاض على المؤمنين ونكث العهد • ولم يكتف بذلك ، بل ذهب الى مكة المكرمة ، واثار الأحقاد ودعا الى أن يقاتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام •

فعل كل ذلك جهارا نهارا ، فاذا لم يتوقع من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يقربص به الدوائر الدائرة ، وانه يريد أن يقضى عليه ، لأنه مادة الشر ولسانه ، اذا لم يقدر ذلك فهو أبله ولم يكن كذلك فمحمد عليه الصلاة والسلام أمر بقتله فى وقت كان هو يتوقع ذلك ، أو ينبغى أن يتوقع ذلك ولا يعد القتل غيلة لمن يتوقع القتل ، ان قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يشبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب أثاما كثيرة ، وأن من أحضره حيا أو ميتا ، فله جزاء •

اننا فرضنا أن الحكمة والعدالة والأخلاق توجب التخلص منه ، واذا لم يجز التخلص منه بالطريقة التى حدثت وهى الخديعة ، فكيف كان يمكن التخلص ، أيجزعه من ينتمى اليهم فيقدموه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، انهم لا يفعلون ذلك ، ولم يوجد من يتحمل تبعة عمله وما يفعل ، واذا

لم يكن ذلك أيأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باحضاره بين يديه والحكم عليه بالقتل ويتولى قتله ، وما الفرق بين هذا ، وبين ما كان من حيث المعنى .

ان قتله كان أمرا لابد منه لما قام به ، ويقوم به رئيس الدولة العادلة التى يحكمها ذلك الحاكم العادل ، فانه لا سبيل لدفع فساده وإفساده الا بقتله بأى طريق كان القتل ، وكل ما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه اباح دمه ، جزاء ما ارتكب ، ومنعا لاستمراره فى غية ، فقد كان يقوم بجريمة مستمرة غير متحرج ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان مخيرا بين أمرين اما أن يقتله ، واما أن يتركه يرتفع فى جريمته ، فاختر أسلم الأمرين ، اللذين لا مناص من اختيار أحدهما .

وان أولئك الذين يثيرون الشك حول أعمال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحول رسالته السماوية التى كانت رحمة للعالمين – يقولون ان الرسالة الالهية تتنافى مع القتل غيلة ، بل تتنافى مع أصل القتل ، كما كان من عيسى عليه السلام الذى يروون أنه قال : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان قمع أعداء الدعوة الدينية لا يتنافى مع الرسالة ، فموسى عليه السلام وهو من أولى العزم من الرسل ، قد قتل بيده ، وقاتل ، ودعا بنى اسرائيل الى القتال ، وما تنافى ذلك مع رسالته الالهية التى نزلت بها التوراة ، وهى كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معا .

ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ، ونقول فى ذلك ان القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة ، فليست رحمة النبوة انفعالة رعناء تكون على موضع البرء والسقم ، انما رحمة النبوة تكون بالكافة ، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ، ومنع الفساد فى الأرض ، قال الله سبحانه وتعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « أنا نبي الرحمة ، وأنا نبي اللحمة » ولحمته نابعة من مرحمته ، وكثير من العفو يكون مشتملا على أقسى العذاب ، وهو العفو عن الجانى الذى لا رجاء فى صلاحه .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتملت شريعته على العفو فى الأمور التى لا يعود العفو فيها بالشر على الجماعة ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير

للصابرين « • فالصبر عن أخذ الجاني بجريمته انما يكون فى الاعتداء على الآحاد الذى لا يتعدى الأمر فيه الى الجماعة ، وقول الله سبحانه وتعالى : « **خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين** » انما هو فى الأمور الشخصية التى لا يعود ضررها على الكافة ، ويقول الله سبحانه وتعالى : « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ،** واما ينزعك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » وهذا واضح أنه فى الأمور التى تمس الشخص ولا تصل الى الجماعة ، وكلام النصارى الذى ينسبونه الى المسيح عليه السلام انما هو فى الأمور التى لا تمس الا الشخص • واذا فهموه على أوسع من ذلك ، فلكل شرعة ومنهاج ، والله ولى الرشاد •

★ ★ ★

غزوة أحد

٤١٢ — أهدت قريشا هزيمة بدر الكبرى ، اذ كانت حقا يوم الفرقان بين الحق والباطل ، وقوة المؤمنين وضعفهم ، وكانت أول هزيمة تنالهم من جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت مرارة الهزيمة شديدة ، لأنها نالت أشياخهم ، والزعماء فيهم الذين كانوا يجعلونهم بحكم الجاهلية لا يعدلهم بل تعدلهم قبائل ، وما من بيت من بيوت كبرائهم الا كان فيه جرح كبير قد ولد ترة شديدة .

وفوق ذلك قد أحسوا بأن دولة الشرك التي كانوا يستمسكون بها قد أخذت تنهار ، وقد كانوا يعتبرونها عقيدة آبائهم ، وكانوا يقولون ان نتبع الا ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

وقد وجدوا من بعد ذلك مكانتهم في العرب ، وشرفهم أخذ ينهار ، ولو توالى هذه الحال لزال شرفهم ولزالت مكانتهم ، وظنوا أن الأعراب الذين كانوا يخضعون لشرفهم سيخرجون من بعد عن نفوذهم ، وأن القبائل العربية ، تتسئم مكانهم ان استطاعوا .

ورأوا متاجرهم تساق الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غنائم تقسم بين أصحابه ، وأنهم لا قبل لهم بأن ينفذوا بمتاجرهم الى الشام ليتوردوا ويستوردوا وتستقيم لهم رحلة الشتاء والصيف .

رأوا كل هذا وحاولوا أن ينالوا من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فلم ينالوا ، فأغاروا غارة السويق ، فما استفادوا كثيرا ، بل لم يستفيدوا قليلا .

رأوا كل هذه الدنيا ، فهل يسكتون ، وان سكتوا عن متاجرهم ، فلن يسكتوا عن شرفهم الذي ظلم ، ولن يسكتوا عن الثارات التي ولدها المقتل في أشياخهم ، ومن كانوا في موطن الزعامة فيهم .

القوة بدل العير :

٤١٣ — مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل . وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم يوم بدر

فكلموا أبا سفيان بن حرب ليقودهم الى المعركة الجديدة ، وكانت قيادة المعركة التى هزموا فيها بين أبى جهل ، وعقبة بن أبى معيط ، فأرادوا توحيد القيادة هذه المرة ، وأبو سفيان بقية رجالهم ، أو من هو فى مكان الزعامة منهم ، وأبو سفيان هو الذى نجا بغيرهم ، ويريدون أن تكون العير الناجية فداء لثأرهم .

قال هذا الوفد الذى ذهب الى أبى سفيان ، وخاطب أصحاب العير قائلا :

يا معشر قريش : « ان محمدا قد وترككم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربته ، لعلنا ندرك منه ثأرا » .

فنزلوا عن المال ، ليكون مادة القتال ، وأخذوا الأهبة من الرجال ، وأدوات الحرب ، لأنهم علموا أنها الذلة والخزى والعار ، ان لم يستردوا مكانتهم .

اجتمعت كل بيوتات قريش ويطونهم ، ولم يبق أحد منهم الا أخذ الأهبة ، واستعد للقتال ، وأن يضربوا المدينة المنورة ضربة قاصمة ، وان لم يقتلعوا الاسلام منها ، فانهم ينالون مأربا وثأرا ، ويستردون شرفا ويدفعون عارا .

وضموا اليهم كنانة وتهامة ، وأحباشا كثيرة ممن لهم دربة فى القتال بالرمح ، وكان منهم وحشى قاتل أسد الله حمزة الذى منى بالعقق اذا قتل حمزة الذى كان سيفه البتار يهد قريشا هذا ، فما ذهب ليقاتل ، ولكن ذهب ليترصده حمزة ، لا ليوأجه الجيش ، فكأنه ذهب للاغتيال ، لا للقتال .

ولم يكتفوا بمن استعانوا بهم من قبائل حول مكة المكرمة وأحباش ، بل استعانوا ببعض المشركين من الأوس فى يثرب لأن لهم أحقادا كأحقادهم ، ولم يرضوا النفاق أو لم يظهروا به ، فقد روى قتادة أن أبا عامر بن صيفى أخا بنى ثعلبة ، وكان قد خرج من مكة المكرمة مباعدا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه خمسون من غلمان الأوس ، وكان قبل قدوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوهمت قريش أو أوهمها أنه ان لقى قومه ، لم يختلف عليه أحد .

وقد اجتمع بذلك نحو ثلاثة آلاف ، ومعهم مائتا فرس عليها مائتا فارس وكان خالد بن الوليد على مائة جعلها يمين الخيل ، وعكرمة بن أبى جهل على مائة جعلها على ميسرة الخيل ، وانهم رأوا أن محمدا صلى الله تعالى عليه

وسلم ، انما يقاتل مزودا بحمية الدين ، ومؤيدا بروح معنوية تفوق قوة العدد والعدة وتتغلب على الصعاب ، فرأوا أن يكون معهم المحرض المعنوى ، وهو أن يكون نساؤهم معهم ، بحيث يستحون أن يفروا أمامهم . وأن يؤخذن سبايا .

فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو القائد بزوجه هند بنت عتبة ، وكان لها ثارات ، قتل ابنها وأخوها وأبوها ، وخرج عكرمة بن أبى جهل ومعه زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة وهكذا كثيرات من عقائل القوم ، وذوات الشرف فى قريش ، ليكون خروجهن محرضا على الجلال ، ومانعا من الفرار ، وجملة القول فى ذلك أنهم تزودوا بالعدد ، وبالسلاح والكراع ، وبالمحرضات كلها ، لأنهم يعلمون أنهم أمام خصم مزود بكل قوى النفس والايمان الذى فقدوه .

وجاءوا معهم بالشعراء والخطباء ليحرضوا ، وليدفعوا فى الجند روح البأس والقوة ، وحب النضال ، ولم يتركوا بابا من أبواب الاعداد الا دخلوا منه .

وكان ممن اشترك فى التحريض على القتال أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى ، وكان قد أسر ببدر الكبرى ، فمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بغير فداء ، لأنه فقير كثير العيال ، على الا يظاھر عليه ، وبالتالى لا يكون لسانه للتحريض على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولكن المشركين مازالوا به حتى أخرجه عن عهده للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال له صفوان بن أمية يا أبا عزة انك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فأخرج معنا ، فقال : ان محمدا قد من على ، فلا أريد أن اظاھر عليه ، قال بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك عهد الله على ان رجعت أن أعينك فى بناتك وان أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر .

خرج أبو عزة وأخذ يحرض بنى كنانة هو وغيره على أن ينضموا الى جيش قريش ومن معهم فى قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويظهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم بمخرجهم ، وفى كثير من الروايات أن العباس بن عبد المطلب الذى لم يشترك فى هذه الحملة أرسل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان له فوق ذلك العيون بيثها ويتعرف أخبارهم ، فيعرف غيرهم وبالأولى يعرف نفيرهم ، ولكنه انتظر حتى يقع ما توقع ، ويكون أمامهم وجها لوجه ، وما كان له أن يلقاهم قبل ذلك فى غير مأمنه ، وحيث مستقره •

وقد سار جيش قريش سيرته ، حتى وصل الى المدينة المنورة ، وانساب فى مزارعها ، تأكل وتعبث أفراس المشركين وإبلهم ، متحدين مهاجمين •

لقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم

٤١٤ — كان قدوم ذلك الجيش اللجب الى المدينة المنورة فى أول شوال من السنة الثالثة ، وكانت الغزوة فى منتصفه ، وروى أنها كانت فى الحادى عشر منه •

وقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأبهة للقاء لا بكثرة العدد والعدة ولكن بقوة الايمان والحق وقوة الشورى ، وبث روح التعاون ، والاندماج النفسى بالشورى ، فان الشورى بين المخلصين تجعل نفوسهم تندمج وتحس كل نفس بأنها جزء من الأنفس •

وقف عليه الصلاة والسلام بعد الصلاة بين المسلمين ، وقد عاينوا وأحس المؤمنون منهم بأن الأمر خطر : أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشير المسلمين قبل المعركة •

وكان محور الشورى يدور على أمرين أخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان ، ويقاثلهم حيث يكون خير مكان للقتال ، أم أنه يبقى فى المدينة المنورة ، فان أقاموا أقاموا فى أسوأ مقام ، وقد ينفذ منهم الزاد والراحلة ، وان دخلوا الى المدينة المنورة ولها مسلكتها المبنية بالحجارة والأجر ، وكأنها حصن وهم لا يعرفون مداخله •

كانت الشورى فى أى الأمرين أنكى للعدو ، وأقرب الى النصر ، لقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكره الخروج ، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « امكثوا واجعلوا الذرارى فى الآطام فان دخل علينا القوم فى الأزقة قاتلناهم ، ورموا من فوق البيوت » ، وروى ابن اسحاق أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة ،

وتدعوهم حيث نزلوا فان اقاموا اقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

وانه مما يسترعى الأنظار أن عبد الله بن أبي بن سلول كان على هذا الرأي ، ولعله جبن اللقاء منه ، ولكيلا ينكشف النفاق ، أو لأنه يرى أن بعض مواليه اليهود قد يجدها فرصة للانقضاض .

ومهما يكن من مقصده ، والله أعلم بذات الصدور ، فانه قد قال :

يا رسول الله ، اقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط الا اصاب منا ، ولا دخلها علينا الا اصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فان اقاموا اقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

وقد خالف ذلك الرأي مع أنه رأى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم كثيرون من المجاهدين ، وكانوا صنفين ، صنف من أهل النجدة والبأس والقوة لم يجدوا في الانتظار ما يتفق مع ما عندهم من اقدام ، وأنه لابد أن يلاقوهم ولا ينتظروهم ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، فقد قال في قسوة : « والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلنهم » .

وقال رجل من الأنصار الأشداء : ومتى تقاتلهم يا رسول الله اذا لم تقاتلهم عند شعبنا .

والصنف الثاني من الذين لم يحضروا بدرا ، وأرادوا أن يكون لهم في هذه الموقعة شرف مثل شرفها ، وقالوا كنا نتمنى مثل هذا اليوم ، وتدعو الله فقد ساقه الينا ، وقرب المسير .

وبذلك انتهى الرأي بالخروج ، لتكاثر الذين أرادوه ، وكثرة الذين أرادوا أن يستعيزوا عن شرف الجهاد في بدر بشرف الجهاد في أحد .

وما كان لحمد عليه الصلاة والسلام الذي جاء بالشورى ، وأمر بها الا أن يستجيب لحكم الكثرة ، ولا يفرض فيه الخطأ ، كما يفعل ويروج المستبدون في هذا العصر ، إذ يفرضون في أنفسهم الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وفي تفكير غيرهم الخطأ الذي لا يحتمل الصواب ، وتردت بهم الجماعات في منهوى سحيق .

النبي عليه الصلاة والسلام يعد المؤمنين للقتال :

١٥٤ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف خبر الأماكن التي يلقي فيها العدو المكائر المكابر ، وأنه لكى يختار لجيشه لابد أن يعرف أماكن جيش العدو ويمر فى غير ممرهم •

قال النبي صلى الله عليه وسلم كما روى فى الصحيحين هل من رجل يخرج بنا على القوم من كئيب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ، فقال أبو خيثمة أنا يارسول الله ، فأخذ يسير ، فنقذ فى حرة بنى حارثة ، وبين أموالهم ، حتى سلك بهم فى مال لمربع بن قيطى ، وكان رجلا منافقا ضريرا ، فلما سمع حس رسول الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، فقام يحثى فى وجوههم التراب ، ويقول : ان كنت رسول الله فانى لا أحل لك أن تدخل فى حائلى ، وأخذ حفنة من التراب فى يده ، ثم قال : والله لو أنى أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر •

ولكن قبل هذا النهى ضربه بعض القوم بالقوس فشج رأسه •

كان هذا الاتجاه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن نزل على رأى الكثرة ممن استشارهم من المؤمنين •

وقبل أن يخوض بهم المعركة نبههم الى أنه نزل على آرائهم ، فلبس لامة الحرب ، واتخذ درعه استعدادا للميدان ، وأخذ يضع الجيش مواضعه -

أحسن بعض المؤمنين أنهم استكروها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالوا أمرنا رسول الله أن نمكث بالمدينة المنورة ، وهو أعلم بالله تعالى وما يريد ، ويأتيه الوحي من السماء •

حسبوا أن الأمر من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالبقاء يتصل بالوحي وأمر الله فيه ، وظنوا لفرط إيمانهم ولو كان الأمر كذلك ما أخذ فيه رأى أحد ، فلا رأى فى أمر الله تعالى ونهيه ، ولكن كان من الرسول عليه الصلاة والسلام الرأى فى الحرب والمكيدة ، ولهذا عرض الأمر عليهم ، واختار رأى الكثرة ، لأنه الشورى •

ويظهر أنهم رجعوا عن رأيهم على حسب الزعم الذى زعموه ، ولكن الشورى ليس معناها التردد ، فان مع التردد الهزيمة ، اذ التردد يترتب عليه عدم العزيمة ، والعزيمة من قوة الجيش .

ولقد نهيهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى منع التردد ، وقال فى حكمة النبوة « ما ينبغي لنبى لبس لامة الحرب واذن بالخروج الى العدو ان يرجع ، حتى يقاتل ، وقد دعوتكم الى البقاء ، فأبيتكم الا الخروج فعليكم بتقوى الله تعالى ، والصبر عند البأس ، اذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا امركم الله » .

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه من المؤمنين ، وكان عدة المشركين نحو ثلاثة آلاف كما ذكرنا ، بينما كان عدة المسلمين ، وفيهم مرضى القلوب ألفا ، وأراد بعض الأنصار أن يستعينوا بحلفاء لهم من اليهود فقد ذكر الزهرى أن الأنصار استأذنوا الرسول عليه الصلاة والسلام فى الاستعانة بحلفائهم من المدينة المنورة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا حاجة لنا فيهم ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يكون جيشه ممن يريدون القتال دفاعا عن عقيدتهم ، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبائلا ودوا ما علمتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

وما كان له أن يستعين باليهود فى نصرته ، وقد كان بينه وبين بنى قينقاع ما كان مما اضطره لأن يخرجهم ، وكتب الله عليهم الجلاء .

المنافقون :

٤١٦ — نعى الله تعالى الجيش الاسلامى من المنافقين فخرج من الآلف نحو ثلث الجيش من أتباع عبد الله بن أبى ، وأظهر أنه خرج مغاضبا ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأخذ برأيه ، وكذلك كل مستبد يريد أن يقرض رأيه على غيره ، فهو لا يخلو من نفاق ، وقد يبلغ فى نفاقه ما بلغه منه عبد الله بن أبى رأس النفاق بين المسلمين ، وكان خروجه ومن معه اعلاما لأهل الايمان بنفاقهم ، ولقد قال أطاعهم وعصاني .

ولقد كان من اثر دعوته الى الخروج أن لامه بعض المخلصين ، وهم باتباعه بعض المؤمنين فكان ممن لامه ومن معه عمرو بن حزام ، وهو يقول له ولئن معه : « يا قوم اذكركم الله الا تتخذوا قومكم ونيبكم ، عندما حضر من

عدوكم » • فكان من نفاقهم أن قالوا والعدو يساور المدينة المنورة : « لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال » فقال الرجل المؤمن عندما استعصوا عليه أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله تعالى عنكم نبيه •

وقد كان رجوعه سببا في اضطراب بعض المسلمين من المترددين ، وإن لم يكونوا من المنافقين ، فقد همت طائفتان من المسلمين أن تفشلا والله وليهما •

وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة أن يعودوا مع من عاد مع عبد الله بن أبي ، وكان ذلك من فرط جزعهم من لقاء عدد يفوقهم أضعافا ، وهو مزود بزيادة الضغن والعدة ، وقد أثر النفاق في نفوسهم وإن لم يكونوا منافقين •

وهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « وإن غدوت من اهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » •

وقد فرح رجال هاتين الطائفتين لقول الله سبحانه وتعالى : « والله وليهما » إذ اطمأنوا إلى أنهم لم يكونوا منافقين وإن كانوا مترددين ، لأن الله تعالى ولي المؤمنين ، والمنافقون وليهم الشيطان •

وإنه إذ خرج هؤلاء كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض عليه صغار المؤمنين الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، ولم تكن فيهم مهارة في الرماية ولا قوة بدنية تغنى غناء الرجال ، فقد ثبت في الصحيحين أن عبد الله ابن عمر عرض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أحد فرده ، وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب • وغيرهم •

وقد هم برد رافع بن خديع وكان في مثل هذه السن ، فقليل له أنه يحسن الرماية ، فأجازه ، لأنها لا تحتاج إلى قوة في البدن ؛ ولكن إلى مهارة في إصابة الهدف •

وكان سمرة بن جندب قد تقدم أيضا في قريب من هذه السنة فهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده ، فقليل أنه يصرع الراعى ، ويظهر أنه رآه قوى المنة ، فأجازه •

مقاعد القتال :

٤١٧ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ييوىء المؤمنين بمقاعد القتال ، وقد صفى الله تعالى الجيش من المنافقين ، وثبت المتردين ، فقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعيا الى التقوى والصبر ، وأن الله تعالى ناصرهم ، كما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ومبشرهم به ان صبروا ، فقال الله سبحانه وتعالى حاكيا عن نبيه عليه الصلاة والسلام فى تثبيتهم فى ذلك اليوم « ولقد نصركم الله ببدر وأنقم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمددكم ريكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ريكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله الا بشرى لكم ، ولطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفا من الذين كفروا ، او يكتبهم ، فينقلبوا خائبين » ثبت الله سبحانه وتعالى قلب المؤمنين بهذه البشرى ، وهى الامداد الروحى بالملائكة ، ان صبروا فى الميدان وثبتوا ، وذكروا الله تعالى ، وأنه فوق كل القوى ، وصبرت نفوسهم ، فلم تنحرف عن القتال والايغال وراء العدو ، ولم تشغل بالغنيمة عن النصر ، وان صبروا فلم يخالفوا القائد المدرك الذى يدعوهم الى الرشاد ، والى أن يتعاونوا جميعا فى الميدان ، وعلموا أنهم يؤلفون جيشا متعاونوا وليسوا فرقا متفرقة تنافس فى الغنائم ، ولا تنافس فى النصر .

تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومضى حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى الى الجبل ، فجعل ظهر عسكره عنده لكيلا يتمكن المشركون .

وصف الصفوف ، كما فعل فى بدر ، وقلده المشركون فى هذا فصفا الصفوف أيضا وجعل الرماة وعددهم خمسون راميا ، وراء ظهر الجيش ، وجعل عليهم عبد الله بن جبير أميرا وأوصاه ، بأن ينضح عن المسلمين الخيل ، وقال له : « انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك » .

ولبس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته ، وشدد الوصية للرماة ، وذلك ليمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وعدد المشركين كبير ، وجيشهم كثيف .

وبعد أن صف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيشه أمره بالآ يقاقل ،
حتى يأمره بالقتال ، ليقدم الجيش على قلب رجل واحد ، وظهورهم فى
حماية الرماة .

وذلك تنظيم حربى لم يعرفوه ، ولو أن الرماة أطاعوا ما اضطرب
جيش المسلمين ، ولا أصابهم قرح فى هذه الغزوة ، وقد كان أمام جيش
الآيمان جيش الشرك يفاخر بكثرتة وعدته ، وقد اتخذت الأفراس التى
تجاوزت مائتين ، والأبل مزارع المدينة المنورة مسترادا ومذهبا ، وذلك مما
أثار حمية أهل المدينة المنورة للقتال ، حتى قد قال قائلهم ، والنبي عليه
الصلاة والسلام يشاورهم فى الخروج الى المشركين أترعى زروع بنى قبيلة
الأوس والخزرج ولا تضار .

الجيشان

١٨٤ — التقى الجيشان ، ولكن لم تبدأ المعركة ولابد أن نذكر
الأوصاف الظاهرة والنفسية للجيشين قبل أن يخوضا المعركة ، لأن الحال
لهما تنبىء عن المال ، والله ولى المؤمنين .

كان جيش المشركين مزودا بكل أسباب القوة المادية فعددهم أضعاف
مضاعفة لعدد المؤمنين ، ومن ناحية الدوافع النفسية كان يدفعهم الى القتال
أولا الثأر ، ومحاولة استرداد مكانتهم فى العرب ، والخشية على تجارتهم
التي كانت مصدر ثروتهم ، وقد تهددتها قوة المسلمين . وقد أخذوا عليهم كل
مرصد ، فوجد الدافع الى القتال والاستماتة فيه من النفس والنفيس ، وأدركوا
أن الأمر بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر حياة عزيزة كريمة
يتفاخرون فيها ، أو موت ذليل فيه العار والثبور .

ولقد أخذوا يعدون العدة الحربية فى التنظيم آخذين مما صنع النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم وهو تنظيم الصفوف ، فالمحارب مأخوذ بنظام
محاربه تسرى اليه بالمحاكاة والمدافعة نظمه ومسالكه .

ولقد أخذوا نساءهم معهم ، وكلهن موتورات محنقات ، فأرادوا أن
يثبتوا بهن ، وآلا يرتكبن عار الفرار أمامهن ، ويسلمهن للسبى .

وكل ذلك لتقوى الروح المعنوية ، ولا يفرون يوم الزحف ، وقد رأوا

محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه يثبتون عند الحرب ولا يفرون يوم
الزحف •

ولقد روى أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت
عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن يضربن بالدفوف ويحرضن على
القتال ، وكان اللواء في بني عبد الدار فقالت محرصة لهن •

ويها بنى عبد الدار ، ويها حماة الأدبار ، ضربا بكل بثار •

وتقول هند الموتورة في أبيها وأخيها وابنها :

ان تقبلوا نعائق ونفـرش النـمـارق
أو تدبـروا نفـارق فـراق غـيـر وـامـق

ولقد كان أبو سفيان حريصا على بث الروح الدافعة الى القتال في
جنوده الى آخر لحظة قبل القتال ، لقد كان اللواء لبني عبد الدار ، وروى
أبو اسحاق أن أبا سفيان قال لهم يحرضهم على القتال : يا بني عبد الدار ، قد
وليتم لواء يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل
راياتهم ، اذا زالت زالوا ، فاما أن تكفونا لواءنا ، واما أن تخلوا بيننا وبينه
فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم غدا اذا
التقينا ، كيف نصنع !

٤٩ — هذا جيش قوى بالعدد ، وقوى بالعدة ، وبثوا فيه روح القوة
وآثاروا فيه الحمية ، فكانوا المجتمعين على باطلهم ، جمعهم الشر والحقد
والثأر •

ولنتجه الى جيش المؤمنين ، ولا يمكن أن نقول انه في ايمانه وقوة روحه
كان أقل من قوة المشركين المدافعة ، فاذا كان أولئك يدفعهم الحقد والضغينة
والثأر ، فان جيش الايمان يدفعه ايمان قوى راسخ كالرواسي ، وحب في
الشهادة ، وارادة من عند الله سبحانه وتعالى ومعهم أعظم قواد الأرض ايمانا
وروحا ، وللمؤمنين فيه أسوة حسنة • ولكن يجب أن نذكر بعض الملاحظات :

(أولاها) أن بعض الذين لم يحضروا بدرا ، وراوا غنائمها ، ربما كان
من المحرض لهم على القتال والخروج للأعداء — رجاء أن ينالوا من الغنائم
أو الأنفال ما ناله اخوانهم من قبل ، وان كان ذلك مع الايمان والرغبة في أن

يفقدوا الاسلام بأنفسهم ، وجانب المال ان كان بعض الهدف ربما دفع الى طلبه ، فغلب عند ظن النصر ، ومن أجل ذلك كان المنع من الأسر قبل أن يتخن المسلمون فى العدو ، وإذا كان الأسر ممنوعا ، فالجري وراء الغنائم أشد منعا قبل أن يثبت النصر ، ويستقر .

(الثانية) أن بعض المقاتلين من جيش المؤمنين بعد تصفيته ، وتنقيته من المنافقين كان لا يزال فيه بعض المترددين الذين لم يعقدوا العزم قويا ثابتا ، فالطائفتان اللتان همتا ، بأن تفشلا ، لا أستطيع أن أقول ان كل أحادهما قد عقد العزم ، وأصر على القتال وأراد النصر ، وأنه لا يذهب بقوة الجيش الا التردد ، فان كان من بعض أحاده ، نقصت القوة بمقدار تردده .

(الثالثة) أن اليهود كانوا حول المدينة المنورة ، ولهم تراث ، وقد انضم اليهم المنافقون ، وهؤلاء يكونون عورة من وراء الجيش المقاتل .

ولكن قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهبت بكل عوامل الضعف ، واختفت كل عناصر التردد ابتداء ولم يحدث النزوع الى الغنائم الذى كان مستكنا فى بعض النفوس الا عندما لمع بريق الغنيمة ، وظهرت بوادر النصر ، فلم يكن التتبع للفلول المهزومة من قوات المشركين .

هذا بانصاف حال الجيشين المقاتلين وكلمة الله سبحانه وتعالى أعلى ، وله حده العزة ، وأنه ناصر جنده ان استقام على الطريقة ، واتخذ الصبر فى الزحف ، والصبر بضبط النفس عدة له ، فان ذلك هو القوة بعد توفيق الله سبحانه وتعالى .

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ الأهبة وقوى النفوس ، وشحن العزائم وحقق قوله الله سبحانه وتعالى « فاذا عزمتم فتوكل على الله » .

المعركة

٤٢ — بوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجنده مقاعد للقتال ، وقد عنى بأمرين عناية شديدة أولهما بالرماة ، فقد شدد عليهم الوصية بالآلا يبرحوا مكانهم ، ومما قاله لهم فى ذلك ، « احموا لنا ظهورنا اننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا ، والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فان الخيل لا تقدم على النبل » .

الأمر الثاني جعل فى صفوفه الأولى الأشداء من جند المؤمنين الذين أبلوا بلاء حسنا فى غزوة بدر كأسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسلام على بن أبى طالب والزبير بن العوام الذين يذكروهم وجودهم بهزيمة بدر فيكون ذلك اربابا لهم وايقانا بأن الليلة كالبارحة ، ولأنهم يدقون صفوف المشركين دقا ، فيقتحون الطريق لمن وراءهم ، ويزيلون الرهبة من لقاء أهل الشرك ، ولو كثر عددهم ، ونهاهم عن أن يقدموا الا بأمره ، ويستأنوا •

وقد أخذ يتفرد الوجوه ، ويحرض الأبطال ، ويدفع الصناديد الىالباس ، فحمل سيفا ودعا المؤمنين الى أن يحملوه ، ويحموه •

روى الامام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ سيفا يوم أحد ، فقال من يأخذ هذا السيف بحقه ، فجعلوا ينظرون اليه ، فقال من يأخذه بحقه ••• فقال أبو دجانة سمالك أنا أخذه بحقه • فأخذه ففلق به هام المشركين •

قال ابن اسحق ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها ، فيعلم أنه سيقا تل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم جعل يتبخر بين الصفيين بعد أن اعتصب بعصابته • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبخر : انها لمشية ييغضها الله الا فى هذا الموطن •

كان لواء المشركين مع طلحة بن أبى طلحة ، ثم عثمان بن أبى طلحة ، وكان حملة اللواء جميعا من بنى عبد الدار • والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى لواء جيش الاسلام على بن أبى طالب فلما رأى عليه الصلاة والسلام حامل لواء المشركين من بنى عبد الدار طلحة بن أبى طلحة أخذ اللواء من على كرم الله وجهه فى الجنة ، وأعطاه مصعب بن عمير من بنى عبد الدار •

ابتداء القتال :

٤٢١ — ابتداء القتال من قبل المشركين أبو عامر بن صيفى وهو أوسى ، كان يسمى الراهب ، وسماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق عندما خرج الى قرىش يحرضهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قبل قدوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ذا مكانة فى قومه •

فدفعوه ليتقدم جيش الشرك ، وكان فى نحو خمسين ، وظنوا أن ذلك يوهن من قوة الأنصار ، ويبعث على التردد ، ولذا قال عندما تقدم ونادى يا معشر الأوس ، فقالوا له : « لا أنعم الله بك عينا » فطاش سهمه ومن معه وخاب فآلهم ، وقال لما سمع ردهم : « لقد أصاب قومي بعدى شر » .

أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال ، وكانت كلمة التعارف بين المؤمنين أمت أمت ، اندفع الصناديد من جيش المسلمين يقتلون فى جيش الشرك يضربون فاندفع أبو دجانة يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه تعهد لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذه بخفه حتى انه ليضرب الرجل على رأسه بالسيف ، فيفرقه فرقتين .

وكان النساء قد خرجن فى القتال ملثمات ، أو ظاهرات بمظهر رجال ، فلقى أبو دجانة امرأة قيل انها هند امرأة أبى سفيان بنت عتبة ، فرفع السيف عنها ، ولم يجد من كرامة سيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقتل به امرأة ، ولو كانت تقاتل .

وحمزة بن عبد المطلب يدق جيش المشركين بسيفه دقا ، وأوغل بسيفه البتار فى جيش المشركين ، وهم يفرون منه فرارا ، كأنها النعاج تفر من الأسد الهصور .

وحامل لواء الشرك طلحة بن أبى طلحة يطلب المبارزة ، فلا يقدم على مبارزته الا على بن أبى طالب ، وما هى الا جولة من جولات على الا كانت بعدها الضربة القاصمة التى وصفها المؤرخون بأن ضربات على كانت أبكارا ، أى لا يضرب الا ضربة واحدة تكون بكرة منفردة .

الخسارة الفادحة - مقتل حمزة مع المضاء فى القتال :

٢٢ ٤ — كانت الجولة للمسلمين ، حتى ان المشركين يفرون فرارا امام سيوف الله تعالى التى سلها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الشرك وأهله ، وأمام الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، فما تقدموا حريصين على الحياة الدنيا ، انما يحرصون على ما عند الله فى الآخرة .

قتل حامل اللواء الاسلامى مصعب بن عمير ، فحمل اللواء على رضى الله عنه ، فما سقط اللواء ، ولكن الخسارة الكبرى كانت فى مقتل حمزة .

لقد قتل غيلة ، وما قتل فى مبارزة ، ولا فى مواجهة فما كان بنو هاشم ليقتلوا الا غيلة خيانة وجبنا ، لقد تواصت هند ، وغيرها من قريش مع وحشى العبد الحبشى الذى يجيد القذف بالرمح ، ولا يجيد الضرب بالسيف وما كان يجديه لو أجاده أمام أسد الله تعالى حمزة •

كان حمزة يجندل الأبطال ، وما تقدم نحوه أحد الا جعله يعض التراب مستهزئاً به ، ساخرًا منه ، وهو يتبختر ، ويدل بمواقفه فى القتال •

وقد كان يتربص به العبد الذى جعل سيده جبير بن مطعم قتل حمزة عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثمن عتقه ، كما قتل حمزة عمه •

كان وحشى يختبئ وراء الأشجار لتسبح له فرصة يرمى فيها رميته ، وحمزة ، كمال قال العبد ، يحمل سيفه كالجمل الأورق يهد به الجيش هذا ، فرماه بحريته التى لم تخطيء ، ونال حريته •

فقتل عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسيد الشهداء • كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » •

واذا كان ذلك قد أرى جبير بن مطعم ، وأرضى هند بنت عتبة ، فانه لم يرض الشرف والمروءة ، وأرضى النذالة والخيانة ، وأنى يكون هذا من فعل أبى دجاجة ، وقد رأى محاربه امرأة فتركها تنزيها لسيف رسول الله أن يقتل به امرأة تقاتل •

ولكن ما وهن جيش الاسلام ، ولا ضعف ، وان ذهبت منه قوة ليس من السهل أن تعوض اذا استشهد منه رجل كان كالف من الرجال الأشداء •

بل استمر جيش الحق فى تتبعه لأعداء الله تعالى ، فلم يهن ، وان حزن بل مضى فى طريقه ، وكان هو الغالب الأغلب ، والمشركون يتساقط من بين أيديهم لواؤهم حاملاً بعد حامل •

قتل حامل اللواء ابن أبى طلحة ، فحملة أخوه عثمان بن أبى طلحة ، ثم حملة من بعده أخوه أبو سعد وقد طلب المبارزة من على متحدياً ، فتصدى له على الذى لم يفر من مبارز ، ولم يبارز أحدا الا نال منه ، فبارز حامل لواء المشركين ، ومن آل اليه لواء المؤمنين بعد مصعب بن عمير ، فاختلفا ضربتين فنبت ضربة ابن أبى طلحة ، وضربه على قصرعه ، ثم انصرف عنه ،

ولم يجهز عليه ، ولعله لم يجهز عليه ، لأن فارس الاسلام لا يقتل مصروعاً ، بل يقتل من يقف أمامه ، وقال على رضى الله تعالى عنه عندما قال له بعض أصحابه أفلا أجهزت عليه ، قال : انه استقبلنى بعورته ، فعطفنى عليه الرحم ، وعلمت أن الله قد قتله •

لا نقول قابلوها بين على ومن حررض العبد ، فان تلك بطولة على ، وهذه اخلاق العبيد • توالى القتل من حملة لواء المشركين ، حتى حملته امرأة •

وصناديد الجيش الاسلامى حتى بعد مقتل حمزة بالخيانة والغيلة والغدر مستمرون فى الضرب فى اهتداء ، وقد شقوا صفوفهم ، كما تشق السكين الكمثرى ، واداروها رضى فى صفوفهم ، وهم يفرون تاركين أموالهم وعتادهم ومع كثير مما يغنم •

الغنائم المقاتلة :

٤٢٣ — تفرق معسكر الشرك ، وفر من فر منهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم ينالوا خيراً ، ولكنهم لم يسحقوا ، ولم يثخنوا وكانوا يفرون فراراً ، والعدد لحب كبير ، وفيهم قوة الخيل قوة خالد بن الوليد ، وقوة عكرمة بن أبى جهل ، ومع كل منهم مائة فارس ، قد أعدوا العدة ، لينقضوا ان وجدوا الفرصة ، وكلاهما ذو بصر أريب يدفعه الثأر والحمية •

غر الأمر طلاب الغنائم ، وبينما على والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وصناديد الأمصار يقصمون ظهور المشركين ، حتى حملوهم على أن يتركوا متاعهم ، أخذ هؤلاء من وراء أولئك يجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، ويتركون أبا دجانة يفلق الهام ، ولا يحمون ظهور المؤمنين ، والطمع يغرى بالطمع ، والمال يغوى ويضل •

ولقد وصف ابن اسحاق المعركة قبل التسابق على الغنائم فقال أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده ، وحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها • ويقول البطل الزبير بن العوام « ولقد رأيتنى أنظر الى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير » •

أخذ ناس يجمعون الغنائم ، ورأى الرماة الغنائم تكثر ، ويتسابق اليها من يريدونها ، فتركوا حماية ظهور المؤمنين ، ونضح الخيل بالنبال ، وأمر

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بألا يتركوا أماكنهم سواء أكان القتل للمؤمنين أم كان على المؤمنين ، لأنه لا يريد أن يحيط جيش المشركين الكثير بجيش المؤمنين الذي لم يصل في العدد إلى ربعه .

زابلوا أماكنهم ، وعين خالد وعكرمة تترقبهم ، ويريدون فرصة ينتهزونها لفعل الخيل ، فانقضوا على مواطن الرماة ، وأخذوا جيش الايمان من ظهره .

والجزء الأكبر من جيش قريش يسير في انكسار ، ولا يتوقع الا الهزيمة حتى أخذ ينادى خالد بن الوليد جيش قريش بأنه أخذ يضرب جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ظهورهم ، فعادوا كلبين على جيش المسلمين يريدون أن ينالوا منالا ، وأرادوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، وإذا كانوا قد أحاطوا بجيش الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فاش سبجانه وتعالى من ورائهم محيط .

قال ابن اسحاق :

انكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله سبجانه وتعالى من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرمى رسول الله تعالى عليه وسلم بالحجارة ، حتى وقع ، فأصيبت ربايعيته وشج في وجهه ، وكلمت شفته .

وهكذا وصل جيش المشركين إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته الطاهرة ، ووقع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حفرة من الحفر ، وكان أبو عامر الأوسى ، قد حفرها ليتردى فيها المسلمون عند هجومهم ، فأخذ على بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما .

وأخذ عليه الصبابة يزيلون وضر الجروح عن وجهه ، ونزع أبو عبيدة عامر بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ، نزعها بأسنانه ، فسقطت ثنية ابنى عبيدة ، ثم نزع الأخرى ، فسقطت ثنية أخرى .

كان جيش الشرك لا يريد الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ظانين أنهم ان قتلوه ، انتهى الأمر ، ولذلك أحاط به الصناديد من المؤمنين الذين كانوا في صدر الجبهة ، وأخذوا يذودون عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسيوف تعتورهم ، ومنهم كثيرون ذهبوا فداء لرسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم ، وذهب من جيش الشرك من يخصه بالضربة غير مبال بشيء .

وفى ذلك الوقت اشتدت الحماسة فى الدفاع عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بجواره مصنع بن عمير حامل اللواء يذود فقتله من يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وظن أنه قتل رسول الله صلى تعالى عليه وسلم ، ونادى فى قريش أن محمدا قتل ، وقد أعطى اللواء لعلى .

وقد اتجهوا الى النبل يصوبونها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واتخذ أبو دجانة من نفسه ترسا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقم النبل فى ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر النبل ، وبينما أبو دجانة يترس دون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان سعد يرمى المشركين بالنبل ليعدهم عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والرسول عليه الصلاة والسلام يناوله ما يرمى به ، ويقول له : ارم فذاك أبى وأمى .

لنترك الذين حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أصاب الرسول ، ولنتجه الى ما جرى فى جيش الايمان بعد الاحاطة بهم .

لقد شاع فى المشركين أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل ، فأبأس الخبر الجميع ، ويأس الضعفاء وتحمس الكثيرون ، وصاح فيهم أنس ابن النضر : « ماذا تصنعون بالحياة بعده ، قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واستجاب الناس لندائه ، وقاتل حتى قتل .

ثم جاء البشير من بعد فترة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقتل ، فنهضوا ، ونهض معهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الشعب الذى كان به بجوار أحد ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم من أقوياء المسلمين يستردون الموقف بعد المباغة التى بلغ الاضطراب فيها أن قتل بعض بعضهم بعضا وقد صارت الأمور لأهل الايمان فوضى .

وكان أبوسفیان قد أشرف بمن معه على المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى هذه الشدة لا يعلنون اللهم ان تقتل هذه العصابة لا تعبد فى هذه الأرض ، وندب من أصحابه من أنزلوهم ، واستقتل المسلمون فى ذلك حتى أزالوهم عن الجبل ، وشقوا طريق قريش ، وأن كان الجيش كليلًا مكلوما ، ولكنها قوة الايمان المستيقظة فى قلوب رجال بدر

الكبرى ، وبقية سيوفها ، وبقية السيف أبقي عددا ، كما قال على بطل بدر
وأحد •

نهذه ذلك من عزيمة قريش ، إذ كانت الحجارة ترمى من الجبل على
فرسان خالد الذي أخرجهم من الهزيمة الساحقة ، وإن لم يأخذهم إلى نصر
حاسم •

وألقي اليأس في قلوبهم من نصر حاسم حالك لقوى المسلمين ما جاء به
البشير من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم حي ، يدبر لهم ، ويكيد •

عادت القيادة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اضطربت
أمر الجيوش ، وحمل الله اللواء على بن أبي طالب ، بعد أن سقط حامله مصعب
ابن عمير ، وأنه بعد أن حمل اللواء على ، وهو الذي يهجم ويضرب ، فلا يهجم
أيقع الموت عليه أم يقع على عدوه ، وبعد أن استولى المسلمون على الهضبة
أخذوا يقاتلون ، ولم يغن المشركين ، إذ استمر خالد في هجومه ، فقام
المسلمون ، وكانت الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم ومن أمثال أبي دجانة والزبير ، وطلحة ، وحامل اللواء على فقابلوه
بهجوم مضاد وصدوه ، بعنف الجبال •

ومض برق النصر لقريش عندما اضطرب جيش المسلمين ، وكثر الفتك
فيه ، وليس عددا كثيرا بجوار عدد المشركين ، وعندما شاع بينهم أن محمدا
صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل وحسبوا أنهم منتصرون ساحقون لجيش
النبي عليه الصلاة والسلام ، جيش الايمان ، ولكن ذهب البرق الذي خطف
أبصارهم عندما علا جيش المسلمين إلى الهضبة ، وصدد هجمات خالد ومن
معه ، وحمل اللواء على ، واللواء حامل النصر ، وإن تخاذل خذل من وراءه ،
وعلى لا يتخاذل ، وقد علموا سيفه في بدر وأحد ، وكما قال أبو سفيان يؤتى
الجيش من حامل لوائه •

ولا ننسى أن جيش قريش قد أصابته جراح الحرب ابتداء ، فالأمل هو
الذي داوى جرحه فهجم ، وسط اضطراب جيش الايمان ، فلما استقام له
الأمر ، فغرت جراحهم ، وخافوا العقبى ، ويئسوا من النصر الساحق ، إذ
رأوهم وقفوا أمامهم ، وقد ذاقوا من قبل وبال الأمر من هجومهم ، وإن كانوا
قليلا •

عندئذ رأوا أن ينهوا القتال ، وقد فرحوا بهذا النصر المؤقت ، وخشوا

أن يضيع منهم وأنه لابد ضائع ، لقياسهم القابل على الماضي ، والحاضر لحظة
ستصير ماضيا .

٤٢٤ — هذه غزوة أحد التي يقول فيها المؤرخون أن الهزيمة فيها
كانت على جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنى أرى أن تسمية
ما أصاب المسلمين هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق ،
انما تكون الهزيمة اذا كان جيش الايمان قد فر فرارا ، والآخر قد تبعه فى
فراره ، حتى داهم المدينة المنورة ، وكان ما يكون بعد ذلك .

انما الذى أنهى القتال هم المهاجمون ، وكأنما اكتفوا بأن أصابوا مقتلة
من المسلمين ، ورضوا بذلك لأنهم لا طاقة لهم فيما وراء ذلك ، وقد رأوا
المسيوف الاسلامية تبرق ، وذاقوها مرتين ، ولذا تتبعهم النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم .

واذا كان ما فى أحد لا يسمى هزيمة ، فانه لا يسمى نصرا أيضا لأحد
الفريقين . وقد يسمى جراحا للمسلمين ، كما سماها القرآن الكريم ، إذ
سماها قرحا ، وسماها اصابة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « ان يمسسكم
قرح ، فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله
الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين
آمَنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين
جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد
رأيتموه ، وأنتم تنتظرون ، وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان
مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا
وسيجزي الله الشاكرين » .

٤٢٥ — وقبل أن نترك الكلام فى الموقعة التي انتهها المشركون ، ولم
ينهاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يعترف بانتهائها بانهاهم ، بل
سار وراءهم حتى فروا هم فرارا . لابد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها : أن النبي صلى الله تعالى وسلم قد قتل مشركا بيده فى هذه
الغزوة ، ذلك أن أبى بن خلف قد أراد أن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم وقد اعتزم ذلك الاثم وهو فى مكة المكرمة ، فلما كان يوم أجد أقبل أبى
مقنعا بالحديد ، وهو يقول : لا نجوت أن نجا محمد ، فاستقبله مصعب بن عمير
فقتله ولكن قيل لمصعب بن عمير ، قتل غيره ، وكان على الرسول صلى الله
تعالى عليه وسلم أن يرده بنفسه ، فأخذ الرمح وأبصر عليه الصلاة والسلام
ترقوة أبى بن خلف من فرجة بين سايغة الدرع ، والبيضة الحديد ، فصوب

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الترقوة من بين الحديد ، فطعنه بالحربة ، فوقع الى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، كما يقول الرواة ، فأتاه أصحابه ، وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له ما أجزعك !! انما هو خدش ، فقال والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز ماتوا أجمعين فمات الى النار فسحقا لأصحاب السعير .

ويقول ابن اسحاق فى وصف قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له وقد جاء اليه قال : دعوه فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحربة من الحارث بن الصمة ، فقال بعض القوم ، كما ذكر لى ، فلما أخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير اذا انتفض ، ثم استقبله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطعنه فى عنقه طعنة تدأ دأبها عن فرسه مرارا .

وان هذا يدل على قوة بأس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وان كان لا يقتل بيده .

الأمر الثانى : أن النساء كن يخرجن فى جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحملن الماء للمجاهدين ويداوين الجرحى ان أمكن ذلك ، وقد يضرين بالسيف ، ان كانت ضرورة لذلك ، يروى أن أم عمارة نسيبة المازنية قد خرجت مع الجيش تحمل سقاء فيه ماء ، لتسقى الجيش . وكانت تشد أزر المجاهدين ، فلما أحرق المشركون وأحست بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرض للمشركين ، وقد جعلوه هدفا مقصودا . استلقت السيف ، وأخذت تذود عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذائدين ، وترمى بالقوس ، حتى نزلت بها جراح شديدة وأصاب عاتقها جرح أجوف له غور .

ولقد كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسل الدم عن وجه أبيها الكريم ، وتداوى جرحه . روى البخارى عن سهل بن سعد انه قال : « أما والله انى لا أعرف من كان يغسل جرح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن كان يسكب الماء وبما دوى ، كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسله ، وعلى يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها .

والظاهر من هذا الخبر أن فاطمة الطاهرة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرجت مع المجاهدين ، فداوت جرح أبيها عليه الصلاة والسلام أو أن يكون الدم استمر يسيل حتى عاد الى داره والله تعالى أعلم .

الأمر الثالث : ما فعله المشركون بالقتلى ، وخصوصا الجثمان الطاهر ، جثمان حمزة رضى الله عنه ، وأقرنه بما فعل على رضى الله عنه عندما صرع مبارزة ابن أبى طلحة ، فقد بدت عورته ، فرفع على سيفه وأخذته المروعة والرحم ، ولكن أنى تكون امرأة أبى سفيان وأبو سفيان ، وعلى البطل الذى يقرع الأقوام فى وجوههم ، ولا يقرعهم مدبرين .

سلط المشركون النساء على القتلى يمثلن بهم بقيادة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وأم معاوية ، وذكر ابن اسحاق أنه وقعت هند بنت عتبة ، والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجدن الأذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من أذان الرجال وأنفهم خلخل ، وقلائد ، وقد أعطت قلائدها الحقيقية وخدمها وأقراطها وحشيا الذى اغتال حمزة غدرا وخيانة وجبنا ، وبقرت بطن حمزة ، وأخذت كبده فلاكتها ولم تسفها ، فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة .

وانشدت تقول :

نحن جزيئاكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سر
ما كان عن عتبة لى من صبر	ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمري	حتى ترم أعظمى فى قبرى

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

٤٣٦ — « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين أن شاء أو يتوب عليهم أن الله كان عفورا رحيفا » .

وان النص السامى الكريم ينطبق على الذين ثبتوا من رجال المؤمنين فى أحد ، سواء انزلت الآية فيهم أم كانت عامة ، تعم كل رجال الجهاد من المؤمنين .

فقد كان فى هذه الغزوة رجال كانوا صادقين فى حريهم ، وصادقين فى ايمانهم منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذى كان يدق جيش الشرك دقا ، ومنهم أبو دجانة الذى كان يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطى السيف حقه • ومنهم مصعب بن عمير ، ومنهم بطل الأبطال على بن أبى طالب الذى حمل اللواء فى الشديدة ، فكان اعطاء اللواء له اربابا للشرك ، ومنهم طلحة بن عبيد الله ، الذى كان له الفضل الأول فى تحويل الحرب من هزيمة متوقعة للمؤمنين الى نصر متوقع للمؤمنين ، ومن بعده أنهى المشركون القتال خشية أن تكون العاقبة عليهم ، لا لهم • وذلك عندما طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صحابته الأبطال الذين يحيطونه أن يعلو الى الجبل ، حتى لا يكون أبو سفيان فى علو عليهم •

ولنترك البيهقى يتكلم فى دلائل النبوة « انهزم الناس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار ، وطلحة ابن عبيد الله وهو يصعد فى الجبل فلحقهم المشركون ، فقال إلا أحد لهؤلاء ، فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام كما أنت ، فقال رجل من الأنصار فأننا يا رسول الله فقاتل عنه ، وصعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن بقى معه ، ثم قتل الأنصارى فلحقوه ، فقال إلا رجل لهؤلاء ، فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار فأننا يا رسول الله ، فقاتل ، وأصحابه يصعدون ، ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا يا رسول الله فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال ، فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه أحد إلا طلحة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لهؤلاء : فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقاتل مثل قتال من جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله ، ثم صعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه وهم مجتمعون ، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك يوم كان لطلحة •

وان صعود جيش المسلمين الى الجبل بعد أن أبعدهم المشركون فيصل بين الاضطراب فى جيش المؤمنين ، وبين اعادة الخطة ، والسير على المنهاج من غير اضطراب وحامل اللواء على كرم الله وجهه ، ولذا أخذوا يضربون أقوى فى المشركين بقيادة خالد بن الوليد ، وينتصفون منهم ، وقد زال عنهم وعث الجروح ، وانتظم جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك أنهوا القتال وشيكا ، ولم يستمروا خشية أن تدور عليهم الدائرة كما ابتدأ المسلمون يحسونهم بأذنه •

فرحة أبي سفيان بالنصر القريب

٤٢٧ — أنهى أبو سفيان الحرب فرحا ، راضيا بما وصل اليه ، وإن لم يكن نصرا لهم وسحقا للمسلمين ، ولكنه أدرك الثأر وكفى ، والوقائع أقنعت به بأن يكتفى بذلك ، حتى لا يضيع من يده ما أخذ ، وهو أنه ثأر ، وأخذ ثرته ، وكفاه ذلك ، ولم يقتلع المدينة المنورة ، ولم يستطع أن يمنع أسباب مصادرة ماله وغيره ولكن وقف يفاخر بما وصل اليه ، وينادي المؤمنين ، يقول :

أفى الجيش محمد ؟ أفى القوم محمد ؟ أفى القوم محمد ؟ نادى ثلاثا ، فنهاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجيبوه ، ثم قال أفى القوم ابن أبي قحافة أفى القوم ابن أبي قحافة ، ثم قال : أفى القوم ابن الخطاب ، ثم أقبل على أصحابه ، قال أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم فما ملك عمر نفسه فقال : كذبت والله يا عدو الله ، ان هؤلاء لأحياء كلهم وقد بقى لك ما يسوءك . فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، انكم ستجدون فى القوم مثله لم أمر بها ، ولم تسؤنى .

ثم أخذ يرتجز فرحا : اعل هبل ، اعل هبل .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا يا رسول الله وما نقول ؟ قال قولوا الله أعلى وأجل ، قال ان لنا العزى ، ولا عزى لكم . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألا تجيبونه ؟ ! قالوا يا رسول الله فما نقول ؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

وصف المعركة فى القرآن الكريم

٤٢٨ — وصف القرآن الكريم المعركة وصفا دقيقا ، ووصف نفوس جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، خصوصا الذين كانوا يطلبون المال فى المعركة ، وأثارهم فيها ، فقال الله سبحانه وتعالى :

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلان ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين ، ولقد

كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه ، وأنتم تنظرون ، وما محمد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكركن ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكركن » *

هذه الآيات الكريمات تصور النتيجة التي انتهت اليها المعركة بالنسبة لما أصاب المسلمين من قرح ، وأنه كان اختبارا للمؤمنين ليتميز المجاهدون الصابرون من الضعفاء المترددين ، وفي هذا إشارة الى أنه كان في جيش الاسلام مترددون ، كما أشرنا في وصف الجيش *

وفي النص الكريم ما يشير الى حقائق ثابتة ، منها أن الاصابة مرة لا يصح أن تحدث الوهن والحزن ، فهما يولدان اليأس من رحمة الله ، وليس اليأس من شأن أهل الايمان ، فانه لا يئس من روح الله الا القوم الكافرون *

ومنها أن القياس بالمماثلة بين ما أصابهم في الماضي ، وما أصاب المؤمنين يريح النفس ، وقانون الحياة الذي سنه الله تعالى في الوجود المداولة ، حتى يكون النصر النهائي ، وما النصر الا من عند الله العلي الحكيم *

ومنها بيان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كان صاحب الرسالة لا يصح أن يكون موته أو قتله منهيًا لدعوته ، بل على المؤمنين من بعده ألا ينقلبوا خاسرين ، وعليهم أن يتحملوا الرسالة ويبلغوها الناس ويجاهدوا في سبيلها غير وائنين ولا مقصرين *

هذه حال المسلمين في أعقاب المعركة ، والعبرة فيها *

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المعركة في ابتدائها ، ووسطها وما أصاب النفس المحاربة ، ان كانت مترددة ، والنفس ان كانت مجاهدة ، وبين سبحانه وتعالى سبب العجز ، فقال تعالت كلماته : « ولقد صدقكم الله وعده ان تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم ، وتنازعتم في الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا الله عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، ان تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فاتاكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم ، والله خير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة ناعسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل ان

الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ، ان الذين تولوا منكم ، يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، ان الله غفور حلیم *

ونرى في هذه الآيات الكريمات وصفا دقيقا للمعركة ، ووصفا للنفوس بينه العالم بما في الصدور *

ونرى الآيات تبين ابتداء المعركة ، وقد كان فيها جيش الايمان يحس الشرك بأن يصيب حسه ، واصابة الحس قتل الأنفس * وازالة عنصر الحياة فيها ، بازالة الحس الذي هو مظهر *

ويجىء من بعد ذلك الاختلاف حول الغنائم ، بسبب التردد بين أخذها وبين تركها ، وفي الأولى عصيان القائد الأعظم ، وفي الثانية عصيان النفس ، وطاعة القائد هو أولى بها ، وان كل تنازع عجز ، ولذا بين القرآن الكريم أن ذلك فشل ذريع ، ثم غلب بعد ذلك العصيان *

وانبثق في هذا الخلاف ما تكن النفوس ، فكان منها من يريد الدنيا ، وهم الذين تبعوا الغنائم ، وأخلوا بالصفوف ، وصرف الله تعالى جهشه الذي كان موحدا في الظاهر ، لتكون تلك الجراح ، والمقتلة التي أصابت المسلمين *

وصور الله تعالى المعركة في انتصارها وكبوتها ، اذ هم يصعدون ، والرسول عليه الصلاة والسلام يدعوهم في أخراهم *

ثم من بعد ذلك كانت الحسرة ، فلم ينالوا مالا ، ولم يحفظوا نفوسا ، وأصابهم غم شديد ، بل أصابهم غمین * غم بسبب ضياع الأنفس وضياع المال اذ تعجلوا قبل ميقاته ، وغم اذ نالهم ، وأحسوا بما كان منهم ، فلا يحزنون على مال فاتهم ، ولا جروح أصابتهم ، انما هو الغم والغم انزال غمة بالنفس ؛ تكون منها في ظلام لا يرى ما وراءه ، ويصيب النفس بالاعياء المرهق كذا وحسرة *

وان ذلك كان عاما لمن كان يريد الدنيا ، ومن كان يريد ما عند الله ، وقد خص الذين يريدون ما عند الله تعالى بأنه بعد الغم المتوالى ، غما بعد غم ، كان الاطمئنان والرضا بما كان مستقيدين من العبر ، وكان مظهر هذا الاطمئنان للناس الذي لا يكون الا من قرار نفس ، واطمئنان حاضر ، ورضا بما قدر الله تعالى ، وقد بذلوا في جهادهم كل الأسباب ، وقد فاتهم النصر

الحاسم كمن كان الشيطان قد استزلهم بأن أوقعهم فى الزلل ، بما كسبت قلوبهم من طلب للمال •

والآخرون الذين لم ينلهم الاطمئنان ، لأنهم الذين باشروا سبب الفزع والاضطراب الذى أصاب جيش قد أهتمهم أنفسهم ، فكانوا فى هم دائم ، لأنهم فقدوا المال الذى كانوا يريدونه ، وأصابتهم حسرة من الجراح التى نزلت بهم ، وبالمؤمنين ، ولأنهم لم يطيعوا •

ولقد حدث من بعضهم أنه بعد الانكسار المؤقت الذى أصاب الجيش فكر بعضهم فى أن يكتب الى عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، يؤمنون أنفسهم عنده ، ويظهرون له الطاعة بعد العصيان •

فقد جاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أن بعض الذين كانوا قد هموا بالفشل أنهم قالوا « ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبى فيأخذ لنا أمانة من أبى سفيان ، ياقوم ان محمدا قد قتل ، فارجعوا الى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، فقال أنس بن النضر ياقوم ان كان محمد قد قتل ، فان رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم انى أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل » •

وقد اشرنا الى ذلك من قبل ، ونذكره هنا بيانا لما نشير اليه ، فهؤلاء هم الذين أهتمهم أنفسهم ، وقد جرهم الشيطان الى الزلل بسبب ما كسبت نفوسهم من تردد ، ومرض نفسى ، فكان زللهم نكبة للجيش ، وان لم تؤد الى هزيمة وان هذا يزكى ما قلنا فى أول القول عندما وصفنا جيش المسلمين ، بأن فيه بعض المتردين دعاة الهزيمة اذا وجدت أسبابها ، وأنهم ما جاءوا الا للغنائم ، وأنهم نفسوا على أهل بدر ما نالوا من أنفال ، فلم يريدوا القتال الا لينالوا مثل ما نال الذين سبقوا بالجهاد حقا وصدقا •

تمام المعركة

٤٢٩ — قلنا ان غزوة أحد لم تكن فيها هزيمة على المؤمنين ، وانما الذين أنهوها هم المشركين ولم تكن قد انتهت من قبل المؤمنين •

نعم انه كانت جراحات من المؤمنين ، ولكن لم تتخذهم ، وكانت جراحات فى المشركين دون جراحات فى المؤمنين ، ولم يكن عمل المشركين الا ان جاءوا فأخذوا ببعض ثاراتهم ، ولم يأخذوا بها كاملة ، فهل نالوا من على نيلا ؟ وهل

نالوا من الزبير؟ وهل نالوا من أبي دجانة؟ وهل نالوا من طلحة بن عبيد الله،
فان كانوا قد نالوا من حمزة، فان الذين وتروهم كانوا لهم بالمرصاد *

واذا كان المشركون قد أنهوا الحرب، بما يشبه الفرار عندما استرد المسلمون جأشهم، واستقاموا لجهادهم، وأخذوا يكيلون لهم، وخافوا على أنفسهم من عودة الوثبة، وأن يحسوهم باذن الله تعالى كما ابتدعوا، لم ينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب، ولذا تبعهم بالجند المؤمنين، ولا يجدد الجيش، بل يذهب اليهم بمن كانوا معه، واذا كان قد فقد من جيشه نحو السبعين، فانه بقى له فوق ستمائة، واذا كانوا قد أصابتهم جراحهم، ولكنها لم تثقلهم، وهم بقية السيف وبقيّة السيف كما قال بطل الجهاد على ابن أبي طالب، بقى عددا *

خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

٣٣ — بعد أن عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة من المعركة التي كانت يوم السبت ١٥ من شوال سنة ثلاث، وكان يوم الأحد فى الغداة يدعو جنده للذهاب الى تتبع المشركين، ورأى صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يخرج معه الا من كان من رجاله فى أحد، وقد عرض عليه عبد الله بن أبى ومن رجعوا أن يخرجوا معه، فرفض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا، وقد فرح المؤمنون بخروجهم، وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يخرجن معى الا من شهد القتال » فاستجاب الذين أخلصوا دينهم لله فرحتى على ما أصابهم من جروح وبلاء، وقد روى أن الله سبحانه وتعالى قال فيهم : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » *

هذا جانب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليتم المعركة، يطلب العدو الذى أنهى هو الحرب، ورحاها دائرة، ولم يتركها رحمة، بل لمجرد الرضا بما وصلوا اليه من ثارات غير كاملة، فالأبطال الذين جندلوا مشايخهم بدر كآبى دجانة وعلى والزبير ما زالت سيوفهم مشهورة عليهم *

والمشركون من بعد أن أنهوا القتال شبه فارين من نهايته، فانه روى أنهم أخذوا يتلومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم، ولم تبتروهم بل منهم رموس يجمعون لكم *

ذلك قولهم بأفواهم، والحق أن رجالات محمد عليه الصلاة والسلام مازالت فيهم البقية المرعبة، وما زال الايمان بنصر الله يملأ قلوبهم *

ولقد هم المشركون أن يرجعوا لولا أنهم علموا الوثبة الإسلامية بقيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ابتدأت العودة اليهم عندما علا النبي عليه الصلاة والسلام بجيشه فوق الهزيمة ، وأخذ يذيقهم وبال أمرهم ، فانتهوا لما علموا ذلك ورجعوا عن عزمهم ورضوا بما نالوا •

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حمراء الأسد ، وهى تبعد عن المدينة المنورة بنحو ثمانية أميال ، وأقام على المدينة المنورة ابن أم مكتوم ، وقد لقيه بعض بنى خزاعة ، وكانوا يميلون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمهم وكافرهم فقال قائلهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ يا محمد انا والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولو درنا أن الله تعالى عافاك فيهم ، وقائل هذا القول هو معبد بن أبى معبد الخزاعى •

ذهب من ذلك معبد الى الروحاء وفيها أبو سفيان بن حرب ، وقيل أنهم كانوا أجمعوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن من غير اقدام ، بل على خوف ووجل ، ولذلك جبنوا لما علموا بخروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للقائهم •

سأل أبو سفيان معبدا قائلا ما وراءك يا معبد •

قال معبد : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شئ لم أر مثله قط •

قال أبو سفيان : ويلك ما تقول ؟ والله ما أراك ترتحل ، حتى ترى نواصى الخيل ، والله لقد اجتمعنا للكرة عليهم ، حتى تستأصل شافتهم •

قال سعيد ، فانى أنهاك عن ذلك •

نهته من عزمهم ، وقل من شوكتهم كلام معبد ، وقد كانوا على رجل من اللقاء ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم من اللحق بهم ، فكلفوا بعض عبد القيس بأن يفزعوا النبي كما فزعوهم فركب عبد القيس بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : وهو بحراء الأسد ، فأخبره بأن أبا سفيان قد أجمع على السير اليه ليستأصل بقيتهم •

فلم يفزع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما فزع هو بل قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قال البخارى : انه نزل فى هذا قول الله سبحانه وتعالى :

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » واخيرا ارتد المشركون على اعقابهم خاسئين ، ورضوا بما لقوا .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتبعهم ، فهل كان المسلمون بعد ذلك فى واقعة أحد مهزومين ؟ لقد أصابهم قرح والجروح تصيب المقاتلين ولا تعد فى قانون الحرب هزيمة ، انما الهزيمة أن يولوا الأدبار ويفروا فرارا .

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم القائد

٤٣١ — ان القائد الذى يسير وراء الجيش ، ويقدم روحه بين يديه ، ويقدم معه على مواقع الردى غير هياب ولا وجل ، هو القائد الرحيم الذى يحمى الخبر من ورائه بأن يحنو عليهم كما يحنو الأب على أبنائه ، فاذا قدمهم للاستشهاد فلمقصداً أسمى ، يقدم نفسه فيه أمامهم .

وليس القائد المظفر هو الذى يقدم جيشه الى الميدان ، كما يقدم ادوات الحرب ، ومعدات القتال ، من غير قلب يرحم ، وينسى أن الجيوش قلوب تقدم ، وأرواح تتقدم فداء للمعنى الانسانى العالى الذى تقاتل من أجله ، وتخوض له مشتجر السيوف ، وتلقى بالحتوف نصرا له ، وتأيدا للكلمة الحق ، ان هذا النوع من القواد الجامدين الذين يحسبون الحرب تخطيطا وليست رحمة ، أو تلاسها رحمة لا ينتصر ، وان انتصر مرة ، لا يعاوده النصر مرة أخرى ، لأنه لا يجد جندا ينصرونه ، ولقد رأينا ممن يحسبون انفسهم قواد الحرب من يرى صرعى جيشه فى الصحراء ، ولحومهم تنهشها ذئابها ، ويقول غير حزين : هكذا الحرب ، ولذلك توالى هزائمه .

ولقد كان بونابرت قائدا مظفرا حتى عاد الى فرنسا ، وترك جنده فى روسيا يأكلهم الثلج ، وقد أذاقهم لباس الجوع ، فكان ذلك مفتاح هزيمته ، وما انتصر من بعد ذلك انتصارا حاسما .

وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كان المثل السامى لرحمة القائد بجنده ، كأنهم قطع من نفسه ، ولقد زكى الله سبحانه وتعالى هذه الرحمة المحمدية النبوية ، فقال الله سبحانه وتعالى : « فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزم فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

وقد بدت رحمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجنده فى أحد ، وعقب الجروح التى أصابت الجيش الاسلامى ، فمواجه لوما لأحد ، وما جال بخاطره أن يحاكم المقاتلين لأخطاء وقعت ، بل كل همه فى الميدان أن يسترد الموقف لأصحابه ، وأن يقفوا ، ولا يخروا صرعى أمام أعدائهم ، بل ارتقى بهم الى الهضبة وأعطى الراية من يحملها بحقها ، وناضل ، وقاوم ، حتى أئس المشركين من أن يستأصلوا المؤمنين ، بل خافوا منهم ، وأنهوا القتال وان لم يكونوا مدحورين ، خشية أن يندحسروا ، اذ رأوا جند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتد بأسهم فى القتال مع هذه الجراح التى جرحوها .

وعفا عنهم ، ليستبقى نخوتهم ، وبأسهم لما يأتى ، وان لم يكن ما وقع لا يسر ، بل كان يضر ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بالعفو ، بل استغفر لهم بأمر ربه .

ولعل شورا هم هى التى جعلتهم يواجهون المشركين ، وقد كانوا بمنجاة من ذلك ، لو أخذوا برأى الرسول ، ولكن الشورى لم تكن سبب الجراح ، انما عصيان القائد . والخروج عما رسم من نظام كان هو السبب المباشر ، ولذلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يستمر فى الشورى فخطأ الشورى دائما الى صواب ، لأنه يقوى ارادة الأمة ، وصواب الاستبداد دائما الى خطأ ، لأنه يضعف ارادة الأمة ، وضعف الارادة يضعف العزيمة ويفسد النفس ، وذلك فى ذاته خطأ .

ولقد أخذت الرحمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشهداء من الصحابة ، فأمر بأن يدفنوا بدل أن يرسلوا الى أهليهم ، ومن أخذه اهله رده الى الوطن الذى استشهد فيه ، وذلك لكيلا تتبعثر أبدانهم الطاهرة ، ولكيلا تثير رؤية نبيهم ألما وحزنا ، ولكيلا يتصايح اهلهم بالندب والنواح ، فكانت رحمة الله تعالى بهم أن يدفنوا حيث هم ، ليعرف الناس فضلهم ، ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد يزور مصارعهم ، وسلك ذلك أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، رضى الله تعالى عنهم جميعا ، وعلى كان يكرم ذرية اهل بدر وأهل أحد ، فيزيد فى الصلاة عليهم تكبيرات فى صلاة جنازتهم .

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدفن الشهداء ، ويجمع فى القبر أكثر من واحد ، ويختار من كانوا ذوى صحبة بينهم ، فيدفنهم فى قبر واحد ، وكان يقدم فى الدفن الأقرأ فالأقرأ ، وكلهم شهداء ذوى فضل عظيم ومقام كريم فى الاسلام .

وقد كان عليه الصلاة والسلام لا يمنع أن يبكي أهل الشهيد من بكاء عليه حزنا ، وإن كان قد فاز بالشهادة ، وكان يقول عليه الصلاة والسلام :
« البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان » .

وكان يبكي بكاء شديدا على عمه حمزه أسد الله تعالى ، حتى إنه رأى نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم حزينا باكيا ،
وحمزة « لا بواكي لحمزة » .

ومن رحمته عليه الصلاة والسلام بأهل الميت أنه منع السيدة العظيمة عمته صفية من أن ترى أخاها حمزة مقتولا ، وقد عيبت العائبات من نساء المشركين بجثمانه الطاهر ، ومثلوا به .

قال ابن اسحاق : قد أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتتظر إليه (حمزة) وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للزبير أحققها فارجعها ، لا ترى ما بأخيها ، فقال لها الزبير ، أرجعي يا أمه ، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر أن ترجعي . قالت ، ولم وقد بلغني أنه قد مثل بأخي ، وذلك من الله فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فلما جاء الزبير إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبره بذلك قال خل سبيلها ، فأتته فنظرت إليه واسترجعت واستغفرت .

ولقد دفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمه سيد الشهداء حمزة مع ابن أخته عبد الله بن جحش ، وقد مثل به ، كما مثل بخاله حمزة .

وهكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام القائد الرحيم يعيش بعد الجراح مع الأسر المجروحة يواسيها ، ولكن مواساة النبوة ، والحقيقة ، أن قتلهم شهداء ، وأنهم أحياء يرزقون ، كما قال الله سبحانه وتعالى :
« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »
وأنهم قد نالوا خير الحسنين ، وأنهم يتمنون لو يعيدون ليقتلوا في سبيل الله شهداء كما قتلوا ، ولكن كتب الله أن الذين يموتون لا يرجعون ، ولكن يبعثون في يوم الميقات المعلوم .

العدد والحساب

٤٣٢ — وقف أبو سفيان بن حرب الذي كان قائد الشرك مفاخرًا قائلًا « يوم بيوم بدر ، والحرب سجال » زاعما أنهما يومان متقابلان تساويا في الخسارة ، فخسارة المسلمين يوم أحد كخسارة المشركين يوم بدر ، فهل هما متساويان .

العدد والحساب فيهما الحكم والاجابة ، لقد كان القتلى من المشركين في بدر سبعين ، والأسرى مثلهم وفروا يومها منهزمين مدحورين ، والسيوف الاسلامية تعمل في آقفيتهم ، فهل كانت هذه حال المسلمين : كان القتلى من المسلمين في أحد سبعين ، أربعة من المهاجرين ، وأكثر من خمسة وستين من الأنصار ، ولم يكن من المسلمين أسير قط ، وكان القتلى من المشركين في غزوة أحد اثنين وعشرين ، وأسير هو أبو عزة الجمحي الذي أسر يوم بدر ، وخان العهد الذي أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يظهر عليه ، فظاهر على المسلمين وجاء مقاتلا ، فأسر ، وطلب أن يمن عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لفقره ، ولبنائه ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يجازى الاحسان بالاحسان ، والاساءة بعقابها . قال له لا أدعك تمسح عارضيك ، وتقول خدعت محمدا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . وأمر به فقتل .

ولم يكن من المؤمنين أسير ، ولم يفروا ولم ينهزموا مدحورين ، ولم تعمل السيوف في آقفيتهم إذ لم يولوا مدبرين ، وإذا كان قد أحيط بهم في الدورة الثانية من أدوار القتال ، فقد شقوا طريقهم وارتفعوا عليهم ، واختاروا لأنفسهم المكان الملائم ، وأخذوا يسلبون نتائج المعركة من أيديهم حتى حسبوها ستفلت من أيديهم ، بهذا القتال ، وتتبعهم المسلمون في اليوم التالي ، وإن كانوا مجروحين لم ينهزموا لأنهم يقاتلون في سبيل الله ، فهم ليسوا مع المؤمنين على سواء ، ونتيجة الحساب بالمعادلة تنتج أن عند المسلمين زيادة في الغلب .

وإن الجروح التي أصابت جيش الاسلام لا تعد هزيمة . وكما قال صديقنا القائد العظيم اللواء ركن محمود شيت خطاب ، إن فقد عشرة في المائة من الجيش مع بقائهم ثابتين ، ومع أنهم شقوا الطريق الى النصر ، لا يعد هزيمة بحال من الأحوال .

إنما هو جرح ، كما قال الله سبحانه وتعالى « أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، فما كانت المداولة

بين الناس هنا فى الانتصار والانهزام ، بل كان فى القرع الذى مسهم مثله ، فكانت الهزيمة لهم ابتداء ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بالمسلمين هزيمة مثلاً •
بل فروا فى النتيجة فرارا •

العبرة فيما أصاب المسلمين :

٤٣٣ — ولكن مع ذلك دروس ، ففى أحد عبر وأغلاط ، هى التى جعلت المسلمين يمسخهم قرع ، كما مس المشركين قرع أولا — وقرعهم أشد ، لأنه صحبته هزيمة •

وإن الجرح الذى أصاب المسلمين له أسباب :

أولها : أن جيش المسلمين كان فيه من يطلب الغنيمة ، لأنه حسب أن النصر مفروغ منه بالقياس على ما كان فى بدر وقد ظهرت نيات هؤلاء قبل المعركة ، إذ همت طائفتان أن تفشلا والله وليهما ، وظهرت فى أثناء المعركة ، فقال سبحانه وتعالى « منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة » والذين يريدون الدنيا سارعوا الى الغنائم ، وعصوا أمر الرسول •

وظهر الذين يريدون الدنيا بعد المعركة ، فقد أهمتهم أنفسهم ، وندموا على الخروج لأنهم لم يصيبوا مالا وأصابتهم جراح ، ولم يعرفوا أن شأن القتال اتباع مناهجه ، فإن خرجوا عنها وخالفوا أمر القائد ، ينلهم الثبور ، وإنهم أن أطاعوا ، وسلخوا المنهج المستقيم نصرهم الله تعالى بتوفيقه •

ولقد كان هؤلاء يثيرون التردد فى الجهاد فى قلوب أهل الايمان ، وقال الله سبحانه وتعالى فيهم : « أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ، قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان ، فبأن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا فقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » •

وثانيها : أن بعض الجيش الاسلامى بتأثير الذين يريدون الدنيا قد شغلوا بالغنائم ، ولم يطاردوا المشركين بعد أن اضطربت صفوفهم بضربات المؤمنين الصادقين أولى اللباس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يتبعوا المشركين حتى يتخذوهم ، ويعجزوهم عن أن يحيطوا بهم ، ويضربوا فيهم •

ونالها : عصيان القائد ، وذلك من الذين يريدون الدنيا ، وقد عارضهم الذين يريدون الآخرة ، ولكن الأولين كشفوا ظهر المسلمين •

ولقد كانت نتيجة هذه الجراح عبرة ولم تكن هزيمة ، وهى أن الله تعالى محص الذين آمنوا بالله وطلبوا الآخرة من الذين يريدون الدنيا ، ولا يفكرون فيما عند الله تعالى فى الآخرة •

فانه فى الوقت الذى كان يجرى هؤلاء وراء الغنائم التى كانت وبالا - كان المخلصون الذين يريدون الآخرة قد أحاطوا بالرسول يتلقون عنه ضربات السيف وينضحون النبل ، ويرمون ، ويأتمرون بأمر القائد الأعظم بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام وقد باعوا أنفسهم لله تعالى يقاتلون ، فيقتلون ويقتلون حتى شقوا الطريق ، وعلوا الى الهضبة ، وأخذوا يكيلون الضربات ، حتى أئسوه من نصر ، وأن يلحقوا بالمسلمين هزيمة ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى وقد تبين المجاهدون الذين أشرنا اليهم ، والذين استردوا الموقف ، بعد أن خرج بعمل الذين يريدون الحياة الدنيا « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » •

وقد تبين المجاهدون الصابرون ، وكان منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، وان غزوة أحد مهما تكن نتيجتها قرر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنها جرح أصيب به المسلمون من الشرك ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يصيب المشركون منا مثلها ، حتى يفتح الله علينا » •

دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد :

﴿ ٣٤ ﴾ — رأينا أن نتبين بذكر دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أعقاب المعركة فى شدتها على أهل الايمان ، روى الامام احمد رضى الله تعالى عنه فى سنده ، بالسند المتصل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « استروا حتى أثنى على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت ، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم انى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم انى أسألك النعيم يوم العيلة ، والامن يوم الخوف ، اللهم انى

عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، وشر ما منعتنا ، اللهم حبيب الينا الايمان ، وزينه
فى قلوبنا ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ،
اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ،
ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ،
واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، انه
الحق » •

هذا الدعاء الذى رواه الامام أحمد ، وقد رواه النسائى أيضا فى
سننه •

وهكذا دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه الذين
يريدون الحق متجهين الى الله تعالى لا يرضون الا رضاه فى جهادهم ،
واستشادهم ورغبتهم فيما عنده ، وخرج بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، واتجاههم الى الله تعالى ، واستقوا وراءه صفوفًا حامدين شاكرين ،
غير ناكسين ، زادتهم المحنة ايمانًا وتسليما ، واذعانًا وتقويضًا ، فما
ارتابوا ، بل ازدادوا ايمانًا ويقينًا ، رغبة فى حمية دينية ، وقوة ربانية ،
وما ضعفوا ولا استكانوا •

وبذلك كان التمهيد بهذه الشدة ، فنفت الأخبث ، وبقي الجوهر ،
وصقل •

وبينما المؤمنون يدعون مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الدعاء كان
الذين أهتمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، « يقولون هل لنا
من الأمر من شيء ••• يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا » •

ويقول لهم المنافقون الذين رأوا ضعفهم ، وضعف نفوسهم ، « لو اطلعونا
ما قتلوا ، قل فادعوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين » •

أعقاب أحد

٤٣٥ — بينا أن الجيش الاسلامى لم يهزم فى أحد ، ولم ندع أنه
انتصر ، لأنهم خرجوا من القتال ، ولم يمكننا المسلمين من أن يضربوهم
الضربة القاصمة ، بل أنهم خرجوا راضين بالجراح فى شبه اختلاس لا لقاء
ولما ركبوا ابلهم تأكد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم عائدون ، فعاد
الى المدينة المنورة ، حتى يداوى الجيش جروحه ، ثم خرج اليهم فى حمراء
الأسد ، عساه يدركهم لينال جيش الايمان منهم •

ولكن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصره الله تعالى فى أحد ، فقد أثر عنه أنه قال : ما نصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى موطن نصره فى يوم أحد ، فأنكر عليه ذلك ، فقال بينى وبينكم كتاب الله تعالى ، ان الله سبحانه وتعالى يقول : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسبونهم باذنه » والحس القتل ، ولقد كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة .

واذا قتل أصحاب اللواء كان دليلا على عظم كفة المسلمين . فان الكفة راجحة ، وكفتهم غير راجحة ، فقد قتل كل حملة لوائهم ، حتى رفعتهم امرأة .

أما المؤمنون ، فكان لوائهم مع مصعب بن عمير ، وأخذ يقاتل مناقبا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتل ، واستطاع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشق الى الهضبة ويحمل اللواء على بن أبى طالب ، فأنحسروا دون لواء المسلمين ، ولم ينالوا خيرا .

ومع أن المسلمين لم يهزموا ، وجيش الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسقط لوائه ، قد تشايح بين اليهود والمنافقين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هزم جيشه ، وسموا الجراح التى أصابت المسلمين هزيمة وانتهزوها فرصة لآظهار الشماتة والتهكم ، حتى قال قائلهم لو كان نبيا ما هزم ، وأخذوا يعيرون اخوانهم أو من ليسوا لهم اخوانا ، بأنهم لو كانوا معهم ما قتلوا وما أصيبوا ؟

ولقد بلغ بهم التهكم أن كبير المنافقين عبد الله بن أبى صراح بالتهكم ، ووقف كعادته يظهر أنه يؤيد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى قوله يسخر ، كما كان يسخر من قبل .

قال ابن اسحاق فى سيرته « كان عبد الله بن أبى له مقام يقومه كل جمعة ، لا ينكر له شرف فى نفسه وفى قومه ، وكان فيهم شريفا ، اذا جلس رسول الله يوم الجمعة وهو يخطب قام فقال : « أيها الناس هذا رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى به ، وأعزكم به ، فأنصروه وعزروه واسمعوا له ، وأطيعوا » ثم يجلس .

وما كان ذلك منه الا نفاقا ، ان كان يستر كفره بهذه الكلمات ، ويثبت الكفر والنفاق والهرد فى نفوس المؤمنين .

وقد رآه المؤمنون يبيت روح التردد والهزيمة فى جيش الايمان ، ثم ينسحب ليبت فى العصد ، ويبيت روح التردد ، حتى همت طائفتان أن تفشلا •

ولكنه كان دائماً على اظهار مالا يخفيه ، فقد وقف كذلك ، والجيش الاسلامى قد عاد جريحا ، ولم يكن مهزوما ، وقد وقف كما كان يقف كل جمعة ، فأدرك المؤمنون تهكمه ، وأخذوه بثيابه ، وقالوا اجلس أى عدو الله والله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت •

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : « والله لكأنما قلت يجرا أن قمت أشدد أمره • فوثب الى رجال يجذبوننى » •

قال له رجال من الأنصار ارجع يستغفر لك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : والله ما أبغى أن يستغفر لى ، انه يقول يريد السماتة ، وكما قال سبحانه وتعالى فيه وفى أصحابه ، ومرضى القلوب : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريانكم فلعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ولتبلونكم ، حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وتبلو أخباركم » •

أصاب المنافقين فرحة شديدة ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وكما قال سبحانه وتعالى : « ان تمسسكم حسنة فسوؤهم ، وان تصيبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما يعملون محيط » •

هذا ما كان من أهل النفاق •

اليهود :

٤٣٦ — كانت فرحة اليهود شديدة ، وأوجدت فيهم طمعا ، انهم مоторون من المسلمين بما كان لبنى قينقاع جزاء ما اقترفوا ، وكانوا يتوقعون أن ينزل بهم ما نزل بهم ، فلما كانت أحد طمعوا بدل أن يستمر خوفهم ، وظنوها فرصة سنحت ، وكانوا يترقبون بالمؤمنين الدوائر •

ولا شك أن فرحتهم كانت عظيمة ، وخصوصا أنه كان منهم من قاتل مع المشركين ، وهو أبو عمار الراهب ، وحسب أن مجيئه يخذل أهل يثرب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ولقد بدت البغضاء من أقوالهم ، وأفعالهم ، حتى ليهمون أن يقتلوا
النبي صلى الله عليه وسلم غيلة بأن يرموا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم
حجرا من سطح بعض بيوتهم ، ومعه أصحابه أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، رضى
الله تعالى عنهم جميعا ، ولكن الله تعالى نجاه منهم •

وقد كان المسلمون يظنون بهم الظنون لفرط ما كان من عداوتهم سرا
وجهرا ، وظاهرا وباطنا •

ويجب أن نقول هنا ما قاله الله سبحانه وتعالى فيهم « ليسوا سواء ،
من أهل الكتاب أمة قائمة يثلون آيات الله أثناء الليل وهم يسجدون » •

وان أولئك هم الذين أسلموا من اليهود عند حضور النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة كعبد الله بن سلام ، وفريقه الذين آمنوا
بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فله جزاء - الحسنيان •

ومعهم عدد قليل أسلموا مخلصين فى شدة أحد ، ويذكر التاريخ منهم
مخيرق ، قال فيه ابن اسحاق كان ممن قتل يوم أحد ، مخيرق ، وكان أحد
بنى ثعلبة ، فلما كان يوم أحد قال : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن قصد
محمد عليكم لحق ، قالوا ان اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم • فأخذ
سيفه وعدته ، وقال ان أصبت فمالى الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم
يصنع به ما شاء ثم غدا فقاتل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،
حتى قتل ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مخيرق خير يهود •

وقد روى السهيلي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل
أموال مخيرق وكانت سبع حوائط أى حدائق - أوقافا فى المدينة المنورة •

ويظهر أنها كانت أول أوقاف سنها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،
وهى حجة للذين أجازوا الأحباس ولم يمنعوها ، فهى عمل نبوى ثابت الى
يوم القيامة •

ولقد دخل بعض أهل يثرب ممن لم يكونوا دخلوا فى الاسلام حرب
أحد ، فأسلموا وقتها ، ومن هؤلاء أصرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت
ابن وقش •

أخذته الحمية عندما جاءت قريش ، ومعها الأحابيش وغيرهم يغيرون
على المدينة المنورة فى أحد ، فخرج مع المحاربين وقد دخل الايمان قلبه ،

وكان من قبل يأبى الاسلام على نفسه ويستنكره من قومه ، فلما كان يوم أحد حمل سيفه ، ودخل فى عرض الناس ، فقاتل ، حتى أثبتته الجراح ، وبينما رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة اذا هم به ، فقالوا ان هذا للأصيرم ، وما جاء به ولقد تركناه وأنه المنكر ، فسأله فقالوا ما جاء بك يا عمرو أهدب على قومك أم رغبة فى الاسلام ، فقال رغبة فى الاسلام ، آمننت بالله ورسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفي ، وغزوت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقاتلت حتى أصابني ما أصابني ، فلم يلبث أن مات .

وقد أسلم وهو داخل المعركة ، وآمن بالله ورسوله ، ولم يكن وقت بين اسلامه وتقدمه ومقتله للصلاة ، وقد شهد له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة .

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط فسأله من هو ؟ فقال أصيرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت .

هذه أمور أحاطت أحدا ، وأعقبتها فى داخل المدينة المنورة ، وما حولها أما أثرها فى بلاد العرب ، والقبائل المصاقية فى المدينة المنورة ، وما تحمله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون فى أعقابها ، فنتركه الى الكلام فى سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وغزواته من بعدها .

الأحكام المستفادة

مما أتبعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد

٤٣٧ - كانت غزوة بدر الكبرى ايذاناً بشرعية القتال دفاعاً عن النفس . ودفعاً للاعتداء . وحماية للدعوة ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « ائذن للمؤمنين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » وفى قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » ، وفى قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله » ، وقوله تعالى : « كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » .

وهكذا نزلت آيات كثيرة فى اباحة القتال ، بل وجوبه دفاعاً للفساد ،

كما قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » *

كان هذا لمناسبة أول قتال ، أما في أحد ، فقد شرعت أحكام تفصيلية في الجهاد من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من تكوينه لجيشه ، ومن استقباله لعدوه :

(أ) ومن هذه الأحكام التي ثبتت في هذه الغزوة أنه لا يخرج إلى الجهاد من لم يبلغ الخامسة عشرة إلا إذا كان قوى الجسم ، كقوة الشبان البالغين ، أو كانت له مهارة فنية في الحروب ، كالرمي بالنبل ، فقد أجاز اثنين ممن دون الخامسة عشرة بقليل لمهارة أحدهما في الرمي ، ولقوة الثاني في المصارعة *

وقد أجاز صلى الله تعالى عليه وسلم خروج النساء في الغزو ، يسقين الغزاة ، ويداوين الجرحى ، والقتال ان تعين القتال عليهن ، كتلك التي كانت تناضل مع المناضلين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أحاط به المشركون يحاولون قتله ، فردهم الله تعالى بغيظهم لم ينالوا منه عليه الصلاة والسلام شيئا *

ولذلك أجاز الفقهاء خروج المرأة مع الجيش مداوية ومقاتلة ، وقال بعضهم لا يحل لها ركوب الخيل إلا أن تكون محاربة *

(ب) ومنها أنه إذا أخذت الأهبة للجهاد لا يجوز أن يترددوا ، فان التردد يلقي بالخذلان في النفوس ، والاختلاف والتدابير ، ولذلك لما لبس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامة الحرب ، وغير المجاهدون رأيهم ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان لنبي لبس لامة الحرب أن يخلعها ، وكذلك الأمر في كل أمر ينتهي بالشورى لا يصح أن يكون موضع تردد حسما للأمور وقضا للنزاع *

(ج) ومنها أنه يجوز للمجاهدين مجتمعين أن يأخذوا طريقهم ، ولو في أرض مملوكة ملكا خاصا ، كما اجتاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه بعض الصدائق ، ولم يلتفت إلى اعتراض المعترضين ، لأن الملك الخاص له حق الصيانة ، إلا إذا ترتب على الحقوق الخاصة ضرر عام ، فإذا لم يكن للجيش طريق إلا الملك الخاص ، لم يمنع من سلوكه مهما يكن اعتراض صاحبه ، ولذلك لم يلتفت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى اعتراض الأعمى صاحب الحديقة ، وقال انه أعمى البصر والبصيرة *

(د) ومنها جواز أن يتمنى المجاهد في سبيل الله الشهادة من غير موانة ولا استسلام بل في حزم وعزة وقوة ويتمنى الموت منهى عنه في غير هذا المقام كما قال عبد الله بن جحش عندما تقدم للجهاد « اللهم لقني من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديدا حرده ، فاقا ناله ، فيقتلني ويسلبني ثم يجده أنفي وأذني فإذا لقيتك فقلت يا عبد الله بن جحش ، فيم جدعت !! قلت فيك يارب » .

ويظهر أن ذلك الدعاء بعد أن رأى المشركين يمثلون بالقتلى .

(هـ) ومنها أن المسلم إذا قتل نفسه أثم ، ودخل النار ، ولو كان ذلك من جراح شديدة ، وذلك أن مسلما اسمه قزمان أبلى يوم أحد بلاء شديدا حتى أثنى بالجراح ، فلما اشتدت به نحر نفسه ، قائمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه يئس من روح الله تعالى وبأته : « لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

(و) ومنها أن السنة في الشهداء ألا يغسلوا ولا يكفون في غير ثيابهم التي كانوا يجاهدون بها ، بل يدفن فيه بدمه وكلومه إلا أن يسلبها فيكفن في غيرها .

(ز) ومنها أن السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم ، ولا ينقلوا إلى مكان آخر ، وذلك لتكون زيارة قبرهم فيها عبرتان : عبرة الاستشهاد والجهاد ، وعبرة رؤية المكان الذي صاروا فيه وجاهدوا حتى نالوا أعلى الحسنين .

وقد حصل في أحد أن بعض الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فنادى منادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برد القتلى إلى مصارعهم ، قال جابر بن عبد الله بينما أنا في النظارة ، إذ جاءت عمتي بأبي وخالي ، كما دلتهما على ناضح فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا ، وجاء رجل ينادي : ألا إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا القتلى فتدفنوهم في مصارعهم حيث قُتل ، فرجعنا بهما ، حيث دفنهما في القتلى حيث قُتلا .

وبعمل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم صارت السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم .

(ح) ومنها جواز أن يدفن الرجلان والثلاثة في قبر واحد فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر ،

ويقول أيهم أكثر أخذاً في القرآن ؟ فإذا أشاروا الى رجل قدمه في المجدد وإذا كان رجلان بينهما محبة في الدنيا دفنهما معا في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فدفن عبد الله بن عمرو بن حزم ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة •

(ط) ولقد حدث عندما كان الاضطراب في جيش المؤمنين بسبب المفجأة أن قتل بعض المؤمنين مؤمنا يحسبه كافرا ، فإنه لا يذهب دم المقتول هدرًا ، بل تكون دية في بيت المال ، كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فودى الذين قتلوا خطأ من المؤمنين ، لأنه بقيادته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ولي أمر المؤمنين •

(ي) ومنها أن نوى الأعداء يرفع واجب الجهاد ، ولكنهم ان خرجوا مجاهدين كان لهم ثواب الجهاد ، وان قتلوا كانوا شهداء ، فرخصة التخلف لعذرهم رخصة ترفيه ، لا تسقط الواجب ، ولكن تسوغ التخلف ، كمن يصوم وهو صاحب رخصة كمرض أو سفر ، فان الصوم يجزى عنه اذا صام ، وان أفطر فعدة من أيام أخر •

وقد خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج ، وليس على الأعرج حرج ، فلم يمنعه النبي من أن يجاهد ، فجاهد حتى استشهد ، وتولى دفنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع شهيد كان له معه صحبة ومحبة •

(ك) ومنها أن العدو اذا طرق الديار لا يجب على المؤمنين أن يخرجوا لقتاله ، ولا يجب عليهم أن ينتظروا حتى يدخل عليهم الديار ، بل ينظرون الى ما يكون المصلحة والمكيدة في الحرب ، فان كان الأول اشد نكاية اتبع وان كان الآخر التزم كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

(ل) ومنها وجوب الشورى ، كما استشار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جند المؤمنين ، ليدخل الجند مطمئنين ، آمنين راضين ، غير مرهقين في نفوسهم ، ولا في تفكيرهم ، فيكون ذلك أرجى للنصر •

(م) ومنها الا يصلى على الشهيد ، فإنه ثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصل على شهداء أحد ، ولم يصل على شهيد مات في المعركة في أى غزوة من الغزوات ، لأن شهادته تغنيه عن دعاء الأحياء ، وصلاة الجنازة دعاء وتضرع واستغفار •

(ن) وقد قال ابن القيم انه يجوز للمجروح أن يصلى قاعدا ، ولو كان اماما • ويقول في ذلك ان الامام اذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدا ، وصلوا

وراءه قعودا ، كما فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الغزوة واستمرت على ذلك سنته الى حين وفاته •

ولكن هل يجوز أن يصلى المأموم واقفا وراء الامام الذى يصلى قاعدا !
ان ذلك موضع خلاف بين الفقهاء ، ليس هذا موضعه •

هذه الأمور التى ذكرناها كلها كانت من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الغزوة ، وما يعمل به يكون بيانا لحكم شرعى يتبع ، ولا شك أن بعض هذه الأحكام تدخل تحت أنواع ثلاثة من الأحكام التكليفية ، فمنها ما يدخل تحت حكم الجواز ، والمصلحة ترجحه أو توجبه ، كما رأينا فى خروج النساء فى الحرب والجهاد ، فانه جائز أو مباح ، وقد يكون مستحبا اذا كان فى الرجال كفاية وفى النساء عون • وقد يكون واجبا اذا كان الجرحى يحتاجون الى عدد كبير من المداوين •

وكما رأينا فى الذى خرج وعنده عذر فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أجازاه ، فانه يكتفى بالجواز ، ابتداء ، ولكن ان كان ذا بأس وشدة مع عذره ، فان الأولى الخروج مع رخصة القعود •

وهو فى الحاليين شهيد ان استشهاد ، له جزاء الشهداء ، ومجاهد ان نجا ، له جزاء المجاهدين •• والله أعلم •

صدى أحد

وسرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٤٣٨ — تسابرت الركبان بموقعة أحد ، وقريش تدعى انها هزمت محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتنشد بذلك شعرا والشعر فى البلاد العربية كان أداة النشر ، وطريق الاعلام ، فان حدثا يذكر فى قصيدة جدير بأن تعلم به القبائل العربية فى قاصصها ودانيها ، ولما كانت النفوس مستشرقة لأن تعرف ما بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش أخرجه من مكة ، أو خرج بأمر ربه ، وصارت بينه وبينهم مغالبة شديدة هم يغالبون بجاهليتهم وغطرستهم ، وهو يجاهد بالحق يدفع به الباطل •

وقد رأوا الحق يدفع الباطل يوم الفرقان ، وذاع فى البقاع امر الهزيمة التى فروا فيها فرارا ، فذلت أنوفهم أو كادت ، وزلزلت هيبتهم ، وقد كانوا شرف العرب ومحتدهم •

فكان لابد أن يشيعوا أنهم أخذوا ثاراتهم • ونالوا ما ربهم ليستردوا هيبته ، ويستعيدوا شرفهم الذى مزق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رأيته •

إذا كانت بدر قد هزت مكانة قريش فى العرب ، وحركت عليهم من كانوا ينفسون عليهم مكانتهم ، فكان لابد أن يشيعوا ما زعموه هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد ، وأن يملئوا بها الأجواء ، وأن يريدوها فى كل مكان ، وقد صارت المعركة بين مكة والطائف وما حولهما ، ومدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

تحركوا لناواة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ، طمعت قبائل فى المسلمين بعد أن كبتهم الله ببدر ، وتحركت عوامل محرضة على أهل الايمان مجزئة عليهم ، ونشر الأخبار عما زعموه هزيمة يؤلب على المؤمنين ، ويثير الأضغان من عبدة الأوثان عليهم ، فكثر الغدر والخيانة من قبائل العرب ، وكثرت مداينة قريش •

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يصابرون ويجاهدون •

وبمقدار ما كانت قريش تزدهى كان يعترئها أمران :

أحدهما : أنهم لم يشكفوا من أعدائهم رجال الايمان ، فما زال من عملوا سيوفهم فى رقاب المشركين فى بدر من صناديد المؤمنين أحياء وسيوفهم مشهورة ينتظرون الأمر لتضرب ، فاذا كانوا قد نالوا من حمزة ، فأمامهم على بن أبى طالب والزيير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأمامهم وزير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وأمامهم نور الله ورسوله يسطع فتغشى أبصارهم •

ثانيهما : أنهم يتوجسون خيفة من جولة لأهل الايمان تجنا لهم ، وخصوصا أنهم يتريصون بهم حتى يؤمنوا ، فما داموا على شركهم ، واعتدائهم فسيوف الحق من ورائهم •

لذلك كانوا يتبعون أخبار المؤمنين ، ويعملون على تحريض القبائل على أهل المدينة ، ويعطون العطايا لمن يأتونهم برجل من أهل الايمان أو رجال ، ويشترون منهم من يتمكنون منهم من رجال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفرا ونفاقا يسايرونهم ، ويتمنون الامانى منهم ، وانك لقرامهم يعملون الغدر والخيانة لينالوا ما ربهم •

ولذلك نرى سرايا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينالونها بالغدر والخيانة عن طريق أولئك الأعراب ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحترس ويعلم خبايا الأمور ، ويتعرف الأخبار ، ويحاول أن يقعد لهم في كل مرصد .

ويرسل السرايا التي سماها صديقنا اللواء شيث خطاب دوريات ، تتعرف ما في البلاد والقبائل ، ومنها من يعود بالغنائم ، ومنها من يترصده الأعراب ليقدموه قربانا للمشركين ، ومنهم من يظهر الميل الى الاسلام فيبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يهديهم ، فإذا بهم يخونون ويغدرون ، فيقتلونهم قربا للمشركين أو يبيعونهم لهم ليأخذوا منهم تراثهم .

سرية لنبي أسد

٤٣٩ — جمع طليحة الأسدي وأخوه سلمة ابنا خويلد عددا كبيرا من بني أسد ليقصدوا حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن ينالوا عند زعماء مكة منالا ، وقد ظنوا أن المدينة أصبحت ترام منهم ، وممن على شاكلتهم بعد أن أشاعت قریش خبر هزيمة مزعومة .

فعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما تمالئوا عليه . وما أرادوا ، وما كان ليتركهم حتى ينفذوا مما يريدون ، وإن كان فوق طاقتهم .

فأرسل أبا سلمة في خمسين ومائة من المهاجرين والأنصار وأوصاه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا .

سار حتى وصل الى قطن وهو ماء لبني أسد .

ويظهر أنهم مع ما كانوا قد أزمعوه من حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوجئوا ، فأنهلتهم المفاجأة ، فتفرقوا مذعورين ، وتركوا نعما كثيرة لهم من الإبل والغنم .

غنم ذلك كله أبو سلمة ، وأسر منهم ثلاثة ممالك ، وقفل راجعا الى المدينة ومعهم هذه الغنائم ، وقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خمس الغنائم ، وكان فيها عبد ، وقد وزع خمسة وقسم أبو سلمة خمسة بين أصحابه كما شرع الله تعالى في الغنمية ، فقد قال تعالى : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ، أن كنتم أمتكم بالله واليوم الآخر » .

وان ايا سلمة رضى الله تعالى عنه قد أخرجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه السرية فى المحرم من السنة الرابعة أى بعد خمسة وثلاثين شهرا من الهجرة •

ولقد مكث فيها نحو بضع عشرة ليلة ومات بعدها ، لجرح أصابه فى احد ، ولقد قال ابنه عمرو « كان الذى جرح أبى أبو أسامة الجشمى ، فمكث شهرا يداويه فبرا ، فلما برا بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المحرم (يعنى من سنة أربع) فغاب بضع عشرة ليلة ، فلما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى » •

وهكذا أدى ذلك الشهيد واجبه مرتين احدهما فى أحد ، وقد جرح جرحا قاتلا ، وكرمه الله تعالى بأن أرسله فى سرية الى بنى أسد ، ثم تحرك الجرح فمات شهيدا ، ولكن بين أهله •

ولعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اختاره ليرسله الى بنى أسد ، لأنه منهم ، اذ هو أبو سلمة بن عبد الأسد أبى طلحة الأسدى • فيرسل عليه السلام الرجل المؤمن على رأس المقاتلين من المؤمنين ليقاتل المشركين من قومه • فتكون الفائدة من ناحيتين احدهما - تأديب المشرك لحمله على الايمان • والثانية - التأكيد فى محو العصبية الجاهلية ، وحياء الوحشة الاسلامية •

يوم الرجيع

• { ع } — الرجيع مكان على ثمانية أميال من عسفات ، وقد قال ابن كثير تابعا للواقدي غزوة الرجيع ، وما ارتضينا ذلك العنوان ، الا لأنه كان الأمر فيه أمر خيانة — وغدر من بعض المشركين بتحريض من قريش ، لينالوا بعض ما بقي من ثأرهم ، وأنه لا يزال كثيرا كما ذكرنا ، فأكثر الذين وتروهم من شجعان المسلمين لا يزالون يحملون السيف ، ليخوضوا بها في صفوف المشركين مرة أخرى أو مرات •

وقصة الرجيع كما روتها السيرة وصحاح السنة ، هي قصة غدر ، ولؤم بتحريض من المشركين •

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد رهط من عضل والقارة ، وهما بطنان من الهون بن خزيمة بن مدركة •

قالوا يا رسول الله ان فينا اسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفهمونا الدين ، ويقرئونا القرآن ، ويعلمونا شرائع الاسلام • فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نفرا من أصحابه • قال ابن اسحاق بسنده ان عدتهم ستة ، وقال البخاري بسنده في صحيحه ان عدتهم عشرة ، وقال ابن اسحاق ان الذي أمره الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على وفد الايمان والدعوة هو مرثد بن أبي مرثد الغنوي الذي كان أخا لحمزة ابن عبد المطلب سيد الشهداء في المؤاخاة التي أخى بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار •

وفى رواية البخاري ان الذي أمره عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو عاصم بن ثابت بن الأفلح ، وان رواية الحديث والأخبار يرجحون رواية البخاري •

ويؤيد رواية البخاري الواقدي •

انطلق ذلك الوفد المؤمن مغادرا المدينة متجها الى عضل والقارة دعاء هداية ، وليسوا محاربين ، وما كانوا يعلمون ان القوم ياتمرون في غدر وخيانة وكذب لم يعرف في اشراف العرب •

حتى اذا كان فى الرجيع بين عسفان ومكة المكرمة ، وهو بالهذيل غدروا بهم واندوا مستصرخين وفوجيء وقد الهداية الى الاسلام برجال بأيديهم السيوف قد غشوهم •

وأرادوا أن يأخذوهم بالغش والخديعة كما استنفروهم بها • فقالوا لهم انا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب شيئا من أهل مكة المكرمة • وريما كانوا صادقين ، وان ذلك من انخداع العرب بما زعمه المشركون من نصر نالوه ، ولقد قالوا فى خديعتهم : « لكم علينا عهد وميثاق الا نقتلكم » •

فترت بذلك عزيمة بعض المؤمنين بعد أن أخذوا سيوفهم ليقاتلوا ويموتوا مجاهدين ، ولا يموتوا مستسلمين •

قال عاصم بن ثابت ، ومرثد بن مرثد وخالد بن بكر يرمين العشرة الكرام أو الستة على اختلاف العدد ، لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا •

وقد كانوا على حق ، لأنهم ابتدءوا بالغدر والخيانة أو تسليط الغادرين الخائنين ، وعلى فرض أنهم صادقون فيما يعاهدون عليه من أنهم لا يقتلونهم فانهم سيسلمونهم لأهل مكة المكرمة ليصيروا منهم شيئا ، ولا شك أن أهل مكة المكرمة سينزلون بهم أذى ، القتل أقله •

ولذلك قاتل أولئك الثلاثة ، وقتلوا ، فاخترأوا أن يقتلوا مجاهدين من أن يقتلوا مستسلمين ، أما اخوانهم فلم يرتضوا ذلك الموقف الشجاع الذى كانت نهايته شهادة فى غير استسلام واستخذاء ، بل فى قوة وإيمان وجهاد •

استسلم الباقون طائنين أن لهم عهدا ، وقد نكر منهم ابن اسحاق ثلاثة وهم : زيد بن الدغنة ، خبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق •

ولنذكر بعض ما فعلوه بعاصم بن ثابت الذى أصاب من قريش فى ميدان القتال ، فقد أصاب فى أحد ابنى امرأة من قريش فنذرت أن تمكنت منه أن تحبل تبشر بالخير فى حفلة عاصم ، فلما قتل طلبت رأسه ، وقد قيل ، عندما أرادت ذلك ، نيه رجل أبا سفيان بن حرب كيف يصنع برأس ابن عمه فلم يستخف ولم يلم ، وماذا ينتظر من أبى سفيان زوج هند التى فعلت ما فعلت ، فلم ينكر ، ولكن الله تعالى حمى رأس المؤمن التقي من أن يمسه الأنجاس فحامت حولها الزنابير لتحميها •

ولنتجه من بعد الى الذين رضوا بمواثيق المشركين ، ولم يتنبهوا الى قول الله تعالى : « لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة » •

لقد أسروهم ، ثم خرجوا بهم الى مكة المكرمة ليسيروهم بها ، حتى اذا كانوا بالظهران ، وهو واد قرب مكة المكرمة ، استطاع أن يفك أحد الثلاثة عبد الله بن طارق يده من رباطها ، وأخذ سيفه ، فاستأجر عنه القوم ، وباعده حيناً من لقاء سيفه ، ولكن رموه بالحجارة حتى قتلوه ، فمات غير مستسلم ، وإن كان قد وثق بعهدهم الذي عاهدوا عليه •

وأما الآخران حبيب بن عدى ، وزيد بن الدغنة فقد باعوهما من قریش بأسييرين من هذيل كانا بمكة المكرمة •

فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عمار بن نوفل ، وكان خبيب هو الذى قتل أباهم الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيرا ، يسومونه الخسف والهوان ، ولكنه كان فى سعة نفس من إيمانه ، ومهما يرومونه من اهانة ، فنفس المؤمن لا تهون ، وكأنه وثق بعهدهم ليرى الله تعالى الناس المؤمن اذا خدع ، وصبره اذا أودى ليرتفع الى درجات المجاهدين بالصبر ، كما هو مجاهد فى ميدان القتال ، قدموه ليقتلوه صلبا ، فاستأجرهم حتى يصلى ركعتين فصلاهما ، ثم أقبل عليهم مستبشرا يقول للجلادين : أما والله لولا أن تظنوا أنى انما طولت جزعا من الموت ، لاستكثرت من الصلاة •

ولقد علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بصلاته عند القتل مستشهدا فأقره ، فكانت سنة نبوية باقراره عليه الصلاة والسلام •

رفعوه من بعد صلاته الى خشبة الصليب ، فلما أوثقوه قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك قبله الغداة ما يصنع بنا ، اللهم أخصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا •

وهكذا مات خبيب بطلا فى ميدان الجهاد النفسى ، كما مات أصحابه عاصم ومن معه فى جهاد مستشهدين ، ولم يلقوا سيوفهم •

وهكذا قتلوا خبيبا صلبا وهو يقول صابرا :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوع ممزع

وفى اليوم الذى صلب فيه خبيب صلب فيه أيضا زيد بن الدثمة • وكان صابرا راضيا مطمئنا ، فى سعة من الايمان ، قال له عند صلبه زعيم الشرك أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا صلى الله تعالى عليه

وسلم عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وائل فى أهلك ، قال والله ما أحب أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وإنى جالس فى أهلى •

وعندئذ قال زعيم الطاغوت • ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم محمدا ، ثم قتل الشهيد الصابر •

وان يوم الرجيع يدل على أمور ثلاثة :

أولها : ما كان من تحريض قريش من غدر وخيانة واستخدام أخس أنواع الخيانة •

وثانيها : أن قريشا لم يشفقوا لثاراتهم من بدر ، وأنهم أنهوا الحرب فى أحد غير مختارين ، والا لبقوا حتى يأخذوا بكل ثاراتهم ، وأنه قد جدد لهم فى أحد ثارات أخرى •

وثالثها : أن العرب بسبب الدعاية التى قامت بها قريش من إشاعة أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد هزمت قد وجد فيهم من يعمل لحسابها ، ويرجو رضاها ، ولم يكن شئ من ذلك بين بدر واحد ، ولكنه كان بعد أحد لإشاعة الهزيمة الكاذبة والله أعلم •

سرية عمر بن أمية ويوم بئر معونة

١٤٤ — هذا يوم آخر بعد يوم الرجيع لا حق به ، ويتجلى فيه القدر ، كما يتجلى فيه العمل من القبائل لحساب قريش ، ويذهب فى هذا اليوم نتيجة الغدر نحو أربعين من المؤمنين لا ستة ولا عشرة •

وان هذا القدر كان يبيت فى مكة المكرمة ، ويدبر أمره فى قريش ، وقبل يوم بئر معونة نذكر ما نواه أبو سفيان من غدر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومحاربه له •

وهذا الخبر هو كما قال الواقدي : كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة المكرمة ، ما أحد يفتال محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنه يمشى فى الأسواق ، فيدرك ثارنا ، ومؤدى هذا أنهم الى الآن لم يدركوا ثارهم ، وإنى يدركونه فأتاه رجل ، وقال له ان أنت وفيتنى خرجت له حتى

أغتاله ، فأنى هاديا لطريق خريت معى خنجر مثل خافيه النسر ، قال
أبو سفيان أنت صاحبنا وتفقه ، وقال له اطو أمرك ، فأنى لا آمن أن يسمع
أحد ، فينميه الى محمد لا يعلمه أحد .

سار الرجل خمس ليال حتى وصل الى المدينة فسال عن النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم فوجده فى جماعة من أصحابه يحدث فى مسجده ، فلما رآه
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك بفراصة المؤمن وباعلام الله أن
هذا الرجل يريد غدرا ، قال الرجل أياكم ابن عبد المطلب فقال الرسول صلى
الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب .

ذهب الرجل ينفذ ما دبر مع أبى سفيان ينحنى على رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم كأنه يساره ، فتنبه بعض الصحابة ، وجذبه أسيد بن حضير
وقال له : تنج عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجذب داخل أزاره ،
فاذا الخنجر ، فقال يا رسول الله هذا غادر ، فسقط فى يد الأعرايى ، وقال
دمى ، دمى يا محمد ، وأخذ أسيد بن حضير يلبيه .

قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصدقنى ما أنت وما أقدمك ،
فان صدقتنى نفعلك الصدق وان كذبتنى فقد اطلعت على ما هممت به .

قال الأعرايى فأنا آمن ، قال عليه الصلاة والسلام وأنت آمن ، فأخبره
بخبر أبى سفيان ، فوضعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد أسيد
ابن حضير فلما جاء الغد قال له قد أمنتك ، فاذهب حيث شئت ، أو خير لك
من هذا قال وما هو ؟ قال أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأنى رسوله الله ، فشهد
الرجل الشهادة .

علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يدبر له فى مكة ، وما يريدونه
منه ، وقد انتقلوا من الحرب الى الاغتيال وبدا ذلك يوم الرجيع ، ثم تبين أنه
يبيت لشخصه الكريم فى مكة .

فارسى سرية لتعرف ما فى مكة ، وتفعل مع أبى سفيان ما كان سيفعله
بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، « والحرمان قصاص ، فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن أمية الضميرى ، وكان
فارسا فاتكا من فتنك العرب ، قد آمن وحسن اسلامه ، وسلمة بن اسلم ،
ليتعرفا احوال مكة المكرمة ، وليصيبا من أبى سفيان .

• ذهبوا الى مكة المكرمة وصلوا وطافوا بالبيت

وقد علم أهل مكة المكرمة بهما ، وكان عمرو كما ذكرنا فاتكا في الجاهلية يخشى بأسه ، فتجمعت الجموع لملاقاته ، ولكنه تركهم ، وقد عرف حالهم وما يدبرون ، ولم يتمكن من أحد ، وعاد وصاحبه ، وقد تمكن هو من قتل الذين كانوا يتبعونه فرادى ، فقتل بعضهم ، وأسر بعضهم ، وأتى بمن أسر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سبقه سلمة بن أسلم •

بئر معونة :

٤٤٢ — في نفس هذا الشهر وهو صفر في السنة الرابعة من الهجرة وكان من أمر هذه السرية أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة قدم المدينة ، فعرض عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، ويقول ابن اسحاق « فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام ، قال : لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوه الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انى أخشى عليهم أهل نجد • قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك •

اطمان النبي الكريم الحريص على تبليغ رسالة ربه ، حينما وجد موطن من موطن التبليغ ، وخصوصا عندما أعلن أبو البراء أنهم فى جواره •

اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامرتهم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعده ، وكانوا كما روى ابن اسحاق أربعين ، وكما روى البخارى سبعين • ولنتترك الكلمة للبخارى :

قال : بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين رجلا لحاجة يقال لهم القراء ، فعرض لهم حيان من بنى سليم ، رعل وذكوان عند بئر يقال له بئر معونة فقالوا والله ما اياكم أردنا وانما نحن مجتازون فى حاجة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلوهم •

ويقول البخارى بروايته فى أوصافهم وبيان أنهم طلبوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمددهم بمن يعلمهم وان رعل وذكوان وعصية وبنى سليم استمدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدد فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم القراء فى زمانهم ، كانوا يحتطبون بالأنهار ، ويصلون بالليل ، حتى اذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقنت شهرا يدعو فى الصباح على أحياء العرب من رعل وذكوان وعصية •

ولقد روى أنهم قالوا وقد عملت السيوف فيهم « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » كانوا يعلمون الناس الاسلام ، وقد بعثهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ، ولذا نرجح أنهم ما كانوا مقاتلين ، ولم يستمدوا على عدو ، كما يفهم من الرواية الأولى للبخارى •

ولننظر من بعد ذلك الى تفصيل الرحلة التي انتهت بالغدر المقيت عند الله وعند كل كريم •

ذهبوا كما أمرهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هداة مرشدين كما طلب أبو البراء ، وأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع المنذر ابن عمرو كتابا الى عامر بن الطفيل يبين فيه أنهم مبلغون لا محاربون ، ولكنه إبان ذاك كان عدوا للمؤمنين ، فلم يرع جوارا ولا ذمة صاحبه في الشرك أبى براء الذى مازال بالنبي حتى أرسل من أرسل وكان كارها ابتداء ، ولكنه التبليغ الذى حمله سهل ارسال هؤلاء ، ولم يكن الغدر متوقعا •

ولذلك قتل من أعطاه الكتاب •

وقد ذكر البخارى فى أخبار عامر بن الطفيل ، أنه حسب النبوة ملكا ، فخير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين ثلاث خصال بثلاث يكون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل السهل ، وله أهل المدر ، أى يكون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوبر فى الصحراء ، وله هو أهل القرى ، أو أن يكون خليفة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أن يغزو والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يغطفان •

كانت هذه حال عامر بن الطفيل إبان ذاك ، وقد علم بالجوار •

ولم يكتف بذلك ، بل استصرخ بنى عامر على أولئك المؤمنين ، وقد علموا بجوار أبى البراء ، فامتنعوا وقالوا لن نخفر جوار أبى البراء وقد عقد لهم عقدا وجوارا •

فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم عسيرة وذكوان ورعل فأجابوه الى ذلك الغدر اللئيم ، فخرجوا حتى غشوا المؤمنين ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم حملوا سيوفهم ، وقاتلوا ، ولكنهم كانوا يقاتلون من أحاطوا بهم حتى قتلوا عن آخرهم كما ذكر •

ولم ينج منهم الا كعب بن زيد أخو زيد بن النجار ، فانهم تركوه وبه رمق ، فحسبوا أنه مات ، وكان عمرو بن أمية الضمري فى سرح القوم ورجل من الأنصار •

وفرغوا من القتلى ، فأخبروا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقنت ثلاثين يوما لما أصاب رسله ، صلى الله تعالى عليه وسلم .

٤٤٣ — تلك قصة بئر معونة فى صفر ، وبئر معونة بين مكة والمدينة المنورة .

ونلاحظ فى هذه القصة بعض أمور :

أولها : أن أبا براء ما كان مسلما ، وربما له ميل الى الاسلام ولكنه زعيم فى قومه ، ويريد أن يكون مع قومه ، فلا يكرههم حتى لا ينفروا ولكن يريد الدعوة اليهم ، حتى اذا استأنس باسلامهم أعلن اسلامه واكتفى بأن جعل الدعوة الى جواره .

ثانيها : أن الغادر عامر بن طفيل كان يعمل لحساب الشرك او لحساب مكة ، وما كان ليفعل لولا أنه وجد فى قريش قوة ، وهى ما اشاعوها من هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وثالثها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أرسل اليهم مبلغين حفظة عبادا يحتطبون نهارا ، ويقومون ليلا ، ولم يرسل معهم أبطل حرب كالزبير وسعد بن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب ، وأن كان هؤلاء فى عبادتهم وزهادتهم لا يقلون عن الأولين ، لأنهم أسود فوارس بالنهار قوام بالليل .

رابعها : أن هذه ثانى غدره برسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبلغين ليغدر بهم ، وكانت الأولى فى يوم الرجيع ، وهذه فى بئر معونة .

فهل كان خدع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو قائد الأمة سهلا بهذا الشكل ، فنقول لم يكن الخدع بعيدا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بشر كسائر البشر ، يحتاط ، وكفاه ، وقد فرض الله سبحانه أن يخدع ، والكريم المخلص يخدع ، والمخب الثيم الذى يفرض الشر لا يسهل خدعه كالكريم الطيب الذى يفرض فى الناس الخير ، وقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « وأن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره ويالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ، يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

ففرض أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد يخدع من الخب الغادر اللئيم .

وان الرجل المؤمن الحكيم ، وقد أوتى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحكمة وعلمها الناس ، يخدع من ناحية ، ما يريد وما هيء له .

وقد أحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبليغ رسالة ربه وهداية العرب الى الوحدةانية ، وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وذلك عمله الذى بعثه الله تعالى له ، وما كان قتاله الا دفاعا . فالقتال لحماية الدعوة من الاعتداء ، ولم يكن هدفا مقصودا لذاته ، فاذا جاء من يسهل له الدعوة استجاب ، والحر الأبى لا يفرض الغدر ابتداء ، ولكن يفرض الغدر حتما اذا كان الأمر من غادر .

وفى الحق ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خدع فى المرة الأولى لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه ، قال تعالى : « ياايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » فما كان له ان يتردد فى اجابة من دعوه ليعلمهم الاسلام ، وليقضى الله أمرا كان مفعولا .

هذا فى يوم الرجيع ، أما يوم بئر معونة ، فما كان مخدوعا ، بل كان يقظا ، وخشى على من أرسلهم من خشونة أهل نجد ، وجفوتهم ، وانهم أعراب غلاظ ، وما وافق حتى عقد عهدا بالجوار ، وكان مكتوبا بدليل أنه قدمه رسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى عامر بن الطفيل فمزقه بسيفه ، وبدليل أن بنى عامر رفضوا أن يصرخوا ابن الطفيل ان استصرخهم حفظا للجوار .

ولكن الغدر والخيانة جعلاه يستصرخ بغيرهم ، كما أصرخوه ، وكان ما كان من قتل الأطهار العباد الزهاد الذين يحتطبون بالنهار ، ويقومون بالليل .

ولقد أدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غدر الغادرين ، ورهما ظن بقلبه الطاهر الربانى أنه لم يكن حريصا فى ارسالهم ، ففقت ثلاثين يوما استغفارا لربه ، فما كان غير حريص ، ولا مخدوعا فى هذا .

وانه مهما يكن الأمر فى هذا ، فانه من المؤكد ان مسارعة عامر ابن الطفيل لهذا الغدر ، ما كان الا لاشاعة أن المؤمنين هزموا فى أحد ، فتكشفت قلوب الغادرين والمدهنين لقريش ، الذين ظنوا فيهم القوة ، والله ولى المؤمنين .

غزوة بنى النضير

٤٤٤ — أشرنا الى أن غزوة أحد ، والظن بأن المسلمين هزموا فيها
أظهر حقدا دفيناً ، فى المنافقين واليهود ، وما كانوا يترددون فى اعلانه رهبة
وخوفا أظهوره حقدا وطمعا .

ولما توالى الغدر بالمؤمنين لم يكن ليكف اليهود والمنافقين عن أن يقوموا
بذبحهم فى الغدر ، وهم على مقربة من المؤمنين ، فهم أقدر ، وغدرهم أنكى ،
لذلك أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حذره منهم ، وكان يترصد
حركاتهم ، وغدر غيرهم كان ارهاصا بغدرهم ، وأظهار ما تنطوى عليه
نفوسهم ، وبدأ غيظهم فى أقواهم وغدرهم ظهر فى بعض أعمالهم .

قتل عمرو بن أمية الضمرى اثنين قد أعطاهما الرسول صلى الله تعالى
عليه وسلم جواره ، وكان القتل خطأ ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
لأدينهما ، أى لأدفعن الى أهلها الدية .

وكان الاتفاق الذى تم العهد عليه عندما قدم النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم عند قدومه الى المدينة المنورة فيه يتعاوننا فى أداء الديات .

ذهب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى يهود بنى النضير ، ومعه
أبو بكر وعمر وعلى ليسستأدى ما وجب عليهم من المعاونة فى دية هذين
القتيلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ .

فلانوا فى القول ، ولكنهم استخفوا غدرا ، قالوا له : نعم يا أبا القاسم
نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

ولاحظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه خلا بعضهم الى بعض ،
وتساروا فى القول ، وفراصة المؤمن مدركة يقظة ، وكان الذى تناجوا به
غدرا ، وقال بعضهم لبعض لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال .

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه من كبار
أصحابه ، قالوا فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا
منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، وقال : أنا لذلك وصعد ليلقى
الصخرة .

رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلوتهم بعضهم ببعض
وحركاتهم المريبة فأدرك أن فى هذا شيئا يبيتونه ، وقد رأى الغدر فى يوم

الرجيع وبئر معونة ، فلا بد أن يكون قد تسارع ظن الغدر اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخصوصا أن حركاتهم كثرت ، وتأخروا عن الإجابة وقد أعلم الله تعالى نبيه بما أرادوا من غدر ، والله يكتب ما يبيتون .

والصحابة قد استطالوا الزمن ، وركبتهم ظنون الغدر ، وكما قال ابن اسحاق استلبثوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أي اعتقدوا أنه لبث زمنا طويلا ، فسألوا عنه رجلا مقبلا من المدينة المنورة داخلا المدينة .

أقبل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتهوا اليه ، فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحركاتهم ، وبما كانوا قد أرادوا من الغدر .

اجلاؤهم :

٥٤٤ — لم يجيبوا داعيه الى المعاونة التي يفرضها عليهم العهد الذي عاهدوه عليه ، وأعطوه كلاما ليئا ، ودبروا تدبيرا خبيثا ، وكان ذلك غدرا في العهد ابتداء ، وما كان ليرضى أن يعيشوا معه ، وهم ينقضون الميثاق الذي وثقه عليهم ، ووفى به من جانبه صلى الله تعالى عليه وسلم والمواثيق عهد فيها واجبات وحقوق متبادلة تلزم كل فريق ، بمقدار ما يلزم الآخر ، ولا يمكن أن يكون جوار حسن من غير عهود توفى ، ومواثيق تربط بالمودة ، أو بالوفاة ، فكان الجلاء أمرا لا بد منه ، وفوق ما علمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من ارادة الغدر به ، والقضاء عليه ، فلم يكن لبقاء الجوار مكان ، وكان على أخفهم حملا ، وأقلهم عددا أن يرحل ، ويترك الأرض لأهلها ، يعيشون في أمن واستقرار فلا يعيش الشعبان بين ظهورهم .

بعث رسول الله يأمرهم بالخروج من جواره لنقضهم العهد أولا ، إذ لم يعينوا في دية الرجلين ولأنهم هموا بالغدر ثانيا ، وإذا كانوا يدعون أنهم لم يفعلوا مع علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليقيني بذلك فإنهم يكفهم نقض الميثاق في المعاونة ، ولا سبيل لاقامتهم معه من غير وفاء بعهد وثقوه .

أرسل لهم محمد بن مسلمة أن يخرجوا وأرسل اليهم عبد الله بن أبي ابن سلول ينهاهم عن الخروج ، وأنهاهم معهم ، ولئن قوتلوا ليقاتلن معهم .

ويقول ابن كثير في تاريخه : بعث اليهم أهل النفاق يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر ففويت عند ذلك نفوسهم ، وحمل حيي بن أخطب ، وبعثوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وناذبوه بنقض العهد .

اعلنوا بهذا نقض الميثاق جملة لا الجزء الخاص بالاستعانة فى الديات فكان هذا اعلانا للحرب من جانبهم • وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليتركهم ينقضون العهد ، ويهمون بالغدر فى غير اكتراث بعهد ولا حسن جوار ويهمون بالقتال ولا يقاتلهم •

امر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالخروج اليهم ، مهما يؤيدهم المنافقون سرا أو علنا ، فجعل على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول •

سار بمن معه من المهاجرين والأنصار فنزل بساحتهم فحاصرهم وتحصنوا بحصونهم ، وقد أوهمهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه سيقطع نخيلهم ويحرقها فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها •

ويظهر أنهم توهموا ذلك ، أو أوهموا لتضعف نفوسهم ، ويهون عليهم الاستسلام ، ولم يقطع ولم يحرق كما تدل الآية الكريمة التى بينت مآلها فى سورة الحشر ، وهى سورة جلائهم •

وقد ذكرنا أن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى قد بعثوا اليهم ابتداء بانهم معهم ليثبتوا ويتمنعوا ، فثبتوا وتمنعوا ، وكان الحصار ، وقد استمروا فى غيهم ، وقالوا لهم لن نسلمكم ، ان قوتلتم قاتلنا معكم ، وان أخرجتم خرجنا معكم •

تربص اليهود ذلك من المنافقين ، وصدقوهم ، وتوقعوا أن ينصروهم ، وهم بين المسلمين ، فما فعلوا شيئا ، فاضطرب أمر اليهود وانزعجوا ، وقذف الله تعالى فى قلوبهم الرعب •

عندئذ اضطروا لأن يعودوا ويقبلوا الجلاء الذى طلبه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حرب ولا حصار ، واعنات ، ولكن لم يرضوا بسبب تحريض أهل النفاق •

عادوا وطلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجليهم ، ويكف عن دعائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم •

أجابهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يأخذ من بيته ما يخلع به بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به •

خرجوا الى خيبر ، حيث تجمعوا فى حصونها مع بنى قينقاع ، ومنهم
ذهب الى الشام ، فكان من اشرافهم الذين ذهبوا الى خيبر ابن ابي الحقيق ،
وحىى بن اخطب ، فكانوا لهم سادة ، ودانوا لهم بالطاعة •

وقد نزل فى بنى النضير ، وما كان من النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم ، وما امر الله تعالى نزل اكثر سورة الحشر ، قال الله تعالى : « سيج
الله ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم ، هو الذى اخرج
الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم ، لأول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا
وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف
فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين ، فاعتبروا
يا اولى الابصار ، ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم
فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله ، فان
الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فبأن
الله ، وليخزي الفاسقين » وقد حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
واجلاهم فى ست عشرة ليلة •

أحكام شرعية اقترنت بغزوة النضير

٤٦٤ — أحكام شرعية ثلاثة اقترنت بغزوة بنى النضير ، أو شرعت بعدها :

اولها : منع التخريب :

وذلك ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان منه ما توهموا انه سيقطع نخلهم بعد ان استطال حصارهم ، فاحتجوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه نهى عن التخريب وعييه ، وكيف يقطع النخل مع هذا •

والحقيقة ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطعه وان هم بقطع النخل افزاعا لهم ، وتخويفا ليسارعوا بالاستسلام ، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم ، ويرمون الحجارة من فوقها ، وكان لابد ان ينزلهم من صياصيتهم ، وهى الحصون ، والآية الكريمة صريحة فى انه أمر بقطع الثمار ، لا بقطع الأصول بل ابقى ما ابقى قائما على أصوله كصريح الآية ، ولو كان صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع الأصول ما بقى نخيل تقوم عليها ثمار •

ولبيان الموضوع كاملا نذكر الفقه فيه ، وأساسه هذه الآيات التى تلونها فى واقعة الجلاء ، ان النهى عن قطع النخل والتخريب بشكل عام قد جاء فى وصية أبى بكر الصديق لبعض جنده ، وما كان أبو بكر الا متبعا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما هى ذى •

روى الامام أحمد فى سنده ان أبا بكر بعث الجيوش ، وبعث يزيد بن أبى سفيان أميرا ، فقال وهو يمشى ويزيد راكب ، اما ان تركب ، واما ان أنزل ، فقال الصديق : ما انا براكب ، وما أنت بنازل ، انى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم ، وما زعموا ، وستجد قوما قد فحصوا أو ساطع رؤوسهم من الشعر ، وتركوا منها أمثال العصائب ، فاضربوا ما فحصوا بالسيف ، وانى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة أو بقرة الا لماكلة ، ولا تجبن ولا تغل •

هذه وصية أبى بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا بد أن تكون بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك ننفى أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع نخيل بنى النضير ، فمحال أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر فى موضع ، وأبو بكر ينهى باطلاق ولأن القرآن الذى نزل فى واقعة الجلاء لم يذكر قطع النخيل ، وهى الأصول بل الذى فيه أنه قطعت ثمار ، وبقيت أخرى على أصولها قائمة •

ولكن مع ذلك لما اشتدت لاجاة الحروب بين المسلمين والمشرىين أو الكفار بشكل عام اختلف الفقهاء فى جواز التخرىب فى أرض العدو من قطع أشجار ، وتهديم بىان ، وذبح الحيوان لغير مأكله ، أو أهلاكه بشكل عام :

فكثيرون من الفقهاء أجازوه ، لأن الحرب لا تبقى ولا تذر ، ولأنه اذا أباحت الأنفس ، فكيف يصاب ما عداها وهو دونها ، ويستندون فى ذلك الى أخبار نسبت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزواته •

أولها : وهو فى قصة بنى النضير أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بتخرىب بنى النضير ، وقال الله تعالى فى ذلك « **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار** » •

ثانيها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يحرق قصر مالك بن عوف ، وقد كان أميرا لجيش المشرىين فى الطائف ، ورمى بالمنجنى حصنا للطائف •

ثالثها : أنه عليه الصلاة والسلام أمر بقطع كروم العنب لثقيف فى الطائف ، وقد ذكر فى المغازى أنهم عجزوا عند ارادة قطعها ، وقالوا : « كيف نعيش بعد قطعها » •

هذه حجج الأكثرين من الفقهاء الذين قالوا ما قالوا تحت سلطان لاجاة الحروب وشدتها • وعدم تخرجها من قبل المشرىين •

أما الفريق الآخر من الفقهاء وان لم يكونوا الأكثر قد تمسكوا بقول الصديق الذى لا يمكن أن يخرج عن قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن عمله ، فمنعوا التخرىب ، وعلى رأس هذا الفريق فقيه الشام الأوزاعى فقد قرر أنه لا يجوز التخرىب الا اذا ألجأت اليه ضرورة حربية ، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول اليهم الا بهدمه ، أو تكون الأشجار غابة كثيفة ، قد اتخذوها مستترا يكمنون للمسلمين فيها ، وينقضون عليهم من مساترها •

وان الناظر الى أدلة الذين أباحوا التخريب في غير ضرورة ، ملجئة ، لا يجدها منتجة لأباحته باطلاق فان تخريب النبي لبيوت بني النضير ، لأنهم اتخذوها حصونا يقذفون منها الحجارة على المؤمنين ، فكان لابد أن تزال تلك الحصون دفعا للأذى ، فكانت الضرورة ملجئة لذلك ، وقد قرر الجميع أن الضرورة تقدر بقدرها .

وان قصر عوف بن مالك كان قد اتخذ حصنا ، وكذلك الحصون التي رميت بالمنجنيق ثقيف ، فما كان رميها الا لضرورة حربية ، لا للتخريب والافساد .

أما ما هم به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قطع كروم العنب لثقيف . فلأنهم كانوا يتخذون منها الخمر ، والخمر حرام ، ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطع ، وإنما أمر فقط بالقطع ، أو قطع قليلا لافزاعهم ، وذلك ليحصلهم على التسليم بدل الاستمرار على القتال ، وبذلك تحقن الدماء ، ولذلك سلموا بمجرد أن رأوا المسلمين يعتزمون قطعها .

وانه بمراجعة الشريعة في مصادرها من كتاب وسنة وأثار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته الكرام يجدانها لا تدل على جواز التخريب ، بل تمنعه .

ولنقف عند الآيات الكريمة التي تلونها في قصة اجلاء بني النضير ، فنجد أن الآيات لا تبيح التخريب باطلاق وفي كل الأحوال ، وأن القطع الذي ذكره القرآن إنما هو في قطع الثمار لا في قطع الأشجار ، وذلك في قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ، فبإذن الله » . الى آخر الآيات الكريمات التي تلونها .

وذلك لأن اللينة المراد بها الثمرة والمعاجم في اللغة تؤيد ذلك ، لأن كلمة لينة جمعها لون وهو بالاتفاق نوع من ثمر النخل ، ولأن الآية تخير بين قطع اللينة أو بقائها على أصولها . وذلك يقتضي أن تكون ثمرة قائمة على الأصول تبقى أو تقطع ، والأصول النخيل ، فلم يذكر في القرآن إباحة قطعها ولأن الآثار الواردة في غزوة بني النضير التي هي موضوع الآيات الكريمات تفيد أن الصحابة ما كانوا يقطعون النخيل ، بل كانوا يقطعون الثمر .

فقد روى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام على نخيل بني النضير قبل اجلائهم ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة ، وهي تمر جيد ، وابن سلام يقطع اللون وهو تمر رديء ، فليل لأبي ليلى لم قطعت العجوة ؟ قال لأنها أغيظ لهم ، وقيل لابن سلام لم قطعت اللون ؟ قال لأنني علمت أن الله تعالى مظهر نبيه ومغنى أموالهم ، فأحببت إبقاء

العجوة ، وهى خيار أموالهم ، وإن قطع الثمار لا يعد تخريباً ، لأنه سيكون مأكلة .

والذى ننهى اليه بالنسبة لما يكون فى الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى حروبه .

أولاً : أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء ، لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية ، ولكن دفع أذى الراعى الظالم ، وبذلك وردت الآثار .

ثانياً : أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجب ضرورة حربية لا مناص منها ، كأن يستتر العدو به ويتخذ وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين ، فإنه لا مناص من قطع الأشجار ، وهدم البناء ، على أنه ضرورة من ضرورات القتال ، كما فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حصن ثقيف .

ثالثاً : أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج ، على أساس هذه الضرورات ، لا على أساس إيذاء العدو والافساد المجرد ، فالعدو ليس هو الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا .

غنائم بنى النضير والحكم العام فى الغنائم كلها

٤٤٧ — كانت غنائم بنى النضير هى أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل ، وحصون ، فهى التى سنت مايتخذ من حكم الاستيلاء على الأراضى اتوزع على المصاربيين أم تكون محبوسة على مصالح المسلمين ، فيكون لهم غلاتها ، وتبقى تحت أيدي أصحابها ، على ألا تكون أيديهم أيدي ممالك رقبة ، بل ممالك منفعة على خراج يؤدونه .

ويقول الفقهاء أن ذلك الخراج هو بمثابة أجره للأرض قد استأجروها به ، واليك النص الذى جاء فى هذه الأراضى .

قال الله تعالى عقب اجلاء بنى النضير ، « وما آفأ الله على رسوله منهم ، فما أوجفتهم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير . ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى قلله وللمرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ،

واتقوا الله ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » •

ونجد هذا النص الكريم قسم ما أفاء الله تعالى به على رسوله والمؤمنين معه قسمين : أحدهما مالا يعد شيئا ثابتا أو أرضا ، بل هو مال غير ثابت فالأمر فيه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزعه كما شرع الله تعالى له ، وقد أشار الى ذلك بقوله سبحانه ، « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » ويوزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمقتضى أمره في قوله تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء ، فإن لله خمسة » الى آخر الآية الكريمة •

والقسم الثاني هو ما أفاء الله تعالى به من أهل القرى ، وهو الأموال الثابتة من نخيل قائم وأرض زراعية •

وهذه قد جعلها الله تعالى لله وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل •

وهنا يجيء البحث فيه أنقسم الأرض بين الغانمين وتخمس كما تخمس الغنائم ، فيكون لله وللرسول وذئ القربى واليتامى والمساكين الخمس ، وأربعة الأخماس للمجاهدين •

رأى بعض الصحابة ، وكان بلال أشدهم أن تقسم الأرض قسمة الغنائم ، ورأى عمر وعلى وجمع من الصحابة أن تكون محبوسة غلاتها على مصالح المسلمين ، وقد بدا ذلك الخلاف عند الاستيلاء على أرض سواء العراق ، وقد جمع عمر الصحابة خارج المدينة المنورة ، وأخذ يجادلهم ويجادلونه ثلاث ليال سويا ، هو يحتج بالآ يكون المال دولة بين الأغنياء ، وقال ان الله سيفتح فارس ومصر والشام ، فلو قسمت فماذا يبقى لسد الثغور وماذا يبقى للذرية •

وهم يعارضون بأنها غنائمهم ، وأشد من يعارضه بلال وصحب له ، فكان عمر الفاروق يقول اللهم اكفنى بلالا وصحبه •

وبعد ثلاث ليال أراد أن يحكم بينه وبين مخالفه طائفة من الانصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، فلما التقوا به ذكر لهم انه ما ازعجهم

الا ليحكموا بينه وبين مخالفيه ، وبعد أن عرض وجهة نظره من الوجهة المصلحية الاجتماعية ، ذكر لهم أنه وجد قوله تعالى : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى » إلى آخر الآيات ، وفصل القول ووزع الأقسام التي تشتمل عليها الآية ، وذكر أن الغلات أولا للمهاجرين ، ثم للذين أووا ونصروا ثم للذين اتبعوهم ثم للذين جاءوا من بعدهم ، « يقولون ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » •

ولما تلا عليهم الآيات انقطع الخلاف ، وصار الإجماع على أن تكون الأرض محبوسة لمنافع المسلمين بحكم هذه الآية • • « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول • • » •

وإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى ثمرات أرض بنى النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار ، إذ كانوا قد ساءهم في الأموال والديار ، ولم يعط مع المهاجرين من الأنصار إلا أبا دجاجة وسهل ابن حنيف لحاجتهما •

ومؤدى ذلك أنه وزع الأموال والثمرات على ذوى الحاجة وذوى القربى واليتامى والمساكين وفعل ذلك مع الذين اتبعوا من مهاجرين وأنصار ، ثم من جاءوا بعدهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم •

تحريم الخمر

٤٤٨ — جاء تحريم الخمر في أعقاب غزوة بنى النضير ، كما جاء في سيرة ابن اسحاق وصحاح السنة ، وظاهر القول أن ذلك التحريم هو البيان الشافى لحقيقة الخمر الذى طالما دعا ربه اليه الرجل الذى ينظر بنور الله تعالى عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وهو قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تغفلون » ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » وبذلك كان التحريم القاطع .

وان القرآن الكريم والنبي الأمين عليه الصلاة والسلام لم يكن منهما ما أقر الخمر أو أباحها ، انما كانت موضع عفو قبل اعلان التحريم القاطع ، فكل أمر يسكت القرآن الكريم عنه ، وهو يتنافى مع معانى الاسلام ، فانه يكون محل عفو الله تعالى ، ويقال انه عفو ، ولا يقال انه مباح ، فمرتبة العفو تقتضى أن يكون الأمر غير مستحسن فى ذاته ، ولا يرضى عنه الاسلام ، ولا الخلق الاسلامى ، ولكن لم يجرى النص بالتحريم فيكون موضع عفو حتى يجرى النص المحرم .

• وتحريم الخمر قد جاء فى القرآن الكريم على أربع مراتب .

أولها : بيان أنه أمر غير حسن فى ذاته ، وقد اشار سبحانه وتعالى الى ذلك فى قوله : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » أى تتخذون منه مسكرا ، وفى مقابل المسكر رزق حسن ولا يمكن أن يكون مقابل الرزق الحسن حسنا مثله ، فهذا النص يشير الى استنكار الخمر ، وأنها ليست أمرا حسنا .

• الثانية : بيان أنها اثم ضار ، وإذا كان فيها نفع فاثمها أكبر من نفعها .

ولذلك جاء الاستنكار المؤيد بالسبب ، فقال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، وأثمهما أكبر من نفعهما » .

ومن المقررات فى الشرائع والعقول أن الأمر الذى يكون ضرره أكبر من نفعه يكون محرما ، إذ أن التحريم والاباحة والندب تناط بالضرر والنفع ، فما

يكون نفعه أكبر يكون مطلوباً ، وما يكون ضرره أكبر ، يكون ممنوعاً ، وإن الله سبحانه وتعالى خلق الأمور وقد اختلط نفعها وضررها ، فلا يوجد ما هو نافع نفعاً محضاً ، ولا يوجد ما هو ضار ضراً محضاً ، والعبرة بالكثرة والقلّة ، ويتفاوت الطلب بتفاوت المصلحة ، ويتفاوت النهي بتفاوت المضرة •

فكان هذا النص دالاً على التحريم ، لكن بغير دلالة صريحة شافية ، ولذلك كان الفاروق رضى الله تعالى عنه يقول : « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » •

المرتبة الثالثة : التربية على الامتناع من الخمر ، بأن تتعود النفس التى مردت عليها التخلّى عنها طول النهار وأطراف الليل ، فإذا جاء التحريم القاطع الحاسم الشافى تكون النفس المؤمنة قد تربت على أن تنفطم عنها ، فتتنفطم بالأمر القاطع •

وذلك بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » أن الصلاة ركن الدين وعمود اليقين ، ولابد أن يقيموها ، وهى مفرقة فى أوقات النهار وزلفاً من الليل •

فإذا كان الصباح لا يشربون حتى يقربوا صلاة الصبح وهم فى صحو كامل ، فيمرون على ترك صبح الخمر •

والنهار عمل لا لهو فيه ، ولا خمر ، بل أمر جد ، وإذا جاء الزوال لا يقربون من الخمر ، لأنهم يقربون من الصلاة ، فلا يشربون حتى لا يقربوا صلاة الظهر ، وهم سكارى لا يعلمون ، وكذلك العصر ، وكذلك صلاة العشاءين ، وبذلك يفوت عليهم شرب الخمر مساء فيفوت عليهم الغبوق كما فات عليهم الصبح •

ولا يكون لهم إلا ما بعد العشاء ، وإن بعد العشاء يكون النوم بعد الكد واللخب •

المرتبة الرابعة : التحريم القاطع بعد أن أدركوا أنها شئ غير حسن • وبعد أن أدركوا أن ضررها أكبر من نفعها ، وبعد أن مروا على الاستغناء عنها بعد أن ألفوها ، وصارت خلب أكبادهم ، ونبع نفوسهم ، ولذلك نزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وقد كان التحريم مشدداً ذاكراً سبحانه وتعالى حكمته بأنها توقع العداوة والبغضاء ، وقد ذكرنا ما كان بين على وعمه حمزة ، لولا أنهما من بيت النبوة وكنفها ، وأنها تصد عن ذكر الله

لأنها تضعف صوت الضمير ، وتجعله فى غفوة ، فلا يدرك الخير ، وهى تصد عن الصلاة ، وحسبها هذه الأمور شراً •

وهنا نلاحظ أنه كان ذلك الاصلاح الاجتماعى بعد الحرب ، لأن المجتمع الفاضل يجب أن يحمى نفسه من العدو والمهاجم المردى ، ويحمى نفسه من المآثم الداخلية ، فكان جهاد النفس فى محاربة الخمر واجلاء شيطانها بعد محاربة اليهود ، واجلائهم ، فاجتمع الجهادان •

أثر غزو بنى النضير فى يهود

٤٤٩ — ذكرنا بنى النضير ، وكيف أظهروا ما كمن فى نفوسهم من شر ، وهموا بقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اضطر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لاجلائهم ، لأنه لا يعيش والحيات والأفاعى بجواره ، ينقضون العهود والمواثيق ، ويريدون فرصة للانقضاض عليه ، لينتهزوها •

وان اليهود فى ماضيهم وحاضرهم لا يؤمنون الا بالقوة ، فان رأوها خضعوا وذلوا ، ونافقوا ، وربما يكون منهم من تهديه صدمة القوة الى الحق •

ولم يكن بالمدينة المنورة من اليهود الا بنو قريظة ، فأرعدوا فى أنفسهم ، وكان منهم من يفكر فى الرجوع الى الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم •

كان منهم رجل ديان باليهودية ، وهو عمرو بن سعدى القرظى ، فأقبل على أرض بنى النضير بعد جلائهم ، فلما طاف بمنازلهم ورأى خرابها ، وقد صارت بيابا ليس بها داع ولا مجيب •

فهداه ما رأى عليه حال اخوانه الى أن ينظر فى التوراة ، وما فيها من صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومال قلبه لأن يعلن ما كتموه ، وأن يظهر ما أخفوه ، وقد بدت العبر •

التقى بقومه من بنى قريظة وقال لهم :

رأيت اليوم عبرا ، قد عبرنا بها ، ورأيت منازل اخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل ، والعقل البار ، قد تركوا أموالهم ، وملكها غيرهم ، وخرجوا خروجا ذليلا • وأوقع ببنى قينقاع ، فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ، ونجدة ، فحصرهم ، فلم يخرج انسان منهم وأسر باقوهم ، حتى سباهم ، وكلهم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب •

يا قوم : قد رأيتم ، ما رأيتم ، فاطيعوني ، وتعالوا نتبع محمدا ، والله انكم لتعلمون انه نبي قد بشرنا به • • فأسكت القوم ، ولم يتكلم أحد الا كعب ابن أسد •

قال له ما يمنعك يا ابا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال انت يا كعب • قال فلم وما جلت بينك وبينه قط •

وقال بعض اليهود الحاضرين • « بل انت صاحب عهدنا وعقدنا ، فان اتبعته اتبعناه ، وان ابيت ابيتنا ، كان ذلك التفاؤل من اليهود بعد ان رأوا ما كان لبني النضير ، ثم ما كان من قبل لبني قينقاع ، فلهذا ذلك اعصابهم ، وحملهم على التفكير فيما بين أيديهم ، وما عندهم من كتاب ، أصابتهم حيرة بلا شك فأمامهم حق عرفوه ، وان لم يذعنوا له ، وما عليهم من تعصب ينأى بهم عن الحق ، وما يحسبون أو يرجون في أعدائه من أن يكون لهم غلب ، وبذلك يجزىء عنهم ، ويأمنون جانبه ، ثم ما أقزعهم مما رأوا في اخوانهم من بني قينقاع وبني النضير •

جعلهم حب الذات ، وهو دينهم أن يفكروا ويعتبروا بما كان ، وما من طمع بأن يكفيه أمره غيرهم فيكونوا نظارة يرون ما يسرهم من غير أن يضاروا ، وذلك شأنهم دائما ، يتقون الأذى بسيوف غيرهم ، ولا يحملون هم السيوف ما وجدوا الى ذلك سبيلا •

ولقد انتهى ترددهم بأن أصروا على كفرهم • وألقوا حبالهم مع المشركين من كفار قریش • وكانت التدبيرات معهم • وقد ظهر ذلك أشد ظهور في معركة الخندق • إذ تحالفوا مع المنافقين والمشركين ، على أن يضربوا من الأمام بأيدي المشركين ومن الخلف بأيدي اليهود • وفي الوسط اليهودي يوهنون ويفسدون ويدلون على عورات المؤمنين ، ولنترك القصص للصوادث يتبع بعضها بعضا •

غزوة ذات الرقاع

٥٥ ـ ذات الرقاع بقعة فيها نخل ، وقيل سميت ذات الرقاع ، لأن الأسوية كان فيها رقاع ، وقيل غير ذلك ، فقيل انهم كانوا يريطون على أرجلهم الخزف والرقاع من شدة الرياح .

كانت هذه الغزوة فى آخر جمادى من السنة الثالثة .

وكان الاتجاه فى هذه الغزوة الى بنى محارب ، وبنى ثعلبة من غطفان ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أربعمائة مقاتل .

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل ، وقتل أكثر من سبعين والفرار من المؤمنين خديعة وغدرا مما يدل على الاستهانة بالرسول وجيشه بعد غزوة أحد التى ادعى فيها بغير الحق هزيمة المؤمنين واشاعة ذلك فى الصحراء ليستردوا هيبته ، ويحرضوا العرب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

وكان لابد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلن قوة الايمان ، وأن يقتص من الذين قتلوا الأبرار الأتقياء من أصحابه غدرا وخيانة .

خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أربعمائة رجل كما ذكرنا ، فوجد جمعا عظيما من غطفان ، فلما تراءى الجمعان تهيب كل صاحبه ويقول ابن اسحاق خاف الناس بعضهم بعضا ، ولم يكن قتال ، فلم ينل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، ولم يقتص لأولئك الأبرار الذين قتلوا خيانة وغدرا .

ولكنهم انما كانوا لم يقتصوا منهم لكثافة عددهم وكانوا عددا كبيرا وبعد الشقة بين موضع القتال والمدينة ، فان النبي عليه الصلاة والسلام قد أزهبهم ، واسترد ما كان للجيش الاسلامى من هيبة ، وذهبت سورة ما انشأتها قريش لنفسها .

وفوق ذلك ، ارتاد البلاد العربية ، وتعرف مدناؤها ، ثم اشار لقريش الى أنه يرصدهم ، كل مرصد ، ويتتبع متاجرهم ان أراد ، وما كان الدخول فى معركة يشك فى نتيجتها خيرا من أن يصل الى الأمور من غير حرب ، وأما

القصاص لأولئك الأبرياء الذين ذهبوا في غدر دنىء ، وخفر للمعهد لا يرضى عنه عربى ، ولا يقبله من له مروءة ، فان أمر ذلك الى الله ، والمستقبل القريب ، وان وبك لبالمرصاد ، وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لينتقم اذا استجابوا لله وأمنوا بما أنزل على الرسول •

صلاة الخوف

٥١ — كانت الأهبة للحرب من جانبهم عنيفة شديدة ، وان كان الله تعالى قد ألقى في قلوبهم الرعب ، وكان على المؤمنين أن يحذروهم ، ولقد كان المشركون يتفاهمون فيما بينهم على أن ينقضوا على المسلمين اذا حان وقت صلاتهم ، وهم يعلمون وجرى على السننهم أن الصلاة احب اليهم من كل شيء ، فكانوا يطمعون أن يصيبوا منهم غرة وقت صلاتهم ، ولكن الله تعالى قد علم جنده الحذر ، فقال عز من قائل : « يا أيها الذين آمنوا أخذوا حذرکم » •

ولذلك شرعت صلاة الخوف لمثل هذه الحال ، ونزلت آية شرعيتها في هذه الغزوة ، فقال تعالى كلماته : « واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ، ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ، واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا ، فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعنكم ، فيميلون عليكم ميلا واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم ، وأخذوا حذرکم ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا ، فاذا قضيت الصلاة فانكروا الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأنتتم ، فاقيموا الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما » •

ويظهر ان الآيات الكريمات قد نزلت فى وقت ذلك اللقاء بين المؤمنين والمشركين الذى كان فيه الحذر من الجانبين ، وهذه الآيات تدل على احكام شرعية •

اولها : قصر الصلاة الرباعية لأجل السفر او الخوف ودل على ذلك قوله تعالى : « واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة » •

وثانيها : انها ثبتت صلاة الخوف بها ، وظاهرها الذى تدل عليه انه يصلى ركعتين ، وليحرم الجميع بالصلاة معه ، ولكن تجيء طائفة منهم النبى

بأسلحتها ، ولتصل معهم ركعة ، والطائفة الأخرى تحرس المصلين مع تسليح المصلين أنفسهم ، فإذا أتم الركعة مع هذه الطائفة ، تأتي الطائفة الأخرى ، مع أسلحتها ، ولتأخذ حذرهما ، ويصلي صلى الله تعالى عليه وسلم الركعة الثانية مع الطائفة الأخرى ، ويسلم صلى الله تعالى عليه وسلم عند كمال صلاته .

ومن بعد ذلك تصلي كل طائفة الركعة الباقية لها مع بقاء الأخرى حارسة ، فالطائفة التي ابتدأت الصلاة مع النبي تكون ركعتها لاحقة لأنها الثانية ، والطائفة الأخرى التي جاءت الأولى تصلي مسبقة ، لأن ما فاتها هو الركعة الأولى .

ونلاحظ في صلاة الخوف - أولا - أنها ركعتان ، وروى أنها كانت الأربع في حال الخوف من غير سفر ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك كل إمام يقسم المصلين فرقتين أحدهما تحرس ، وقد أحرمت للصلاة ، ويصلي بالأخرى - وإن ذلك يقتضي الحراسة الدائمة ، مع عدم الانقطاع عن الصلاة .

وثانيا : أن الصلاة تكون بإمامة القائد ، أو من يقوم مقامه ليكون الجمع بين الصلاة والإمامة أي تكون الصلاة جماعة .

وثالثا : أن ينتفع الجميع بفضل الجماعة فإن فضل الجماعة ينالها اللاحق ، وهو الذي يقطع الصلاة بعد الدخول فيها ، ثم يتمها ، والمسبوق ، وهو يتأخر دخوله فيها ، ثم يعيد ما سبق به . وله فضل الجماعة .

وقد روى ابن هشام عدة روايات في صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الخوف وقد تعددت هذه الصلاة في مواطن كثيرة ، ولها واحد .

فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : « صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بطائفة ركعتين ثم سلم ، وطائفة مقبلون على العدو ، جاءوا فصلى بهم ركعتين أخريين » .

والآية تنطبق على هذه الرواية ولا تخرج عما قلنا ، بيد أن الرواية تدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم أربعاً ، وكل صلى ما فاتة . وروى عن جابر أيضاً قال : صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فركع بنا جميعاً ، ثم سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد معه النصف الأول فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم ، ثم تأخر الصف الأول ، وتقدم الصف الثاني حتى قاموا مقامهم ، ثم ركع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعاً ، ثم سجد

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الذين يلونه معه ، فلما رفعوا رءوسهم سجد الآخرون بأنفسهم فركع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعا ، وسجد كل واحد منهم بأنفسهم سجدتين •

واننا نرى فى عبارة هذه الرواية اضطرابا ، ولا نرى أن الآية تنطبق عليها ، والأولى أحق بالأخذ ، وعليها الفقهاء الأربعة •

وتدل الآيات السابقة على أن الصلاة لا تسقط فى سفر أو حضر ، ولا أمن ولا خوف •

وإنها فى الخوف والسفر قد تقصر ، أو تكون بالإيماء ، ولكن لا تسقط ، لأنها ذكر الله ، ويجب أن يكون العبد قائما به فى كل حال ، ولو على الجنوب •

وانه اذا كان الأمن والاطمئنان يجب أن تقام الصلاة كاملة مقومة على وجهها بركوعها وسجودها • والالتزام الكامل والجماعة الكاملة كما قال تعالى : « فإذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة ، أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » أى معينا فى مواقيته ، لا يجوز التخلف عنها فى أى حال ، ولا عذر فى تركها ، لأنها مخاطبة العبد لربه ، وذلك هو الدين القيم •

فى ذات الرقاع :

٥٣ — اذا كانوا قد غدروا بالسبعين قارئاً ، وقد أمنوهم ، فقتلوهم وقد جاءوا بأمان مكتوب فمزقوه وفجروا بقتلهم ، ولم يرجعوا الا ولا ذمة ، اذا كانوا قد فعلوا ذلك ، فقد كان منهم من أراد أن يرتكب ما هو أشد من ذلك غدرا ، وأبعد أثرا ، وأفجر فعلا •

فقد روى ابن اسحاق بسنده أن رجلا اسمه عورث بن الحارث من بنى محارب ، قال لقومه ألا أقتل لكم محمدا ، قالوا وكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فأقره الغادرون ، وأعادوا غدريهم جذعا ، وكانوا الغادرين فى العرب ، ولم يكونوا الشجعان الأبطال •

أقبل الرجل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس أمن وسيفه فى حجره ، فقال الرجل يا محمد انظر الى سيفك هذا ؟

فجعل الرجل يهز السيف ، ويهم به ، فكبتة الله • ثم قال يا محمد ، أما تخافنى ؟ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أخاف منك ، قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لا ، يمنعنى الله تعالى منك •

هذه رواية ابن اسحاق ، وفي الصحيحين عن جابر أنه غزا مع رسول الله غزوة نجد ، أي ذات الرقاع ، فلما قفل راجعا أدركته القافلة في واد كثير العضاة ، ففترق الناس يستظلون ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت ظل شجرة ، فعلق بها سيفه ، قال جابر فقمنا نومة ، فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعونا ، فأجبناه ، وإذا عنده أعرابي ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا اختلط سيفي ، وأنا نائم ، فقال من يمنعك مني قلت الله ، فشام السيف وجلس ، ولم يعاقبه » .

وفي رواية مسلم زيادة ، وهي عن جابر : « أقبلنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتي اذا كنا بذات الرقاع ، وكنا اذا اتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءه رجل من المشركين وسيف رسول الله معلق على شجرة ، فأخذ فاختطره ، وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تخافني ؟ قال : لا ، قال فما يمنعك مني ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « الله يمنعني منك » .

ويروى أن السيف سقط من يد الرجل فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال من يمنعك مني فقال الرجل خاضعا : « كن خير أخذ » قال تشهد أن لا اله الا الله ، قال لا ، ولكن أعاهدك على الا أقاتلك ، ولا أقاتل من يقاتلوك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه ، وقال : جئكم من عند خير الناس » .

وتعدد الروايات لا يمنع صدقها ، وهي يتم بعضها بعضها ، ولا اختلاف بينها ، وكلها يذكر أنها كانت في ذات الرقاع :

وإذا كانت قد ذكرت في غيرها ، فإن ذلك دليل على تكرارها ، ولا تنافي بين الروايات .

وقد ذكرنا هذه القصة لأمرين :

أولهما : ما انصدر اليه بعض المشركين من الخلاق تتنافى مع مراعاة الجوار ، والمروءة وفيها ارادة الغدر والقتل من غير مواجهة ، وكيف استباحوا ذلك بالنسبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفرا وفسوقا وعنادا .

ثانيها : ان ذلك بلا ريب فيه امر خارق للعادة ، لأن السيف تنقبض عليه اليد في وقت ارادة الضرب ثم يسقط من يده على غير ارادة منه ، وقد اعتزم الشر وبيته ودبره ، فلما حانت ساعته ، خانت يده ، وقد كان ذلك من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في امور كثيرة ، ولكن لم يجعلها دليل نبوته ، ولم يتحد بها العرب ، بل تحدى بالقرآن وحده ، لأنه ما جاء بالخوارق الحسية ، كعصا موسى وابراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الحوادث التي تنقض بمجرد وقوعها ، بل كانت معجزته باقية ، لأن رسالته باقية ، لا تنقضي بزمانها وهي القرآن الباقي الخالد الذي يتحدى الناس في كل جيل وفي كل مكان *

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » *

النبى بين أصحابه

٥٣ — شغلنا أخبار الغزوات والسرائيا عن النواحي الأدبية التى كانت بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته التى كانت تربط القلوب بالمودة الراحمة ، فقد كان رءوفا رحيفا ، يعين المحتاج ويواسى الضعيف ، وما كان ليخرج بهم الى ميادين القتال ، الا وهم يشعرون برحمته ، ومودته فكان نبى الرحمة ونبى المحبة ، ولا بد قبل الملحمة من الرحمة ، فان النصر وسيلته الرحمة بالجند والرغبة ، ورعاية العشير لعشرائه .

رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جابر بن عبد الله قد تأخر عن الرفاق ، اذ هم يمشون وهو متخلف عنهم ، وكان سبب تخلفه عن الركب أن جملة ضعيف ، فسأله مالك : قال يا رسول الله ابطأ بى جملى هذا ، فقال له محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنخه ، وقطع جابر عصا من شجرة بأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذها ونخسه بها نخسات ثم قال لجابر اركب ، فركبه ، وقال جابر ، والذى بعثك بالحق يوافق ناقته مواهقة ، أى يسارعها ولا يبطؤ .

هكذا كانت مراعاة القائد لجنده ، يتتبع الضعيف فيقويه ، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله ، وما سقنا الخبر لذلك فقط ، بل سقناه لهذا ، ولأنها بركة بأمر خارق للعادة .

وان حديث الجمل لا ينتهى بذلك ، بل ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يبتاع الجمل ، فيريد أن يهبه له جابر ، فيابى الا الشراء . ثم يساومه ، طلبه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بدرهم فأبى ، فزاده الى درهمين فأبى ، فما زال يزيده حتى جعل ثمنه ، أوقية من ذهب ، ولكنه يهبه للرسول ، بعد أن ساوم هذه المساومة .

واذا كان قد تعرف حال صاحبه وهو فى السفر ، فلا بد أن يؤنسه ويعينه ، ويتعرف حاله . فسأله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا : يا جابر ، هل تزوجت . قال نعم يا رسول الله . قال عليه الصلاة والسلام اتنيا أم بكرا ، قال : لا بل ثيبا . قال عليه الصلاة والسلام اقلا جارية تلاعبها وتلاعبك . قال جابر يا رسول الله ان أبى أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سيعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رءوسهن وتقوم عليهن ، قال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم العطوف الألف ، أصبت ان شاء الله .

ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لا يكتفى بذلك المود الراحم ، بل انه يقيم الوليمة لزواج صاحبه ، فاذا وصل الى مكان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال اسمه صرار ، نحر جزورا ، يأكل هو وأهله ، كان ذلك والجمال لا يزال في يد جابر .

فرائى اناء تلك المحبة والمودة أن يرسل الجمال الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد وهبه له ، فردّه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وأرسل معه ثمنه ، وهو الأوقية من الذهب التي ارتضاها ثمنا له .

ولننقل كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمرطب به اسماعنا ، ونملا به قلوبنا ، لما رأى الجمال قال ما هذا قالوا هذا جمل جابر ، فقال أين جابر ؟ فذهب اليه فقال الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا بن أخى خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال له اذهب بجابر ، وأعطه أوقية ذهب .

ذكرنا هذه القصة لنعرف مودة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورافته بهم ، وملاحظته وإسخال السرور على نفوسهم ، وإذهاب العنت عنهم ، لتكون منهم قوة فى الأرض ، فليست القوة ، بالمفاظة والتحكم ، انما القوة بالمحبة والتراحم والتودد .

غزوة بدر الآخرة

٤٥٤ — فى نهاية غزوة أحد من قبل المشركين نادى أبو سفيان مهدياً ،
أو واعداً بأن موعدكم بدر من العام المقبل ، وما كان أصحاب محمد صلى الله
تعالى عليه وسلم ليخافوا اللقاء ، وقد أدوه فى أعقاب قفول قريش .

ولذلك خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر فى شهر شعبان
من السنة الرابعة ليلقاهم بمنى ولينتصف لجرى أحد وشهداء المسلمين ،
وخصوصاً سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عمه وأخاه فى الرضاعة . خرج
فى ذلك الميقات . وأقام على المدينة المنورة عبد الله بن عبد الله بن أبى
ابن سلول ، أى ابن رئيس المنافقين ولم يكن كأيهم ، بل كان براً تقياً ، ومؤمناً
صادقاً ، حتى انه لما اشتد أمر النفاق ، قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم دعنى أقتل عبد الله بن أبى حتى لا يقتله مؤمن فيحنقنى . اختاره رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة ، لمكانته فى الايمان وأهله ، ولتبراً
نفسه من سقامها . وفى الوقت الذى كان يقيم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
عبد الله بن عبد الله بن أبى مقامه على المدينة ، كان أبوه عبد الله بن أبى يثبط
المسلمين عن الخروج للقاء قريش ؛ فيروى عروة بن الزبير أن رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم استنفر الناس لموعد أبى سفيان ، وانبعث المنافقون
يثبطونهم ، فسلم الله تعالى أوليائه ، وخرج المسلمون وصحبه الى بدر . وأخذوا
معهم بضائع ، وقالوا ان وجدنا أباً سفيان ، والا اشترينا من بضائع موسم
بدر . خرج المسلمون كما ترى يتمنون أن يكسروا أنف الشرك .

خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ومعه نحو خمسمائة
وألّف ، وقد خرج على نية لقاء العدو حتى نزل وانتظر ثمانى ليال ، عساه
يلقى قريشاً بقيادة أبى سفيان كما وعد أو توعد ، ولكنه لم يجىء فى الميقات .

وأبو سفيان كان قد أراد الخروج على تردد ، فخرج فى أهل مكة ، حتى
نزل مجنة من ناحية الظهران ، ولكنه مع خروجه ووصوله الى ذلك المكان كان
التردد لا يزال يسيطر عليه ، خشية العاقبة ، ولذا بدا له أن يعود من حيث
نزع ، وقال فى سبب نكوصه لقومه .

« يا معشر قريش . انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ،
وتشربون اللبن ، فان عامكم هذا عام جدد وانى راجع فارجعوا . » فكان

أهل مكة المكرمة يسمون الجيش الذى خرج بقيادة أبى سفيان ثم عاد جيش
السويق يقولون انما خرجتم تشربون السويق •

ولعل هذه النظرة وذلك القول فيه لوم وتهكم ، لأنهم خرجوا للقتال
وعادوا من غير لقاء أو قرب منه : وان هذا يدل على أن أبا سفيان تخاذل
عن اللقاء ، والسبب الذى استحل له العودة وهو الجذب كان قائما وقت الخروج
فكان أولى أن يمنع الخروج ، لا أن يوجبه ، ولكنه فكر وقدر الهزيمة ، وقد
ذاق مرارتها فى بدر ، فأثر العافية ، ورضى من الغنيمة بالاياب •

وأتى الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بماء بدر بعض بنى
ضمرة الذين كان قد وادهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة ودان
التي غزاها وقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يا محمد أجنّت للقاء
قريش ، وقد يوهم سؤاله أنه مال مع المائلين لقريش بعد أحد ، واشاعة قريش
أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم هزم ، وما كانت هزيمة •

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « نعم يا أخا بنى ضمرة وان
شئت ردنا — أى ما كان بيننا وبينك من موادة — وجالدناك حتى يحكم الله
بيننا وبينك » •

قال : لا ، والله يا محمد مالنا بذلك من حاجة •

رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، ولم يلق حربا ،
وكان النكوص من جانبهم وان ذلك بلا ريب يزيل ما كانوا يرجونه من
اشاعة الهزيمة ليوهنوا شأن النبى والمؤمنين فى بلاد العرب ، ويعلو شأنهم ،
فيتهييهم الناس دونه •

ولقد قال الواقدي ان جيش المؤمنين فى مدة اقامته اللبالي الثمانى ،
اتجروا ، اذ لم يجدوا قتالا ، وكانت سوق تعقد فى ثمانية أيام ، فرجعوا
فى وفر مالى ، وقد ربحوا من الدرهم درهمين أى أنهم باعوا واشتروا
وكسبوا فزاد رأس مالهم ضعفين ، وهذا كما قال الله تعالى : « فانقلبوا بنعمة
من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » •

غزوة دومة الجندل

٥٥٥ — وهى مكان يبعد عن المدينة بمسيرة نحو خمس عشرة ليلة من ناحية الشام . وقد كانت سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، أكثرها فى ناحية مكة المكرمة وما حولها ، ونجد وما يقاربها . وفى هذه الغزوة اتجه ناحية الشام ، ليكون ذلك اعلاما لقيصر الروم الذى كان يحكم الشام . بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا الدين الجديد فيتعرف الحال والمآل ، فيكون ذلك تنبيها له ما بعده ، كما سيجىء الأمر فى الغزوات التى اتجهت الى لقاء الرومان فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

لذلك اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى دومة الجندل ليدنوا الى احدى الشام من الصحراء العربية ، ولأن دومة الجندل كان بها جمع كبير ، وأنهم كانوا يشبهون قطاع الطريق . فيسرقون من يمر بهم وينتهبونه . ومع ذلك كان فيه سوق عظيمة . فكان لابد أن يغزوها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليؤمن طريق جيوشه عندما يريد الشام ، خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة المنورة فى شهر ربيع الأول من السنة الخامسة ، واستعمل على المدينة سباع بن عرقطة الغفارى .

ونرى من هذا أنه ما كان يخص نوعا ، معينا من الرجال باستعماله فى المدينة وهو غائب عنها وفى ذلك اشعار للمؤمنين بأن الولاية حق لكل مؤمن من غير نظر الى قبيل أو نوع من الرجال .

ندب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس ، وخرج فى ألف من المسلمين ، وكان يسير بالليل ، ويكمن بالنهار . ولعل الوقت كان صيفا ، فكان السير ليلا أخف وأيسر ، وعلى أى حال ، فهو كتمان للمسير . والحرب خدعة ، وكان يسير ومعه دليل من بنى عذرة ، وهو هاد خريت .

لما دنا من دومة الجندل ، وقد وصل الخبر اليهم ، تتفرقوا فنزل بساحتهم ، فلم يجد أحدا فأقام بها أياما ، وبث سراياه ، داعية الى الاسلام بين الأقوام متعرفة فاحصة وقد أسلم على يديه من أسلم ، ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد شهر من خروجه .

النبي في المدينة :

٤٥٦ — كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان من السنة الرابعة ، ثم كانت من بعد غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة ؛ فمكث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من غير غزو نحو ستة أشهر أو تزيد ، فماذا كان يعمل ؟

ونقول في ذلك كان يقوم بحق التبليغ للرسالة ، فما بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للقتال ، ولكن بعث لتبليغ رسالة ربه ، وما كان القتال إلا دفعا للذين يقفون في سبيل الدعوة ، أو يكيدون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللمؤمنين ، أو يريدون أن يفتنوا الناس عن الاسلام ، فالقتال كان لحماية الدعوة ، وهى الأصل ، وبيان أحكام الله تعالى للعباد هى تبليغ الرسالة والله تعالى يقول فى كتابه العزيز : « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » .

كانت اقامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة فى الفترات التى تكون بين الغزوات لبيان حقائق الرسالة المحمدية ، والأحكام الشرعية وتعليم المؤمنين ما يدعو اليه ربهم ، وتحفيظهم ما يتيسر لهم من حفظ القرآن بحيث يحفظه مجموعهم ، ويحفظ بعضهم كله كزيد بن ثابت . فكان عمله عليه السلام فى فترات السلم تبليغ ما أمره الله تعالى به ، وبيان الطريق لتنفيذه وتطبيقه ، وتعليم الناس ما لا يمكن معرفته إلا بالتدريب عليه .

لقد رأينا بعد غزوة بنى النضير نزول القرآن بتحريم الخمر ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتولى تنفيذ ذلك التحريم ، ببيان العقوبات الزاجرة المانعة من الشرب ، فقد جئ له بشارب ، فضربه بالنعال أربعين بنعلين ، فكانت ثمانين ، فاعتبر كثيرون من الصحابة حد الخمر ثمانين ، وشدد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنع ، فقال فى شارب الخمر : اذا شرب ، فاضربوه ، فان عاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه .

وجاء قوم يقولون انا بأرض برد نستدفىء بالخمر ، فنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن شربها ، فقالوا انهم لا يمتنعون ، قال فقاتلوهم وبذلك بين لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الشرع ، ودرهم على تنفيذ ما أمر الله به ، وما نهاهم عنه ، ويقيم الحدود التى شرعها الله تعالى ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بما أنزل الله تعالى .

وقد بين لهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الزواج ، وشرح لهم المحرمات ، وعلمهم الفرق بين ما هو سفاح ، وما هو نكاح ، وما للرجل على

امراته . ومالها عليه من حقوق ، وبين احكام الملكية الخاصة ، وبجوارها الملكية العامة ، وما على الاحاد من الناس من حقوق ، وما عليه من واجبات ، ويتلقى الذين جاءوا اليه ليتعلموا الاسلام . ويرسل الى كل عشيرة أو قبيلة من يعلمها أمر دينها ، ويتحقق بذلك قوله تعالى : « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينبذوا قومهم اذا رجعوا اليهم » . فهو يرشد ويهدي بنفسه من يجيئون اليه ، ومن هم قرييون منه ، ويرسل رجاله الى من يرشدونهم ويتلقى القرآن ، من لدن حكيم عليم ، ويأمر من بحضرته ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوا ما ينزل به الروح الأمين .

ويعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم احكام البيوع والشروط ، والمعاملات والديون وما يتعلق بها وغير ذلك من الاحكام التي تنظم الجماعة الاسلامية ، وتكون منها المدينة الفاضلة ، وهو في هذا يبلغ رسالة ربه .

غزوة الخندق

٤٥٧ — كانت غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة ، وبعدها بستة أشهر كانت غزوة الخندق ، إذ كانت في شوال من السنة الخامسة وفي هذه الأشهر الستة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبلغ الدعوة ، ويعلم المؤمنين مبادئ الإسلام في المجتمع والفضيلة ، والمعاملات المالية ، وغير المالية ، ويبث دعائه في البلاد العربية ، وأخبارها تتجاوزها إلى ما وراء تلك البلاد ، تسرى فيها كما يسرى النور ، وهو آمن مطمئن ، لم يزعجه غاز يغزو مدينته ، ولا غادر يغدر به في دعوته الحق ، يجيئه المؤمنون به فرادى من كل القبائل ، ينضمون إلى صفوفه ، أو يعودون دعاة إلى أقوامهم أن وجدوا فيهم .

وكان اليهود من بني خزاعة بجواره ، قد يكيّدون له ، وإن كانوا لا يظهرون ، يمالئون الأعداء ، ويتضافرون مع المشركين ممن يرسلونهم من بني النضير الذين أجلوا ، فهم جميعاً ملة واحدة في الكيد للمسلمين وأرادة اقتلاعهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسالمهم ، ويحذرهم ، يخادعون ، والله خادعهم .

ونوجه الأنظار إلى أن الغزوات الحمديّة ما كانت تتجاوز شهراً في سيرها ، وذلك قليل في عمر الدعوة الإسلامية . وهي كأمير يعرض فيدفع ، ثم ينصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبليغ رسالة ربه . وبينان شرعه والدفاع بالحجة والبرهان عن العقيدة والرسالة أمام اليهود ، وأمام المشركين لا يألوا جهداً ، فهو يجادل ويبلغ ويعلم ، ويحفظهم القرآن ويعلمهم الحكمة ، فيرددون أحاديثه ، وينقلون أعماله ، والرسالة يتكامل تبليغها .

كيف كانت غزوة الخندق وأسبابها :

٤٥٨ — إن السياق التاريخي للوقائع يشير إلى أن القرشيين تضعضعت نفوسهم ويظهر أنهم ما كانوا ليقدموا على حرب وحدهم ، خشية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من جند أشداء فقد مكثوا لا يقاتلونه ولا يذهبون سنتين كاملتين ، وإن كانوا يشجعون عليه غيرهم من غطفان وغيرهم ، ممن غدروا وخانوا ، وهم هم كانوا يهابون لقاء المؤمنين الأشداء الذين يطلبون الحياة من وراء الموت ، ولا يخشون بنفوسهم على الاستشهاد .

كل قبيلة من الأعداء كانت تخاف المؤمنين وحدها ، وإذا كانوا قد اجتمعوا على الشرك والكفر فانهم أرادوا أن يجتمعوا على القتال ، فينقضون على المؤمنين مجتمعين ، ويقتلعونهم من المدينة لتعود كما كانت دار شرك ويهود كما كانت أولا .

وإذا كانت الحاجة الى نصر الشرك تدعوهم الى الاجتماع ، فقد أخذ كبار اليهود الذين طردوا من المدينة يدبرون لهم ، ويدخلون في صفهم ، فاجتمع ناس من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، بالمشركون يحرصونهم على الاجتماع ، وأن يكونوا معهم ، والمنافقون يؤيدونهم ، وبنو قريظة من ورائهم ، فكان اليهود مدبرين . أو مشتركين في التدبير .

قال ابن اسحاق بسنده « انه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحى بن أخطب النضري ، وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي في نفر من بنى النضير ، وبنى وائل ، ٠٠٠ وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوه الى حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالوا انا سنكون معكم عليه ، حتى تستأصله .

قالت لهم قريش يامعشر يهود : انكم اهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ، قال اليهود اهل الكتاب الذين يدعون أنهم يتبعون التوراة : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق ، وهكذا نرى حقدهم وعنادهم دفعهم الى الكفر في دينهم ، ولقد نزل فيهم قوله تعالى : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » .

لم يكتف هؤلاء اليهود بتحريض قريش الذين لم يكونوا محتاجين الى تحريض ، ولكن يحتاجون الى من يؤازرهم ، بل ان أولئك النفر من اليهود خرجوا الى غطفان من قيس بن غيلان فدعوه الى حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم يكونون معهم ، وأن قريشا قد تابعوهم اجتمعت الأرض كلها ، واجتمعت قريش ، وغطفان ، اجتمع هؤلاء ومعهم اليهود وغيرهم فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب .

وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، وكان في بنى فزارة .

وبنو مرة وقائدهم الحارث بن عوف المزي .

وغير هؤلاء من القواد الذين كانوا يقودون جماعات •

اجتمع هؤلاء ومعهم قبائل من العرب ، ليغزوا المدينة ، وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يقاتلهم كافة ، وأنه لنصرهم كما قال تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » •

سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمسيرهم ، وجاءه الخبر بكثرة الجموع ، وما دبروا ، وما استحصدوا له •

وروى أن أبا سفيان أرسل مرعدا مهديا بهذه الجموع التي جمعها ، وكتب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هذا نصه :

أما بعد فانك قد قتلت أبطالنا ، وأيتمت الأبطال ، وأرملت النساء والآن قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك ، وقلع أثارك ، وقد جئنا اليك نريد نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ، والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار •

تجاوبت القبائل من فزار لنصر اللات في بيت الحرام
وأقبلت المضراغم من قریش على خيل مسومة من ضرام

وقد نقل هذا الكتاب في كتاب السيرة لابن جرير الطبري •

وقد أكد هذا الكتاب ما وصل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أخبار ولم يجد تهديده لاعتماد النبي والمؤمنين على الله •

ورد عليه الصلاة والسلام كتابه قائلا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق وفهمت مقاتلكم فوالله ، ما لكم عندي جواب الا أطراف الرماح وأشعار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام وبغلق السهام وخراب الديار ، وقلع الآثار والسلام على من اتبع الهدى •

ونشك في نسبة هذا الكتاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما فيه من السجع •

ومهما تكن قيمة الرواية ، فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مضى فى الاستعداد .

فجمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صحابته ، واستشارهم فيما يصنع مع هذه الجموع ، لقد كانوا أكثر من أن يخرجوا اليهم ، ولا أن يتركوهم يدخلون المدينة ، وخصوصا أن بنى قريظة على مقربة من المؤمنين يدلونهم على عورات المسلمين لا هذا ولا ذاك يصلحان للعمل ، ولا بد من عمل يكون وقاية حتى يجيء نصر الله تعالى ، وقد وعد به ، فقال تعالى : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

استشار أصحابه ، فتقدم سلمان الفارسى ، وأشار بالخندق ، لأن ذلك كان يصنعه الفرس فى حروبهم ليحولوا بينهم وبين القوى المهاجمة ، وكان فى زمن موسى عليه السلام .

اختار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرأى ، وهو جديد فى العرب ، قد تروعهم فكرته ، ويفزعهم أمره ، فأخذ فى تنفيذه .

فجمع المسلمين ليحفروه ، حتى اذا جاءت الأحزاب وجدوه حائلا بينهم وبين ما ربهم .

حفر الخندق :

٥٩ - كان على أهل المدينة أجمعين أن يشتركوا فى حفر الخندق ، والنكبة فى ذلك الهجوم العام تعم أهل المدينة أجمعين ولا تخص ، فإن الشر اذا طم لا يفرق .

ولكن المنافقين يستأذنون فى التخلف ، ويعتذرون بالضعف ، وما كان ضعف الأجسام ، فالعذر فيه ، انما كان عذرهم فى ضعف الايمان .

ومنهم من استجابوا للدعوة ، ولكنهم عندما اشتدت الشديدة ، أخذوا يتسللون لوأذا ، لأنهم لا يريدون أن يشتركوا فى نصره محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو كان فى ذلك انقاذ للمدينة التى تؤويهم من أن تخرب بيد المشركين ، ولقد قال سبحانه وتعالى فيهم :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا مع على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ان الله

غفور رحيم ، لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

ومع ذلك تخلفت طائفة من المنافقين ابتداء ، وذهبت أخرى ، ولكنها كانت أشد نكاية من الأولى لأنها كانت تخذل وتوهن قوة العاملين ، إذ كانت تتسلل لواذا غير عاملة تثير الاحساس بالشدة ، وليشجعوا من يمكن أن تخور عزائمهم ، والأمر صعب شديد .

تقدم المؤمنون الصادقون لحفر الخندق ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم معهم ، يحفر ويشتد في الحفر ، حتى يستر التراب جلد جسمه صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يئى عن العمل بجهد لاغب ، ولا يقبل أن يعفيه المؤمنون ، ولسان حاله يقول انه ليس اقل منهم فى طلب الجزاء ، ولا اضعفهم .

كان حفر الخندق فى ذاته عملا شاقا مجهدا ، وقد اقبل عليه المؤمنون ببشر وترحاب ، وكانوا ينشدون الرجز ؛ والنبي يشاركهم بأن يقول معهم آخر كلمات الرجز الذين ينشدونه وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ما يناسبه مما يثير همة المؤمنين بالدعاء لهم . فيروى أنه كان يقول : « اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة » وذلك تشجيع للعمل ، وترنم بما يرجوا المؤمنون .

وهم ينشدون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الاسلام ما بقينا ابدا

وينشدون أيضا :

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام ان لاقينا

ان الألى قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة أبينا

كانوا ينشدون هذه الأشعار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينشد الأشعار ، ولا ينبغى الشعر له . فما كان يتابعهم فى البيت من الأبيات ، ولكنه كان يجهر بالقافية معهم مشاركة فى الوجدان والاحساس من غير أن يقول ما لا ينبغى له أن يقوله .

وهكذا كان شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل ما كانوا ينشدونه
يشاركهم فى النشيد بأخر القوافى •

٤٦٠ — ولقد اقترن حفر الخندق بمشقة شديدة اذ ابتداء فى غداة
يوم شديد البرودة • •

وقد قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحفر من الخندق بين
صحابه من الأنصار والمهاجرين فكان يجعل لكل عشرة من الصحابة رضوان
الله تعالى عليهم أربعين ذراعا •

وقد اختلف الصحابة فيمن يكون سلمان الفارسي منهم • لأنه صاحب
الفكرة التى هداه الله تعالى عليه • ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم : سلمان منا آل البيت •

ولقد كان العمل شاقا ، ولم يكن القوت كافيا ، لأن كثيرين من الصحابة
قد انقطعوا عن موارد أرزاقهم ، فاجتمع لديهم شدة العمل وقسوته والجوع •
ولكن الايمان كان يخفف كل شدة ، والصبر يوجد قوة احتمال ، ورعاية الله
تعالى فوق كل شدة •

وقد ذكر ابن اسحاق وغيره من الرواة أنه قد حدثت خوارق كثيرة على
يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى تلك الشدة التى اشترك فيها كل
أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • وهو على رأسهم •

قال ابن اسحاق • وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها من الله عبرة
فى تصديق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحقيق نبوته ، عاين ذلك
المسلمون •

منها — معجزة الكدية (وهى صخرة شديدة صلابة) فكان مما بلغنى أن
جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية ، فشكروها
الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأتى بأناء من ماء فتفل فيه ثم دعا
بما شاء الله تعالى أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فوالذى
بعثه بالحق نبيا لانهاالت حتى عادت كالكتيب « •

هذا كلام ابن اسحاق : وقد رويت مسألة الكدية بروايات أخرى ، ذكر
الثانية ابن اسحاق كما ذكر الأولى ، وقد ذكرت الثانية فى كتب المسئلة
الصالح الأخرى •

قال ابن اسحاق فى الرواية الأخرى ، وحدث عن سلمان الفارسى أنه قال ضربت فى ناحية من الخندق ، فغلظت على صخرة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قريب منى ، فلما رأى أضرب ، ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب ضربة لمعت تحت المعول برققة ، قال ثم ضرب به أخرى ، فلمعت تحته برققة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برققة أخرى . قلت (أى سلمان) بأبى أنت وأمى ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أوقد رأيت ذلك يا سلمان ، قلت نعم ، قال : أما الأولى فإنه قد فتح علينا اليمن ، وأما الثانية فإنه قد فتح علينا الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله تعالى قد فتح علينا بها المشرق .

هذه رواية تخالف الأخرى ، ولا مانع من أن يكون الأمران قد وقعا ، وخصوصاً أن الأولى رواها جابر والثانية رواها سلمان الفارسى ، ولكل رواية واقعة ، وفى كل واحدة منهما خارق للعادة ، ففي الأولى كانت نضحة الماء الذى فيه ثقل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذابت الصخر فجعلته ككتيب الرمال .

والخارق فى الثانية أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجرى الله تعالى على يديه ما كشف له به أنه سيفتح الله تعالى أمة اليمن وما وراءها والشام وما وراءها الى المغرب ، والمشرق ، وهو يمتد الى الهند والصين .

ونحن لا ننكر خوارق العادات ، ولا يمكن أن ننكرها قط على نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يجب أن نؤكد هنا ، ما أكدناه من قبل ، وهو أن هذه الخوارق التى أجراها الله تعالى على يد رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليست هى معجزته التى تحدى فيها الناس أن يأتوا بمثلها ، إنما المعجزة الكبرى هى القرآن الذى تحدى العالمين أن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

الجوع والطعام :

٦١} — قلنا ان حفر الخندق اقترن بمشقة شديدة فى الحفر ذاته ، وبمشقة أشد فى الجوع للبعد عن قلب المدينة ، ولانقطاع المؤمنين عن العمل للرزق ، بالانصراف للحفر ، غير مدخرين أى جهد لغيره ، وحتى ما يقوم به الأود ، وأن الجهاد فى سبيل الله غذاء النفوس يقبلون عليه ولو تعبت فى سبيله الأبدان ، وأرهقت الأجساد ؛ لأنهم يريدون ما عند الله ، وعنده الفوز العظيم .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الاسوة الحسنة فى الصبر وضبط النفس ، والجلادة وتحمل الجوع ، حتى انه صلى الله تعالى عليه وسلم ليشد الحجر على بطنه حيث لا يجد ما يذوقه .

لقد عرض البخارى حديث جابر عن الكدية ، وجاء فيه « انا يوم الخندق نحفر حفرة ، فعرضت كديه شديدة ، فجاءوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « انا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة ايام ، لا نذوق ذواقا » .

تلك صورة للجوع الذين كانوا فيه ، وهم يجالدون ، ويبدلون ما لا يبذله الا اقوياء الرجال فى دينهم ونفوسهم ، وهنا نجد الخوارق تكون فى بركة الطعام القليل الذى يتغذى منه العدد الكثير .

وينكر ابن اسحاق فى ذلك روايتين فى بركة الطعام .

اولاهما : البركة فى تمر ابنة بشير : ذكر ابن اسحاق بسنده « ان ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير حدثت فقالت : دعتنى أمى عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة الشاعر الأنصارى فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ، ثم قالت أى بنية اذهبي الى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذاثهما فأخذتهما ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا التمس أبى وخالى ، فقال عليه السلام : « تعالى يا بنية ما هذا الذى معك ، فقلت يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى الى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن رواحة يتغذيانه » .

قال صلى الله تعالى عليه وسلم هاته : « فصبيت فى كفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما ملأهما ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دعا بالتمر عليه ، فتبدد ثوب الثوب ، ثم قال لانسان عنده اصرخ فى اهل الخندق انه هلم الى الغداء فاجتمع اهل الخندق ، فجعلوا ياكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر اهل الخندق عنه ، وأنه ليسقط من اطراف الثوب » .

الثانية : وهى تشبه هذه ، وان كان قد اختلف موضوعها ، ذكر ابن اسحق عن جابر بن عبد الله انه قال عملنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخندق ، وكانت عندى شوية ليست جد سميينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئا من الشعير ، صنعت لنا منه خبزا ، وذبحت تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم الانصراف من الخندق ، قلت يا رسول الله انى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا ، فأحب أن تنصرف معى الى منزلى ، وانما أريد أن ينصرف معى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحده ، فلما قلت له ذلك قال نعم ، ثم أمر فصرخ صارخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيت جابر بن عبد الله . قلت انا لله وانا اليه راجعون .

أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها اليه فبرك وسمى ، ثم أكل ، وتواردها الناس ، وكلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس ، حتى صدر أهل الخندق عنها ، اى أن الشاة غير السمينة كفتهم جميعا .

ولا شك أن هذين الخبرين بهاتين المسألتين يدلان على خارق للعادة جرى على يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك من خوارق ، منه ما ذكرنا ، فى لقائه عليه السلام ، وغذائه فى بيت أم معبد وهو فى طريقه الى الهجرة .

وان الخبر يدل فوق ذلك على الجهد الشديد الذى أصاب الصحابة ومعهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قلة الطعام .

ويدل على أمر سام ، وهو فضل التعاون ، وهو أنه كان لا يتفرد أحدهم بطعام عن الباقيين بإرادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهديه وحكمته .

اللقاء

٦٢ — أقبلت قريش ومن معها من كثانة وتهامة والأحباش وكانوا فى عدد كبير بلغ آلاف منهم ومن معهم ونزلوا فى أسبيل رومة بين مكانين أحدهما اسمه الجرف ، والآخر اسمه زغابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، ونزلوا عند أحد ٠ وكان عدد قريش أربعة آلاف ، وعدد من معهم ستة آلاف وكانت لهم قيادات مختلفة ، فكان يقود قريشا أبو سفيان بن حرب ، وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن وكان ثمة قواد يقودون أعدادا ليست بالكبيرة نسبيا ، فكانت أشجع بقيادة مسعود بن ربيعة وعددهم أربعمائة ، وكانت سليم يقودهم سفيان بن عبد شمس ، وعددهم سبعمائة ٠

لم تكن لهؤلاء قيادة موحدة ترسم الخطة ، ويتبعها الجميع ، وإن جعل كل قيادة على قومها يتولى القوم رجل منهم ، وقد يكون ذلك مفيدا فى ذاته ، ولكن يجب أن تكون ثمة قيادة عامة ترسم للجميع ٠

ومهما يكن فهم لم يختلفوا لأنهم جاءوا الى المدينة ، فلم يجدوا ما يمكنهم من الهجوم جميعا أو متفرقين ، وما كان ذلك سبب الهزيمة التى منوا بها بنصر الله للمؤمنين بالريح والرعب ٠

لقد جاءوا الى المدينة يحسبون أنهم يغيرون عليها ، وليفروا أو يقضوا عليهم ويسبوا نساءها ، لقد جاءوا بعد ما تم حفر الخندق ٠

فوجئوا بأنهم لا قبل لهم بأن يدخلوا المدينة ، فوجئوا بالخندق يحول بينهم ، وبين أن يقتحموا جند المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بمثله ، وراوا كيدا لم يكن بتدبير عربى ، بل بعقل آخر ، وبذلك لم يروا أن مهمة القضاء على محمد وأصحابه سهلة ، انها تحتاج الى تدبير آخر غير ما دبروا ، وأن يدخلوا الى المدينة من غير هذا المكان ٠ فانه لا يمكن أن يدخل منه جند كثيف كعددتهم ٠

عندئذ تحرك حى بن أخطب الذى جمع متفرقهم ، وإن لم يكونوا مندمجين موحدين فى قيادتهم ، وانه إذ نجح فى تحريضهم ، لا يمكن أن يتخاذل عن أن يضم اليهم بنو قريظة ، وقد كانوا يتمنون الغوائل للمؤمنين ، ويريدون الويال لهم ، وربما كان لهم سعى فى الحركة ، وإن لم يكن ظاهرا ، تسلل اليهم حى ، ليكونوا وراء المؤمنين ، وقد يحيط الجميع بهم ، وليجدوا منفذا الى المدينة عن طريقهم ، ويعملوا معهم ، ويكون المشركون من فوقهم ، وبنو قريظة من أسفلهم ٠

لم يكن بنو قريظة ممن يغامرون ، وكانوا حريصين على الحياة ، ككثان اليهود ، كما قال تعالى فيهم ، « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » .

دخل حبي بن أخطب على كبيرهم كعب بن أسد القرظي ، الذي وادع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه وعاهده وقد رده ابتداء ردا عنيفا ، وقال له انك امرؤ مشئوم ، وانى قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه الا وفاء وصدقا ، وبعد أن عرض بشجاعته . فتح له الباب .

ولننقل لك الحديث لتعرف ما كانت تجرى به الأمور ، وما كان يسرى فى النفوس .

قال حبي : ويحك يا كعب جئتكم بعز الدهر ، وببصر طام ، جئتكم بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسبال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلنهم على جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .

قال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماؤه (أى بسحاب قد نزل ماؤها) فانى لم أر من محمد الا وفاء وصدقا .

فلم يزل حبي يتحايل بالقول ، ويفتل بالذروة والغارب حتى سمع له واستجاب لما يطلب ، وبذلك كشف طبع اليهودى ، فهو لا يفى بعهد شرفا وكرامة ولكن يفى مضطرا خوف الذل والمهانة ، ولذلك وافق عندما اقنعته بأن القوة مع قريش ، وأمنه على مستقبله ، فأعطاه عهدا وأعطاه ميثاقا قائلا له : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك ، حتى يصيبنى ما أصابك .

اطمأن كعب ، فنقض العهد . وهو من شيمته ، وما كان التمسك الا حرصا منه على نفسه ، وخوفا عليها ، فأتاه الشيطان من ناحية نفسه ، فاقتنع ، والعداوة فيه أصيلة .

ولذلك سرعان ما انضمت قريظة الى الأحزاب التى جاءت من المدينة ، وكان ذلك فيما بينهم وبين حبي ، وعمل على أن يبلغه لقريش ومن معهم .

ولكن وصل الخبر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحذر الحريص الذى لا يؤتى من غفلة صلى الله تعالى عليه وسلم .

أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستوثق ليكون الخبر كالعيان فأرسل إلى بنى قريظة سيد الأوس سعد بن معاذ ، وسيد الخزرج سعد بن عباد ومعهما عبد الله بن رواحة . وقال لهم انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فالحنوا إلى لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به أمام الناس .

ذهبوا اليهم فوجدوهم على أخبث حال ، نالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإنكروا العهد وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وقالوا منكبين من رسول الله فلم يطق سعد بن معاذ صبرا فشاتهم وشاتموا وقال له سعد بن عباد : دع عنك مشاتمهم ، فما بيننا وبينهم أدنى من المشامة .

عاد السعدان إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكرنا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غدرهم ، ولكن بلحن القول ، لا بصريحه حتى لا يفت ذلك في أعضاء المسلمين .

٦٣٤ — جاء المشركون من أعلى واليهود ومن أسفل ، والمنافقون في داخل المسلمين يقولون ويوهنون العزائم ، ويضعون في النفوس روح التردد والهزيمة والنفاق ، وزلزلت قلوب ضعفاء المؤمنين ، وظنوا بالله الظنون ، حتى قال بعض ضعفاء الأيمان قول غير المؤمنين : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، ووجد من يستأذن في التخلّف من أولئك الضعاف في إيمانهم ، حتى قال بعضهم يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك على ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا .

وإن أبلغ التصوير للنفوس في هذا الهول هو كلام الله تعالى عن الأحزاب وآثارهم ، فيصف ما في الأنفس العليم بذات الصدور ، يقول سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارس لنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها . وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وإن يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإن قالت طائفة منهم ، يا أهل يثرب ، لا مقام لكم ، فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، أن يريدون إلا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما ثلبثوا بها إلا يسيراً ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديبار ، وكان عهد الله مسئولا ، قل لن يتفككم الفرار إن

فررقم من الموت أو القتل ، وإذا لا تمتعون الا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا أو اراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ، قد يعلم الله المعوقين منكم ، والمقاتلين لآخوانهم هلم الينا ولا يأتون اليأس الا قليلا ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ، أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم • وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وان يات الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فممنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا • ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ، ان الله كان غفورا رحيمًا ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصبيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا •

هذا أدق وصف لحال النفوس فى ذلك الهول ، فهل وهنت ارادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو ضعفت عزيمته ، بل كان يؤمن بنصر الله تعالى ، ويدبر الأمر ، ويأخذ الأهبة بعزم الرسول ، وهو من أولى العزم من الرسل ، فضرب المثل لمن معه من المؤمنين •

٤٦٤ — تقدم للميدان بثلاثة آلاف من المقاتلين ، وأمر بالذراى والنساء أن تكون فى أطم ، أى مبان متينة تكون كالحصول لكيلا يكونوا تحت عين بنى قريظة ، ولكيلا يكون المجاهدون فى فزع على نساءهم وذريتهم ولكيلا يصيبوا منهم غرة •

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وضع حراسة على المدينة خشية أن ينقضوا عليها ، فأقام سلمة بن أسلم على مائة من الرجال ، وأقام زيد بن حارثة على ثلاثمائة أخرى لحراسة المؤمنين من اليهود •

وذلك كله حذرا من المشركين ، وكان لابد من اتخاذ المكيدة ، والحرب مكيدة « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، فأراد عليه السلام أن يخذل المشركين بعضهم عن بعض بأشارة الطمع فى بعضهم ، فيقتلون عن باقبيهم ، فأراد أن يطمع غطفان ومن معها من نجد ، فأرسل الى عيينة بن حصن والى

الحارث بن عوف بن أبي حارثة من قوادهم ، فطلب اليهما المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة ، فقبلوا ذلك طمعا منهم ، وأن يعودوا ، وكتبوا الكتاب من جانبهم ولم يكن من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادة ولا عزيمة صلح ، لأنه لا يمكنه أن يعزم ذلك من غير مشورة أهل الثمار ، فلما عرض عليهم من بعد أن جاء الكتاب ، وكان ذلك العرض أن بعث الى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ، فذكر لهما ذلك ، واستشارهما •

قالا له يارسول الله : أمرا تحبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، قال صلى الله عليه وسلم بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك ، الا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم الى أمر ما •

قال سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا شراء أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام ، وهدانا اليه ، وأعزنا به وبك تعطيتهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيتهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأنت وذاك • فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، وبذلك انتهت ارادة الصلح ، ان كانت •

وقد أفاد عرض أمرين عظيمين •

أولهما : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم عزيمة أصحابه ، وأنهم يريدون لقاءهم •

ثانيهما : أن ذلك أطمع غطفان ومن معها من القبائل ، والطمع اذا سكن حل العزيمة وقد ترتب على ذلك الاطماع ، أنهم تملعلوا بطول الحصار وجرى بينهم وبين القرشيين خلاف وهموا أن يعودوا من حيث جاءوا من غير أن ينالوا شيئا •

٤٦٥ — بهذا العرض خذل النبي صلى الله عليه وسلم بين قريش ، وبين من جاءوا بهم من الأعراب ، وبقي أن يخذل بين اليهود وبين المشركين ، وساق الله تعالى اليه من رضى بأن يكون لسان ذلك التخذيل •

فقد أتى رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود وقال يارسول الله انى قد أسلمت ، وان قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت فقال صلى الله تعالى

عليه وسلم انما انت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت ، فان الحرب
خسرة •

خرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية
فقال : يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، ان قريشا
وغطفان ليسوا كائتم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبنائكم ونسائكم ، لا تقدرن
على أن تجلوا منه الى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد
وأصحابه وقد ظاهروهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسائهم وبغيره ، فان
رأوا تهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ،
ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم ، حتى تأخذوا منهم رهنا
من اشراقهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تتجاوزوه ،
قالوا لقد اشرت بالرأى •

كان هذا تنبيه صدق لبنى قريظة ، وان كان القصد تخذيلهم عن قريش ،
ولم يكن كاذبا •

ذهب من بعد الى أبى سفيان بن حرب قائد قريش ، وقال عرفتم ودى
لكم ، وفراقى محمدا ، وانه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا
لكم ، فاكتموا عنى ! فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على
ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرسلوا اليه ، وانا قد ندمنا على
ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من
أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على ما يبقى فنستأصلهم ،
فأرسل اليهم أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا ، فلا تدفعوا
اليهم منكم رجلا واحدا •

ثم خرج الى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش •

بعد هذا التحذير من ذلك المسلم التقى المدرك ، أرسل أبو سفيان عكرمة
ابن أبى جهل يستنهض قريظة للقتال وقال لهم ، انا لسنا بدار مقام ، قد هلك
منا الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ،
وكان اليوم يوم سبت ، فاعتذروا ، وقالوا لا نعمل فيه شيئا ، وكان بعضنا
قد أحدث فيه حدثا ، فأصابه ما لم يخف عليكم ••••• ولسنا مع ذلك بالذين
نقاتل معكم محمدا ، حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ،
حتى نناجز محمدا ، فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال ، ان
تتشمروا الى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا لا طاقة لنا به ، ولا طاقة
لنا بذلك منه •

هكذا أدرك قريش أن بنى قريظة تريد أن تأخذ لنفسها أمانا من الرجعة فيما تقول ، وهى تريد قتلهم ، وأدركت قريظة أنهم لا يريدون تأمينها ، وبذلك تم ما أريد من التخذيل بينهم وأشد التخذيل ما يكون بفقد الثقة وأن يتظن كل فريق .

ولكن الفريقين مع ذلك استمروا فى غيهم ، فكانوا يثبتون العيون على أطم المسلمين التى بها الذرارى والنساء ، لينقضوا عليهم ، وينالوا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه .

فإذا كان للتخذيل أثر ، ففى فقد الثقة بين الفريقين ، ولكن عداوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مازالت تجمع بينهما ، فلم تخلع قريظة عن الايذاء وأرادة الانقضاض على بيوت المؤمنين .

عين من اليهود حول أطم آل النبى :

٦٦ — كانت صفية بنت عبد المطلب عممة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أطم (حصن) لحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه ، ولم يكن محاربا ، فكان مع الصبيان والنساء ، ولم يكن الحجاب قد نزل ، قالت صفية ، « فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذرارى والنساء ، ومن أن قريظة قطعت ما بينها وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن هذا الرجل عين على المسلمين ، ويريد عورات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

قالت السيدة صفية لحسان الشاعر ، ليست بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون فى تصور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا ، ان آتانا آت ، وأن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصحابه ، فأنزل اليه فاقتله : قال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ولما لم أر عنده شيئا احتجزت (أى شددت وسطها) ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن اليه فضربت بالعمود ، حتى قتلتها ، فلما فرغت منه ورجعت الى الحصن ، فقلت : يا حسان أنزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه الا انه رجل ، فقال مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب .

وقد ذكرنا هذه القصة لا لنثبت شجاعة أخت حمزة أسد الله ، ولا لحال حسان رضى الله عنه ، ولكن ذكرناها ، لنعلم منها كيف كان اليهود حريصين على أن يأتوا دور النبی والصحابه فى غيبتهم •

الجيشان :

٦٧ — تلاقى الجيشان : يعتز جيش الشرك بكثرة العدد وكثرة العدة ، وأنه من جميع العرب ، ويعتز بأنه استطاع بمحالفته لبنى قريظة أن يحيط بالمدينة ، وأنه يستطيع الانقضاض عليها من طريق حلفائه ، ولكن لم يتنبه بأن فيه ضعفا ، يتفرق كلمته ، إذ أن تعدد القواد ، لا يوجد كلمة قيادة موحدة تحسن الهجوم الموحدة ، وبذلك لا تغنى عنهم كثرتهم شيئا ، لأن الكثرة المتفرقة خير منها القلة المتحدة ، المتألفة المتآزره ، وهذا عيب ذاتى فى أصل تكوين الجيش من أحزاب •

وفوق ذلك ما كان من اطماع النبی صلى الله تعالى عليه وسلم لغطفان وعدتهم ستة آلاف فى صلح يأخذون فيه ثلث ثمار المدينة ، وإن ذلك يثير طمعهم ، وتفت فى عضدهم ، وإن كان أمر الصلح لم يبت فيه ، ولكن بابه مفتوح لم يغلق •

ثم فرق هذا وذاك فقد الثقة بينهم وبين قريظة الذى لم يجعل ثمة فائدة فى التحالف معهم ، وإن كانوا قد عملوا عملا فى إيجاد الذعر بين المؤمنين ، وربما كان منهم من حاول الهجوم على دور النبی صلى الله تعالى عليه وسلم وآل بيته الكرام ، وقد رأينا عيونهم تنبث فى المدينة •

هذا جيش المشركين ومن معهم ، أما جيش أهل الايمان ، فقد خلصته الشدة من المنافقين فيه وضعفاء الايمان من الذين زلزلوا ، وكان خالصا صافيا ، وليس فيه الا من قال فيهم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمئتهم من قبضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » •

اجتياز الخندق

٦٨ — فوجئ المتجمعون من المشركين بالخندق ، إذ لم يكونوا يعرفونه فلم يكونوا أهل حروب جماعية ، فعرفوا تدبيرها ومكايدها كما أشرنا من قبل ، ورأوه سدا يحول بينهم وبين أن ينقضوا جمعا متكاثفا على المدينة ، فيقتلعوا الاسلام منها اقتلاعاً ، وبذلك طاش أول هدف لهم •

ولكن بعضهم وجد ثغرة منه فقد استطاع بعض فرسانهم ان يقتحمها ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وبعض بنى مخزوم ، وعمرو بن عبد ود العامري العربي المروبي الذي حضر بدرا واثنى بالجراح ، ولم يحضر يوم أحد الجراحه ، وقد خرج يوم الخندق معلما ليرى مكانه ، ويعلم انه جاء لشفاء غيظه .

وقد خرج مناديا للمبارزة ، وأراد على أن يخرج له فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرتين حتى عبر المسلمين ، فعندئذ خرج على اليه ولم يمنعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

فلما التقيا قال له على داعيا الى الهدى : يا عمرو ، انك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا اخذت منه خيرهما .

قال عمرو : أجل .

قال على : فاني أدعوك الى الله ورسوله وإلى الاسلام . قال لا حاجة لي بذلك .

قال على : فاني أدعوك الى النزال ، فقال له لم يابن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له على : لكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه ، وعقره . ونزل للقاء على ، ويظهر أن عليا كان راجلا ، فأبى أن يقاتل عليا الا راجلا .

ثم أقبل على على ، فتجاولا وضرب ضربة تلقاها على بدرقته ، ولكنها اخترقتها وجرحت رأس على ، فضربه على ضربة فى ترقوته فقتلته ، وكانت ضربات على أباكرا عندئذ كبر المسلمون ، فعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عليا رضى عنه قد قتله .

أقبل على نحو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هل استلبته درعه ، فانه ليس للعرب درع خير منها ، قال على ضربته ، فاتقانى بسوءته ، فاستحييت ابن عمى أن أسلبه .

ويظهر أنه كان عظيما بين المشركين يعتزونه فأرسلوا يطلبون جثمانه بمال يقدمونه ، فأعطاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اياه ، وقال هو لكم لأننا لا نأكل ثمن الموتى .

كان أولئك الذين قد اجتازوا الخندق وفيهم عكرمة ، وغيره ، وفى بعض

الروايات فيهم خالد بن الوليد ، قد رأوا ما كان بين علي وعمرو بن عبدود الذي كان كما قيل لم يهزم في مبارزة قط ، ولم يلبثوا من بعد مقتله الا أن يجتازوا الخندق كما بدءوا ، وما تقدم أحد منهم لعل بعد أن قتل عمرو بن عبدود .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه ان نوفل بن عبد الله بن المغيرة تورط في الخندق ، ورماه المؤمنون بالحجارة وجعل يقول : قتلة أحسن من هذه ، فنزل اليه على وقتله ، وروى أن الذي قتله الزبير بين العوام ، وطلبت قريش جثته بعد قتله في نظير مال ، فأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير مال . وقال لا ناكل ثمن الموتى .

الهجوم على بيوت المؤمنين

٤٦٩ — استمر الحصار قائما بعد الهجمة التي هجمها الذين اجتازوا الخندق من مكان ضيق غير مرتفع ، وقد قتل اثنان من المشركين فيه ، وهما نوفل المخزومي ، وعمرو بن عبدود العامري ، ثم الرهبة بعد ذلك من اجتيازه ، وكان النبل من الجيش منهمرا كالسيل ، والمسلمون ينالونهم بالرمي أيضا ، وقد قتل منهم واحد بالنبل ، وقتل من المسلمين خمسة ، أصيبوا فقتلوا ، والسادس كان هو سعد بن معاذ الصحابي الجليل الذي كان ثاني اثنين ذهبا الى بنى قريظة ، ورأوا خيانتهم للعهد في وقت الشديدة وسعد رضى الله عنه كان قد خرج الى الميدان بدرع غير سابغة ، فذراعاه كانتا عاريتين ، وأصابه سهم في أكحله ، أثبتته ، ولكنه دعا الله تعالى ألا يموت الا بعد أن يرى في بنى قريظة جزاء غدرهم فعاش رضى الله تعالى عنه ، حتى كان هو الحاكم فيهم ثم قبضه الله تعالى اليه راضيا مرضيا .

كانت المناوشة اذا بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمشركين ، اذ عجزوا عن أن يصلوا الى المؤمنين والخندق أمامهم ، والمؤمنون الصادقون من على واخوانه من ورائه ، ومعهم سيوف تبرق .

فلم يكن لهم الا الهجوم على بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أسفل المدينة ، وان ذلك كما يظهر من جانب قريظة ، فهو الجانب الذي يمكن أن يجيء الشوك الى المدينة من جانبه ، وان الظن أن بنى قريظة هم الذين قاموا به تايبدا لخلفائهم الذين نقضوا الميثاق من أجلهم ، وليشفوا غيظهم ، ولينالوا ثأر بنى النضير وبنى قينقاع من اخوانهم ، وان كان ما أصابهم انما هو بالاعتداء ونقض العهد ، وغدرهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

بالواحد ، قتله فارس الاسلام على بن أبى طالب ولننقل ما ذكر الله تعالى فى بيان ختام الواقعة ، ونكرر التلاوة اذ تلوناه من قبل :

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » •

قال تعالى فى اثناء وصف القصة ، وبيان نتائجها : « يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً » •

وبذلك انتهت معركة الأحزاب ، التى اهتزت لها الجزيرة العربية كلها ، وناوت بالويل والثبور وانها مقتلعة الاسلام من موطنه ، فباءوا بخسران مبین ، منهزمين فى الميدان ، ومضطربين فى نفوسهم ، وقد رأوا من آيات ربهم الكبرى ما رأوا •

فقد جاء فى كتاب منازى الواقدي لما ملت قريش كتب أبو سفيان كتاباً وبعثه مع أبى سلمة الحشنى ، جاء فيه :

باسمك اللهم ، فانى أحلف باللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت اليك فى جمعنا ، وانا لا نريد الا نعود اليك أبداً ، حتى نستأصلكم ، فرأيناك قد كرهت لقاءنا ، فجعلت مضايق وخنادق ، فليث شعري من علمك هذا ، فان نرجع عنكم ، فلکم منا يوم كيوم أحد تنتصر فيه النساء •

فكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

من محمد رسول الله الى أبى سفيان بن حرب • اما بعد فقد اثنى كتابك ، وقد غرك بالله الغرور •

واما ما ذكرت انك سرت الينا فى جمعكم ، وانك لا تريد ان تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعله لنا حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمنا الذى صنعنا من ذلك ، فان الله الهمنى ذلك ، لما أراد من غيظك ، وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم أكرس فيه اللات والعزى ، وأساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك •

نتائج غزوة الخندق

٤٧١ — كانت لهذه الغزوة نتائج طيبة :

(١) إذ رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وقد بذلوا أقصى ما يستطيعون فيها ، جمعوا العرب ليغزوا المدينة فما رجعوا الا بسنة من القتلى يقابلهم ثلاثة فيهم فارسهم وقد قتله فارس المسلمين على كرم الله وجهه .

وان أثر هذا أن ألقى اليأس في قلوبهم من أن ينالوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كانوا يستطيعوا أن يقوموا بمثل ما قاموا به ، فكان لسان حالهم يقول ، لا نستطيع لحمد سبيلا ، ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تغزوكم قريش بعد عامكم هذا . ولكنكم تغزونهم » ، ولقد أشار القرآن الكريم بذلك ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : « وكفى الله المؤمنين القتال » .

(ب) وان العرب الذين كانوا قد طمعوا في المؤمنين بعد غزوة أحد التي أشاع المشركون فيها أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصحبه قد هزموا ، قد استكانوا ، ولم يعودوا طامعين في نصر ، بل نأى بهم الخوف عن أن ينالوا منالا ، أو يدبروا أمرا ، فلا يفكروا في اعتداء أو غدر ، أو ممالأة ، وان ذلك اليأس قد يدفعهم الى التفكير فيما يدعو اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كثرت الذين يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخلين في الاسلام أفواجا وفرادى ، إذ أن الغواشي قد زالت ، ومن ذلك كانت وفود القبائل العربية يجيئون يتعرفون الاسلام .

(ج) وان الآيات المادية قد تؤثر في أولئك الماديين الحسيين ، وخصوصا اذا كانت في موطن الفزع ، فانها اذا جاءت من غير سبب يالفونه ويعرفونه ، فانها قد تأخذ عقولهم الى التفكير السليم وتخلعها من الوثنية ، إذ يدخل اليها نور الحق شيئا فشيئا ، والنور كلما دخل أشرق ، واذا أشرق اتجهوا الى الحق وطلبوه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

(د) وان اليهود قد ظهرت نياتهم لمراى العين ، وانكشفت وصار ما تخفيه صدورهم أمرا معروفا . فقد كانت هذه الشديدة ، التي ادلهمت مبينة ما يبئته اليهود للمؤمنين ، بل تكشفت الوجوه ولم تسترها همزة النفاق ، وصاروا وجها لوجه امام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

(هـ) وقد بينت وأقعة الخندق أن أهل الباطل جمعهم متفرق . فقد اجتمعوا ، ولكن سرعان ما اختلفت نوازعهم بين المشركين أنفسهم ، بما أبداه غطفان من الميل للصالح والعودة ، وبما كان بين المغيرين والقرظيين .

غزوة بنى قريظة

٤٧٢ هـ — ان هذه الغزوة احدى نتائج الفشل الذريع الذى منيت به غزوة قريش ومن معهم للمدينة ، وحيلولة الخندق بينهم وبين أن يدخلوها .

فان بنى قريظة قد ارتضوا نكث العهد . أو نقض الميثاق الذى كان بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد حاولوا أن ينقضوا على عورات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

لقد حسبوها فرصة للقضاء على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإن تكون المدينة لهم بدل أن يكونوا فى عهد معه وسلم وأمان ، ويكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

فقد مالوا وعاونوا ، وأقدموا على مهاجمة بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ولما رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، أدركوا أن الفرصة قد أفلتت من أيديهم وكانت عاقبة أمرهم خسرا .

أولئك المشركون رجعوا الى ديارهم ، ورضوا أن يثوبوا ، وعادوا الى ديارهم لا يغير عليهم مغير ، ولا يأخذ منهم أحد جزاء ما اقترفوا ، أما بنو قريظة ، فأنهم سيؤدون الحساب على ما ظاهروا عليه المشركين ، وعلى نقضهم العهد الموثق .

لذلك كله امتلأت قلوبهم رعبا ، وكانت النتيجة كما قال الله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضا لم تطلوها ، وكان الله على كل شىء قديرا » .

كان بين يدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم احد امور ثلاثة : اما ان يعفو عنهم ، ويتركهم آمنين فى ديارهم ، وهم بجوار المؤمنين الذين خانوهم ،

وان ذلك غير ممكن ؛ لأن العفو لا يكون الا لمن يرجى منه خير ، وكيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة .

واما ان يخرجهم من ديارهم كما أخرج بنى النضير من ديارهم ، ولكن لا تكون ثمة عدالة ؛ ولا مساواة بينهم وبين بنى النضير ، لأن بنى النضير نقضوا الميثاق بما دون ذلك ، ولأنهم لم يهاجموا بيوت النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أوتيت من فوقها ومن أسفل منها ، وأحييت بكتائبهم ، وكتائب الشرك ، فكانوا احدى الكوارث ، أو أشدها فاعلية بعد أن حال الخندق بين النبی صلى الله تعالى عليه وسلم .

هذان أمران ليس من المعقول تطبيق أحدهما أو هما ، وليس من العدل تطبيق الثانى . لم يبق إذن الا القتال ، وعندئذ تقول الحقيقة ويل للمخاضن المغلوب ، وانه اذا كان قتال ، فان نتيجه معروفة من قبل وقوعه ، انهم سيبادون عن آخرهم ، ويكون ذلك شقاء لقلوب المؤمنين الذين زاغت منهم الحناجر بسبب انضمامهم للمشركين .

أرادوا ان يخرجوا كما خرج بنو النضير ، فلم يرض النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعدم التساوى بين حالهم ، وحال بين النضير ، فاختر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم القتال بأمر ربه ولكنهم استسلموا .

أمر الله :

٧٣٣ — جاء أمر الله تعالى بأن يخرج النبی صلى الله تعالى عليه وسلم لقتال بنى قريظة ، فروى أن جبريل أمين الوحى جاء يقول للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد وضعت السلاح يا محمد ؟ قال نعم ، فقال جبريل ، فما وضعت الملائكة السلاح . ان الله عز وجل يأمر يا محمد بالمسير الى بنى قريظة .

سار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بنى قريظة بأمر الله ، وان منطق الحرب يدعو الى ذلك ، والحذر الذى أمر الله به يوجب ذلك .

أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستجيبا لأمر ربه فأذن فى الناس من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين الا فى بنى قريظة .

استعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة ابن أم مكتوم .

اعطى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الراية لعلى بن أبى طالب .

سار على رضى الله تعالى عنه ، حتى اذا دنا من حصونهم سمع منهم مقالة قبيحة فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكأنهم مستمرون على غيهم .

فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وظن الرسول أنهم قالوا فيه وعلى لا يريد أن يسمع منهم اذى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حصونهم ، وقال لهم : « يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته - قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

مضى اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اجتمع جيشه ، والراية مع على حتى نزل على بئر من آبارهم ؟

وكان من بين أصحابه من لم يصل العصر الا فى وقت العشاء ، لأنهم انتظروه الى العشاء ، وقد قال لا يصلين احد العصر الا فى بنى قريظة فينتظرونه حتى يصلى بهم العصر ، فصلوا العصر بها فى وقت العشاء فما عابهم صلى الله تعالى عليه وسلم .

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقتالهم ، وهو ما امر الله به ، وهو الأمر بالمعقول فى ذاته كما ذكرنا من قبل ، ولكنهم لم يخرجوا لقتال .

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وكان معهم فى حصن كعب بن أسد حى بن اخطب الذى حرضهم على نقض العهد ووعد كعبا أن يكون فى حصنه يصيبه ما يصيبه اذا لم يصيب المشركون من محمد شيئا ، فوفى بما وعد .

لما ايقنوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير تاركهم حتى ينجزهم القتال ، تقدم اليهم كعب بن أسد ، وقد راوا أنه لابد من الحرب ، خيرهم بين ثلاثة : أحدهما - الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال فى ذلك : نبايع الرجل ونصدقه فوالله لقد بين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه الذى تجسدونه فى كتابكم فتأمنون على أموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره .

والثانية أن يقاتلوا منفردين عن الأولاد والنساء بعد فشلهم ، فرفضوا •

والثالثة أن يصيبوا غرة من محمد يوم السبت إذ ربما لا يكون مستعدا لقاتلهم ، لأنه ليعلم أنهم لا يقاتلون يوم السبت •

رضوا أخيرا بالاستسلام ، ولكنهم لا يعرفون النتيجة ، فأرسلوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرسل اليهم أبا لبابة ، فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يشكون في وجهه ، فرق لذلك ؛ ولما سالوه أترى أن ننزل عن حكم محمد ، قال نعم ، وأشار بيده الى حلقه بآئنه الذبح ، قال أبو لبابة ، والله فما زالت قدماي عن مكانهما ، حتى عرفت اني قد خنت الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده ، وقال لا أبرح مكاني هذا ، حتى يتوب الله على بما صنعت وذلك هو الضمير المؤمن القوى ، وقد استبطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم علم امره •

ولنؤجل قصة أبي لبابة وتوبة الله تعالى عليه الى ما بعد ما آل اليه أمر بنى قريظة الذي استحقوه عدلا وصدقا - فقد غدروا ، ونقضوا الميثاق ، وحاولوا اثمين اذالة دولة الاسلام ، ولكن قضى الله أمرا كان مفعولا •

نزولهم على حكم سعد بن معاذ :

٤٧٤ — نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وقد كان من الأوس من يطمع في أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيجليهم عن المدينة ، كما فعل مع بنى قينقاع ، وبنى النضير ، مع تفاوت الجرائم التي وقعت من هؤلاء ، وأن الأولين لم يمالئوا على من جاءوا لاقتلاع الاسلام من المدينة كما فعل هؤلاء ، والأولون لم يكونوا مقاتلين ، بل كانوا غادرين ناقضين للميثاق فقط ، فكان المنطق الاكتفاء بجلائهم ، إذ لا يبقون من غير ميثاق محترم •

أما بنو قريظة فقد نقضوا وقاتلوا ، وهاجموا بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجب أن يعاملوا معاملة مقاتلين ، ويمثل ما عاملوا به المؤمنين ، ويمثل ما كان ينتظر أن يعاملوا به المؤمنين ، لو كان الأمر قد تم للأحزاب كما يريدون •

نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأوسى ، وقد جرى راكبا ، إذ لم يكن يستطيع السير للجرح الذي أصابه من السهم وأثبته ، بل أثخنه ، وبعض

قومه من الأوس قالوا له مشفقين على بنى قريظة : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما ولاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : « لقد آن بسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم » .

عندما قابل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سعدا ، التفت الى أصحابه ، وقال : قوموا الى سيدكم ، فقاموا اليه ، وقال الأنصار : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ١٠ ثم بعد كلام أصدر الحكم ، وهذا نصه :

انى أحكم فيكم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

هذا هو الحكم ، وقد أيده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : « ولقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات » ، نفذ فيهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حكم معاذ وأثبت قبل التنفيذ أنه حكم الله تعالى فيهم ، فقتل الرجال الا بعضا قليلا أعطاهم بعض الصحابة أمانا ليد سابقة قدموها لهم .

وقسم أموالهم غنيمة بين المسلمين ، وبها تبين تقسيم الغنائم ، وسبى النساء .

نظرة فى الحكم :

٧٥ — لا شك أن الحكم شديد ، ولكنه عادل ، والنظر لا من ناحية أنه عادل ، ولكن أما كان موضع للتخفيف ، ونقول فى ذلك .

انهم مقاتلون ، واستمرت لهم صفة المقاتلين الى آخر لحظة ، وعلى ابن أبى طالب ، عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون ، وقال رضى الله عنه ، وهو يهاجمهم : لأنوقن ما ذاق حمزة ، ولأفتحن حصنهم ، فلما رأوا العزيمة فى على ومعه الزبير ، وأنهم مغلوبون لا محالة ، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ منهم ارتضوا ما ينفذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم ، فهم الذين نفذوا الحكم فيهم اذ ارتضوا المحكم فيهم ، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه ، فقد فوض لهم ، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا ولقد حكم ، وهو الذى ذهب اليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه ردا نكرا ، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الاسلام ، وقتل أهله .

ولقد خضع المدبرون منهم لحكمه ، وأدركوا أنه بما قدمت أيديهم ، حتى
لقد روى أن حبيب بن أخطب عندما قدم للقصاص : قال لرسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم • والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكن من يخذل الله يخذله ،
ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر ،
وملحمة كتبها ، ثم تقدم لضرب عنقه •

وهكذا كانوا يحسون بأن ما نزل بهم قصاص ، وما للناس يقولون كان
على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن يشفق عليهم • ومع ذلك اذا لم يقتل
رجالهم ، فماذا يصنع معهم ، أيعفو عنهم ، ولو تمكنوا لقتلوه وقتلوا الاسلام ،
وشردوا أهل المدينة • ان العفو عن الجاني ظلم في ذاته ، أم يخرجهم من
أرضهم ويجردهم من أموالهم ، وذلك لا يخلو من عفو ، وقد قلنا انه في هذا
المقام ظلم ، ثم ماذا يكون اذا خرجوا ، وفيهم أكثر من سبعمائة مقاتل ،
الا يكونون حربا عليه ، ويتجمعوا يؤلبون يهود الجزيرة العربية ، ويكون
قد أشفق عليهم لينقضوا عليه ان واتتهم الفرصة ، كمن يشفق على اللصوص
ليجمعوا أمرهم ، ويستلبوه ما يعتز به ، ويأخذوا ما عنده •

انه لم يكن الا القتل ، كفاء ما صنعوا ، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا
وبما فعلوا ، قد يقال انهم قد صاروا أسرى ، والأسرى لا يقتلون ، ونقول
في الجواب عن ذلك :

ان المسلمين والتبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يشدوا الوثاق ، لأنهم
منهين عن ذلك بحكم آية الأسرى ان يقول سبحانه وتعالى : « ما كان للنبي
أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد
الأخرة والله عزيز حكيم » •

فما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشد الوثاق وهو لم يثخن
فيهم جراحا ، ولم ينل منهم نيلا ، بل انهم هم الذين ارتضوا حكما معينا ،
والقتال من جانب المسلمين قائم ، لم تعد السيوف الى أجفانها ولا القلوب الى
جنوبها •

بل ان قتالهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالتوهم لم ينته ، واذا كان
المشركون قد ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ففروا ، فأولئك قد بقوا ، وكان حقا
عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا •

وقد يقول قائل ان النبيين رحماء ، ونقول لهم ان العدالة رحمة
والقصاص حياة ، ورحمة الاسلام دفع الظلم ، واقلاعه من أساسه ، والنبي
صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة ، والله
سبحانه وتعالى عزيز حكيم •

أحكام شرعية

٤٧٦ — قد كانت أحكام شرعية خاصة بالصلاة قد ثبتت عمليا في غزوة الأحزاب وبنى قريظة ، كما كانت أحكام شرعية قد ثبتت في توزيع الغنائم بالنسبة لتقسيم أموال بنى قريظة ، ولعلها أكبر أموال وزعت من الغنائم الى هذا الوقت من الغزوان .

وبالنسبة للصلاة في غزوة الخندق عندما هوجمت بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخرت صلاة العصر ، الى ما بعد الغروب ، فجمع صلى الله تعالى عليه وسلم بين العصر والمغرب جمع تأخير .

وقد قال الذين اتبعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان عذر الحرب مسوغ للجمع ، وكثيرون من الفقهاء الذين اتبعوا ذلك جوزوا الجمع في كل عذر ، وتكون الصلاة المؤخرة أداء لا قضاء .

وفي غزوة بنى قريظة ، كان الجمع بين العصر والمغرب ، ذلك ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوتهم الى اللحاق ببنى قريظة قال الا لاتصلوا العصر الا في بنى قريظة ، فقال بعضهم عزم علينا الا نصل حتى نأتي بنى قريظة ، فانما نحن في عزيمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس علينا اثم ، وأخروا الى وقت المساء فجمعوا بين العصر والمغرب في وقت المغرب . وطائفة من الناس صلوا احتسابا .

ولم يلم أحدا من الطائفتين ، وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير ، ويدل أيضا على أن الخطأ مرفوع عنه الاثم ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، وكان ذلك استجابة لدعاء المؤمنين الذي حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى : « رينا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا ، رينا ولا تحمل علينا اصرأ كما حملته على الذين من قبلنا ، رينا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » ولا شك أن إحدى الطائفتين مخطئة فيما عملت ، ولكنها اجتهدت .

توزيع الغنائم :

٤٧٧ — كان ما استولى عليه في بنى النضير أموالا ثابتة ، وما غنم في الوقائع السابقة ؛ لم يكن كثيرا ، أما ما كان في غزوة بنى قريظة فكان

أموالا كثيرة بالنسبة لما سبقها ، وخصوصا فى الأموال المنقولة ، ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقا للنص القرآنى ، « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة ، وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

وقد قال ابن اسحاق فى ذلك ما نصه : قسم أموال بنى قريظة ونساءهم ، وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم فى ذلك سهمان الخيل وسهمان الرجال ، وأخرج منها الخمس (أى خمس الله ورسوله وذى القربى) وكان (من بعد الخمس) فى أربعة الأقسام ، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفارس سهمان ، ولغازسه سهم ، وللراجل من ليس له فارس سهم ، وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستا وثلاثين ، وكان أول فء وقع فيه السهمان ، وأخرج منهما الخمس ، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقعت المقاسم ، ومضت السنة فى المغازى .

ونقول ان هذا التقسيم لم يكن أول تقسيم بالأسهم ، فقد سبق أن اخترنا ما قرره الحافظ ابن كثير فى تاريخه أن آية « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة » قد نزلت قبل تقسيم أنفال بدر ، وأن على بن أبى طالب نالنى من خمسة راحلتين .

ولكن يظهر أن الجديد هو ما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يكون للفارس ثلاثة أسهم اثنان للفارس ، وواحد للفارس ، وأن لمن لا فارس له سهمان ، ولم يكن ذلك التقسيم فى أنفال بدر لأنه لم يكن فرسان غنمت ، بل كان هناك للمسلمين فارس واحد ، قيل إنها للزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه ، هذا ما يظهر لى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تنبيهات :

٤٧٨ — أولهما : أن أبا رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى كان من أشد اليهود تحريضا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو ممن جمع جموع قريش وغطفان ، وكان يحرضهم ، حتى كانت غزوة الأحزاب ، وكان ما كان من بنى قريظة ، ويظهر أنه لم يفعل ما فعل حبي بن أخطب من إقحام نفسه مع بنى قريظة لعهد له مع كعب بن أسد من أن يكون معه فى حصنه ان انتصروا أو هزموا .

ولكن عين الحق لا تغفل عن ذلك الذى حرض العناصر المعادية للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل أرض العرب ، وأنه على استعداد لمثلها ،

فكان الحذر الذى أمر الله به فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم يوجب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولاه قبل أن يعيد افساده وتحريضه لما بداه ، فأرسل اليه من المؤمنين من قتله فى حصنه الذى يقيم فيه بخير . »

الثانى : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يميز بين الرجال والصبيان فى بنى قريظة ، ليتبين من يستحق القتل ، ومن أعفى منه من الذرارى تنفيذا لحكم سعد بن معاذ رضى الله تبارك وتعالى عنه ، كان يميز بخروج شعر الفرج ، فمن نبت له ذلك الشعر قتل ، ومن لم ينبت له لا يقتل ، روى عن ابن عطية القرطى قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم وكنت غالما فوجدنى لم أنبت فخلوا سبيلى .

وروى مثله أهل السنن الأربعة عن طريق آخر .

الثالث : قوة الضمير فى أبى لبابة ، لقد سألته القرظيون أينزلون على حكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأشار الى عنقه بأنه الذبيح ، وما ان قالها ، حتى استيقظت النفس اللوامة ، وعلم أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان كشف أمرا لم يأذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بكشفه ، وما كان له ذلك ، لذلك انطلق هائما على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وارتبط بعمود من عمد المسجد ، وقال : لا أبرح مكانى هذا ، حتى يتوب الله على مما صدمت ، وعاهد الله تعالى ألا اطلأ أرض بنى قريظة أبدا ولا أرى فى بلد خنت فيه الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبدا .

ولما استبطأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلم أمره قال الرسول الكريم : أما والله لو جاعنى لا ستغفرت له ، فأما ان فعل ما فعل ، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله تعالى عليه وان التوبة النصوح تجب ما قبلها ، وعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوحى من ربه أنه تاب على أبى لبابة ، وأبلغ ذلك الى أم سلمة ، ان كان فى بيتها وأذن لها أن تبشره به ، ان قالت أفلا أبشره يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بلى ان شئت ، فقامت على باب حجرتها ، ونادت أبا لبابة فى المسجد فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله تعالى عليك ، فثار الناس ليطلقوه . فقال لا ، حتى يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يطلقنى ، فلما مر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه .

وقد أقام أبو لبابة رابطاً بنفسه بالجزع ست ليالٍ تأتيه امرأته في وقت كل صلاة ، فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجدع ، وقالوا إنه نزل فيه قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم » . إن الله غفور رحيم .

وهكذا حكم الضمير ، أو النفس اللوامة تحس بذنوبها للتوب ، وترجو المغفرة فتذل لله سبحانه وتعالى ، ولقد قال الصوفية « أن معصية ، أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة ، أورثت دلاً وافتخاراً » وكذلك كانت نفس أبي لبابة الذي ما كذب ، ولكنه ظن أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ أخبر بالحكم قبل صدوره ، وبالأمر قبل ظهوره .

رابعهما : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث بسبايا بنى قريظة الى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً ، وذلك ليكون منها قوة للمسلمين ، وأعداد للعدة لقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل » .

وقد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم من نسائهم ريحانة بنت عمرو إحدى نساء بنى قريظة لنفسه وأراد لها الاسلام فتعصت عنه ، وأبت أن تدخل في الاسلام ، زاعمة أنها تبقى على اليهودية ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكرهها ، ولم يصنع ما قد يكون أغراء مانعاً من اختيار سليم حر ، ولكنها جاءت اليه من بعد ذلك طائفة فأسلمت ، فسر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اسلامها ، وقد عرض عليها صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعتقها ، ثم يتزوج منها زواج الحرية المختارة ، فاختارت أن تستمر على رقها ، ليكون أسهل عليها ، إذ لا تتحمل واجبات الزوجية ، فلم تزل عنده الى أن توفي صلى الله تعالى عليه وسلم . ولم تذكر بين أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم .

٤٧٩ — وإن قصة سبى نساء بنى قريظة تدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أنشأ الرق على أعدائه في ميدان القتال ، لتكون المعاملة بالمثل ، إذ لو أسروا من المسلمين لاسترقوا ، والله تعالى يقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، وأعلموا أن الله مع المتقين » وأن المشركين كانوا يسترقون من غير قتال ، فقد ذكرنا أنهم أخذوا بعض المسلمين غداً ، وباعوهم في مكة المكرمة ، وسامهم أهل مكة المكرمة سوء العذاب ، فلا تثريب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أخذ من بنى قريظة سبايا ، وباعهن بخيل من نجد .

وان هذا يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للرق عامل بنى قريظة ، ومن وراءهم من المشركين بمثل ما كانوا يعاملون به المؤمنين ، حتى فى غير حرب ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عاملهم بالمثل فى حرب كان الاعتداء من جانبهم ، فهم اعتدوا مرتين ، الأولى بالخيانة وتتبع عورات المؤمنين ، والثانية بأنهم هم والمشركون كانوا يسترقون المؤمنين لو تمكنوا منهم ، وقد تمكن منهم القرشيون فباعوهم وعذبوهم ، كما ذكرنا فى يوم الرجيع .

الإيماء بالصلاة للضرورة

٤٨٠ — أجاز الإيماء بالصلاة للضرورة وفى حال المنازلة اذا خيف فوات الصلاة ، وقد أخرجنا الكلام فى هذا عن الكلام فى جمع الصلاتين جمع تأخير ، لأن هذا يتعلق برجل أراد أن يجمع الناس من عرفه ليغزوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة ، وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى ، وكان ذلك عقب غزوة بنى قريظة ، وقد تأكد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قد اعتزم الشر ، وأراد القتال ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل على حسم الشر قبل وقوعه ، فاذا كان رجل يجمع ويحرض ، وأخذ ينفذ ما شرع فيه يستأصله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن ينفذ شره ، لأن الحذر يوجب ذلك ، ولأنه ان يتركه جمع الجموع ، وكان القتل فى الجمع أكثر عددا من قتل واحد ، ولذلك كان يؤثر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجل على حرب مع رجال لحماية الأنفس من المحاربين ولو كانوا مشركين ، فعسى أن يخرج الله تعالى الكفر من قلوبهم ، ويستبدل به الايمان .

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى خالد بن سفيان عبد الله ابن أنيس وقال له : انه بلغنى أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزوني ، وهو يعرفه .

خرج ابن أنيس متوشحا سيفه ، فأقبل نحوه ، وخشى أن يكون بينهما مجاورة تشغله عن الصلاة ، والصلاة لا يسقط فرضها ، فصلى وهو يمشى ، يؤمىء بالركوع وبالسجود حتى لقيه ، فقال له خالد من الرجل ؟ قال رجل من العرب سمع بك وجمعك لهذا الرجل ، فجاءك لذلك ، قال أجل أنا فى ذلك ، وسار معه قليلا ، حتى استمكن منه فقتله .

ومن هذا نرى جواز الصلاة بالإيماء فى الحرب للضرورة ، اذ ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقر ما صنع فى عبادته فى الصلاة ، وأقر بما قام به من جهاد .

وان ذلك لا يعد القتل فيه بطريق الغدر أو الغيلة ، لأنه انتدب للقتال ، فيجب أن يتوقع أن ينزل به مثل ما يدبر ، ولأن قتله نجاة لكثيرين ، والضرر القليل يحتمل في سبيل دفع ضرر أكبر ، وان هذا يدل على أنه بعد غزوة الخندق كانت نفوس تحاول التمرد على حكم الواقع تزعم أنها تستطيع القضاء على المسلمين ، وقد صارت الدولة بأيديهم يغزون ، ولا يغزوهم أحد .

مدة غزوة الخندق

٨١ — وقد قطع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة الخندق ، وبنى قريظة بقية شوال ، وذى القعدة ويعضا من ذى الحجة .

وبعد الخندق وما تبعه تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان قائد الشر ، ثم تزوج بنت جحش .

ولقد كان من قبل تزوج سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت الصديق ، وتزوج بعد بدر حفصة بنت صاحبه ووزيره عمر بن الخطاب ، وتزوج بعد أحد أم سلمة ، ثم تزوج بعد غزوة بنى المصطلق جويرية بنت الحارث ، ثم من بعد خيبر صفية بنت حي بن أخطب .

ونترك الكلام في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام في باب خاص بذلك وأسبابه وحكمته .

زواج النبی صلی الله تعالى علیه وسلم

بإم المؤمنین زینب

٤٨٢ — نزل فی السورة التي تسمت باسم غزوة الأحزاب أمران ، تحريم التبنی ، وتطبيق التحريم فی زواج النبی صلی الله تعالى علیه وسلم بإم المؤمنین زینب بنت جحش ، ولذلك أوجبنا علی أنفسنا الكلام فی زواجها فی هذا المقام ، لأن هذا الزواج كان تطبيقاً لحکم شرعی ، وأعقب زواجها حکم شرعی ، فحق علينا بیان الأحوال التي أحاطت بزواجها .

نزل تحريم التبنی فی أول سورة الأحزاب ، اذ قال الله تبارک وتعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبین فی جوفه ، وما جعل أزواجکم الملائی تظاهرون منهن أمهاتکم ، وما جعل ادعیاءکم أبناءکم ، نلکم قولکم بأقواهم ، والله يقول الحق ، وهو یرى السبیل ، ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فأخوانکم فی الدين ، وموالیکم » .

كان ذلك تحريماً قاطعاً ، لا ريب فيه ، ولذلك جاز للرجل ان يتزوج امرأة من يتبناه لأنه ليس ابنه ، ووصف زوجة الابن التي يحرم الزواج منها بأن يكون ابنه من صلبه ، لا أن يكون ابناً بالادعاء ، ولذلك قال الله تعالى فی ذلك فی باب المحرمات « وحلاللناکم الذین من اصلاکم » .

ذلك لأن النبی صلی الله تعالى علیه وسلم ، یقرر حکم الاسلام بأن تكون الأسرة مترابطة بالأرحام لتكون قوية ، ولا يكون فیها دخیل ليس من رحمها ، ولا من صلبها ، ولا من دمها ، لأنه یفسدها ، ویحرم ذا الحقوق من حقوقه ، وینافی القاعدة المقررة فی القرآن بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فی کتاب الله » .

٤٨٣ — ولقد كان التبنی شائعاً فی المبلاد العربية مأخوذاً من القانون الروماني ، وقد ألحق النبی صلی الله تعالى علیه وسلم زید بن حارثة به بناء علی ذلك العرف المأخوذ من قانون الرومان ، وذلك قبل البعث المحمدي ، وقبل نزول الوحی علی النبی صلی الله تعالى علیه وسلم .

ذلك أن زیداً هذا كان عبداً للنبی صلی الله تعالى علیه وسلم ، فعثر علیه أهله عنده صلی الله تعالى علیه وسلم ، وأرادوا أن یقتدوا رقه بثمنه ، فقال

محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو لكم ان اختاركم ، فأرادوا أخذه ، فاختر
أن يبقى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأعقبه النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم ، وألحقه به قبل البعثة إكراما له ، كما كان العرف في البلاد
العربية ، ولم يعد ابن حارثة فكان ينادى زيد بن محمد •

وقد تزوجته القرشية زينب بنت جحش ، وهى نسيبة بين العرب ، على
أنه قرشى ، وأنه أعظم العرب وأوسطهم نسبا ، وهو من أنفسهم ، كما قال
الله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » على قراءة فتح الفاء •

فلما نزلت الآيات التى تلونها بتحريم التبني ، ونفى الأديعاء ، تملكت
بحياتها مع زيد أنه لم يعد ابن محمد ، بل أصبح الأمر الحقيقى فيه أنه
ابن حارثة •

شكا الزوج من تعالى زينب عليه بنسبها ، فكان النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم يقول له أمسك عليك زوجك • واتق الله •

وكان الله تعالى قد أمر نبيه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بالا يمنع
زيدا من طلاقها لأن الله تعالى قد قضى أمرا ، « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى
الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » •

قضى الله سبحانه أن يطلق زيد زينب ، وإذا انتهت العدة تزوجها النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر الله ، ليكون ذلك تطبيقا عمليا لمنع التبني ،
وليضرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك الأمثال على اهمال التبني
ونفيه نفيا مؤكدا بالعمل •

تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لأمر ربه ولكيلا يكون
حرج فى أزواج زوجات أديعائهم •

ولم يكن زواجه عليه الصلاة والسلام شهوة أو رغبة الا أن تكون استجابة
لأمر الله تعالى ، وكذبت الاسرائيليات التى أدخلت على كبار المؤرخين كابن
جرير الطبرى الذى تولى كبر اذاعة هذا الكذب الاسرائيلى والنصرانى وكذب
أوائك الكتاب الأوربيون الذين راحوا يروجونها آثمين ، وان كانوا لا يعرفون
الاثم ، وكذب الذين يقلدونهم تقليدا أعمى ، ويحتدون حذوهم كحذوك النعل
بالنعل •

٤٨٤ — وان الآيات فى هذا المقام صريحة بأمر الله تعالى بالزواج ،
وصريحة فى أن ذلك لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أديعائهم اذا قضوا

منهن وطرا ، وصريحة فى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليس أبا لأحد من رجالهم ، صريحة فى كل ذلك ، ومع ذلك كان التقليد وترويج الكذب لهما الأثر ، ففسد الفهم ، وكانت الآفة فى نفوسهم وفهمهم ، لا فى الوقائع ذاتها .

ولننل الآية ، وهى توضح الحقيقة . وتكذب الكذابين ، والذين أيف تفكيرهم بالكذب الرائج ، قال الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ، وإن تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ، والذى أخفاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو أمر الله تعالى له بالزواج منها بعد طلاقها ، وإن الله تعالى قدر له أن يطلقها ، وهذا هو الذى أبداه فلا حب ولا عشق ، والذى كان يخشاه من الناس أن يصدعهم بالزواج من امرأة دعيه ، وذلك أمر غير مألوف عندهم ، وكان يجب أن يخشى الله تعالى ولا يخشى الناس ، لأن أرضاء الناس بغير الحق لا يجوز من داعية الى الحق صادع به .

ثم يقول سبحانه وتعالى كلماته فى الأمر الذى أبداه « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » . ولقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الزواج بأمره سبحانه ، وأنه ليس على النبى من حرج فى تنفيذ أمر الله تعالى ، همس الناس ، أو صمتوا ، فقال تعالى كلماته : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا ، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » .

وبهذه النصوص ثبت تحريم التبنى ، وعدم الاعتراف به فى الاسلام ، وطبق ذلك على سيد الأنبياء والمرسلين والعف الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلعن الله الأفاكين فى هذا الزمان الذين لا يفكرون ، ويقصدون الى الأمر المختلف ، ولا يحاولون أن يتعرفوا المعنى المؤتلف .

منع دخول بيوت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير استئذان :

كان منزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيتا للمؤمنين أجمعين ، وخصوصا أنه كان على مقربة من المسجد ، بل أنه متصل به ، وكان أقرب البيوت اليه ، بيت عائشة رضى الله عنها .

٤٨٥ — ويظهر أن المسلمين ما كانوا يجدون حرجا في الدخول الى منزله عليه الصلاة والسلام ، والمؤمنون الذين أشربوا آداب الاسلام ، وهذب الاسلام طباعهم يستأذنون ، ولا يدخلون لغير موجب ، ولا يتخذون فيه مجلسا ، فلما كان ناس لم يتحلوا بهذا النوع من التهذيب الاسلامي ، كان لابد من بيان ينهي ، وقد كان ، وسمى علماء الحديث أن الآيات التي بينت ذلك النهي آيات نزول الحجاب ، بأن لا يدخل أحد الا باذن ، ولا يدخل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستأنسا لحديث •

ونزل ذلك الحجاب في ليلة زفاف زينب بنت جحش الصالحة المعتمنة بدينها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد روى عن أنس بن مالك أنه لما تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا وجلسوا يتحدثون ، فاذا هو يتهيأ للقيام فلم يتهيئوا ، فلما رأى ذلك قام فقاموا ، وقعد ثلاثة نفر ، وجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليدخل ، فاذا القوم جلوس ، ثم انهم قاموا ، فأخبرت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انهم انطلقوا •

٤٨٦ — روى الخبر ، البخاري ومسلم •

وخلصته كما ترى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أولم لهم بوليمة ، فلما طعموا لم ينتشروا ، فتهيأ للقيام فلم يقوموا ثم قام فعلا ، فقام من قام ، وبقي ثلاثة لم يشعروا بما ينبغي فبقوا ، فدخل صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله وهم جلوس ، ثم انطلقوا بعد •

وروى البخاري حديثا آخر في هذا المعنى عن أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه يثبت أن الدعوة كانت عامة واسعة ، يقول أنس : بنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بزينب بنت جحش ، فأرسلت على الطعام داعيا ، فيجيء قوم ، فيأكلون ويخرجون ويجيء القوم فيأكلون ويخرجون ، فدعوت حتى ما أجد أحدا ، ادعوه ، فقلت يأنبي الله ما أجد أحدا ادعوه ، قال ارفعوا طعامكم ، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت ، فخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانطلق الى حجرة عائشة فقال السلام عليكم أهل البيت ، ورحمة الله وبركاته ، قالت عليك السلام ورحمة الله وبركاته ، كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ، فتقرى حجر نسائه كلهن ، ويقول لهن ، كما يقول لعائشة ، ويقلن له ، كما قالت عائشة ، ثم رجع فاذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شديد الحياء ، والروايات متلاقية ، وإن كان في بعضها زيادة تفصيل •

٤٨٧ — كان هذا سببا مقاربا لنزول آية منع دخول بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ، واذا سالتهمون متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما ، ان تبدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما ، لا جناح عليهن فى آبائهن ولا آبائهن ولا اخوانهن ، ولا أبناء اخواتهن ، ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ، واثقين الله ، ان الله كان على كل شيء شهيدا » .

هذا تعليم من الله تعالى لقوم يحتاجون الى هذا التعليم وهو تهذيب وتأديب ، ليكون المجتمع مبنيا على مودة ورحمة ، والا يكون إيذاء نفسى ، يكتبته الحياء عند أهل الحياء .

وجوب الاستئذان عامة :

أوجب الاسلام بنص القرآن ألا يدخل أحد بيتا حتى يستأنس بأهله ويسلم عليهم ويستأذن منهم ، لتربية النفوس ، ولتكون الثقة كاملة بين الناس فلا يرتاب مرتاب ، ولا يشك شك ، وقد قال الله فى ذلك « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تستأنسوا ، وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو اذكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

٤٨٨ — وبين سبحانه حكم من يكونون فى داخل البيت من الخدم ، ومن ملكت ايمانهم ، فأوجب الاستئذان فى العشية ، وقبل صلاة الفجر ، ومن بعد الظهر ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين لكم الآيات ، والله عليم حكيم » . واذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ، والقواعد من النساء المالاتى لا يرجون نكاحا ، فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وان يستعففن خير لهن . والله سميع عليم » .

غزوة بنى لحيان

٤٨٩ — بنو لحيان هم الذين جاءوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يطلبون اليه أن يرسل اليهم من يعلمهم الاسلام ويحفظهم القرآن ، فأرسل اليهم ستة من أصحابه المؤمنين الفقهاء فى الاسلام ، وتبين أنهم أرادوا أن يقدموهم لقريش أسرى يسترقونهم ، فقتلوا بعضهم ، وباعوا الباقين بمكة المكرمة فعذبهم المشركون ، ثم قتلوهم أفجر قتلة ، اذ قتلوهم صلبا .

كان لابد أن يؤدبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على سوء ما فعلوا ، وليس ذلك انتقاما كما يتوهم من لا يستطيعون تمحيص الحقائق ، انما هو قصاص أولا ، ولابد أن يتولى القصاص ولي الذين قتلوا ، وليهم الله ورسوله المؤمنون . كما قال تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والمؤمنين آمنوا » .

ثم لابد من تأديبهم ، بانزال أشد النكال بهم ، لأنهم خدعوا فى أمر الدعوة ، فلابد أن ينزل بهم ما يكون فيه عبرة لغيرهم ، حتى لا يرتكبوا تلك الخديعة باسم الهداية .

بعد بنى قريظة أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة بقية ذى الحجة من سنة خمس ، والمحرم وصفر وشهر ربيع ، يعلم الناس أمر دينهم ، ويبلغ الدعوة ، ويتصل بالقبائل العربية داعيا مرشدا ، ويعلم شعار الاسلام ومبادئه لأصحابه الذين حملوا فقه الاسلام لمن بعده .

وفى جمادى الأولى خرج الى بنى لحيان يطالب بأصحاب الرجيع خبيب ابن عدى وأصحابه ، وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة .

ولقد ذكر البيهقى أن ذلك كان فى سنة أربع ، ولكن ابن اسحاق ذكر أنه كان فى سنة ست ، ونحن نختار ما اختاره ابن اسحاق ، فهو أوثق فى أخبار السيرة ، كما قال الشافعى رضى الله عنه : الناس فى السيرة عيال على محمد بن اسحاق .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع من أصحابه ، وأراد أن يصيب من الغنادرين غرة ، فخرج من المدينة الى طريق على الشام ، ليؤهم أولئك أنه يقصد غيرهم ، والحرب خدعة ، وبعد أن سار امدا عرج

على اليسار متجها الى مكة ، واغذ السير سريعا ، ليدركهم قبل أن ينتبهوا الى مقصده .

ولكنهم حذروا خوفا ، وقد أدركوا أن القوة قد آلت الى أهل الايمان بقيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتمنعوا في رموس الجبال . وعندئذ علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أخطأ من غرتهم ما أراد . فأتجه الى غسان في مائتي راكب من أصحابه حتى نزلها ، وأرسل اثنين من الفرسان يتعرفان النواحي .

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن سار في القبائل متعرفا داعيا ، مبينا شرع الله تعالى لمن يلقاه من أهل الصحراء قفل راجعا الى المدينة المنورة . وانه في هذه الرحلة المباركة ، وان لم يتمكن من تأديب الفجرة المخادرين على غدرهم وخيانتهم فقد تعرف البلاد على حالها والصحراء وقبائلها ، وهو يدعو الى دينه ، حيثما وجد سبيلا للدعوة وأرهب مع ذلك أهل الشر من القبائل العربية ، ونشر هبة الاسلام فيها مما جعلهم يفكرون في أمر هذا الدين الجديد الذي جاء بالحق والقسطاس ، ومعه القوة التي تحميها .

فالنبي لم يرجع من الغنيمة بالاياب ، بل رجع بالغنيمة الكبرى ، وهي نشر الدعوة ، ومعرفة الذين يدعوهم ويسط سلطان الله في الأرض العربية ، ليعمها الاسلام ، ثم يكون من بعد ذلك لمن وراءها من أرض الشام ، وغيرها .

غزوة ذي قرد

٤٩٠ — خرجت غطفان بعد الخندق محنقة ، لأنها طمعت فى صلح . ولم يعزمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بل كان مروضة لتخذيهم عن قريش ، وقد تم بعض ذلك ، عادت مع قريش مذبذومة مدحورة ، ولكن ما لم تستطعه بحرب أرادت أن تأخذه بالسلب والنهب والاغارة الجزئية ، والغصب ، ثم الفرار ، فصاروا كضطار العرب ، بل كلصوصهم ، يستوى فى ذلك من كان قائدا ، ومن كان مقودا .

أغار عيينة بن حصن الفزاري فى خيل من غطفان على نوق لقاح للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامراته . فقتلوا الرجل ، وساقوا المرأة مع اللقاح ، وكانوا بهذا كقطاع الطريق الذين يقومون بالسلب والنهب وراوا أن ذلك أتكى للمسلمين من أن يلتقوا معهم فى حرب تشتجر فيها السيوف ، وإن كان ذلك أبعد عن المروعة ، والخلق العربى الكريم .

كان بعض فرسان المؤمنين قد علم بأمرهم ، منهم سلمة بن الأكوع ، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس ، وقد أصبح يريد الغابة ، حتى إذا كانوا بثنية الوداع نظر الى بعض خيول المعتدين ، فصرخ واصباحاه ، ثم خرج يشتد فى آثار القوم ، وكان رجلا قويا مثل السبع ، حتى لحق القوم ، وأخذ يردهم بالنبل ، ويقول ، إذا رمى : خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع (أى اللثام) وكانوا من قوة الرمي يحاولون أن ينقضوا عليه ، فإذا وجهت خيلهم نحوه انطلق هاربا من لقائهم وجها لوجه ، ولكنه يعارضهم ليتمكن من الرمي ، فإذا رمى يقول : خذها وأنا ابن الأكوع ، ولما بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان من هؤلاء ، وسمع صياح ابن الأكوع . دعا الفرسان من المهاجرين والأنصار ، فكان أول فارس تقدم المقداد بن الأسود ، وتوالى من بعد ذلك الفرسان الذين يتبعونهم فارسا بعد فارس . وقد رأى رجلا من زرين اسمه أبو عياش ، معه فرس ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك ، فقال رضى الله عنه أنا أفرس الناس ، ولكنه ما جرى به خمسين ذراعا ، حتى طرحه أرضا . فتولى الفرس غيره ، وهكذا تولى الفرسان يلاحقون الفارين السالبيين .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع الفرسان ، وأقام على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه

من أصحابه ، واستنقذوا بعض اللقاح ، ولم ينقذوها كلها ، ولكنهم قتلوا من أدركوه من القوم ، واستمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سيره حتى نزل بالجبل من ذى قرد ، وتلاحق عليه الناس ، وأقام عليه يوما وليلة .

عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قسم على كل مائة رجل جزورا . وقد نجت امرأة الغفارى على ناقة من ابل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما شغل القوم بالفرار من فرسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكانت قد نذرت لله تعالى ان نجاها عليها ان تنحرها ، فقتسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما علم عزمها ، وقال بئسما جزيتها ان حملك الله عليها ونجاك بها ، ثم تنحرينها ، انه لا نذر فى معصية الله تعالى ، ولا فيما لا تملكين ، انما هى ناقة من ابلى ، فارجعى الى اهلك على بركة الله تعالى .

وقد روى حديث امرأة الغفار عن الحسن البصرى موقوفا .

وبذلك انتهت هذه الغزوة التى دفعت غارة من غارات الأعراب .

غزوة بنى المصطلق

٤٩١ — ذكر ابن اسحاق بسنده أنها كانت فى شعبان من سنة ست من الهجرة ، وروى أنها كانت فى شعبان سنة خمس ، وقال الواقدي فى تاريخه انها كانت بعد ليلتين من شعبان سنة خمس .

ولقد ذكر بعض الكاتبين فى عصرنا أنه يستحيل أن تكون فى سنة ست ، لأنه جاء فى عقبها حديث الافك ، وذكر كانت فيه مجاورة بين سعد بن عباد وسعد بن معاذ وملاحاة بينهما ، وسعد بن معاذ كان قد مات اثر جرح بعد قريظة سنة خمس .

وان هذه الملاحاة لم تكن بين ابن عباد وسعد بن معاذ ، وانما كانت بين أسيد بن حضير ، وسعد بن عباد ، وعلى ذلك لا دليل من حديث الافك على أنها كانت فى الخامسة .

وفى الحقيقة انا لانجد فى الروايات ترجيحاً بينها ، ونميل الى أنها كانت فى الخامسة ، وقبل الخندق غير ترجيح ولكن نأخذ بترتيب ابن اسحق ، ونضعها بعد الخندق ، لأننا نقبل أن نكون عيالا على ابن اسحاق ، كما قال الشافعى رضى الله تبارك وتعالى عنه : « الناس عيال فى السيرة على محمد ابن اسحق » .

علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن بنى المصطلق يجمعون الجموع له ، وهم من خزاعة ، وعلى منهاج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه اذا تأكد أن قوما يريدون الاغارة عليهم بأدرهم قبل أن يبادروهم ، فانه ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا .

أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة المنورة أبانذر الغفارى وخرج اليهم كما يقول الواقدي فى سبعمئة من أصحابه ، حتى التقى فى ماء عندهم يسمى المريسيع .

وكان لواء المهاجرين مع أبى بكر الصديق ، ولواء الأنصاف مع سعد ابن عباد ، وقيل كان لواء المهاجرين مع عمار بن ياسر .

وأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينادى فيهم فنادى أن قولوا لا اله الا الله تمنعوا وأموالكم فأبوا الا القتال .

فقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش المؤمنين فما أفلت منهم ، فقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم وسبى نساءهم .

وقد حدث في هذه الغزوة أن رجلا من المؤمنين اسمه هشام بن صبابه أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه مباح الدم من الأعداء .

كان ذلك القتل خطأ فكان له دية مسلمة الى أهله ، وقد وداه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فجاء أخوه مقيس بن صبابه من مكة المكرمة مظهرا الاسلام ، فطالب بالدية فأعطاه الرسول الدية ، وأقام مع المؤمنين حتى تمكن من قتل قاتل أخيه ، مع أن القتل كان خطأ ، ثم عاد مرتدا الى مكة المكرمة ، وبذلك ارتكب جريمتين : أما الجريمة الأولى فهي أنه قتل بعد أن أخذ الدية ، والقتل كان خطأ فلا قصاص وأخذ الثأر معتديا أثما .

والجريمة الثانية أنه ارتد بعد اسلام أظهره .

ولهاتين الجريمتين كان يستحق اباحة دمه واحداهما تسوغ قتله .

ولذلك أباح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دمه ، ولذلك كان من الذين أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم فتح مكة المكرمة دماءهم ، وأن تعلقوا بأستار الكعبة .

وأن هذا يدل على أن الردة توجب القتل ، ويصدق عليه قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » .

ودلالة اباحة دم مقيس هذا لقتله قاتل أخيه أو لردته ، ولذلك كانت الدلالة احتمالية من حيث تعيين السبب .

اخارة فتنة واطفاؤها :

٤٩٢ — في هذه الغزوة ثارت فتنة ، ولكن اطفأها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكمته .

ذلك أن الناس كانوا يردون الماء ، وفيهم أجير لعمر بن الخطاب يقال جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم أجير عمر هذا مع وسنان بن وبرة الجهي حليف بني عوف من الخزرج فاقتتلا ، فصاح الجهني يا معشر الأنصار وصاح أجير عمر يا معشر المهاجرين .

ولم يجب الأنصار صرخة حليفهم ، ولا المهاجرون صرخة أجيرهم ،
ولكن النفاق استغل ذلك لتكون تارة ثائرة •

غضب عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين مع رهط من رجاله ،
وكان في مجلسهم زيد بن أرقم ولم يكن منافقا بل كان مؤمنا •

قال ابن أبي بن سلول ، قد نافرونا ، وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا
وجلابيب قريش (أى المهاجرين) الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما
والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على
من حضره من قومه ، فقال لهم هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ،
وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير
دوركم •

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم وأبلغه الخبر بعد فراغه من غزوة عدوه وكان عنده عمر بن الخطاب
رضي الله عنه ، فقال له عمر : مر به عباد بن بشر فليقتله •

قال ذلك عمر بحمية الايمان ، ولكن رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، وهو الحلیم الذي يعالج النفوس والأموال قال : « فكيف يا عمر اذا
تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس •

فالعلاج ان لم يكن حاسما للفتنة ، فهو مانع من أن تتأجج نيرانها ، ذلك
أن الفتنة اذا عرضت للنفس ، وتبادلته الأقوال ، ورددتها الألسنة يكثر
القول الذي يلهبها ، واطفاؤها أو تخفيفها يمنع ترديدها ، وشغل الناس بغيرها •

فكان الأمر بالرحيل شغلا للناس عنها •

جاء عبد الله بن أبي بن سلول الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
ينفى ما نسب اليه ، لأن المنافق يستتر دائما ، ويمنع أن ينكشف ، فاذا بدا بعض
أمره حاول اعادته ستره •

قال ساترا كاذبا حالفا : ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به •

وكان في زعم قومه شريفا عظيما ، فقال بعض من حضر من الأنصار
من أصحابه حذبا على ابن أبي ، أو تخفيفا لوقع الأمر ، قال عسى أن تكون
الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل •

ومهما يكن من الأمر فقد عالج النبي الموقف بشغل الناس بالرحيل قبل ميقاته ، حتى لقد قال أسيد بن حضير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا نبي الله لقد رحت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فى مثلها .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو ما بلغك ما قاله صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يا رسول الله قال عبد الله بن أبى بن سلول . قال : وما قال قال زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فانت يا رسول الله والله تخرجه ان شئت هو وهو الذليل وأنت العزيز .

ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بذلك ، وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه ليرى أنك قد استلبت منه ملكا .

مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصار فى صدر ذلك اليوم الثانى حتى أذتهم الشمس .

ويقول فى تعليل ذلك ابن اسحاق : وانما فعل ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس .

انه عندما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أذتهم الشمس ، ومستهم جنوبهم الأرض حتى ناموا .

وفى النوم لم يذكر ما كان من خلاف ، ولم يحسوا الا بالتعب ، فشغلهم التعب الجسمى عن القلق النفسى ، فانطفت نار هذه الفتنة ، لتكون فتنة أشد ايداء ، وأبلغ تأثيرا ، وكانت أيضا من النفاق والمنافقين ، وشاعت نيرانها ، حتى شملت بعض المؤمنين من الأنصار ، وبعض المهاجرين من ذى القربى ممن أشدعت حولها الفتنة .

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما بلغه التنادى يا معشر المهاجرين ، ونادى الآخر يا معشر الأنصار ، قال النبي : دعوها فانه منتنة أى دعوى خبيثة جاهلية ، حتى تنبت بقدمها .

وعندما علم عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وقد كان مؤمنا قوى الايمان بما قال أبوه ، وما حرض به مشى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله انه قد بلغنى أنك تزيد قيل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرنى ، فأنا أحمل اليك رأسه . فوالله لقد علمت الخرز ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وأنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ،

فأسفل النار ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل ترفق به ، ونحس صحبته ما بقى معنا •

وكان لفعله أثر شديد فى نفس النبى وان كان قد عالج به ما كان فيه الوقاية من تفاقمها ، فقد كان لها أثر فى نفوس المؤمنين ، فكان قوم ابن أبى حريصين على منعه من أى فتنة ولو به على كل قول يكون منه بما يدل على قلبه ، فكانوا هم الذين يعاقبونه ، ويأخذونه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته • فقال عمر رضى الله تعالى عنه • مدعنا ، قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم بركة من أمرى •

هذا وقد أنزل الله تعالى جزءا من سورة المنافقين فى هذا الأمر ، فقد قال الله تعالى : « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون ، واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون ، واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، ان الله لا يهدى القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وبالله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لأن رجعا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل ، والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » •

هذا حكم الله تعالى على المنافقين ، وقد حكم الله تعالى بانهم لا يفقهون ولا يجزيهم استغفار الرسول لهم ، لأنهم عثوا فى كفرهم اذ الكفر من غير نفاق جهل وحمق وعناد ، ومبشئوه غالبا من عدم ادراكهم الحق ، فهم لا يدعون ، وتربيتهم قريبة اذا زالت غواشى الضلال والجهالة • أما النفاق فهو دركتان فى الكفر هو عناد وحقد من غير جهل ، ومحاولة لستر الحقائق وابعادهم ذرائع الايمان عن نفوسهم ، ومحاولتهم طمس الحقائق فى قلوبهم ، فطبع على قلوبهم ، ولذلك وصفهم الله سبحانه وتعالى بانهم لا يفقهون ، فلا يشق نور الحق قلوبهم المعتمة •

الأسرى والسبايا من بنى المصطلق :

٤٩٣ — أثخن المسلمون فى بنى المصطلق ، اذ لم تبق فيهم قوة يستطيعون أن يغيروا بها على المؤمنين فإنه قتل منهم من قتل ، وسبق الباقر أسرى وسبايا ، ولم يسترقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهائيا فقد شد الوثاق ابتداء ، وقيل انه وزعهم غنائم على المحاريين ، ولكنه أطلقهم فى النهاية ، ونرى انه تدرج فى معاملة الأسرى ، ونرجح بهذا المعنى أن غزوة بنى المصطلق كانت بعد غزوة قريظة ، ذلك انه فى غزوة قريظة قتل الرجال ، وسبى النساء ، وباعن فى نجد فى خيل اشتراها فى مقابلهن قوة للمسلمين .

أما فى هذه وهى غزوة بنى المصطلق فقد تصرف صلى الله تعالى عليه وسلم تصرفا حكيما أدى الى ألا يباع منهم أحد ، حتى بعد تقسيمهم بين الغانمين ، وألا يسبى منهم امرأة بعد تقسيمهم .

فان كتب السيرة تروى ما ثبت فى صحاح السنة ، وذلك أن الناس قسموا الرجال والنساء بينهم وأبقى رسول الله جويرية بنت الحارث التى صارت من بعد من أمهات المؤمنين ، ولنترك الكلمة لابن هشام الذى روى بعض الروايات ، فهو يقول :

يقال : لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث ، دفعها الى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها . وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن ضرار لفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر الى الأبل التى جاء بها للفداء ، فرغب فى بيعتين منها ، فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق ثم أتى الى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : « يا محمد ، أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « قاین البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا ، فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنتك يا محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك الا الله تعالى :

أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل الى البعيرين ، فجاء بهما الرسول ؛ فدفع الأبل الى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودفعت اليه ابنته جويرية ، فأسلمت ، وحسن اسلامها ، فخطبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وقد اعتق بعد ذلك كل من كان فى يده واحد منهم ، وقالوا أنسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

هذا ما قاله ابن هشام ، ولم يذكر الرواية التى اعتمد عليها ، وان كانت الصحاح تسمى الى ذلك ، وان لم تفصله ذلك التفصيل ، وهذا الخبر يدل على أن الرق لم يكتب على أم المؤمنين جويرية .

ولكن ابن اسحق روى عن أم المؤمنين ما يفيد أن رقا قد كتب عليها ، واليك ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها ، واليك ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة قالت : « لما قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس أو لابن عم له ، فكاتبت على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مألحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستعينة فى كتابتها . . . قد خانت ؟ فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت ابن قيس أو لابن عم له ، فكاتبت على نفسى ، فجئتك استعين على كتابتى قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « هل لك فى خير من ذلك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ قال اقضى عنك كتابتك واتزوجك ، قالت نعم يا رسول الله ، قال قد فعلت » .

وان الفارق بين الروایتين أن ما ذكره ابن هشام ، أن أباهما هو الذى زوجها من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه لم يجر الرق ان افتداها أبوها بالابل ، وذكر فيها الصداق ، وهو أربعمائة درهم ، أما رواية ابن اسحق فكتبت أن الرق قد كتب عليها ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دفع عنها ما كاتبت عليه .

ونحن نرى أن سياق ابن هشام أكثر انسجاما ، واتساقا مع أحكام الاسلام ، ان أن وليها هو الذى زوجها ، وذلك مبداً مقرر فى الاسلام ، ولم يجز للمرأة أن تعقد زواجها بنفسها الا أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وخالفه جمهور الفقهاء .

وفوق ذلك فى رواية ابن اسحق ما قد يكون علة فى الحديث ، ففيه انه نسب لعائشة رضى الله تعالى عنها وقد وصفتها بأنها امرأة حلوة مليحة : « فوالله ما ان رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت انه سيرى منها صلى الله تعالى عليه وسلم ما رأيته فدخلت ، وانا نرى أن هذه العبارة ، لا يليق أن تنسب لعائشة ، لمكانتها فى الاسلام ، ولا أن ينسب ما تضمنته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

• وكتب السنة لم تذكر ما ذكرته رواية ابن اسحاق •

ومهما كلف الأمر في هذه الروايات فإن زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ترتب عليه عتق قومها جميعا •

وانا نقول ان زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم منها كاف لأن يدع المسلمون ما بأيديهم من الأسرى والسبايا ، اذ عتق بزواجها رجال مائة دار من العرب ، وقد أسلم قومها ، ودخلوا في ظل الاسلام ، وكانت تجمع منهم الزكاة •

خطأ في الإدراك :

٩٤ — لما أسلموا صاروا في ظل الدولة الاسلامية وتابعين لحكم المدينة ، فأرسل اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوليد بن عتبة ابن أبي معيط ليجمع منهم الزكاة •

لما سمعوا به ركبوا اليه ، فظنهم مغيرين عليه فهابهم ، ويظهر أنهم كانوا يستقبلونه لا ليغيروا ولا ليثوروا ، ولا ليحاربوا •

عاد الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم ، فأثار بذلك ثائرة بعض المسلمين ، وكان منهم من أكثر في القول بغزوهم •

وما كان أساس الأمر الا سوء فهم للأمر ، فقد قدم وفدهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

قالوا يا رسول الله : سمعنا رسولك حين بعثته إلينا ، فخرجنا اليه لنكرمه ونؤدى اليه ما قبلنا من الصدقة ، فانشمر راجعا ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أننا خرجنا لنقتله ، ووالله ما جئنا لذلك •

والظاهر ان اساءة الفهم كانت منه ، وفرض أنهم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خوفا من غزو جرى على السنة بعض المؤمنين بعيد ، لأنه من الضروري حمل حال المؤمن على الصلاح ، ولذا قيل انه نزل في هذا الموضع قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بئنا فتعينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » والله أعلم بما تخفى الصدور •

حديث الأفك

٤٩٥ — اختصت غزوة بنى المصطلق بأن جاء فى أعقابها أمور تتبعها أحكام لسياسة الجماعة ، وإصلاح النفوس ومداواة مرضى القلوب .

فكان فيها معاملة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن وقعوا فى الأسر والسبى بعد أن أئخذ رسول الله صلى الله تعالى وسلم فى محاربيه ، وقد كان عمله يتجه الى المن بدل الفداء وقتل الرجال وسبى النساء ، وعمل الرسول سنة متبعة ، فهو لا يفرض الرق الا اذا كان يتوقع أن تكون بينه وبين أسر منهم حرب ، وقد كان يتوقع مع اليهود حربا قد يأسرون من المسلمين فيها ، فيسترقون ويسبون فعاملهم بما يتوقع أن يعاملوا بمثله ، والحرب بينه وبينهم لم تنته بعد ، ولم يئخذ فى قوتهم ، بل لا تزال لهم قوة مرهوبة ولم يكن يتوقع من بنى المصطلق من بعد ذلك حربا وكان فى أثنائها ، نفاق المنافقين الذين اتجهوا الى إشعال فتنة منتنة بين المهاجرين والأنصار وهم قوة الاسلام ، وقد عالج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالترفق بالمنافقين ، حتى ينكشف أمرهم ويلفظهم قومهم ، ويكون تاديبهم من أهليهم ، ثم لا يكون لنفاقهم قوة التأثير ، إذ لا يخدع بهم أحد من أهل الايمان ، وينالهم الضلال ، وبذلك بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يعامل المنافقون بتركهم ، حتى يزوى عودهم من ذات نفسه مع التحذير منهم .

والأمر الخطير فى ذات نفسه ، وكان فيه إيذاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ، وهو حديث الأفك ، الذى كان فى ذاته أثما عظيما ، وفى آثاره خطيرا فى المجتمع ، إذ من شأنه أن يشيع الفاحشة فى المجتمع ، ويدنس بظهور الرذيلة فيه ، وفوق ذلك فيه هجوم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه استهانة بمقام صاحب الرسالة الذى كرمه الله تعالى فى السموات وفى الأرض ، وقال الله تعالى فى شأنه « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

وقد اشترك فى هذا الحديث المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى الذى قالت فيه أم المؤمنين عائشة الطهور ، أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى .

وكان مع المنافقين زلل لبعض المهاجرين والأنصار ، فلم تنزه فيه السنة أهل الايمان من قبيل الاستهانة بالأخبار ، وقبولها من غير تمحيص ، ولا

الفتات لمغزاها وممراماها بل كان تشهيا للحديث مجردا من كل اعتبار ، فكان هذا من بعد تنبها ، الى وجوب العمل على حماية المجتمع من مروجات الشر ، ومن الخرص بالظنون • والاحتفاظ بكرامات البيوتات ، ولقد قال تعالى فى ذلك : « ان الذين جاءوا بالالفك عصابة منك ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم » •

والخير فيما شرف الله به بيت النبوة ، وفيما أعقبه من تطهير نفوس الذين خاضوا فيه باقامة الحد عليهم بجلدهم ثمانين جلدة ، ثم ما بين الله سبحانه وتعالى ان الاثم الذى اكتسبه بعض المهاجرين لا يمنع معونتهم من خير يسدى ، فحسبهم عقوبة الحد الزاجر •

٤٩٦ — ونذكر الآن حديث الافك ، كما جاء فى كتب السيرة وصحاح السنة •

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يختار من نسائه للسفر معه عندما يريد السفر بالقرعة ، فكانت القرعة فى غزوة بنى المصطلق على أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ، فخرجت معه فى هذه الغزوة وفى عودتها نزلت لحاجتها ، فتخلفت عن الركب ، ولنترك لابنة الصديق ذكر القصة ، وقد وافق ما جاء فى الصحيحين عن هذا الأمر •

قالت فى سفره عليه الصلاة والسلام لبتى المصطلق « فلما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من سفره ذلك جاء قافلا حتى اذا كان قريبا من المدينة ، نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ، ثم اذن مؤذن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس فخرجت لبعض حاجتى ؛ وفى عنقى عقد ••• فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل التمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل فرجعت الى مكانى الذى ذهبت اليه ، فالتمسته ، حتى وجدته •

وجاء القوم خلافاً للذين كانوا يرحلون الى البعير (أى أنهم ساقوا البعير الذى كان يقلها) وقد كانوا قد فرغوا من رحلته فأخذوا اليهودج ، وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه ، فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فرجعت الى المعسكر ، وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلفتت بجلبابى ، ثم اضطجعت مكانى ، وعرفت أنى لو افتقدت لرجع الناس الى ، فوالله انى لاضطجة ، ان مر بى صفوان بن المعطل السلمى ، وكان قد تخلف عن المعسكر لبعض حاجاته ، فلم يبيت مع الناس ، فرأى سوادى قاقبل. حتى وقف ، وكان يرانى قبل أن يضرب

الحجاب فلما رأى قال انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانا متلفة فى ثيابى ، قال فما خلفك يرحمك الله فما كلمته ثم قرب الى البعير فقال اركبى ، واستأخر منى ، فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى فقال أهل الافك ما قالوا ، وارتج العسكر ، والله ما أعلم بشيء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة » .

هذه عبارة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق تبين الواقعة ، كما هى ؛ وكما عاينت وشاهدت ، ولنتركها تذكر ما شاع ومن أشاع ، فهى تحكى الوقائع ، وتحكى خلجات نفسها المؤمنة الباكية وهى فى غضارة الصبا .

« فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة لا يبلغنى من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والى أبوى ، لا يذكرون منه قليلا ، ولا كثيرا ، الا انى قد أنكرت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعض لطفه بى ، وكنت اذا اشتكيت رحمنى ولطف بى ، فلم أزل فى شكوى ، فأنكرت ذلك منه ، كان اذا دخل على وعندي أمى تمرضنى ، قال كيف بنتكم لا يزيد على ذلك ، حتى وجدت فى نفسى فقلت يا رسول الله ، حين رأيته ما رأيته من جفائه لى : لو أذنت لى ، فانتقلت الى أمى فمرضتنى ، قال : لا عليك فانقلبت الى أمى ، ولا علم لى بشيء ، مما كان حتى نقيت من وجعى بعد بضعة وعشرين ليلة ٠٠٠ فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ابنة أبى رهرم بن عبد ، فوالله انها لتمشى اذ عثرت فى مرطها ، فقالت تعس مسطح ، قلت بنس لعمر والله ما قلت لرجل من المهاجرين ، وقد شهد بدرا !! قالت أو ما بلغك الخبر ، فاخبرتني بالذى كان من قول أهل الافك ، قلت أو قد كان هذا ؟ قالت نعم والله قد كان ، فوالله ما قدرت على قضاء حاجتى ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى ، حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي وقلت لأمى يغفر الله لك !! تحدث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكرى لى من ذلك شيئا !! قالت أى بنية خففى عليك الشأن ، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر ، الا كثرن وكثر الناس عليها .

قالت وقد قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخطبهم ، ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق . والله ما علمت عليهم الا خيرا ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه الا خيرا ، ولا يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى .

قالت أم المؤمنين عائشة وكان كبر ذلك عند عبدالله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح ، وحملة بنت جحش ، وذلك أن أختها

زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه يناصرني في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها ، فلم تقل الا خيرا ، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضارني لأختها فشقيت بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تلك المقالة قال أسيد ابن حضير يارسول الله ان يكونوا من الأوس نكفيهم ، وان يكونوا من اخواننا الخزرج ، فمرنا أمر ، فوالله انهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يرى رجلا صالحا ، فقال كذبت لعمرى الله ، ما تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة الا لأنك قد عرفت انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

فقال أسيد بن حضير ، كذبت لعمرى الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ، وتساور الناس ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر .

فدخل رسول الله على ، فدعا على بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأما أسامة فائنى خيرا ثم قال يارسول الله أهلك ، وما نعلم عنهم الا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وأما على فإنه قال يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر ان تستخلف وسل الجارية فانها ستصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة يسألها ، فقام اليها على فضربها ضربا شديدا (١) . ويقول أصدقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتقول (بريرة) والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة الا ائنى كنت أعجن عجينى ، فأمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله .

ثم دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار ، وأنا أبكى وهى تبكى ، فجلس ، فحمد الله تعالى ، وائنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ، انه قد بلغك من قول الناس فاتقى الله ، ان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس ، فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة عن

(١) أكثر الروايات لم تذكر الضرب ، وما كان لعل أن يضرب فى حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفسر السهيلي الضرب بالقول الشديد .

عباده ، فقلص السمع ، حتى ما أحس منه شيئاً • وانتظرت أبواى أن يجيبا
عنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يتكلما ، وأيم الله لأنا كنت
أحقر فى نفسى وأصغر شأننا من أن ينزل فى قرأنا يقرأ ، ويصلى به الناس ،
ولكنى كنت أرجو أن يرى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يكذب الله به عنى
لما يعلم من براءتى ، ويخبر خبرا ، وأما قرأنا ينزل فى ، فوالله لنفسى كانت
أحقر عندى من ذلك •

ولما لم أرى أبواى يتكلمان قلت لهما ألا تجيبان رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم ، فقالا فوالله لا ندرى بما نجيبه ، والله ما أعلم أهل بيت
دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام فلما استعجما على استعبرت
فبكيت ، فقلت لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ، والله انى لا أعلم أن أقررت بما
يقول الناس ، والله تعالى يعلم أنى منه بريئة لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا
أنكرت يقولون لا تصدقونى ، ثم التمسيت اسم يعقوب أنكره ، ولكن سأقول
كما قال أبو يوسف : « فصيبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » ، فوالله
ما برح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجلسه ، حتى تغشاه من الله
ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا
حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت ، وما باليت ، قد عرفت أنى
بريئة ، وأن الله تعالى غير ظالمى ، وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده
ماسرى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى ظننت لتخرجن
أنفسهما حزنا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وأنه ليتحدر عن وجه مثل الحمان –
فى يوم شات – فجعل بمسح العرق من وجهه ، ويقول أبشرى يا عائشة قد
أنزل الله عز وجل براءتك •

قلت : الحمد لله •

ثم خرج على الناس فخطبهم « وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن
الكريم ثم أمر بمسطح بن أثالة وحسان بن ثابت وحممة بنت جحش ممن
أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم •

٩٧} — ذكرنا القصة مع طولها ، كما جاءت على لسان المجنى عليها ،
وقد اخترنا تلك الرواية لما فيها من جمع لكل معانى الروايات ، لأنها تصور
نفس تلك الصبية الكريمة التى لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من سنها •

امتنح الله تعالى تلك الصبية الطاهرة لزوج أعظم رجل فى الوجود
الانسانى وأبنة صاحبة فى الغار ، وهى فى سن قريب من الطفولة ، امتنحت

أولاً - بأن تخلقت عن الركب ، وصارت فى أرض قفر وحدها ، فلم تصرخ ولم تولول ، بل فوضت مؤمنة أمرها لربها ، وتجلبت بجلبابها ، ونامت آمنة مطمئنة منتظرة أمر الله فيها عالمة أن الله لا يضيعها ، ويحيى رجل مكتمل عرف بالتقوى ، بل قيل أنه حضور ليس له فى النساء أرب فاسترجع عندما رآها ، وعجب أن يرى فى الليل ، وفى هذا المكان الموحش ، وهو يسترجع ويقول : ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينىخ لها البعير ، فتركبه من غير معونة أحد ، وليس معها مكان الرحيل بها وهو هودجها ، إذ أنه حمل على بعيرها ، زعم من رفعوه إليها أنها فيه ، لصغر ثقلها .

وإنها من بعد ذلك تستقبل المدينة بصخبها وجلبها ، ونفاق بعضها ، وفضول الأكثرين الذين لا يتركون الظن أو التظن ، وهو من الأثم ، كما قال الله تعالى : « ان بعض الظن اثم » .

وإذا ظنوا أشاعوا غير ناظرين الى عاقبة ، ولا الى اثر القول ، ولا الى موضوع القول ، ومكانة صاحبه فى أهلها وبعليها ، ومكان من يناله السوء من اشاعة ، ويندفع فى ترداده غير عالم له بحقيقة ، ولكنها ظن السوء المجرد وشهوة قول الفتنة ، والفضول الذى يسود بعض الناس ، وما أصدق قول الله تعالى فى وصف الذين خاضوا ، وهم الجماعات الانسانية قلوا أو كثروا ، وهو يقدم لهم أحسن الأدب ، وما يجب التحلى به عندما يقال القول من أحق ماقول ، أو من منافق مفتون ، يقول تعالت كلماته : « ان تلقونه بالسننكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا ان سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعبدوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين » .

نعم انهم تلقوه بالسننهم ، لا يعيونه ، وأخذوه من الألسنة المرددة ، لا من مصادر العلم المتيقنة ، وأشاعوه بالأفواه لتزجية القول فى المجالس ، والسمير الماجن الفاسد ، ويحسبون ذلك أمرا سهلا ، معتادا ، وهو عند الله تعالى أعظم الفرية ، وان المؤمن لا يتلقاه بالترويع والاشاعة انما يرده ، أو يبعدوا الفضول عن أنفسهم ، وأنه لا ينبغى ترداده ، بل رده ، لأنه بهتان عظيم .

وهنا وقد شاعت قالة السوء ، ورددها المهاجر والأنصارى والمنافق والمخلص فى غير تحر ولا احتراس عن لغو القول ، وبهتانه ، هنا نجد عظمة الرسول ، وإيمانه بأن الطيبين للطيبات وحسن ظنه بأهله . وقوة إيمانه النبوى وضبط نفسه ، وصبره ، فيقول شاكيا الناس الى الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت عليهم

الا خيرا ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا ، ولا يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى •

لام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرجال الذين اشاعوا القول الكاذب ، وتضمن قوله لوم الذين استمعوا اليهم •

ولقد كان ذلك انهاء لترداد القول ، لأن الذى نفى الخبر وكذبه هو صاحب الشأن ، وهم من علموه لا ينطق عن الهوى • فكان ذلك اطفاء للثائرة •

ولكن اذا كان ذلك القول من أخلاق النبوة فقد بقى حكم البشرية ، والبشرية لها سلطان لم تكذب ولم تصدق ، ولكن النفس ارتابت ، والارتياب ينساب فى النفوس اذا كانت له أسباب ولو بالظن الذى لا دليل على صدقه •

وهنا نجد التعليم العالى من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لمن يختبره الله تعالى بمثل تلك القالة الآثمة فهو لا يسارع الى أهله يبادرهم بالاتهام أو الايذاء ، أو غير ذلك مما يرتكبه ابن الانسان فى غضبه أو ريبه ، بل انه يتلقى ذلك بالصبر الكظيم الهادئ الذى يميل الى التبرئة ، ولا يميل الى الاتهام •

ولكن امرا لا يملكه وهو ألا يبدو عنه أثر للألم المكين ، وإن لم يظهر لعنا ولا سخطا ، بل انه لا يفكر فى أن يذكر لها الخبر ، حتى تتبرا ، فتكون الزوينة قد هدأت والسحابة العارضة قد تبددت ، ولكنها تعلم ، وقد كانت لا تعلم ، وقد كانت غافلة عما يجرى بين الناس من قول ، قد أطفأه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باعلان كذبه وبهتانه •

ولكن الصبية الطاهرة المؤمنة تعلم ، والقول يجرى بشأنها من الاثمين الذين لعنهم الله تعالى فى كتابه ، ان قال : « ان الذين يرمون المحصنات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » وأى ذنب أعظم اثما من رمى هذه المؤمنة الغافلة الوفية ابنة الصديق وزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمنطق العقل والايمان لا يصدق ، وبمنطق النفس البشرية يرتاب فاستشار خواصه ، فكلهم كذب ، وشدد فى التكذيب ، وهو يقول انك طيب لا يختار الله تعالى لك الا طيبا ، ونسب ذلك لعمر بن الخطاب الفاروق •

وقد سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من القريبيين من بيته ،
وهما أسامة بن زيد ، وعلى بن أبي طالب •

سأل أسامة ، فأثنى خيرا ، وكلامه فى أم المؤمنين عائشة يتفرق بيشر
الاطمئنان • وسأل عليا القاضى الذى قال فيه « أقضاكم على فأجاب أجابة قوية
لم يتهم ولم يكذب ، ولم يثن ، ولم يهاجم ، بل وقف كما يقولون موقفا محايدا •

وفى الحق ان ذلك هو السبيل لازالة الريب ، قال يا رسول الله ان النساء
لكثير ، وانك لقادر على أن تستخلف ، وان هذا لا شك ما كانت أم المؤمنين
ترضاه من على بطبيعة المرأة المحبة المخلصة المثالية ، وهو مهما يكن أثره فى
قلب أم المؤمنين يؤيد حياد على فى القضية ، وهو يجعله أقرب الى الاتباع ،
يقول على القاضى المحقق : سل الجارية فانها تصدقك أخذ التحقيق طريقه ،
فسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة ، فقالت ما أدخل الاطمئنان فى
قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأبتداً يزيح غشاء الشك •

قالت والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا ، الا ائى
كنت أعجن عجبنى ، فأمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله •

كان الاطمئنان وان لم يكن كاملا ، وخصوصا أن الوصف الذى وصفته
به هو من أسباب اشاعة قول السوء من الأفاكين الآثمين ، فاذا كانت غلبة النوم
الا تسببت فى أن تأكل الشاة عجبن بريرة ، فقد كانت غلبة النوم هى التى
فتحت باب الاتهام الآثم للأفاكين •

بعد أن استأنس النبي بدليل البراءة بعد أن برأها بإيمانه ، وبعد أن
علمت هى ، واجهها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى حيه فى الدنيا
والآخرة ، قال لها ما يدل على أنه غير خاف • ولا تارك له ، يا عائشة ، انه قد
كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول
الناس ، فتوبى الى الله • فان الله يقبل التوبة عن عباده •

لقد كانت تبكى ، فجف الدمع من قوله ، لأنها كانت ترجو فيه الرضا
بعد الجفوة ، ترجوه رضا مطلقا لا رضا معلقا ، وترجو الا يكون منه ، وهو
الحبيب الرسول المنفى المطلق فى مواجهته ، وتلفتت الصبية المؤمنة المحصنة
الطاهرة أن يجيب عنها أحد ، وقد قال أحب حبيب لها فى الوجود ما لا يقطع
بالنفى المطلق ، المثبت لبراءتها ، فلم يجب أبوها ، وكانت فى حيرة البرىء
الذى يجرى حوله الاتهام ، ويحيط بها من كل جانب ، رأت أنها ان كذبت
لا تصدق ، وان أثبتت كذبت •

فتركت أمرها لله تعالى ، لا ترجو سواه ، وما كانت تظن أنها بلغت مبلغ أن ينزل قرآن يتلى ويصلى به في براءتها ، وإنها تزعم أنها أصغر من ذلك ولكن مقامها عند الله كبير لأنها صبرت مطمئنة إلى حكم الله تعالى ، ورضيت بأن يكون وحده هو الذي يعلن براءتها ، فنزلت الآيات الكريمات المبررات بالدليل ، إذ قال تعالى :

« أن الذين جاءوا بالآفك عصابة منك ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الآثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا أن سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا آفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم • إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم • وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم ، ولولا أن سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا أن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم ، أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله رءوف رحيم ، يأبى الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم ، ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفووا وليصغفوا إلا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم • أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة • ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يؤمّنذ يوفيههم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم •

٩٨ — هذه حادثة الآفك والبهتان ، وننظر فيما تشير إليه الآيات الكريمات التي نزلت ببراءة الطاهرة الصادقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها •

تشير الآية الكريمة أولا إلى أن أكثر الشر في الجماعة يجيء من أمور يحسبها الناس أمورا هينة وليست هينة في ذاتها • بل هي أثم كبير ، كما أنها ليست هينة في آثارها لأنها تحل المجتمع وتشيع الفاحشة فيه ، وتهون الرذائل ويكون فيه رأى عام غير فاضل ، بل رأى عام فاسد ، ولا تفرخ الرذائل إلا في

رأى عام فاسد ، ولذلك شدد القرآن الكريم فى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليكون رأى عام فاضل يحث على الفضيلة ، ويدفع الرذيلة .

وتدل الآية ثانيا على أن الشهادة فى الفاحشة ، لا تكون الا بأربعة شهداء والا كان القول كاذبا عند الله تعالى مهما تكن مكانة القائل الاجتماعية ، ولذلك اقترن بهذه القالة الفاسدة حد القذف .

وتدل ثالثا على أن الظالم لا يظلم ولا يمنع من الخير مادام قد استوفى عقابه على ما ارتكب ، لقد كان أبو بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه يمد مسطحا وهو ذو قرابة به ، فلما خاض فى حديث الافك ، قطع عنه فنزل نهى الله تعالى عن ذلك فى قوله تعالى فى الآيات التى تلونها ، « ولا ياتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » الى آخر الآية الكريمة .

وتدل هذه على أمرين :

اولهما : أن الزكاة يجوز اعطاؤها للعصاة وقد أخطأ فى ذلك بعض الفقهاء ، فانها قد تمنعهم من كثير من الجرائم ، وقد تدنى قلوب العصاة ، فان الجفوة تولد الجرائم ، والعطاء يربط النفوس فلا تجفو ، وتحس بان عيشها مؤتلفة مع الجماعة أدنى الى الراحة .

ثانيهما : أن الاعطاء عند الجفوة يقرب ويمنع البعد ، وأن الصدقة تطفىء المعصية وتجلب الغفران ألا ترى الى قوله تعالى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم (ليس الواصل بالمكافئ ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة) .

وتدل رابعا على طهارة نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طهارة مطلقة لأن الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين ، فتلك سنة الله تعالى فى خلقه ولم تكن مخالفتها الا فى امرأة فرعون التى ذكرها القرآن بالخير ، وقد كانت مع شر خلق الله ، وكذلك فى امرأة نوح ولوط اللتين خانتا هذين الرسولين الطاهرين ، وقد قال تعالى فى ذلك : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين » .

ويقول تعالى قبل هاتين الآيتين ، « وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » •

فكان نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الطيبات •

الآثر النفسى من على كرم الله وجهه :

٤٩٩ — يبدو من سياق القصة كما روتها أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن كلام على رضى الله تعالى عليه لم يقع من نفسها موقع الرضا ، كما وقع كلام أسامة ، وكما وقع كلام الصحابة الذين قالوا خيرا •

وذلك لأن عليا كرم الله وجهه لم يكن فى كلامه ما يرضى ، ولكن كان فى كلامه ما يكون سبيلا لانتهاء الموضوع ، ولكيلا يشغل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بامر عارض •

وما كان يرضى كلام على عائشة ، لأنه لم يشهد بالبراءة كما شهد غيره ، ولعلها كانت ترى أنه أعلم ببراءتها أكثر من غيره من الصحابة ، ولأن له بالبيت الذى هى فيه صلة ، فشهادته تكون أقوى من شهادة غيره •

ولأنه قال كلاما لا يرضى من لها مكانة عائشة فى قلب النبي ، لأنه قال النساء غيرها كثيرات وأن له أن يستخلف غيرها •

وإذا كان ذلك لم يرض البريئة الطاهرة ، فانه كان السبيل الى سرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى التحقيق ، ووراء التحقيق كان الاطمئنان الابتدائى ، ثم كان وراءه الإبراء لها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم الإبراء لها من الله تعالى •

ولقد استرسل المؤرخون فى ذكر ما بينها وبين على كرم الله وجهه ، حتى جعلوه سبب الخروج عليه فى واقعة الجمل ، وقالوا ما قالوا فى ذلك •

ونحن نقول انه بلا ريب لم يرض على عاطفتها ، ولكنها فى ظنى ما أبغضته ، وان خالفته على كلام فى ذلك ، وان الدليل على أنها لم تبغضه أنه عندما نعى إليها ذهب الى قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت جئت أنعى اليك أحب أصحابك اليك ، جئت أنعى اليك صفيك المجتبى ، وحبيبك المرتضى ، على بن أبى طالب •

وما كان من شأنها أن تبيغض أحب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فرضى الله عنها وكرم الله وجهه .

حد القذف

• • • — احسب أن حد القذف قد شرع لهذه المناسبة التي شاعت فيها قاله السوء ، وحديث الافك ، لأن الآيات جاءت متصلا بعضها ببعض إذ أنه ذكر فيها نصاب الشهادة بالزنى ، وهو أربعة شهداء وأنه إذا لم يكن الشهداء الأربعة ، فإن الرامى بالزنى يكون كاذبا ، وهذا الحد هو جزاء الكذب ، وقد ذكر الله تعالى ذلك الحد فى قوله تعالى :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك ، وأصلحوا ، فإن الله غفور رحيم » • ونلاحظ أن الآية دلت على عقوبة أصلية مادية ، وهى ضربهم ثمانين جلدة ، وذكرت عقوبتين تابعتين معنويتين •

احدهما ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم كذبوا فى مقام يجب الاحتراس فيه ، ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم الكاذبون ، وحصرهم فى وصف الكذب فقال تعالى : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » ، وكيف تقبل شهادة من حصر فى الكذب بحكم الله تعالى ، ولذلك منع قبول شهادتهم أبديا ، فقال تعالى : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » •

الثانية من العقوبات التبعية وصفهم بالفسق ، وهذا الوصف يستمر إذا لم يتوبوا ، فالاستثناء بالتوبة إنما هو من وصف الفسق ، فلا يكون التائب توبة نصوحا فاسقا ، بل لا يكون مذنبا ، لأن التوبة تجب الذنوب ، كما قال تعالى : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » •

ولقد طبق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حد القذف على مسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، اخت أم المؤمنين زينب بنت جحش التى منعها دينها من أن تخوض فى حديث الافك مع أنها الضرة التى كانت تناصى عائشة رضى الله عنهما المنزلة عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قد نزل حد القذف من قبل •

وهنا يرد سؤال : ان الذين تحدثوا حديث الافك كانوا أكثر من ثلاثة ، فقد تناول القول به غير الثلاثة ، بل ان أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت

أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ، فلماذا لم يقم الحد ، الا على هؤلاء الثلاثة .

ونقول فى الجواب عن ذلك ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر ان هؤلاء قد صرحوا بالرمى ويظهر انه قام الدليل على أنهم تكلموا ، ولم يقم الدليل على غيرهم .

ولكن أم المؤمنين عائشة قالت ان الذى تولى كبره رأس المنافقين فكيف لا يحد ، وهو الآثم الأول .

ونقول فى الجواب عن ذلك انه بلا ريب هو الذى تولى كبر هذا ، بالتنبيه على ما يسهل على غيره الرمي ، من غير أن يصرح بالرمى ، ويدس الخبر فى الناس بلحن القول من غير تصريح ، فيحمل الناس على أن يتكلموا ، وهو لا يظهر الكلام الا بين خاصته الذين يشيعون الافك بتوجيه الأذهان اليه من غير أن يصرحوا ، فهم يوعزون بالقول ، ولا يظهرون ، ويدفعون غيرهم ، ولا يتكلمون ، وتلك حال المنافقين يستترون ولا يتكلمون ، وبذلك تتحقق فى غيرهم شروط اقامة الحد ، ولا تتحقق فيهم ، والله أعلم .

والقذف الرمي بالزنى ، سواء أكان رميا للرجل أو المرأة .

حد اللعان

٥٠١ — واللعان نزل عقب بيان حد القذف وقبل حديث الأفك ، وحد القذف سببه رمي الرجل أو المرأة بالزنى اذا لم يكن بينهما عقد زواج ، أى يكون المقدوف ليس زوجا للقاذف .

أما اللعان فانه يكون عندما يرمى الزوج زوجته ، واللعان أن يحلف الزوج الرامى أربع مرات أنه صادق فيما يرمى به زوجته من الزنى أو نفى الولد منه ، والخامسة أن لعنة الله تعالى عليه ان كان من الكاذبين ، فالحلف تضمن سلبا وإيجابا ، والإيجاب كان بالحلف على وقوعه ، والسلب كان بالحلف باستحقاق لعنة الله ان كان كاذبا .

وقد ثبت بقوله تعالى بعد آية حد القذف : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادت إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدرا عنها

العذاب أن تشهد أربع شهادات أنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها
أن كان من الصادقين » •

وكان اللعان إذا كانت الزوجية قائمة وقت الرمي بالزنى بأن تكون قائمة
حقيقة ، أو حكما بأن تكون في عدة الطلاق الرجعى •

واختص رمى الزوج لزوجته بالآ تكون شهادة أربعة ، لأنه لا سبيل لأن
يحضر أربعة يشهدون واقعة زنى زوجته ، ولأن الغيظ الذى يكون عليه الزوج
لا بد أن يطفأ ولو بالقول فى حضرة الحاكم •

ولقد جاء رجل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : يا رسول
الله ، ان الرجل يجد الرجل مع أهله ، وان قتله قتلتموه ، وان تكلم ضربتموه ،
وان سكنت ، سكنت على غيظ ، اللهم بين ، فنزلت آية اللعان مبينة كاشفة •

وانه اذا تم اللعان فرق بين الزوجين ، فرقة أبدية عند جمهور الفقهاء ،
وأجاز أبو حنيفة العودة اليها بعقد جديد ومهر جديد اذا كذب نفسه •

وقد قال بعض الناس فى أيامنا هذه هل يطبق حد اللعان اذا رمت المرأة
زوجها بالزنى ، ولم يكن عندها شهداء أربعة •

ونقول فى الجواب عن ذلك ان اللعان ورد بالنص فى حال ما اذا رمى
الزوج زوجته ، وكان تفصيله فى الحلف أربعة وهى ايجابية ، وواحد سلبى ،
أما المرأة ، فكان أربعة سلبية وواحد ايجابى •

ولا يمكن ثبوت الحدود الا بالنص ، اذ أنها تدرك بالشبهات ، فان النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « ادعوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » •

ولا يمكن أن نثبتته بالقياس ، لأن علة القياس غير ثابتة بقدر واحد فى
المقيس والمقيس عليه ، اذ أن المرأة وعاء النسل للرجل ، فمن حقه أن ينفى
نسب الولد اذا كان من غيره ، ولأن زنى المرأة أشد خطرا على الانساب من
زنى الرجل ، فليسا مشتركين فى علة التخفيف من القذف الى اللعان ، ولأن
المرأة فى بيت الرجل ، فالحكم منه بالزنى عليها قد يكون من غير حضور
شهداء ، يشهدون •

أما الرجل فالزنى منه فى أكثر الأحوال يكون خارج المنزل ، فعلمها به ،
أما أن يكون من غير بيئة ، بل بالحدس والتخمين أو باخبار الناس من غير

تعيين للمخبرين ، وذلك هو الغالب ، وأما أن يكون بمخبرين معينين ، وفي هذه الحال تثبت الرمي بالزنى ، ويكون حينئذ حد القذف ، وما يترتب عليه من عقوبات مادية وتبعية والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور .

حد الزنى

٥٠٢ — الآيات تتلى واليك آية حد الزنى ، وآية حد القذف ، وآيات الافك ، وهذا التوالى الكافى ينبىء عن أن يكون النزول فى وقت واحد أو متقارب ، ومناسبة واحدة .

ونشير فى هذا المقام الى أن الزنى وردت فيه آيات يبين بعضها بعضا ،

أولها : قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتياها منكم فاذوهما فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان قوابا رحيمًا » .

فهاتان الآيتان تفيدان أن ثمة عقوبة تخص المرأة ، وأخرى تعم الرجل والمرأة ، فأما التى تخص المرأة ، فامسكها فى البيوت حتى تموت أو يجعل الله تعالى لها سبيلا بالزواج ، كما هو الظاهر الواضح .

وأما التى تعم الرجل والمرأة ، فهو الايذاء ، وقد جاءت السنة بعقوبة للرجل تقابل عقوبة المرأة التى تخصها ، وهو التغريب سنة ، وهذا يقابل الامسك فى البيوت .

والايذاء لهما تبينته آية النور ، ولم تكن ناسخة ، كما جاء على أقلام كثيرين من الكتاب ، لأن النسخ لا يصار اليه الا اذا تعذر التوفيق بين النصين ، والجمع هنا ممكن ، وهو واجب ، لأن كل آية تتمم الأخرى أو تبينها ، كما فى الآيات الواردة فى عقوبة الزنى .

والايذاء المبين فى سورة النور هو قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزانى لا ينكح الزانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » .

وجاءت بعد ذلك آيات حد القذف ، ثم آيات اللعان ثم حديث الافك والبهتان الذى يصور جريمة الرمى بالزنى ، وأنها تشيع الفاحشة فى الدين ، وتفسد الجماعة ، وتجعلها تعيش فى مجتمع معتم بالرديلة ، والاستهانة بها .

ويجب التنبيه هنا الى أمرين - أحدهما - أننا لا نقول جازمين ان هذه الآيات المتعلقة بهذه الحدود ، قد نزلت كلها عقب غزوة بنى المصطلق أو فى اثنائها ، أو عند حديث الافك ، والذى يغلب علينا أن حد القذف والزنى قد نزل قبلها بقليل أو بكثير كما أشرنا ، ولذلك طبق حد القذف على الذين ارتكبوا ذلك الاثم ، ولا يقال انه قد طبقت عليهم عقوبة ، لم تكن ثابتة وقت ارتكابهم ما حقت عليهم بسببها ، وان العقوبات تطبق على الحوادث اللاحقة ولا تطبق على الحوادث السابقة ، كما يقرر علماء القانون الوضعى ، وان كان فى ذلك القول نظر يوجب تمحيصه .

التنبيه الثانى : أن العقوبات فى الاسلام تسير سيرا ضروريا مع منازل المرتكبين ، فتكبر العقوبة مع كبر المجرم ، وتصغر مع صغره ، لأن الجريمة مهانة ، والمهانة تهون على الصغير ، لأن نفسه مهينة فى نظره ، والمهانة من ذى المنزلة أمر كبير .

ولذلك جعل الاسلام العقوبة المقدرة على العبد نصفها اذا وقعت الجريمة من الحر ، وقد قال تعالى فى شأن الاماء ، فاذا احصن ، فإن اثنين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، فاذا كانت الحرة اذا زنت تجلد مائة ، فإنه اذا زنت الأمة تجلد خمسين .

وكذلك الأمر بالنسبة للعبد ، وكذلك الأمر بالنسبة لكل الحدود ، لا فرق بين حد واحد ، وكل ذلك فى العقوبات القابلة للتنصيف .

ولقد أجمع الفقهاء على أنه يجب تخفيف ما على العبد بعد تنصيفه ، فيكون السوط الذى يجلد به العبد أخف من سوط الحر .

الحديثية

٥٠٣ — انتشر الاسلام فى الصحراء العربية ، تبعه من تبعه ، وعلم بأمره الكثيرون ، وكان من الأعراب مؤمنون كما كان منهم مسلمون ، أعلنوا اسلامهم ، وان لم تؤمن قلوبهم ، وكان منهم من استمر على شركه ، ولكن صار فى المسلمين قوة ولهم هيبة تجعل الذين بقوا على شركهم ينظرون الى الدعوة للتوحيد ، والايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أنها ذات

مكانة جعلتهم يفكرون ويقدرّون ، ولا يكتفون بالرد بآدى الرأى ، والانكار المطلق من غير تفكير ولا تدبير .

والقول الجملى أن الريب دخل قلوبهم من ناحية عبادة الأوثان ، وهم يعلمون الله تعالى بذاته وصفاته ، ولا شك أن ريبهم فى أوثانهم هو الطريق لأن يدخلوا فى دين الفطرة مؤمنين آمنين ، صارت الدعوة الإسلامية تملاً الآفاق ، ولم يعد أحد من الأعراب أو من لف لفهم يفكر فى غزو المدينة فهى محروسة بحراسة الله تعالى ، مصونة بكلمة الله تعالى .

فاذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد آمن غزو الأعراب ، أو أن يدخلوا فى أخلاف مع أعدائه ، فقد أن له أن يتجه الى قريش الذين يناصبونه العداوة ، لا ليقاتلهم ، فهو لا يقاتل الا دفاعاً ، كما رأينا فى سراياه وغزواته السابقة .

ولكن قريشا تعاديه والحرم المكى الشريف تحت سلطانها ، فلا بد أن يفرغ من عداوتها ، تمكيناً للدعوة ، وتعبيداً للسبيل الى الحج ، الذى هو نسل من نسل الاسلام ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يريد التفرغ لليهود الذين تجمعوا فى خيبر ، وهم وحدهم الذين يريدون الانقضاض على المدينة ، زاعمين أنها ديارهم أخرجهم منها ، وقتل من قتل منهم .

فكان لابد أن يعرف أمر قريش ، وأن يعرف أهم يسهلون له أداء فريضة الحج ، بقية ديانة ابراهيم فى أرض العرب ، أم أنهم يقفون فى سبيله كما وقفوا دائماً لابد أن يقرن النية بالعمل ، فذهب ليحج ، وكانت موقعة الحديبية التى سماها الله تعالى فتحاً مبيناً ، لأنها أزالّت الحواجز النفسية التى كانت تحاجز بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، والتقى بهم الأمين الحبيب الذى عرفوه فى صباه ، وشبابه ، وزالت المحاذرات بسبب الخلاف والنفور ، والحرب .

غزوة الحديبية :

٤٠ هـ — فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة النبوية ، كما تطابقت كل الروايات ، وهى من أشهر الحج اعتزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من أصحابه الحج ، وكان معه سبعمائة ، ولكن قال جابر بن عبد الله ، كان معه أربع عشرة مائة أى نحو ١٤٠٠ وهذا معقول ، فقد كان جيشه صلى الله تعالى عليه وسلم مرهباً لقريش ، وما كان يرهباها ما دون الألف ، ولقد ذكر

ذلك العدد ، وهو ١٤٠٠ (أربعمائة وألف) البخارى وغيره ، ورقم السبعمائة لابن اسحاق .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم لا يريدون حربا ، بل يريدون حجا جامعا ، ولكنه ما ان وصل الى عسفان حتى لقيته بشر بن سفيان الكعبي ، ويظهر ان قريشا قد علمت او ظنت خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهى الحذرة المتحفزة .

قال بشر بن سفيان : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر . وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم ابدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموا الى كراع النميم .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرحيم بقومه راجيا الاسلام فيهم ، وان حاربوه ، ياويح قريش قد اكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان اصابونى كان ذلك الذى ارادوا ، وان اظهرنى الله تعالى عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ، فوالله لا ازال اجاهد ، على هذا الذى بعثنى الله به ، حتى يظهره ، او تنفرد هذه السالفة .

بعد هذا لم يرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان يلقى مقاتليهم ، حتى لا يسبق السيف الرأى ، وهو يريد ان يحج ، ولا يريد ان يرغمهم ، بل يريدهم مختارين ، لان الاختيار يؤلف ، والقتال ينفّر ، والاجبار بالسيف يرمض النفس ، ويكلمها ، ولا يريد عليه السلام كلما ، بل يريد شفاء للقلوب من غيظها .

ندب رجلا يخرج بالمسلمين الى طريق غير طريقهم فسار فى طريق وعث ، حتى وصل ثنية المراد مهبط الحديبية من اسفل مكة .

ولما رأت خيل قريش كروا راجعين ليكونوا بمكة المكرمة والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيش الى ثنية المراد . بركت ناقتة ، وكان الله تعالى قد اختار له هذا المكان ، فلما بركت الناقة قال الناس خلأت فقال عليه السلام « (ما خلأت) وما هولها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألونى فيها صلة الرحم الا اعطيهم اياها » قال ذلك لانه جاء وهو المهادى الداعى الى الحق ليقرب نفوسهم بعد الحرب التى شنوها ، ومكنه الله تعالى منهم .

قال لجيشه انزلوا ، فقالوا ما بالوادي ماء ، ولم يكن به ماء ، ولكن قلب مرطومة ، فأعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سهمه رجلا من رجاله ، فنزل به في قلب من تلك القلب وغرز فيه السهم ، فجاس النبي للرواء حتى شرب الناس .

المراسلة بين الفريقين :

• ه • ه — كان مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيش قوى ، ولم تكن مكة على استعداد للحرب ، ولو أراد أن يدكها بجيشه دكا لفعل ، ولكنه أتى للحج ، وليطفيء حربا ، ويبررحما ، ويزيل نفرة ، وليذهب بوحشة الحروب التي خلفتها .

ولذلك أعلن المسألة وإرادة الحج من غير أن يقهرهم أو يذلهم .

جاء اليه بديل بن ورقاء مع رجال من خزاعة فكلموه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه ما الذي جاء به ، فأخبرهم رسول الله تعالى عليه وسلم أنه ما جاء يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته . وقال ما قاله من قبل لغيره .

رجعوا الى قريش ، فقالوا لهم : يا معشر قريش ، انكم تعجلون على محمد وإن محمدا لم يأت لقتال ، إنما جاء زائرا لهذا البيت ، فاتهموهم وجابوهم وقالوا وإن جاء لا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك العرب ، ولكنهم مع هذه العنجهية لم يزيلوا ما بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرسلوا له مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر ابن لؤي ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه مقبلا ، هذا رجل غادر ، وقد كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه ما جاء للقتال ، ولكن لزيارة البيت .

ومع أن قريشا لا تريد حتى زيارة البيت أرسلت بحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحباش الذي كانوا يعينونهم في القتال فلما رآه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال عليه السلام : أنه من قوم يتألهون — أي يدعونون — لظاهر العبادة (فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى بسيل عليه من عرض الوادي من قلائد أشعرت بأنه هدى للحج ، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله .

اكتفى حليس بالنظر الى الهدى عن المصادئة ، فرجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اعظاما لما رأى حديثهم بما رأى فقالوا له اجلس فانما انت اعرابي لا علم لك •

غضب الحليس عند ذلك ، وقال :

يا معشر قريش ، والله ما على هذا خالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أقصد عن بيت الله تعالى من بعد ما جاء معظما له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لاتفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد •

فقالوا لحليس مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به •

مازالوا طامعين فى أن يكون لهم من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرضيهم من غير أن يقاتلوه ، فأرسلوا اليه عروة بن مسعود الثقفى ، وقد ذكر لقريش أنه منهم بمنزلة الولد ، لأن أمه كانت من بنت عبد شمس ، وقد ذكر من جاء اليهم بعد لقائه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم لقوه بالتعنيف وسوء الحظ كما قالوا لبديل الخزاعى ، وكما قالوا للحليس سيد الأحباش ، تبين أن صلتهم به وثيقة ، وأنه سيكون أمينا فى رسالته مع رغبتهم فى نصرتهم ، وقال فى ذلك « قد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتك حتى أسيتكم بنفسى ، قالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم •

خرج مسعود هذا ، وقد اطمأن الى ثقفتهم به ، حتى أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال جمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم الى بيضتك لنقضها (أى يكسرها لهم) ، أنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل (١) قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ، والله الكافى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا •

وكان أبو بكر رضى الله عنه خلف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له أنحن ننكشف عنه •

ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يكلمه مما يدل على جراته وصلفه وخشونته وعيئه •

(١) العوذ المطافيل ، النوق التى معها أولادها ، والعوذ جمع عائذ ، وهى هنا الناقة أى الناقة ذات الأطفال •

وكان المغيرة بن شعبية واقفا على رأس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالحديد ، فكلما مد يده الى احية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقرع يده ، ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الا تصل اليك اى تقطع فلا تصل اليك •

قال عروة الغليظ الجافى للمغيرة بن شعبية ما افظك ، وما اغلظك ؟ فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو مما كلم به من سبقوه الا تصل اليك — اى تقطع — فلا تصل اليك •

قام عروة بن مسعود الثقفى من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، وعاد الى قريش يقول لهم •

« يا معشر قريش ، انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط ، مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رايتكم •

كان كل الرسل الذين يرسلونهم يؤكدون لهم أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء لقتال ، بل جاء حاجا ، ويريد أن يصل الرحم التى قطعوها •

غدر وعفو :

٦ • ٥ — غدر من جانب قريش ، وعفو من جانب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه فى الوقت الذى تأكد لهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء مقاتلا ، لأنه جاء محرما وساق الهدى ، ولأنه فى الشهر الحرام ، ولأنه جاء يطلب المودة ، ولا مودة فى قتال ، فى هذا الوقت فكرت قريش فى الاعتداء ، فانه روى عن ابن عباس أنهم بعثوا أربعين أو خمسين رجلا منهم ، وأمرهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليصيبوا من أصحابه أحدا •

فأخذ أولئك أخذا ، وسيقوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا قد رموا المعسكر بالحجارة والنبل ، وكان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذهم رهائن أو نحو ذلك ، ولكن الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم قد عفا عنهم •

رسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

٥٠٧ هـ — كانت الرسل يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قبلهم ، ومنهم من ينقل الأمر كما هو ، وربما كان منهم من يحرف في القول ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد أن يوجه الخطاب اليهم يرسل يرسله اليهم ، يتعرف أحوالهم وما تطويه نفوسهم ، وما يقدر عليه ويفعله من بعد ذلك يكون عن بينة •

اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الفاروق عمر بن الخطاب ، وهو نعم الرسول ، وقد كان في الجاهلية يقوم ببعض أعمال السفارة بين القبائل ، وبين العرب وغيرهم ، ولكن عمر ببطشه وقوته على الشرك ، كان يعمل حساب لقائه معهم ، وقد يجسونه ، فلا يؤدي حق السفارة التي اختاره لها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال غير راد لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يعرض الأمر عليه ، قال : يا رسول الله ، انى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداواتى اياها ، وغلظتى عليها ولكن أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عثمان ابن عفان ، فبعثه الى أشراف قريش ، وأبى سفيان ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة •

ذهب عثمان الى مكة المكرمة للقيام بهذه السفارة ، وهو الرجل الذى لا عنف فيه ، وهو أموى له عصبية من بنى أمية تمنعه وتجيده •

وقد التقى أول ما التقى بأبان بن سعيد بن العاص الأموى حين دخل مكة المكرمة أو قبل أن يدخلها ، وهو فى طريقه اليها ، فلقى لقاء المحبة بسبب الرحم ، ولأن عثمان رضى الله عنه كان رفيقا ودودا ، وحمله بين يديه ، وأجاره ، بأن جعله فى جواره ، وذلك يوجب عليه حمايته ، واستمر فى جواره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

انطلق عثمان ، حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسلمها اليهم ، وأنه ما جاء للقتال ، وإنما جاء زائرا للبيت معظما لحرمة •

وقد قبلوا كلامه من غير استنكار ولا رد ، ورحبوا بعثمان رضى الله عنه ، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت آمنا مطمئنا •

ولكن عثمان أبى أن يطوف ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غير ممكن من الطواف ، فقال ذو النورين النقى عثمان : ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وبذلك أدى عثمان رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم استبقوه ، لا ليؤذوه ، ولعل ذلك لاستشارته أو الاستفسار منه ، أو ودا ومحبة ، أو حفاوة وتكريما .

وعندئذ راجت الأقوال بين المسلمين بأن عثمان قتل ، وتبلبلت الأفكار واضطربت النفوس ووجدت عزمة القتال ، ولم يكن مرادا ابتداء ولا مقصودا .

بيعة الرضوان

٥٠٨ — خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من المدينة يريدون الحج ولم يريدوا قتالا ، ولما غاب عثمان رضى الله عنه فى مكة المكرمة ، وشاعت القالة بأنه رضى الله تعالى عنه قد قتل ، ولم يكن ذلك بعيد الاحتمال ، أخذ أهبة للقتال لأن الاعتداء وقع بقتل الرسول ، وهو رسول سلام أمر منكر وقبيح فى ذاته ، وفوق ذلك يتضمن فى ذاته رفض للسلام واعتداء على من أرسله ، إذ الرسول لا يقتل ، ولكن يرد الى مأمنه ، سواء أرفضوا الرسالة أم قبلوها .

لا بد اذن من الأهبة ، وما خرجوا للقتال ، فلا بد من أخذ البيعة به ، لأن القتال برضا الجند ، وتلك سنة نبوية فى كل حروبه عليه الصلاة والسلام فانه يريد جندا مختارا يقدم بنفسه برضا واختيار ، محتسبا النية لله تعالى . طالبا ما عند الله .

لذلك أخذ البيعة على من معه ، وكان يبايعهم على الموت ، وعلى ألا يفروا من الميدان ، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قرر القتال ، وقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، لأنهم بقتلهم ذا النورين عثمان يكونون قد رفضوا السلام .

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كل من معه ، ولم يتخلف عن البيعة أحد الا واحد ، وما كان ليلتفت اليه .

ولقد رضى الله عن أولئك الذين قبلوا أن يغيروا ملابس الاحرام ويلبسوا ملابس القتال ، وقال الله تعالى فيهم : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة ياخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما » . وعسكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شئ قديرا ، ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا » .

وهكذا رضى الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان ، ووهبهم سبحانه وتعالى من بعد ذلك مغانم كثيرة ، وبين سبحانه وتعالى أن أول هذه الغنائم أن كف أيديهم عنكم ، فكانت هذه غنيمة عاجلة ، وكان هذا فتحا مبينا ، كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

عقد صلح على هدنة

٩ + ٥ — اقتنعت قريش بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما جاء لقتال ، وقد عادت القضب الى أجفانها بعد أن عاد عثمان رضى الله عنه ، وأطمأنت القلوب ، وعادت رغبة السلام وعزمته الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يريد خطة تمنع القتال ، وتحفظ الحرمات .

بعثت قريش سهيل بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، وقالوا له اثت محمدا نصالحه ولا يكن فى صلحه ، الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا غنة أبدا .

ولا شك أن هذا شرط ، (كما يقول علماء القانون) تعسفى وتحكمى ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الرءوف الرحيم ، كما وصفه رب العزة ، لم يمانع فى قبول ذلك ، وإن ضج أصحابه بالرفض ، وهم لا يعلمون ما يعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما توجبه الرسالة ، وتحتمه الدعوة الى الاسلام ، فما كانت دعوة الاسلام رهبا ، بل كانت رغبيا ، وما كانت بالسيف بل كانت بالموعظة الحسنة .

اجتمع سهيل مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتم الاتفاق المبدئى على ما اشتمل عليه من التزامات ، خلاصتها :

اولا : لا يزور المسلمون البيت حاجين هذا العام .

ثانيا : وضع الحرب عشر سنين .

ثالثا : ان من خرج من مكة الى المدينة المنورة يرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن عاد الى مكة المكرمة مرتدا لا ترده مكة المكرمة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

رابعا : من اراد ان يدخل فى عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل والتزم بالتزامه ، ومن اراد ان يدخل مع قريش دخل ، والتزم بالتزامهم .

لما تم الاتفاق الشفوى وقف عمر رضى الله عنه غضبان أسفا ، وقال لأبى بكر : « يا أبا بكر اليس حقا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قال أبو بكر : بلى ، قال أولسنا بالمسلمين ، قال بلى . قال أوليسوا بالمشركين قال بلى . قال فعلام نعطي الدنية فى ديننا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا عمر ، الزم عجزاء أى أمره فأنى أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، الست رسول الله !! قال بلى ، قال أولسنا بالمسلمين !! قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ، قال بلى . قال الفاروق : سلام نعطي الدنية فى ديننا ، قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الرفيق الأمين : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى .

عندئذ سكن عمر رضى الله عنه ، وعلم أنه أمر الله تعالى ، فسكت عنه الغضب ، وكان ذا نفس لوامة ، فندم على ما كان منه من قول ، وكان يقول : ما زلت اتصدق وأصوم وأصلى ، واعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى .

كتابة الصلح :

٥١ هـ — تم الاتفاق على ما تشتمل عليه الوثيقة ، ثم دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، فقال : اكتب . بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض سهيل بن عمرو ممثل المشركين عند كتابة

العهد ، وقال : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فاعترض أيضا سهيل ، وقال لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو :

(أ) اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن سيهين الناس ، ويكف بعضهم عن القتال ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه •

(ب) وإن بيننا عيبة مكفوفة أي (لا عداوة) وأنه لا أسلال ولا اغلال أي (لا سرقة ولا خيانة) •

(ج) وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه •

وقد شهد على العقد بعض المشركين ، ومن المسلمين أبو بكر وعمر ، وعلى بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف •

ويعد تمام العهد تراثت خزاعة ، فقالوا نحن في عقد محمد وعهده ، وتواتت ، بنو بكر ، فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم •

هذا ما كتب في العقد ، وكان هناك أمر عملي توجب قريش تنفيذه ، وقد رضي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • فقد قالوا تنميما للعهد ، وأنه ترجع عنا عامك هذا لا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلها بأصحابه ، فاقمت فيها ثلاثا ، ومعك سلاح الراكب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها •

قيل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأثرها ، مع ما فيها من شطط المشركين ، لأنه يريد سلاما ، وأن معه جيشا لا قبل لقريش به ، وكان يستطيع أن يقاتل ، والحجة قائمة عليهم ، ولكنه النبي عليه الصلاة والسلام المسالم الذي يعظ بالحكمة ويدعو بالرفق ، وليس غليظ القلب •

أبو جندل :

٥١ هـ — وبينما هم في مجلس الصلح لم يفارقوه ، بل لم يتموا كتابته إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي يمثل المشركين عند كتابة العقد ، جاء

وهو برسف فى الحديد ، فلما رأى سهيل أبا جندل ، قام اليه ، فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتىك هذا ، وهذا أول من أقاضيك عليه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم أنا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيل فوالله اذن لم أصالحك على شىء ، وقد جاء فى البخارى مع هذا الكلام أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : فأجزه لى ، قال ما أنا بمجزه لك ، قال بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل ، وقال بعض الحاضرين المشركين قد اجزنه لك ، ولكن سهيلا هو وليه .

قال أبو جندل أى معشر المسلمين أرد الى المشركين وقد جئت مسلما الا ترون الى ما قد لقيت ، وقد جاء فى رواية ابن اسحاق أنه وثب عمر ابن الخطاب مع أبى جندل يمشى الى جانبه ، ويقول اصبر يا ابا جندل ، فانما هم المشركون ، وانما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، ويقول عمر رجوت أن يأخذ السيف ، فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، وذهبت القضية .

والنبى يمضى فى عقده ، مع ما أثاره فى نفسه ونفوس المؤمنين مجيء أبى جندل يرسف فى قيوده ، وقال لأبى جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ، ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وأنا لا نغدر بهم .

مع تلك الكلمات التى تلقى بروح الصبر والاطمئنان فى قلب أبى جندل كانت الثائرة تغل فى قلوب المسلمين ، ولكن لا يتكلمون احتراما لمقام العهد ، ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال انه لا يخالف أمر ربه ، ولكن عمر الفاروق ثار بالقول مرة أخرى ، يقول : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ، قال : بلى قال فلم نعطى الدنيا فى ديننا اذن ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أعطيتها وهو ناصرى .

قال عمر : أولست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ، قال : بلى : أفأخبرتكم أنا نأتيه هذا العام فانك آتية ومطوف به ، وهذه رواية البخارى ، وقد جمعنا بينها وبين رواية ابن اسحاق ، فقدرنا أن عمر قالها مرتين وهو مظهر غضب المؤمنين مع طاعتهم ورضاهم بما حكم صلى الله تعالى عليه وسلم استجابة لأمر ربه .

التحلل من الاحرام :

٥١٢ — كان لابد أن يتحلل المسلمون من احرامهم ، على أن يؤدوا عمرة فى عام آخر ، وذلك بأن يقصروا شعرهم أو يحلقوه ، وقد دعاهم النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم إن يخلقوا رؤوسهم وينصروا ، وأبتدا هو فخلق ، وحلقوا وقصروا من بعده ، وهذه رواية ابن اسحاق بسنده .

ولكن روى فى البخارى أنه قال لأصحابه رضى الله عنهم لأنهم جميعا أهل بيعة الرضوان ، قال لهم قوموا فأنحروا ثم لحقوا ، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات .

فلما لم يقم منهم دخل على أم سلمة ، وكانت معه فى هذه الغزوة فذكر مالقى من الناس ، فقالت أم سلمة بعاطفة المحبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعاطفة الشريفة تنطق بالحق أحيانا قالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ، أخرج ، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة ، حتى تنحصر بدئك ، وتدعو خالقك ، فيخلقك ، فخرج ، فلم يكلم أحدا منهم ، حتى فعل ذلك ، ثم نصر بدنه ، ودعا خالقه فخلقه .

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يخلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، لعصيانهم ابتداء ، وهذه رواية البخارى ، وقد كان فيها خبر الخلق وخبر النحر معا ، وقصة النبى عليه الصلاة والسلام مع أم سلمة رضى الله عنها ، وإن هذا التفصيل زاد به البخارى عن ابن اسحاق ، وزيادة الثقة مقبولة فى ذاتها .

احكام ثبتت فى الحديثية

٥١٣ — يعد صلح الحديثية جاء نسوة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنات مهاجرات ، ولم يردن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنهن لم يشملن العهد ، الذى يوجب رد من يجيء مسلما من غير ولى امره ، وفى هذا جاء النص الذى يحرم بقاء المسلمة فى عصمة كافر سواء اكان كتابيا أم كان من المشركين ، ولذا قال الله سبحانه وتعالى : « يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتنوهن الله اعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تذكوهن اذا اتيتوهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما انفقوا ذلكم حكم الله بحكم بينكم ، والله عليم حكيم ، وإن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار فعاقبتهم فاتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما انفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

وقد قال الحافظ ابن كثير ، جاءت نسوة مؤمنات • فأنزل الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن - حتى بلغ - بعصم الكوافر • » فطلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا في الشرك ، فتزوج أحدهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة •

قال ذلك ابن كثير في سرد ما كان في الحديبية ، ولذلك قلنا ان تحريم زواج المسلمة بغير المسلم ، وزواج المسلم بالمشركة جاء في الحديبية بعد امضاء الصلح •

وهذه الآية تدل على ثلاثة أمور :

أولها - أن المسلمة لا تجوز للكافر سواء أكان كتابيا أم كان مشركا ، والكتابي كافر لا كما أوهمت كتابة الحديثين ممن لا يمجسون الحقائق ، ويقولون ما يقولون مجاملة ، أو موادة للنصارى الذين لا يؤادون المسلمين فالنصراني كافر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وبما نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالوحدانية ، واليهودي كافر بالقرآن الكريم وبمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووصف الله في القرآن الكريم اليهود والنصارى بأوصاف الكفر فقال الله سبحانه وتعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » وقال الله سبحانه وتعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين » •

والذين يجيزون زواج المسلمة بغير المسلم قد خرجوا عن اطار الاسلام ، لأنهم أنكروا القرآن الكريم وأنكروا أمرا معروفا من الدين بالضرورة ، وأجمع عليه المسلمون •

وتدل ثانيا على أن المسلم لا يجوز أن يتزوج مشركة ، ومن كان عنده مشركة فليفارقه ، وقد فهم ذلك الامام عمر رضى الله تبارك وتعالى ففارق امرأتين كانتا تحته • وهما مشركتان ، وأخذ ذلك من النهى في قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » أى لا تتمسكوا بزواج الكافرين ان كان بينكم وبينهن زواج ، لأن الكوافر جمع كافرة ، لا جمع كافر ، اذ لا يجمع وصف العاقل الذى يكون على وزن فاعل على فواعل ، ولكن تجمع فاعلة على فواعل ، كقاطمة وفواطم ، وقافلة وقوافل ، وأريد المشركات ، لأنه الذى يتفق مع اباحة الكتابيات بقوله تعالى : « والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » •

وتدل ثالثاً - على أن العدالة توجب عند فسخ الزواج بهذا الحكم الشرعى ، أن يرد إلى الأزواج المشركين ما أنفقوا على أزواجهن اللاتى أنفسن أزواجهن بالاسلام ، فيرد اليهم الصداق ، لأن الفسخ كان بحكم الاسلام يعد من قبل الزوجة .

وفى مقابل ذلك من يفسخ زواجها من المشركات بحكم اسلام أزواجهن عليهم أن يردوا إلى المؤمنين ما أنفقوا من أموال ، فى هذه الزيجة ، وذلك لأن امتناعهن عن الدخول فى الاسلام ، وقد دخل الزوج فى الاسلام يعد تفويتاً لحقه فوجب التعويض عما أنفق ، لأن سبب الفقرة من جانبها .

وان المسلمين يستجيبون لحكم الاسلام ، فيردون ما وجب من اعطاء ما أنفق هؤلاء ، لأنه مما يؤدى اليه عقد المسالة وما تؤدى اليه العدالة التى هى خاصة الاسلام مع العدو والولى على سواء ، لقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ولكن لا يضمن اهل الايمان أن يؤدى المشركون ما يجب عليهم اذا أنفسخ الزواج بين المشركة والمسلم ، ولذلك فرض القرآن الكريم أنهم لا يدفعون ، والحكم فى هذه الحال أن يؤخذ مما يجب اعطاؤه للمشركين مما أنفقوا ، ويسد للمؤمنين الذين استحقوا ما أنفقوا ، ولم يؤد اليهم حقهم .

ويفهم من أن بيت مال المؤمنين هو الذى يؤدى ما أنفق المشركون فى الزيجة التى فسخت بحكم اسلام الزوج ، لأن ذلك تنفيذ لحكم شرعى عام ، ولأنه ما يوجبه روح العهد الذى عقد فى الحديبية .

وان المشركين يجب عليهم مجتمعين أن يؤدى للمؤمنين ما أنفقوا فى الزواج الذى فسح للأصرار على الشرك ، فاذا لم يؤد أخذ حق المؤمن من مجموع ما كان يجب على المؤمنين ، هذا تفسير قوله تعالى : « وأن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم ، فأتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا » ، وقد أخذنا المعنى فى تفسير هذه الآية من تفسير الحافظ ابن كثير لهذه الآيات .

وان هذا الحكم يفيد بطريق الاشارة إلى أن سبب التفريق ان كان من جانب الزوجة يجب عليها أن ترد ما أنفق الزوج بالمعروف ، وتقدير المعروف للقاضى ، كما كان تقدير ذلك فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأمر المؤمنين ، وبمقتضى تلك الاشارة : اذا أسلم زوج من لا دين لها ، ولم ترض

الدخول فى دين كتابى أو الاسلام ، فانه يجب عليها أن ترد ما أنفق زوجها ،
أو ما خسر بسبب امتناعها عن الدخول فى دين سماوى .

تنبيهات :

٥١٤ — الأول : أن هذه الأحكام الفقهية أخذت من نص الآية ،
وتفسيرها الذى يعد من التفسير بالآثار وهو تفسير الحافظ ابن كثير ، ولم
نرجع الى كتب الفقه التى اختلفت فيها ، ولا نقول ان هذه الأحكام منسوخة
فانا لانعلم لها ناسخا ولانا نقول ان القرآن الكريم ليس فيه منسوخ وخصوصا
فى الأحكام الفقهية .

الثانى : أن أكثر المحدثين ذكر أن هذه الآيات نزلت والنبي صلى الله تعالى
عليه وسلم لم يغادر الحديبية ، فقد قال أبو ثور : أنزلت هذه الآية على
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم
على أنه من أتاه منهم رده اليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره
سبحانه وتعالى أن يرد الصداق الى أزواجهن ، وحكم على المشركين اذا
جاءتهم امرأة من المسلمين (أى كانت تحت مسلم) وبقيت على شركها أن
يردوا الصداق الى أزواجهن .

التنبيه الثالث : أنه لم يكن ذلك الحكم هو الوحيد الذى كان فى غزوة
الحديبية ، وان كان ثبوت هذا الحكم بالنفى ، بل هناك أحكام أخرى ثبتت
بعمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت ثمة أحكام فقهية كثيرة
ثبتت من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد عقد لها ابن القيم فى كتابه
« زاد المعاد فى هدى خير العباد » فصلا قائما بذاته فلنتبعه فى ذلك .

أحكام فقهية أخرى :

٥١٥ — نشير هنا الى بعض ما ذكره ابن القيم .

(١) منها أن الاحرام بالعمرة فى أشهر الحج يجوز ويصح ، ويلزم
الاستمرار فيه ، وأن الاحرام بالعمرة وان كان يجوز من غير مواقيت الاحرام ،
وهى الأماكن التى خصها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن المسافر عليه
أن يحرم بالحج قبل اجتيازها ، غير أن الاحرام من الميقات للعمرة أفضل ،
فانه صلى الله تعالى عليه وسلم أحرم بها من ذى الحليفة ، كما أحرم
بالحج .

(ب) ومنها أن اشعار الهدى سنة وأنه لا مثله فيه ، وذلك بأن يحدث فى جسمه عند سوقه ما يدل على أنه مخصص للذبح فى مكة المكرمة ، وبالتالى فان سوق الهدى للعمرة سنة فى ذاته عند الاحرام ، وان النبى صلى الله عليه وسلم ساق الهدى وأشعره ، وكان فى جملة ما ساق من هدى جمل لأبى جهل كان من أنفال بدر ، وان ذلك كان مغايظة للمشركين ، وهذا يدل على أن غيظ المشركين ليقول من حدة سلطانهم ، ولأثبات أن كلمة الله هى العليا ، وأن العقوبة للمتقين ، وأنه سبحانه وتعالى • قال : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين » ومنها جواز الاستعانة بالملخص من غير المسلمين اذا كان فى الاستعانة به فائدة ولا ريب فيه ، ولا مظنة لأن يترتب على الاستعانة ايذاء ، من أى نوع كان ، والا يمنع سدا للذريعة وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم استعان بعيثه الخزاعى ، وكان كافرا ، وجعله عينا على المشركين وكان اقرب الى أن يعرف أحوالهم ، لاختلاطه بهم ، والمصلحة فى ذلك ، ولا ضرر • والحق فى هذه القضية أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستعن به ابتداء ، بل انه هو الذى قدم معلوماته وان خزاعة مسلمهم ، وكافرهم كانوا على مودة بالنبى صلى الله عليه وسلم • ولذلك عندما تم العهد بين النبى صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وبين قريش دخلوا فى عهده ولم يدخلوا فى عهد قريش كبنى بكر ، ورد النبى صلى الله عليه وسلم للمشركين عهدهم عندما عاونوا بنى بكر على خزاعة واستعد لفتح مكة المكرمة •

وذكر ابن القيم أن من الأحكام الفقهية التى ظهرت فى الحديبية استحباب مشورة الامام رعيته وجيشه استخراجا لوجه الرأى وأما لطاعتهم ، وتعرفا لمصلحة يختص بها بعضهم دون بعض ، واستجابة لأمر الله فى قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقد مدح سبحانه وتعالى عباده المؤمنين ، بقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » •

ونحن نرى أن النصوص توجب أن يستشير الامام الرعية فى ادارة شئونهم ، وقد نرى استحباب ذلك فى القتال ، لا فى شئون الكافة •

ومنها أن المشركين والفجار والفسقة وأهل البدع اذا طلبوا أمرا يعظمون به حرمة من حرمات الله تعالى ، أو أمرا هو حق فى ذاته أجيبوا اليه ، فكل من يطلب أمرا هو حق فى ذاته ، أو محبوب لا اثم فيه ، أجيب الطلب ، ولو كان فاسقا مبتدعا ، أو باغيا على الحق ، أو مشركا ، الا أن يكون فى ذلك ما يؤدى الى التجرد على أهل الحق أو معاونة اثم لذات الاثم وان ذلك موقف

دقيق ، اذ التعرف على حق لا يجر الى باطل أمر دقيق لا يدركه الا اهل الايمان
وأهل الادراك السليم .

ومنها أن الحرم ليس مقصورا على المسجد الذى هو مكان الطواف ؛ بل
الحرم يشمل ذلك ، وما حول مكة المكرمة ، وأن كلمة الحرم تشمل كل ما حول
مكة المكرمة .

ومنها أن المحصر بالحج أو العمرة وهو الذى يمنع من الوصول الى
البيت الحرام ، وقد أحرم لزيارته معتمرا أو حاجا ينحر الهدى حيث أحصر
ومنها أن المصالحة مع الكفار جائز ، ولو كان فيه ضيم ظاهر اذا ترتب على
ذلك مصلحة للمسلمين ، والضيم ظاهر ، والعبرة بالنتيجة ، وان كان الضيم
فى ذاته ضرر ، فانه يقدم بدفع أقل الضررين ، وان الصلح بين النبی صلى
الله تعالى عليه وسلم وكفار قريش فى هذا الوقت كان خيرا فى عواقبه ، وان
لم يكن ظاهرا لكل المؤمنين أو لكثرتهم .

وهكذا كانت أعمال النبی صلى الله تعالى عليه وسلم تفيد أحكاما شرعية،
سواء أكانت تتعلق بتدبير مصلحى ، أو عبادة مقررمة ثابتة .

وانه اذا كان الأمر مصلحة ، وجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يبدى
ما يراه مصلحة ، أو يعين على الواجب ، لأن ذلك من قبيل النصيحة فى الدين
الذى تجب المبادرة بها ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، الدين النصيحة
الله ولرسوله ، ولكتاب الله ، ولخاصة المسلمين وعامتهم .

ولذلك تقدمت السيدة أم المؤمنين أم سلمة تطلب الى النبی صلى الله تعالى
عليه وسلم أن يبادر هو بالعمل ، فاذا حلق ونحر تبعوه ، لأن العمل يؤثر فى
الاتباع أكثر من القول ، ولم يجد النبی صلى الله تعالى عليه وسلم غضاضة
فى أن يتبع ما أشارت به غير متردد ، لأن الحق أحق أن يتبع ، ولأن الحق
واجب الاتباع فى ذاته ، من غير نظر الى مكانة الداعى بالنسبة للمشير ،
ولا الى مقامه بالنسبة لمقامه ، ولنتعلم أن هدى النبی صلى الله تعالى عليه
وسلم أن نتبع حيثما كان وممن يكون ، ولنجعل للمرأة الكريمة الطاهرة العاقلة
مكانتها وحق التقدير والاعتبار .

كانت الحديبية فتحاً

٥١٦ — عند قفول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة الى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية نزلت سورة الفتح ، فقد قال تعالى فى ذلك :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » •

فسمى الله تعالى ذلك الصلح ، وما وفق الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام للقيام ، فتحا وليس دنية فى الدين كما خطر على عقول بعض المتقين من كبار المؤمنين ، وكان فتحا لأنه أنهى القتال بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، وذلك فى ذاته فتح ، ولأنه فتح قلوبا كانت مغلقة وعقولا كانت عليها غشاوة حتى انه أحصى عدد المؤمنين قبل الحديبية فى مدى تسع عشرة سنة ، ومن أسلم فى سنتين بعد الحديبية ، فكان مثل الأول أو يزيد ، لذلك كله كانت الحديبية فتحا ، ولم تكن دنية ، وفوق ذلك كانت تمهيدا لدخول مكة المكرمة بالفتح الأعظم الذى لم يجز فيه دم ، ولم يكن قتال الا فى بعض المتمردين ، وكانوا قليلين ، وكان فتحا ، لأن المؤمنين استطاعوا تنفيذا لأحكام الصلح أن يدخلوا معتمرين ، ثم متحالفين محلقين ومقصرين •

وغفران ذنب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس على حقيقته معنى الغفران ، انما هو متضمن الرضا والقبول لكل مايفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، سواء أكان فى الماضى أو الحاضر أو القابل ، فكل ما يفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مغفور ، وتسميته ذنبا من قبل المجاز • فهو ليس الا خطأ لأن ما يعتب به عليه ، خطأ كما أخطأ فى الأسرى ، وكما كان يقع منه ، ليكون أسوة للناس ، فيقروا بأن الانسان اذا خضع لفكره وعقله ربما يخطئ ولو كان نبيا مرسلا ، ولو كان خاتم النبيين محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصراط المستقيم الذى هداه الله تعالى هو طريق الدعوة فقد صار معبدا لا عوج فيه بعد هذا الفتح المبين وأنه كان من الفتح المبين تضافر أهل الايمان بالبيعة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم ، فمن تكث ، فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما » •

ولقد كان من الفتح المبين أن نقيت الجماعة الاسلام ممن لم تستقم قلوبهم وتكون خالصة للحق لا تبتغى سواه ، ولذلك لم يخرج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

وسلم فى الحديدية الا من اراد الله سبحانه وتعالى ، وأراد الحج ، لا المغانم وما وراءها • ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فيهم فى سورة الفتح : « سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لمن تتبعونا كذلك قال الله من قبل ، فسيقول بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا » •

ولقد اشار سبحانه وتعالى الى الذين يستقبلهم المسلمون من اولى الباس والشدة ، ولقد كان الذين خرجوا للاعتمار تعرضوا لاحتمال الحرب فتضافروا وبايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن يبيعوا أنفسهم لله تعالى ، ولا يفروا وقال سبحانه وتعالى ما تلونا من قبل : « لقد رضى الله عن المؤمنين ان يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزا حكيما ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » •

وانه كانت الحديدية التى سماها الله تعالى الفتح المبين سبيلا لأن يتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليهود وينفرد لهم ، ثم بعد ذلك يكون الاتجاه الى الرومان ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « ستدعون الى قوم اولى باس شديد ، تقاللونهم أو يسلمون » •

• وأولئك هم الرومان ، والدخول الى أرض الشام •

وان الغاية توجب تحمل الوسائل ، ولو كانت قاسية على النفس ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتجه الى اليهود ، وخضد شوكتهم فى البلاد وقد اتخذوها للأذى والايقاع ولم ينفع عهد ولا نمة ما كان أن يتجه الى أولئك ، وشوكة قريش تجرح من ورائه ، فلا بد أن يؤمن ظهره بعهد ، ولو كان فيه ما توهمه بعض المؤمنين غينا فاحشا ، ولكنه الطريق المستقيم لتوجيه الدعوة الاسلامية الى مواطنها •

وان ذلك تصديق رؤيا النبى عليه الصلاة والسلام التى رآها ، بأنه سيدخل المسجد الحرام ، ولكنها لا تتحقق واقعة الا فى عام قابل ، وكان ذلك الصلح ، فقد قال الله سبحانه وتعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ، هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » •

وهكذا كان ذلك الصلح فتحاً وطريقاً للفتح ، ودخل به الناس فى دين
الله أفواجا ، أفواجا •

يقول ابن شهاب الزهري التابعى بحر العلم كما قال الامام مالك ، قال
فى الحديبية « فما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، انما كان القتال
حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس
بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يتكلم أحد فى
الاسلام ليقول شيئا ، الا دخل فيه ، ولقد دخل فى تلك السنين (أى التى كانت
قبل فتح مكة المكرمة) قدر ما كان فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر ، •

ونضيف ، وقضى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على نفوذ اليهود
قضاء كاملا ، واتجه الى خارج الجزيرة العربية ينشر الاسلام فيها •

تنفيذ الصلح

٥١٧ — كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا كل الحرص
على الوفاء بالعهد ، لأن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة ، ولأن الله تعالى يقول :
« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم
الله عليكم كفيلا » •

ولقد شك بعض المؤمنين فى وفاء المشركين فى عهدهم هذا ، فقال النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفوا لهم ، واستعينوا الله تعالى عليهم •

ولذلك اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الوفاء •

ولقد كان بعض المؤمنين ينظر الى الأمر فى هذا الاتفاق غير مطمئنين
الا طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقد شق عليهم
أمران :

أحدهما : الا يتمكنوا من دخول البيت الحرام وقد أحرموا ، ومعهم
القوة التى يستطيعون أن يدخلوا بها وليس عند قريش القوة الكافية لردهم ،
ولذلك تباطؤوا فى الاستجابة للتدخل من الاحرام بالحل أو التقصير ، على
ما قصصنا من قبل •

الأمر الثانى : الشطط فى شروط قريش ، وفى إملاء العقد ، وأشد شطط
وغبن أن من خرج مسلما لا يقبله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرده

الى وليه ، ومن عاد الى مكة المكرمة مرتدا لا يردونه ، فقد كان ظاهرا الشرط ان فيه غيبنا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه عدم مساواة ، ولكن ان نظرنا الى الشرط الثانى وهو عدم رد من يخرج من الاسلام الى الشرك ، فانه عند التأمل لا نجد فيه ضررا على المسلمين ، فما حاجة الاسلام الى مرتد حائر ، فليذهب الى حيث شاء ، بدلا من أن يكون شوكة فى المسلمين ، وقد يرضى أن يبقى منافقا ، وينضم الى صفوف أهل النفاق ، فيكون عينا على المسلمين وعلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

واما بالنسبة للجزء الاول من الشرط ، وهو أن من خرج من مكة المكرمة مسلما يرد الى وليه ، فقد كان بلا شك شاقا فى ذاته ، وخصوصا عندما دخل عليهم أبو جندل يرسف فى قيوده .

وان هذا الجزء من الشرط وان كان شاقا فى مظهره صعب التحمل الا لمن كان قوى الايمان ، فان تطبيقه أدى فى نتائجه الى الضرر على المشركين ، ولم يضار به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون ، حتى ان المشركين الذين كان الشرط من جانبهم ولصلحتهم هم الذين طلبوا الغاءه .

ولنذكر تطبيقه كما اوضحت كتب السيرة وصحاح السنة .

كان أول من طبق عليه الشرط أبو بصير عتبة بن شيد بن جارية وكان ممن أسلم وحبس بمكة المكرمة ، وقد استطاع أن يخرج من محبسه ، وأراد الذهاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب اليه بعض المشركين يطلبون تسليمه بهقتضى الشرط وبعثوا رسولين يتسلمانه ، وهما رجل من بنى عامر ابن لؤى ومولى له ، فقدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده أبو بصير فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « يا أبا بصير ، انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر وان الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، قال يا رسول الله اتردنى الى المشركين يقتلوننى فى دينى . قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا أبا بصير انطلق ، فان الله تعالى سيجعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .

انطلق معهما ، واندمج معهما فى الحديث ، وأظهر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه العامرى ، فقال يا أبا بصير عامر اصارم سيفك هذا قال نعم قال انظر ان شئت فاستله أبو بصير ، وأراد أن يختبر صرامته ثم علاه به حتى قتله ، فولى المولى مسرعا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس فى المسجد ، فقال ان هذا الرجل قد رأى فرعا ، ثم قال له ويحك مالك ؟

قال ان صاحبكم قد قتل صاحبى ، وبينما هو يشرح حاله ، وكيف قتل العامرى طلع أبو بصير متوشخا بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله قد وفيت ذمتك ، وأدى الله عنك عندما أسلمتني ليد المقوم ، وقد امتنعت بدينى أن أفتن أو يعيث بى ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويل أمه انه محش حرب ان كان معه رجال ، وفى رواية البخارى انه قال : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد .

وقع فى نفسه انه سيرد اليهم بعد أن قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وانه تفيد بلحنها أن له أن يعتمد على نفسه ، وهو قادر على أن يعتمد .

خرج من حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار حتى وصل الى سيف البحر ، وقد علم المستضعفون بخبر أبى بصير ، وقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بانه محش حرب ان كان معه رجال ، فكل مستضعف يعمل على تخلص نفسه ويكون من رجال أبى بصير ، فانفلت أبو جندل الذى جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرسف فى قيوده ، وردده صلى الله تعالى عليه وسلم والتحق بأبى بصير .

وصار كل مستضعف لا يذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه سيرده بل يذهب الى رجال أبى بصير على سيف البحر .

وكونوا منهم عصابة تقطع طريق تجارة قريش ! فما كانوا يسمعون بعير خرجت لقريش الا تعرضوا لها ، يقتلون رجالها ، ويأخذون مالها ، فلم يكن من مصلحتهم التمسك بشرطهم . بل انهم تركوا الأخذ بالشرط ، وأنهم اذ كانوا لا مأوى لهم الحق بأن يفعلوا بهم جزاء ما اذوه ، ولا حلف معهم الا الأذى الذى قدموه لهم ، وخوف الفتنة دفعهم لأن يقفوا ذلك الموقف منجاة لأنفسهم .

أرسلت قريش الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تناشده الرحمة الا أواهم ، وضمهم اليه ، ولا يردهم . كان هذا الشرط الذى أزعج النفس المؤمنة ماله أن يكون خيرا للمؤمنين ، وهو شرط عليهم ، انها النبوة التى أدركت مالا يدركه عمر ، ولا غيره ، وانها الهام الله الذى جرى على لسان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « سيجعل للمستضعفين فرجا ومخرجا » .

وانه لما توصلت قريش الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الغاء العمل بهذا الشرط ، أرسل الى أبى بصير أن يجرى الى المدينة المنورة هو ومن معه ، ليكونوا قوة للمؤمنين ، فكتب اليه بالجرى الى المدينة المنورة ، ولكن الكتاب لم يصله الا وهو على فراش الموت ، فتوفى ولكن رجع أصحابه الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

هجرة المستضعفين :

٥١٨ — وبعد أن فتح لمن يسلم بدار الشرك الباب للذهاب الى المسلمين والخي ذلك الشرط كان يحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يسلمون الا يبقوا مستضعفين فى أرض الشرك ، بل عليهم أن يهاجروا وان ذلك مبدء الاسلام أن يتجمع المسلمون ، ولا يستمروا متفرقين فى الأرض .

ومنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من إقامة المسلم بين المشركين ما دامت عنده قدرة على الخروج من بين ظهرانهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تراءى نارهما . وقال من حارب مع مشرك وسكن معه فهو مثله ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها . وقال ستكون هجرة بعد هجره فخير أهل الأرض ألزمهم بها .

وبذلك طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من كل مستضعف أن يهاجر الى حيث يتجمع المسلمون ما دام قادرا على ذلك ، لأنه بهجرته الى المسلمين يتحقق أمران .

أحدهما : أنه يخرج من حال استضعاف ، وذلك بالخروج من ولاية الكفر أو الشرك الى حيث العزة والمتعة وولاية المؤمنين فهم أهل ولاية الله وولاية الحق ، وهى القوة وهى الأمن والقرار . ولقد أوجب القرآن الكريم ذلك فقال : « ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا قيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم . وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يتركه الموت ، فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفورا رحيمًا » .

وان نصوص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عامة ، ونص القرآن الكريم ملزم لا مناص من تنفيذه .

الأمر الثانى : أن فى الهجرة تجميع المسلمين ، وفى الجماعة قوة ليست فى الفرد . وان ذلك امكن للوحدة ، واحفظ لهيبة أهل الاسلام .

وانه قد يعترض على جعل الهجرة بالانتقال من أرض الاستضعاف الى

حيث القوة الاسلامية مبدءاً دائماً ومطلوباً مستمراً • قد يعترض على ذلك بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح » •

ونقول فى الجواب ان الحديث مخصوص بالهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، أو بالهجرة من مكة المكرمة الى غيرها ، وأن الهجرة مطلوبة قبل الفتح ، لأن المسلمين فيها كانوا يفتتنون عن دينهم « وكانوا فى ذلة ، ولا يستطيعون القيام بشعائر دينهم ، فلما فتح الله تعالى على المسلمين مكة المكرمة ، وصارت فيها الأحكام الاسلامية وصارت ولاية من ولايات الاسلام ، لم يعد للهجرة سبب يوجبها ، بل انها أصبحت غير مطلوبة ، وربما تضر ولا تنفع لأنها لو استمرت لخلأ البيت الحرام من سكان حوله يقومون بسدائته ، وهى أحب أرض الله الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإلى ربه ، وهى التى جعلها أرضاً مباركة •

سرايا وبعوث

٥١٩ — كانت سنة ست من الهجرة ، خصبة بالدعوات الاسلامية وبت السرايا والبعوث لأجل تعرف الناس ، والدعوة الاسلامية ، وبيان حقائق الاسلام •

وقد كان أبرز ما فيها غزوتان : غزوة بنى المصطلق على الرواية التى تقر أنها كانت فى هذه السنة ، وغزوة الحديبية أو صلحها ، وكانت وحدها فتحة مبينا وتميها للفتح الأكبر فى سنة ثمان من الهجرة •

وكانت ثمة سرايا قبل الحديبية سنة ست ، لأنها كانت عقب غزوة الأحزاب للمدينة المنورة ، وقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام ما رأى من قوة الاسلام برهانا وعقيدة ، وقوته مادية بحيث تبين أنه لا يغلب لأنه مؤيد من الله تعالى ، ففيها كان بعث أبى عبيدة عامر بن الجراح الى ذى القصة فى أربعين رجلاً مشاة حتى اتوها فهربوا منه فى رعوس الجبال ، وأسر منهم رجلاً حضر به لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى ربيع من سنة ست •

وفىها بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة الى بنى سليم فدلتهم امرأة من مزينة على محلة من محال بنى سليم ، فأصابوا منها نعماً وشاة وأسروا رجلاً كان فيهم زوج هذه المرأة التى دلتهم واسمها حليلة فوهبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وأطلقهما •

وفى سنة ست هذه قبل صلح الحديبية أخذت أموال لقريش ، وكان فيها أموال كانت مع العاص بن الربيع الذى كان زوجا لزَيْنَب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غير فداء على أن يعيد زينب لأبيها فبر بما وعد .

لما أخذ المال الذى كان معه ، وقتل من كان معه ، وفر هو الى المدينة المنورة ، فلما جاءها استجار بزَيْنَب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأكرمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأجاز جوار زينب وأمر برد الناس ما أخذوا من العير ، فرد كل واحد ما أخذ من هذه العير ، حتى لم يفقد منها شيئا ، حمل أبو العاص بن الربيع المال الى مكة المكرمة ، وردّه الى أهله ، ورد ما كان لهم من الودائع ، فلما تم ذلك أعلن اسلامه ، وخرج مهاجرا الى المدينة المنورة .

وان هذه الرواية التى رواها ابن اسحاق تدل على أن اسلامه كان سنة ست ، وكان قبل نزول آية : « يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن » ٠٠٠ الآيات الكريمات .

وهذه رواية الواقدي أيضا ، ولكن الحافظ ابن كثير يقول أن اسلامه كان سنة ثمان ، وأن اسلامه تأخر عن تحريم بقاء المسلمات أى زواج الكفار منهن ، وأنهم لا يحلون لهن ، وانى أميل الى رواية الواقدي ، ورواية ابن اسحاق ، وهى أكثر اتساقا مع الآية .

فى شعبان سنة ست أيضا كانت سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل يدعوهم الى الاسلام ، ولم يكن لقتال ، وقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم فأسلم القوم ، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ، بنت ملكهم تماضر بنت الأصبع الكلبيّة ، وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وكانت هذه السرية فى شعبان .

وفى هذه السنة سنة ست أيضا أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى مائة رجل الى حى من بنى أسد ابن بكر ، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جمع لهم جمع يريدون به أن يمدوا يهود خيبر يعاونونهم على المسلمين ، وهذا يدل على أنهم كانوا يستعدون لحرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث عليا اليهم ففسار اليهم ليلا نهارا ، حتى أصاب منهم عينا لهم ، فأقر أنهم بعثوا الى خيبر ، وأنه هو الذى يعرض عليهم أن تعطى خيبر لهم تمر خيبر .

وبذلك علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يجمعون الجموع له ،
ولذلك لم يكن غريباً أن يتجه اليهم بعد الحديبية ، لأنه تفرغ لهم •

سرية عكل وعرينة

٥٢٠ — يقول ابن كثير أن هذه سرية كانت فى سنة ست قبل الحديبية
وقد نقلها عن الواقدى ، وقال كانت فى شوال سنة ست ، أى قبل الحديبية
بشهر ، أن الحديبية كانت فى ذى القعدة الذى ولى شوالا •

وقالوا ان السرية كانت بقيادة كرز بن جابر الفهري الى العرينيين الذين
قتلوا راعى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واستاقوا النعم ، فبعث رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى آثارهم كرز بن جابر فى عشرين فارساً
فردوهم ، هذه قصة هذه السرية ، خرج ناس استولوا على ابل رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتلوا راعيها ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم هذه السرية ، فردت الابل •

وفى القصة أخبار نجد من الواجب أن نذكرها ، ونبين مقدار الاطمئنان
فى الرواية ونسبتها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

جاء فى البخارى ومسلم عن أبى قلابة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى
عنه أنه قدم رهط من عكل ورعينة فأسلموا ، واجتروا المدينة المنورة فأتوا
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكروا ذلك ، فقال عليه الصلاة
والسلام الحقوا بالابل فاشربوا من ابوالها والبانها ، فذهبوا وكانوا فيها
ماشاء الله تعالى ثم قتلوا الراعى وسبعوا الابل ، فجاء الصريح الى رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم ترتفع الشمس حتى أتى بهم ، فأمر
بمسامير فأحميت فكواهم بها ، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم فى الحرة يستقون
فلا يسقون حتى ماتوا ، وفى رواية عن أنس أنه قال : فلقد رأيت أحدهم يكدم
الأرض بفيه من العطش ، وفى رواية للبخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم أمر فسمّل أعينهم •

ولقد قال كمال الدين بن الهمام من كبار فقهاء الحنفية رواه جماعة
المحدثين •

ولكن مهما تكن عدد المصادر التى روتها • فانه حديث آحاد • وإن اهل
الخبرة فى علم الحديث يقولون أن روايته ثقات ، وأن سنده متصل ، وأنه

لا انكار في سنده ، وان كان احادا ، ولكننا ننظر في متنه ، فان الحديث يضعف باحدى طريقتين اما بضعف سنده ، أو بضعف متنه بأن يكون مخالفا للمقررات الشرعية •

وانا نرى أن متنه يخالف المبادئ التي قررها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لوجوه :

أولها : أن فيه مثلة ، بسمل الأعين ، وأن المثلة منهي عنها ، وان قالوا ان المثلة لم يكن قد نهى عنها ، فاننا أولا نقرر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يمثل بأحد من قتلى احد ، ولا من قتلى الخندق ، فدل هذا على أنها كان منهيها عنها من قبل • وان قيل ان الصحابة فعلوا معهم ذلك ، لأنهم ارتكبوا ما يوجب حدا ، واذا كان الحد ، فهو حد الحراية الذي بينه الله تعالى بقوله : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا » ••• الى آخر الآيات • وليس فيها سمل الأعين • ولا يقال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمر به ، لأنه علمه في الرواية ولم ينكر •

ثانيها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل عطشا ، ولقد قالت الرواية انه تركهم يموتون عطشا - حتى انهم كانوا يكتمون الأرض من شدة العطش حتى ماتوا ، ولا يقال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أمر بذلك ، ولكن مفهوم هذه الرواية انه علم ، ولم ينكر •

ثالثها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اذا قتلتم فأحسنوا بالقتلة ، وان القتل قصاصا لا يبرر ذلك ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن ليبيح ذلك في الحرب على أنهم ربما يعتبرون مقاتلين •

والخلاصة أننا لا نرى أن ذلك الخبر تصح نسبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لمخالفته للمقررات الاسلامية التي قررها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك لا نقول انه صحيح النسبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

حد الحراية

٥٢١ — الفقهاء يسوقون قصة العرنيين وما نسب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبب في حد الحراية أو قطع الطريق ، ويرون أن ما نسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعلة ينطبق على ما نص الله تعالى في كتابه من حد قطع الطريق ، ولكن ذكرنا أن ما ينسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

عليه وسلم فعله ، لا ينطبق كله على ما فى حد الحاربة فليس فى نص القرآن الكريم سمل الأعين ، كما أنه ليس فى نص القرآن الكريم القتل بالعطش ، حتى يكدمون الأرض من شدة العطش ، فلا يستسقون ، وقد كذبنا نسبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك •

ومهما يكن فأننا نذكر النص القرآنى فى هذا المقام ، ومدى ما ينطبق من قصة العرنيين عليه •

يقول الله تعالى فى بيان هذا الحد : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » •

ولا شك أن وصف الحاربة ينطبق على هؤلاء العرنيين ، وقد نزلت بهم بعض عقوباتها ، وهو قطع الأرجل والأيدى •

وما دمتنا قد تعرضنا للحاربة أو لقطع الطريق ، فإنه يجب أن نشير لبعض أحكامه ، على قدر ما يتسع له المقام فى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام الطاهرة ، ويترك تفصيله لكتب الفقه ، ولموضعه من بحثنا فى كتاب الجريمة وكتاب العقوبة فى الفقه الإسلامى (١) •

المحاربون أو قطاع الطريق ناس يخرجون متفقيين على القتل أو السرقة ، وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة افسادا من غير تأويل يتأولونه ، بل سعيًا بالشر والافساد ، ونرى ما يراه المالكية أنه لا تقتصر جرائم الحاربة على القتل والسرقة ، بل تشمل كل المعاصى ، كالزنى وشرب الخمر ، ويدخل فيها كل المخدرات سواء أكانت سائلة أم جامدة ، وسواء أكانت تتناول بالشرب أم بالتدخين •

وسواء أكانت هذه القوة التى يكونها المحاربون فى مدينة أم غير مدينة ماداموا يستطيعون أن يقوموا بجرائمهم بعيدين عن أن يجاب المستغيث إذا استغاث ، وللفقهاء كلام وخلاف فى هذا المقام •

(١) الناشر دار الفكر العربى •

ويعد من المحاربين الجماعة التي تنفق على ارتكاب جرائمها بطريق
الغيلة وذلك في رأى مالك ، والنص القرآني يحتمل ذلك كله .

والعقوبات المقررة ، هي القتل ، والصلب ، وتقطيع الأيدي
والأرجل من خلاف والنفي من الأرض بالابعاد في مكان ناء لا يستطيعون فيه
ارتكاب جرائمهم ، وعد الامام أبو حنيفة أن من النفي السجن ، لأن المقصود
منع اجتماعهم .

وأكثر الفقهاء أن الامام العادل يضع العقوبة على قدر الجريمة : فان
تولوا القتل قتلوا ولا فرق بين من باشره ، ومن لم يباشره ، لأن من لم يباشره
كان معينا مع من باشره .

واذا سرقوا وقتلوا ، قتلوا وصلبوا ، ويستوى في العقوبة المباشر وغير
المباشر .

واذا سرقوا وانتهبوا الأموال ولم يقتلوا فانه تقطع أيديهم وأرجلهم من
خلاف ، فاذا قطعت اليد اليمنى ، يقطع معها الرجل اليسرى .

واذا كانوا قد اتفقوا وهموا بالشر ، ولكن لم يمكنوا فان العقوبة
تكون النفي ، بتفريقهم بعيدا عن مكان تجمعهم .

هذا ما اختاره جمهور الفقهاء تابعين للتابعين في أقوالهم ، ومن
الصحابية عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

ويرى الامام مالك رضى الله عنه أن الامام مخير في هذه العقوبة أي كانت
الجريمة التي ارتكبوها ، لأن الجريمة الأصلية هي الاتفاق على ارتكاب هذه
المعاصي ، ولو لم يمكنوا من تنفيذ احداها ، والامام ينظر الى ما هو الأنجع
في ردعهم .

(تم يعون الله الجزء الثاني ، ويليه الجزء الثالث)

الجزء الثالث

فى المجلد الثانى

رسائله صلى الله تعالى عليه وسلم - طرد اليهود من البلاد
العربية - تعميم الدعوة الإسلامية فى البلاد العربية - اسلام
العرب - حال الأعراب - خروج الدعوة الى أطراف الشام -
حجة الوداع - زوجاته صلى الله تعالى عليه وسلم •

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثالث

بحمد الله وتوفيقه ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
والذين اتبعوهم بإحسان الى يوم الدين ، وبعد :

فانا نقدم الجزء الثالث من السيرة الطاهرة المطهرة ، سيرة خاتم النبيين
وسيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفى هذا الجزء تكلمنا فى نشره للدعوة الاسلامية فى ربوع البلاد
العربية ، ومجاورة حدودها الى الشام والرومان ومصر ، والى فارس ،
والعراق .

ففيه الكتب التى ارسلها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى أمراء
العرب ، والى قيصر الرومان ، ومقوقس مصر ، والنجاشى فى الحبشة .

وفيه كان اجلاء اليهود عن البلاد العربية والاتجاه الى الشام بالفتح المبين
فكانت مؤتة ، ومساورة الشام فى تبوك .

ثم كانت الدعوة الحمديدية ماثوثة فى كل البقاع والأصقاع العربية حتى
دانت بالطاعة للإسلام خاضعين ، وبيان حال الأعراب ، ثم كان كمال الدين
بياناً للأحكام ، وتوجيهها للعمل .

ثم بيان انتقال النبى الى الرفيق الأعلى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد
أن أشرق نوره فى الأرض ، وبلغ رسالة ربه ، اللهم املأ قلوبنا إيماناً بها ،
وأعمالنا طاعة لها ، وأبعد الزيغ عن عقولنا ، واغفر لنا ذنوبنا ما نعلم منها
وما لا نعلم ، انك سميع الدعاء .

محمد أبو زهرة

رسائله صلى الله تعالى عليه وسلم

٥٢٢ — وفى هذه السنة بعد الحديبية فرض الحج • وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من جيش الايمان كانوا قد احرموا للحج •

وشرع الحج فريضة من بعد الحديبية مباشرة ، وقالوا انه كان قد شرع ، وفرضه الله تعالى فى هذا الوقت مع أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يحج الا فى السنة العاشرة •

وهذا رأى أكثر الفقهاء ، فالحج لا يجب فور القدرة عليه ، ولكن يجب ادائه فى مدى العمر ، وقال بعض الفقهاء يجب قدر الاستطاعة على ادائه ، وقالوا ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخره الى العاشرة لأنه لم يكن مستطيعا ذلك قبل العاشرة ، لأن الأصنام لم تزل قبل التاسعة ، وكان مشغولا بالدعوة ، وبيان الشرع ، حتى نزلت الآية : اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً « وسرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الفرائض الشرعية بايجاز ، وأشهد المؤمنين على التبليغ •

وانه بعد الحديبية تفرغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للدعوة ، فلم يرسل سرايا للقتال • ولكن أرسل رسلا للدعوة الى الاسلام ، وتبليغ الدعوة •

قال الواقدى فى ذى الحجة من سنة ست بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية •

وبعث شجاع بن وهب الى الحارث بن شمر الغسانى ملك عرب النصارى •

ورهيئة بن خليفة الكلبي الى قيصر ، هرقل ملك الروم •

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ملك الفرس •

وبعث سليط بن عمرو العامرى الى هوزة بن على الحنفى •

وعمر بن أمية الضميرى الى النجاشى ملك النصارى بالحبشة ، وهو أصحمة بن أبجر •

وستنكلم عن الرسائل التي كانت مع هؤلاء الرسل عند الكلام على
مكاتبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذي نقوله هنا هو أن النبي صلى
الله تعالى عليه وسلم وقد تفرغ للتبليغ ، ولم يعد مقصورا على الجزيرة العربية
وما حولها بل تجاوزها الى الأقاليم الأخرى .

الى خير

٥٢٣ — أنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما بينه وبين قريش
بصلح مدته عشر سنين ، ليكون للدعوة والتبليغ وان لم يترك ذلك التبليغ
أبدا ، فلم تشغله الحرب عن التبليغ بل كان التبليغ في أثناء الحروب وليتجه
الى اليهود أولا ، وإلى حرب الشام ثانيا ، لأن الروم في الشام قتلوا بعض من
آمنوا من أهل الشام ، ففعلوا مثل ما فعلت قريش ، فحق قتالهم حتى لا تكون
فتنة ، ويكون الدين لله .

ولذلك كان سيره من الحديبية الى خير ، والنبي صلى الله تعالى عليه
وسلم ما كان يقاتل الا في ميدان واحد ، فبعد أن انتهى من قريش انفرد لليهود
الذين نقضوا معه كل العهود وكانوا البا عليه ، يحرضون ويفسدون ويدسون
وكانت خير في ذى الحجة على رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى ، فقد فسر قوله
تعالى : « وأثابهم فتحا قريبا » قال يعني خير فقال انها كانت في ذى الحجة
من السنة السادسة بعد عشرين يوما من صلح الحديبية ، والواقدي يروي
بسنده عن شيوخه أنها كانت في السنة السابعة من الهجرة .

وقد عين الوقت ابن اسحاق فقال أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم بالمدينة المنورة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج
في بقية المحرم الى خير .

وبعض الروايات قالت ان غزوة خير كانت في صفر سنة سبع .

ومهما يكن تعيين الزمن ، فان غزو خير كان أمرا لا بد منه ، لأنه اجتمع
أعداؤه من اليهود ، وما كانوا يألون المؤمنين الا خبالا ؛ وينتهزون الفرصة
لينقضوا .

وقد رأينا أنهم يمالئون غطفان ، ويستخدمون قوة منهم ، وقد بعث النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبي طالب ليتعرف أمرهم والتقى بعين لهم ، وأسر
من أسر منهم .

فكانوا بلا شك يريدون أن ينتهزوا معاونة ليغيروا عليه أو يعاونوا من يحاربونه ، وكان فيهم غلظة وشدة •

فلما اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لغزو بنى النضير لكيلا يكون لليهود سلطان في بلاد العرب كان لابد أن تنضم اليهم غطفان ، ولشدة عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولقربهم من منازلهم ، ولسبق تحالفهم مع الأحزاب لغزو المدينة ، ولكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيرا ، « وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » •

وقد احتاط صلى الله عليه وسلم لذلك ، فنزل موقعا يفصل بين غطفان وخيبر ، ولتسرد قصة هذه الغزوة من وقت ابتدائها •

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاصدا خيبر ، فلما اشرف عليها أخذ يضرع الى الله تعالى طالبا النصر والمعونة ، فقال لأصحابه قفوا ؛ وأخذ يدعو ، وهم يرددون معه •

اللهم رب السموات ، وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أثيرن ، فانا نسالك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله تعالى •

خرج رسول الله الى خيبر ، سلك على عصر ، وهو جبل قريب من المدينة المنورة ، فبنى به مسجدا ، ثم مر على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه ونزل بواد يقال له الرجيع ، وهو فاصل بين خيبر وغطفان ، لكيلا يمكنهم من مظاهرة اليهود عليه • فحال بينهم ، ولكنهم كانوا قد خرجوا لليهود لينفذوا ما أرادوا من معاونتهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل الى ديارهم جماعة من مقاتليه ، ليزعجهم ، فلما سمعوا من ورائهم حس أولئك الذين ذهبوا خلفهم في أموالهم وأهلهم ظنوا أن المؤمنين خالفوهم اليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا في أهلهم وأموالهم •

وبذلك أمن رسول الله عليه الصلاة والسلام شرهم ، وخلوهم بينه وبين اليهود ، واختاروا لأنفسهم السلامة •

القائد حامل الراية :

٥٢٤ — دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرض خيبر ، وكانت أرض زرع وحرث ، وقد خرجوا يحملون أدوات من مساحي يحملونها

لحرق الأرض ومكاتل يجمعون فيها الثمار ، أو ينقلون السماد الطبيعي من مكان الى مكان بها ، فلما رأوا جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذعروا ، وقالوا محمد والخميس .

تقدم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لفتح قريتهم بحصونها ، وقد قال ابن القيم ، وصاحب معجم البلدان كانت لهم حصون ، هي حصن ناعم ، وحصن القموص ، وقلعة الزبير ، وحصن النطاة ، والكتيبة والموطيع ، والسلام ، وهما حصنا أبي الحقيق ، وحصن الزبير ، وحصن الصعب ابن معاذ .

كانت القيادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه ستمائة وألف مقاتل ، فيهم مائتا فارس ، وكان قائد اليهود سلام بن شكم ومعه أربعمائة وألف مقاتل ، ولما قتل تولى القيادة أبو زينب بن الحارث ، وكان حامل راية المؤمنين بطل الجهاد على بن أبي طالب ، فانه ليلة أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غزو خيبر قال لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، واليك الرواية كما رواها البخارى .

قال البخارى بسنده « ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال عليه الصلاة والسلام أين على بن أبي طالب ، فقالوا يا رسول الله يشتكى عينيه فأرسل اليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم ، حتى يكونوا مثلنا . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم انفذ على رسلك ، حتى تنزل ساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .

ابتدأ القتال حول الحصون ، ويقول ابن اسحاق تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأموال يأخذ الأقرب فالأقرب منها ، وفى هذه الأثناء خرج المرحب فارسهم فقصده على بن أبي طالب فقتله .

ثم تدانى جيش المؤمنين ، يأخذ الأدنى فالأدنى ، وأول حصن فتحوه والراية فى يد على كرم الله وجهه حصن ناعم ، ثم القموص حصن أبي الحقيق ، وكلما فتح حصن فر من كانوا فيه الى الحصن الذى يليه ، فيجتمع فيه مع من ألوا اليه فارين من حر السيف وقوة الايمان ، وكانت المبارزات أحيانا :

ولقد فتح القموص بعد حصار دام عشرين ليلة كما جاء فى سيرة ابن اسحاق ، وكان فى أرض وخمة شديدة الحر ، فجهد أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جهدا شديدا لوخم الأرض وحرارتها .

ولقد تحركت اليهود من بعد ذلك كما قال الواقدي الى قلعة الزبير ، وهى حصن منيع ، فأقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حصاره ثلاثة أيام .

وقد جاء رجل يهودى يظهر من أمره أنه مال الى الاسلام ، كما يدل قوله وعمله ، فقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا القاسم انك لو أقمت شهرا ما بالوا ، ان لهم سردابا وعيونا تحت الأرض . يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون الى قلعتهم ، فيمتنعون منك ، فان قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك ، فسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مائهم ، فلما قطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود عشرة ، وافتتحه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان آخر حصون النطاة .

وقد أحس المسلمون بقلعة الزاد ، وقالوا والله يا رسول الله قد جهدنا وما بأيدينا شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا يعطيهم اياه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ضارعا الى ربه : « اللهم انك عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء ما أعطيهم اياه فافتح عليهم أعظم حصونها غناء ، وأكثرها طعاما وودكا ، فغدا الناس » . ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخير حصن كان أكثر طعاما وودكا منه .

وانه بعد أن فتحت حصون النطاة قبل حصن الصعب بن معاذ تحول الى الشق ، وكانت به حصون ذوات عدد ، فكان أول حصن بدأ به حصن أبى ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قلعة يقال لها سمان ، فقاتل عليها أشد القتال ، فخرج منهم رجل يقال له عزول ، فدعا الى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع الحباب يده اليمنى ، فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه ، وبرز رجل آخر فقام اليه رجل من المسلمين ، فقتله اليهودى ، فنهض اليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ، وأحجموا عن البراز .

بعد أن أحجم اليهود عن البراز كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن فدخلوه ، وأمامهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب من كان فيه من المقاتلة وتقصموا الحصن كأنهم الضبات ، ثم تحولوا الى حصن

آخر من حصون الشق ، وهو حصن البزاة وامتنعوا به اشد الامتناع ، فرحف اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، وتراموا بالنبل ، ورمى معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الكريمة ، حتى أصاب نبلهم بناته عليه الصلاة والسلام ، فأخذ عليه الصلاة والسلام من الحصى ، فرمى حصنهم بها ، فرجف بهم حتى ساخ فى الأرض ، وأخذهم المسلمون أخذاً باليد هذا ما ذكره الواقدي فى تاريخه •

ويقول الواقدي مسترسلاً فى بيان فتح الحصون :

ثم تحول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اهل الأظبية والوطيح والسلام حصنى أبى الحقيق ، وتحصنوا اشد التحصين ، وجاء اليهم كل من انهزم من النطاة الى الشق ، فتحصنوا معهم فى حصن وكان حصناً منيعاً وفى الوطيح والسلام ، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم ، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة عشرة يوماً (أى فى هذه الحصون الأخيرة ، نزل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حصون ابن أبى الحقيق وطلب الصلح بعد أن تأكد أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم نصب المنجنيق ليقضى على البنيان اذ تحصنوا بها ولا سبيل الى الوصول اليهم الا بهدمها ، لأنها حصون لا مساكن •

ويتبين من هذا البيان أمران :

أحدهما : أن الحصون التى أحصيناها كان كل واحد منها عنواناً لمجموعة حصون ، وقد توالى سقوطها مجموعة مجموعة ، بلا تخريب ، ولكن يقاتل من فيها حتى يفروا الى حصن آخر وراءها ، ولذلك يقول ابن اسحاق كان النبی صلى الله تعالى عليه وسلم يتدنى ، أى يحارب الأدنى ، فالذى يليه ، حتى اذا تجمعوا فى الحصون الأخيرة ، التقت فيها جموعهم الفارة ، وتقاتلوا مستميتين ، وبذلك طال الحصار ، واشتد من خارجها • كما اشتدوا هم فى الدفاع من داخلها • فهم النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بعمل المنجنيق ، اذ لا يمكن الوصول الى المقاتلين الا بالهدم ، ولا يلجأ اليه بمقتضى قانون الاسلام فى الحرب الا عند الضرورة ، اذا تتراس به العدو ولا سبيل للوصول اليه الا بهدمه •

فلما رأوا أنهم مقتولون لا محالة سلموا •

الأمر الثانى : ان اشد قتال لقيه المسلمون كان فى خيبر ، لأنهم قاتلوا قوماً فى حصون ، ولم يكن القتال فى العراء ، والأعداء لا يواجهون المؤمنين ،

بل يقاتلون من وراء حصونهم : « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

وقد انتصر المسلمون في هذه الموقعة ، فكان آخر انتصار على معقل اليهود في البلاد العربية ، ولم يستطيعوا فيها تدميرها من بعد ، ولكن كان خبثهم فيما وراءها « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » وكان قتلى المسلمين ٢١ شهيدا وسبى وقتل كثيرون من اليهود .

الصلح والغنائم

٥٢٥ هـ — لما هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنصب المنجنيق ، وأيقنوا بالهلكة نزل اليه ابن الحصين مستسلما طالبا الصلح على النجاة بأنفسهم وتسليم ما بأيديهم ، فصالحه بالاجمال على حقن دمائهم ، وسيرهم ، ويخلون بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبين ما كان لهم من الأرض والأموال ، الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ، وعلى أنه ليس لهم الا ما كان على ظهر الناس يعنى لباسهم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابلا عرضهم : « وبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله ، ان كتمتم شيئا » ، فصالحوه على ذلك .

قال ابن كثير « ولما كذبوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخفوا المسك (الجلد) الذي كان فيه أموال كثيرة لحبي بن أخطب ، فتيين أنه لا عهد لهم فقتل ابن أبي الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهد والمواثيق » .

هذا اجمال يجب أن نذكره بشيء من التفصيل معتمدين على السنة الصحيحة خصوصا في التفرقة بين الأرض والنخيل والأموال المنقولة من صفراء وبيضاء وسبايا فان لذلك موضعا في الأحكام الشرعية .

انه كان الاتفاق على أن يجلوا على أن يحملوا معهم ما تحمله الركائب ويتركوا الأموال المنقولة والنخيل وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحصى أموالهم المنقولة من النقود والمتاع والجواهر ، وقسمها بين القائمين على أساس أن الفارس له سهم ولفرسه سهمان ، ومن لا فرس له وهو راجل في الحرب سهم واحد ، ولم يسهم للنساء بل رضى لهن ، والعبيد ، فقد رضى لهم بأن أعطاهم قدرا من الغنائم غير معين بتعيين ولا سهم .

وروى أبو داود والامام أحمد عن عمير مولى أبي اللحم قال شهدت مع ساداتي ، فكلّموا في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلدني سيفاً ، فاذا أنا أجره ، فأخبرني أنا مملوك لى شيء من المتاع ، وهذا الخبر يدل بظاهره على أن العبد يجوز له أن يملك ، ولا يقال العبد وما ملكت يده لسيده ، وهذا رأى الظاهرية .

ونذكر محمد بن اسحق أنه حضر في غزوة خيبر بعض النساء يحملن الماء ، ويدوين الجراح فرسخ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهن ، وقد روى عن امرأة من غفار ، قالت أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نسوة من بني غفار ، فقلنا يا رسول الله قذر أردنا أن نخرج معك الى وجهك فندأوى الجرحى ، ونعير المسلمين بما استطعنا ، قال على بركة الله تعالى ، فخرجنا معه . فلما فتح الله تعالى خيبر رضى لنا من الفىء . . .

وروى الامام أحمد عن بعض النساء أنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة خيبر وأنا سادسة ست نسوة ، فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرسل الينا فدعانا ، فقال ورائنا في وجهه الغضب ، فقال : « ما أخرجكن ؟ وبأمر من خرجتن ؟ قلنا خرجنا ، ننال الشبهام ، ونسقى السويق ومعنا دواء للجرحى . ونغزل الشعر ، فنعين به في سبيل الله ، فأمرنا فأنصرفنا ، فلما فتح الله خيبر أخرج لنا سهاما كسهام النساء ، ولعل المراد أنه أعطاهن ، كما أسهم للرجال ، لا أن سهامهن مساوية لسهام الرجال .

هذا التقسيم كان في الأموال المنقولة ، من صفراء وبيضاء وتمر ومتاع وغير ذلك من الأموال التي تنقل ، أو الأموال السائلة ، كما يعبر علماء المال في عصرنا هذا .

حياته فيها :

٥٢٦ — وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد عاهدهم على أن يقدموا كل صفراء وبيضاء ، وكل طعام ومتاع على الا يكثر منه ، وان العهد كان على ذلك ، فاذا كشف شيء كان مكتوما ، فان العهد ينقض ، فلما تبين أنهم كتموا مالا نقض العهد ، وقتل ابنا أبي الحقيق بسبب هذا النقض ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، والآن نفصل كيف كان اكتشاف الاخفاء وكيف اظهر .

حدث البيهقي عن عبد الله بن عمر . . . أنهم غيبروا مسكافيه مال وحلى لحبي بن الخطب ، وكان احتمله معه الى خيبر حين اجليت التضيز ، فقال

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما فعل مسك حى بن أخطب الذى جاء به من النصير ؟ فقالوا أنهيته النفقات والحروب ، فقال عليه الصلاة والسلام : العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك ٠٠٠ وكان حى قبل ذلك دخل خربة يطوف بها ، فذهبوا فطافوا فى هذه الخربة فوجدوا المسك فى الخربة ٠

وبذلك كان نقض العهد ، ويظهر أن الذين كانوا يتسترون على هذا المسك هما ابنا أبى الحقيق فقتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم ينقض العهد برمته ، بل نقضه بالنسبة للذين كتموه ، وكانوا يعلمون بموضعه وإن الله تعالى قسم الأموال المنقولة بالأسهم ، وكان سهم لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والسائلين وابن السبيل ٠

ووزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سهم ذى القربى على بنى هاشم ، وبنى المطلب ولم يوزع على بنى عبد شمس ولا بنى نوفل ، فمضى عثمان بن عفان من بنى عبد شمس ، وهم الأمويون ، وجبير بن مطعم من بنى نوفل ، وقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت بنى المطلب من خمس خير وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة منك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن بنى هاشم وبنى المطلب شيء واحد ، لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام ٠

وأنه لم يناصر أحد من بنى المطلب النبى صلى الله عليه وسلم عداوة ، والمطلب هو الذى رعى عبد المطلب ، وعندما ضربت قريش حصارا على بنى هاشم فى شعب أبى طالب انضم اليهم فى الحصار بنو المطلب ، ورضوا أن يكون ما ينزل بالهاشميين ينزل بهم ، فكانوا قائمين بحق القربى ، بينما أبو لهب الهاشمى أخو أبى طالب لم يرض الدخول مع أخوته ٠

الأرض والنخل :

٥٢٧ — هذا هو الأمر فى تقسيم البيضاء والصفراء والمتاع وسائر المنقولات ، أما الأرض ، فإنها لم تقسم كما قسمت الأموال ، بل الأمر فيها كان على غير ذلك ٠

ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أراد اجلاءهم بمقتضى الشرط الذى أخذه عليهم ، قالوا يا محمد ، دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، ولم يكن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا لأصحابه غلال يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها ، فأعطاهم رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم خير ، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويستفاد من هذا أمران (أحدهما) أن الأرض تبقى في أيدي المغلوبين ، على أنهم غير مالكين لرقبتها ، بل يعملون في زراعتها ومراعاة أشجارها ، ومساقاتها ، ولهم شطر ما يخرج من زرع وثمر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ الشطر وكان يوزعه في مصارف الغنائم .

الأمر الثانى أن ذلك غير ملزم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل له أن ينزع الأرض من أيديهم إذا أراد ، ولا يريد إلا ما يكون فيه مصلحة للمسلمين .

وقال فى ذلك الامام مالك رضى الله عنه ، ان الامام مخير فى الأراضى المفتوحة ان شاء قسمها ، وان شاء أرصدها لمصالح المسلمين وان شاء قسم بعضها ، وان شاء أرصد بعضها لما ينوبه فى الحاجات والمصالح .

وشطر الغلات الذى يتولى للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم روى أنه كان يوزعه توزيع الغنائم ، فيكون خمس لله ، وللرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس للغانمين وكانوا أهل بيعة الرضوان ، وغيرهم نحو أربعمئة ألف ، ومن انضم اليهم من مجاهدى خير ، فبلغ الجميع خمسمئة ألف فكان يقسم الربع مقسم الغنيمة بينهم .

وروى أبو داود أن النصف الذى كان يخص المسلمين ما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقسمه قسمة الغنائم ، بل كان يقيه لمن نزل به من الوقود ، والأمور ونوائب الناس ، أى يجعله لمصالح المؤمنين من غير تخصيص ، ويقول الحافظ ابن كثير ، قد تفرد بهذه الرواية أبو داود .

ومهما يكن من الأمر بالنسبة لغلة النصف فانه يتبين من هذا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعل الأرض فى أيدي أهلها على أن يكونوا زارعين حارثين مصلحين فى الأرض غير مالكين لرقبتها ، بل رقبته لجماعة المسلمين ، ولذلك كان للامام أن يخرجهم منها حيثما كان فى ذلك مصلحة المسلمين .

وان ما فعله عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه فى ارض سواد العراق الذى أشرنا اليه عند الكلام فى أموال بنى النضير ، يشبه هذا ، وكان للامام عمر رضى الله تعالى عنه أن يحتج به عندما خالفه جمع من الصحابة كان على رأسهم بلال رضى الله عنه .

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام عبد الله بن رواحة على المقاسمة بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان يأتيهم كل عام ، فيخرجها عليهم ، ويضمنهم الشطر ، وكان عادلا لا يظلمهم ، ولا يطفف شيئا من نصيب المسلمين ، فشكروا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شدة حرصه .

ولقد أرادوا أن يرشوه فقال يا أعداء الله تطعموننى السحت ، والله لقد جئتم من عند أحب الناس الى ، ولأنتم أبغض الى من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى اياكم ، وحبى اياه على الا اعدل اياكم .

فهو لا يظلم لعداوة ، ولا لمحبة ، ولذلك قالوا بهذا قامت السموات والأرض ولما قتل عبد الله بن رواحة ، فى مؤتة ، ولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده جبار بن صخر رضى الله تعالى عنه وكان من أهل الخبرة ، فى خرس الزروع والثمار .

٥٢٨ — وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزع الزرع والثمار فى النصف الذى يخص المسلمين على تقسيم الغنائم وخصص أراضى لخراج سهم من السهمان ، فجعل ما ينتجه حصن الشق ونطاة فى سهمان المسلمين ما ينتج منهما يكون نصفه قسمة على حسب سهام الفاتحين .

وكان ما ينتجه حصن الكتيبة مخصصا لخمس الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم رجال سواء بالصلح بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى أهل فديك .

وكان لنطاة والشق ثمانية عشرة سهما ، لنطاة خمسة والباقى للشق يأخذ الفاتحون هذه الأسهم الثمانية عشرة .

وقسمت الثمانية عشرة على ١٨٠٠ سهم ، أى أن كل سهم فى النطاة والشق كان مقسما على مائة .

ويقول ابن اسحاق « قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتيبة وهى واد خاص بين قرابته وبين نسائه ، وبين رجال مسلمين ، ونساء اعطاهم » وقد ذكر المقادير التى كان يعطيها لذوى قرابته ونسائه ، وللبعض رجال المسلمين ، فكان يقسم على الضعفاء وذوى الصلة كل على مقدار حاجته .

وهكذا كان التقسيم للغلات ، ولم يقسم الارضين ، ولكن كان لكل طائفة سهام فى حصن معين من حصون خيبر ، ولقد كان بعض المؤمنين يشرفون

على الأرض من حيث انتاجها وصلاحها ، وكان يتولى مقاسمة اليهود
عبد الله بن رواحة أولا ، فلما استشهد رضى الله تعالى عنه ، تولاها ، جبار
ابن صخر ، واستمر طول حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فلما انتقل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى نفذ
أبو بكر ما كان يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم لما توفى
الصدیق نفذ عمر شطرا من امارته ما كان يفعله النبی صلى الله تعالى عليه
وسلم ثم بدا له أن يخرج الأرض من أيدي اليهود ، ويعطيها ذوی السهام
فيها . وذلك لأمرين : أولهما أنهما قتلوا في عهد النبی صلى الله تعالى عليه
وسلم رجلا أنصاريا ، وهو عبد الله بن سهل وكان قد خرج في أصحاب له
يمتارون تمرا . فأنفرد عنهم ، ووجد في عين قد دقت عنقه ثم طرح فيها
فأخذه وأخفوه ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القسامة ، وأتهمهم من بعد ذلك عمر في عهده
بأنهم قتلوه .

واعتدوا ثانية في عهد عمر على عبد الله بن عمر فقد خرج هو والزبير
ابن العوام والمقداد بن الأسود الى أموال المسلمين بخيبر يتعهدونها ، وتفرقوا
في الأموال فقدعوا يديه (أى خلعوا أى أزيلت عن مفاصلها ، وأصلح زملاؤه
يده) .

فلما حضر الى أمير المؤمنين فقال هذا عمل يهود ، ثم قام في الناس
خطيبا ، فقال :

« أيها الناس ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان قد عامل
يهود خيبر على أن نخرجهم اذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر فقدعوا
يديه ، كما بلغكم مع عدوهم على الأنصاري قبله ، لا شك أنهم أصحابه ليس
هناك عدو غيرهم . فمن كان له مال بخيبر فليحق به ، فاني مخرج يهود » .
وهذا مؤداه أنهم أصبحوا غير أمناء على المؤمنين ، وقد ارتبطوا معهم بعلاقة
المزارة فكانوا يعاملونهم معاملة عدو ، لا معاملة معاون .

الأمر الثاني الذي أوجب على عمر أن يخرجهم وخصوصا بعد ما
أظهروا عداوتهم وحقدهم ، أنه علم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال
« لا يصحبن بجزيرة العرب دينان » ، فكان لابد من إجلالهم ، فدعاهم الى
الجلاء ، وقال من كان عنده عهد من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
فليأتني به إنفذه ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، فليتجهز للجلاء واذا كان بقاؤهم في الأرض فقد كان بالمشيئة وليس

عهدا دائما • وقد خصص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكل ذى سهم دائم جزءا من الأرض يجمع شطر ثماره ، فلما أجلى سيدنا عمر رضى الله عنه اليهود ، قال لأصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « أيها الناس ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامل يهود خيبر على ان يخرجهم اذا شاء ، فمن كان له مال فليلحق به • فانى مخرج يهود » •

وجعل لكل مستحق من اسهم ثمراتها ، على ما يخرج سهمه يديره حيثما يريد •

وبالنسبة لأزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن رضى الله عنهن وعنه فقال لهن : من أحب منكن ان أقسم فانى أقسم مائة وسق على ان يكون لها اصلها وأرضها وماؤها ومن الزرع عشرين وسقا من شعير فعلنا ، ومن أحب ان يعزل الذى لها فى الخمس ، كما هو فعلنا •

ويستفاد من هذا ان سيدنا عمر ما أخذ من نصيب فى سهم ذرى القربى على أنه لهن ليس بالوراثة ، بل أخذه حقا لهن من الخمس الذى لله وللرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فقد جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لكل واحد مائة وسق أو مائتى وسق على اختلاف الراوية فى ذلك • وعشرين وسقا من شعير من غير اختلاف فى ذلك ، فكان هذا استحقاقا ابتداء لا وراثة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن عمر رضى الله تعالى عنه بين ان يجرى غليهن ما كان يجريه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أوساق ، وبين ان يعزل لهن ما ينتج ذلك ، كما فعل مع كل المستحقين فى خيبر •

فدك

٥٢٩ — لما رأى يهود فدك ما نزل بيهود خيبر ، وهم أهل الحصون المنوعة أصابهم الرعب ، ورأوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أبقي الأرض فى أهل خيبر يرعونها ويغرسونها ، ويصلحون شجرها على ان يكون لهم نصف ما ينتج ، أى يعاملون كما عامل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل خيبر ، وفدك أرض من أرض خيبر يسكنها يهود ، لم يكن لهم حصون ، ولم يقاتلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ألقى الرعب فى قلوبهم ، فاستسلموا •

وقال زواة سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم • انها كانت كلها بخالصة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كالشبان فى أموال بني النضير ، فلم

تقسم سهامها كما قسم انتاج خيبر ، بل كانت كلها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول ابن كثير كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقى كمال الله تعالى يصرف فى الكراع والسلاح ومصالح المسلمين .

ويجب علينا فى هذا المقام أن نعيد تلاوة ما نزل فى أموال بنى النضير التى عدها العلماء بأنها كفدك فقد قال تعالى فى أموال بنى النضير « وما آفأ الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شئ قدير ، ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى قلله وللرسول . ولذى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، أن الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .

وانه اذا كانت المقايسة ثابتة بين أموال بنى النضير ، وفدك ، فان التعبير بأنها خالصة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤداه أنها لا تقسم مقسم الغنائم فلا يكون للفاتحين المجاهدين أربعة الأخماس كما هو الشأن فى الغنائم ، وانما يكون مصرفها مصرف خمس الغنائم الخمس لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين ، ولذلك يصرفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى مصالح المسلمين ، ويبقى له ما يكفيه وأهله منه بالمعروف .

وعلى ذلك نقرر أنه لم يكن مملوك الرقبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يورث ، ويجرى فيه النزاع على الملكية كما توهم كتب السيرة ، وكتب التاريخ .

والذى أحسبه أن الاختلاف فى ادارتها . وتولى صرفها فى مصارفها ، باعتبار أنها ليست فى ظل الولاية العامة ، بل لها ولاية خاصة ، هى ولاية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يخلفه من أهله ، وبذلك انتهى أمرها فى

عهد عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ولنترك الكلمة بعد ذلك للحافظ ابن كثير فى تاريخه .

كانت هذه الأموال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقى مجعل مال الله تعالى يصرفه فى الكراع والسلاح ومصالح المسلمين ، فلما مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اعتقدت فاطمة وأزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أكثرهم أن هذه الأراضى تكون موروثة عنه ولم يبلغهن ما ثبت عنه من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه يكون صدقة .

ولما طلبت فاطمة وأزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نصيبهن من ذلك ، وسألوا الصديق أن يسلمه اليهم وذكر لهم قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا نورث ما تركناه صدقة » وقال أنا أعول من كان يعول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله لقراة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحب الى أن أصل من قرابتي ، وصدق رضى الله عنه وأرضاه ، فانه البار الراشد ، فى ذلك التابع للحق .

نحن لا نزن أن السيدة الزهراء التى هى قطعة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون طلبها للميراث ، وانما طلبها أن تتولى هى الصدقة .

وقد صرح ابن كثير بأن فاطمة طلبت بلسان العباس وعلى أن ينظروا فى هذه الصدقة وأن يصرفا ذلك فى المصارف التى كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصرفها فيها ، فأبى عليهم الصديق ذلك ، ونحن لا نفرض أنهم طلبوا ميراثا ، فعلى كرم الله وجهه ما كان يجهل أن الأنبياء لا يورثون ، وهو فقيه الصحابة ، وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم أقضى الصحابة .

ويقول الحافظ ابن كثير ان فاطمة رضى الله تبارك وتعالى عنها ، والصلاة والسلام على أبيها غضبت عليه فى ذلك ووجدت فى نفسها بعض المودة ، ولم يكن لها ذلك ، والصديق من قد عرفت هى والمسلمون محل من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقيامه فى نصرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . . . « فلما كانت أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يفوض أمز هذه الصدقة الى على والعباس ، وثقلوا عليه بجماعات من سادات الصحابة ففعل عمر ذلك لكثرة إشغاله ، واتساع مملكته ، وامتداد رعيته » .

هذه عبارات الحافظ ابن كثير ، وله مقامه فى علم السنة ، والأخذ بمنهاج السلف ، ولكن نلاحظ أن عباراته فى حق فاطمة التى تنتهى عترة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليها لم تكن لاثقة بمقامها من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإذا كان للصديق مكانته ، فلفاطمة مكانتها من المحبة لأنها قطعة منه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلوله عنها ما كان لها ذلك فيه تعد للحدود ، بدليل أن عمر بن الخطاب من بعده نفذ ما طلبت ، فلم تكن متجنية عندما وجدت مودة على الصديق صديق أبيها .

وهناك عبارة لا نوافقها عليها ، لأنه يقول انهم ثقلوا على عمر رضى الله عنه بجماعة من سادات الصحابة ، فان هذه العبارة لا يصح أن يقال فى على ولا فى عمر ، فمقام على أجل من أن يعبر عنه فى طلبه واحتكامه الى الصحابة بكلمة ثقلوا ، وما كان عمر بن الخطاب فاروق الاسلام من صفاته أن يخضع لاثقال أحد من الصحابة ، فهو القوى فى الحق الذى لا يخشى فيه لومة لائم ، وما كنا نود أن يقع هذا من الحافظ ابن كثير العالم السلفى الامام ، انما الأمر الذى يتصور أن يكون من العباس وعلى أنهما احتكما الى جمع من الصحابة فنزل عمر عند رأيهم ، لأنه رآه أنه الحق ، ولنذكر بقية ما قصه الحافظ ابن كثير .

فهو يقول ان الصدقة أعطيت لعلى والعباس رضى الله عنهما ، فتغلب على على عمه العباس فيها ، ثم تساقوا يختصمان الى عمر ، وقدا بين أيديهما جماعة من الصحابة ، وسألا عمر أن يقسمها بينهما ، فينظر كل واحد فيما لا ينظر فيه الآخر ، فامتنع عمر عن ذلك أشد الامتناع ، وخشى أن تكون هذه القسمة تشبه قسمة المواريث وقال : انظرا فيها ، وأنتما جميع ، فان عجزتما عنها ، فادفعاهما الى ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره ، لا أقضى فيها قضاء الا هذا ، فاستمرا فيه ، ومن بعد الى ولدهما الى أيام بنى العباس تصرف فى المصارف التى كان يصرف فيها أموال بنى النضير وفدك ، وسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من خير .

حوادث ذات مغزى فى خير

٥٣٠ — فى اثناء خير ، وفى أعقابها وجدت حوادث تدل على قوة ايمان بعض المؤمنين ، وصدق ما وعدوا الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحوادث فيها غدر من اليهود ، وسماحة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الغالب .

منها أمر الأسود الراعى :

قصته تدل كيف يدخل الاسلام الى القلوب المخلصة المفتحة التي لم يرتقها هوى وما غلبت عليها شهوات كان مع اليهود عبد أسود أجير عندهم يرعى غنما لهم وقد سمع اليهود يقولون انه يدعى أنه نبي مرسل ، فساقه هذا لأن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله عما يدعو اليه ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى نصر بالضعفاء والمساكين لا يحقر احدا أن يدعو الى الاسلام ، ولذا عرضه عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسلم ، وجمع قلبه الطيب بين الايمان والأمانة .

فدعته الأمانة بعد الايمان أن يقول لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم ، وهى أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ، لم يقل له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انها للمؤمنين بحكم انها غنيمة للمغال ، ولكنه أجرى أمانة الرجل على رسلها ، بل قال له اضرب فى وجوها ، فانها سترجع الى ربها ، فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها فى وجوها ، وقال : ارجعى الى صاحبك فوالله لا أصبحك أبدا ، فخرجت مجمعة كان سائقا يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم الى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر قتله .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه شهيد وانه دخل الجنة .

ومنها قصة أعرابى يجاهد ويرد المغنم :

٥٣١ هـ — روى البيهقى بسنده ، أن رجلا من الأعراب جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمن به واتبعه فقال أهاجر معك . فأوصى به بعض أصحابه ، وغزا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغنم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقسم المغنم ، وقسم لهذا الأعرابى المؤمن ، فأعطى ما قسم له ، فقال : ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار الى حلقه بسهم — فأموت فأدخل الجنة ، فقال الرسول الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ان تصدق الله يصدقك . رفض المال ولو أنه حق وحلال ، ومنحة الغنيمة أخذها بحقها ، وذلك فى سبيل أن يكون عمله خالصا لوجه الله تعالى ، فهو لا يريد الحلال ، ولكن لا يريد عوضا للجهاد .

ولما نهضوا للقتال كان معهم ، فقتل بسهم أصابه حيث أشار الى حلقه ،
فحمل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقدمه لله شهيدا ، وقال : « اللهم
هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك ، قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد » .

وقد ضرب هذا الأعرابي المؤمن أعلى مثل للآيمان ، وطلب ما عند الله
وحده لا شيء سواه ، فطلب رضوانه ولا يريد مغنما ، فرضى الله تبارك وتعالى
عنه .

مؤمن يتحایل لما له بمكة المكرمة :

٥٣٢ — وان الاسلام فتح الطريق أمامه ، لا تحول بينه وبين انتشاره
قوة الطغاة ، ولا صد عن سبيل الله أخذ يطوف في البلاد العربية فيعشرو اليه
من يريد الهداية ، ومن يصفى قلبه للحق والنور والهداية .

وكان من ذلك اسلام الحجاج بن علاط السلمي ، فانه لما فتحت خيبر
وزال كل ما كان يصد عن الاسلام جاء الحجاج هذا الى رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ان لي مالا عند صاحبتى أم شيبه بنت
أبي طلحة وكانت زوجة ، وله منها ولد وأموال متفرقة في تجارة مكة المكرمة
والمؤمن يكون حريصا غير مستهين ولا يكون بخيلا ، وفرق بين البخل
والحرص ، لأن الحرص معناه الا يفرط في حق اكتسبه بحله ، ولا يكون هملا
فرطا لا يعطى كل ذي حق حقه ، ولا يفرط في حقه مع التسامح في موضعه أما
البخل فانه يشح بالمال ولا يضعه في مواضعه .

فالمؤمن حريص غير مفرط ، ولا بخيل ، أراد الحجاج أن يصل الى ماله
وهو بمكة المكرمة ، ولو أعلن اسلامه منع ماله ، فاستأذن رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم أن يخفى أمره ، ويقول ما يسهل الوصول الى ماله من غير
تعهد للكذب ، ولا خدع لمؤمن ، فاذن له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

خرج الحجاج الى مكة المكرمة ، حتى اذا التقى برجال من قريش
يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ،
وقد بلغهم أنه سار الى خيبر ، وهم يعلمون أنها قرية الحجاز ، ريفا ومنعة
ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار ، ويسألون الركبان .

فلما قابلوا الحجاج ، ولم يكونوا علموا باسلامه ، ولم يظهره لهم ،
فسألوه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أمر خيبر ، وقالوا له قد

بلغنا أن القاطع (أى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم) قد سار الى خيبر ،
(وهى بلد يهود وريف الحجاز) •

قال قد بلغنى ذلك ، وعندى من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا
بمثليها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم نسمع أبدا بمثله قط ، وأسر محمدا أسرا ،
وقالوا لا نقتله ، حتى نبعث به الى أهل مكة ، فيقتلوه بين أظهرهم •

أعينونى على جمع مالى بمكة المكرمة ، وعلى غرمائى ، فانى أريد أن
أقدم خيبر ، فأصيب من قل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار الى
هنالك •

فقاموا فجمعوا له ماله يحثون الغرماء على ذلك •

وكان له عند امرأته مال موضوع ، وأراد أن يأخذه ، فطلب منها لعله
يصيب من فرص البيع قبل أن يسبقه التجار •

تسامع الناس بخبر هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والناس
يصغون دائما الى ما يحبون ، ويذيعونه وينشرونه فرحين مستبشرين ،
ويعيمهم حبه عن فحص الخبر ووزنه أو الشك فيه ، بل يطمئنون الى ما يحبون
من غير تمحيص •

وفى مكة المكرمة محبوبون للنبي من نوى قرياه ، وعلى رأسهم العباس عم
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهاله الخبر ، فذهب الى الحجاج فسأله
ما الخبر الذى جئت به ، فأشار الى العباس أن عنده أخبارا وطلب اليه أن
يسافر حتى يفرغ من جمع ماله ، ويلقاه فى خلاء •

حتى اذا فرغ من جمع كل شئ كان له بمكة المكرمة ، وأجمع الخروج
لقى العباس رضى الله عنه ، وقال احفظ عنى حديثى يا أبا الفضل ثلاثا ، فانى
أخشى الطلب ، ثم قل ما شئت ، قال : أفعل ، فانى والله لقد تركت ابن أخيك
عروسا على بنت ملكهم صفية بنت حى ، ولقد افتتح خيبر ، وصارت له
ولأصحابه ولقد أسلمت وما جئت الا لأخذ أموالى فرقا من أن أغلب عليه ،
فاذا مضت ثلاث ليال ، فأظهر أمرك فهو والله على ما نحب •

مكث العباس ثلاث ليال لا يلتقى بالناس ، حتى اذا خرج لبس حلة ،
وتطيب ، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة المشرفة ، فلما رآوه قالوا والله
هذا التجلد لحر المصيبة •

قال : كلا والله الذى حلفت به ، لقد افتتح محمد صلى الله تعالى عليه وسلم خير ، ونزل عروسا على بنت ملكهم ، وأحضر أموالهم وما فيها ، فأصبحت له ، ولأصحابه • قالوا من جاءك بهذا الخير ؟ قال الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلما ، فأخذ ماله ، وانطلق ليلحق بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيكون معه ، قالوا : يا لعباد الله أنفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن • ولم ينشئوا أن جاءهم الخبر •

ونقف وقفة قصيرة فى هذا ، أيعد الرجل قد كذب ، وهل يعد هذا الكذب اثما ، ونقول قبل الإجابة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأت له بالكذب ، بل أتى بالقول ، بأن يورى ولا يكذب ، وأن يحاول من غير أن يتورط فى قول غير صحيح فى ذاته ولا فى موضوعه •

ولكن هل يعتبر كذبا أن يوهم بالقول ، ثم يوضح هو الحقيقة ، وهو بين قوم ظالمين ، ولا يمكن أن يصل الى حقه المشروع الا اذا أوهمهم ، ثم أزال وهمهم بقول الحق الصريح ، وهو قد ترك للعباس أن يصحح القول ، ويبين مقصده من إيهامهم •

وانى أحسب أنه لم يكذب ويصر على ما أدخله فى نفوسهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم •

زواج النبی صلی الله تعالى علیه وسلم

بأم المؤمنین صفة

٥٣٣ — كان النبی صلی الله تعالى علیه وسلم شفیقا رقیقا رؤوفا فی ذات نفسه وبالناس . وقد رأى صفة وأختها . يمر بهما بلال رضی الله عنه فی وسط قتلی اليهود ، فنادى النبی صلی الله تعالى علیه وسلم بلالا لاأثما له قائلا : « الیس فی قلبك رحمة تمر بالفتاتین فی وسط القتلی من أهلها ، وكانت احدهما مدعورة نافرة وكانت صفة ساكنة مستسلمة تاركة نفسها للمقادیر .

والنبی صلی الله تعالى علیه وسلم كان یقرب القلوب ، ولا ینفرها ، وییسر ولا یعسر ، وكما كان علیه الصلاة والسلام یقول « یسروا ولا تعسروا ، واكفوا ولا تنفلوا » .

وقد كانت صفة فی قسمه ، فلم یرد أن یبقیها علی الرق أو أن یفرض علیها رقا تألیفا ورفقا ، وكان یمكن أن ینال ما ینال بملك الیمین ، ولم یكن حراما ، ولكنه یبغض الرق ولا یرید أن ینشئ رقا علی أحد قط ، وخصوصا اذا كانت ابنة رئیس القوم ، فهو لا یحب الذلة ینزلها بانسان بعد عزة . ولذلك اعتقها وتزوجها النبی صلی الله تعالى علیه وسلم وجعل صداقها عتقها ، وكان زوجها ابن عمها فی جملة القتلی .

ولقد دخل النبی صلی الله تعالى علیه وسلم بعد استبراء رحمها بحیضة تحيضها ، ولم یكن لها عدة ، لأنه لا عدة من كافر ، وخصوصا أن عدتها تكون عدة وفاة ، وهی تكون للاحداد علی الزوج السابق ، ولا احداد علی كافر ، ولكن لا یصح أن یدخل بحامل ، فتركها صلی الله تعالى علیه وسلم ، حتی تستبریء .

ولقد نظر رسول الله صلی الله تعالى علیه وسلم الى وجهها ، فوجد اثر كدمة فی وجهها فسألها عنها فقصت خبر رؤیا لها رأتها ، بعد بضع لیال من زواجها باین عمها ، وتلك أنها رأت فی منامها كأن قمر السماء وقع فی حجرها ، فقصت رؤياها علی ابن عمها ، فطم وجهها ، وقال : ائتمنین ملك یثرب أن یصیر بعلك ، وقد تحققت رؤياها وكانت صادقة ، فجاء النبی صلی

الله تعالى عليه وسلم وفتح حصونها وكانت في السبايا • فكرمها بأن اعتقها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجها •

ولقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة لزواجها ، وقال انس أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة بين خبير والمدينة المنورة ثلاث ليال فدعوت المسلمين الى وليمته ، وما كان فيها من خبز ولحم ، وما كان فيها الا أن أمر بلالا بالانطاع فبسطت فألقى فيها التمر والسمن ، فقال المسلمون أجدي أمهات المسلمين •

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رفيقا في معاملته لها ، وقد اعتذر لها عن قتل أبيها وزوجها ، إذ كان أبوها يحرض عليه القبائل ، ويؤلب عليه الناس وما كان يستطيع أن يتركه • يؤلب العرب عليه ، وقتل زوجها ، لأنه خان العهد وأخفى مال أبيه ، ونقض الذمة ، وكان يتألف قلبها بسماحته ورفقه ؛ حتى صار أحب الناس الى قلبها •

وان زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من السيدة صفية فيه فوائد اجتماعية ، فهو أولا يطفىء ما في قلوب المؤمنين بالنسبة لليهود ، وضرب المثل السامى في معاملة السبايا ، فهي كانت منهن ، فاختارها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوجا بدل أن يتخذ منها أمة يدخل عليها بملك اليمين ، وهو يضرب الأمثال في حسن العشرة الزوجية ، فيكون خير الناس لأهله ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » • وان هذا الزواج فيه مداواة للجروح المكرومة ، لقد امرها بلال على القتل من قومها ، فأكرمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وزرعها الى أعلى درجات النساء وهو أن تكون من أمهات المؤمنين •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلح بينه وبين اليهود فجعلهم شركاء للمؤمنين ، فكان من الحق أن يتألفهم ، وأن يراف بهم ، وان ذلك الزواج تأليف وتقريب ، وإبعاد للنفور ولكنهم جاحدون دائما •

غدر وسماحة

٥٣٤ — كان سلام بن شكم الحامل الأول للواء اليهود ، ولما قتل حمل غيره اللواء وقد بقيت امرأته من بعده بحقدتها وضغنها على من قتلوا زوجها عامة ، وخاصة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأرادت قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأداة القتل عند النساء ، وهو السم ، وتظاهرت بالمودة ، واتجهت الى اهداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شاة ، وضع السم في أجزائها ، وتعرفت ما يحبه النبي عليه الصلاة والسلام من أجزاء الشاة ، فقبل لها الذراع فزادتها سما ، وأكثرته فيها .

أهدت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الشاة ، فجاءت بها ووضعتها بين يديه ، تناول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذراع الشاة التي هي أحب أجزائها اليه ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، لعل ذلك لأنها أسرفت في وضع السم فيها ، فكان غريب المذاق ، ولذلك رماها من يده ولم يأكلها ولفظها ، وكان معه على الطعام صاحب له هو بشير بن البراء بن معرور ، فأكل هو الآخر ، فأساغها ولعل ذلك لعدم ظهور السم ، وإن كان كامنا ، ومات بشر من أكلته هذه ، ولكن ذلك لم يكن فور تناولها .

ولقد قال عليه الصلاة والسلام عندما لفظها : « إن هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم ودعا المرأة وسألها فاعترفت ، وصرحت بالعداوة قائلة : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، ثم أردفت ذلك بقولها ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر » .

وقد تجاوز عنها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن بشيرا لم يكن قد مات بأثر السم ، والا ما تجاوز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، لأنها قتلت نفسها غدرا وعامدة .

وإن عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان السماحة كلها ، والسماحة دائما تقرب ، ولا تنفر ، وإن العلماء يقولون إن هذا الفعل الذي لآك به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مضغة اللحم ، ولم يسغها كان له أثر في جسمه صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يقال إنه عندما ضعف جسمه الكريم بمرض الموت أحس به يسرى في بدنه .

يروى أنه قال في مرضه الذي توفي فيه ، لأم بشر بنت البراء بن البراء
ابن معرور ، وقد جاءت إليه تعوده قال لها : « يا أم بشر ان هذا الأوان وجدت
انقطاع ابهرى التي أكلت مع أخيك بخير » .

ويبينى العلماء على ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد مات
شهيدا .

وهكذا نجد غدرا واضحا ، وسماحة غالبية لداواة جروح النفوس ،
وإذا كان اليهود ابتداء قد حاولوا رمى الحجر عليه ، وهو جالس بجوار
جدارهم ، فقد حاولته امرأة حقوق بالسم تقتله به ، وظهر أثره عندما ضعف
بالمرض فمات شهيدا وهو أعظم الشهداء .

قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه

من المهاجرين

٥٣٥ هـ — انتصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى خير انتصارا مؤزرا ، أزال سلطان اليهود فى جزيرة العرب فقوض قوتهم العسكرية ، وفل من شوكتهم ، وجعل العدو يسير وراء الاسلام ، ولا يواجهه ، وبقي أن يعود الغرباء الى عزة الاسلام ، وقد خرجوا فرارا من اذلال المشركين ؛ عادوا ليتحملوا عبء الجهاد أعزاء ، بدل أن يبقوا مستضعفين ، ولو كانوا ضيوفا بين قوم كرماء وملك كريم .

عاد جعفر بن أبى طالب ؛ ومعه المهاجرون الذين هاجروا الى الحبشة ، ونالوا فضل الهجرتين ، لقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الرفيق ابن عمه الحبيب جعفر بن أبى طالب ، فقبله بين عينيه والتزمه ، وقال ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خير أم بقدوم جعفر .

عندما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزة الاسلام التى أعزها الله تعالى العلى القدير بها ، بعد غزوة الأحزاب ، وقد صار الاسلام يغزو أعداءه ، ويخضع شوكته ، ويدعو الناس بدعوة الحق ، وهو فى أمن ، وخصوصا بعد الحديبية عندئذ أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أتباعه بعد الحديبية : يدعوه الى أن يحضروا ليجاهدوا مع اخوانهم ، فهم فى غربتهم وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا عليهم ، يشعرهم بأنهم منه وهو منهم .

بعث الى النجاشى الكريم — عمرو بن أمية الضمرى ، ليسهل لهم عودتهم ، بعد أن أكرم ضيافتهم ، فحملهم فى سفينتين ، فقدم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بخير .

عاد المهاجرون الى الحبشة ، وكانوا من بطون مختلفة ، ومن أسر قرشية ، وغير قرشية . مختلفة ، جمعهم الحق والايمان والهجرة . وان فرقت البطون والأسر .

فكان من الهاشميين جعفر بن أبى طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس الحيثمية وولد له فى الحبشة عبد الله بن جعفر .

ومن بنى أمية خالد بن سعيد بن العاص ، وامراته وابنه سعيد بن خالد .

ومن بنى عبد الدارين قصي الأسود بن نوفل بن خويلد .

ومن بنى تيم بن مرة بن كعب الحارث بن صخر وامراته .

وهكذا من بطون قريش وقد أحصاهم ابن اسحاق عدا فكان عددهم ستة عشر رجلا ، ومعهم أولادهم الصغار الذين صحبوهم أو ولدوا في الحبشة .

وكان ممن حضر أبو موسى الأشعري ، وعدد من الأشعريين ، كانوا هم عم أبي موسى الأشعري وأخاه أبا بردة .

وقد كان مع مهاجري الحبشة في السفينتين نساء من هلك من المسلمين هنالك .

وقد روى البخاري أن أبا موسى الأشعري لم يكن من مهاجري الحبشة ، بل كان ممن آمن بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو باليمن ، ولما علم بهجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هاجر اليه ، فالتقى في الحبشة بجعفر بن أبي طالب ، ولنترك الكلمة للبخاري عن أبي موسى الأشعري قال « بلغنا مخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجنا مهاجرين اليه . . . » في ثلاث وخمسين رجل من قومي ، فركبنا سفينة فالتقنا سفينتنا الى النجاشي بالحبشة ، فرافقنا جعفر بن أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا ، فرافقنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فكان أناس من الناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة ، » .

ويروى البخاري مناقشة كانت بين أسماء بنت عميس امرأة جعفر ابن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . ذلك أن أسماء زارت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها . فدخل عمر أبو حفصة وعندها أسماء .

فقال عمر : الحبشية هذه البحرية هذه .

قالت أسماء نعم .

قال عمر رضى الله عنه : « سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فغضبت أسماء وقالت ، كلا والله كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطعم جائعكم ، ويعط جاهلكم وكنا في دار البيداء والبغضاء بالحبشة ، وذلك في الله ، وفي رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم ، وأيم الله لا أطعم طعاما ، ولا أشرب شرابا ، حتى أنكر ما قلت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأسأله ، لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه ، •

ذهبت فى هذه الحماسة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت : يا نبي الله : ان عمر قال كذا وكذا وقلت كذا وكذا •

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حاكما بين هذين المؤمنين المخلصين : « ليس بأحق منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » •

هذا حديث كان يجرى بين الصحابة أيهما أسبق للهجرة أولئك الذين هاجروا من مكة المكرمة ان هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة ، أم أولئك الذين هاجروا فرارا من فتنة المشركين ، وبسبب بعدهم وغريبتهم لم يهاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ، بل حبسهم البعد والغربة عن أن يهاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وفى ذلك الشرف والاخلاص فليتنافس المتنافسون ، وفى كل فضل ، فالذين هاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نالوا نعمة الجهاد فى غزوات وسرايا ، فجاهدوا فى بدر وأحد ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، ثم تحملوا البلاء فى حفر الخندق ، وزلزال غزوة الأحزاب فى الخندق ، ثم كان لهم فضل الصبر فى الحديبية ، وليس صبر القتال ، ولكنه صبر النفس ، وضبطها ، ثم بيعة الرضوان •

وفضل مهاجرى الحبشة أنهم كانوا فى غربة معزولة ، وكانوا مستضعفين فى الأرض ييغون الجهاد ولا يدركونه ، حتى أنقذهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءوا اليه ليحملوا عبء الجهاد كإخوانهم ، ويزول عنهم بلاء الاغتراب الى بلاء الجهاد ، وعزته •

وادی القرى

٥٣٦ — كان حول خيبر أو على مقربة جيوب لليهود ، لم يقدها مزائم أهل الحصون فكانوا يعلون برءوسهم حامبين أنهم ينالون من المسلمين نيلا •

فكان اليهود بوادی القرى ينهدون برءوسهم ، ولم يعتبروا بما كان فى

خير ، وبينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوادى القرى أصيب رجل من المؤمنين بسهم فقتل .

وأخذ يهود وادى القرى ، يجمعون أنفسهم ، وانضم اليهم ناس من العرب ، فلم يكن بد من القتال وهم أهون فى أنفسهم وعند الله من خير ومن كان وراءهم .

هيا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه للقتال وصفهم ، وأعطى اللواء سعد بن عبادة ، وأعطى راية الى الحباب بن المنذر ، وراية الى سهل ابن حنيف ، وراية الى عباد بن بشر ، تقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم الى الاسلام ، وأخبرهم أنهم ان أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحققوا دماءهم وحسابهم على الله .

فلم يجيبوا داعى الله ، وأثروا القتال فخرج رجل منهم يطلب المبارزة ، فبرز اليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز اليه على فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر ، وكلما قتل رجل منهم كرر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الدعوة الى الاسلام ، والى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولكنهم نمووا وصموا عن دعوة الحق ، فكان القتال الذى ابتدئوه بالسهم القاتل لرجل من المؤمنين ولم تجدهم الدعوة الى الاسلام ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى كلما حضر وقت الصلاة ، ثم يدعوهم لم يجد ذلك كله فقاتلهم ، حتى أمسى ، وعدا عليهم ، فلم ترفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم من مال وسلاح وبذلك فتحت أرض وادى القرى عنوة ، ولم تكن بصلح كفك ، وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة أيام ، ذهب بعدها الى تيماء .

ولقد قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أموال وادى القرى ، كما قسم خير ، فكانت الأموال ابتداء مخمسة أربعة أخماس للفاتحين وخمسا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والأرض والنخيل بقيت فى أيديهم على أن يكون لهم نصف ما تنتج ، وللنبي صلى الله تعالى عليه وسلم النصف ، وتكون الثمار والزروع موزعة توزيع الغنائم .

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقوم بهذه القسمة على اعتبار أن كل أموال خير ، ومن سار مسارها ، وهم أهل وادى القرى ، غنائم خمس ، وقد خمس الأموال المنقولة وخمس نتاج الأرض والنخيل ، وبقيّة الأموال الثابتة .

وذلك لأن الفاتحين من أهل المدينة المنورة كانوا عددا قليلا ، ولم يكونوا كثرة كبيرة وكان جميع أهل المدينة المنورة مجاهدين ، وكان نصيب الفقراء والمساكين واليتامى ثابتا ، غير موزع على غيرهم ، والكراع والسلاح وما يحتاج إليه النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤخذ من حصة الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ يستبقى لنفسه من هذا الخمس نفقة سنة ، وينفق الباقي على المصالح العامة للمسلمين .

ولما جاء عهد عمر رضي الله عنه نفذ الأمر في خير ، وما يشابهها كما قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يتضمن المعاني التي ذكرناها ، وهو بقاء الأرض تحت أيدي أهلها ، وكان يقول رضي الله تبارك وتعالى عنه « أما والذي نفسي بيده لولا أن أترك آخر الناس ليس لهم شيء ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خير ولكني أتركها خزانة لهم يقتسمونها » .

ولذلك ترك أرض سواد العراق في أهلها ، وجعل خراجها لمصالح المسلمين مستندا إلى ما قرره القرآن الكريم بالنسبة لأرض بني النضير ، ونعتقد أنه هو ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أرض خير ، فمعناه لا يخرج عنه ، لأن جماعة المؤمنين كانوا جميعا مجاهدين أو يتامى أو أبناء سبيل أو مساكين ، ولكل حظ ، وكان أولئك معروفين في المدينة المنورة . فلما اتسعت رقعة الدولة كان الخراج موزعا على مصالح المسلمين ، وسد حاجة المحتاجين بشكل عام .

صلح تيماء

٥٣٧ — بما كان في خير وادي القرى انتهت قوة اليهود العسكرية في بلاد العرب ، ولكن بقي فيها ناس لم يخضعوا لحكم الاسلام وسلطانهم ، ويكونون تابعين له من غير أن يضاروا في دينهم ، ولا يرهقوا في عقائدهم وهم يهود تيماء ، وكانت على مقربة من الشفاء ولم يعتبر الامام عمر رضي الله عنه أرضهم من أرض العرب التي لا يجتمع فيها دينان .

وأهل تيماء من اليهود عندما علموا ما نزل بخير وادي القرى ، وما سامحهم فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من معاملة عندما علموا ذلك لم يريدوا قتالا ، وجاءوا ودفعوا الجزية ، وصالحوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليها وجزيتهم كانت جزية على الأرض وهو الخراج ، وجزية على الرؤوس على ما هو مبين في كتب الفقه ، واعطاء الجزية اقرار بخضوعهم

لحكم الاسلام على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من أحكام القصاص والحدود ، وستتكم بعد ذلك فى الأحكام الشرعية التى اخذت من أقوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة خيبر ، وما جاء بعدها ، فانا لا نترك ذلك ، ولكن أخرناه حتى ننتهى من القتال والحرب والتسليم وشروطه .

اجلاء عمر لليهود

٥٣٨ — أجلى عمر بن الخطاب لليهود ، يهود خيبر ووادى القرى الذين يسكنون فى الجزيرة العربية عملا بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان » .

ولكنه لم يجل أهل تيماء ، لأن أرضهم لم تكن فى داخل الجزيرة ، بل كانت فى أطراف الشام ، وهم قد قبلوا أن يكونوا ذميين لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينقض أحد منهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم تفتح أرضهم عنوة ، بل كانت صلحا ، فلم تكن ذمة مشابهة بينهم وبين خيبر ووادى القرى ، والحديث النبوى لا ينطبق عليهم ، لأنهم كانوا فى طرف الشام الذى يصاقب جزيرة العرب ، وبذلك جمع عمر رضى الله عنه بين المحافظة على عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومصلحة المسلمين جزاء الله تعالى عن الاسلام خيرا .

الأحكام الشرعية التى تقررت فى خيبر

٥٣٩ — كثرت الأحكام التى شرعت فى أثناء غزوة خيبر لطولها ، ولتنوع أحداثها ، وهى جزء من تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رسالة ربه فما كان نبيا للقتال ، بل كان نبيا مبلغا رسالة ربه ؛ فهى المطلوب فى السلم وفى الحرب ، وهى مطلوبة بالذات والقصد الأول ، وما كانت الحرب الا دفاعا ومنعا للفتنة ، وتعبيد الطريق لى تسير فى مسارها لا يحول حائل بينها وبين القلوب ؛ ولا اكراه فى الدين من بعد أن تصل الدعوة « فمن اهتدى لنفسه ومن ضل فانا مضل عليها ؛ وما ريك بظلام للعبيد » . فالدعوة هى لب الرسالة والحرب لدفع ما يعترض طريقها .

ومن اظهر الأحكام الشرعية التى ثبتت فى خيبر .

إباحة المزارعة والمساقاة :

• ٥٤ — وأظهر الأحكام هو ما صنعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع أهل من دفع الأرض اليهم على نصف غلاتها والأرض مملوكة للمسلمين • فدفعها اليهم على نصف الغلات مزارعة ومساقاة • لأن دفع الأرض لزراعتها على سهم معلوم للمالك مزارعة • ودفع الشجر لاصلاحه على سهم معلوم للمالك مساقاة • والاتفاق بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين يهود خيبر • يتضمن الزرع واصلاح الشجر فهو يتضمن مزارعة ومساقاة معا •

ومن قال ان عقد المزارعة فاسد ، فقد رد السنة وذلك غير جائز •

وان المزارعة والمساقاة اجارة ابتداء ، وقد تكون اجارة فاسدة • وهى مشاركة انتهاء وان ذلك وصف فقهي ؛ وليس حكما شرعيا والحكم الشرعي ؛ قد ثبت بفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانه صحيح فلا مشاحة فيه ، والمفقهاء أن يطبقوا آقيستهم الفقهية كما يرون ما يكون منها صالحا للتطبيق وما لا يكون صالحا يردونه وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • وما يؤدى اليه من اباحة فوق ما يقررون من آقيسة قد تخطيء وقد تصيب ولا قياس مع النص •

وان هذه المزارعة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يقدم البذر ، بل كان البذر والعمل من العامل وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيز ذلك النوع من الزراعة كما يجيز أن يكون البذر والأرض من صاحب الأرض ، وكما يجوز أن يكون البذر منهما •

ويشبه ابن القيم الأرض برأس المال فى المضاربة ، وقد يضيف اليه المالك البذر وربما لا يضيفه كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ومهما يكن الوصف الشرعى عند الفقهاء فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد فتح باب الاستغلال لمن له أرض ولا يستطيع زراعتها بنفسه ، لمشاغل تشغله كالأولئك المجاهدين أو المرضى • أو لعدم خبرة أو غير ذلك من الأسباب المعوقة له عن الزراعة بنفسه •

وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم الثمرات قسمة الغنائم ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم العليم •

تحريم اكل لحم الحمر الانسية :

٥٤١ — ثبت نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن اكل لحم الحمر الانسية ، وأباح عليه الصلاة والسلام اكل لحم الخيل ، فقد رأى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعض أصحابه يأكلون لحم الحمر الانسية ، فى خيبر فنهاهم عنها ، روى ابن اسحاق بسنده عن بعض من شهد خيبر قال اتانا نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن اكل لحوم الحمر الانسية ، والقُدور تفور بها ، فكفاناها على وجوها .

وقد روى الحافظ بن كثير انه نادى منادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فانها رجس فاكفئوها ، والقُدور تفور بها » .

وان هذه النصوص الواردة فى تحريم لحوم الحمر الانسية صحيحة تضافرت رواياتها من عدة جهات ، وهنا يسأل الباحث لماذا كان تحريمها ، وهى تأكل العشب ولا تأكل اللحم وليست ذات ناب ، ولا تعد من السباع المنهى عنها بأى صورة من الصور .

يقول بعض الباحثين ، ومنهم بعض التابعين ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عنها فى خيبر ، لأنها كانت تحمل الأمتعة ، وكانت ضرورية للناس فى استعمالها ، ولذلك قال ابن عباس انها ليست حراما لذاتها ولكن كانت فى خيبر ممنوعة الأكل لهذا .

ولكن يرد ذلك التأويل أمران :

أولهما : ان الخيل كانت ألزم للجهاد من الحمر . ومع ذلك أبيحت لحومها مع ان الحاجة اليها اشد والزم — الأمر الثانى — ان صريح الحديث الذى رواه ابن اسحاق انها رجس فهى محرمة لذاتها أى لحمها وان فيه ما يمنع أكلها .

ولقد قيل فى سبب تحريمها فى خيبر بالذات ان الحمير فى خيبر كانت قذرة لأنها جلالة وكانت تأكل العذرة .

وقيل ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منع أكلها ؛ لأنهم كانوا يأكلونها قبل قسمتها من الغنائم ؛ وقد يقال انه يناقضى ذلك وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : بانها رجس . ولكن يجاب عن هذا بانها كانت رجسا أى مالا خبيثا ، لأنها لم تكن قد قسمت ، فمعنى رجسها انها لم تكن كسبا حلالا طيبا بل كانت كسبا خبيثا غير طيب .

ويقول الحافظ بن كثير فى تاريخه : ان تحريمها هو مذهب جمهور العلماء سلفا ، وخلفا ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، ولعل من المفارق فى مذهب مالك أن يحرم لحم الحمر الانسية ، ويبيح أكل لحم الكلب ، وله فى اباحة لحم الكلب اجتهاد يتصل بنص قرآنى ، إذ أن القرآن الكريم أباح أكل صيده فى قوله تعالى : « يسألونك ماذا أحل لكم ، قل أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله ، أن الله سريع الحساب » . ويقول الامام مالك فى ذلك ، كيف يؤكل صيده ، ويحرم لحمه .

وبعض العلماء لهذه التاويلات المختلفة . قال ان أكل لحمها مكروه ، لأن التحريم يثبت بدليل يقبل التاويل ففيه شبهة ! ومال ذلك الكرامة لالتحريم القاطع .

تحريم سباع البهائم :

٥٣٢ — ثبت فى غزوة خيبر تحريم أكل سباع البهائم ، وهى الحيوانات التى تعيش على أكل اللحوم ، أو كل ذى ناب ، كما يعبر الحديث النبوى ، فقد روى ابن اسحاق بسنده أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى يومئذ — أى يوم خيبر — عن أربع : عن اتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلى ، وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم .

وقد تكلمنا فى النهى عن أكل لحوم الحمير الأهلية .

ونتكلم الآن عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وهو ما يسمى فى عرف الفقهاء بسباع البهائم ، وهى محرمة لذاتها ، لهذا النص ، ولحمها نجس ، ولعابها وهو تبع للحمها نجس أيضا .

هذا وان لحم سباع البهائم ، أو كل ذى ناب كما عبر القرآن الكريم يكون حراما بالنص ، ويحرم سباع الطير ، كالنسر والحدأة والغراب وغيرها من أكلة اللحوم بالقياس على ذى الناب من سباع البهائم .

تحريم وطء الحبالى من السبايا وغيرهن :

٥٤٣ — ثبت تحريم الدخول بالحبالى من السبايا ، وقد ورد ذلك فى الحديث السابق المروى بسند ابن اسحاق رضى الله تبارك وتعالى عنه .

وقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره » (يعنى الحبالى من السبايا) ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما ، حتى يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فء المسلمين حتى اذا أعجبها ردها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس من فء المسلمين ، حتى اذا أخلقه رده .

ونرى أن الحديث منع امورا تتعلق بالمغانم ، ومنع الدخول بالحبالى من السبايا ، ونريد أن نتكلم فى هذا الجزء الأخير ، لأنه موضوع قولنا ، ونؤخر الباقي .

والكلام فى الدخول بالحبالى ، وقد نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينه عن سببه فيما يتعلق بالسبايا . ذلك أن سبب الدخول بالسبايا هو ملك اليمين ، فلم يكن ثمة نهى عنه ، بل الملكية تثبت ، ولكن لا يترتب عليها أثرها وهو الدخول ، لأنه اذا كان السبب قد وجد ، فقد كان المانع ، وهو كونه حاملا ، وأن دخوله يسقى به ماءه زرع غيره ، وهو النهى عنه . فلا بد قبل أن يدخل بالسببية من استبراء رحمها بالولادة ان كانت حاملا ، وأن تحيض مرة اذا كانت حائلا ، لأن الحيض اشارة أنه لا حمل ، فيحل الدخول وان السبب هنا ، وهو الملكية حكم شرعى ، ثبت بحكم تقسيم الغنائم ، فهو سبب شرعى ، وليس بسبب جعلى يقوم به المكلف .

ونثير هنا بحثا هل السبب الجعلى ، وهو عقد الزواج يكون كالسبب الشرعى ، بأن يحل عقد الزواج على الحامل ، كما يثبت سبب الملكية .

لقد فصل الفقهاء الأمر فى ذلك بالاستناد الى ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من وجوب العدة من كل دخول كان بسبب امر ليس حراما عند الشارع ، أو عقا عنه . فان العقد على الحامل حرام وذلك لأن لها عدة ، ولا عقد فى حال العدة ، فاذا كان من زواج صحيح أو دخول بشبهة تسقط الحد ، وتمحو وصف الزنى ، فان العقد لا يصح ، لأنها ذات عدة ، والعقد على معتدة باطل ، ولذلك يكون السبب باطلا ، والدخول يكون زنى .

واذا كانت حاملا من زنى ، فهل يجوز الدخول وهل يصح العقد ، اتفق الفقهاء على أن الدخول لا يجوز ، لأنه ينطبق عليه الحديث لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره ولكن يصح انشاء العقد على الزانية .

قالوا انه اذا انتهت عدتها يصح العقد بالاجماع اذا ثابت ، واذا كانت

العدة لم تنته ، فانه من المقررات الشرعية أنه لا عدة للزانية ، ولو كانت حاملا
بيد أنه يصح الزواج من غير الحامل . أما الحامل فينعقد زواجها من صاحب
الحمل ، لأنه لا يسقى ماءه زرع غيره ، وكره بعض الفقهاء أن يدخل بغير
الحامل قبل استبراء الرحم .

أما إذا كان العاقد غير صاحب الحمل ، فقد قال بعض الفقهاء يصح
الزواج ولا يدخل بها كما بينا ، أما صحة الزواج فلأنه لا عدة لها تمنع
صحته ، لأنها ليست في عصمة أحد ، والزاني لا عصمة له .

وأما الدخول بها فممنوع بنص الحديث الذى ينص عليه فى غزوة خيبر ،
وهو عام فى منع أن يسقى ماءه زرع غيره ، ونسب هذا القول الى أبى حنيفة
والشافعى ومحمد من أصحاب أبى حنيفة .

وقالت طائفة أخرى من الفقهاء منهم مالك وأبو يوسف من أصحاب
أبى حنيفة وأحمد فى رواية عنه وزفر من أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنهما
أن الزواج لا يصح ، لأنه إذا كان الدخول لا يجوز وهو غاية العقد ، لأن القصد
الأول المتعة ، ولا فائدة من عقد لا تترتب عليه لوازمه ، ومادام النبى صلى
الله تعالى عليه وسلم قد نهى عن الدخول بالحامل ، بالنهى عن أن يسقى ماءه
زرع غيره فقد نهى عن الزواج ، لأن النهى عن الأمر اللازم نهى عن الملزوم .

ولأن النهى لأجل حق الحمل ، وحق الحمل يراعى ، لأنه لا جناية منه .
وإذا عقد على المرأة وتبين أنها كانت حاملا وقت الزواج فإن العقد
لا يكون صحيحا ، لأنه لا يفرض أنها كانت حاملا من زنى ، إذ يجب حمل
حال المؤمن على الصلاح ، بل يفرض أنه كان من زواج وشبهة تسقط الحد
وتمحو وصف الزنى .

قسمة الغنائم وما لا تقسم منها ودقتها :

٥٤٤ — ثبت أن المال الذى يقسم غنيمة الأموال المنقولة وثمرات
الأموال غير المنقولة ويكون للرسول صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل الخمس ، وأربعة الأخصاس للغنمين ، وأنه يعطى
للراجل سهم ، وللفرس ثلاثة أسهم سهران للفرس ، وسهم لصاحبه ، وذلك
لأن نفقات الفرس كبيرة ، ويريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن تكون ذات
قوة دائما لأنها عدة القتال ، ولتشجيع المجاهدين على اتخاذها للجهاد ، وفى
بعض الروايات أنه جعل للفرس سهما ، ولصاحبها سهم ، ولكنه غير الرواية
المشهورة .

وانه يلاحظ امران بالنسبة للغنائم :

اولهما : انها لا تملك قبل القسمة ، ولذلك صرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة خيبر انه لا يجوز بيع من له فيها قبل ان يقسم له قسم ويدخل فى حوزته ، ولذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روينا من قبل ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يبيع مغنما قبل ان يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يركب دابة من فئ المسلمين ، حتى اذا اعجبها ردها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يلبس يوما من فئ المسلمين ، حتى اذا اخلقه رده . وهذا الحديث يدل على انه لا يملك . ولا يصح ان ينتفع به قبل القسمة .

الامر الثانى : الذى يجب التنبيه عليه ان الطعام الذى لا يدخر ، لا يخمس ، لانه لا يعد غنيمة ، ولانه يدفع غائلة الجوع الذى يصيب المجاهدين ، وحال مغبة الجوع ، وكان الجوع يصيب المسلمين فعلا فى غزوة خيبر ، وانه اذا لم يتناول قبل القسمة كان الناس فى مخمصة ، والطعام بين ايديهم ، وان ذلك ابتلاء فوق الابتلاء بالجهاد والصبر على شدائده .

يروى ابن اسحاق بسنده عن عبد الله بن مغفل ، المدنى انه قال « اصبت من خيبر جراب شحم فاحتملته على عنقى الى رحلى واصحابى ، فلقينى صاحب المغانم الذى جعل عليها ، فأخذه بناحيته ، وقال هلم ، حتى تقسمه بين المسلمين ، قلت لا والله لا أعطيه وجعل يجاذبنى الجراب ، فرأنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتبسم ضاحكا ، ثم قال لصاحب المغانم خل بينه وبينه ، فأرسله ، فانطلقت الى رحلى واصحابى فأكلناه » .

وهناك امر يجب التنبيه عنه ، وهو غلول الغنيمة ، فهو محرم تحريما قاطعا ، لانه سرقة فى مال الله تعالى : « وما كان للنبي أن يغفل ، ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يغفل ، ، وليس من شأنه وكماله أن يغفل هو ، أو يقر غلول أحد ، أو يسكت عنه ، والغلول الأخذ من الغنيمة خفية ، واذا كان لا ينطبق عليه حد السرقة ، لأن مال الغنائم ليس فى حرز مثله ، ولأن المحارب له شبه حق فيه ، والحدود تدرأ بالشبهات ، فانه شدد الله تعالى فى عقوبته فى الآخرة ، وفى غزوة خيبر ؛ بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شدة العقوبة فى الآخرة .

وقد كان بين المحاربين رجل اسمه مدعم ، وقد أخذ من الغنائم شملة ،

وفتش متاعه بعد مقتله فوجد فيه مع الشملة خرزا من حرز يهودى يسارى
درهمين ، وهو غلول مهما تكن قيمته .

وقد جاء سهم فقتله وهو بوادى القرى ، فقال الناس هنيئا له بالشهادة
فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « كلا والذي نفسى بيده ان الشملة التى
أخذها يوم خيبر ، لم يصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا » فأخرجه النبى صلى
الله تعالى وسلم من صفوف الشهداء بفعلته التى فعلها .

الامانة واجبة مع الأعداء :

٥٤٥ — ان الامانة عدالة ، بل ان العدالة ذاتها تدخل فى ضمن
الامانات ولذلك قرنها سبحانه وتعالى بها فى قوله تعالى : « ان الله يأمركم ان
تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ، ان
الله نعم بما يعظكم به » .

وفى غزوة خيبر بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن الامانة فى مال
الأعداء واجبة ، لا تبرر العداوة اهمالها ، واذا كانت أموال الأعداء تغنم
فى القتال ويأخذها المسلمون ، ويقسمونها بينهم ، فان ذلك قانون الحروب ،
وليس من قانون الاسلام خيانة الامانة ولو لعدو يحارب .

روى موسى بن عقبة عن عروة بن الزبير أنه جاء عبد حبشى أسود من
أهل خيبر ، كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد حملوا السلاح سألهم
ماذا تريدون ؟ قالوا نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فوقع فى نفسه
ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقبل بغنمه ، حتى عمد الى رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الى من تدعو ؟ قال ادعوك الى الاسلام ،
ان تشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله وألا تعبد الا الله ، فقال العبد : فماذا
يكون لى ان شهدت بذلك ، وأمنت بالله ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم : الجنة ان مت على ذلك ، قال الرجل المؤمن يا رسول الله ان هذه الغنم
عندى امانة ، ان كان يرعاها وهنا أمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن
يؤدى امانته ، ولم يقل انها غنيمة للمسلمين ، ولم يضمها الى أموال الله ، لأن
الامانة يجب أن تراعى لذاتها ، لا فرق فيها بين عدو محارب ، وولى مناصر ،
بل قال الرسول الأمين : أخرجها من عسكرنا ، وارمها بالحصا ، فان الله
سيؤدى عنك امانتك ففعل ، فرجعت الغنم الى سيدها فعرف اليهودى أن غلامه
قد أسلم .

ولقد قتل ذلك العبد الأمين بأمانة الله تعالى فى خير شهيديا ، فادخل فى
قماط الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان هذا درس حكيم للذين يخونون أموال الناس ، ويبررونها بعداوة
لهم ، وقد يكونون ظالمين فى العداوة كما هم ظالمون بالخيانة ، والله عليم بذات
الصدور .

النبى صلى الله عليه وسلم تفوته الصلاة :

٥٤٦ — ان الأعداء تكون على الناس أجمعين ، والنبى صلى الله
تعالى عليه وسلم من أصل البشرية ، فيجرى عليه ما يجرى على الانسان ،
ويرهقه ما يرهق الانسان .

ولقد كان فى خير ان نام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى اشرقت
الشمس ، وقد وقف حارسه ينبهه اذا نام ، ويوقظه اذا استغرق الناس ،
فضرب الله تعالى على آذانه أيضا فنام ولم يوقظ حتى اشرقت الشمس ، ومع
ان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ، ففى خير
استغرق صلى الله تعالى عليه وسلم فى النوم بعينه . وان كان قلبه يقظا
لم ينم ، وذلك ليعلم الله تعالى انسانيته ، وليكون عمله أسوة للناس فى تدارك
ما فاته ، لأن المؤمنين يتخذونه أسوة حسنة ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم
قال صلوا كما رأيتمونى أصلى ، فهو يبين لهم الصلاة فى حال الأداء وحال
القضاء معا .

ولنذكر قصة ذلك ، كما جاءت فى صحاح السنة وفى كتب السيرة — فى
غزوة خير . روى أبو داود بسنده ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
حين قفل راجعا من خير ، سار ليلا حتى أدركنا الكرى ، وقال بلال كلاً
الليل ، وبلال يحرسه ، وغلبت بلالا أيضا عيناه ، وهو مستند الى راحلته فلم
يستيقظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بلال ، ولا أحد من أصحابه حتى
ضربت الشمس ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولهم استيقاظا ،
ففزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال يا بلال فقال أخذ بنفسى
الذى أخذ بنفسك بأبى أنت وأمى يا رسول الله . فاقتادوا رواحلهم
شيئا ، ثم تواضوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر بلالا ،
فاقام الصلاة ، وصلى بهم الصبح ، فلما أن قضى الصلاة قال من نسي صلاة
فليصلها اذا ذكرها ، فان الله تعالى يقول : « واقم الصلاة لتذكرى » وان هذا
الحكم يستفاد منه أمران :

أولهما : وجوب قضاء الصلاة إذا فاتته بنوم أو نسيان مما لا قبل له بدفعه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها » .

ثانيهما : أن قضاء الصلاة كما يكون بالانفراد يكون بأدائها جماعة مع إقامة الصلاة ، وذلك بلا ريب هو الأفضل ، لأن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، فالجماعة لا تسقط عند القضاء ، كما يتوهم بعض الناس .

ويجب أن نبين هنا أن بعض الفقهاء يقرر أن القضاء يغني غناء الأداء في حال فوات الصلاة بالنوم والنسيان ، ولا يغني القضاء غناء الأداء إذا كان فوات الأداء من غير هذين العذرين . ويكون القضاء واجبا في هذين العذرين ولا يكون واجبا في غيرهما .

بل إن التوبة تكون هي الرافعة للآثم ، والقضاء لا يغني عنها ، وذلك لأن فوات الوقت وترك الصلاة من غير عذر لا يسقط وجوب أدائها ، فلا يغنيه قتيلا القضاء بعد ذلك ، لأن الصلاة ليست نقدا يكون في مقابل نقد ، إنما الصلاة شرعت تهذيبا للنفوس في مواقيتها ، فهي عبادة مقصودة في أوقاتها لتجلو صدأ القلوب في الصباح ، وصدأها في الظهيرة ، وفي الأصيل وفي العشية ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات الأرض ، وعشيا ، وحين تظهرون » فالصلاة في أوقاتها مطلوبة في ذاتها وفي الوقت تطهيرا للنفس ، وإزالة لصدئها ، ولا تترك حتى يعلوها الصدأ ويتراكم فلا يزال ، ولا يصلح ذلك الآثم إلا التوبة .

ونحن نرى أنه لابد من التوبة وقد يجدى القضاء مع التوبة ، والله تعالى غفار لمن تاب وآمن ، ثم اهتدى .

تحريم المتعة في خير

٥٤٧ — جاء في تاريخ الحافظ بن كثير ، وقد تكلم الناس في الحديث الوارد في الصحيحين عن طريق الزهري عن عبد الله والحسن ابني محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر ، وعن لحوم الحمر الأهلية هذا لفظ الصحيحين عن طريق مالك وغيره عن الزهري ، وهو

يقتضى تحريم نكاح المتعة يوم خير ، وهو مشكل فى وجهين : أحدهما : أن يوم خير لم يكن ثم نساء يستمتعون بهن ، إذ قد حصل الاستغناء ، بالسبايا عن نكاح المتعة . **الثانى** : أنه قد ثبت فى صحيح مسلم عن الربيع بن مسيرة عن معبد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لهم فى المتعة زمن الفتح ، ثم لم يخرج من مكة المكرمة حتى نهى عنها ، وقال : « أن الله تعالى حرمها الى يوم القيامة » ، فعلى هذا يكون قد نهى عنها ، ثم أذن فيها ثم حرمت فيلزم النسخ مرتين ، وهو بعيد ، ومع هذا فقد نص الشافعى على أنه لا يعلم شيئا أبيح ثم حرم ، غير نكاح المتعة ، وما حدها الى هذا الا الاعتماد على هذين الحديثين .

ان هذا الذى ساقه الحافظ ابن كثير يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن المتعة فى خير ، وما أقامه من اشكال لا يرد الحديث الصحيح الذى اجمع عليه الشيخان .

فالاشكال الذى ساقه بتوافر السبايا فى خير يدل على النهى ويؤكد ، ولا ينقضه ، لأنه حيث توافرت السبايا لا يكون شكوى من العزوبة ، فلا يكون للمتعة موضع ، فلا يكون اذن ، فهو موثق للتحريم وليس يناقض له .

اما الاشكال الثانية : فقد رده هو بتكرار الاذن ، ثم تكرار النهى ، وكونه بعيدا فى نظره يرد كلام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، واذا كان بعيدا ، فانا نرجح حديثا اجمع عليه الشيخان على حديث انفرد به أحدهما .

ومهما يكن ما ارتأه الحافظ ابن كثير من مشاكل حول حديث الشيخين ، فانه من المؤكد أنه كان ثمة نهى عن المتعة فى خير ، سواء أجاز اذن بعد ذلك ، ثم نهى أم لم يجزى .

حقيقة المتعة :

٥٤٨ — وجد فى هذه الأيام ناس فى مصر لا حريجة تدفعهم ولا دراسة تمنعهم ، يدعون الى المتعة ، فعلى أن نذكر حقيقتها . كما هى عند الذين يدعون اليها ، ومن حقيقتها يتبين أنها متفقة مع المبادئ الشرعية المقررة فى الزواج ، وهى مبادئ علمت من الدين بالضرورة .

وقد عرفها العلماء بأنها اتفاق بين رجل وامرأة بحضرة شهود على أن يعاشرها مدة معلومة ، على مهر ، أو أجر معلومة ، وقال صديق خان فى

كتابه سيل السلام لا تتجاوز مدتها خمسة وأربعين يوما ، ولكن المشهور أنها تصح بأكثر من هذه المدة •

وإذا أخلت المرأة بتسليم نفسها جزءا من المدة نقص من الأجرة ما يقابلها ، فهي أجارة لبضع المرأة كاجارتها للرضاعة •

وتختص بالأحكام الآتية :

١ - لا توارث فيها ، فإذا مات أحد الطرفين لا يرثه الآخر ، لأن الميراث ثبت بين الزوجين وهما ليسا زوجين باتفاق الفقهاء •

٢ - لا يقع فيها طلاق ولا ظهار ولا إيلاء ولا غير ذلك مما هو من أحكام إنهاء الزواج ، ولكن ينتهى الأمر فيها بانتهاء المدة •

٣ - أن العدة فيها حيضتان لا تزيدان عن خمسة وأربعين يوما ، أو بأقل الأجلين •

٤ - أنه ليس فيها عدة وفاة ، لأنها خاصة بالأزواج ، بل العدة هي حيضتان ، وأخيرا هي عند الذين أباحوها من الشيعة ليست من الزواج فى شيء مطلقا ، فذلك الأحكام التى ذكرناها منقولة من كتبهم ، منها أخذناها ، وفيها نردها •

وان الأحكام التى يقرها لها الشيعة الامامية التى أجازوها تنبى لأمحالة الى أنها ليست زواجا ، وليس لها أحكام ، وهى من قبل اتخاذ الخلل كما يعبر الأوروبيون ، وكما هى لغة الفساق فى هذا العصر ، أو بتعبير هى من قبيل اتخاذ الأخدان المنهى عنه فى القرآن الكريم نهيا أبديا قاطعا ، ان لا يصل فى العلاقة بين الرجل والمرأة الا الزواج ، الذى يكون ما عداه امتحانا للمرأة ان تتخذ متاعا ، لقضاء لبانة الرجل يذوقها ، ثم يرميها ، ويستأجرها مستمتعا بأجر ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى مبينا أن الفروج لا تحل الا بالزواج ، أو بملك الايمان ، فقال الله سبحانه وتعالى فى وصف المؤمنين : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » •

فهذا النص قاطع فى أنه لا تباح الفروج الا بالزواج ، أو ملك اليمين ، وأن من ابتغى وراء الزواج أو ملك اليمين فهو عاد أثيم ، فالذى يتخذ المتعة فى الفروج عاد أثيم •

ولقد نهى القرآن الكريم نهياً قاطعاً عن اتخاذ الأخدان ، وليست المتعة إلا من قبيل اتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل ، كما ذكرنا فتحريمها ثابت بنص قرآنى ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى • « واحل لكم ما وراء ذلكم » أى أحل لكم الزواج غير تلكم المحرمات السابقات « أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان » فاتخاذ الأخدان حرام بهذا النص ، ويقول الله سبحانه وتعالى فى شأن زواج الاماء ، « ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيماكم من فتياتكم المؤمنات • والله أعلم بإيمانكم ، فانكحوهن باذن أهلهن وأتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات أخدان » •

وينهى عن اتخاذ الأخدان عند بيان حل النساء الكتابيات • فيقول سبحانه : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، اذ أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » •

واتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل ، الذى هو اتفاق مع امرأة على أن يتعاشرا من غير زواج مدة معلومة بأجر ، فإذا انتهت المدة افترقا ، وهو والمتعة شيء واحد •

نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن المتعة :

٥٤٩ — لم يرد عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذن بالمتعة صريح قط ، إنما الذى ورد فيها نهى صريح عنها وفهم الذين فهموا الاذن بها من النهى عنها ، لأن النهى يجب أن يكون له موضوع ، ولا موضوع للنهى فى المتعة الا اذا كان اذن بها •

ولقد اتفق العلماء على أن أول نهى عنها كان فى خير ، ثم تتابع النهى بعد ذلك فى خمسة مواضع أخرى فنهى عنها فى عمرة القضاء ، وفى غزوة تبوك وغزوة فتح مكة المكرمة ، وعام الفتح ، وفى حجة الوداع ، ولولا تضافر الأخبار بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اذن بها لقلنا أن ذلك التكرار كان لتأكيد المنع ، اذ كانت عادة عميقة فى الجاهلية ، فكان التأكيد لقلع جذورها من نفوسهم • ولكن تكاثرت الأخبار بالفعل قبل الاذن ، فتقبل الأمرين الاذن من غير اباحة مطلقة ، بل بضرورة الفردية الشديدة فى الحرب ، والأمر الثانى النهى القاطع فى تحريمها الى يوم القيامة • ويصح أن نقول أن النهى فى أوله كان لئلا اذن قبله • والنهى من بعد ذلك كان نهياً ناسخاً الى يوم القيامة •

وفوق ذلك بيان التحريم القاطع فى القرآن الكريم الذى لا اذن فيه قط ،
وهو العزيمة التى لا رخصة فيها ، ولا مظنة لرخصة قط .

• ٥٥ — فلننظر بعد ذلك فى أمرها ، لقد أجمع فقهاء السنة جميعا
أنها محرمة تحريما أبديا الى يوم القيامة ، وقد روى أن عبد الله بن عباس
رضى الله عنهما كان يترخص فيها للضرورة فى حال الحرب ، وهى التى قيل
أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذن بها لشدة العزوبة فى بعض حروبه ،
واذ كان لم يعرف أنه اذن بذلك فى حرب معينة ، ولقد نهاه على كرم الله وجهه
عن أن يفتى بهذه الرخصة ، وبين له أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد
نهى عنها ، وقال مخاطبا ابن عباس : « إنك امرؤ تائه — لقد نسخها النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم — والله لا أوتى بمستمتعين الا رجعتما » .

ويروى أن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قد رجع عن ترخصه ،
وافتى بالنعى .

ولم يقل أحد قط من علماء الجماعة انها مباحة لضرورة الشباب الذى
يقعذر عليهم الزواج ، فتلك فرية من رجل لا يتحرج فى قول ، ولا يتعمق فى
علم ، ولا يهتم بحرام ولا حلال .

بقى أن ننظر فى الشيعة الامامية فنقول اننا نرى المتأخرين منهم يفتون
بها ، ولا نرى الأئمة أو الأوصياء قالوها ، وإن وجد من ادعاها لهم .

وتنقل لك المصادر الفقهية الشيعية التى تنفى عن أئمة الشيعة المهديين
وعلى رأسهم الامام أبو عبد الله جعفر الصادق ، وأبوه العظيم أبو جعفر محمد
الباقر بن على زين العابدين .

فقد روى أن بساما الصيرفى سأل أبا عبد الله جعفر الصادق عن المتعة ،
فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه : انها الزنى .

ولقد جاء فى الكافى عن يحيى بن زيد فقيه العراق أنه قال أجمع آل
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كراهة المتعة والنهى عنها .

ولقد روى البيهقى عن ابن شهاب الزهري أنه قال أن ابن عباس رضى
الله عنهما مامات حتى رجع عن هذه الفتيا ، ولقد قال سعيد بن جبير
لا بن عباس ما تقول فى المتعة ، فقد أكثر الناس فيها ، وإنه نقل عنك الفتوى
بجوازها ، فقال ابن عباس ، والله ما أفتيت بهذا ، والا فهى كالميتة لا تحل

الا للضرورة ونحن لا نجد أى ضرورة تبيحها حتى يكون أقرها عند الاضطرار كالميتة ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد صرح بأنه لا ضرورة عند الشباب تلجئهم الى ذلك كما يدعى من لا جريحة للدين فى قلبه ، فقد قال : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » ، وما دام باب الصوم مفتوحا فإنه لا ضرورة تسوغ المتعة ، أو ترخص فيها .

وان فقهاء الشيعة الامامية الذين جاءوا بعد عصر ائمة الشيعة ادعوا انه لا نسخ فيها واستدلوا على بقائها بما يأتى :

اولا : انه ثبت الاذن بها بالاجماع ، فقد اجمع المسلمون على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذن بها ، وان الأدلة التى ثبت فيها النسخ اخبار آحاد ، وهى لا تنقض الأمر المجمع عليه ، وقد روى عن ابن مسعود انه أفتى بها ، وفى الصحيحين انه قال رخص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنا أن ننكح المرأة الى أجل بالشئ ، ثم قرأ قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » .

وأن عبارات النسخ التى وردت فى أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما هى منصبية على الميراث والطلاق .

ثانيا : قالوا ان قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن » تدل على إباحتها ، وقوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » .

وان هذا الكلام غير صحيح فى جملته وتفصيله ، وهو جاء بعد عهد الأئمة والأوصياء ، وهو باطل من وجوه :

اولها : أن الآية التى ساقوها هى فى بيان أحكام النكاح الصحيح المرتب لآثاره ، ولم يكن موضوعها المتعة ، انما موضوعها النكاح ، لأنها بيان لنهاية المحرمات ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ٠٠٠ » الى قوله تعالى « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » ، فالاستمتاع هو استمتاع الزوجين ، يعرف هذا المدلول من له أدنى الملم بالعربية ، وفوق ذلك فإنه سبحانه قال بعد ذلك : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » ، وبدليل قوله تعالى فى النص الكريم ، « محصنين غير مسافحين » ولا شك أن المتعة لا توجب احصانا يوجب الرجم .

وثانياً : أن الاجماع لم ينعقد على اباحتها ، والتعبير باباحتها خطأ ، فلم يقل المحققون بانها كانت مباحة انما أذن فيها ، كما أذن بأكل الميتة ، فان الاباحة تكون لأمر ذاتي في الفعل ، أما الاذن فانه يكون لضرورة سوغت الاذن ، وإذا عبر بعض الأئمة بالاباحة فمن قبيل التسامح في التعبير .

وان العلماء من بعد نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجمعوا على نسخها فلا موضع للقول بالاجماع ، وإذا كان قد أثر عن ابن عباس أنه أذن بها في حال الضرورة الحربية فقط ، فقد روى أنه رجع عن رأيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولقد قالوا (أى بعد عصر الأئمة والأوصياء عندهم) ان الاجماع انعقد على اباحتها بين الشيعة والسنة وانفرد أهل السنة بالنسخ ، ونقول لهم ان الأدلة التي اذنت بها هي التي نسختها ، فلا يقال اجماع على الاذن ، وعدم اجماع على النسخ ، فالأدلة ملزمة في الأمرين .

وثالثها : أن ثبوت النسخ لم يكن يخبر أحاد ، بل لأنها في ذاتها محرمة كالنيتة والخنزير والدم المسفوح ، وما أهل لغير الله به ، وذلك ثابت بالقرآن الكريم ، في قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم او ما ملكت أيمانهم » قاطعة في اثبات التحريم ، لأنه من الموكد المتفق عليه أن علاقة المتعة ليست علاقة زوجية ، فهي لا تعد زوجة بدليل أنه لا يجرى فيها طلاق ولا ميراث ، ولا عدة زوجية ، لا في حال الموت ولا في حال الانفصال .

والنهي عن اتخاذ الأخدان المتكرر يدل على تحريمها لأنها ليست الا كذلك ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أذن بها كان لضرورة . في مخالفة المحرم تحريماً قاطعاً كمبدأ عام ، وقد قال العلماء في ذلك قاعدة الضرورات تبيح المحظورات .

وقد نسخ الاذن في حال الضرورة في حال الحرب ضرورة لما استأنس الناس بالاسلام . وأشربوا حبه وعودوا الصبر وضبط النفس بالايمان .

وفي الحق أن المتعة من بقايا الجاهلية وهي كما قررنا من نوع اتخاذ الأخدان فلما كان المؤمنون قريبي عهد بالجاهلية عد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ضرورة لهم في الحرب ، فأذن بها للذين لا يزالون في نفوسهم بعض العادات الجاهلية ، ولذلك لم يؤثر عن أحد من المؤمنين الراسخين أنه استساغها كابى بكر وعمر وعلى واحد من المهاجرين الأولين والانصار والسابقين وهم كانوا يحضرون كل حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

مجاهدين ، وكان فيهم شباب أقوياء فى إبدانهم كعلى .بن أبى طالب والجميع كانوا أقوياء ولعل الذين شكوا العزوبة من الأعراب أو ممن لا قدم لهم فى الاسلام فالنهي عنها ثابت بالقرآن الكريم ونسخ الاذن للضرورة ثابت بالسنة ، ونقول متحدين أباحها أحد فى حال السلم والاقامة حتى تبيحوها معشر الشيعة فى الحل والترحال والسلم والحرب فى السفر والحضر ويجيء من لا حرمة للحقائق عنده لتبليغ ، كلامهم لأنه يبيح المحرمات ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

ورابعها : أن ادعاء أن الحديث الناسخ خبر آحاد ، ادعاء باطل ، وذلك لأمرين :

(١) أنه قاله فى جيش فتلقيه أكثر من خمسة وألف ، فمستحيل أن يكون ناقله واحدا ، بل الذى نقله يؤمن تواتره على الكذب ، ونقله هذا الجمع الى الأمة كلها ، ففرض الأحادية باطل لا شك فى ذلك .

(ب) أن الأمة كلها أجمعت على ذلك ورمى على كرم الله وجهه وهو الوصى الأول عندهم ابن عباس فقال له انك امرؤ تائه ، ولقد كان ابن عباس فى وقت قول هذا الاذن غلاما ، وكان فى مكة المكرمة ، لم يهاجر أبوه الى المدينة المنورة ، ولذلك كان الوصف بأنه تائه ، وصف صحيح من امام الهدى على .

ونكرر القول هنا بأن أئمة الشيعة ، أو الأوصياء فى لغتهم لم ينقل عن أحد منهم .

ولنختم الكلام فى المتعة التى هى أمر فاسد فى ذاته بكلمتين :

أولهما : أن المتعة بحكم القرآن الكريم حرام ، وإذا لم نلتفت الى النص القرآنى (ولا يصح ذلك) لا تكون مباحة ، لأن ما يكون معمولاً به فى الجاهلية ويحرمه الاسلام ، لا يقال انه كان مباحا ، ثم حرم ، لأن الاباحة تقتضى أنه لم يكن ذاته قبيحا ، وهو كذلك ، بل يقال انه قبل التحريم كان محل عفو ، وكذلك كان التعبير فيما يحرمه ، وقد كان اهل الجاهلية يستبيحونه « عفا الله عما سلف » .

الثانية : نذكر ما يشترطه الشيعة فى شروط صحة المتعة مما ينأى بها عن معنى الزواج من كل الوجوه ، لقد ذكروا لها شروطا وركنا .

أما الركن فهو الإيجاب والقبول ، وأما الشروط فهي ثلاثة :

أولها : ذكر المهر ، وهو الأجرة ، فإذا لم يذكر الأجر تفسد المتعة ، كالإجارة إذا لم تذكر الأجرة لا تنعقد الإجارة ، فهي في حقيقتها إجارة المرأة للمتعة كإجارتها للخدمة على سواء .

والشرط الثاني : ذكر الأجل أو المدة ، وذلك لأبد منه في الإجارة الخاصة بالأجير الوحد أو الأجير الخاص ، بيد أن ذلك شرط في الأجير الوحد إذا كانت الإجارة لمدة معلومة ولم تطلق من غير زمان كأن يستأجره لغير مدة على أن تكون الأجرة كل يوم ، أو كل أسبوع كذا ، أو كل شهر ، والإجارة في المتعة أخص من ذلك ، لأن الأجرة فيها على مجموع المدة .

ثالثها : ويشترط لكي تستحق المرأة الأجرة كاملة أن تتمكن منها طول المدة ، فإذا لم تقدم نفسها فترة من المدة المتفق عليها ، فإنه ينقص من الأجرة بمقدارها ، ومثلها في ذلك من استأجر دارا ليسكنها ، فتعذر الانتفاع بالسكن فيها مدة ، فإنه ينقص من الأجرة ما يقابل الفترة التي تعذر الانتفاع .

وقالوا في أحكامها أن الولد الذي يجيء ثمرتها يثبت نسبه ، ولكنه يقبل النفي ، فإذا نفى النسب انتفى من غير لعان ، وبذلك يكثر الأولاد الذين لا آباء لهم ، إذ لا يوجد من يلحق نسبهم به ، ولا حاجة إلى لعان في نفى نسب إذ اللعان في حال قيام الزوجية ولا زوجية .

وقد ذكرنا أن الانفصال فيها يتم بانتهاء المدة ، كما تنتهي المدة بانتهاء مدة الإجارة تماما إذا كانت الإجارة الخاصة بمدة معلومة ، فهي إجارة لبضع المرأة ، فحكمها كسائر الإجازات وأيضا لا توارث بينهما ، وعدتها استبراء الرحم بحيضتين بحيث لا تزيد عن خمسة وأربعين يوما .

أيها الناس هذه هي المتعة ، أو بعبارة أدق إجارة بضع المرأة لمدة معلومة فهل هي صالحة للتطبيق في عصرنا أن فرضنا صحتها ، وهو مستحيل ، إنها لا تليق بكرامة المرأة ، بل فيها أشد الإهانة لها ، والنزول بها إلى مرتبة الخادم التي تستأجر في شرفها وهي دون الموضع ، ثم هي تكثر الأولاد غير الشرعيين .

فكروا أيها الناس إن كان ثمة موضع للتفكير .

إنها الزنى كما قال الإمام محمد الباقر ، وإبنه أبو عبد الله جعفر الصادق .

فهل مع هذه الأضرار الاجتماعية الخطيرة ، نبجحها بغير إباحة الشرع لشبابنا ، الذين لم يتزوجوا ، ونقضى على الأسرة ، ولا نقول لشبابنا ما قاله الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم الذى يدعو الى الفضيلة ، ان قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أحسن للفرج ، وأغض للبصر ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .

أيها الناس أطيعوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ولا تستمعوا الى المتفيهقين المتعاليين فى هذا الزمان ، والله سبحانه وتعالى هو الهادى الى سواء السبيل « رينا لا تزغ قلوبنا بعد ان هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة » .

تحريم ربا البيوع

٥٥١ — ثبت أن تحريم ربا البيوع كان فى غزوة خيبر ، أو أن تطبيقه كان واضحا فى غزوة خيبر ، وربما كان تحريمه قبل ذلك ، ولكننا نرى أول تطبيق كان فى غزوة خيبر أو مقتربا فى الزمان بها ، فحق علينا ان نذكره ونحن نتكلم فيها ، كما تكلمنا فيما تنبهنا له ، من الأحكام العملية التكليفية التى ظهرت فى أثناء الغزوات التى ذكرناها من قبل .

وقبل أن نخوض فى بيان ما ذكر فى تحريم ربا البيوع فى غزوة خيبر ، نقول :

ان كلمة ربا فى الأحكام الشرعية تطلق باطلاقين ، أحدهما لغوى ، والثانى عرفى اسلامى اصطلاحى فقهى والقسمان متمايزان مختلفان .

فالقسم الأول : اللغوى هو ربا الجاهلية وهو ربا الديون بأن يقرض ديناً ، ويزيد فى الدين كلما زاد الأجل فالزيادة تكون فى نظير الأجل ، وهذه الزيادة هى الربا . وهو الذى نزلت الآيات القرآنية بتحريمه فى مثل قوله تعالى « الذين ياكلون الربا ، لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا » الى قوله تعالى « وان تبتم فلکم رءوس أموالکم لا تظلمون ، ولا تظلمون وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » .

والتحريم فى هذا النوع من الربا عام ، سواء اكان القرض للاستهلاك أو الاستغلال ، ومن يفرق بينهم يفسر الأحكام القرآنية كما يهوى ، لا كما تدل عليه .

القسم الثاني : ربا البيوع ، وهو ربا لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا ، فهو حقيقة عرفية ، وقد جاء فيه الحديث الشريف ، « الذهب بالذهب مثلاً بمثل يدا بيد ، والفضة بالفضة مثلاً بمثل يدا بيد والبر بالبر مثلاً بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يدا بيد ، والملح بالملح مثلاً بمثل يدا بيد فمن زاد أو استزاد ، فقد أربى » .

ونرى من هذا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا فهو ربا ، وقد طبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك النوع من الربا فى غزوة خيبر ، فحق لنا أن نتكلم ببعض القول فيه .

فقد جاء فى السيرة النبوية لابن هشام : قال ابن اسحاق حدثنى يزيد ابن عبد الله بن قسيط أنه حدثه ابن الصامت قال نهانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم خيبر عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين . وتبر الفضة بالورق العين وقال اتباعوا تبر الذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين .

وأن معنى الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل ، والفضة بالفضة مثلاً بمثل فإن تعذرت المماثلة بين التبر والذهب العين ، فإنه لا يصح البيع ، بل يجب أن يتخالف الجنس فيباع تبر الذهب بالفضة ، وتبر الفضة بالذهب لأن المماثلة فى هذه الحال غير واجبة .

ولقد جاء بعد ذلك الحديث السابق وهو أعم من الذهب والفضة وجاء بعد ذلك فى أحاديث أخرى التمر بالتمر مثلاً بمثل يدا بيد أى اشتراط القبض فى الحال ثابت ، ولا يصح التأجيل وأن الرديء لا يضاعف فى سبيل الجيد من هذه الأصناف ، وقد ثبت فى غزوة خيبر ، فقد جاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أن البخارى روى عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل رجلاً على خيبر ، فجاء بتمر جنيب ، فقال عليه الصلاة والسلام ، أكل تمر خيبر هكذا ؟ فقال ، لا والله يا رسول الله أنا لناخذ المصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تفعل هذا بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً .

وأن هذا الحديث الصحيح يدل على أمور ثلاثة :

أولاً : أن تطبيق ربا البيوع كان فى خيبر ، ولعله كان ابتداءً تحريمها .

وثانيها : أن الجنيب بلح جيد ، وأن غيره دونه ، ولذلك كانوا يلاحظون هذه التفرقة عند المبايعة ، فالجنيب يبادل بضعفه ، أو الاثنين بثلاثة ، وأن

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن البيع بغير المعاملة فى التمر والبر والشعير والذهب والفضة ، والملح ، والزيت فى بعض الروايات ، وغيرها من المطعومات •

ثالثها : الطريق فى التعامل بهذه الأشياء التى لا يصح البيع فيها الا بالتماثل فى الكيل أو الوزن عند اختلافها فى الجودة ، قد بينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبيع الرديء ، ويشترى بثمنه جيدا وهذا الحديث الذى جاء فى خبير روى فى معناه أن رجلا جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : عندى بسر وأريد رطباً ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بع البسر ، واشتر رطباً •

وهذه الفتوى النبوية فيها فائدة لمن عنده بسر ، وفائدة لغيره ، ففائدة صاحب البسر أنه استبدل به رطباً ، وهو ما يشبهه ، وفائدة المشتري أنه أخذ البسر ، وربما يبتغيه ، وهناك فائدة لثالث ، وهو أن يأكل من ليس عنده بسر ، ولا رطب ، فلا يحرم من البلع حرمانا كاملاً •

وقبل أن نترك هذا الخبر الذى جاء تطبيقه فى غزوة خيبر لابد من التعرض بالاجمال لموضوعين : أحدهما حكمة التحريم ، والثانى العلة القياسية التى يمكن أن يطبق فيه النص على غير هذه الأنواع من المبيعات •

الحكمة فى تحريم البيوع فيها الا بالتماثل :

٥٥٢ — ان هذه الأشياء التى ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصح بيعها الا بما يماثلها كيلا أو وزنا ، كالقمح والشعير ، والملح ، والذهب والفضة ، هى من الضروريات للحياة ، ومنع بيعها الا بمثلها ، وأن تكون مقبوضة يدا بيد ، انما المنع لكيلا يكون التبادل محصورا فى المالكين لها فقط ، فانه اذا ساغ بيع البر بالبر ملاحظا فيه أن الجيد يكون فى مقابل ضعف الرديء وكذلك الشعير والتمر والملح ، فان التبادل فيها يكون مقصورا على الذين يملكونها دون غيرها ، وقد يؤدى ذلك الى أن يحرم منها من لا ينتجونها ولا يملكونها ، وان ذلك قد يؤدى الى احتجازها ، فمن لا يملكون وهم مضطرون اليها ، فيكون توزيع الانتاج بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم •

وان ذلك يمنع الاحتكار أو يسد ذرائعه ، وتكون الأقوات متوافرة لدى الناس ، إذ أن ملاكها يكونون مضطرين لأن يبيعوها ، ولا يفتزنوها طلبا لحاجاتهم •

وان النقدين الذهب والفضة ، كانا ولا يزال الذهب مقياس قيم الأشياء ، وبهما تقوم المنافع فى الثمرات والأثواب والأقوات ، وإذا اتخذ المقياس النقدي موضعاً للتجار اضطربت الموازين ، واختلت المقاييس ، وكانت الاضطرابات الاقتصادية ، وحسبك ما تراه الآن وقت أن تحلل الناس من الذهب ، واستبدلوا بها النقد الورقى ، وقد اضطربت فيه العلاقات الاقتصادية ، وصعب التعامل من ضعف بعض الأوراق وقوتها مما صعب الاتجار ، وتعذر جلب الأرزاق فى أرض من أرض الله ، وتكدسها فى أرض أخرى ولقد ادعى بعض الكتاب من الأوربيين أن حديث الذهب بالذهب مثلاً بمثل يدا بيد ، والفضة والبر والشعير ، وغيرها من المطعومات قد وضعه اليهود على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليلبّدوا العرب عن الاتجار ، وتبقى التجارة فى أيديهم .

وذلك كلام لا تبرره الحقائق ، للوجوه الآتية :

أولها : أن حديث بيوع الربا روته كل الصحاح ، حتى كاد يخرج عن حد أحاديث الأحاديث إلى ما يقرب من المتواتر ، ومن المؤكد أنه مستفيض مشهور تلقته الأمة كلها بالقبول ، والأحاديث المكذوبة لا يمكن أن يكون لها ذلك الوصف من الاستفاضة والشهرة .

ثانها : أن هذا الحديث ثبت أنه طبق فى خير ، وروى البخارى وغيره تطبيقه فى خير ، وذلك فى الوقت الذى دكت فيه حصون اليهود دكا ولم يكن لهم قوة ، ولم يكن لهم أمل الا أن يكونوا زارعين يصرثون ويغرسون ، ويصالحون النخيل ، وسائر الأشجار ، ولم يكن لهم قوة يستطيعون بها الاتجار بل كانوا نتيجة الحرب أذلاء مستضعفين ، وقد كانوا يريدون غير ذلك ، فحبل بينهم وبين ما يشتهون .

ثالثها : أن اليهود المقيمين فى ظل الدولة الإسلامية فى أحكام العقود وشروط صحتها كالمسلمين ، فلا يمكن أن يخالفوها ، وهى مطبقة عليهم ، وعلى المؤمنين على سواء ، عملاً بالقاعدة الإسلامية العادلة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

علة المقياس فى الأموال الربوية :

٥٥٣ — هذه هى الحكمة ، وهى المصلحة الاجتماعية والانسانية فى بطلان البيع الامثلاً بمثل يدا بيد وان هذه الأموال التى ذكرت تحريم الفاضل فيها معلولة ، أى أن الحكم يشتمل على هذه الأشياء المذكورة ، وعلى غيرها

مما يكون فى معناها ، كالزيوت ، والذرة ، وغيرها مما يتحقق فيه معناها الذى اعتبر سببا للتحريم ، أو علة له .

والفرق بين العلة والحكمة أن الحكمة هى المصلحة الثابتة التى تكون وصفا مناسبا للحكم ، وغاية له يتعرفها المكلف مما احتوى عليه الأمر التكليفى .

والعلة هى الوصف المنضبط الذى يتحقق فى الأمر الذى جاء به التكليف وكانت الحكمة متحققة فيه غالبا ، فالفرق بينهما هو الانضباط ، وأن العلة تكون وعاء للمصلحة التى هى العلة .

وقد اتفق الفقهاء الذين يقيسون الأمور غير المنصوص على حكمها على الأمور المنصوص على حكمها ، اتفقوا على الحديث الشريف الوارد فى تحريم الأصناف المذكورة ، والمروية بروايات مختلفة معلى المعنى وليس نصا تعديدا مقصورا على موضعه ، وكذلك كل الأمور المتعلقة بمعاملات الناس ، فالنصوص معلة أى تثبت فى كل موضع تثبت فيه العلة وقد اتفق الفقهاء على أن علة التحريم فى النقدين الذهب والفضة بأن لا بيع فيها إلا بالمثل يدا بيد هو الثمنية ، وكونها ميزانا لقياس قيم الأشياء ، ومقدار ما فيها من نفع يشبع حاجات الناس ، فكل ما يتحقق فيه الثمنية يجرى فيه حكم الذهب والفضة .

وكان الاختلاف بين فقهاء القياس فى علة التحريم فى غيرهما ، فقال أبو حنيفة وأصحابه علة التحريم اتحاد التقدير بالكيل أو الوزن واتحاد الجنس ، فالذرة بالذرة مثلا بمثل يدا بيد ، لاتحاد الكيل واتحاد الجنس ، وكذلك الزيت بالزيت ، وحينئذ يحرم التفاضل ، ويحرم تأجيل أحد المعوضين ، وكل ذلك فى الأمور التى يقر العرف التفاوت فيه ، أما ما لا يقر العرف التفاوت كالحديد ونحوه ، فإن التفاضل والتأجيل يجوز .

فأبو حنيفة رأى أن تكون العلة أمرا ماديا ظاهريا يصلح أن يكون جامعا بين الأمرين ، والشافعى نظر فى غير الأثمان الى كونه مطعوما ، فجعل العلة فى منع التفاضل كونه مطعوما ، إذ التفاضل فيه يؤدى الى أن تحتكر الأطعمة فى يد منتجيهها أو المستولين عليها ، لأنه إذا جرى فيه التفاضل فى التعامل بها ، بأن يبيع البر الرديء بضعف البر الجيد ، كان التعامل بين المالكين للبر ولا يأخذه من ليس عنده بر قط ، وأنه إذا امتنع التفاضل فى مبادلة الجيد بالرديء ، كان لابد أن يأكل من ليس عنده جيد من البر ولا رديء ، فإنه يلزم حينئذ أن يبيع الرديء ليشترى جيدا أو العكس ، فيقع الطعام فى يد المحروم .

وأنه إن اتحد الجنس منع التأجيل ، ومنعت الزيادة ، ويسمى التأجيل ربا النساء ، ويسمى التفاضل ربا الفضل ، هذا ما قاله الشافعى ، وهو يتحد مع الحنفية فى أن سبب منع التفاضل والتأجيل فى النقدين الذهب والفضة هو الثمنية ، وأنها مقاييس القيم والمالية فى الأموال ، فلا يصح أن تكون سلعة تباع وتشترى ويجرى فيها الاتجار ، والا اضطرب الميزان ، كما نرى الآن فى الأوراق النقدية ، وما يترتب على علوها وانخفاضها من اضطراب اقتصادى .

وقالت طائفة من حذاق المالكية ، إن العلة فى التحريم فى الأمور المنصوص على تحريم التفاضل والتأجيل فيها هى الطعم والادخار ، بأن تكون من المطعومات ، وأن تكون قابلة للادخار ، فتكون من الأطعمة التى لا يفسدها الادخار كالبر والشعير والتمر ، والملح ، وما يشبهها من الأطعمة ، والفواكه المجففة التى تدخر ، كالزبيب ونحوه .

وذلك لأن كونها من الأطعمة ، وقابلة للتخزين يؤدى للاحتكار الأثيم ، والاحتكار من أسباب الأزمات ويزيدها حد .

تنبيهات :

قبل أن نترك الكلام فى الربا الذى اقترن تحريمه بغزوة خيبر ، فنزل فى إبانها ، وهو ربا البيوع ، لأبد أن نذكر أمورا ثلاثة هى توجيه الأنظار الى الوقائع ، وما يقترن بها ، وما يجرى حولها .

أول هذه التنبيهات : هو الاجابة عما يجول فى النفس لماذا كان تحريم ربا البيوع فى خيبر ، وتلك الاجابة ٠٠ أن فتح خيبر كان فتحا جديدا بالنسبة للعلاقات المالية التى يجرى فى ظلها التبادل المالى ، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجرى كثيرا فى يثرب .

وثانيها : تحريم البيوع التى تؤدى الى الاحتكار فى الأطعمة ، وقد حرمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تحريما قاطعا ، فجعل أموالا معينة غير خاضعة للتجارة المطلق ، لأن باب التجارة انفتح بغزوة خيبر ، فكان لأبد من جعله فى إطار لا يؤدى الى الاحتكار .

الأمم الثانى : أن الربا القوى وهو ربا الديون أو ربا الجاهلية حرام لا شك فيه لا يسع مسلما أن ينكره ، أما ربا البيوع فلم يثبت إلا بالأحاديث الواردة فيه ، وهى أحاديث لا تثبت قطعيا وبقينا ، ولكن تثبت العمل .

ولقد كان ابن عباس رضى الله تعالى عنه ينكر ربا البيوع ، ويقول انه لم يثبت ، وكان يقول مسندا لقول النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ! « انما الربا ربا النسيئة ، وهو ربا الجاهلية » ، ولقد سئل الامام احمد بن حنبل : ما الربا الذى لا يسع مسلما ان يجهله ، فقال ان يعطى الرجل ديننا ويزيده فى الأجل فى نظير الزيادة فى الدين ، وان من ينكر أمرا علم من الدين بالضرورة يكون خارجا عن الاسلام .

الأمر الثالث : انه مع الأسف ان كثيرين ممن كتبوا فى الربا ، وحلوا وحرّموا بغير ما أنزل الله ، ومنهم من بلغوا مناصب تجعلهم مسئولين عن أقوالهم أمام الله وأمام الناس ، من خلطوا بين ربا البيوع ، وربا الجاهلية الذى ثبت بالقرآن الكريم ، فضلل عنهم فهم الربا ، وضلوا فى انفسهم ، وأضلوا الناس ضلالا بعيدا ، ولم يكن جهلهم لضرورة يعذرون فيها ، بل كانت بين أيديهم اسباب العلم ، فتركوها ليتعلقوا بما يرضى الناس ولا يرضى الله .

شرعية الجزية

٥٥ هـ — كان أول تطبيق للجزية فى تيماء التى كان فتحها بعد خيبر ، فقد جاء فى الصحيح انها فرضت فيها الجزية على أهلها ، فكان على أهلها جزية الرعوس ، وعلى أرضها الخراج وهى جزية الأرض ، والجزية فرضت بنص القرآن الكريم اذ يقول الله سبحانه وتعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون » أى خاضعون للحكم الاسلامى غير متمردين بل مندمجون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، وان قتال خيبر ووادى القرى ، واستسلام تيماء ، كان من قتال أهل الكتاب ، وقد بين الغاية وهى ان يسلموا او يستسلموا ، وفى الحال الأخيرة يدفعون الجزية عن يد ، وهم خاضعون طائعون ، وانه يظهر أول جزية فرضت كانت فى تيماء .

وقبل ان نذكر ما عمله النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجزية ، نقول انها ليست للاذلال ، كما أخذ بعض الناس من ظاهر لفظ وهم صاغرون ، انما هى لأمرين .

أولهما : اظهار الطاعة للحاكم المسلم ، وامام المسلمين غير مضارين فى دينهم ، ولا مغيرين لعقائدهم ومبادئهم الدينية ، ولا مرهقين فى أمرها .

ثانيهما : انها تكون فى مقابل ما يفرض على المسلمين من فرائض مالية ليسهموا بها فى بناء المجتمع الاسلامى ، فالمسلم يفرض عليه بحكم الاسلام

أداء الزكاة ، والدولة هي التي تجمعها ، وتفرقها على الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، وفي سبيل الله تعالى يشمل الجهاد ، وكل المصالح والمرافق العامة للدولة .

وعلى المسلم كذلك زكاة الفطر ، وكفارات النذور والإيمان والقتل الخطأ ، والظهار ، وفدية الصيام وكفارته ، وكل هذه مغارم تصرف لعلاج أفات الفقر في المجتمع .

فكان العدل يوجب أن يفرض على غير المسلم الذي يعيش في ظل الإسلام فرائض تقابل ذلك ، فكانت الجزية . وكان الخراج ، يصرف منها على المصارف العامة للدولة الإسلامية التي تظل المسلم والكتابي على سواء ، ولذلك كانت حاجات أهل الذمة تسد من بيت مال الجزية والخراج من أجل هذين الأمرين فرضت الجزية ، وأنها أمر عادل لا أذلال فيه ، ولا شبه أذلال ، ولكن طاعة وتسليم وخضوع للدولة ونظامها مع حرية الدين .

٥٥٥ — ولننظر في نظام الجزية كما طبقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أول تطبيقه في تيماء عقب خيبر ، فنجد الحافظ ابن كثير في تاريخه الكبير يذكر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمل أهل تيماء على الجزية وقال في ذلك نقلاً عن الواقدي « لما بلغ يهود تيماء ما وطئ به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجزية ، وقدموا بأيديهم أموالهم » .

وهذا الخبر من الواقدي في تاريخه ، وزكاه أن الحافظ ابن كثير نقله واعتمده ، وهو يدل على أن الجزية فرضت عقب خيبر أو فورها ، ولم تطبق عليها لأنها فتحت عنوة ، ولم تفتح صلحا ، وكان المفروض أن يجلوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أبقاهم كما طلبوا ، واحتفظ لنفسه بحق الإجماع في أي وقت شاء ، وأجلهم عمر من بعد ذلك عملاً بما احتفظ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكن تطبيق الجزية عليهم لأنها لم تكن قد نزلت آية الجزية ، وإنما كان ذلك ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى تأجيل الجلاء في حقهم ، لأنهم كانوا أقوياء ، ولو أبقوا بالجزيرة العربية لاستطاعوا بكثرتهم أن يكون لهم سلطان ، ولكيلا يجتمع في جزيرة العرب دينان .

أما أهل تيماء فقد انتهبوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلحا ، ولم يقرر إجماعهم ، وكانوا في أطراف الشام والجزيرة العربية ، ولذلك لم

يخرجهم الامام عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، اذ هم ليسوا فى داخل الجزيرة ، ولم يحتفظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحق اخلائهم •

وننتهى من هذا الجزء الى أن الجزية فرضت قبل الفتح ، ولم تكن شرعيتها بعد الفتح ، ولكن الامام ابن القيم يقرر أن الجزية لم تقرر الا بعد الفتح ، « وأما هديه فى اخذ الجزية فما أخذ من الكفار جزية الا بعد نزول سورة براءة فى السنة الثامنة من الهجرة ، فلما نزلت آية الجزية أخذها من المجوس ، وأخذها من أهل الكتاب ، كما نصت آية سورة براءة التى تلونها من قبل ، وذكرنا معنى قوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » •

ونميل الى المثبت ، ولا نميل الى النافي ، نميل الى رواية أبى الفداء التى ذكرت أنه عقد عقد الجزية على أهل تيماء ، وان كنا نرى أن ما ذكره ابن القيم له وجه •

وفى الحق ان أهل خير ، لم يعقدوا عقد جزية قط ، الا ما كان فى تيماء وأنه أوجب الجلاء عليهم أى أهل خير ، فلما حاولوا أن يبقوا فى الأرض زارعين غارسين وكان هو ورجاله مسئولين عن زراعة الأرض تركها مزارعة على أن حق الاجلاء ثابت ، وهو الأصل ، وكذلك فعل فى فداك •

صحيفة مكذوبة :

ولكن الباعث عند ابن القيم على نفى عقد الجزية لخير وجهه كل الرجاء ، ذلك أنه فى عبر التاريخ الاسلامى من بعد ذلك ادعوا - أى يهود - أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عقد معهم عقد جزية وقدموه وثيقة لهم ، وهو مكذوب من كل الوجوه ، ويحمل فى نفسه دليل كذبه •

وقد أثبت كذبه ابن تيمية من عشرة وجوه ، ذلك أنه فى عصر ابن تيمية فى آخر القرن السابع ، وأول القرن الثامن أنه راجت تلك الوثيقة المكذوبة عند من جهل بالسنة والمغازى ، حتى ان بعض العلماء أو الأمراء طلب من شيخ الاسلام ابن تيمية أن يقرر ما اشتملت عليه تلك الوثيقة المكذوبة ويطلب العمل على تنفيذها لليهود والعمل بها فيسكن اليهود فى الجزيرة العربية فى مكانهم القديم ، ولعلمهم يريدون أن يختاروا فى وسط الجزيرة العربية مقاما لهم •

ولذلك تحرك الامام ابن تيمية لبيان كذبها يكشف ما فيها ، لان ما فيها دليل التكنيب •

ومما بين كذبها أن فيها كما يدعون شهادة جمع من الصحابة ذكر منهم على بن أبي طالب وسعد بن معاذ ، وسعد بن معاذ كان قد مات متأثراً بسهم عائر في الخندق وقرينة ، وهما كانتا قبل خيبر بسنتين .

ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخرية ، ولم يكن للمكس والسخرية موضوع في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنص عليها على أنها مكتوبة فيما بعد ذلك في القرون المتخلفة بعد عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإن الله تعالى قد أعاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من السلف الصالح والرعيل الأول من فرض المكس والسخر ، فإن ذلك من وضع الملوك الظالمين الفاسقين .

ومنها أنه لم يذكر قط في سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا سيرة أحد من أصحابه سيرة .

ومنها أن هذه الوثيقة لم يذكرها قط أحد من علماء الحديث ، لا في الصحاح ولا في السنن ولا غيرها ، بل لم تذكر حتى في الأخبار الموضوعية ، فمن أين جاءوا بها إلا أن يكون ذلك من افتراءهم البهات ، كما لم يذكر أحد من أهل الفقه والافتاء ، فهي كلام دخيل على الإسلام والمسلمين وهو افتراء من اليهود ، في عهد الحكام الغاشمين الجاهلين ، ولم يذكره إلى القرن الخامس حيث العلم الإسلامي يدون ويجمع ، ويقول في ذلك ابن تيمية رضى الله تبارك وتعالى عنه « ما أظهوره في زمن السلف لعلمهم أنهم أن زوروا مثل ذلك ظهر بطلانه ، فلما كان بعض الدول في وقت فتنة وخفاء بعض السنة زوروا ذلك وأظهوره وساعدهم على ذلك طمع بعض الخائنين لله وللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يستر لهم ذلك حتى كشف الله تعالى أمرهم .

وأنه بذلك يتبين أن اليهود ادعوا أن أهل خيبر لهم عقد جزية ليتخذوا منه سبيلاً ليقوموا في أرض خيبر بالحجاز ، ولكن الله كشف أمرهم ، وخيب رجاءهم .

ومهما يكن الأمر فإنه لم يكن من اليهود أهل عهد بجزية إلا أهل تيماء في رواية الواقدي والله تعالى أعلم ، وقد تبين كذبهم من قولهم ، وقد أعلنوا هذه الوثيقة المكتوبة بعد ثلاثمائة من الهجرة ، ثم زوروا مثلها سنة سبعمائة .

الجزية التي كان يأخذها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

٥٥٦ - نذكر بالأجمال الجزية التي كان يأمر بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول الواقدي أنه أخذها من أهل تيماء بعقدها وشروطه .

لقد قالوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعين من تؤخذ منهم ،
وان عين مقاديرها من مختلف الأجناس ، وذكر بعض شروط عقداتها والتزاماتها
على ولى أمر المؤمنين والتزاماتها عليهم .

ولم يظهر لدى أهل السيرة والمغازي ، والآثار مقدارها إلا فى نصارى
نجران الذين عقد معهم فى مرجعه من تبوك ، وكان الاتفاق كما سنبين
بالتفصيل من بعد ، عندما نتكلم فى سياقنا على وفود نجران وغيرهم .

وخلاصة عقد الذمة انه تضمن :

أولاً : أنه لا يهدم لهم بيعة ، ولا يمنع منهم قس من أداء شمائهم
الدينية ، ولا يفتنون فى دينهم ما لم يحدثوا أحداثا يكون من شأنها نقض
التزامهم .

وثانياً : أن يلتزموا أحكام المعاملات المالية الإسلامية ، بحيث لو ثبت
أنهم يأكلون ربا الجاهلية ترد عليهم ذمتهم لأنهم نقضوها .

ثالثاً : أن يلتزموا بأحكام الحدود والقصاص ، بحيث يجرى عليهم
ما يجرى على المسلمين فيها على سواء ، وقد أخذ من نصارى نجران الجزية
من الثياب ، أخذها منهم مجتمعين على قسطين الأول فى صفر ، وكان ألف
حلة ، وفى رجب ألف مثلها الى آخر العام أو الى نهاية الحرم .

وللمسلمين أن يأخذوا على وجه العارية ثلاثين درعاً يدرعون بها ،
وثلاثين فرساً ، يحاربون عليها ، أو بعبارة عامة ثلاثين من كل صنف من أصناف
السلاح يغزو بها المسلمون ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم .

ولم تكن الجزية مقيدة بجنس ، بل تصبغ بالدنانير والدرهم ، كما تصبغ
بالثياب ، على حسب ما يقدرون عليه ، وعلى حسب حاجة المسلمين اليه .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسل معاذ بن جبل ليجمع
الجزية أمره أن يأخذ من كل رجل بلغ الحلم دينارا .

ولم يفرضها على النساء والعبيد والمرضى ، بل فرضها على القادرين
دون المؤمنين والعاجزين ، وان الجزية كانت تؤخذ من نصارى العرب ، الى
أن أجلى عمر بن الخطاب النصارى عن الجزيرة العربية نفسها ، وان بقى
بعضهم فى أطرافها كاليمن ، فكانت تؤخذ منهم الجزية كما تؤخذ من اليهود
المقيمين بها ، ولم يغادروها الى داخل الجزيرة .

ونلاحظ فى الجزية التى أمر بها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أمور ثلاثة :

أولها : أنها لم تكن معينة فى جنس ، بل كان يعين على أساس التيسير عليهم ، فان كانوا تيسر عليهم الدنانير فهى الأصل فى التقدير ، وان لم تيسر الدنانير وتيسرت الثياب أو غيرها أخذ مما ييسر عليهم أداؤه .

ثانيها : أنها ليست معينة المقدار فى الجماعة . بل تنقص وتزيد على حسب حاجة المسلمين ، وقدرة من يعطونها .

وثالثها : أنها تسقط أو تدفع جملة على حسب طاقة الدافعين من غير إفراط ولا تفريط .

سرايا بعد خيبر

٥٥٧ — بعد غزوة خيبر ، وما تبعها من وادى القرى وتيماء ، ما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من حرب غير تعرف لاختيارها ، وما يجرى فيها بعد الحديبية ، ولقد تم كسره الشوكة اليهودية ، والقضاء على القوة العسكرية لليهودية فى البلاد العربية ، ومنعهم من أن يعملوا على بث العداوة والبغضاء بين العرب ، وتحريض أعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بد أن يكون بث سراياه حول مكة المكرمة ، أو على مقربة منها ، ليتعرف أخبارها وأحوالها فى مدة العقد ، ولكى ينبذ اليهم عهدهم ان ثبت لديه منهم خيانة ، أو استعداد لها ، فانه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ للأمر أهيته قبل أن يقع عند ثوقه ، ولكنه لا يغدر ، ولا يخيس فى عهوده مبتدئاً .

ولذلك أخذ يبعث السرايا فى داخل الصحراء ، وعلى مقربة من مكة المكرمة .

سرية أبى بكر الصديق الى فزارة

٥٥٨ — يروى الامام أحمد فى مسنده أنه بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبى بكر الصديق فى سرية الى بنى فزارة ، ولم يكن أبى بكر رضى الله تعالى عنه رجل الحرب ، وان كان من المجاهدين فى الصف الأول . ولكنه رجل رأى وتدبير ، ومعرفة بحال العرب ، وهو المدرك عند تعرف أحوال العرب ، فما كان خروجه للحرب فقط ، بل كان لتعرف أحوال العرب ، فيما يحيط بما يقرب من مكة المكرمة وما حولها .

وقد سار الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه بمن معه ، حتى كان بينى
فزار ، فنزل عند الماء ، وكان ذلك ليلا ، ليياغتهم ، فلما صلى الصبح بالمؤمنين
معه شن الغارة بأصحابه ، فقتلوا من بالماء وحالوا بينهم من النساء والرجال
والذرية من فزاره ، وبين الجبل الذى يكتنفهم ، ورموا بالسهام بينهم وبينه
لكيلا يجتازوا مكانهم .

وتتبعوهم حتى ساقوهم الى أبى بكر عند الماء ، وفيهم امرأة وابنتها ،
فنقل أبو بكر الابنة ، وكانت ذات جمال ، ولم ينل من هذا النقل شيئا حتى
وصل الى المدينة المنورة حيث يوزع النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم
يكشف ثوبا للفتاة .

ذهب الى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بالجارية ، فقال له النبی
صلى الله تعالى عليه وسلم : هب المرأة لى ، فقال له يا رسول الله : لقد
أعجبتنى ، وما كشفت لها ثوبا ، فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
وتركنى ، حتى اذا كان من الغد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
ما قال ، ورد هو بما كان ، وتكرر ذلك مرة أخرى من النبی صلى الله تعالى
عليه وسلم ومنه ، حتى انتهى الأمر بأن قال له هى لك يا رسول الله . وما كان
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريد لها لنفسه ، ولكن يريد لها لفساد
المستضعفين من المؤمنين بمكة المكرمة ، ولذلك بعث بها الى مكة المكرمة ليفدى
بها مستضعفين بمكة المكرمة ، ففداهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
بهذه المرأة .

وقد روى مثل هذا مسلم فى صحيحه والبيهقى فى دلائل النبوة .

سرية عمر بن الخطاب

٥٥٩ — أورد الواقدي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث
عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ثلاثين رجلا الى بعض أرض هوازن وراء
مكة المكرمة بأربعة أميال ، أى أنها على مقربة من مكة المكرمة ، ولقد كان عمر
رضى الله عنه من أعرف الناس بالعرب طبعا وخلقا ، وهو ذو الفراسة القوية ،
والبصيرة النافذة المدركة .

ويظهر أنه كان ذاهبا الى هذه الجهة ليتعرف ويتخبر ، لا ليقاتل فقط .

ومهما يكن فقد سار الفاروق ومنه دليل من بنى هلال ، وكان يسير ليلا

ويكمن نهارا ، وهو يتعرف ما أملمه ، وما وراءه حتى وصل الى بعض هوازن
فهربوا من لقائه ومن معه .

عاد عمر أدراجه من غير قتال ، ولكنه عاد بزاد من المعرفة عن مكة
المكرمة وما حولها ، وقد أشار عليه أصحابه أن يذهب الى خثعم ، ولكنه أبى ،
لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمره بالذهاب اليهم ، وهو يصدر
عن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

سرية عبد الله بن رواحة الى يسير اليهودى

٥٦٠ — كان اليهود وان فقدوا القوة العسكرية فى أرض العرب ،
لا تزال فلول منها مبعثرين فى أرضهم ويخشى أن يكون منهم تجمع فى جزء
منها ، ويكون قوة تؤلب على الاسلام ، ولذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم يتتبع أخبارهم ومن يظهر منهم ، فيقضى عليهم أجزاء حتى يجعلهم جذاذا
بدل أن يتجمعوا حوله .

روى الواقدي بسنده عن الزهرى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم بعث عبد الله بن رواحة فى ثلاثين راكبا ، إذ بلغه أن يسير بن رزام
اليهودى يجمع بنى غطفان ليغزو بهم ، وبنو غطفان قد كانوا يمالئون اليهود
فى خيبر ، قبل أن يغزو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليهود ، وأنه حال
بينهم وبين نصرتهم ، حتى تمكن من ذلك حصون اليهود وفتحها .

ويظهر أن يسير بن رزام هذا أراد أن يحيى ذلك التعاون القديم ، فبلغ
ذلك محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الحذر الذى يمنع الشر قبل
وقوعه .

ذهب اليه عبد الله بن رواحة ، وأوهمه أن النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم بعث اليه ليستعمله على أرض خيبر ، فيظهر هو ومن معه ، فتبعهم بثلاثين
رجلا من رجاله اليهود ومع كل منهم رديف من المؤمنين ، ولما بلغوا
مكانا معينا ندم يسير بن رزام على مسابرتة ابن رواحة فيما قال ، فأراد أن
ينزع سيف عبد الله بن رواحة ، ويهوى به عليه ، ففطن له ابن رواحة ، فزجر
بعيره ، وتمكن من يسير ، فضربه ضربة قطعت رجله .

ولقد ضرب اليهود عبد الله بن رواحة فى وجهه فشجه شجة عميقة .

واتكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله ، ولم ينج منهم
غير رجل واحد ، ولم يصب من المسلمين أحد الا شجة ابن رواحة .

ولقد قالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تفل على شجة
ابن رواحة فلم تنقيح ولم تؤذه حتى مات *

ونرى من هذا حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اليهود ،
وتتبعهم ، حتى لا يقوم لهم قائمة فى ارض العرب *

سرية بشير بن سعد الى بنى مرة من فداك

٥٦١ — بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بنى مرة من
فداك بشير بن سعد فى ثلاثين راكبا ، فاستاق نعم بنى مرة ، فقاتلوه ، وقتلوا
كل من معه ، واستمر هو على القتال فقاتل وحده قتالا شديدا ، ثم اوى الى
فداك ، ونزل عند رجل يهودى ، وكان غريبا أنه لم يغدر به ، ثم كر راجعا الى
المدينة المنورة *

وقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبنى مرة هؤلاء غالب
ابن عبد الله ليقص للذين قتلوهم من المؤمنين ، وليفلوا شوكتهم *

وكان معه عدد من الصحابة فيهم أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه
وغيرهم ، وقد اقتصوا لمن قتلوا من المسلمين ، وكان مما حدث أن قتل أسامة
ابن زيد رجلا قال لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقد قالوا انه قتل مرداس
ابن نهيك حليف بنى مرة ، وقال عندما علاه بالسيف : لا اله الا الله فلامه
الصحابة على ذلك ، حتى سقط فى يده وندم على ما فعل *

ولما قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له يا أسامة
من لك بلا اله الا الله فقال يا رسول الله انما قالها تعوذ بها من القتل . قال فمن
لك يا أسامة بلا اله الا الله ، فوالذى بعثه بالحق مازال يرددها حتى أن
ما مضى من اسلامى ، لم يكن ، وانى قد أسلمت يومئذ ولم اقتله ، وقال انى
أعطى الله عهدا الا أقتل رجلا ، يقول لا اله الا الله ابدا *

مضى غالب بن عبد الله بما معه يقتص من الذين قتلوا المؤمنين ، وتتبعهم
حتى خضد شوكتهم ، وولوا الأدبار ولم يعد لهم قوة فى الأرض يستطيعون
أن يعيشوا بها فى الأرض فسادا *

وكان مع رحلة غالب هذا فى البلاد يتتبع جيوب اليهود ، حتى صار على
مقربة من مكة المكرمة وقد ظهر كل جيوب اليهود ، وأدب الاغراب حتى
استقامت أمورهم *

سرية أبي حدود

٥٦٢ — كان لا يزال في الجزيرة العربية من بقايا خيثم وغيرها من يحاول محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن ظهر نور الاسلام في البلاد العربية ، وبدأ قويا يحملهم على التفكير السليم في العقيدة ، وأن لم يكن لتطهير العقول من رجس الوثنية ، فانتقام لسوء المغبة .

بلغه عليه الصلاة والسلام أن رجلاً له مكانة في قومه من خيثم يريد أن يجمع قيساً على محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث أبا الحدود ، ورجلين من المسلمين ، وقال لهم عليه الصلاة والسلام : « أخرجوا الى هذا الرجل ، حتى تأتوا منه بخبر وعلم » .

وأركبهم على ناقه عفاء ، وقال تبلغوا على هذه .

خرج الرجال الثلاثة ومعهم سلاحهم ، وتحسسوا أمر ذلك الرجل ، فوجدوه يجمع من يجمع من الناس ، أو على استعداد لأن يجمع ، فقتلوه بسهم أصاب فؤاده ، وانتهى أمره .

واستمر أبو الحدود في سرية حتى بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أضمر ، ونزلوا بطنه وقد مر رجل اسمه عامر بن الأضبط النخعي ، فالتقى السلام ، فقتله رجل من المؤمنين اسمه مجشم بن جثامة لعداوة كانت بينهما مع أنهلقى السلام ، إذ جاء غير مقاتل ، ولا يريد للقتال .

وقد حدثت أمور في هذه السرية الصغيرة دلت على مبادئ سامية في الاسلام .

أولها : أن أبا الحدود الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السرية كان قد ذهب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطلب مهر زواجه ، وأن ذلك يدل على مدى قوة التعاون بين المؤمنين في تلك الفترة من تاريخ الاسلام التي تعد نورا لكل الأزمان أن اتبع المسلمون مبادئ الاسلام .

فقد روى أن أبا الحدود هذا الذي بعث بهذه السرية ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تزوج امرأة من قومه فأصدقها مائتي درهم ، ذهب اليه عليه الصلاة والسلام يستعين به على زواجه منها ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كم أصدقها ؟ قال مائتي درهم ، فقال النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم ، سبحان الله ، والله لو كنتم تأخذونها من واد مازدتم ،
والله ما عندي ما أعينك به .

وقد أرسله على رأس هذه السرية لعله يصيب ما يصدق به امرأته .

وثانيها : أنه لا يصح قتل من ألقى السلام ؟ لأن الاسلام يدافع ، ولا يقتل من يسالم فقد نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا » ، وذلك عند قتل مجشم بن جثامة عامر بن الأضبط وقد أسف ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا يغفر لمجشم » وكان دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، لأنه قتل نفسا بغير حق ، وان الله لا يغفر ذنوب من يعتدى على حقوق العباد ، الا بعفو ممن اعتدى عليه .

وقد طالب عيينة بن بدر بدم عامر بن الأضبط ، وهو سيد قومه بنى عامر .

وقد كان الطلب تأخر الى غزوة حنين فيما يظهر من السياق ، فطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل خمسين بعيرا ، حتى يرجع الى المدينة المنورة فيعطيه خمسين فرد ، ثم قبل من بعد .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد دفع الدية من بيت مال المسلمين وان ذلك اكمل تعاون ، واكمل حرص على الدماء ، مع أنه ثبت أن المقتول لم يكن قد أسلم .

وقد قال علماء السنة والسير ان السرايا والبعوث التي جاءت بعد خيبر ووادى القرى - لم تكن سرايا ذات خطر في توجيه الحروب ، ولكنها كانت لحوادث صغيرة ، أو لبث روح الاجلال للاسلام ، وفل شوكة من يريدون للاسلام نكاية ، أو للتعرف بأحوال العرب ، أو هي أشبه بالدوريات التي تمر بالبلاد احتياطا ، وتاديبا لكل من تحدته نفسه بالاعتداء على المسلمين بأي نوع من الاعتداء .

عمرة القضاء

٥٦٣ هـ - كان اتفاق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى عقد صلح الحديبية على أن يبعد عن مكة المكرمة هذا العام ، وحتى لا يتحدث الناس أنه دخلها على الرغم من أهلها ، ثم يدخلها فى العام المقبل معتمرا ، من غير سلاح الا ما يحمل باليد ويمكث ثلاثة أيام يسعى ويطوف ، ثم يتحلل .

فلما جاء ذو القعدة اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمرة التى سميت عمرة القضاء ، كما سميت عمرة القصاص ، لأنها كانت قصاصا من صد المشركين للمؤمنين عن العمرة ، وقالوا انه نزل فى ذلك قوله تعالى « والحرمات قصاص » .

ونرى أن النص السامى « والحرمات » انما نزل فى القتال فى شهر الحرام ، فقد قال تعالى « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص » أى اذا انتهكوا حرمة البيت وصدوا عنه ، وانتهكوا حرمة الشهر الحرام ، فعليهم أن يتوقعوا مثل ما فعلوا ، فالحرمات قصاص .

اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الغمرة ، ودعا الذين حضروا الحديبية اليها ، ومن أراد من غيرهم الاعتمار ، فما عليه من حرج فى ذلك ، ولكن العمرة واجبة بالنسبة لمن أحرموا لها فى الحديبية ، ولم يتموها ، كمن يشرع فى صوم فعلا ، ثم يفطر بعد النية ، فانه عليه قضاء ذلك اليوم ، وقد ابتدأ فعلا بالأداء ، فلما لم يتمه صار واجبا عليه القضاء .

خرج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معتمرون من المدينة المنورة ، وساقوا الهدى ، وقالوا ان الهدى فى عمرة القضاء هذه كان بعضه من البقر ورخص لهم ذلك .

وقد نوى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاحرام من ميقاته ، وكان يلبى عليه الصلاة والسلام ، والمسلمون يلبون معه ، وكان محمد بن سلمة على الخيل والسلاح ، وسار بها الى مر الظهران ، فالتقى بنفر من قريش ويظهر أن ذلك أربع قريشا وأقزعههم .

سألوا محمد بن سلمة فقال هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصيب غدا فى هذا المنزل ان شاء الله تعالى وراوا سلاحا كثيرا مع بشير ابن سعد ومحمد بن سلمة .

خرج النفر من قريش الى مكة المكرمة فأكبروهم بالذى رأوا من السلاح
ففرغت قريش ، وقالوا ما أحدثنا حدثا ، وانا على كتابنا وهو عهدنا ، فقيم
يتخذونا .

وبعثوا اليه مكرز بن حقم فى نفر منهم ، حتى لقوه ورسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم فى أصحابه ، والهدى والسلاح قد تلاحقوا .

قالوا يا محمد ، ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح فى
الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم الا تدخل الا بسلاح المسافر ، السيوف
فى القرب .

فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الى لا ادخل عليهم بالسلاح ،
حيثئذ أطمأنت قريش .

ساق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الهدى يرعى فى الزرع
والثمر وهو يلبي كما شكرنا والمسلمون من ورائه يرجعون تلبيته ، وحبس
الهدى بذى طوى .

وقد خرجت قريش من مكة المكرمة الى رموس الجبال ، وأخلوا مكة
المكرمة ، وقالوا لا ننظر اليه ولا الى أصحابه ، غضبا من هذه الزيارة المباركة
ولخشية أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يعملون قلوبهم
للوحدانية واتباع الهدى ، فان النظر الى الفعال يؤثر بأكثر مما تؤثر الأقوال .

ومنهم من كان يذهب به الفضول الى تعرف ما يفعله رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :
صفوا اليه عند دار الندوة لينظروا اليه والى أصحابه ، ولقد طاف رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهوول فى ثلاثة أطواف ، وسمى بين الصفا
والمروة ، وأرسل فى بعضها ، مظهرا أنه وأهل الايمان عندهم القوة ، والقدرة
إذا كانت ساعة الجد ، وذلك لأن قريشا قالوا عن النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم : انه يقدم عليكم ، وقد هنتهم حمى يثرب .

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اضطجع بردائه ، فجعل
بعضه تحت عضده اليمنى ، وجعل طرفه على منكبه الأيسر ، وقال : « رحم
الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول
أصحابه حتى استلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الحجر الأسود ، ثم هرولا
كذلك ثلاثة أطواف .

وظن كثيرون أن هذه الهرولة ، وهى المشية التى تظهر فيها القوة خاصة بالحال التى كان فيها المسلمون وهى ظن المشركين أنه قد وهنت قوتهم ، وأضعفتهم الحمى .

ولكن لما كانت حجة الوداع ، هروا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الطواف ثلاث مرات ، فكانت سنة مشروعة واجبة الاتباع .

وقد روى الشيخان البخارى ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « قد قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صبيحة رابعة ذى القعدة سنة سبع ، فقال المشركون ، انه يقدم عليكم ، وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا بين الركنتين ، ولم يمنعه أن يرسلوا الأشواط كلها الا الإبقاء عليهم » .

وهكذا نجد كل المشقات التى يكلفها الاسلام تكون فى الطاقة ، ولا تكون إرهاقا .

وقد ظنوا كما أشرنا أن هذه الهرولة لقول المشركين ما قالوا ، ولكن ثبت أنها سنة - كما قلنا - بحجة الوداع .

جاء فى الواقدي : لما قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نسكه ، دخل البيت ، فلم يزل فيه ، حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة الشريفة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بذلك وكان من بين من حول دار الندوة بعض رجال من قريش ، كما أشرنا فكان منهم عكرمة بن أبى جهل فذكر أباه ، وقال لقد أكرم الله أبى الحكم ، ان لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول وقال صفوان بن أمية فقد أكرم الله أبى قبل أن يرى هذا ، وقال خالد بن أسيد الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم ، حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت .

ورجال غير هؤلاء من قريش لما رأوا ذلك غطوا وجوههم ، وهكذا انتصر النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون من بعد ما ظلموا ، وغازوا بالإيمان أهل الشرك .

أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى مكة المكرمة ثلاثة أيام أدى شعائر العمرة ونال أجر مجاورة البيت هو وأصحابه ، وقريش فى غيظ وكمد لأن دعوة التوحيد وشعار التوحيد دخل مكة المكرمة ، وهم يرون ، ولا يستطيعون حولا .

وفى اليوم الثالث ، كانت هناك رغبتان : رغبته الود ، والرحمة من
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهى إقامة وليمة يتناولون معا
طعاما ما يكون عربون السلام الدائم من بعد ذلك ، ورغبة أخرى مناقضة ،
هى النعرة الشديدة وإبداء العداوة والبغضاء .

فى اليوم الثالث جاءه حويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش ليخرجوا
الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد وكلتهم قريش لاجراج الرسول صلى
الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا له قد انقضى أجلك فاخرج عنا .

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : وما عليكم لو تركتمونى
فأعزست (أقست) بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ، فقالوا
لا حاجة لنا فى طعامك ، فاخرج عنا .

لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا ، بل داعيا الى الله ،
حيثما وجد الى الدعوة سبيلا ، فهو لابد أن يقرب بالمودة داعيا هاديا مرشدا
مهما تكن نفرتهم ، فهو مطالب بادناء القاصى ، وإيناس النافر ، مهما تكن
الأحوال ، فانتهاز هذه الفرصة ليلتقى بهم ، ويدعو بالحق فيهم .

ولقد لقي فعلا بعضهم ، ودعاهم الى الحق ، وان لم يكن فى داخل
المسجد الحرام .

وقد تزوج صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، تاليفا
للقلوب وإدناء لها ، بإشارة عمه العباس بن عبد المطلب ، وهى أخت امرأته ،
ولذلك تولى هو صيغة الزواج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ جعلت
أمرها الى أختها أم الفضل ، وكانت هذه مع العباس رضى الله تعالى عنه
فوكلت أم الفضل زوجها العظيم الذى شارك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
فى صيغة العقد ، ولم يكتف بذلك . بل دفع العباس صداق زواجها من ابن
أخيه أربعمائة درهم ، أثابه الله تعالى على محبته لرسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم ، وحديه العظيم عليه فى شهادته بين قريش ، وفى تصرفه ، بعد أن
أدال الله من دولة الأوثان .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفاء بالعهد ، واستجابة
لقريش الذين رفضوا مودته ، ولكنه خلف مولاه أبا رافع ، ليكون مع زوجته
أم المؤمنين ميمونة ، حتى آتاه بسرف قرب التنعيم فوافى فيها زوجها ، وبني بها ،
ثم عاد الى المدينة المنورة فى ذى الحجة .

ولقد كانت هذه العمرة تأليفا وتقريبا ، وإن حاول المشركون أن يبعدوا ولا يقربوا ، وإن ينفروا ولا يتوادوا ، ولكن كان منهم من لأنوا للإسلام ، واتخذوا سبيلهم للإيمان ، وحسبك أن تعلم أنه كان عقب هذه العمرة اسلام خالد بن الوليد ، الذى سعى سيف الاسلام ، فكان سيفا مشهورا فى كل الحروب فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك ، وفى عهد أبى بكر وأكثر عهد عمر رضى الله عنهم أجمعين .

عمرة القضاء فى القرآن الكريم

٥٦٤ هـ — كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد رأى رؤيا صادقة أنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وقد كان بعد هذه الرؤيا صلح الحديبية ، وما كان فيه ، وتحلل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عمر غضبان أسفا لم تعدنا بأن نطوف ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما وعدتكم هذا العام ، ولقد بين الله أن صدق الرؤيا كان فى عمرة القضاء ، لا فى الحديبية ، وإن كانت الحديبية أول الفتح ، أو التمهيد له ، فقال تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى الثؤرة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما » .

حكم شرعى فى عمرة القضاء

٥٦٥ هـ — كانت عمارة بنت سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب تقيم فى مكة المكرمة مع أمها سلمى بنت عميس . وذلك أن بعض القرشيين مع ارسالهم حويطبا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يطلبون منه الخروج ، أتوا عليا ، فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل .

ولما خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه على رضى الله عنه -
تبغته عمارة هذه ابنة سيد الشهداء تنادى ياعم ، ياعم ، فقتنولها على ،
فأخذها بيده ، وقال لفاطمة الزهراء ، دونك ابنة عمك لحمايتها •

ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « علام نترك ابنة عمنا
يتيمة بين ظهراني المشركين » فلم ينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن
أخراجها معهم •

ثم تنازع فيها اليه ثلاثة ، ولكل واحد منهم صلة خاصة بها • وكل
يدعى أنه أحق بها من غيره تنازعها زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ،
وجعفر بن أبى طالب •

وحجة زيد التى يدلى بها أن حمزة كان أخاه فى المؤاخاة ، فقد آخى
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيد وحمزة ، فطالب بها على أنه أولى
الناس بها ، لأنه وصيها ، وابنة أخيه فى الاخاء •

وطالب بها على لأنها ابنة عمه ، فهو أولى بها ، وهو الذى أخرجها من
المشركين قبله ولأولها ولايتها •

وطالب بها جعفر ، لأنها ابنة عمه ، ولأن خالتها زوجه ، وهى أسماء
بنت عميس •

وتحاكم الثلاثة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحكم لجعفر ،
وقال : أما أنت يا زيد فمولى الله تعالى ومولى رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، وأما أنت يا على فتشبه خلقى وخلقى ، وأنت يا جعفر أولى بها تحتك
خالتها ، ولا تنكح المرأة على خالتها ، ولا على عمتها ، ففضى بها لجعفر •

فلما قضى بها لجعفر ، قام فحجل حول رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم فقال ما هذا يا جعفر ، فقال يا رسول الله كان النجاشى اذا ارضى احدا ،
قام فحجل حوله •

وقال جعفر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : انها ابنة اخى من
الرضاعة •

فزوجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سلمة بن أبى سلمة ، فهو
صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتركها حتى زوجها •

وإن هذه القصة أفادت أحكاماً في الحضانة وهي الولاية على النفس ، وهي ولاية التزويج في الحضانة فقد أثبت أن الحضانة لا بد في أن تملك الناحية عند ذى رحم محرم ، وجعفر كان ذا رحم ، وكان محرماً لها ، لأنها ابنة أخيه رضاعاً وامراته خالتها ، ولا يتزوجها على خالتها وأفادت أن الولي على النفس بالنسبة للزواج لا يشترط أن يكون ذا رحم محرم ، فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوجها ، وهو عاصب ليس ذا رحم محرم منها .

وأثبت أن الأولياء إذا كانوا في مرتبة واحدة زوج أفضلهم ، فكان جعفر وعلى ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولاد عم ، فزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ودل الخبر على أن الولي العاصب الأقرب إذا غاب قام في الولاية من يليه في القرب ، والولي الأقرب هو العباس رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وكان قد أسلم ، وهو عمها ، والباقي أولاد عمها ، فهو أقرب منهم جميعاً ، ولكنه كان غائباً ، فيتولى التزويج من يليه ، فتولى أفضل من يليه .

سرية ابن أبي العوجاء السلمي

٥٦٦ هـ — كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يني عن الدعوة إلى الإسلام ، لأنه رسالته ، وهو يستمع دائماً إلى قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » .

فكان يدعو إلى الإسلام ، ويقرب القلوب وهو في مكة المكرمة ، وقد أثمر ثمراته في أهل مكة المكرمة بعد ذلك فكانوا يدخلون في الإسلام طالبيين الرفعة عن طريقه .

فلما انتهت عمرة القضاء ، في ذى الحجة في السنة السابعة أخذ يوجه الدعوات إلى الجزيرة العربية فأرسل بعدها أبا العوجاء إلى بعض القبائل على قرب من ثلة في خمسين فارساً يدعو إلى الإسلام أو العهد ، أو القتال .

وقد كان لهم عين بالمدينة المنورة فذهب وأخبرهم بسرية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وحذرهم فجمعوا جموعاً كثيرة .

فجاء ابن أبي العوجاء وهم مستعدون ، فلما رآهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتجمعهم دعواهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوهم بالقول

الرافض ، ولكن أجابوهم بالعمل المقاوم ، فرموهم بالنبل ، وقالوا لا حاجة لنا الى ما دعوتكم اليه .

وجعلت الامدادات تجيء اليهم ، حتى احدثوا بالخمسين فارسا من المؤمنين من كل جانب ، وقاتل المؤمنون قتالا شديدا ، حتى قتل اكثرهم ، واصيب ابن العوجاء بجراحات كثيرة ، فتحامل حتى رجع بمن بقي من أصحابه .

وهكذا كانت التضحيات في سبيل الدعوة من اهل الغدر والنفاق .

اسلام خالد بن الوليد

٥٦٧هـ — قلنا ان عمرة القضاء كانت فرصة لتقريب البعيد ، وايناس الغريب عن الاسلام بمبادئه ، والربط بالمودة ، واذا كانت نفوس جافية لم تستجب لداعى المودة والرحم ، فان العقلاء قد سرت الى نفوسهم دعوة الحق ، واخذوا يرون الاسلام في علاء ، وعرفوا ذلك من منطق القوة ، ومنطق الهداية ومنطق العقل ، وقد زالت الغمة ، وكشفت الحقائق ، وكان من هؤلاء وعلى رأسهم خالد بن الوليد ، الذي سمي بحق من بعد سيف الاسلام ، وان لم ينل مرتبة المجاهدين الاولين والبلاء بلاء ، والقوى كلها تكاثفت على المسلمين .

لقد كانت نفس خالد المدركة التي تحس مائلة عن الشرك الى دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يرى انه يخوض في الدفاع عن الشرك الى غير غاية .

ولنترك الكلمة ، لما روى عن خالد بن الوليد في حديثه عن اسلامه .

قال : لما أراد الله تعالى بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الاسلام ، وحضرني رشدي فقلت ، قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس لي موطن أشهده — أو أنصرف وأنا أرى اثنى موضع في غير شيء ، وأن محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحديبية خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله بأصحابه بعسفان ، فقامت بازائه ، وتعرضت له ، فصلى الظهر امامنا فهمنا ان نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا ، وكانت فيه خير . فاطلع على ما في انفسنا مما اهتم به ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منا موقعا فقلت الرجل ممنوع فاعتزلنا ، وعدل عن سير خطنا واخذ ذات اليمين .

فلما صالحو قريشا بالحديبية ودافعتهم قلت فى نفسى أى شىء بقى لأذهب الى النجاشى فقد ، اتبع محمدا وأصحابه عنده أمنون ، فأخرج الى هرقل فأخرج من دينى الى نصرانية أو يهودية أفاقيم فى عجم ، أفاقيم فى دارى •

فانا فى ذلك ان دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى عمرة القضاء ، فتغييت ، ولم أشهد حضوره •

• وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عمرة القضاء فطلبنى ، فلم يجدنى ، فكتب الى كتابا فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فانى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام ما جهله أحد ، وقد سألنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنك ، وقال أين خالد ، فقلت يأتى الله تعالى به ، فقال : ما مثله يجهل الاسلام ؟ ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن هالحة ، •

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الاسلام ، سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنى ، وأرائنى فى المنام كائى فى بلاد ضيقة مجدية ، فخرجت فى بلاد خضراء واسعة ، فقلت ان هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة المنورة قلت لأنكرنها لأبى بكر ، فقال مخرجك الذى هداك الله تعالى للاسلام ، والضيق الذى كنت فيه من الشرك •

فلما أجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قلت من أصحاب الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم !! ، فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، انما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى أشد الإباء ، وقال لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا ، فافترقنا وقلت هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر قلت فآتكم على فلقيت عكرمة بن أبى جهل ، فقال مثل ما قال صفوان بن أمية فخرجت الى منزلى فأمرت براحلتى ، فخرجت بها الى أن لقيت عثمان بن أبى طلحة ، فقلت ان هذا لى صديق فلو ذكرت له ما أرجوه ، ثم ذكرت من قتل من أبائه فكرهت ان اذكره ، فقلت وما على ، وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما ال الأمر اليه ، فقلت انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج وقلت له نحوا مما قلت لصاحبى ، فأسرع الاجابة وقلت له انى غدوت اليهم ،

وأنى أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى * * * فادلجنا سرا ، فلم يطلع علينا الفجر ، حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا الى الهدية • فوجدنا عمرو بن العاص ، بها ، فقال : مرحبا بالقوم ، فقلنا وبك ، فقال الى أين مسيركم ؟ فقلنا وما أخرجك ؟ فقال وما أخرجكم ؟ قلنا الدخول فى الاسلام ، واتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال وذلك الذى أقدمنى ، فاصطحبنا جميعا حتى دخلنا المدينة المنورة ، فأنحنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسر بنا فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلقينى أخى فقال : أسرع ، فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخبر بك فسر لقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه ، فما زال يتسّم لى حتى وقعت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت انى أشهد أن لا اله الا الله ، وانك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال تعال ، ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • « الحمد لله الذى هدانا لهذا ، قد كنت أرى لك عقلا ، ورجوت الا يسلمك الا الى خير قلت يا رسول الله ، انى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك مما أبرا حنه فادع الله أن يغفر لى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « الاسلام يجب ما كان قبله ، قلت يا رسول الله على ذلك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم اغفر لخالد بن الوليد ، كل ما أوضع فيه من حسد عن الله ورسوله » •

هذا ما نقله الواقدي بالرواية عن اسلام خالد بن الوليد •

وذكرناه بطوله ، لأنه حكاية نفسه ، وبيان خواطره ، وبيان ما وجهه الى الاسلام توجيها نفسيا ، أهو الاعتقاد الجازم الذى ينبعث من النفس ، أم هو المصلحة ، ولا يمنع أن يكون الباعث هو المصلحة ، ثم يشرب قلبه حب الايمان ، ويكون من الصادقين فى ايمانهم ، ثم يكون من بعد ذلك من المحاربين فى الاسلام ، وربما يكون من المجاهدين ، ان صح التعبير •

كان خالد ممن لم يدخلوا مكة المكرمة من قريش غيظا من الاسلام وأهله وكراهية - عندما دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة معتمرا حاجا • فدل هذا على النفرة الشديدة من الاسلام وأهله ، ولكنه جاء بعد ذلك وأراد أن يكون مع المسلمين ، ولم يكن كعمر الفاروق الذى كان البا على المسلمين ثم رق قلبه للاسلام وقذف الله فى قلبه بنوره ، فكان قوة فى الاسلام ، وفارقا بين الضعف والاختفاء والقوة ، والاستعلان ، فى وقت ضمنت فيه اللسنة عن الحق ، والقلوب عن الايمان ، ولا كحزمة أسد الله ، فانه لم يقف قط ضد الاسلام ، وأسلم ابتداء حمية لابن أخيه ، ثم صار بطل الجهاد ، لا بطل الحرب ، فقد يكون بطل الحرب غير مجاهد ، وقد يكون بطل الجهاد لم تعرف

له فى الحرب مكيدة ، كبلال وعمار ، وغيرهما من المؤمنين الأولين الذين كانوا اللبنة الأولى فى بناء الاسلام ، وعلى بلاتهم وأذاهم قام الاسلام .

كان خالد فى اسلامه ليس واحدا من هؤلاء ولا كواحد منهم ، ولكنه فكر وقدر فى البقاء على وثنية مكة المكرمة ، لتكون مصلحته ، أم المصلحة فى أن يسير فى الركب لتحفظ له مكانة المحارب الفذ والقائد النادر المثال .

وجد مكة المكرمة قد سدت ولم تكن مكان العزة ، ورأى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه يعملون ولا ينخفصون ، فهو الى علاه ، وعن فى مكة المكرمة الى غيره أو استسلام له .

ونفذ ادراكه الى سر فى علو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أنه ممنوع بمنع الله تعالى كالذى تسرب الى نفسه وهو فى خيل المشركين يرقبون صلاة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بأصحابه .

ولكن كأن ومضة نفسية ، لا نقول انها انطفأت ، ولكن نقول ان سبيل تاريخ نفسه بنفسه يدل على أن ذلك لم يكن هو المسير الوجه الى ايمانه .

بل كان الوجه أولا - أنه رأى أن لا مقام له بمكة المكرمة حيث سدت ابواب مظاهر النبوغ .

ثم كان الوجه ثانيا - أنه لم يكن له ملجأ فى الحبشة ، لأن أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم سبقوه ، والنجاشي يؤمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ويحبه ، وفكر فى أن يلجأ الى الروم ، وينتقل من دين قومه الى اليهودية أو النصرانية وربما كان ذلك فاتحا له باب النور ، ليخرج من دين قومه الى دين رجل من قومه . شرفه شرفهم ، كما عبر هو .

ثم كان الوجه ثانيا - أنه لم يكن له ملجأ فى الحبشة ، لأن أصحاب عليه وسلم ذكره ، وذكر عقله ، وذكر أن له موصفا فى حروب المسلمين تعرف فيها مكانته ، وتتميز فيها قيادته .

اتجه الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه الأمور ، ولم يكن منها ايمانه بالمعقيدة ايمانا دافعا مؤمنا مطمئنا مهديا ، الا ان يكون ما لاحظته من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حول الصلاة القائمة الى صلاة خوفا ، عندما حدثته نفسه ايان ذلك الى الانقضاء على المؤمنين فى صلاتهم .

ولما ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتطلق البشير النذير .
فى وجهه ، رضى بالاسلام ديننا ، وغفر الله تعالى له لدعوة النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم له بالغفران .

وانا لانقص من مقام خالد بن الوليد القائد المحارب ذى الدرية فى
القتال ، اذا قلنا انه ابتداء دخوله فى الاسلام بأنه رأى فى دخوله فيه المصلحة
بعد أن صارت القوة الوحيدة فى البلاد العربية للاسلام - لأنه اذا رأى فى
ذلك مصلحة شخصية دنيوية ، فانها كانت باب النور اليه ، ودخل الاسلام
قلبه ، وصار مؤمنا بالله واليوم الآخر ، والملائكة والنبين .

ولعل ما قلناه هو السر فى أن عمر بن الخطاب فاروق الاسلام الذى لم
يفر أحد فرية فى الاسلام لم يكن يعامله معاملة المظنن اليه ، وان كان يقدر
مقدرته الحربية .

اسلام عمرو بن العاص

٥٦٨ هـ — يتشابه اسلام عمرو بن العاص مع اسلام خالد بن الوليد ،
وان كان فى اسلام خالد معان قومى الى أنه أدرك بعض معانى الوحي ، بدليل
ما لاحظته فى صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وادراكه ان الله تعالى
مانع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه غير مسلمه وادراكه مكانة النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم بين العرب والعجم ، وأن شرفه هو شرف قريش ،
بل كانت المصلحة الدافعة أوضح فى عمرو بن العاص .

لونتذكر كيف دخل الاسلام قلبه بما حكاه الواقدي عنه .

يقول عمرو بن العاص : « كنت للاسلام مجانباً معادياً ، حضرت بدرا
مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحدا فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت ،
فقلت فى نفسى والله ليظهرن محمد على قريش فلحقت بمالى ، وأقللت من
الناس (أى من لقائهم) ، فلما حضر الحديبية رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم وانصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الصلح ، ورجعت
قريش الى مكة المكرمة ، جعلت أقول يدخل محمد قابلاً مكة المكرمة ، ما مكة
المكرمة بمنزل ولا الطائف ، ولا شيء خير من الخروج ، وأنا بعد ناء عن
الاسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم ، فقدمت مكة المكرمة ، وجمعت
رجالا من قومى ، وكانوا يرون رأى ، ويسمعون منى ، ويقدموننى فيما نابهم
فقلت لهم كيف أئنا فيكم ، فقالوا ذو رأيا ، ومدرهنا فى يمن نفس ، وبركة أمر .
قلت تعلمون أئنا والله لأرى أمر محمد أمرا يعلو الأمور علوا منكرا وأئنا قد

رأيت رأيا قالوا وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشي فنكون معه ، فان يظهر محمد ، كنا عند النجاشي ، ونكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وان تظهر قريش فنحن من قد عرفوا قالوا : هذا الرأي - قلت فاجمعوا ما نهديه له » .

• جمعوا أحب ما يهدى إليه وهو الأدم ، وذهبوا إلى النجاشي .

ثم يقول عمرو بن العاص في لقائه مع النجاشي ، فوالله انا لعنده اذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه بكتاب كتبه يزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية الضمري ، ولو دخلت على النجاشي فسألته إياه ، فأعطانيه فضريت عنقه ، فإذا فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت عنها حتى قتلت رسول محمد .

فدخلت على النجاشي ، فسجدت له ، كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا !! قلت نعم أيها الملك أهديت لك أدماء كثيرة ثم قدمته فأعجبه ، وفرق منه شيئا بين بطارفته ، وأمر بسائرهم فأدخل في موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأيت طيب نفسه قلت أيها الملك اني رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول عدو لنا قد وترنا ، وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيهِ فأقتله .

فغضب من ذلك ورفع يده ، فضرب بها أثفى ضربة ، ظننت أنه كسره ، فجعلت ألقى الدم بثيابي ، فأصابني من الدمل ما لو انشقت بي الأرض لدخلت فيها فرقا منه .

ثم قلت أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك ، فاستحيا وقال : « يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، والذي كان يأتي عيسى - لتقتله » .

قال عمرو فغير الله قلبي عما كنت عليه ، وقلت في نفسي : عرف هذا الحق العرب والعجم ، وتخالف أنت ، ثم قلت : اتشهد أيها الملك بذلك ؟

قال الملك : نعم أشهد عند الله يا عمرو ، فأطعني واتبعه ، فوالله انه لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه . كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت اتبايعني له على الاسلام ، قال نعم . فبسط يده ، فبايعني على الاسلام ، ثم دعا بطست ، فغسل عنى الدم ، وكسأني ثيابا ، وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فالقيتها .

ثم خرجت على أصحابي ، فلما رأوا كسوة النجاشي سروا بذلك ، وقالوا هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ قلت كرهت أن أكلمه في أول مرة ، وقلت أعود إليه ، فقالوا الرأي ما رأييت ففارقتهم ، وكأني أعمد إلى حاجة ، فعمدت إلى موضع السفن ، فأجد سفينة قد شحنت وتدفع فركبت معهم ، ودفعوها ، حتى انتهوا إلى الشعبة •

وخرجت من السفينة ، ومعى نفقة ، وابتعت بعيرا ، وخرجت أريد المدينة المنورة مررت على الظهران ومضيت حتى إذا كنت بالهدة ، فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلا ، وأحدهما داخل في الخيمة ، والآخر يمسك الراحتين ، فنظرت فإذا خالد بن الوليد ، فقلت أين تريد قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم • دخل الناس في الاسلام ، فلم يبق أحد ، والله لو أقسمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها ، قال عمرو وأنا والله أردت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أو أردت الاسلام ، فخرج عثمان ابن أبي طلحة فرحب بى فنزلنا جميعا في المنزل ، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة المنورة فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح يارباح يارباح ففتاء لنا ، بقوله وسرنا ، ثم نظر إلينا ، فأسمعه يقول : قد أعطت مكة المكرمة القادة بعد هذين فظننت أنه يعينى ، ويعنى خالد بن الوليد ، وولى إلى المسجد سريعا ، فظننت أنه بشر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقدمنا ، فكان كما ظننت وأخذنا بالحرّة ، فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودى بالعصر فانطلقنا على محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وإن لوجهه تهلا والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا فنقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن أبي طلحة فبايع ، ثم تقدمت ، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه ، فبايعته على أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، فقال إن الاسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما قبلها ، فوالله ما عدل بى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى أمر حربه منذ أسلمنا •

نقلنا الحديث بطوله ، وكنا نود أن نحذف الجزء الأخير ، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعدل أحدا من أصحابه • فانا لا نحسب يمينه فى هذا برة ، كانت صحيحة النسبة إليه ، لقد كانت بعد ذلك غزوة مؤتة وتبوك وفتح مكة المكرمة وهوزان وحنين فلم يعدل بهما على بن أبى طالب والزبير بن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص هذه اليمين غير البرة فرية عليه أو غير ذلك ، ولماذا كان اللواء لعبد الله ابن رواحة ثم لزيد بن حارثة ، ثم لجعفر بن أبى طالب ، ولم يقولها لخالد إلا حيث لم يكن وال يحملها •

ومهما يكن من أمر هذه اليمين ، فإن ما جاء على لسانه يدل كماً عليه
كلام صاحبه على أن اسلامهم ابتداء كان لمصلحة ، وقد أشرب قلوبهم الايمان.
من بعد •

هذا عمرو كان يقول لو أسلمت قريش كلها ما أسلم ، ثم يخرج ببعض
قومه ليحرض النجاشي على المؤمنين ، ويحاول أن يتمكن من قتل رسول من
عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيلطمه النجاشي لطمة جدعت أنفه
هذه اللطمة هي التي نبهته الى الحق ، أم نبهه غضب النجاشي ، وإرادة
ارضائه ليس في الوقائع التي ذكرها ما يدل على أنه رأى في النبي صلى الله
عليه وسلم أن الله مانعه ، فهو لم ير شيئاً من ذلك ، ولذلك نقول ان اسلامه كان
لمصلحته الشخصية الدنيوية ولعل الاسلام قد دخل قلبه من بعد ذلك حتى
صار ايمانا ، وهذا ما رجحناه •

وفي قصة عمرو بن العاص عن نفسه ما يدل على أنه رجل لا يظهر في
الهيحاء ، ويبغى لنفسه الانحياز عن مواطن الردى ، فهو يحضر بدر ، وينجو
وأحدا ، وينجو ، والخندق ، وينجو ، ويظهر أنه لم يقتل ولم يقاتل بل كان من
النظارة أو المدبرين ، كما كان شأنه في القتال بين امام الهدى على ابن
أبي طالب ومعاوية يدبر في حرب البغاة •

وسياتي من الأنباء مقامه وهو وخالد بجوار صحابة النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم الذين رضى الله تعالى عنهم ، ورضوا عنه في بيعة الرضوان •

سرايا للتعرف في البلاد

٥٦٩ هـ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يرسل سرايا لمعرفة
البلاد وحال القبائل ، وخصوصا التي لا يأمن النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم جانبها •

فقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب في أربعة
وعشرين الى جمع من هوازن وأمرهم أن يغيروا عليهم ، وكان بعثه يسير
الليل ويكنم النهار ، جاءهم على غرة ، وأوعز شجاع الى أصحابه الى
لا يمعنوا في الطلب ، فأصابوا نعا كثيرا ، وشاء فاستاقوا ذلك ، حتى قدموا
المدينة المنورة ، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيرا لكل رجل •

ثم قدم اهلهم مسلمين ، فشارو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اميرهم
في رد السبايا اليه ، فردهن ، ويقول الحافظ ابن كثير في تاريخه قد تسكن

هذه السرية هي المذكورة فيما رواه الشافعى عن مالك عن نافع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سرية قبل نجد • فكان فيهم عبد الله بن عمر ، فأصابته إبلا كثيرة • قبلت سها من اثني عشر بعيرا • ونقلنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعيرا بعيرا وأنا نحسب أنهما سريتان • أحدهما قبل نجد والأخرى أرسلت الى هوازن •

الى بنى قضاة

٥٧ • — أخذت سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تتجه الى أرض الشام ليرتادوا الأراضى التى تناخم أرض الشام ، فيتعرف حالها تمهيدا ، أو كشفا للغزوة التى تتجه الى الشام من بعد ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كعب بن عمير الغفارى الى بنى قضاة من أرض الشام فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا منهم كبيرا فدعواهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوهم بالنبل • فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوهم أشد قتال وكانوا قلة فكأثرهم المشركون بكثرتهم حتى قتل المؤمنون فى سبيل الدعوة الى الاسلام ، وكان فى القتل جريح اشتدت جراحه ، حتى ظن أنه بين الموتى ، فما ان أقبل الليل حتى تحامل حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهم بأن يبعث اليهم ، فبلغه أنهم انسابوا فى الصحراء الى موضع آخر •

وقد يسأل سائل لماذا يرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سرايا قليلة العدد يتغلب عليهم المشركون بالكثرة التى لا قبل لهم بها ، فيقتلون جميعا أو كثرتهم •

ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت ابتداء للتبليغ والدعوة ، ولكنهم كانوا يلتقون بقوم غلاظ لا يجيبون ، وان أمكنتهم الفرصة يقتلون ، وقد رأينا فى هذه السرية الأخيرة ، كيف كانت الدعوة الى الاسلام : ابتداء ، فردوا ثم رشقوهم بالنبال ، ثم قتلوهم ، فما ذهبوا مقاتلين ، ولكن ذهبوا داعين الى الحق مبلغين رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأمين •

غزوة مؤتة

٥٧١ هـ — كان الاسلام يسرى سريان النور ، والشام لم يكن بعيدا عن البلاد العربية ، بل كانت به قبائل من العرب ، فالغساسنة منهم ، وإذا كان الاسلام يسرى نوره فيعم الآفاق القريبة فقد كان من عرب الشام من دخل في الاسلام ، أو كان من العرب من سافر الى الشام .

وأولئك المسلمون ، وإن كانوا عددا قليلا ضاقت بهم صدور النصارى حرجا ، فقتل والى الشام من قبل الرومان من أسلم من عرب الشام ، ولا بد أن يحمى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أولئك الذين يفتنون عن دينهم ل تمنع الفتنة عنهم ، ويقول فى ذلك ابن تيمية فى رسالة القتال ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما بعث الى حرب الروم فى مؤتة الا بعد أن قتل الوالى الرومانى من أسلم فى الشام .

هذه كانت بعض السبب فى سرية مؤتة وقد كان هناك سبب مباشر قوى ، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه الى الشام ، ثم الى ملك الروم فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فاوثقه رباطا ، ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل من رسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غيره الى ذلك الوقت ، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر ، وكان لابد أن يقف أمام هذا الغدر بقوة ، ولو كانت مقابل قوة الرومان .

وذلك لأنهم فتنوا المؤمنين ، بقتل بعضهم فكان ذلك ارهايا لمن يهم بالدخول فى الاسلام ولأنهم قتلوا رسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم فى وقت قد صارت عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القوة الفاضلة العليا فى البلاد العربية ، فكان لابد لذلك من أن يقاوم ذلك الغدر ، لأن السكوت يكون ذلة لأهل الايمان ، وذلة للعرب أجمعين ، وهم بصدد أن يقوموا بدعوة الحق ، وحماية الشعوب من طغاتها .

فى جمادى الأولى من السنة الثامنة بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى البلقاء من الشام ، وكانت عدتها ثلاثة الاف رجل ، ولعلها اكبر الغزوات الى الآن عددا .

وجعل الأمير على هذه البعثة زيد بن حارثة ، فان قتل زيد كان الأمير جعفر بن أبى طالب ، فان قتل جعفر كان الأمير عبد الله بن رواحة ، فان قتل ،

قليرتض المسلمون رجلاً يكون أميراً عليهم ، فلما فصلوا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، ومضوا حتى ارض الشام ، فبلغ الناس ان هرقل قد نزل فى مأب من ارض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم اليهم عدد من نصارى العرب ، وبلغ عدد من انضم مائة ألف أخرى .

عندما رأى جيش الاسلام ذلك كان منه من راعه العدد والسلاح ، وقالوا فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فاما ان يمدنا بالرجال ، واما ان يأمرنا ، لنمضى اليه ، عندما سمع عبد الله بن رواجه ذلك الكلام المتردد وقف وقال :

يا قوم ، والله ، ان التى تكهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى اكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هى احدى الحسينيين ، اما ظهور واما شهادة .

قال الناس بعد هذا الكلام المؤمن القوى قد والله صدق ابن رواحة ، تقدم جيش الرومان ، وان كانوا يبلغون مائتى ألف ، وتقدم جيش الاسلام وهو يؤمن بقوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » تقدم المؤمنون فى غير وجل من كثرة عدد العدو ، وقتلهم .

وتقدم الصفوف زيد بن حارثة ، وهو يحمل راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان على ميمنة الجيش رجل من بنى عذرة اسمه قطبة ابن قناده ، وعلى الميسرة رجل من الأنصار اسمه عباية بن مالك وانتحي المسلمون قرية من قرى البلقاء ، فالتقوا بالرومان عندها .

واذا كان المؤمنون قد أخذتهم ابتداء رهبة العدد والسلاح ، فقد أخذت الرومان رهبة الايمان ، واذا كان قد استطاع المؤمنون ان يتغلبوا على ما اصاب نفوسهم من قزع العدد ، فان مائتى الألف لم يستطيعوا ان يتغلبوا على قزعهم من انهم يلقون قوما مؤمنين احب اللقاء اليهم لقاء ربهم .

وقد التقى الفريقان ، الفريق المؤمن ، وهو يهاجم دفاعا عن اهل الايمان الذين قتلهم والى الرومان ، ودفاعا عن كرامة الاسلام التى اهيئت بقتل رسول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكرامة العرب وهم مزودون بمعان دافعة ، وكان جيش الرومان الكثيف فى عدده وعدته ، لا غاية له الا ان يرد هؤلاء المزودين بالقوة المعنوية ، وينصرهم السابق ، ولذلك كان اتجاههم الى قتل حملة الراية التى هى رمز التقدم ان تقدم حاملها ، اذ كلما تقدم زاد الهجوم قوة واحتداما وهم خائفون من هذا الهجوم ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ا لهم ، « وما كان ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » ، ا لهم ، ان حملة

الراية سيكونون المقصودين ، فرتب الولاية بينهم فجعلها لزيد بن حارثة لقوة ايمانه ، وليعلم الناس أنه لا شرف الا بالايمان والعمل الصالح ، ثم تكون لجعفر بن أبى طالب الذى هاجر مرتين ، لكى يعلم الناس أنه لا يضمن بأهله عن مواطن الردى ، ثم لعبد الله بن رواحة ولم يجعلها من بعد لأحد ، ولم يكن خالد من بين الأمراء الذين ذكرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واصطفاهم لأنه كان قريب عهد بالاسلام .

كان هم جيش الروم أن يرد المهاجمين ، ولذلك اتجه الى القواد ، وجعلهم غايته ، فقتلهم واحدا بعد واحد ، وكان هم جيش المؤمنين أن ينتصفوا لآخوانهم الذين فتنوا فى دينهم فقتلوا من الرومان مقتلة عظيمة ، حتى قال خالد بن الوليد أنه أبدل فى يده ستة سيوف ، ولم يبق الا صفحة يمنية ، فسل نفسك لم كان يخشى السيف فى يد خالد من هؤلاء ، الذين سارت فيهم قسوة الايمان ، كما تسير السكين فى قطعة الزبد .

وأولئك القواد العظام الذين عينهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان ليقتل الا بعد أن عبروا ، ولا يلقى الراية من يده الا بعد رقاب عدد من الكافرين من النصارى واليهود فزيد حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحامل رايته قتل عددا حتى قتل .

وجعفر بن أبى طالب حامى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل حتى أحس بأن فرسه لا تسعفه ، فنزل عنها ، وأخذ يقاتل راجلا ، وراية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحملها على يمينه ، فلما قطعوها حملها على شماله ، فلما قطعوها حملها بين يديه ، حتى قتل ، فكان فى الجنة الطيار ذا الجناحين .

وهكذا كان عبد الله بن رواحة كصاحبيه أقدم عليها من غير تردد ، فكان كالصاعقة على الكافرين ، حتى استشهد ، وهو حامل الراية .

ولا يصح أن تسقط راية المؤمنين ، وانتهى أمرها الى ثابت بن أقرم ابن العجلان ، ولكنه أحس بأنه دونها ، فقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا أنت ا قال ما أنا بفاعل ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد ، فلما حملها أخذ يقاتل ، وسيفه البتار يقطع الرقاب .

ولكنه وهو القائد المدرك علم أنه وإن كانت الجولة الى الآن للمؤمنين ، ولو قتل حاملو الراية لابد أن يزحمهم الروم ونصارى العرب ويهودهم بكثرة العدد ، لأنها تطيل القتال ، ولا تتحمل القلة الطول مهما يكن ما عندهم من معنويات صابرة مؤمنة .

اتجه خالد الى الانحياز تمهيدا لانسحاب منظم ، وفى هذا الوقت ابتداء قوات الروم يتخاذل بعضها من العرب ، وبعضهم انضم الى خالد عند انسحابه يحكى ابن اسحاق انه كان من حدس كاهنة ، حين سمعت بجيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مقبلا ، قالت لقومها من حدس ، قالت لهم انذركم قوما خرزا (أى مبصرون مدركون) ينظرون شزرا ، ويقودون الخيل تترى ، ويهريقوا دما عكرا ، فاخذوا بقولها واعتزلوا من بنى لخم ، وكان من الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة ، فلما انصرف خالد بالناس انصرفوا معه ، وعادوا قافلين الى ارضهم .

فالجيش الرومانى ، لم يكن متماسكا ، وان كان كثير العدد ، لتعدد الأجناس فيه ، فلم تغن كثرتهم عنهم شيئا ، ونجا المسلمون منهم ، ونجوا هم بانفسهم ، وان جرحوا جرحا شديدا .

عندما رأى خالد كثرة الكافرين ، كما ذكرنا ، أخذ يبذل فى مواقف جيشه ، فجعل اليمينه ميسرة ، والميسرة ميمنة ، والصدر خلفا والخلف صدرا فظنوا انه قد جاءه المدد ، فلهذا أنزل الله تعالى فى قلوبهم الرعب من لقاء المسلمين فأثروا النجاة بانفسهم ، ولم يتبعوا جيش المسلمين فى تراجعهم ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، وأخذ خالد بجيش الايمان ، حتى عاد الى المدينة المنورة سالما به ، لم يفقد فى هذه المعركة الا اثنى عشر قتيلاً منهم الأمراء الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر ، وعبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنهم جميعا ، وتسعة معهم ، فكان عدد القتلى اثنى عشر قتيلاً .

ولكن لم يتعود أهل المدينة المنورة أن تعود اليهم جنودهم من المعركة ، حتى فى أحد بقيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد نال المشركون منهم نيلا وجراحا فلم يعد المجنود من المعركة فارين أو شبه فارين ، بل كان الجمع الذى أصيب بالجراح قد أخذ يكر وراء المشركين كرا ، وتبعهم الى حمراء الأسد راجعين فارين من تجدد اللقاء ، ورضوا بالاياب .

لم يعجب أهل المدينة المنورة صنيع الجيش الذى قاده القائد المدرك بالانحياز ثم الانسحاب ، لأنهم لم يتعودوه ، وسموهم الفرارين ، وأخذ الصبيان يحثون التراب على وجوههم ، وقد خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستقبلا فامر بتحصية الصبيان الا اولاد جعفر بن أبى طالب فضمهم اليه ، وقال انهم الكرارون ، أو العكارون ، كما جاء فى بعض الصحاح والسنن ، وسماهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم متحيزين الى فئة ، فهو فئة المسلمين ،

وكان ذلك تطبيقاً لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا
زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً
إلى فئة فقد بء بغضب من الله وماواه جهم ويئس المصير » .

لم يولوا الأدبار . بل كانوا منسحبين . لا مدبرين ، وتحيزوا إلى فئة
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدخلوا في استثناء الآية ، ولم يدخلوا في
موضع نهيا .

نتيجة الغزوة

٥٧٢ هـ انتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الاسلامي من أن يقع فريسة
لجيش الكفر ، المتكاثف ، وحسب ذلك نصراً مبيناً ، وإن النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم أدرك قبلها نتيجة المعركة ، فانه عندما علم أن خالداً تولى القيادة ،
وحمل الراية قال تولى الراية سيف من سيوف الله يفتح الله تعالى عليه ،
وما كانت لتسمى النتيجة فتحاً لو كانت النهاية أن يرضى الجيش من الغنمة
بالإياب .

ولقد قال بعض كتاب السيرة ان النتيجة كانت السلامة ، ولم تكن
نصراً .

ولكننا نقول انها كانت نصراً لأسباب :

منها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماها فتحاً ، وسمى الذين
عادوا إلى المدينة المنورة كراداً .

ومنها أن المسلمين ساقوا غنائم ولم يؤخذ منهم شيء .

ومنها أن قتلى المؤمنين كانوا اثني عشر ، وقتلهم لا تحصى عدداً ، فقتلى
المسلمين كانوا أقل عدداً ، وفيها كان النصر المؤزر ، وجعل كلمة الذين كفروا
السفلى وكلمة الله تعالى هي العليا .

ولقد قال في ذلك الحافظ بن كثير في تاريخه : « هذا عظيم جدا ،
أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل
الله وعدتها ثلاثة آلاف ، وأخرى كافرة ، وعدتها مائتا ألف مقاتل من الروم
مائة ألف ، ومن نصارى العرب مائة ألف ، يتبارزون ويتصالون ، ثم مع هذا
كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر ، وقد قتل من المشركين خلق كثير ، هذا

خالد وحده يقول لقد اندقت فى يدى تسعة أسياف وما بقيت فى يدى الا صفحة يمانية ، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها .

دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن الكريم وقد تحكموا فى عبدة الصليبان ، عليهم لعنة الرحمن ذلك الزمان وفى كل أوان ، وهذا مما يدخل فى قول الله تعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين النقتا فئلة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء أن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

واننا نرى أن هذا يشبه ما قرره الله تعالى من أن عشرين صابرين يغلّبوا مائتين ، وأن مائة صابرة تغلب ألفا ، وأنه عند قوة الايمان وقوة الصبر يكون المؤمن الصابر يغلب مائة .

وقد كان ثلاثة آلاف قد غلبوا مائتى ألف ، وصدق قول الله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، أن يكن منكم عشرون صابرون يغلّبوا مائتين ، وأن يكن منكم مائة يغلّبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون » هذا هو الحق .

أن غزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية الى دائرة اراض تحت سلطان الرومان ، فاذا كانت النتائج تكون على هذه الشاكلة ، فإن النصر سيكون لحق باذن الله تعالى ، وقد كان ، فكانت البيروك وما بعدها فى عهد الراشدين ، فكانوا يفرون كما تفر الشاه أمام الأسود .

واذا كانت بدر أول انتصار فى الأرض العربية ، فمؤتة أول انتصار مؤزر خارج الجزيرة العربية ، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدا له خير .

سرية ذات السلاسل

٥٧٣ هـ — عندما أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بلاد الشام سرية من ثلاثة آلاف لمنع فتنة الرومان للمسلمين ، ولتأديب الغساسنة الذين قتلوا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واقبل الرومان فى جيش بلغ تعدادهم مائة ألف ، وانضم من أعراب الشام مثلهم عددا ، فكان أمام المؤمنين مائتا ألف نصفهم من أعراب الشمال من لحم وجذام وطىء وعذرهم مما ضاعف

البلاء على المسلمين ، ولكن كانت الغالبة ، فكانت الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي الغالبة ، وقد ذكرنا ذلك .

ما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه أن يتركوا هؤلاء الأعراب من غير تأديب ، وكما قال الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » فكان لابد أن يمنعهم من أن يسترسلوا في الشر .

أرسل عمرو بن العاص يستنفر العرب ليستميلهم اليه بذريعة لسانه ، وقد رأى عمرو رجالا لكن لم يستطع بياننا ، فقال رضى الله عنه : سبحان الله خالق هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص ، ولأنه كما قيل كانت له صلة ببعض هؤلاء الأعراب ، ومعه عدد قليل من المسلمين .

سار حتى وصل الى جذام ، ونزل ماء السلاسل .

ولكن لم يفلح لسانه في استمالة أحد ، ولم يكن كعبد الله بن رواحة يطلب من جيشه إحدى الحسينيين ، ولذلك أرهبته كثرة عدوه ، فلم يصنع شيئا ، وأرسل الى الرسول عليه الصلاة والسلام ليبعث اليه الرجال وبقي ينتظر المدد .

عندئذ بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيشا من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، والقائد أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة .

ولقد تحرك في عمرو حب الرياسة التي ظهرت من بعد في عهد عثمان عندما عزل ، وفي عهد على التي تفرق بها وبغيرها أمر المسلمين .

قال لأبي عبيدة انما جئت مددا لى ، وهو ما أرسل في جيش من المهاجرين والأنصار ، ولكن أرسل طليعة للتعرف والاستمالة .

وما كان من شأن أبي عبيدة أن يعطى رياسة الجند الا بأمر الرسول لعمر بن العاص الذى هو حديث عهد بالاسلام ، ولكن أبا عبيدة لم يجابهه بأن الأمر له بل قال اجابة له لا ، ولكنى على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت .

ولكن عمرو أصر على قوله ، وقال : أنت مددى .

وهنا بدت تقوى التقى المؤمن ، فقال له يا عمرو ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تختلفا ، وانك ان عصيتنى أطعك .

هذه صورة عمرو فى أول اسلامه ، وهى صورته عند تولى الامرة على مصر عندما عزله ذو النورين عثمان بن عفان ، لقد قال : كنت القى الراعى قأخرضه عليه ، وهى صورته عندما اجتمع مع معاوية ضد امام الهدى على لأنه يعلم أن عليا لن يعطيه امرة فى شىء .

أخذ الجيش الاسلامى يطارد القبائل التى ظهرت الروم ، فتوغل الجيش الاسلامى ، وكلما انتهى الى قبيلة ولت الأدبار ، ولم يصطدم الامرة واحدة ، وانتهت بفراراهم .

وبذلك كان تاديب هذه القبائل الأعرابية ، وبدت كلمة الاسلام عالية كما هى ، وبذلك انتهى المراد من هذه السرية .

سرية أبى عبيدة

٥٧٤ هـ — فى رجب من السنة الثامنة أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبى عبيدة فى ثلاثمائة رجل الى القبلية ، على ساحل البحر الأحمر ، داعيا الى الاسلام ، ومتعرفا أمر القبائل هناك ، وكان فى السرية عمر ابن الخطاب .

ولقد أصاب أولئك الصحابة جوع فى الطريق ، فلم يجدوا ما يأكلونه حتى أكلوا ورق الشجر .

واشترى قيس بن سعد ابلا ونحرها لهم ، وانصرفوا ، ولم يلقوا حربا وما جاءوا للحرب ، بل للدعوة الى الاسلام ، والعمل على نشره والتعريف به فى وسط القبائل .

سرية أبى قتادة

٥٧٥ هـ — بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى شعبان من السنة الثامنة أبى قتادة الأنصارى الى غطفان فى نحو خمسة عشر رجلا .

وغطفان هى القبيلة العنيفة التى عاونت قريشا فى غزوة الخندق ، وهى التى همت بأن تعاون اليهود فى خيبر ، وكان منها من ناصر جيش الرومان فى مؤتة فسار اليهم فى هذا العدد القليل . وأمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

بأن يشن الغارة عليهم ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، حتى لقيهم فهجم على جمع عظيم منهم ، وأحاط بهم ، وقاتلهم قتالا شديدا فقتلوا بعضهم ، واستاقوا النعم والشاة ، وعادوا الى المدينة المنورة بعد خمس عشرة ليلة ، ولا شك أن الغرض من هذه السرية هو تعرف أطراف الجزيرة العربية ، والدعوة الى الاسلام حيثما ساروا ، وأينما اتجهوا .

فما كانت هذه السرايا للقتال ، ولكن لمعرفة الاراضى الدانية والمقاصية والاعلام بالاسلام للدخول فيه طوعا لا كرها .

وقد بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابا قتادة الأنصارى ايضا الى اختم على بعد ثلاثة برد من المدينة المنورة ، بعثه فى رمضان وكان الغرض من ارسالها تعمية قريش عنه حتى لا تصده اذ كان بعدها فتح مكة المكرمة بليال ، أو كانت فى ليلة الثانى عشرة من رمضان .

انتشار الاسلام فى البلاد العربية

٥٧٦ هـ — كان الاسلام ينتشر فى البلاد العربية قاصيها ودانيها ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل الدعاة ، والناس منهم من يستجيب مؤمنا صادقا • فيهاجر الى المدينة المنورة ليكون قوة مع قوة المؤمنين ، ومنهم من يسلم ، ويدعن مستسلما من أن يسكن الايمان قلبه . وان ذلك كان فى الأعراب الذين لم يخالطوا أهل الايمان ولم يجاوروهم ، ولم يلتقوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطلبوا منه ، ولم يقرءوا القرآن الكريم مستمتعين بتلاوته . ولذلك قال الله تعالى فيهم : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » •

وكان من الأعراب من ينتظر أن يكون الغلب للمشركين أم لحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهم كانوا مذنبين بين هؤلاء وهؤلاء ، ومنهم من يبلغ به العناد فى الكفر أن يجيئوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مظهرين أنهم يطلبون الهداية فيرسل اليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يحفظهم القرآن الكريم • ويعلمهم الاسلام فيغدرون بهم ، ويقتلونهم • كما قتلوا طائفة من القراء بلغوا سبعين ومنهم من كانوا يأخذون المؤمنين ويبيعونهم للمشركين . كما فعل مع خبيب وأصحابه الذين باعوه لأهل مكة المكرمة • وقتلوه قتلًا فاجرة • فكان الحق أن يقول الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » وكان هذا النوع من النفاق الأعرابى متغلغلا فى الصحراء وحول مكة المكرمة • وحول المدينة المنورة ذاتها ، فقد قال تعالى : « ومن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمون نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون الى عذاب عظيم » •

ولقد قسم الله تعالى الأعراب قسمين متعادلين أولهما منافق جلى النفاق يحسب الزكاة مغرما ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قريبات ، ولقد ذكر سبحانه وتعالى القسمين فقال تعالت كلماته « ومن الأعراب من يتخذ ما يتفق مغرما ، ويتريص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما يتفق قريبات عند الله وصلوات الرسول ، ألا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم » وهكذا كان فى الأعراب المؤمن الطاهر ، والمنافق •

ومن هؤلاء المنافقين كانت الردة التي أعقبت وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان انتشار الاسلام بين الأعراب على هذا النحو الذى بينه الله تعالى فى كتابه •

كان الأعراب بين منافق كافر غادر ، وبين مسلم يقربص الدوائر ، وبين مؤمن تقى طاهر ، ومهما يكن أمرهم فقد كان الاسلام ينتشر مع هذا الدخول ، وإن دخل الاسلام قلبا ، ولو على تردد فانه بتوفيق الله تعالى ، ومن بعد ذلك يشرق اشراقا ، ثم يكون من ذلك ايمانا •

وإن الحروب التى وقعت بين المشركين ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين كانت قوارع تقرر النفوس العربية ، فيهتز صداها فى النفوس ، إذ خلاصتها أنها قتال بين التوحيد ديانة ابراهيم أبى العرب عليه السلام ، وبانى البيت الحرام ، وبين الشرك فيدعوهم الى التفكير بين الوجدانية والشرك ، وبين ملة ابراهيم محطم الأوثان ، وبين عبادة الأصنام ، فان ذلك يدفع نفس العرب والأعراب الى التفكير فى الأمر تفكيراً من غير أرهاق •

وفوق ذلك فان الحرب بين الايمان الذى ينصره الله تعالى ويؤيده ، والشرك الذى يتوالى خذلانه يدفع الى تعرف السر فى النصر مع قلة العدد ، والخذلان مع كثرتة ، وإن واقعة الخندق وحدها داعية الى التفكير فى القوة الخفية التى نصرت محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ أرسل الله تعالى ريحا عاتية قلبت أوعيتهم ، وخلعت أخبيبتهم ، وخلعت مع ذلك قلوبهم ، ففروا من اللقاء فرارا ، أن هذه وحدها قارعة تلفت العقول عن عبادة غير الله تعالى ، لأنها تدرك أن الله مؤيد دعاة التوحيد بغير ما يقدرُونَ ، وما يقتدرون •

وإن الغزوات الكبار كان بجانبها سرايا تنبت فى أنحاء البلاد العربية داعية كاشفة هادية أو مقاتلة إن رأت غدرا وخيانة •

وإن كل هذا يدفع الى التفكير فى الدين ، والموازنة بينه وبين عبادة الأوثان ، وإن الجمود على اتباع الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هو الذى يصم الآذان والقلوب عن ادراك الحق ، فقوارع الحرب تسمع الذين فى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة •

وإذا فتحت المدارك اتجهت الى الطريق المستقيم ، والذى لا عوج فيه ، ولا أمت •

وفى الحق أن دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صغت اليها قلوب

الضعفاء ابتداء ، ثم كانوا من بعد قوة الاسلام التى انجبت الكفر فى مكانه ،
وهدته الى مواطن الهداية •

لا نقول ان الحرب اكرهت احدا على الايمان ، ولكن نقول ان قوة الحق
أخذت غير المحاربين الى محراب الايمان فجاءوا اليه طائعين مختارين ، لأن
الحرب العادلة تجعل المنصفين يميلون الى الحق ، ولأن انتصار المؤمنين
لايمانهم يجعل النفوس ترمقهم ، والقلوب تصغى اليهم •

ولذا كانت الوفود من بعد ذلك تجىء من القرى والقبائل تعلن ايمانها ،
وتتعلم الاسلام ، وتسمع تلاوة القرآن الكريم كما سنتكلم ان شاء الله تعالى
على الوفود التى جاءت تترى والتى جاءت بنور الحق لتسمع الحق من الداعى
الى الحق ، وان ذلك كله جاء من تسامع العرب بمحمد صلى الله تعالى عليه
وسلم ، وكانت الحروب من اسباب ذلك •

وان انتهاء القتال يصلح ابتداء ، ثم بمواجهة بين النبى صلى الله عليه
وسلم وبين من يعاديه هى الأخرى دعوة الى الاسلام فى هداة النفوس ، وقرار
القلوب ، وقد صار صوت الحق هو وحده الذى يتكلم ، وسكنت صلصلة
الأسلحة ، وفى هذه الهداة وقد خبت العداوة ، واطمان الجامع ، ولم تكن
العداوة التى تأجج النفوس بل المسلم العزيزة هى التى ترطب النفوس والأفئدة •
وحيث دخل بعض العرب ، ومال الذين كانوا يحاربون النبى صلى الله عليه
وسلم الى الاسلام ، وبدءوا يفكرون بقلب سليم من الأضغان ، قد استلقت منه
الأحقاد وسخائم النفوس وما كان المشركون لينفروا من الايمان الا جحودا
وعنادا • فاذا اختفى العناد كان التفكير السليم ، وهو سبيل الاسلام ، وكان
كل امر بعد ذلك يوجه الى الايمان ، ولا يرئقه حقد ، ولا محنة ، ولا احنة ،
وتوالت الأمور التى تقرب الأرحام ، وتوصل من كانوا قد قطعوه من رحم
متوادة رحيمة •

وان عمرة القضاء التى كانت فى العام السابع دنت بها قلوب كانت
متباعدة ، وأذن المؤذن تكبيرا لله تعالى وحمده على الكعبة الكريمة المشرفة
زادها الله تعظيما ، عندئذ مالت قلوب أعتى الكافرين عداوة • وان لم يتقدموا
بالايمان ، حسبك أن يكون منهم عكرمة بن أبى جهل فقد مال الى الاسلام ، وأن
يعمل على اعلان ايمانه كما فعل صاحبه خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ،
وعمر بن العاص •

فقد رأت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم يعظم البيت الحرام • ويقوم
شعائره ، وينحر الهدى عند المروة ويقوم المودة بدل القطيعة ، ويحاول أن يقيم

وليمة يتناولون فيها الطعام على مائدة الرحمن دخل الى مكة المكرمة راضيا ،
 وخرج عنها وهم راضون •

وبعد أن خرج أخذت النفوس تفكر في الاسلام ، لقد وقف خالد بن الوليد
 يدعوهم الى التفكير في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، « لقد استبان لكل ذي
 عقل ان محمدا ليس بساحر ، ولا شاعر ، وان كلامه من كلام رب العالمين ،
 فحق على كل ذي لب أن يتبعه » •

بلغ أبا سفيان ما قاله خالد ، فسأله عن صحة ما سمع ، فأكد ، فاندفع
 أبو سفيان غاضبا ، وقد باعد بينهما عكرمة بن أبي جهل وكان يميل في هذه
 القضية الى خالد ، فقال مهلا يا أبا سفيان اتقتلون خالدا على رأي رآه ، وهذه
 قريش كلها عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة المكرمة •

وما حال الحول حتى كان فتح مكة المكرمة ، وكان أهل مكة المكرمة على
 ما كان خالد ، وكان أبو سفيان من المسلمين • وأخذ الاسلام يدخل مدائن
 العرب ، وأخبيتهم ما بين مؤمن مذعن ومسلم ، وكافر يعرفه ويكرهه ولم يبق
 الا أن يخرج نوره من أرض العرب الى غير العرب •

وكان التدرج تقتضى ذلك بأن يكون في أم القرى ، وما حولها ، ثم يكون
 في يثرب مجتمع القوى ، ثم يكون في العرب أجمعين ، ويخرج من مشرق
 العرب الى حيث النار والصليب ، فيطفئ النار ويحطم الصليب ، وتكون
 الكلمة لله وحده رب المشارق والمغارب •

بعث الرسائل الى الملوك

٥٧٧ هـ — اتفق علماء السيرة والصحاح على أن الارسال الى الملوك
 والأمراء كان بعد الحديبية وقبل الفتح ، ولكن اختلفوا اكان بعد صلح الحديبية
 أم كان بعد عمرة القضاء أم كان بعد مؤتة •

وان الذى نختاره أنه كان بعد عمرة القضاء ، وقبل مؤتة ، وذلك لأن
 عمرو بن العاص خرج من مكة المكرمة مريدا الهجرة الى الحبشة بعد عمرة
 القضاء وقد التقى في الحبشة بمن بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى
 النجاشي ، كما أنه التقى في أثناء ذهابه الى المدينة المنورة بخالد بن الوليد ،
 وقد كانت ارادة خالد بن الوليد ، الذهاب الى مكة المكرمة وكلماته فى الدعوة
 الى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم عقب عمرة القضاء مباشرة •

وان السياق التاريخي يثبت أن الكتاب الى ملك الروم ، وأمير الغساسنة في الشام كان قبل مؤتة لأن غزوة مؤتة كانت بسبب قتل بعض من أسلم من الشام ، وبسبب قتل الرسول الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أمير الغساسنة ، والسبب مقدم على المسبب ، فكان الكتاب بلا ريب سابقا على مسيبيه وهو غزوة مؤتة .

وفوق هذا كله ، فان السنة الصحيحة تصرح بأن الارسال الى الملوك قبل مؤتة ، فقد روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتب قبل مؤتة الى كسرى وقيصر ، والى النجاشي ، والى كل جبار يدعوهم الى الاسلام .

كتابة الى هرقل وأثره

٥٧٨ هـ — بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى هرقل دحية ابن خليفة بكتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد . فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتتك الله أجرك مرتين ، وان توليت ، فانما عليك اثم البريسين . . « ياهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » .

وقد كان هذا الكتاب الكريم له اثره في أوساط الرومان ، وأهل الشام ومشرقي قريش ، لم يأخذ هرقل الكتاب كما يأخذ ملك من رجل يخشى على ملكه منه ، بل أخذه كما يأخذ عالم يلقي خبرا له صلة بعمله ، فقد كان هرقل حزاء له علم بالملاحم والنجوم وأخبار النبيين ، فكان عالما من علماء النصرانية الذين يريدون أن ينتشر الحق في ذاته ، لولا الملك وسورته .

عندما وصل الكتاب اليه ، أرسل يبحث عن بعض قوم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في البلاد الشامية فعلم بركب تجار من مكة المكرمة ، على رأسهم أبو سفيان قائد أشرك ، قد دعاهم الى مجلسه ، وحول (هرقل)

عظماء الروم ، ثم دعا أبا سفيان ومن معه ودعا الترجمان ، واليك الحديث كما جاء فى البخارى .

قال هرقل بلسان الترجمان أياكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي .

فقال أبو سفيان أنا أقربهم نسباً ، فقال هرقل أدنوه منى وقربوا أصحابه عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم انى سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبنى فكذبوه ، قال أبو سفيان ، فوالله لولا أن يؤثروا غنى كذبة فى العرب لكذبت عنه ، ولنترك الحكاية كلها لأبى سفيان .

يقول أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم . قلت هو فينا ذونسب قال فهل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟ قلت لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك . قلت لا ، قال فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت بل ضعفاؤهم ، قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون ، قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ! قلت لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . قلت لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت لا ونحن منه فى مدة ، لاندري ما هو فاعل فيها ، ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ، قال فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، قال فكيف قتلكم أياه ؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال يئال منا ، وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف والصلة .

قال للترجمان بعد ذلك قل له : سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذونسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك ، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وسألتك الأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل ، وسألتك أهم يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت انهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تدخله بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لعلت عن قدميه •

كان لهذا الكلام أثره في نفس أبي سفيان العدو المشرك ، فقال : « لقد أمر ابن أبي كبشة (زوج الموضع التي أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم) أنه يخافه ملك الأصفر ، وهذه بلا ريب كلمة الشرك ، ولكن كان الكلام من هرقل له أثر أعمق من ذلك في نفس أبي سفيان ، فقد قال : ما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله تعالى على الاسلام ولكن أن فتحت له مغاليق كانت متكافئة في نفسه ، حتى لا تكشف فيه قلب المسلم •

٥٧٩ — هذا أثر الكتاب في قلب هرقل ، ونراه يصدق كل ما فيه ، ويميل الى الاسلام ، وقبل ما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن هل أذعن للحق ، وقبل الاسلام دينا !! يظهر أنه حاول ذلك ولكن قومه لم يقبلوه ، وتخير بين الاسلام والاذعان ، وبين البقاء على الملك ، فاختار الملك ، وبذلك اشترى الضلالة بالهدى ، فبارت تجارته عند الله •

ولنذكر الأمر كما وقع ، وما كان ينبغي أن يقع ، ولكنه الابتلاء •

لقد كان هرقل كما قلنا عالما ، وكان حزاء أوتى علم النجوم ، وعلم الملاحم ، وكان حين قدم من أيلياء ، وهي الأرض التي التقى فيها مع أبي سفيان ومن معه من التجار - خبيث النفس ، فقال بعض بطارفته قد استنكرنا هيئتك ، فقال لهم أني نظرت أني رأيت حين نظرت في النجوم ملك المختان قد ظهر ، وعلم من تحريره أن العرب يختننون ، فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر •

وقد أرسل الى صاحب له برومية على مثل منزلته من العلم •

وسار الى حمص ، فلم يتركها حتى جاءه كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ونرى من هذا أنه كانت عنده أمارات قد علم بها بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت الصور التي تتراءى له أنه ملك ، ولكن الله تعالى قد آتاه ما هو أعظم من ذلك ، وهو النبوة التي تأتي بخير الدنياء والآخرة •

وكانت هذه المعلومات سواء أكانت منتجة في ذاتها ، أم غير منتجة

فانها اثرت فى نفسه ، وجعلته على استعداد لقبول الحق اذ جاء اليه ، وان المقدمات هنا ، وان كانت ظنية فى ذاتها قد مهدت لقبول الحق .

اقتنع هرقل كما قلنا بانه الحق ، وأراد أن يعرضه على الملأ من قومه داعيا اليه ، فاذن هرقل لعظماء الروم أن يحضروا فى دسكرة له بحمص ، ثم امر بابوابها فغلقت ثم اطلع عليهم فقال :

يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وإن يثبت لكم ملككم ، فاتبعوا هذا النبى ، فحاصوا حيصة أحمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت .

فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من ايمانهم ، قال ردوهم على ، وغير ويدل من قوله ونيتة ، وقال : « انى انما قلت مقاتلى أنفا اختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه » .

وهكذا غلبت عليه الشقوة على الهداية ، لقد برق له نور الحق وأضاء له ، فلما هم أن يمشى فيه . وقف الملك وسلطانه ، فكان الظلام بعد النور ، والخلالة بعد الهداية ، وأمر بقتل من قتل من المسلمين وجيش الجيوش لحرب المسلمين فى مؤتة ، وفى تبوك ، ومن بعد ذلك فى اليرموك ومهما يكن من أمر نهاية الكتاب بالنسبة لهرقل والملأ من قومه ، فان الاسلام قد عرف فى وسط الرومان . وعرف فى الشام ، وتذاكر به الناس ، وعرف ما كان من هرقل لعظماء ملته والنور دائما يخترق الظلام مهما تكن الحجب ، والغياهب والظلمات ، فالكتاب اثمر ثمراته ، وان لم يكن الايمان عاجلا ، فانه أجل والأجل قريب .

ومنهم من آمن ، وان لم يعرف ايمانه .

يروى أن هرقل عندما جاءه كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطاه لكبير الأساقفة الذى كان صاحب أمرهم يصدر عن رأيه وعن قوله ، فلما قرأ الكتاب قال : هو والله الذى بشرنا به موسى وعيسى الذى كنا ننتظره ، قال هرقل فما تأمرنى ، قال الأسقف أما أنا فمصدقته ومتبعه ، فقال قيصر انه كذلك ، ولكنى لا أستطيع ، ان فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم ، لم يذهب ان الكتاب صرخة فى واد ، بل كان له صدى ، وظهر فيما بعد .

كتابة الى كسرى ملك الفرس

٥٨٠ — عندما أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرسل الى الملوك وقف فى الصحابة خطيبا ويعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال :

أما بعد فانى أريد أن أبعث بعضكم الى ملوك الأعاجم ، فلا تختلفوا على كما اختلف بنو إسرائيل على عيسى ابن مريم .

فقال المهاجرون انا لا نختلف عليك فى شيء أبدا ، فمرنا وإبعثنا .

فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى .

وظاهر هذا الكتاب أنه أرسل الى كسرى عقب هذا البيان النبوى ، وربما يومئ الى أن الكتاب الى كسرى كان قبل الارسال الى ملك الروم ، ولكننا نرجح أن الارسال للملوك جميعا كان فى وقت واحد ، وربما كان وصول الرسول الى هرقل قبل وصوله الى كسرى .

ومهما يكن الأمر من ناحية السابق واللاحق ، فانه ثبت أنه أرسل للملكين ولغيرهما من الملوك والرؤساء .

بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى فمضى بالكتاب اليه ، ووقف أمام بابيه مستأذنا مع عظماء الفرس ، وقد أذن لعظماء الفرس ، ثم أذن له من بعدهم ، فلما دخل أراد أن يدفعه لغيره ، فأبى إلا أن يدفعه اليه بشخصه ، وقال له لا حتى أدفعه أنا اليك كما أمرنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال كسرى ادن ، فدنا منه وناوله الكتاب ثم دعا كاتباً من أهل الحيرة فقرأه ، فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله الى كسرى عظيم الفرس .

« سلام على من اتبع الهدى ، وشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وان تسلم تسلم ، والا فان عليك اثم المجوس .

فلما قرأه مزقه فدعا عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يمزق ملكه .

ولم يكتف بأن مزق الكتاب ، بل أراد قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأرسل الى بازام ، وهو نائبه على اليمن ، أن ابعث الى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتياي به ، وحسب أن الاتيان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مكبلا بالحديد ، أمر سهل ، ونسى أن العرب فى واقعة (ذى قار) قد أذاقوه من الحرب أبؤسا ، ومحمد عليه الصلاة والسلام فى جنده لا يقل عن قوة العرب فى ذى قار ، ولكنه غرور السطوة الذى يدلى بصاحبه حتى يجعله عبرة للمعتبرين .

استجاب نائبه الى طلبه غير المعقول فى غايته ، فبعث بأزام قهرمانه ، وكان كاتباً حاسباً ، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له حرحورة ، وكتب معهما الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى .

ويظهر أن نائبه باليمن لم يكن يريد اىذاء ، ولكن يريد أن يتعرف خبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب الكتاب اطاعة لكسرى ، وأراد أن يتصرف لنفسه ، فأراد التعرف ، وهكذا يغتر الطغاة ، فيحسبون أن الناس قلوبهم طوع أيديهم ، مع أن قلوبهم لأنفسهم لا لآلهم .

قال نائب كسرى لمن أرسله بالكتاب ايت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتنى بخبره ، وهذا يدل على أنه لن يجيب كسرى ، فغاية كسرى ليست غايته ، وأنه هو يريد أن يعرف الاسلام .

خرج الرجلان الى المدينة المنورة حتى قدما عليها ، فقال : فسألاه عنه ، فقال هو بالمدينة المنورة ، واستبشر أهل المطائف بها ، وقال بعضهم لبعض ابشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل .

خرج الرجلان الى المدينة المنورة حتى قدما على المدينة المنورة ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك بازام (نائبه باليمن) يأمره بأن يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثنا اليك لتتطلق معي ، فان فعلت كتب (نائب اليمن) الى ملك الملوك يمنعك ويكفه عنك ، وان أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك ، وظنا أن ذلك يرهب الرسل ، اذ مثله يرهبهما ، ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يلتفت الى كلامهما ، لأن الله يعصمه ، بل اتجه اليهما ، وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا

شاربهما ، فكرر النظر اليهما • وقال لهما : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالا
أمرنا ربنا ، يعنيان كسرى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن
ربى أمرنى باعفاء لحييتى وقص شاربى •

ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيا غدا ، وقد أعلم الله رسوله صلى الله
تعالى عليه وسلم بأن كسرى قد قتله ابنه شيرويه ، وأن النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم ، عنده ذلك العلم من الله تعالى ، دعاهما فأخبرهما •

فقالا هل تدري ما تقول ؟ انا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ،
فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك بأزام (نائب كسرى) •

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أخبراه ذلك عنى وقولا له ، ان
دينى سيبلى ما بلغ كسرى ، وينتهى الى الخف والحافر ، وقولا ان أسلمت
أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأنبياء ثم أعطى خسرته
الفارسى أحد الرسولين منطقة فيها ذهب وفضة كان أهدها له بعض الملك •

خرجوا من عنده حتى قدما على بأزام (نائب كسرى) فى اليمن •

فقال هذا الملك النائب عن ملك الملوك • كسرى : ما هذا بكلام ملك ،
وأنى لأرى الرجل نبيا ، كما يقول : وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقا
فهو نبى مرسل ، وان لم يكن فسئرى فيه رأيا •

علم الجميع أن كسرى قد قتل بيد ابنه • وقد أعلمهم النبى صلى الله
تعالى عليه وسلم بذلك ، والرسولان عنده ، والأخبار عنه منقطعة عن طريق
البرد وغيرها •

وبينا نائب كسرى باليمن على الأمر الذى لم يصل اليه نبؤه ، وهو فى
تردد فى قبوله ، جاءه كتاب شيرويه الابن ، وجاء فى هذا الكتاب •

أما بعد : فأنى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله الا غضبا لفارس ، لما كان
قد استحل دم من قتل من أشراقهم ، ونحرمهم فى ثغورهم ، فإذا جاءك كتابى
هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك وانطلق الى الرجل الذى كان كسرى قد كتب
اليه ، فلا تهجه حتى يأتىك أمرى فيه •

انه بلا شك لم يكن الابن على عزيمة أبيه فيما يتعلق بالنبى صلى الله
تعالى عليه وسلم ، بل تردد ، وكل ما أمر به الا يهجه فلا يطلب اليه الحضور
حتى يكون أمر جديد •

تلك أمارات متتالية تدل على صدق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
فيما يدعو اليه من وحدانية وصدقته في دعوى الرسالة الالهية .

وان أحد الرسولين الذي كان يتكلم باسمهما في حضرة الرسول صلى
الله تعالى عليه وسلم . قال : ما كلمت أحدا كان أهيب عندي منه .

فكر أمير اليمن وقدر ما بين يديه من علم ، وانتهى تفكيره الى الاسلام
والتسليم ، وقال ان هذا الرجل لرسول ، فأسلم ، وأسلمت الأبناء من فارس
الذين كانوا باليمن .

وبذلك دخل الاسلام أرض اليمن ، ووجد له فيه دعاة .

وقد روى البيهقي أن شيرويه هذا الذي قتل أباه ، قد استخلف من بعده
ابنته ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أنفسهم
امرأة .

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأثره ، وإذا كان لم
يؤثر في كسرى الا سلبا ، فقد أثر في غيره ايجابا واستجابة ، لقد أثر في
نائبه في اليمن ، فأسلم وهو فارسي ، وأسلم من معه من الأبناء من فارس ،
وهم باليمن بما وصل اليه الاسلام في شعب اليمن العربي الأصل .

ولم يكن كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صرخة في واد ، بل كان لها
استجابة ، وإذا كان العدد قليلا فإنه سيكون كثيرا في اليمن وما وراءها
وقد كان .

كتابه الى النجاشي

٥٨١ — كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى النجاشي ملك
الحبشة أصحمة ، وقد رجا فيه الخير ، لأنه أكرم أصحابه عند الهجرة الى
الحبشة ، فهو يدعو في هذا الكتاب ، وقومه ، وكان قد أسلم من قبل فيما
يروى الرواة ، وفيما يدل عليه ما اقترن بالكتاب من قول ، وهذا نص الكتاب
وما دار حوله .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشي ملك
الحبشة . « فاني أحمد الله تعالى اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس

السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح من الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى فخلقه الله تعالى من روحه ، وتقّحه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفق الدعوة ، وحكمة النبوة ظاهران فيه ولقد بعثه مع عمرو بن أمية الضميرى الذى جاء بهذا الكتاب ، ولأنه رفيقا وكان يميل للإسلام ، كان لرسول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شرح وتوضيح وتأكيد لمعنى الرسالة .

قال له عمرو : يا أوصمة ، ان على القول ، وعليك الاستماع ، انك كائنك فى الرقة علينا ، وكأنا فى الثقة بك منك ، لأننا لم نظن بك خيرا قط ، الا ثلثاه ولم نخفك على شيء الا أمناء ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحز ، واصابة المفصل ، والا فانت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم ، وقد فرق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رسله فى الناس فرجك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه ، بخير سالف ، وأجر ينتظر .

أجابه النجاشى اجابة المؤمن فقال : « أشهد انه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس أشقى من الخبر » وأردف ذلك بأن حمل عمرو ابن أمية كتابا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهذا نص الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم

الى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - من النجاشى أوصمة سلام عليك يا نبى الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، الله لا اله الا هو .

أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، انه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقد عرفنا ابن عمك (أى جعفر بن أبى طالب) واصحابك فاشهد أنك رسول صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك واسلمت على يديه لله رب العالمين » .

كانت اجابة النجاشي صريحة واضحة ، وقد كان الكتاب اليه ، والى جنوده والملا من قومه ، وقد أسلم هو ، ودعا من معه ، ولم يكرههم على الايمان ، ولكن اكتفى بالدعوة من غير اكراه ، لأن الله تعالى يقول : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » فبين هذا الرشد ، وكان ملكا عادلا آمن الناس وأمن بالله تعالى واستجاب لكلمة الحق من غير تكلؤ ولا تردد .

• ولم يؤمن قومه •

كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المقوقس

٥٨٢ — استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الارسال الى الملوك والرؤساء لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فكان يرسل الى الرؤساء والملوك ، كما رأيناه أرسل الى هرقل وكسرى والنجاشي ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من ضل ، وممن أرسل اليهم المقوقس عظيم القبط الذين كانوا يرزحون فى حكم الرومان ، ويضطهدون فى دينهم اضطهدوا من وثنية الرومان ثم اضطهدوا من مذهبهم عندما التقوا فى دين واحد .

بعث اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع حاطب بن أبى بلتعة هذا الكتاب •

بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط •

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم اهل القبط « يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا تشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون » •

ولقد ذكر حاطب بن أبى بلتعة أنه أكرمه ، وأنزله فى منزله ، وأقام عنده •

جمع بطارقته مع حاطب ووجه اليه أسئلة تتعلق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقومه ، وسأله حاطب عما يتعلق بعيسى مع بنى اسرائيل •

قال المقوقس ، هلم أخبرنى عن صاحبك ، اليس هو نبيا • قلت بل هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

قال فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجه من بلده الى غيرها •

قال حاطب : عيسى ابن مريم الست تشهد انه رسول الله ؟ قال بلى ، قلت فما له حيث أخذه قومه ، فأرادوا أن يصلبوه الا يكون دعا عليهم •

قال المقوقس : انت حكيم قد جاء من عند حكيم •

أخذ بعد ذلك يتكلم حاطب بن أبى يلتعة فى معنى الكتاب الذى يحمله من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام • قال :

انه كان قبلك رجل يزعم انه الرب الأعلى ، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى فانتقم الله تعالى به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولايعتبر غيرك بك •

قال المقوقس ان لنا ديننا لن ندعه الا لما هو خير منه •

قال حاطب ندعوك الى الاسلام الكافى به الله عما سواه ، ان هذا النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان أشدهم قريش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الكريم الا كدعائك اهل التوراة الى الانجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى صلى الله عليه وسلم •

قال المقوقس انى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آيات النبوة باخراج الجن ، والاخبار بالنجوى ، وسانظر •

وأخذ كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعله فى خف من عاج ، وختم عليه ، ودفعه الى جارية ومن بعد ذلك دعا كاتباً له يحسن العربية ، فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم • لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط •

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين ، لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

هذا ما كتبه المقوقس : وهو يدل على أنه كصاحبه هرقل قد اقتنع بالقرآن الكريم والاسلام ، ولكن تردد فى القبول ، وتلطف فى الرد ، وبني ترده على أنه كان يظن أنه سيخرج من الشام .

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية التى كان ابراهيم ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منها ، وأشهر الروايات أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعتقها وتزوجها .

كتابه الى المنذر بن ساوى

٥٨٣ — ذكر الواقدي فى تاريخه باسناده عن عكرمة مولى عبد الله ابن عباس أنه وجد كتابا فى كتب عبد الله بن عباس بعد موته فنسخه ، فتبين فيه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث العلاء الحضرمي الى المنذر ابن ساوى وكتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ، ولم يذكر أنه عثر على نص كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن وجد رد ابن ساوى ، ثم رد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والميك كتاب المنذر :

الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما بعد يا رسول الله فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى يهود ومجوس فأحدث الى فى ذلك أمرك .

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى .

سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح انما ينصح لنفسه ، وانه من يطع رسلى ، ويتبع أمرهم ، فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد ينصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وانى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن

أهل الذنوب فاقبل ، وإنك مهما تصالح لا تعزلك عن عملك ، ومن أقام على
يهودية أو مجوسية ، فعليه الجزية •

وقد دل خبر هذا الكتاب على أن عبد الله بن عباس كان حريصا على أن يكتب
كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويحفظها في خزانة كتبه ، وأنه يعلن
للناس ما يعلن وهو الأكثر ، وقد يبقى ما لا يعلن ودل الكتاب على أنه مرسل
لأهل البحرين ، وأن المنذر بن ساوى كان واليها ، ويدل على استجابة الوالى
لدعوة الاسلام ، وأن الجزية تفرض على اليهود والمجوس ، وتدل على أمر
آخر هو الحكمة وهو أن أبى الوالى الذى سارع الى الاسلام فى امرته ،
ليكون أميرهم ، ولم يرسل واليا من كبار الصحابة أو غيره ، وذلك ليشعروا
أنه ليس أجنبيا مسيطرا ، ولكنه من أنفسهم ، وما دام مستقيما فإنه أجدر
لعلمه بنفوسهم ، وخبرته بأحوالهم ، وأن يأتهم من حيث يالفون ويعرفون •

وفى الخبر ما يدل على فرض الجزية على الذين لا يؤمنون ، اذا كانوا
فى ولاية مسلم وهم هنا اليهود والنصارى والمجوس ، وقد أجمع الفقهاء على
فرض الجزية عليهم ، وأجاز أبو حنيفة فرض الجزية على الوثنيين غير العرب
قياسا على المجوس •

الكتاب الى ملك عمان

٥٨٤ — لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينى عن الدعوة
الى الاسلام فى الحواضر والبادى ، وأهل الوبر ، وأهل المدر ، كما رأيت
فى كتابته للملوك •

لقد أرسل الى عمان باليمن ، وكان عليها أميران هما جيفر ، وعبد
ابنا الجلندى وقد أرسل لهما كتابا حمله عمرو بن العاص ، وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم •

من محمد بن عبد الله الى جيفر وعبد ابني الجلندى •

سلام على من اتبع الهدى • أما بعد ، فانى أدعوكم بدعاية الاسلام ،
أسلما تسلمنا فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القول
على الكافرين ، فانكما أن أسلمتما ، وليتكما ، وان أبيتما أن تقررا بالاسلام ،
فان ملككما زائل عنكما وذيل يحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملككما •

كتب الكتاب أبى بن كعب ، وختم الكتاب •

يقول عمرو بن العاص ، خرجت حتى انتهيت الى عمان ، فلما قدما
عمد الى عبد أحد الأخوين وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقا ، فقلت أنى
رسول من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليك ، والى أخيك • فقال
أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك اليه ، حتى يقرأ كتابك • ثم قال
وما تدعو اليه ، قلت ادعوك الى الله وحده ، لا شريك له ، وتخلع ما عبد من
دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله •

قال عبد : انك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فان لنا فيه قدوة ،
قلت مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووددت أنه
لو كان أسلم ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله تعالى الى الاسلام •

فسألنى فمتى تبعته ؟ قلت قريبا ، عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى
قد أسلم ، قال فكيف صنع بملكه ، فقلت أقروه واتبعوه • قال والأساقفة
والرهبان تبعوه ، قلت نعم •

قال : يا عمرو انه ليس من خصلة فى الرجل ، أفضح له من الكذب ،
قلت ما كذبت ، وما نستحل فى ديننا •

قال : هل علم هرقل باسلام النجاشى • قلت : بلى ، قال بأى شيء علمت
ذلك ؟ قلت كان النجاشى يخرج خرجا له ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله
تعالى عليه وسلم منعه وقال : والله لو سألتى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ
هرقل قوله ، فقال له أخوه (أبى هرقل) : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين
بدين غيرك ، دينا محدثا •

قال هرقل : رجل رغب فى دين ، فاختر لنفسه ماذا أصنع به ، والله
لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع •

قال : انظر ما تقول يا عمرو ، قال عمرو والله صدقتك •

قال عبد فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه •

قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ،
وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى ، وعن الخمر ، وعن
عبادة الحجر والوثن والصليب •

قال : ما أحسن هذا الذى يدعو اليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه ، ركبنا حتى تؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ، ويصير ذليلاً .

قلت : انه ان أسلم ملكه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم ، فبردها على فقيرهم . فقال ان هذا لخلق حسن . ما الصدقة ، فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الصدقات فى الأموال ، حتى الى الابل ، قال وتؤخذ من سوائهم مواشينا التى ترعى الشجر ، وترد على المياه فقلت نعم . فقال : والله ما أرى قوماً فى بعد دارهم ، وكثرة عددهم يطيعون لهذا .

وبعد هذه المناظرة والتحريات التى قام بها الأخ الأصغر ، ودلت على ميله للدخول فى الاسلام اتجه عمرو بن العاص الى مقابلة الأخ الأكبر ، وهو الأمير على هذه الديار ، ولنترك القول لعمرو فانه حسن الحكاية لما حصل .

مكثت ببابه أياماً ، وهو يصل الى أخيه فيخبره بكل خبرى ، ثم انه دعانى (أى الأمير وهو الأخ الأكبر) دعانى ، فدخلت عليه ، فأخذ أعموانه بضبعى ، فقال دعوه ، فأرسلت فذهبت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت اليه فقال تكلم ، فدفعت اليه الكتاب مختوماً ففص خاتمه وقراه حتى انتهى الى آخره ، ثم دفعه الى أخيه ، فقراه مثل قراءته ، الا أنى رأيت أخاه أرق منه .

قال الأمير الا تخبرنى عن قریش كيف صنعت ، فقلت اتبعوه ، اما راغب فى الدين ، واما مقهور بالسيف . قال ومن معه ، قلت الناس قد رغبوا فى الاسلام ، واختاروا على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله تعالى إياهم انهم كانوا فى ضلال ، فما أحدا منهم بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وانك ان لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

قال الأمير دعنى يومى هذا وإرجع الى غدا .

فرجعت الى أخيه فقال يا عمرو انى لأرجو أن يسلم ان لم يضمن بملكه .

حتى اذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لى .

فانصرفت الى أخيه : فأخبرته انى لم أصل اليه ، فأوصلنى اليه .

قال الأمير : انى فكرت فيما دعوتنى اليه ، فأنا أضعف العرب ، ان ملكت رجلا ما فى يدى ، وهو لا يبلغ خيله هاهنا ، وان بلغت خيله لقيت قتالا ليس كقتال من لاقى .

قلت : وأنا خارج غذا .

فلما أيقن بمخرجى ، خلا به أخوه ، فقال ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسل الى ، فأجاب الى الاسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخليا بينى وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً .

وقد نقلنا المحاورات التى كانت بين عمرو بن العاص ، والأميرين ، اللذين مال أحدهما الى الاسلام ابتداء ، ومال الثانى اليه انتهاء ، وأسلمنا وحسن اسلامهما .

وان هذه المحاوره والاستجابة لما فى الكتاب تدل على أن الاسلام قد تغلغل فى نفس العربى ما بين مؤمن به وناظر اليه ، ومخادع فيه ، وأنه كان موضع تفكير المفكرين .

وان هذه المحاوره تدل على أنهم كانوا من النصارى ، وأن هرقل لأنه ملك اكبر دولة مسيحية كان له هيمنة على نصارى الشرق ، فمصر تابعة له ، والحبشة له خرج على النجاشى ملكها .

ويدل أيضا على ايمان النجاشى بأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ، ولذلك رفض أن يرسل الذى كان عليه أن يؤديه ، وقال له فى قوة وحزم لا أَدفع درهما .

ويدل أيضا على سعة تفكير هرقل ، ورفضه أن يثير حربا لأجل الخرج الذى كان يقدمه تابع له ، لأنه أتبع ديناً آخر وظهر ميله للاسلام واعتقاده بأنه صدق ، وكان يعلن ذلك لوصيه بملكه ، ومهما يكن أمر اسلامه ، فانه يظهر بمظهر رجل حر الفكر والرأى يقدر حرية التدين فى غيره ، كما يقدرها فى نفسه .

وفى الكلام ما يومئ الى أن هذا الكتاب كان بعد فتح مكة المكرمة ، لأنه سأل عن قریش اتبعوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أم لم يتبعوه ، فأجاب عمرو بأنهم اتبعوه ، اما رغبا واما قهرا ، وان ذلك كان بعد الفتح لا ريب فى ذلك .

وأنه يبدو بلا ريب أن عمرو بن العاص كان ذا فراسة قوية عندما اختار أحد الأمرين وهو الأصغر ، عندما ابتدأه في تقديم الكتاب ، فعن طريقه أقنع أخاه ذا الصلف والكبرياء •

ويلاحظ أن عمروا كان شديدا في قوله عندما خاطب الأمير الأكبر ، ولعل ذلك من انفة العربي إذ منعه الملك من الجلوس ، وأبى إلا أن يقدم كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو واقف ، فلم يرد أن يكون ذليلا •

ولم يضر ذلك بقضية الاسلام لأنه كان يستعين بأخى الأمير الذى أبدى لنا غير منتظر ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ين عن الدعوة ، وسط الحروب وفى تدبير الدولة •

كتابه عليه الصلاة والسلام الى صاحب اليمامة

٥٨٥ — أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع سليط ابن عمرو العامري كتابا الى صاحب اليمامة هوزة بن على ، وكان نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هوزة بن على

سلام على من اتبع الهدى

اعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك » •

فلما قدم عليه سليط حامل الكتاب وكان مختوما أنزله وحياه وبعد أن قرأ الكتاب ودعاه رد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكتاب جاء فيه « ما أحسن ما تدعو اليه ، وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك » •

وأجاز سليطا الرسول بجائزة ، وكساه أثوابا من نسيج هجر •

قدم الرسول على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه الكتاب والمهدايا ، فلما قرأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يعطيه جزءا من الأرض •

وبعد فتح مكة المكرمة ، علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحي أن هودة صاحب هذا الكتاب الطامع قد مات وقد ذم رجال اليمامة ، وقال أما انه سيخرج بها كذاب سينتهى بقتله • قال بعض الصحابة ، ومن يقتله ؟ قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أنت وأصحابك •

وان نبوءة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت صادقة ، فان الأعراب كانت فيهم ردة ، وكانت اليمامة ذات ضلع فيها ، وقام الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزيمة كان عز الاسلام وبها صار قارا ثابتا ، وقد حفظ الله تعالى بأبى بكر قوة الاسلام ، وعزته وقالها قوله حازمة جازمة : « أما سلم مخزية ، وأما حرب مجلية » •

٥٨٦ — وقد أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غب الحديبية الى أمير الغساسنة بكتاب فيه هذا المعنى • وهو الدعوة الى الاسلام ، ولم يذكر كتاب السيرة أجاب الى الهدى أم لم يجب •

ونحن ذكرنا كتابته الى الملوك ، والأمراء والرؤساء وردهم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما بين مستجيبين ومترددين مجاملين فى الرد وان لم يؤمنوا وجاحدين كافرين معاندين مريدين انزال الأذى بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قاصدين الكيد ، فرد الله تعالى كيدهم فى نحورهم •

وتركنا مؤقتا الكلام فى المغازى لأسباب ثلاثة :

أولها : أن المقصود من الرسالة المحمدية هو تبليغ الدعوة الى الاسلام وما كانت الحروب الا لحماية الدعوة ولنع الكافرين من أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم ، كما فعل مشركو مكة المكرمة ونصارى الشام • فما كانت الحرب مشروعة لذاتها ، ولكن كانت دفاعا وحماية للدعوة ، وهى المقصود أولا وبالذات •

ثانيها : أن هذه المكاتبات والرد عليها تبين مدى انتشار الدعوة ، وإيمان الناس واستجاباتهم ، فقد رأيت بعضهم يستجيب قورا ، وبعضهم يستجيب ويسأل حكم الشريعة فى أمر من تحت يده من اليهود والمجوس كابين ساوى ، ومنهم من كان يتردد فى الاتباع ، ثم ينتهى بالانزعان هو وقومه ، ورأينا صاحب اليمامة يساوم ، وكانت موضع الردة هى وبنى حنيفة ، وقد تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، فكان منهم رأس الفتنة فى الردة •

ثالثها : أننا رأينا أمراء العرب ، أو جلهم كانوا أكثر استعدادا للإجابة من غيرهم ، وأن النصارى منهم كانوا أميل الى الإجابة ، وأبعد عن التعتن ، وخصوصا الذين كانوا يعلمون علم الكتاب ، ويدرسون المسيحية في أصلها الأول ، وإن لم يكونوا غير مذكورين في التاريخ .

وإنه في الجملة قد أخذت الدعوة الإسلامية تعم بلاد العرب كلها ، وإذا كان قد أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك مجاهدين ، فقد كان عملهم تعليم الإسلام ، كما سنتكلم عن غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في اليمن بقيادة على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنهما .

لقد كانت الاستجابة سريعة ، والإجابة صادقة ، إذ لم يكن منهم من يعد ذلك ردة كاهل اليمامة ، وكان فيهم علم .

السنمى

٥٨٧ — جاء في رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على المنذر ابن سائرى عندما سألته عن اليهود والمجوس ، الذين يريدون الإقامة تحت سلطانه ، ماذا يصنع بهم .

فذكر له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقيهم مع الاحتفاظ بشعائر دينهم ، ولا يضاروا في تدينهم ، على أن يدفعوا الجزية .

وقد تكلمنا في الجزية بكلمات مجملة ، تليق بكتاب مكتوب في سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن الذى يبقى في ظل المسلمين مقدما للأمير المسلم حق الطاعة ، يسمى ذميا .

ذلك أن العهود التى يعقدها المسلمون أقسام ثلاثة :

أولها : العهد مع دولة غير إسلامية بهدنة ، أو عدم اعتداء ، كالعهد الذى كان بين المشركين والمسلمين في صلح الحديبية ، ويمكن عقده مع أى دولة أخرى غير دولة الشرك في قريش .

وثانيها : عهد سلم مع المسلمين ، بأن يجيبوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوته الى الإسلام أو الحرب بأن يرضوا العهد بدل القتال ، على أن يبقوا آمنين ، لا يعتدون على المسلمين ، ولا يظاهرون عليهم .

وثالثها : عهد يعطى للأحاد حق أن يقيموا مع المسلمين يكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وتطلق لهم حرية الدين ، وإقامة شعائر دينهم غير مضارين ولا محاربين ، ويكونون في الرعية الإسلامية ، كما يعبر الكتاب في القوانين الدولية الآن .

وسمى هؤلاء ذميّين ، لأن لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول « من أدنى ذميا ، فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته » .

ولقد كانت لهؤلاء الذميّين رعاية خاصة احتفاظا بحرمات الأديان .

وقد قرر الفقهاء جواز عقد الذمة لليهود والنصارى والمجوس ، وقد عقد الذمة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بنص القرآن الكريم ، فقد قال تعالى في ذلك : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون » .

فثبت بهذا أن أخذ الجزية يعفيهم من القتال ، وقد شرحنا ذلك عند الكلام في أخذ الجزية .

أما أخذ الجزية من المجوس ، وغيرهم كاهل الكتاب ، في أن يكونوا ذميّين وتؤخذ الجزية منهم فإنه ثبت ذلك عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم في كتابه !! منذر بن ساوى ، وفي غيره من الأخبار والأحاديث .

ومشركو العرب يقتلون أو يسلمون حتى لا يكون في الأرض العربية دينان وتكون خالصة للإسلام والمؤمنين ، لأنها أرض الإسلام ، منها انبعث ، واليها يعود .

بقى حكم الوثنيين غير العرب كالهنود وعبداء النجوم والبولنديين الذين يعبدون بوذا وتمثال بوذا إلى غير هؤلاء ، فقد قرر أبو حنيفة وأصحابه أن الجزية تؤخذ منهم ، ويكونون ذميّين ، وذلك بالقياس على المجوس ، لأنهم ليسوا أسوأ حالا من عبدة النار ، فليس عبدة الشمس بأسوأ من عبدة النار ، وكذلك غيرهم ، وإلى هذا الرأي نميل .

وان الذمة عقد يثبت بالأمان والإقامة ، وهو يوجد التزاما على ولى الأمر من المؤمنين بأن يتركهم وما يدينون ، لا يضطهدون في شعائرهم بل

يقيمونها ، وأن يعاملوا معاملة المؤمنين في التمكين من الحياة وحمايتهم في أنفسهم وأموالهم وحرمتهم ، وأنكحتهم ، وكل شئئون أسرهم فيما بينهم ، ولا يحرمون من حق وعليهم أن يلتزموا أولا بكل الأحكام الإسلامية ، فتطبق عليهم العقوبات الإسلامية كاملة ، يطبق عليهم القصاص ، وتطبق عليهم الحدود كلها : حد السرقة ، وحد الزنى ، وحد القذف ، فيقام عليهم أن قذفوا محصنة أو محصنا من المسلمين ، ويحدون حد قطاع الطريق .

وتطبق عليهم الأحكام الإسلامية في المعاملات من بيع و اجارة ، ومداينات ، ولا يأكلون الربا ، ويخضعون معاملاتهم لأحكام ربا البيوع .

والا يظهروا مخالفة الشريعة الإسلامية معلنين ذلك بالا يقيموا بيوتا للأوثان أو النيران بين المسلمين ، وفي الجملة لا يظهرون بما قد يفتن المسلمين في دينهم .

ولا يكون منهم أى خيانة للمسلمين ، فلا ينتموا لدولة غير اسلامية تحارب الاسلام ، ولا يناصروها وان ذلك محادة للاسلام واهله ، ويجب أن يكون ولاؤهم للدولة الإسلامية ، كولا المسلمين لتحقيق القاعدة الإسلامية لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا .

ويلتزمون بالا يكون منهم سب للاسلام . ولا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا لأى أحد من صحابته ، فان كانوا فهم على عهدهم وأمنهم ، والا ينبذ اليهم ، ولا يقيموا في ظل الاسلام ، أو ينالهم العقاب .

ويلتزمون بالا يلحقوا بدار الحرب ، والا كانوا أهل حرب ، ولا يكونوا أهل ذمة .

وفي الجملة يجب عليهم ما يجب على المسلم على سواء ، وقد قال أبو حنيفة لهم أن يشربوا الخمر ، وتكون مالا متقوما بالنسبة لهم ، بحيث اذا أراقه مسلم وجب عليه دفع قيمته ، والخنزير لهم أن يأكلوه ، وهو مال متقوم بالنسبة لهم ، واذا اعتدى مسلم وقتل حنزي را عليه قيمته ، كما لو قتل شاة مسلم .

وقال أبو حنيفة نكاح بعض المحرمات في الاسلام صحيح اذا كانوا يعتقدون صحته ، واذا ترفعوا الى القاضى المسلم في نفقة زوجية بناء على هذا النوع من النكاح حكم بها ، واذا ترفعوا بنسب كذلك حكم به ، وذلك تطبيق للقاعدة الفقهية امرنا بتركهم وما يدينون ، ويجوز لولى الامر المسلم أن يعين قاضيا من بينهم يقضى بينهم .

وإذا اتفقوا على أن يتحاكموا لدى القاضى المسلم حكم بينهم لقوله تعالى
« فإن جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم ، فلن يضروك
شيئاً » .

وإذا كانوا يخاصمون مسلماً ، لا يحكم بينهم الا القاضى المسلم ، حفظاً
لحق المسلم ، ولكمال الولاية عليه . ولأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم .

وإذا كان خصمان من الذميين وطالب أحدهما أمام القاضى المسلم الزم
الأخر عند بعض الفقهاء ، لأنه يكون كما إذا كان الخصم مسلماً . وقال آخر
لا يلزم . لأن له قاضياً يقضى بينهم .

وأحسب أن تعيين قاض لهم إنما هو فى شئون الأسرة ، وأمور دينهم .

وأما ما يتعلق بالمعاملات العامة كالبيع والاجارات وغيرها فإن
القضاء فيها لا يكون الا للقاضى المسلم لتحقيق المساواة الكاملة بينهم وبين
المسلمين .

ومسألة جواز أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير ، هى رأى أبى حنيفة
وحده ، لأننا أمرنا بأن نتركهم وما يدينون ، ولأن عمر بن عبد العزيز الحاكم
العادل سأل الحسن البصرى : ما بالناس تركنا أهل الذمة يأكلون الخنزير
ويشربون الخمر ، وينكحون بناتهم ؟ قال الحسن البصرى ، على هذا أخذنا
الجزية إنما أنت متبع لا مبتدع .

ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء منعوا ذلك - وذلك لأن لهم مالنا
وعليهم ما علينا . والحمد لله .

الفتح المبين

٥٨٨ — هو فتح مكة المكرمة فى شهر رمضان حيث ابتداء السير إليها
فى العاشر منه ، ووصل إليها فى الليلة الثالثة عشرة منه ، وهو لم يكن فتح
قتال ، بل كان فتح قلوب ، وأوسع فتح للدعوة الى الاسلام فما كان قتل وقتال
الا خطأ ، ومن غير تدبير وتعمد من الصحابة الأولين ، بل كان أمناً وسلاماً ،
وتلاقى قلوب قد فرق بينها الجحود ، واستضعاف الضعفاء ، ومقاومة الايمان
فلما دخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة ، وهو يقول أنا نبي الرحمة
وأنا نبي الملحمةلقى اليهم السلام والاكرام ، وتلاقت العشائر التى تخاصمت

ثم تهادنت ، ثم سالت ثم آمنت وإن هذا بلا شك كان نهاية الفتح ، ولم يكن في الظاهر ابتداءه ، بل كان الظاهر هو إرادة القتال ، إذ جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عشرة آلاف من المجاهدين ، وما كانوا هازلين ، بل كانوا جادين ، ولكن عند التلاقي غمدت السيوف عن القتل ، وفتحت القلوب للدخول في دين الله أفواجا أفواجا .

ولذا كان السؤال لم كان القتال ، وقد كان عهد لا ينقض الا بسبب من التزامات هذا العقد ، وما كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينقض الا بأسباب منه لأن الله تعالى يقول « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ولم يستقيموا ، فكان هذا خيانة ، فكان عليه أن يعمل بقول الله تعالى ، « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء » ، ولم يكن ثمة خوف خيانة ، بل خيانة بالفعل في جزاء من العقد .

والعقد كل يكمل بعضه بعضا ، فإذا دخل الغدر جزءا منه ، فقد دخل النقض كله ، وفقد الالتزام من الجانب الآخر كل الزام به ، إذ نقض الأول جزءا منه يبطله ، ولو كان العهد يبقى ملزما ، مع نقض جزئه ، لتوالى النقض على كل أجزائه ، فلا يبقى للعقد معنى ولا صورة ، ويذهب هباء منثورا ، وتتبدد أوراقه في أراج الرياح .

نقض قريش لصالح الحديبية :

٥٨٩ — هذا هو السبب الجوهري ، لقد نقضوا فقرة من فقراته ، فنقضوه كله ، على النحو الذي بيناه من أن كل عهد كل لا يتجزأ ، نقض بعضه نقض ل كله .

ذلك أنه كان في العقد أن من أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل ، فيكون من يدخل في عقد أحد الفريقين له حقوق العقد ، وعليه التزاماته ، فدخلت خزاعة في عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل بنو بكر في عقد قريش .

وكان بهذا حقا على قريش الا تعتدى على خزاعة ، وكذلك على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ثمة بين بنى بكر وخزاعة احن جاهلية ، عدت فيها خزاعة على بنى بكر فقتلت ، وعدت مثلها على خزاعة فقتلت ، ثم كانت من بعد ذلك معركة ، كان الغلب فيها لخزاعة .

وكانت العداوة قائمة ، فلما جاء الاسلام وحاربت قريش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذين آمنوا ، شغلوا بحربه ، وكانوا على ضغن .

فلما كانت الهدنة ، كانت خزاعة تحس من قريش نفرة ومعاونة لعدوها ، فدخلت في عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بهذا العهد عليه حمايتها في دائرة العقد ، وكان بنو بكر على وداد مع قريش فدخلوا في عقدها .

كان صلح الحديبية مغريا بالانتقام اتخذه بنو بكر فرصة انتهزوها ، ولم يعلموه عهدا عليهم يلتزمون بمبادئه .

اعتدى بنو بكر على خزاعة ، وزفدتهم قريش بالسلاح ، ثم قاتلوا معهم مستخفين ليلا ، منهم صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى . ومكرز ابن حفص .

وما زالوا يقاتلون حتى انحازوا الى البيت ، وكان حقا عليهم أن يمنعوا القتال في البيت الحرام الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ولكن قائدهم نوفل بن معاوية قاتل مع اعتراض بني بكر ، اذ قالوا له يا نوفل انا دخلنا الحرم الهك .

فقال كلمة كبيرة . بل فاجرة ، قال لاله اليوم ، يا بني بكر أصيبوا ثاركم فلعمري انكم لتشرقون في الحرم ، فلا تصيبون ثاركم فيه .

ولجأ بنو خزاعة الى داخل دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم كانت هذه مقتلة فاجرة .

وخرج رجل من بني خزاعة اسمه عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وبذلك حدثت أمور استوجبت أن يقف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذين في عهده ضد بني بكر ابتداء ، ومن أعانهم .

لقد ارتكب بنو بكر خيانة العهد . والقتال في البيت الحرام . وعاونتهم قريش قيما ارتكبوا من خيانة عهد واصابة للحرمات .

فما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسكت على هذا الضيم الذي ينزل بأهل عهده من أعدائهم ، وبمعاونة قريش .

خرج بديل بن ورقاء الخزاعي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى لجئوا الى داره فى نفر من خزاعة بعد عمرو بن سالم ، فأخبروه كما أخبره من قبل عمرو بن سالم بما أصيبوا به من بكر ، ومظاهرة قريش لهم •

وعاد بديل ، فالتقى بأبى سفيان وقد جاء يجس النبض ، ويطلب شد العقد ، ومد المدة • وظن أبو سفيان أنه جاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

جاء أبو سفيان ، وقد أدرك كبر ما فعلت قريش ، وما كان قد تحرك لمنع هذا ، ولكن قد وقعت الواقعة ، ولعله لم يكن لما حدث كارها •

استمر أبو سفيان فى مسيره حتى التقى بابنته أم حبيب قادما للقاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطوته - فقال يابنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ، فقالت : هو فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه ، فقال يابنية ، والله لقد أصابك بعدى شر •

ظن أن ابنته وهى زوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد تكون شفيعا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنها بادرت به بما ألقى فى نفسه اليأس ، فالتمس الشفاعة عند غيرها ذهب الى أبى بكر ، فكلمه فى أن يكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل ، ذهب الى عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فكلمه ، فقال عمر رضى الله عنه : أنا أشفع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فوالله لو لم أجد لكم الا الذر لجاهدتكم به ، ترك عمر يائسا ، كما يئس من أبى بكر •

فذهب الى على بن أبى طالب ، وله به رحم ، فدخل على على وعنده الزهراء فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده حسن ابنها غلام يدب بينهما •

قال أبو سفيان يا على أنك أمتس القوم بى رحما ، وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت فى حاجة فلا أرجعن ، كما جئت خائبا فاشفع لى الى رسول الله •

قال على : ويحك أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه •

التفت أبو سفيان الى الزهراء فاطمة فقال لها : يا بنت محمد هل لك ان تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر .

قالت الزهراء فاطمة : والله ما بلغ بابنى ذلك ان يجير بين الناس ، وما يجير أحد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

اتجه أبو سفيان مرة ثانية ، وقال له : يا أبا الحسن انى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، فقال على والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

قال أبو سفيان او ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ، قال على ، لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد عملاً غير ذلك .

قام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : أيها الناس انى قد أجزت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق حتى قدم على قريش ، وقد أحسوا كبر ما فعلوا ، وحقق ما صنعوا سألوه ، فأخبرهم بأن أحدا لم يردوا عليه شيئاً ، لا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أبو بكر ولا عمر ، ثم ما أشار به على من أنه أجز بين يدي الناس ، فسألوه هل أجاره النبي صلى الله عليه وسلم . قال : لا .

ذل الغدر

٥٩٠ — غدرت قريش فى عهدها ، وما كان لها ذلك ، وجاء أبو سفيان كبيرها يستغفر للخيانة التى لم يمنعه وأراد عجباً ، ان يمنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يحمى من دخلوا فى عهده ، وأن يتركهم من غير أن يحميمهم عهدهم ، وتشفع بابنته ، فما شفعت وتشفع بأبى بكر فامتنع امتناعاً قاطعاً ، وان كان هادئاً كطبعه رضى الله تبارك وتعالى عنه الا فى الشديدة ، وتشفع بعمر فرده رداً عنيفاً ، وتشفع متوسلاً بالرحم لعلى فما شفع هو ولا الزهراء فاطمة ، وقالت كلمة حاسمة لا يجار على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان عجباً أن يجير على قريش كلها ، ليكون لها أمان من الغزو ، لأنه شعر بالجريمة وقعت منها كلها ، وإذا كانت حرب فعليها كلها .

ونقول انه قد جاء لتوثيق العهد وزيادة المدة ، وأن ذلك يتضمن بلا ريب

الغاء العهد السابق وما اشتمل عليه ، وربما توهم أن ذلك ربما يسقط الغدر الأول ، ولعله ظن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعلم غدرة قريش التي تعد فسحا للعقد ، فلما رأى أن الخزاعي سبقه وأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن بد من أن يطلب الأمان لقريش . ولكن لم يجب .

وروى موسى بن عقبة أن أبا سفيان دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يدخل على أبي بكر وعمر وعلى . وقال له : « يا محمد شدد العقد وزدنا في المدة ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قدمت ، هل من حدث قبلكم ؟ قال معاذ الله ، نحن على عهدنا ، لا نغير ولا نبذل » .

ثم ذهب على الصحابة أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، الى أن وصل الى على ، فلان معه المجاهد الأول بعض اللين .

وقد صرحت هذه الرواية بأنه ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليأخذ منه اقرارا على ما قال في المسجد ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن قال أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة - ردا على قوله ما أظن أن تخفروني - أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة .

وقد عاد الى قومه فاستخفوه اذ قص عليهم خبر الرحلة ، وقالوا له : رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئا ، وانما لعب بك على لعمرو الله ما جوارك بجائر ، وان اخفارك عليهم لهين وحدث امرأته بحديث الرحلة ، فقالت له : « قبحك الله من وافد قوم فما جئت بخير » .

الاستعداد للفتح

٥٩١ — كان لابد اذن من اللقاء ، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن صنعت ما صنعت قريش بمن في عهده اعتزم أن يذهب الى مكة المكرمة بالفتح المبين ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : والله لأغزون قريشا ، قالها ثلاث مرات ، على ما روى .

اذن أصحابه بأن يتجهزوا للذهاب الى مكة المكرمة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها في بلادها » .

ولقد أخطأ بعض الصحابة ممن حضروا بدرا ، وله في الجهاد مقام خطا

يعد في نظر الحرب والجهاد خيانة أو خطيئة ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم
الحكيم الواسع العقل والصدر عفا عنه ، بعد أن أبطل عمله •

بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى ربه أن يأخذ العيون
والأخبار عن قريش ، أراد بعض الصحابة أن يكون عينا لقريش يخبرها •

كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا الى قريش يخبرهم بالذى أجمع رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم من الأمر بالسير اليهم • وأعطى كتابه امرأة
وأوصاها بأخفائه ، وجعل لها جعلا حتى تبلغه قرشياً ، فجعلته فى رأسها
وفتللت عليه ضفائرها فى قرونها ، ثم خرجت به •

وأوحى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما فعل حاطب ،
وفعلت المرأة فبعث اثنين من أخلص حواريه شابين نشأ فى طاعة الله والجهاد
فى سبيله ، وهما على بن أبى طالب ، والزيير بن العوام •

فخرجوا حتى أدركاها بالخليفة ، فاستنزلاها من فوق البعير الذى تركبه ،
فالتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجدها ، فقال على فى حزم انى أحلف بالله
ما كذب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا كذبتا ؛ ولنخرجن هذا
الكتاب ، أو لنكشفنك ، فلما رأت منه الجد قالت لعلى أعرض فأعرض ، فحلت
قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته اليه •

فذهب بالكتاب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهنا نجد
الرسول صلى الله عليه وسلم القوي يسأل عن مسوغ لهذه الخيانة ، فيقول فى
رفق القوي ، ورحمة الحليم •

يا حاطب ما حملك على هذا - لم يجابهه بالخيانة ، ولكن طلب اليه
مسوغا ، ان كان لمثل هذا مسوغ ، ولكن الكريم الحليم القوي أراد أن يقدم
اعتذارا عما فعل من غير أن يبادره باللوم والتعنيف •

أجاب حاطب عن هذا السؤال وقد أحس بالضعير يؤنبه : يا رسول الله
أنا والله مؤمن بالله ورسوله ما غيرت ، ولا بدلت • ولكنى كنت امرأ ليس لى فى
القوم من اهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم وفود واهل فصانعتهم
عليه •

لا شك أن الجواب لا يبرر العمل ، ودل على غير قليل من الضعف
النفسى ، فوفوده واهله بينهم من قبل الحديبية ، ولعلمهم وصلوا الى مكة المكرمة
فى مدتها ، وفى كلتا الحالين ، ما كانت البواعث الشخصية مسوغة مخالفة

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو القائد الأعلى ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا تعريض الجيش للأذى ، والاستعداد له ومواجهته ، وقد تدول الدولة لأعدائه .

ولذلك لم يستسغ عمر رضى الله عنه ذلك ، بعد أن لم يستسغه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، ولكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذى لم يستسغ ذلك العذر ، خالف عمر ، وقال معتذرا عن حاضره بماضيه فى بدر ما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم .

ما يريد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن فعلته التى فعلها ، ولكنه يلومه فى عبارات رقيقة عاطفة أن ماضيه ينهائ عن حاضره ، وأظن أن ذلك القول ، أروع من قول الفاروق عمر .

ولقد قالوا انه نزل فيه قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وأياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ، أن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالموودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم ، فقد ضل سواء السبيل ، أن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا اليكم أيديهم والسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون ، لن ننفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم أنا براء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرننا بكم ، وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، الا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شئ ، رينا عليك توكلنا ، واليك انبنا ، واليك المصير » .

وإذا كان ثمة أمر يسهل أن يرتكب الصحابى البدرى ذلك ، فليس هو النفاق ، ولكن المدة التى سهلت الالتقاء أحييت ما كان من مودة قديمة ، فسال سبيله فى طريقها حتى وقع فى هذا الخطأ ، بل الخطيئة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد جعل ماضى أمره مسقطا لذنب حاضره وهو الرسول صلى الله عليه وسلم المؤلف بين القلوب ، الجامع لها ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

خروج الرسول صلى الله عليه وسلم

٥٩٣ — خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماضيا لسفره ، واستخلف على المدينة المنورة أبارهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفارى ، وذلك ليعلم الناس أنه لا تفاوت فى الولاية بالنسب ، فقد ولى من الأنصار والمهاجرين من بطون قريش وغيرهم .

خرج صلى الله تعالى عليه وسلم لعشر ليال من رمضان ، وصام وصام الناس ، حتى اذا كان بالكديد أقطر — لأنه صار على سفر ، ولأنه رخص للمسافر أن يفطر ، وقد قال الله تعالى : « وان كنتم مرضى او على سفر فعدة من أيام أخر » .

وان الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما تؤتى عزائمه ، والسفر قطعة من العذاب فى الصحراء العربية وحال الجهاد تجعل المفطر قوة فيه ، وكل ما يؤدى الى القوة فيه يكون مطلوبا على قدر هذه القوة ، ويظهر أن بعض المؤمنين تخرجوا من أن يفطروا فى رمضان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باناء فشرب نهارا ليرى الناس ، فافطر حتى قدم مكة المكرمة مفطرا .

سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى لقيه فى الجحفة عمه العباس بن عبد المطلب ، مهاجرا هو وأهله ، وقد كان اسلامه سابقا على ذلك ، وبقي على السقاية فى الكعبة الشريفة .

ولقيه عليه الصلاة والسلام فى الطريق بعض ذوى قرابته ، أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا مودة وخير دائما ، فقالت له ابن عمك وابن عمك وصهرك يارسول الله ، قال : « لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى ، فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى ما قال بمكة » ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما دعا الى ربه قال له : « والله لاأمنت لك حتى تتخذ سلما الى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله تعالى أرسلك » .

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدم الاذن لهما ، فلما خرج اليهما الخبر ، قال أبو سفيان ابن عم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه ابن صغير له فقال والله لياذنن لى أو لأخذن بيد بنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض ، ثم نموت عطشا وجوعا ، فرق لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرحمهما ، ولأنهما قد رقا للاسلام ، والاسلام يجب ما قبله .

قريش تتحسس الأخبار

٥٩٣ — مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى نزل مر الظهران فى عشرة آلاف من المسلمين ، وفى رواية فى اثنى عشر ألفا ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، ولكنهم يظنون الظنون لنقضهم العهد الذى كان بينهم وبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

لم يحسوا بأمر ، ولكنهم يتوقعون أمرا ، فخرج فى تلك الليالى أبوسفيان ابن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء الخزاعى ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا .

ويلاحظ من ذلك أن الثلاثة يختلف اثنان فيهم عن الثالث ، لأن بديلا هو الذى ذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستنصر بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لخزاعة ، اذ عاونت قريش بنى بكر فى قتالهم لخزاعة ، حتى جاوزهم الى البيت الحرام فما امتنعوا ، فلعل الجميع كانوا يتحسسون ، ولكن اختلفت الغاية عندهم .

وفى الوقت الذى كانت قريش تتحسس أخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان العباس بن عبد المطلب الودود المسالم يريد أن يرسل الى قريش من يعرفهم مكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليحيثوا اليه مستأمنين لكيلا يكون قتال بل يكون أمن وسلام ويقول رضى الله عنه من جراء محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والله لئن دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة عنوة قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه ، انه لهلاك قريش الى آخر الدهر .

ركب بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء وأخذ يتلمس الحطابين ، أو ذوى الحاجات الذين يسىرون فى الصحراء ليجد من يخبر أهل مكة المكرمة .

وبينا هو فى سيره متحسسا سمع صوت أبى سفيان ، ولنترك له رضى الله عنه ، يحكى كيف كان لقاءه مع صديقه المشرك أبى سفيان ، وهو المؤمن فهو يقول :

وانى لأسير عليها (بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) ، اذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل ابن ورقاء وهما يتراجعا ، وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيرانا قط ، ولا عسكرا . قال بديل هذه والله خزاعة

حمستها (أى الهبتها) • قال أبو سفيان خزاعة أذل من ذلك وأقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقال أبو الفضل ، قلت نعم ، قال مالك فذاك أبى وأمى : قلت ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الناس ، واصباح قریش ، والله قال فما الحيلة ، فذاك أبى وأمى ، قلت والله لأئن ظفر بك ليضربن عنقك : فاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى أتى بك رسول الله فاستأمنه لك ، فركب خلفى ، ورجع صاحبه ، فجئت به ، كلما مررنا بنار من نيران المسلمين ، قالوا من هذا فإذا بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا عليها ، قالوا هذا عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على بغلته ، حتى مررت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال من هذا ، وقام الى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وركضت ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء فاقترحت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله تعالى منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلاضرب عنقه ، قلت يا رسول الله ، قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذت برأسه فقلت والله لا ينجيك الليلة ، دونى رجل ، فلما أكثر عمر فى شأنه (أى أبى سفيان) قلت مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف • فقال مهلا يا عباس ، فوالله لاسلامك يوم أسلمت كان أحب الى من اسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى الا ائني قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رسول الله من اسلام الخطاب ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتني به ، فذهبت به الى رحلى ، فلما أصبح غدوت به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما رآه ، قال ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله • قال أبو سفيان بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؛ والله لو قد علمت أن معه الها غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألم يأن لك أن تعلم أئني رسول الله ، قال أبو سفيان ، أما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا ، فقال العباس ويحك أسلم واشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق ، فأسلم •

قلت يا رسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال
نعم :

قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يحب حقن الدماء •

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتبس عند خطم الجبل (أنف الجبل) حتى تمر به جنود الله تعالى هيراما .

فحبسه ، حتى مرت به الرايات كل قبيلة على رايتها ، وكلما مرت قبيلة ، قال يا عباس ما هذه القبيلة ، وأخذ يسأل عنهم قبيلة قبيلة ، حتى مرت قبيلة رسول الله صلى الله تعالى على وسلم برأيته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال سبحانه الله من هؤلاء ؟ قلت رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال أبو سفيان ما لأحد بهؤلاء ، والله يا أبا الفضل قبل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال العباس يا أبا سفيان انها النبوة ، فقال نعم إذن .

٥٩٤ — ذكرنا هذا الحديث بطوله ، لأنه التقاء صديقين كلاهما يتحسس الأخبار لحماية مكة المكرمة من الحرب ، فالعباس رضي الله عنه يتحسس ، ليرسل لقريش يحرضهم على أن يستأمنوا لأنفسهم من جيش الايمان لكيلا تكون حرب في الحرم ، ولتحمي قريش نفسها لا بالحرب ، ولكن بالايمان ، أو الأمان .

وأبو سفيان يتحسس الأخبار ، لأنه توجس خيفة بعد الغدر ، وتوقع من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عملا لحماية من دخلوا في عهده ، ولأنه أصبح في حل من الصلح الذي صالحوه عليه ، إذ نقضوه من جانبهم ، فهو عليهم رد ولا سبيل لأن يدفعوا بعهد نقضوه .

التقى الصديقان ، وكان لقاء قيه خير ، إذ انتهى بإسلام أبي سفيان ، وضمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعد أن أرضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد بذل العباس في ذلك جهدا ، خصوصا عندما اشتد عمر رضي الله تعالى عنه ، وما كنا لنقر العباس رضي الله عنه في قوله لعمر لو كان من عدي ما وقف في هذا ، فعمر لا يمكن أن يؤثر قرابة في قول الحق ، وهو الذي قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله كتب الحق على لسان عمر وقلبه » .

ومهما يكن من تلك الكلمة ، فإن العباس رضي الله تعالى عنه ، قد

كانت سياسته حكيمة في ضم أبي سفيان ، فانه كان له اثر في حقن الدماء ، ومنع الحرب .

لقد قال من بعد ذلك العباس لأبي سفيان يحرضه على السرعة في الذهاب الى قريش يسكنها قال له النجاء الى قومك ، أي السرعة المنجية .

فلما جاءهم هرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا له قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك . قال ناقلا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن .

وبهذا تهيأت النفوس للاسلام الا بعض الذين أكل الحقد قلوبهم ، وسيطر عليهم النزع الجاهلي ، ولم ينظروا الى ما هو امامهم ، بل التفتوا الى ما وراءهم ، ولكنهم مع ذلك لم يجعلوها حربا ، لأن الله تعالى . أراد السلام وقصد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدخل البيت معظما مشرفا ، زاده الله شرفا وتعظيما .

اللقاء

٥٩٥ هـ ... لم نقل المعركة ، ولكن قلنا اللقاء ، لانه لقاء التصفية وتنقية القلوب من ضغائنهما ، وتلاقى النفوس على المرحمة بعد الملاحم ، ومن يقدر على ذلك الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي أرسله رب العالمين الذي ألف بين قلوبهم القائل تعالت كلماته : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، فانقذكم منها » .

دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا دخول المقاتل ، ولكن دخول المسالم الذي يريد أن يفتح القلوب للايمان ، فكان على أحد جانبي الجيش الزبير بن العوام ، وعلى الجانب الآخر خالد بن الوليد ، وعلى المهاجرين أبو عبيدة عامر بن الجراح ، والجميع متجهون صوب مكة المكرمة ، من شمالها الزبير بن العوام بمن يقودهم ، ومن جنوبها خالد بن الوليد بمن يقودهم ، ومن الشمال الغربي أبو عبيدة بالمهاجرين ومن الغرب سعد بن عباد يقود الانصار .

وكانت أوامر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا يقتلوا ولا يقتلوا ،
فما دخلوا لحرب ولكن لأجل اقرار السلم .

ولكن علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى كتيبه ان أو شاب
قريش أو بعضهم ليسوا من كبرائهم ، ورأى ان هؤلاء قد يشوهون وجه اللقاء ،
فنادى أبا هريرة اهتف بالأنصار ، ولا يأتين الا أنصارى ، فأمر الأنصار
بان يحصدوهم حصدا اذا وجدوا منهم أمرا يخرج المجاهدين السالمين عن
سلمهم .

ركزت راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الحجون .

لقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على ان يبعد كل نزعة
الى الحرب ، ويبعد صاحبها ولو كان عنده من المقربين الذين أيسدوه بتصرهم ،
والناس عنه معرضون .

قال سعد بن عبادة حامل راية الأنصار عندما مر على أبى سفيان ، أو
جعل شعاره : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرامات » فقال عمر
ابن الخطاب : أسمع . وقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف يا رسول
الله ما نأمن ان يكون له فى قريش صولة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : بل
اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه الكعبة الشريفة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ،
ثم أرسل على بن أبى طالب لينزع منه الراية ، وفى رواية انه أعطها عليا ، وفى
رواية أعطها الزبير بن العوام ، والرواية المشهورة انه أعطها قيس بن سعد
ابن عباد ، لكيلا يكون فى نفس سعد بن عباد شىء من نزعها ، ان أنها أعطيت
لابنه فأخذت منه اليه ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد الا يحصل
راية الأنصار الا أنصارى لتكون حمية الأنصار وليكون لهم مقام الفتح
برجالهم وبقيادتهم ، والرواية التى تقول انه عليه الصلاة والسلام أعطها
عليا ، قامت على أن عليا هو الذى نزعها منه ، ولعل الزبير هو الذى أعطها
قيسا ، بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبذلك تتلاقى الروايات الثلاث :
وتكون الراية انتهت الى ابن سعد .

دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة :

٥٩٦ هـ — دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ، ومعه
لواء أبيض ، وعليه عمامة سوداء وهو يقرأ سورة الفتح وهو راكب على
ناقته ، وكان يرجع فيها ، فهو يترنم بها ، ويرجع كلماتها مستطيبا الفساظها
ومعانيها ، وقد خفض رأسه متواضعا لله تعالى ، ولما انتهى الى ذى طوى المتجر

بشفقة بردة حبرة حمراء . وإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليضع رأسه
تواضعا لله تعالى ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى غثنونه لتكاد
يمس الرجل .

ويروى أن رجلا كلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الفتح
فأخذته الرعدة ، فقال الرسول الذي يزيده التواضع عزا ، أو كما قال : « هون
عليك ، فانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

وإن العزيز الكريم لا تزيده القوة الا تواضعا ، يقول في ذلك ابن كثير
« وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله مكة المكرمة في مثل هذا الجيش
الكثيف العرمم بخلاف ما اعتمده سفهاء بنى اسرائيل حين أمروا أن يدخلوا
باب بيت المقدس ، وهم سجدوا أى ركع يقولون حطة ، فدخلوا يزحفون على
أستاهم وهم يقولون حنطة » .

وإني يكون بنو اسرائيل الذين تطغيهم النعمة من محمد الكريم صلى الله
عليه وسلم ، الذى تدفعه النعمة الى التواضع ، فيقوم بحققها وشكرها ، فشكر
كل نعمة . نعمة من نوعها ، فشكر القوة الرقق والعدل ، وشكر الرفعة التواضع ،
وقد رفع الله تعالى نبيه ، بما لم يرفع به رجل في العرب ، وبما لم
يرفع به نبي في أمته ، فكان هذا التواضع الكريم الذى زاده عزا .

وقد دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أعلى مكة المكرمة من
كداء ، وهو أصح الروايات ، كما جاء في البخارى .

اسلام أبى قحافة :

٥٩٧ - - وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذى طوى ، ولم
يكن أبو بكر قد التقى بأبيه أبى قحافة منذ هاجر الا أن يكون قد زاره في عمرة
القضاء .

وكان قد أصيب في عينيه ، فكف بصره ، فكان يرى الرؤية الكاملة بآبنته
أحسفر أولاده ، فلما وقف عند ذى طوى ، وقف أبو قحافة على جبل أبى قبيس ،
فقال : أى بنية ماذا ترين ؟ قالت أرى سوادا مجتمعا قال : تلك الخيل ، قالت
وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا مدبرا ، قال أى بنية من ذلك الوازع
(الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها) ثم قالت قد والله انتشر السواد ، فقال قد
والله أذن دفعت الخيل ، فأسرعى بى الى بيتى ، فأنحطت به ، وتلقاه الخيل قبل

أن يصل الى بيته ، وفى عنق الجارية طوق من ورقة (فضة) فيلقاها رجل ،
فيقتطعه من عنقها •

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ودخل
المسجد أتى أبو بكر بأبيه (أبى قحافة) يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم قال : « هلا تركت الشيخ فى بيته ، حتى أكون أنا أتيه ، قال
يا رسول الله هو أحق أن يمشى اليك من أن تمشى أنت اليه •

أجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا الصديق ، ثم مسح على
صدره ، ثم قال : أسلم ، فأسلم ، ثم قام أبو بكر ، فآخذ بيد أخته الصغيرة
يسألها عن طوقها ، ولما علم أنه خطف منها ، أنشد المسلمين بالله والاسلام طوق
أخته •

فقال الصديق معزيا أخته الصغيرة فى قرطها ، ان الامانة اليوم قليل ،
فاحتسبى طوقك هذا هو الرفق ، ان الطوق الفضى أحب اليها فى سسنها •
فواساها الصديق فيه رفقا ومحبة ، ولقد هنا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
أبا بكر صاحبه فى الغار باسلام أبيه •

قتال فى جوانب من مكة المكرمة :

٥٩٨ — نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن القتال ، ولكنه لم ينه عن
الدفاع ، وقد ذكر أن اهل مكة المكرمة قد رضوا بالمسالة والسلام ، وأطمأنوا
الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا الذين بقوا على جاهليتهم ولم يذوقوا
حب الايمان أو أن فيهم الحقد الدفين ، والرغبة فى الثأر — لا يريدون سلاما ،
ولكن يريدون حربا وخصاما ، ولم يؤخذوا بالقوة ، بل جحدوا بها ، كما
جحدوا هم وأباؤهم بالحق اذ جاءهم •

فهؤلاء المتطرفون فى عداوتهم قد تجمعوا مع بنى بكر الذين كانت
مناصرتهم سببا لخرق العهد ، وقد تجمعوا فى منطقة الخندمة ، فلما وصلها
خالد ومن معه أمتطروها وأبلا من النبل ، فاضطر خالد أن يقاتلهم حتى فرق
جمعهم ، وكانوا عددا قليلا يسهل تفريقه •

واسلست قريش القياد ، ولم تنفر ، ورضيت بالبقاء ، ولم يقتل من
أصحاب خالد الا اثنان قد ضلوا وشذا بالانفراد ، فيظهر أنهما قد تمكن الأعداء
منهما ، وكان فى الذين هاجموا خالد بن الوليد بالنبل ، هسفوان بن أمية

وعكرمة بن أبى جهل فأنطلقا خارجين الى البحر ، ولم يقبلا أن يقيما مع محمد صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة أو تحت سلطانه .

بعد أن انهزم صفوان ، اتجه الى جدة ، فقد روى ابن اسحاق خسر ج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها الى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبي الله ، ان صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هاربا ، ليقتل نفسه في البحر ، فأمنه صلى الله عليه وسلم ، قال هو آمن ، قال يا رسول الله ، فأعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عصامته التي دخل بها مكة المكرمة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب في البحر ، فقال يا صفوان فذاك أبى وأمى ، الله فى نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جئت بك به ، قال : ويلك اغرب عنى فلا تكلمنى : قال . أى صفوان ، فذاك أبى وأمى ، أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال : انى أخافه على نفسى ؟ قال هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال صفوان : ان هذا يزعم أنك قد أمنتنى ، قال : رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، صدق قال : فأجعلنى فيه بالخيار شهرين قال : أربعة أشهر ، هذا هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى خلقه ، الرفيق اللين فى قوته المتواضع فى عزته يرجو العربى العنيف ، ليستأمنه فيؤمنه ، ولكنه يشترط لقبول الأمان الخيار شهرين .

ولقد جاءت الى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم أم حكيم زوج عكرمة ابن أبى جهل فأسلمت ، فاستأمنت لزوجه عكرمة فأمنه ، وكان قد سبق صفوان ، الى اليمن وتخلف صفوان كما ذكرنا ، فلحقته به الى اليمن ، فجاءت به فلما أسلم عكرمة بقيت معه زوجه أم حكيم ، وكذلك كانت فاطمة بنت الوليد زوجا لصفوان بن أمية ، فلما أسلم بقيت زوجه .

وقد بقيتا بالزواج الأول ، وذلك أن من تسلم زوجه ، وهو كافر يعرض عليه الاسلام ، فان أسلم بقيت الزوجية كما هى من غير عقد جديد ، وذلك لأن الفرقة لا تكون بسبب الاسلام ، وانما تكون بسبب إباء الزوج الاسلام بعد العرض عليه .

وان النبی صلى الله تعالى عليه وسلم عندما بلغه القتال الذى كان بين خالد بن الوليد أرسل اليه النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ينهاء عن القتال ، فأنتهى ، وروى أنه لم يقتل من المشركين الا بضعة عشر من الرجال . وان مبدأ من دخل داره فهو آمن قد طبقه النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يقتل

رجلا أغلق عليه داره ، وانه يذكر في ذلك ان اثنين من أحماء أم هانئ بنت أبي طالب أخت على بن أبي طالب رضى الله عنهما لجا فتبعهما على لأنهما لم يغلقا دارهما ، عليهما ، وفرا الى أم هانئ ، ليقتلها ، ولكنها أغلقت عليهما باب بيتها ، وعلى يريد قتلها في دارها ، وأمام اصرار على رضى الله تعالى عنه ذهبت أم هانئ الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأعلى مكة المكرمة فوجدته يغتسل ، وفاطمة ابنته تستر به بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات ، ثم انصرف الى أم هانئ فقال : مرحبا وأهلا ، يا أم هانئ ، ما جاء بك ، فأخبرته خبر الرجلين ، وخبر على ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أجرنا من أجزت ، وأمننا من أمنت ، فلا يقتلها .

دخول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المسجد الحرام :

٥٩٩ — دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيت الحرام بعد أن ركز رايته بالحجون ثم نهض والمهاجرون والأنصار يحيطون به بين يديه ومن خلفه وحوله ، فأقبل الى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وعليه قوس ، وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم ، وهى متماسكة ، فجعل يطعن بالاقوس ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا ، وما يبدى الباطل وما يعيد ، والأصنام تتساقط على وجوهها بمجرد اصابتها بقوسه ، حتى أتى عليها جميعا تنكيسا .

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يطوف على راحلته ، ولم يكن ذلك محرما ، واقتصر في دخوله على الطواف .

ولقد جاءه على كرم الله وجهه ومعه مفتاح الكعبة الشريفة ، وأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب أن يعطيهم الحجابة ، والسقاية معهم فى يد العباس رضى الله تبارك وتعالى عنه فدعا عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح ، وعثمان هذا هو ثالث الثلاثة الذين أسلموا فى رحلة واحدة ، هم عثمان بن طلحة هذا وخالد بن الوليد ، وعمر بن العاص .

وأمر بالكعبة الشريفة ففتحت ودخلها ، ورأى فيها جملة من الصخور منحوتة فى الصخر ، ورأى فيها صورة ابراهيم ، واسماعيل يستقسمان بالأزلام وهى منحوتة أيضا ، فقال قاتلهم الله ، والله ان استقسما بها قط (أى ما استقسما) ورأى فى داخل الكعبة الشريفة حمامة من عيدان فكسرها ، وأمر بالصور فمحيى كلها ، ثم أغلق الباب على نفسه ، وعلى أسامة وبلال فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب ، حتى اذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى .

ثم دار فى البيت وكبر فى نواحيه ، وفتح الباب •

وقد خرج من باب الكعبة الشريفة ، وكانت قريش قد ثلثت المسجد ينتظرونه ، فخرج اليهم من محراب الله وكأنه مقبل عليهم من عند رب البيت ، الذى جعله حرما آمنا ، والناس يتخطفون من حولهم •

وقد دهشوا ، يتعرفون ماذا يصنع •

فأخذ بعضادتى الباب وقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، الا كل مائثة او مال او دم فهى تحت قدمى هاتين الا سدانة البيت • وسقاية الحاج • قال وقتل العمد • وشبه السوط والعصا ، فيه الدية مغلفة ، فانه من الابل أربعون منها فى بطونها اولادها •

يا معشر قريش ان الله تعالى اذهب عنكم نخوة الجاهلية • وتعظمها بالآباء الناس من آدم وادم من تراب ، ثم تلا الآية « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » •

العفو الكريم الشامل :

• ٦ — « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » بهذا الأمر الربانى أخذ نبى الرحمة وأعظم عفو رآه الوجود الانسانى هو عفو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن اهل مكة المكرمة ، لقد اضطهدوه منذ البعثة وهو فى الأربعين واستمر اذاهم غير مقطوع ، حتى ذرف فى الستين ، لا ينون عن ايذائه ، ثم قتاله ، ثم الدس الخبيث له ولرجالهم فلما غلب وتغلب بعد أكثر من عشرين سنة ، لم يقل ويل للمغلوب ، كما يقول سياسة هذا الزمان بل قال : مرحبا بالآخرة : وعفوا عما مضى ، وان تنتهوا يغفر لكم ماقد سلف •

قال صلى الله تعالى عليه وسلم لقريش وهم صفوف ينتظرون كلمته فيهم فقال لهم : يا معشر قريش ما تظنون انى فاعل بكم •

قالوا اخ كريم وابن اخ كريم •

قال فانى اقول لكم كما قال يوسف لآخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، انهبوا فانتم المطلقاء •

وكان عثمان بن طلحة فى يده مفتاح الكعبة الشريفة قبل ان يسلم اراده على مع السقاية ، فرده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان بن وقال له : اليوم يوم بر ووفاء .

ونكر ابن سعد فى طبقاته عن عثمان بن طلحة . قال كنا نفتح الشريفة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فاقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما (أى قبل الفتح) يريد ان يدخل الكعبة الشريفة ، مع الناس فاضلظت له فنلت منه فحلم عنى ، ثم قال يا عثمان لعلك ترى هذا المفتاح بيدي اضعه حيث شئت .

ولعل ذلك أيام الأذى الذى كان ينزل بالمؤمنين من قريش قبل الهجرت حتى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى فيما يستحقه كل الناس والناس ، مستبشر لا يرجو الا ما عند الله ، ما عند الناس .

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان ابان ذاك ان المفتاح سديده يضعه حيث يشاء ، فقال : متطاولا فى الأذى بالقول : لقد هلكت يومئذ وذلت .

فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بل عمرت وعزت يوم

يقول عثمان فوقعت كلمته منى موقعا أى انه توقع صدقها وهم الجاهلية الغافلة ، وظن ان الأمر سيصير الى ما قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد تحقق ما توقع ، وصدق قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فله المفتاح يضعه حيث يشاء ، فوضعه فى يد عثمان بن طلحة ، الذى ا له فى القول من قبل ، ونال منه .

ويقول عثمان فى حكايته : قال لى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ياعثمان انتنى بالمفتاح ، فأتيته فاخذ منى المفتاح ، ثم دفعه الى ، وقال : خذ خالدة تالدة ، لاينزعها منكم الاظالم يا عثمان . ان الله تعالى استأمنكم بيته ، فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف .

فلما وليت نادانى ، فرجعت اليه . فقال ألم يكن الذى قلت لك ، فذكرت قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لى قبل الهجرة ، سترى هذا المفتاح بيدي اضعه حيث شئت . قلت بلى : أشهد أنك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومع السماحة التي تدنى أشد القلوب جفاء ، ومع هذا العفو الكريم الذي يجمع الشارد ، ويدنى القاصي ، كانت قلوب بعض القرشيين مازال يسكنها الضعف في الإيمان والهفص الجاهلي .

يروى سعيد بن المسيب يقول تناول لأخذ المفتاح رجال من بني هاشم فردّه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان بن طلحة .

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا أن يصعد إلى الكعبة الشريفة ، فيؤذن ، وأبوسفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث ابن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة الشريفة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا ، ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ، فقال الحارث أما لم أعلم أنه على حق لاتبعته .

وقال أبو سفيان لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصياء .

قالوا ما قالوا ، والنبي ليس بينهم ، وهم يقولونه مسرين هامسين ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال قد علمت الذي قلتم ، ثم ذكر لهم ما قالوا .

فقال عتاب انك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معك ، فنقول أخبرك .

الإمان العام :

٦٠١ — كان هذا العفو الشامل لقريش أمانا لكل أهل مكة المكرمة ، ودعا إلى ألا يقتل الا تسعة ، أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دمهم ، وأباح قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة الشريفة وهم عبد الله بن سعد ابن أبي السرح . وعكرمة بن أبي جهل قبل اسلامه ، وعبد العزيز بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ومقبس بن صبابه ، وهبار بن الأسود وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب .

وهؤلاء كادوا كيدا شديدا للاسلام ، وبعضهم مع ارتداده قتل مسلما عامدا بعد أخذ الدية أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فكان قد آمن أو أسلم ، وكان يكتب للوحى ، ثم ارتد بعد اسلام ، وكذب كذبة خطيرة ، فادعى أنه كان يغير فيما يملى عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بكتابة عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم .

فكانت اباحة دمه حماية للإسلام من المرتدين ، فلما أبيع دمه فر الى عثمان بن عفان ، وكان أخاه فى الرضاعة ، مع صلة النسب ، فذهب به عثمان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستأمن له فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه صمتا طويلا ، رجاء أن يتقدم أحد الحاضرين لقتله ، ثم قال بعد الصمت الطويل نعم - فآخذ الأمان اكراما لعثمان وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى عثمان انه تستحى منه الملائكة .

وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن حضره بعد انصراف عثمان به « أما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم الى هذا حين رأى قد صمت فيقتله ، فقالوا يا رسول الله هلا أومأت إلينا ، فقال ان النبى لا يقتل بالاشارة . وفى رواية انه قال : « لا ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

ولقد كان من المقربين الى عثمان فى خلافته ، ولاء مصر بعد عمرو ابن العاص ، وكان ممن لهج به دعاة الفتنة فى آخر عهد عثمان أخذين على عثمان توليته وقربه ، وأنه لم يكن عدلا ، ولعل ذلك كان من أشد ما لهجوا به وأقواه .

وعبد الله بن أخطل ، فقد أسلم ، وبعثه الله تعالى ليجمع الصدقات . وبعث له رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له ، فغضب عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا . وكانت له قينتان فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهدا أهدر دمه ودم القينتين ، فأما هو فقد قتل متعلقا بأستار الكعبة الشريفة وقتلت إحدى القينتين واستؤمن للأخرى ، وأما الحويرث بن نفيل بن وهب فقد كان يؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة المكرمة ، ولما تحمل العباس رضى الله عنه بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما الى المدينة المنورة يلحقهما برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة أول الهجرة نخس بهما الحويرث هذا الجمل الذى هما عليه ، فسقطتا على الأرض .

فلما أهدر دمه قتله على بن أبى طالب زوج فاطمة الزهراء .

وأما مقبس بن صبابه ، فقد آمن ثم ارتد ، ثم أخذ دية ، ثم قتل قاتل أخيه غدرا ، وذلك أن أخاه كان مسلما فقتل خطأ فى أعقاب غزوة بنى المصطلق فجاء هو وأعلن إسلامه ، وأخذ دية أخيه من بيت المال ، وقد بينا ذلك ، ولكنه ما أن أخذ الدية حتى عدا على قاتل أخيه خطأ ثم ارتد عائدا الى مكة المكرمة ، فكان من الحق أن يقتل لردته ، ولقتله مؤمنا عمدا وقد أخذ الدية .

وقد قتله رجل من قومه .

وسارة مولاة لبنى عبد المطلب ، ثم لعكرمة بن أبى جهل ، وكانت تؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمكة المكرمة ، وروى عن بعضهم

انها هي التي حملت الكتاب الذي ارسله حاطب بن ابي بلتعمة ، وكانها عفى عنه ، ثم اهدر دمها فهربت حتى استؤمن لها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فامنها فعاشت الى خلافة الامام عمر فوطنها رجل فرسا فماتت .

واما عكرمة ، فكان اهدار دمه قبل ان يسلم وقد هرب الى اليمن ، فلما اسلمت امراته استأمنت له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فامنه فذهبت الى اليمن ، فتقدم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على الا يؤذيه ، فعندما جاء مسلما قال لأصحابه ، لقد جاءكم عكرمة بن ابي جهل مسلما فلا تسبوا اياه لأن ذلك يؤذى الحى ، ولا يصيب الميت ، وهكذا يكون كرم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العطوف الألف .

ويروى ان الايمان دخل قلبه قبل ان تجيء اليه امراته ، وذلك انه وهو فى السفينة عصفت بها عاصفة وقال بعض اهل السفينة لبعضهم . ان الهتكم لا تغنى عنكم شيئا هنا ، فاثّر ذلك فى نفس عكرمة وعقله ، ورب لفظة تحول القلب من الكفر الى الايمان ، وقال . « والله لم ينح فى البحر الا الاخلاص وانه لا ينجى فى البر غيره ، اللهم ان لك على عهدا ان ائت عافيتى مما انا فيه اتى محمدا حتى اضع يدي فى يده فلأجدنه عفا كريما .

ثم جاءت امراته ، وقد طاب نفسا بالاسلام .

واما هبار بن الاسود فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما هاجرت ومكن لها زوجها من الهجرة ، فنخس هبار هذا راحلتها حتى سقطت على صخرة ، وكانت حاملا ، فسقط جنينها .

الانصار يتوهمون ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعود الى مكة المكرمة :

٦٠٢ — كانت اقامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رابطة بالسود بينه وبين قوم كانوا له اعداء آذوه حتى خرج من عندهم يائسا من ان تتحقق الدعوة الى الرسالة الالهية فيهم ، وانه لا سبيل الا ان يهاجر ، ثم كانت الحروب المفرقة .

ولما فتح مكة المكرمة كان لابد ان يزيل الاحن من النفوس فلان ورفق ، وعفا وصفح الصفح الجميل ، كما أمره ربه اذ قال له : « فاصفح المصفح الجميل » فظن الانصار الذين آووا ونصروا ان مهمتهم قد انتهت .

لقد قالوا فتح الله مكة المكرمة على يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
وهى بلده ، وموطنه ، جال ذلك فى نفوسهم وتحدثوا به فيما بينهم ، ثم قالوا :
اترون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا فتح الله تعالى عليه أرضه
وبلده أن يقيم بها .

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم يحدثون أنفسهم بذلك
يدعو على الصفا والمروة رافعا يده ، فلما فرغ من دعائه اتجه الى أنصاره
فقال لهم : ماذا قلتم ، قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ،
فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم ،
أى أنه يعيش فيهم حتى يموت بينهم ، لقد نصره الله تعالى بهم ، وخذله غيرهم
فهو منهم ، وهو كما قال فى موضع سيجىء : انه لولا الهجرة لكنت امرأ من
الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلك الأنصار شعبا لسلك شعب
الأنصار .

حرمة مكة المكرمة

٦٠٣ — قال، الله تعالى : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وينعمة الله هم يكفرون » .

والقتال في البيت الحرام على ذلك حرام ، وإن الرجل كان يلقي قاتل أخيه أو أبيه ، فلا يمسه ، والمنازعات تكون خارجة لكي يتوافر للناس الأمن في أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا ، وهدى للعالمين .

ومن أجل ذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهيا مؤكدا عن القتل والقتال ، وأمن الناس حتى لا يضطروا الى المدافعة ، فقال : من كان في البيت الحرام فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، وصار يعطى الأمان لكل من يطلبه ، إلا أولئك الذين كان لهم أجرام واضحة ، وبعضهم ممن أسلم ثم ارتد ، ومن كان مثل هذا فيه ، وقتل عمدا مؤمنا بعد أخذ دية أخيه .

وذلك كله ليحفظ حرمة البيت الحرام ، وشرف مكة المكرمة وحرمتها .

ولكن مع هذا الاحتياط الشديد في حرمة البيت ومنعها من أن تمس ، مع ذلك كان من المشركين الذين لم يدركوا معنى السلام من هاجموا قوات خالد ابن الوليد ، واضطر جيشه أن ينضج عنه النبل القاتل بالقتال فقاتل ، وقتل من جيشه اثنتان وقتل من المشركين بضعة عشر رجلا .

ولا شك أنه في هذه الحال إنما أباح حرمة البيت الحرام أولئك الذين هاجموا ، وهم المشركون ، لا الذين دافعوا ، وهم من كانوا في جيش خالد :

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم الذين أهدر دماءهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة الشريفة وقتل فعلا أحدهم ، وهو متعلق بأستار الكعبة الشريفة .

وإن حرمة مكة المكرمة باقية ، وإن امتهان حرمتها كان لحالة استثنائية لا يوجد مثله قط ، ولذلك خطب بذلك مؤكدا حرمتها ، التي اختصها الله تعالى ، فخطب قائلا بعد أن حمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله :

« أيها الناس ، إن الله تعالى حرم مكة المكرمة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام كحرمة الله تعالى الى يوم القيامة ، فلا يحل لامرء

يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقولوا له : ان الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وانما حلت لى ساعة من زمان ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليعلم الشاهد فيكم الغائب » .

وكلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لبيّن للناس حرمة مكة المكرمة الدائمة وأنه ليعرف الناس فجور الأمويين ، واتباعهم الذين رموا الكعبة الشريفة بالمنجنيق ، فارتكبوا ما كان الجاهليون يتعففون عنه ، فهم أشد جرما ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى .

محطم الأوثان

٦٠٤ — اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد أن خضعت قریش راضية أو راهبة الى تجديد بعض اجزاء البيت ، فأمر أبا أسيد الخزاعي بذلك .

ولم ينغص على أحد نفسه ، بل أخذ منهم الظاهر ، وترك لهم ما بطن ، ويروى البيهقي أن أبا سفيان كانت تحدّثه نفسه أن يثير القتال بينه وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو حديث لم يتكلم به ولم يطلع عليه أحدا وإذا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له : « ليخزينك الله » وكان كأنه يحدث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث بينهما ، فقال أبو سفيان :

لا يعلم هذا أحد وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يمر على الاصنام فيغمزها بقوسه ، فتتساقط ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » وقد ذكرنا ذلك .

ولكنه لم يكتف بما صنع هو ، فقد أرسل رجاله سرايا الى اماكن الأوثان ، فحطموا ما حول الكعبة الشريفة ، ثم حطموا ما هو خارجها ، فكسرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونادى مناديه فى أهل مكة المكرمة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنما الا كسره » وصار الذين دخلوا فى الاسلام يتسابقون فى كسر ما تحت أيديهم من الأوثان ، وبعث خالد بن الوليد الى العزى لخمس بقين من شهر رمضان ليهدمها ، فخرج اليها فى ثلاثين رجلا حتى لا يكون من يستطيع مقاومتهم فهدمها .

ويقول الرواة انه رجع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره ، فقال هل رأيت شيئا قال : لا . قال فأرجع اليها ، فانك لم تهدمها .

فرجع خالد وهو متغيظ ، فجرد سيفه فخرجت اليه امرأة عارية سوداء ناشرة شعر رأسها ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فقتلها ، وجاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم نعم تلك العزى وقد آيست أن تعبد في بلادكم ويظهر أن هذه المرأة كانت تختفى وخالد لم يكن يراها ، فلما رفع سيفه واعتقدت أنها لا محالة ظاهرة ، ظهرت ، فقتلها .

وكانت بنخلة ، وكانت قريش ، وبنو كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها من بني شيبان .

ثم بعث عمرو بن العاص ، الى سواع ، وهو صنم لهذيل ليهدمه ، فانتهى اليه ، وعنده السادن ، قال ما تريد ؟

قال : امرنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن اهدمه .

قال لا تقدر على ذلك ، قال ولم — قال تمنع . قال عمرو حتى الآن أنت على المباطل ويحك فهل يسمع أو يبصر ، فدنا منه فكسره ، وأمر عمرو أصحابه أن يهدموه ثم قال عمرو للسادن : كيف رأيت ؟ قال أسلمت لله تعالى .

وهذا يثبت أن إيمانهم بهذه الأصنام مبنى على وهم توهموه فيها ، فلما انكشف لهم كفروا بها .

وبعث سعد بن زيد الأسهلى ، الى مناة عند القديد ، وكانت صنما للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ممن يجاورون الشام أو في طريقه .

فخرج سعد فى عشرين فارسا ، حتى انتهى اليها وعندها سادن .

فقال السادن ماذا تريد ؟ قال سعد هدم مناة ، فقال أنت وذاك ، وكانت يتحداه ، فأقبل سعد يمشى اليها ، فخرجت اليه امرأة عارية سوداء وثائرة الراس تدعو بالويل وتضرب صدرها فضربها سعد ، فقتلها ، وأقبل الى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا فى خزانته شيئا .

هذه عزيمة قوية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أزال بها ما كانوا يعبدونه من أحجار لا تضر ولا تنفع ، وفعل ما فعله جده إبراهيم الخليل عليه السلام ، فجعلهم جذازا ، ولم يبق كبيرا لهم ، لأنه لا كبير يبقى أمام معول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد جعلها جذازا بعد أن فقدت الأوهام التى كانت تحيط بالنفس العربية حولها .

وبذلك انتهت دولة الأوثان في البلاد العربية ، ولقد رأها الذين كانوا يعيدونها ، لا تدفع محطتها ، ولا تمنعه ، إذ هي لا تملك لنفسها نفعا ، ولا ضرا وقد يئس الشيطان من بعدها أن يعبد في بلاد العرب •

بعثة خالد بن الوليد الى جذيمة

٦٠٥ — عقب تحطيم خالد بن الوليد العزى أرسله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى جذيمة من كتامة داعيا الى الاسلام ، ولم يبعثه مقاتلا ، لأنه لا قتال في مكة المكرمة وما حولها من القرى والبوادي بعد أن دخلت مكة المكرمة في طاعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ثمة حاجة الى القتال ولم يكن منهم غدر أو خيانة ، حتى يعاقبوا على غدرهم وخيانتهم •

أرسله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه قبائل من العرب من سليم ابن منصور ، ومدلج بن مرة ، ومعهم بعض المهاجرين والأنصار كعبد الله بن عمر وسالم مولى حذيفة •

وكانت عدة من خرج فيهم خمسين وثلاثمائة من بنى سليم والمهاجرين والأنصار •

قال لهم خالد ، ما أنتم • قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبيننا المساجد في ساحتنا ، وأذننا فيها •

وكان حقا على خالد بن الوليد أن يكف عند هذا ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أرسله مقاتلا ، بل أرسله داعيا وهاديا ، ولكنه تخلى عن هذه الصفة العالية ، وأبى إلا أن يكون مقاتلا ، وبرر ذلك بأنهم يحملون السلاح •

قال لهم فما بال السلاح عليكم •

قالوا أن بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فحفظنا أن تكونوا هم ، كان عليه بعد أن يكتفى بذلك ، أو أن يتحرى عن صدق كلامهم ، أو أن ينزع السلاح من أيديهم •

ولكنه لم يفعل ، بل استأسرهم ، بعد أن وضعوا السلاح كما امر ، وما كان له ذلك ، فأوثقهم وفرقهم في أصحابه •

وكان حقا عليه أن يأخذهم أسارى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليفعل فيهم ما يحكم الله تعالى ، ولكنه في السحر ، نادى خالد بن الوليد ، من كان معه أسير ، فليضرب عنقه ، فلما من كان معه من بنى سليم فقتلوا من في أيديهم من الأسرى المنكوبين بخالد .

وأما المهاجرون والأنصار أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حقا وصداقا ، فانهم أرسلوا أسراهم ، ولم يقتلوهم ، لأن الأسرى لا يجوز قتلهم لأنهم مسلمون .

ويلاحظ أنه كان فيهم رجل أدرك نية خالد يقال له جحدم ، ولم يعتقد أنها نية اسلامية ، قال لقومه ، لما أمرهم خالد بأن يضعوا أسلحتهم : يا بنى جذيمة انه خالد ، انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا اسار ، وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق . انتقل رجل من القوم ، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أنكر عليه أحد ؟ قال نعم : قد أنكر عليه رجل أبيض ربيعة ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب ، فاشتدت مراجعتهم فقال عمر بن الخطاب ، أما الأول فابنى عبد الله يا رسول الله ، وأما الآخر ، فسالم مولى أبى حذيفة .

عندما بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعل خالد هذا رفع يده الى السماء ضارعا : اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد .

ولقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن فعل خالد لم يكن من الاسلام ، ولعله رأى أنه بقية من بقايا الجاهلية .

أول ما فكر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يراب الصدع ، ويدأوى القلوب بالديات يرسلها ، فدعا على بن أبى طالب ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : يا على أخرج الى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، هذا أمر فى موضعه وفى وقته ، فان الجاهلية فى هذا الأمر قد بدت نائبة ظاهرة .

فخرج على ، ومعه مال كثير قد بعث به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال ، حتى اذا لم يبق شيء من دم أو مال الا وداه بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم على حين فرغ منهم ، هل بقى لكم دم أو مال لم يودلكم ؟ قالوا لا ، قال أعطيتكم هذه البقية احتياطا لرسول مما لا يعلم ولا تعلمون .

جاء على الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقص عليه ما صنع فقال أحسنت وأصبت ، ولكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يزال على الم واسى ، ولذا استقبل القبلة قائما شاهرا يديه ، حتى انه ليرى ما تحت منكبيه . » اللهم انى أبرأ مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات ، لقد أصاب فعل خالد قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه قتل وهو مبعوثه أبرياء .

وقد ورد ما يدل على الاعتذار عن فعل خالد الذى لا يقبل الاعتذار ، ولو كان عذر لأبداه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : قالوا انهم قالوا صبانا صبانا ، يريدون أسلمنا ، فظنهم قد كفروا فقتلهم ، وهذا كلام غير مقبول فى ذاته لأن سنده ضعيف ، وما كان له أن يقاتلهم على ذلك ، وقد تبين أنهم لا قدرة لهم على القتال ، فكيف يقتلهم انه ان صح ذلك لا يكون قتالا محمديا ، فقد أسرهم ، فلماذا يقتلهم فى السحر .

ان الأمر مهما يؤت من جوانبه لا يبرر فيه الا العمل الجاهلى ، وقد صرح بذلك خالد بن الوليد فى مجادلة مع عبد الرحمن بن عوف الذى كان يلومه .

قال ابن اسحاق قد كان بين خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف (الصحابى المهاجر أحد العشرة المبشرين بالجنة) كلام فى ذلك ، قال له عبد الرحمن بن عوف عملت بأمر الجاهلية فى الاسلام ، فقال خالد : « انما ثارت بأبيك ، فقال عبد الرحمن ، كذبت ، قد قتلت قاتل أبى ، ولكنك ثارت لعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر » .

عبد الرحمن بن عوف يقول قولة الاسلام ، وخالد يقول الثارات ، وقد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال خالد لعبد الرحمن بن عوف فقال لاثما لخالد ، مبينا له مكانه من أصحابه .

« مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ، ثم انفقته فى سنبل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته » .

نعم هم الأصحاب الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه فى بيعة الرضوان تحت الشجرة .

ومهما يكن حكم التاريخ فى عمل خالد جاهلية واسلاما ، فانه سيحكم لا محالة فى هذه الواقعة ، بان فيها جاهليته ان لم يكن كلها جاهليا ، ورحم الله عمر بن الخطاب عندما عزله فقد قال : « ان فى سيف خالد لرهقا ، ولعل كان أشده مما كان واضحا فى امر جذيمة » .

واننا اذ ننقد فعل خالد فى هذا نتابع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونراه ينطق بالحق ، واذا كان من الناس من كان ينقصد عليا وعثمان ومن يماثلهما ، فان لنا ان ننقد عمل خالد فى هذا ، وما كنا مبتدعين فى نقده ، لان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برىء من صنيعة ، ووضع له قعله مع المؤمن المهاجر احد العشرة المبشرين بالجنة واستنكره .

مدة اقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة

٦٠٦ — اقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية شهر رمضان يقصر من الصلاة فيصلى الاربعة اثنتين ، ويفطر ، لانه كان لا يزال مسافرا ، ولم يعد نفسه فى مكة المكرمة وطنه الاصلى وهو مكة المكرمة ، لانه لم يبق له دار تعد بيته الاصلى ، وقال ما ابقى لنا عقيل من دار ، وقد استمر يترخص رخصة المسافر . لانه لم يثو نية الاقامة ، فكان على سفره يترخص فى الصلاة والصيام معا .

وان رمضان قد انتهى وهو بمكة المكرمة ، فلم يكن محل رخصة الافطار انما كانت رخصة القصر قائمة وكان هو يؤم المصلين المقيمين . يقول بعد تمام الركعتين : « يا اهل البلد صلوا اربعا فانا سفر » ، وقد اختلف فى مدة اقامة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فروى انها خمس عشرة ليلة ، وروى انها ١٠ - اثنى عشرة ليلة ، وروى انها تسع عشرة ليلة ، والله اعلم بالصحيح الروايات .

احكام فقهية شرعت فى الفتح

٦٠٧ . اول حكم يتجه الفقهاء الى الكلام فيه امكة المكرمة فتحت عنوة ثم فتحت صلحا ، فكثيرون من العلماء يقولون انها فتحت عنوة ، فتكون ارضها خراجية ولا تكون عشرية ، لان الجيوش الاسلامية دخلتها فاتحة ، وقتل فيها قتلى ، فقتل نحو عشرين منهم نحو اثنى عشر من المشركين ، وبعض المؤمنين ، وكان يؤمن بعضهم بأمان خاص من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والايمان العام الذى قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان ملاحظا معنى خاصا ، وهو ان من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن اغلق بيته فهو آمن ، وبالمفهوم ان من روى فى غير بيته ، وفى غير واحد من هذه البيوت ، فانه مباح الدم الا بأمن خاص ، وهذا يدل على انهم حربيون ، والحربيون حتى يصدر الايمان لا يقال انهم فتحت ارضهم صلحا .

ولأنه لم يكن ثمة عقد صلح كان الأمان نتيجة له ، ولأنه لم تفرض جزية على أحد من أهل مكة المكرمة ، حتى يقال أنهم أعطوا الجزية ، وأن أرض مكة المكرمة لم تكن خراجية ، هذه وجهة نظر من قالوا أن مكة المكرمة فتحت عنوة .

ويرى الامام الشافعي مع كثيرين من الفقهاء أن مكة المكرمة لم تفتح عنوة ، بل فتحت صلحا مما سبق به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه أعطى الأمان لأهلها بقوله « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابي فهو آمن » فكان ذلك تأمينا عاما ، ثم صرح عند أمن الجميع ، وأباح دم التسعة الذين ذكرهم وأجاز قتلهم ، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة الشريفة وأنه لم يقسم أرض مكة المكرمة بين القانمين ولم يعتبر أموال أحد من أهلها غنيمة ولا نفلا من الأنفال ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل والقتال ، فكيف يقال بعد ذلك أنها فتحت عنوة ، أن المقياس الضابط بين العنوة والصلح هو أن يكون تسليم أهل البلدة في العنوة بقوة السيف والغزو ، وأما الصلح فهو التسليم من غير قتال ولا أهل ، ولقد سلم أهل مكة المكرمة من غير قتال ، وكان الأمان الكامل من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو قى قوله « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وانا نميل الى أن مكة المكرمة لم تفتح لا عنوة ولا صلحا ، فلم يتحقق أصل الفتح ، وإنما تحقق اللقاء بالمودة والرحمة من غير عقد ، بل بما هو أعلى من العقد ، وهو صلة الرحم بعد قطعها من قريش ، ولو أننا اخترنا الموازنة بين الرايين ، وكان لابد نختار أحدهما ، لاخترنا أنها لم تفتح عنوة .

مكة المكرمة وما يصوم فيها :

٦٠٨ — قلنا ان الله تعالى حرم القتال في مكة المكرمة ، ونقلنا لك قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك ، والآن سنذكر بعض الأحكام المتعلقة بمكة المكرمة فنقول .

ان الله تعالى حرم الصيد في الحرم الشريف مكة المكرمة وما حولها لمن أحرم بالحج ، ولقد قال تعالى في ذلك : « أحل لكم صيد البحر ، وطعامه ماعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حوما ، واتقوا الله الذي اليه تحشرون » .

ولقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحريم القتل والقتال في مكة المكرمة ، وذكر بعده محرمات أخرى فقال صلى الله تعالى عليه وسلم .

« ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بتحريم الله سبحانه وتعالى ، لا تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لى الا ساعة من الدهر ، لا ينفر صيدها ، ولا يعضد شوكتها ، ولا يختلى خلاؤها ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، فقال العباس الا الانذر » فانه لابد منه للدفن والبيوت ، فسكت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا الانذر .

هذا ما رواه البخارى ، وقد انفرد بروايته ، وحسب البخارى صدقا ، لانه صادق فى جملة ما رواه . وان أخذت عليه بعض الأحاديث لمقتها .

وبذلك تنتهى من بيان هذا الحديث : (١) بأنه يحرم الصيد فى الحرم كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لا ينفر صيدها وكلها حرم آمن من كل نواحيه » .

(ب) وبأنه لا تقطع أشجارها ، لتوجد جوا صالحا من جوها ، وان شوكتها لا يعضد ، ولا يحتجز خلاء لأحد فلا اقطاع فيها لأحد ، ولا تحل لقطتها الا بعد التعريف بها ، وذلك حكم عام لا تختص به مكة المكرمة ، فان اللقطة لا تحل الا بعد تعريف صاحبها ، ويكون حلها أن يتصدق بها ، فان كان اللاقط مستحقا للصدقة تصدق بها على نفسه .

وقد لوحظ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حرم على المقيم فى مكة المكرمة ما لا يكون ضروريا للقامة ، فنبه العباس أن الانذر محتاج اليه فى البيوت ، ومحتاج اليه فى دفن الموتى ، فذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتفكر عليه الصلاة والسلام ، ثم وافق ، ولعل الوحى قد نزل عليه بذلك ، فما كان كلامه اتباعا للعباس ، ولكن كان اتباعا لأمر ربه .

ومهما يكن من ذلك ، فان العباس بأدراكه الاسلامى ، فهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح من زرع مكة المكرمة ما لا يمكن الاستغناء عنه فقال مقاله ، فنزل الوحى بما قال ، فكان الوحى قد وافق نظره كما يذكر انه وافق رأى عمر فى بعض الأمور التى كان يؤخذ الرأى فيها .

فما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تابعا للعباس ، بل جاء الوحى بموافقة ، كما جاء الوحى بموافقة عمر كما ادعى فى بعض المواضع .

لقد حرم الله تعالى القتل فى مكة المكرمة افلا يصح القتل قصاصا ، ان لقامة الحد أو نحو ذلك ، قرر العلماء أن ذلك جائز ، فيجوز فيها القصاص ، وتتبع المصاة وعقابهم ، ولذلك قال عمرو بن سعيد اجابته لأبى شريح . قال

أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، ان الحرم لا يفيد عاصيا (أي لا يحمي عاصيا)
ولا فارا بدم • ولا فارا بجزية •

وهكذا فالمحرم القتل بغير حكم شرعى ، أما القصاص بحكم القصاص ،
فانه يجوز ، ولقد استباح خزاعة أن تأخذ بثأرها من بعض بنى بكر ، فقتلت
واحدا ، فنهاها نهيا قاطعا ، ودفع دية المقتول •

ولقد خاطب خزاعة عند ودى قتلها ، « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم
عن القتل ، لقد قتلتم قتيلا فودينه فمن قتل بعد مقامى هذا ، فأهله بخير
النظرين ، ان شاءوا قدموا قاتله ، وان شاءوا نعلقه لأى وثبة » •

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان أعدى الناس من قتل فى
الحرم أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية » صدق رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتل بالكبير فى زعمهم عدد من قبيل القاتل •

دية شبه العمد

٦٠٩ — أعلن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دية القتل شبه العمد ،
ذلك أن القرآن الكريم بين حكم القتل العمد ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا
كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنتى بالأنتى
فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف
من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم ، ولكم فى القصاص
حياة يا أولى الأبواب لعلمكم تنقون » •

بهذا النص الكريم ثبت أن عقوبة القتل العمد القصاص ، ولكن رخص
لولى المقتول أن يختار الدية بعد القصاص ، ويسمى الفقهاء الدية فى هذه
الحال قصاصا معنويا ، وكان ذلك تخفيفا من الله ورحمة لأنه قد يكون من
مصلحة ولى الدم أن يرضى بالدية أو العفو كما يقتل أخاه ، ولى الدم — وهو
الأب ، فإذا كان القصاص من غير فرصة الدية أو العفو ، خسر المكلوم ولديه ،
فكان هذا الترخيص بالدية أو العفو تخفيفا ورحمة •

والقتل الخطأ شرع القرآن الكريم عقوبته فثبت بالنص ، فقد قال تعالى :
« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة
مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو
مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة

الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليهما حكيما ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » . وهكذا ذكر الله تعالى عقوبات القتل . وخلاصة ما نصت عليه الآية :

أولا : أن تعدد القتل لا كفرارة له عن عقوبة الآخرة .

ثانيا : أن الدية في القتل تكون لأهله المسلمين أو من كان بيننا وبينهم عهد أما العدو فلا دية لأهله لأنهم يقيمون بها ، ويستعينون بها في حرب المسلمين .

ثالثا : أن تحرير الرقبة ضروري أو بدله ، وهو صيام ستين يوما ، وذلك لتكفير اثم الخطأ . لأنه مهما يكن ففيه اثم ترك الاحتران ، ولأن القاتل خطأ أفقد المسلمين نفسا ، فحق عليه أن يحيى نفسا بدل من تسبب في فقدانها ، وإحيائها بحريتها ، فالحرية لفانقدها إحياء .

هذه إشارات الى أحكام القتل في القرآن الكريم ذكرناها ليميز ما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو القتل شبه العمد ، ولم يذكر في القرآن الكريم حكم للقتل الشبيه بالعمد .

وذكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في فتح مكة المكرمة في المدة التي أقامها بها فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » إلا أن قتل العمد الخطأ بالصوت أو العصا فيه مائة من الإبل - وفي مرة قال - مغلظة فيها أربعون خلفه في بطونها أولادها ، وهذا النوع من القتل يسمى في عرف الفقهاء شبه العمد . وسماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العمد الخطأ ، وهو كما عرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القتل المقصود الذي يقع بغير آلة معدة للقتل ، كالقتل بالسوط أو العصا . أو الحجر ، الذي لا يقتل عادة ، وهو الذي يسمى في عرف القانون في هذه الأيام الضرب المفضي الى الموت ، وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن دية دية مغلظة ، وذلك لأن الدية في القتل نوعان ، فالدية المغلظة التي تناسب الجريمة وهي التي ذكرها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي مائة من الإبل فيها أربعون خلفه حوامل في بطونها أولادها ، أما الدية غير المغلظة فمائة من الإبل فقط من غير اشتراط أن يكون فيها هذه الأربعون الحوامل .

والقتل شبه العمد المضرب مقصود فيه ، فلم يكن خطأ جاء من غير قصد إنما القصد ثابت لأنه أراد الضرب ، ولكن الآلة غير قاتلة في ذاتها ، فهو

لا يعد قاصدا النتيجة ، وجاءت النتيجة غير مقصودة ، فشابه الخطأ من حيث لم يقصد هذه النتيجة ، وشابه العمد ، لأنه قصد الضرب ، وبإشره عامداً ، ولذلك سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « العمد الخطأ » فهو عمد في ابتدائه وليست نهايته متعمدة .

الميراث بين المسلم والكافر

٦١٠ — عندما دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ، لم يجد داراً من دور بني هاشم تعد بيتاً ، ولم يجد بيته الذي كان له قبل هجرته ، وقال عليه الصلاة والسلام هل أبقى لنا عقيل من دار ، وعد نفسه مسافراً ودل هذا على أنه إذا عاد الشخص الى موطنه الأصلي لا ينقطع عنه وصف المسافر الا اذا عاد الى بيته الذي كان يقيم فيه ، فان لم يجد بيته الذي كان يقيم فيه لا يعد مقيماً ، بل يعد مسافراً وذلك لأن مكة المكرمة بلده ، ولكنه لم يجد فيها راحة المقيم فكان مسافراً .

ولذلك أفطر في رمضان برخصة السفر ، وقصر الصلاة بهذه الرخصة .

ولقد أخذ الخارجون على سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه انه لم يقصر الصلاة في مكة المكرمة ، فبين أنه كان في بيته وبين أهله ، فلم يعد نفسه مسافراً ، فلم تكن الرخصة التي تسوغ له القصر ، ولعله وجده بيته الذي كان يقيم فيه قبل الهجرة ، وذلك كله على أساس أن القصر رخصة ، وليس عزيمة .

وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد قوله . ما ترك لنا عقيل من دار ، لا ميراث بين مسلم وكافر ، فكان هذا شرعاً يمنع ميراث الكافر من المسلم ، وميراث المسلم من الكافر ، وذلك صريح قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يتوارث أهل ملتين شيء » .

ولقد كان إجماع الفقهاء على ذلك الا الشيعة الامامية ، فقد قرروا منع ميراث الكافر من المسلم ، ولم يمنعوا ميراث المسلم من الكافر .

وكذلك كان يعمل بذلك معاوية بن أبى سفيان الذي ملك أمر المؤمنين باسم الخلافة واسم امرة المؤمنين ، ولذلك كان القاضي شريح رضى الله تعالى عنه يصدر إحكامه ذاكراً فيها أنه قضاء الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، الا اذا قضى في توريث مسلم من كافر ، قال : هذا قضاء أمير المؤمنين معاوية .

والحق ما قرر الفقهاء لأنه صريح قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . ولأن الميراث سببه النصرة بين الوارث والمورث ، وهى لا تتحقق إذا كان أحدهما غير مسلم ، ولأن الميراث ولاء ، ولا ولاء بينهما ، ولأن الوارث امتداد لشخصية المورث ، ولا يمكن أن يعد المسلم امتدادا لشخصية الكافر .

الولد للفراش

٦١١ — جاء هذا الحديث الصحيح فى وقائع فى مكة المكرمة عند فتحها ، ذلك أن عتبة بن أبى وقاص عهد الى أخيه سعد أن يطالب بنسب ابن عبد بن زمعة على أنه ابن عتبة ، وابن أخى ، ولكنه جاء من فراش ابن زمعة فتنازعه عبيد بن زمعة على أنه أخوه ولد فى فراش أبيه ، وسعد على أنه ابن أخيه بوصية عتبة أخيه . فوجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن صفاته الجسمية تشبه صفات عتبة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يحكم بالقيافة بل يحكم بالشرع ، فحكم لعبيد بن زمعة على أنه أخوه ، وأخو أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، وبذلك تبين معنى الحديث الولد للفراش والمعاشر الحجر .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمرها بأن تحتجب عنه ، ولو كان أخاها حقيقة ، ومن كل الوجوه ما احتجبت ، ولكن لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاط للتحريم ما أمكن التحريم فقد أمر أم المؤمنين سودة بأن تحتجب عنه احتياطا لما رأى من شبه بينه وبين عتبة مما يومئ الى أنه ابنه ، فاحتاط فى التحريم ، وحكم بحكم الله فى النسب ، والله تعالى أعلم .

قطع اليد

٦١٢ — روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير أن امرأة سرق فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة الفتح ، فاهم قريشا أن تقطع يد امرأة منهم فى سرقة ، وكانت مخزومية اسمها فاطمة ، ففزع قومها الى أسامة بن زيد ، وكان حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشفعونه ، فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال لأسامة أئتشفع فى حد من حدود الله ، فقال أسامة أستغفر الله يا رسول الله ، فلما كان العشى قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، ما بال أقوام يشفعون فى حد من حدود الله ، فانما أهلك الذين

من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وهكذا كانت الأحكام الإسلامية تطبق على القوى والضعيف ، ومن له نسب ، ومن ليس نسبه يحميه ، وإن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم أشار الى معنى اجتماعى فى قيام الأمم وقوتها ، فبين عليه الصلاة والسلام أن العدالة والمساواة أمام القانون هي التي تبني الأمم ، ولا ملك يقوم من غير عدالة ، بل انه ان بدا قويا ، فان المظلم الذي يكون فيه يهدم أركانه ويقسّوض بنيانه فلا قوة لأمة بظلم ، ولا علو لجماعة بغير العدل .

ولقد أمر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بقطع يدها ، ليعلموا أن قریشا العزيزة المتفاخرة بأنسائها هي والجميع على سواء ، وذلك ضرب فى جنب العصبية الجاهلية ، ولقد حسن اسلامها بعد قطع يدها ، وعلمت أن يدها طهرتها ، وسبقها الى الجنة ، كما قال النبی صلى الله تعالى عليه وسلم .

المتعة وتحريمها

٦١٣ — يذكر البخارى وغيره أن المتعة حُرمت نهائيا فى غزوة الفتح ، وكان فيها التحريم قاطعا ، ناسخا للترخيص فيها الى يوم القيامة .

وقد تكلمنا عن المتعة عند الكلام فى الأحكام التي ثبتت فى غزوة خيبر ، ونذكر هنا بأننا قلنا انها لم تبح ساعة من زمان ، وإنما هي من اتخاذ الأخدان سكّت عنه النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت موطن عقد حتى أعلن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم زوال العقود فيها بقوله عليه الصلاة والسلام وبالقُرآن الكريم القاطع المانع ، ولقد شرحناها فى موضعها من القول .

ولا مانع من أن نذكر ما قاله علماء الفقه والحديث هنا ، وإن كنا قد أشرنا اليه فيما مضى من قولنا .

يقول الحافظ ابن كثير فى تاريخه : « من أثبت أن النهى عنها فى غزوة خيبر ، قال انها أباحت مرتين ، وحرمت مرتين وقد نص على ذلك الشافعى ، وقيل انها حرمت مرة واحدة ، وهى هذه المرة فى غزوة الفتح ، وقيل انها أباحت وحرمت أكثر من مرتين .

وقيل انها أبيحت للضرورة ، فعلى هذا اذا وجدت ضرورة أبيحت وهذه رواية عن أحمد ، وهذا قول جاف عن الشريعة ، فما هي الضرورة ، وقد نسب هذا القول الى الامام ابن عباس .

المبايعة على الاسلام

٦١٤ قلنا ان الفتح لم يكن لقاء معركة ، وانما كان لقاء مودة ومحبة ، ومع المحبة والمودة كانت الدعوة الى الاسلام ، وقد دخل الناس في دين الله أفواجا أفواجا ، ان جاء نصر الله العزيز الحكيم .

وروى البيهقي أن الناس كانوا يبايعون على الاسلام رجلا كبيرا ، وغلمانا صغيرا اذا كانوا قد بلغوا حد الادراك ، وكانت تلك المبايعة على الدخول في طاعة الاسلام ، وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وكانت بيعة النساء على ذلك ، وكانت على أخذ العهد ، بالافعل شيئا من المحرمات :

وقال ابن جرير الطبري :

اجتمع الناس بمكة المكرمة لبيعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة ، لحدثها من صنيعتها بحمزة رضى الله عنه ، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحدثها (أو تستحيى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما صنعت بعمه الحبيب) .

فلما دنين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليبايعهن ، قال : بايعننى على الا تشركن بالله شيئا ، فقالت هند ، والله انك لتأخذ علينا مالا تأخذه من الرجال ، ولا تسرقن ، فقالت والله ان كنت لأصيب مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت ادري اكان ذلك علينا حلالا أم لا ، فقال أبو سفيان وكان شاهدا لما تقول : اما ما أصبت فيما مضى ، فانت منه فى حل .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وانك لهند بنت عتبة ، قالت نعم ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولايزنين ، قالت : يارسول الله وهل تزنى الحرة ، ثم قال عليه الصلاة

فقال لعمر رضى الله عنهن بايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم ، فبايعهن عمر . وكان النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يمس الا امرأة أحلها الله تعالى له ، أو ذات محرم منه . وما كان يبايعهن الا بالكلام ، ويقول . انما قولى لامرأة واحدة ، كقولى لمائة امرأة .

٦١٥ — ان نفقة الزوجة واجبة على الرجل ، ويقسمها الفقهاء الى قسمين نفقة تمكين ، ونفقة تمليك . والاصل نفقة التمكين ، ونفقة التمليك . وهى أن يقدر لها ما يكفيها بالمعروف ، ويملكه اياها نقدا ، أو طعاما ، أو انواعا ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة الفتح قرر نفقة التمكين فقد سأله هند قائلة : يا رسول الله ، ان سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى وبني ، فهل على من حرج اذا أخذت من ماله بغير علمه ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : خذى من مال أبى سفيان ما يكفيك ووليك بالمعروف . وروى البيهقي بسنده عن عائشة رضى الله تعالى عنها انها قالت : ان هند بنت عتبة قالت يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أخياء أو خباء أحب الى من أن يذلوا من أهل أخبائك أو خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أخباء أو خباء أحب الى من أن يعدوا من أهل أخبائك أو خبائك ، وأيضا والذي نفسى بيده ، يا رسول الله ، ان أبى سفيان رجل شحيح ، فهل على حرج أن أطعم من المال الذى له ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمعروف .

وهذا الحديث مهما اختلف صيغة رواياته يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن نفقة الزوجة واجبة على الزوج سواء أكانت غنية أم كانت فقيرة ، وسواء أكانت قادرة على الكسب أم عاجزة عنه ، لأنها جزاء قيامها بحقوق الزوج ورعاية بيته وأولاده وهى تقسيم فى نظام الحياة الزوجية المرأة تقوم بإدارة مملكة البيت ، والرجل يكسح ويعمل للحصول على الرزق ، ولذلك يقول صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع لهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

والثاني : الأمور التي تدل عليه الأحاديث الواردة عن هند وإجابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن على الزوج أن يملكها من ماله الذي تتمكن به من أن تطعم وأولادها بالمعروف في أمانة من غير خيانة .

ثالثها : أن نفقة الزوجية تثبت حقاً لها وأولادها من غير حكم من القضاء ، أو أمر من ولي الأمر ، بل تثبت بحكم الشرع على أنها حق من حقوقها بمقتضى الأحكام الشرعية لا بسبب الرضا ، أو القضاء ، وقد يكون تقديرها بالتراضي ، ولكن أصل الوجوب يكون بحكم الشرع هذا ما اقتضى الحديث بيانه ، وربما عاودنا القول في حجة الوداع .

حكم الهجرة بعد الفتح

٦١٦ روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قام بعد تمام فتح مكة المكرمة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا هجرة بعد فتح مكة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فأنفروا » ، وأن ذلك المعنى مستقيم بمنطق الوقائع ، فقد كانت الهجرة قبل الفتح من مكة المكرمة إلى الحبشة ، أو إلى المدينة النبوية فكانت قراراً من الاستضعاف في مكة المكرمة ، إلى حيث الأمن والاطمئنان وخصوصاً إلى يثرب ، حيث تتجمع القوى الإسلامية في المدينة المنورة مجاهدة داعية .

وأن الهجرة بعد أن صارت مكة المكرمة دار إسلام ، وبها البيت الحرام ، فإن الهجرة منها لتقتضى خلوها من السكان . وهم أهل البيت الحرام .

ولكن معنى ذلك أن تمنع الهجرة من أي بلد إلى أخرى ، ولكن لا يكون له ثواب المهاجر ، إذا كان الخروج مجرد طلب الرزق ، والثواب إن كان فلا يكون ثواب هجرة ، ولكن يكون ثواب طلب الرزق استجابة لقوله تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرة وسعة » .

ولكن يكون بعد ذلك هجرة يكون فيها ثواب الهجرة وهي مطلوبة غير منهي عنها ، بل يحاسب فيها المؤمن إن كان قادراً على الهجرة ، ولم يهاجر ، وذلك في حال أن يعيش مستضعفاً بين الكفار ، يسومونه الذل والهوان ، وإن خرج إلى أرض الإسلام كان التجمع القوى والوحدة الشاملة الكاملة .

ومن ذلك قول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة

فتهاجروا فيها ، فأولئك ماواهم جهنم ، وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » .

فان هذه الآية توجب الهجرة على كل مستضعف فى الأرض لتسكون الجماعة الاسلامية له قوة ، ويكون من انضمامه لجماعة المسلمين قوة بتفهام كل بعيد عنها اليها ، فان التجمع قوة فى ذاته ، وقوة عامة للمسلمين ، والافتراق مع الاستضعاف ذل لبعض المسلمين . وحرمان للمجموع من قوة التجميع .

ولذلك ورد أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم قال « الهجرة دائمة ، وقال عن اجتماع الكافر بالمسلم « لا تتراءى من مازت » .

فالهجرة التى انتهت هى الهجرة من مكة المكرمة .

اما الهجرة فلم تنته باطلاق ، ويقول فى ذلك الحافظ ابن كثير : انه يعرض حالة تقتضى الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب ، وعدم القدرة على اظهار الدين فتجب الهجرة الى دار الاسلام ، وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء . ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح ، كما أن كلا من الجهاد والانفاس فى سبيل الله مشروع ، ورغب فيه يوم القيامة ، وليس كالانفاق ، ولا الجهاد قبل الفتح فتح مكة المكرمة ، كما قال تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح ، وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » وانه بلا ريب الجهاد قبل الفتح ، لانشاء قوة للمسلمين ، الجهاد بعد ذلك لبقاء الاسلام ، والابقاء أسهل من الانشاء فكانت لذلك أفضل والله سبحانه وتعالى أعلم بموضع الفضل والخير .

ملكية أرض مكة المكرمة

٦١٧ — ملكية أرض مكة المكرمة أتجوز أم لا تجوز ؟ فى هذا الأمر نظر السلف الصالح ، واختلفوا فى اتجاههم الى اتجاهين :

أولهما : انها لا تملك ، وحجته أولا انها دار النسك ، ومعبد الخلق ، وحرم الله تعالى الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، وان الله تعالى يقول : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتنطفئ الناس من حولهم » وان أرض مكة المكرمة كلها حرم آمن ، وإذا كانت مكة المكرمة نسكا وحرما ، فهى معبد ، والمعابد لا تملك ، انما هى وقف على العباد لا تباع ولا توهب ولا تورث .

ثانيا : كل تعبير بالحرم أو نحو ذلك فهو تعبير عن مكة المكرمة - يقول الله تعالى : « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ، والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم » .

وترى ان مكة المكرمة كلها بظاهر النص واشاراته هى موطن العاكف ومزار البادى فكلها نسك ، لا يورث ولا يملك وحجة هذا الرأى أيضا : انه قد وردت الآثار صريحة بالنهاى عن بيعها ، وعن اجارتها ، وعن وراثتها ، ولقد قال عبد الله بن عمر من أكل أجور بيوت مكة المكرمة ، فانما يأكل فى بطونه نار جهنم .

وثالثا : ان عمر بن الخطاب نهى عن اتخاذ الأبواب فى دور مكة ، المكرمة وأمر بفتح الأبواب لمن كان لداره باب ، فلا يغلقه ، ليسهل أن يبيت العاكف فيه والباد ، كما صرح الله سبحانه وتعالى .

ورابعا : كتب عمر بن عبد العزيز على مشهد من التابعين الا تؤجر دور مكة المكرمة .

هذه حجج الذين قالوا انها لا تملك أرضها ، ولا تؤجر ، ولا تباع ولا تورث .

وحجة الذين أباحوا امتلاكها - ان الله سبحانه وتعالى اضاف ملكيتها الى اصحابها فقال تعالى : « للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم » وقال تعالى : « والذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم » .

وقال تعالى : « انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم » .

وفى هذه النصوص كلها اضاف الديار اضافة اختصاص الى المهاجرين :

وقد سأل سائل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أين تنزل غدا بدارك ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « وهل ترك عقيل من دار » وفى رواية من رباع ، فلم يقل انه لم يكن له من دار ولقد ألت ديار أبى طالب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى عقيل ابنه ، ولم يأخذ منها أخوة على شيئا ، لأن عليا كان مسلما ، فلا يرث من أبى طالب ، ولا يرثه الا عقيل ، ومن بقى على الشرك .

وأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عقيلاً أخذها ، ولم ينزعها من يده ، فدل ذلك على سلامة ملكيته بالميراث ، بل أقرها وسكت .

وقد كانت الدور تنسب لأصحابها ، فيقال دار أم هانئ ، ودار خديجة ، وغيرها ، وكانوا يتوارثونها كما يتوارث المنقول .

وقد باع صفوان بن أمية داراً لعمر بن الخطاب بوصف أنه أمير المؤمنين فاتخذها سجنًا ، يسجن بعض ذوي المعاصي ليمنع شرهم .

وهكذا كان يجري البيع والشراء في الدور ، والتوارث فيها .

ولقد وفق ابن القيم وغيره بين أدلة الفريقين ، بأن الأدلة المثبتة لجواز البيع والأجارة والميراث ، موضوعها البناء ، وأما الأرض فأنه لا يجري عليها البيع ولا الميراث ، وبذلك ينتهي الحكم المقرر بالنسبة لمكة المكرمة أن الأرض موقوفة على مصالح المسلمين ، والبناء مملوك لمن أقاموه ، وينتقل بالوراثة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سب النبي صلى الله عليه وسلم

٦١٨ — ثبت حكم سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغزوة ، لأن جارية سبت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلها سيدها ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم جاريته كانتا تنغنيان بسبب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأمر بقتلهما في ضمن من أهدر دمهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة الشريفة ، وعندما كان كعب بن الأشرف يسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله .

ولذلك كان الذمى إذا سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اعتبر نابذا للعهد .

وان سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفساد في الأرض ، وخروج عن حكمه ، والمفروض في كل من يكون تحت طاعة دولة أن يطيع منشاء هذه الدولة ، ومنشاء دولة الإسلام هو سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسببه خروج عليها .

وقد عرض سؤال غريب ، أننا قبلنا أن يبقى الذمى ، وهو يعبد النار ،

ويؤمن بالتثليث ، وغير ذلك مما هو خطأ في جنب الله تعالى ، فكيف لا نقبل عهد الذمى اذا سب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان هذا فى القياس غريب !!

ونقول فى الجواب عن ذلك : ان ذلك اعتقادهم ، وقد قبلنا ان ييقوا تحت ظلنا مع استنكار ما هم عليه وامرنا بتركهم وما يدينون ، ولم يكن فى ذلك البقاء افساد للنظام ، ولا هدم للعهد ، اما سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو متضمن امورا اخرى عظيمة ، فهو يتضمن مهاجمة الاسلام ، والا يترك المسلمون وما يدينون ، بينما المسلمون تركوهم وما يدينون ، وفوق ذلك يكون اعلانا للخروج على الطاعة والنظام .

غزوة هوازن

٦١٩ — أخذت القوى العربية المشتركة تتخاذل شيئاً فشيئاً ، وبعد أن فتحت أم القرى ، وتلاقت فيها القلوب على مودة ورحمة ، وعادت الأخوة بين ذوى الأرحام ، لم يبق من أهل القوة من العرب الا هوازن وثقيف بالطائف ، وكانوا ذوى بأس شديد فى البلاد العربية .

ولقد قال الصديق وهو ينطق بالحكمة : « لن نغلب بعد اليوم من مكة ، وقد صدق فى ذلك ، فأنهم قد صاروا كثيراً وقد توافر العدد ، وتوافرت العدة ، ولكن تكون الهزيمة من غرور أو ضعف فى النفوس ، أو عدم التنظيم الجامع . وقد صدقه ربه فى ذلك . فقال تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ اعجبككم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » .

وان الجيش الاسلامى كان اثنى عشر ألفاً ، وذهب الى هوازن ، والتقى بهم فى أوطاس فى العاشر من شوال من السنة الثامنة من الهجرة .

ونحب هنا أن نشير الى جيش الاسلام فى هذه الموقعة ، اهو جيش المؤمنين ، أم كان فيه من دخل الاسلام ، ولم يدخل الايمان فى قلبه ، كما قال تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » .

كذلك كان الجيش فيه الطلقاء ، الذين قال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « اذهبوا فانتم الطلقاء » ، وفيه ضعاف فى الايمان الذين كانت تحدثهم نفوسهم بأن ينقلبوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال أبو سفيان فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « اذن ليخزينك الله » وفيهم من هم باغتيال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكشف الله تعالى سره ، وفيهم والمعركة دائرة بين الجيشين فى حنين من هم بأن يقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفيه كثيرون من الأعراب الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، فكان جيش الاسلام ولم يكن جيش الايمان ، ألم تر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطى من غنائم حنين طائفة من كبار قريش أموالا كثيرة ، ليتألف قلوبهم كأبي سفيان ابن حرب ، وابنه معاوية ، وإن التأليف الى الاسلام دليل على ضعف الايمان ، لأنه يتألف قلوبا للايمان .

وإن الهزيمة لم تكن من أهل الايمان الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية ، بل نادى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمعركة عنيفة بينه وبين هوازن المهاجرين والأنصار ، فجاء منهم مائة حولوا الهزيمة الى نصر ، ولم يثبت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا عشرة هم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعلى بن أبي طالب ، والعباس الذي أسلم عقب بدر ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والفضل بن العباس ، وجعفر بن الحارث ، وربيع بن الحارث ، وأسامة ابن زيد ، وأيمن بن أم أيمن . فأين خالد وعمرو بن العاص ؟

والاية صريحة في أن الله ألقى السكينة والثبات على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين ، فهم الذين ثبتوا بعد أن اضطربت الصفوف بين الذين لم تكن لهم خبرة بقاء أهل الايمان وأهله ، ولقد دعا الله المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، فلبوا النداء . وسارع منهم مائة ، فقبلوا الهزيمة لقاء ، ثم نصرا بتأييد الله تعالى .

البتداء المعركة :

٦٣ . قلنا انه لم يكن من بين القوى العربية في البلاد من له قوة وشوكة بعد مكة المكرمة وقريش الا هوازن فاعتزم أن يعمل لاسلامهم ، بينما هوازن يفكرون في حرب النبي عليه الصلاة والسلام اتقاء لأنفسهم ، ومنعاً من دخول الاسلام اليهم . أو هجوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يهاجم الأمنين ولكن يرد كيدهم من يدبرون له حرباً ، أو يريدون كيدا .

ولقد جاء مالك بن عوف النضري ، فجمع الجموع . فاجتمع اليه من هوازن ثقيف كلها . واجتمعت نضر وجشم كلها وعدد قليل من قيس بن عيلا .

وكان في جشم شيخ له تجربة ودراية في الحروب ، وإن لم تكن له قوة على المنازلة لشيخوخته وهو دريد بن الصمة ، ولما أراد النفير مالك بن عوف ،

أخذ مع الجيش النساء والمال ليستثير حميتهم بنسائهم وأموالهم فيندفعوا
مقاتلين ليحموا نساءهم وأموالهم وذرائعهم .

وقد ساروا بدريد بن الصمة في شبه هودج ، فسمع أصوات الأموال
من النوق والحمير والنساء والصبيان ، فقال . مالى أسمع رغاء البعير ،
ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاة ، قالوا ساق مالك بن عوف مع
الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فقال أين مالك ؟ فجاء إليه فقال له :

يا مالك أنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده
من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار
الشاة ، قال سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم . قال ولم ذاك ؟
قال أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقا تل عنهم ، فأنقض به
(أى زجره) وقال راعى ضأن ، أى لست بمقاتل . وهل يرد المنهزم شيء ، أنها
إن كانت لك ، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك قضحت فى
أهلك ومالك .

ولكنه لم يطعه عوف بن مالك ، ولكن هوازن أطاعوه .

وقد ترامى الى سمع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم همس بما
دبروا ، فأرسل اليه من يأتيه بجملة أمرهم وأمره أن يدخل فى الناس ليعرف
حالهم ويأتية بأخبارهم ، فأقام فيهم ، حتى سمعوا ما أجمعوا عليه من حرب
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسمع من مالك بن عوف وهوازن
فجاء وأخبر الرسول .

فأخذ الرسول الكريم المدافع عن الحق يستعد لهم ويلقاهم . وذكر له
أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحا فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك ،
ولعله كان فى المدة التى جعل لنفسه الخيار فيها ، بين البقاء على ما هو
عليه والاسلام ، فقال له يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدا ، فقال
صفوان : أغصبا يا محمد قال عليه الصلاة والسلام ، بل عارية مضمونة
تردها اليك ، قال ليس بهذا من بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من
سلاح .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معه اثنا عشر ألفا ، منهم
عشرة آلاف دخل بهم ، وهو جيشه الأول ، ولم يكن كله من المهاجرين والأنصار ،
والفان من أهل مكة المكرمة الذين أسلموا بعد الفتح ، أو لم يظهر إسلامهم
إلا فى الفتح ، وفيهم أبو سفيان بن حرب . وكثير من أمثاله وخلف فى مكة

المكرمة عتاب بن أسيد من بنى عبد شمس ، ثم مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على وجهه وهو - هوازن ، أو حنين أو أوطاس ، وكلها أسماء لهذه المعركة .

ولا شك أن الجيش كان فيه ألفان قريبا عهد بالجاهلية ، كما أشرنا من قبل ، ولقد روى ابن اسحق بسنده عن الحارث بن مالك ، أن الحارث هذا قال خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية .

ولقد رأى الجيش شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط كانت قريش ومن حولهم يقدسونها ويأتون كل سنة يذبحون عندها تقديسا لها .

فراعمهم منظرها ، ورأوها سدرية عظيمة . ويقول الحارث بن مالك تنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط (أى شجرة عظيمة نقدها ، وننحر عندها) .

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله أكبر قلتم والمذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم الهة ؛ قال انكم قوم تجهلون انها السفن لتركب سنن من كان قبلكم .

كان من الألفين اللذين ضمهما النبی صلى الله عليه وسلم الى الجيش الذى غزا به مكة المكرمة ، من فيهم هذه العقلية وكلهم أو جلهم حديث عهد بالجاهلية لما يدخل الايمان فى قلوبهم .

الانهزام ثم الانتصار :

٦٣١ — تقدم جيش الاسلام الى وادى حنين ، وكان ذا أودية وطرق مختلفة ، فتقدم المسلمون فى واد من أودية تهامة ، وانحدر فيه انحدارا حتى أوغروا فى باطن الوادى ، وكان جيش هوازن قد سبقهم الى الوادى وادى حنين ، وكنوا فى شعابه ، وأحنائه ومضايقه .

وكانوا محميين مهينين ، وكان فى المتقدمين من جيش المسلمين على رأس بنى سليم خالد بن الوليد ، وما أن تقدم المسلمون وسط هذا الكمين المتعدد النواحي ، وهم فى عماية الصبح ، وهو الظلام الذى يسبقه ؟ .

وفى هذه الحال راع جيش المسلمين انقضا هوازن عليهم كتائب قد

تعددت ، فشدوا شدة رجل واحد ، فكانت المفاجأة مروعة عنيفة ، وانتثر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد .

وقد انحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال أيها الناس هلم إلى أنا رسول الله محمد بن عبد الله .

ولكن الناس يفرون ، وحمل بعضها على بعض ، وكان الفرار من غير المؤمنين الأولين قد أفسد نظام الجيش واضطرب الأمر ، واختلط الحابل بالنابل .

ولقد ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وثمانية من بني هاشم صدقوا وأمنوا ، وعلى رأسهم على بن أبي طالب ، والعباس ابن عبد المطلب ، ولا نعد ثبات على للقرابة ، بل لأن الثبات من شيمته أولا إذ هو فارس الاسلام كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ولايمانه ثانيا ، وقد يكون لقرابته ثالثا ، فهي في المرتبة الأخيرة من الأسباب .

وأما السبعة الباقون فانا قد نقول للمرحم دخل فيها ، ولكن لا نحرمهم من الايمان ، خصوصا العباس فقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم في أعقاب بدر وخرج مكرها في بدر ، فرضى الله تعالى عنه ، وفي الوقت الذي كانت فيه الكفة راجحة لهوازن ، وقبل أن يلبي نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون الأولون والأنصار جرت أمور تدل على سبب الهزيمة .

أولها : وحدتهم في الفكرة ، وإن كانوا على ضلال ، فالوحدة مع الشرك تثمر في الحرب أكثر من العقيدة السليمة عند تفرق الأهواء والمنازع ، ووجود ضعاف الايمان مع أقويائه .

لقد كان فيهم رجل على جمل أحمر معه رمح طويل ، فإن وجد هدفا لرمحه ضرب ، وإن لم يجد هدفا رفع رمحه أمام جيش هوازن ، والناس من خلفه يتبعونه .

ثانيها : أن التردد وروح الهزيمة ظهر من رجال من الألفين ، فتكلم ناس من جفاة أهل مكة المكرمة . قال ابن اسحاق ، لما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة المكرمة الهزيمة تكلم رجال بما في نفوسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » وتلك أمانيه ، وأخذ ينزل الطالع في الأزلام رجاء أن تنبئه في زعمه بأنها هزيمة ساحقة .

ولقد صرخ كعدة بن الحنبل ، وهو مع صفوان بن أمية الذى كان لا يزال مشركا ، اذ لم تمض المدة التى أخذ الخيار لنفسه فيها ، صرخ كعدة هذا الأبطال السحر اليوم ، فقال صفوان الذى لم يعلن بعد اسلامه لهذا الذى ظهر فى الجيش مسلما ، وقال : ما قال ، : قال صفوان : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن .

ثالثها : انه وجد من بين هذين الألفين من كان يحاول فى زحمة الاضطراب أن يغتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد قال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة أخو بنى عبد الدار قال ذلك الحاقدا ، اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه من حملة اللواء الذين قتلوا فى أحد ، وهو غير عثمان بن طلحة الذى أسلم مع خالد ، وأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة الشريفة ، ولم يعطه على بن أبى طالب مهلة ، اذ طلبه .

٦٢٢ — هذه ظواهر بدت بعد الانهزام وهى تعلن سبب الانهزام ، وهو أن الجيش الاسلامى الكبير كان فيه دعاة التردد والهزيمة من بين الألفين الذين كان الكثيرون حديثى عهد بالجاهلية ، ولما يدخل الايمان قلوبهم .

ونعود الى الانتصار بعد الهزيمة ، لم يزل قلب مؤمن ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم تؤثر فيه هذه الحال ، بل اشتد بأسه ، وقال : لقد حمى الوطيس ، وأخذ يدعو المهاجرين الأولين ليعلموا مكانه ، ويقول : مناديا لهم : أين أيها الناس ، ثم قال : يا عباس اصرخ ، وكان جهير الصوت : يا معشر أصحاب الشجرة ، يا معشر أنصار الله وأنصار رسوله ، يا معشر الخزرج ، فأجابوه لبيك لبيك ، فكان الرجل يذهب ليعطف بغيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيقذف درعه فى عنقه ثم يأخذ سيفه وترسه ، ويؤم الصوت ، حتى اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو مائة ولكنهم بقية من بقايا بدر ، وكما قال على بطل بدر وأحد ، والخندق : بقية السيف أبقي، عددا وأكثر ولدا ، والنبى صلى الله عليه وسلم راكب بغلته ، وأخذ بزمامها العباس ، وهو يقول ومعه هذا الجمع المؤمن :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

اللهم أنزل نصرك . ثم تجمعت الجموع المؤمنة حول النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول الآن حمى الوطيس ، عادت الجولة لجيش المؤمنين . بعد أن مازت الهزيمة الخبيث من الطيب .

رأى على كرم الله وجهه الرجل الذى يحمل الرمح الطويل الذى يضرب به الهدف ، ان وجده ، ووراءه جيش هوازن ، رأى على الرجل ، وهوى

اليه مع أنصاري ، ف ضرب على عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ، وثب
الأنصارى على الرجل ، ف ضربه ضربة أطن بها قدمه .

• وإذا كان كما يبدو الرجل حامل لوائهم فهذا لوائهم قد سقط .

والنبي صلى الله عليه وسلم يحث المؤمنين على القتال ، ويقول : من قتل
قتيلا فله سلبه ، وقد قتل بعض المؤمنين عشرين قتيلا من هوازن ، فكانت له
أسلابهم .

وكان يتناول زمام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس عمه ،
وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان ممن صبر في تلك المعركة .

وكان في المقاتلين في جيش النبي صلى الله عليه وسلم نساء مؤمنات ،
ومنهن أم سليم ، وكانت حازمة وسطها يبرد لها وهي حامل ، وكانت راكبة
جملا ، فكانت تخشى أن ينفر ، فكانت تأخذ حزامها مع خطامه .

وكانت ترى أن الذين انهزموا كانوا من دعاة التردد والهزيمة ، رآها
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها أم سليم ، فقالت نعم بأبي أنت وأمي
يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ،
فأنهم لذلك أهل ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يكفيك الله تعالى
يا أم سليم ، وكان معها خنجر ، فقال لها زوجها ما هذا الخنجر الذي معك
يا أم سليم ؟ قالت خنجر أخذته أن دنا مني أحد من المشركين بعجته فقال
زوجها ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم !! .

تحارب الناس ، واجتلدوا ، وكانت هوازن رماة ، ولكن رمى الله
بالمؤمنين في أوساطهم وهم يسلبون القتلى ، ويكتفون الأسارى .

يروى ابن اسحاق عن جابر بن عبد الله أنه قال والله ما رجعت راجعة ،
حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الانتهاء بالهزيمة الساحقة :

٦٢٣ — انتهت المعركة بالهزيمة الساحقة في حنين ، بأن لجأ المنهزمون
إلى أوطاس ، وذلك بعد أن دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع
المؤمنين حوله ، وكان دعاؤه هكذا : « اللهم انى أشدك ما وعدتني ، اللهم
لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا » ، ونادى أصحابه « يا أصحاب البيعة ،

يا أصحاب الحديدية الله الله الكرة على نبيكم ، يا أنصار الله ، وأنصار رسوله ،
يا بنى الخزرج يا أصحاب سورة البقرة « وأمر من ينادى بذلك ، وقبض قبضة
من الحمباء فحصب بها وجوه المشركين ، وقال شامت الوجوه ، فهزم الله
أعداءه ، وأعداء الحق من كل من حصبهم فيها ، واتبعهم المؤمنون يقتلونهم ،
وغنمهم الله تعالى أموالهم ونساءهم ، وذرائعهم »

وفر في هذه الهزيمة كبيرهم وقائدهم الذى كان يحثهم على أن يضربوا
ضربة رجل واحد ، وهو مالك بن عوف ، فروا فرارا حتى دخلوا حصن الطائف ،
وفريق آخر منهم فروا الى أوطاس ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية
لهم ، سنذكر أمرها ان شاء الله .

وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجمعون الغنائم من
السبايا والأموال ، وغيرها مما أفاء الله تعالى به عليهم ولقد حدث ابن اسحاق
بسنده أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يبحث بقايا المعركة من
غنائم ، وأثار انهزام رأى امرأة مقتولة ، قالوا ان خالد بن الوليد قتلها ،
ويظهر أنها ممن كن خلف المقاتلين ، ليدفعوهم للقتال ، كما دبر مالك بن عوف ،
وحذره منه دريد بن الصمة لما رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك قال
مستنكرا ، ماكانت هذه لتقاتل وقال لبعض من حوله : الحق خالدًا فقل له
لا تقتلن ذرية وعسيما .

ولم يذكر خالد في هذه المعركة الا في هذا الموضع منها . ورضى الله عن
عمر ان قال عندما عزله عن قيادة الجيش فى الشام : « ان فى سيف خالد
لرمقا ، »

أوطاس :

٦٢٤ انهزمت موازن هزيمة ساحقة ، ففروا الى الطائف ،
وتجمعوا للقاء النبي صلى الله عليه وسلم هنالك متجمعين .

وتوجه فريق آخر نحو أوطاس ، وعسكر بها ، وتوجه بعضهم نحو
نخلة ، وكانوا عددا ، فتبعت الجميع خيل المسلمين ، وكان ممن أدركوه دريد
ابن الصمة صاحب رأيهم ، ومن يصعدون عنه ، ولما خالف مالك بن عوف
رأيه كانت الفضيحة التى قدرها ونبه اليها دريد بن الصمة . اذ سبيت النساء ،
ولم يكن فى اخراجهن فائدة بل فضيحة ، اضطرتهم صاغرين للاستماع عند
محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد قال ابن اسحاق : بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى اثارهم
ابا عامر الأشعرى فأدرك هو ومن معه بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ،
فرمى أبو عامر الأشعرى فقتل ، وقد كانوا يحسنون الرمي ، وهو الذى حمل
الراية فى أول يوم حنين .

وقد حمل الراية من بعده ابن عمه أبو موسى الأشعرى فقاتلهم ، ففتح
الله تعالى عليه أوطاس وانتصر عليهم .

وقد جاهد من قبله ابن عمه جهادا قويا شديدا ، اذ لقي عشرة أخوة
فبرزوا واحدا بعد واحد ، حتى قتل تسعة ، وأسلم العاشر رغبا لا رهبا وحسن
اسلامه والتقى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان اذا لقيه يقول
شريد أبى عامر .

وقد سبى فى حرب أوطاس كثيرات كما سبى أكثر من فى حنين .

ويروى فى ذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا يوم
أوطاس سبايا لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم تأثموا من غشيانهن فنزل قوله تعالى : « والمحصنات من النساء
إلا ما ملكت أيمانكم » وان فى هذه الآية التى نزلت فى بيان المحرمات دلالة على
جواز غشيان الاماء المشركات بملك اليمين ولا يمسه أحد بعصمة الكوافر ،
ولكن يستبرئ أرحامهن بحيضة يحضنها .

هذا وسميت هذه الغزوة الكبرى بغزوة هوازن وحنين وأوطاس ،
الا انها كانت فى هوازن وفى يوم حنين ، واستمرت حتى كانت أوطاس .

ثمرات المعركة

٦٢٥ — جمع النبي صلى الله عليه وسلم غنائم هوازن ، وأرسلها الى
الجعرانة حتى يتتبع قلولها ثم ضم اليها ما غنمه من أوطاس من أموال وسبايا ،
وكان مجموع ذلك كثيرا ، لأن هوازن برأى مالك بن عوف قربت السبايا
والأموال من موطن الجهاد ، فكان مؤدى هزيمته .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبى والغنائم أن تجمع ، فجمع
ذلك كله ، ووجه الى الجعرانة ، وكان السبى ستة آلاف رأس ما بين نساء
ونذرية ، وعدد الإبل أربعة وعشرون ألفا ، وعدد الغنم أكثر من أربعين ألف
شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

وهذا على أن أكثر معاملتهم النقدية كانت بالفضة ، ولم يكن استعمالهم للدينار الرومانى كثيرا •

ولم يوزع هذه الغنائم بين الفاتحين بمجرد انهزامهم ، وجمعها ، بل استأنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن يأتوا مسلمين ، ولو بظاهر من القول ، تقريرا للنفوس ، فما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا يدعو الى الاسلام ، وخصوصا أن ما أخذ منهم ان لم يكن كل اموالهم ، فهو أكثرها •

ولكن مضى بضع عشرة ليلة ، ولم يجيء أحد •

فقسمها بين الفاتحين ، وصرف منها للمؤلفة قلوبهم ، فأعطى أبا سفيان ابن حرب تأليفا لقلبه ، وليدخله الايمان أربعين أوقية من فضة ، ومائة من الابل ، ولكنه لم يكتف بما أخذ بل طلب لابنه يزيد ، فقال ابنى يزيد ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أربعين أوقية ، ومائة من الابل ، ولكنه الطمع ، فقال ابنى معاوية فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطوه أربعين أوقية ومائة من الابل ، فمعاوية كان من المؤلفة قلوبهم ليدخلها الايمان ، فليذكر ذلك من يخضعونه أمام على أو يناصرونه •

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الابل ، ثم سأل مائة أخرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث ابن كلدة ، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفى خمسين ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين ، فقال فى ذلك شعرا ، فكمّل له مائة •

واختص من بعد ذلك زيد بن ثابت بأحضار الغنائم والناس ، ثم فرقها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الابل وأربعين شاة ، فان كان فارساً أخذ اثنتى عشر بعيراً ، وعشرين ومائة شاة وأنه مما يلاحظ أن المؤلفة قلوبهم الذين كانوا فى المعركة نظارة ينظرون ، أخذوا أكثر نسبياً من المجاهدين ، فبينما كان نصيب المجاهد فى الغنيمة التى استولى عليه بسيفه أربع نوق كان نصيب أبى سفيان المترقب مائة له ولكل واحد من أولاده بمائة ، وله أربعون أوقية ، ولكل واحد مثلها •

ولكن المؤمنين الصادقين فى ايمانهم ما كانوا ليعترضوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الهادى وهو المرشد ، وهو الداعى الى الحق ، والمؤلف الغاوب التى تتجه اليه ، ولكيلا تنحرف عنه ، وأولئك الذين ألقت قلوبهم مادون ، تجذبهم المادة أكثر مما يجذبهم الحق المجرد •

ولا يصح أن يفهم أحد أن ذلك شراء للإيمان ، فإن الإيمان لا يشتري بالمال ، ولكن يشتري بالاندفاع للحق ، ولكن أولئك أخذت منهم رئاسة ، وأخذ منهم سلطان ، وهم كما عرف من ماضيهم لا يذعنون للحق المجرد ، ولا للدليل ، وفي دخولهم للإسلام ، لا بد من تأليف قلوبهم للإسهام ، وما يكتسبه الإيمان بدخول الإيمان قلوبهم أكثر ما تخسر من مال ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لامام الهدى على بن أبى طالب « لأن يهدى الله تعالى بك رجلا واحدا ، خير من حمر النعم » .

ويجب التنبيه هنا الى أن كثيرين من أهل مكة المكرمة الذين يترددون فى الدخول فى الاسلام دخلوا فيه أفواجا أفواجا لما رأوا النصر المبين ، والتأييد المبين من الله سبحانه وتعالى .

موجدة الأنصار

٦٢٦ — روى ابن اسحاق بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أعطى من العطايا الكبار فى قريش ، وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى قال قائلهم ، لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة . فقال يا رسول الله ، ان هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم ، لما صنعت فى هذا الذى أصبت قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظيمة فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شيء . قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : فإين أنت من ذلك يا سعد . قال يا رسول الله ما أنا الا من قومي . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .

فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردوا ، فلما اجتمعوا أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووقف فيهم خطيبا ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى ، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم أتكم ضللا ، فهداكم الله بى . وعالة فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم !! قالوا لله ورسوله المن والفضل ، ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم الا تجيبونى معشر الأنصار ، قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما والله لو قلت ، لصدقتم ولصدقتم ، أتيتمكم فصدقتم ، ومخذولا

فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فواسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار
 في أنفسكم من لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوما ليسلموا ، وواكلتمكم الى
 أسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ،
 وترجعوا برسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) الى رحالكم ، فوالذي نفس
 محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من
 الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وواديا ، وسلك الأنصار شعبا وواديا لسلك
 شعب الأنصار وواديا ، الأنصار شعاع ، والناس دنثارلهم ، اللهم ارحم
 الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، قال أبو سعيد الخدري ، فبكوا
 حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضيينا برسول الله قسما وحظا .

وان الموجدة التي وجدوها ، ربما كان من اسبابها وجدوا أبا سفيان
 الذي قاتلوه أخذ العطايا العظيمة هو وأبناءه ، وهم الذين قاتلوهم مجاهدين
 في سبيل الله .

ولقد دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة لأبناء الأنصار
 وأبناء أبناء الأنصار فحققت عليهم الرحمة والرضا من الله ورسوله صلى الله
 تعالى عليه وسلم وكان من أبناء المؤلف قلوبهم من سبوا نساء الأنصار وأبناء
 الأنصار في واقعة الحرة ، فلعن الله تعالى ، ولعن من مكته .

الشفاعة في الغنائم بعد توزيعها

٦٢٧ . مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بضعة عشرة ليلة
 لا يوزع الغنائم ، رجاء أن يسلموا ، أو رجاء أن يطلبوها على عهد يتعهدونه ،
 ورجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليس رجاء محارب انما هو رجاء
 هاد مرشد ، يريد القلوب ولا يريد الحروب لذاتها .

ولما وزعها عليه الصلاة والسلام ، جاء اليه صلى الله تعالى عليه وسلم
 وفد من هوازن من أربعة عشر رجلا ، وعلى رأسهم عم رضاعى لرسول الله
 صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاءوا اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد فرغت أيديهم من أموالهم
 بسبب حمق عوف بن مالك ، وعدم طاعته لصاحب الخبرة من قومه ، ورأوا
 نساءهم سبايا .

جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه أن يمن
 عليهم بالسبى والأموال ، أي يرد عليهم كل ما أخذ منهم ويظهر أن النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم كان يميل الى أن يرد السبايا ، ولا يرد المال ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم « ان معى من ترون ، وأن الحديث الى أصدقته ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم » ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا .

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذا صليت الغداة ، فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) الى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين على رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) أن يرد سبينا » .

فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك :

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اما ما كان لى ولبنى عبد المطلب ، فهو لكم ، وسأسال الناس .

فقال المهاجرون والأنصار ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقال الأقرع بن حابس أما أنا وبنوتميم فلا .

وقال عبيدة بن حصن ، أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال العباس بن مرداس ، أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فقال العباس ابن مرداس لقومه : وهنتمونى .

وهنا نجد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الحر الكريم المحب للحرية يبين أنه يريد تحرير السبى ، فيقول صلى الله تعالى عليه وسلم « أن هؤلاء القوم ، قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم ، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان منكم عنده منهن شيء فطابت نفسه ، فبسبيل ذلك .

ومن أحب أن يتمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا .

فدى بذلك كل السبايا من مال المؤمنين ، وقد طابت نفوس الناس بذلك ، وقالوا قد طيبتنا رسول الله واتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد ذلك الى تعرف من رضى ومن لم يرض ، وقال أرجعوا حتى يرفع الينا وفاؤكم

أمرهم ، ففترقوا ، وردوا للنساء والأبناء ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة
ابن حصن ، فإنه أبى أن يرد عجوزا صارت إليه من السبي ، ثم ردها من بعد •

وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رد السبايا مكرمات ، وكساهن
كسوة كريمة ، فكساهن من القباطى ، وأعطى كل واحدة منهن قبطية ، ولسان
حاله يقول رحمة : مغلوبين مكرمين •

وقبل أن تنتهى من الكلام فى الغنائم ومالها ، وهى غنائم هوازن نذكر
حكمة الله تعالى فيها ، ورعايته لجيش الاسلام ، وحمايته من الضياع •

ذلك أن فتح مكة المكرمة لم ينل فيه المسلمون شيئا من الغنائم ، فما أقام
الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين بشيء منها تكريما
لها ، وحماية لأموالها ، فجاءوا اليه غير فاتحين بل جاءوا طائفين ساعين بين
الصفاء والروء ، وإن لم يحرروا احرام عمرة •

ولكنه جيش جرار ، يضم عشرة آلاف جاءوا من المدينة المنورة الى
مكة المكرمة ، فلا بد أن يحتاجوا ما يمون جيشا كبيرا ، فهؤلاء قطعوا الفيافي ،
والقفار ، وليسوا على مقربة من ديارهم حتى ينالوا منها ما يحتاجون اليه •

فساقهم الله تعالى الى هوازن ، وساق هوازن اليهم ، وقذف الله تعالى
الى قلب قائدها مالك بن عوف أن يخرج بمال هوازن جميعه ونسائهم ليقوى
الجيش وتجربى فيه الحماسة دفاعا عنهم ، فلم يغن عنهم من ذلك شيء ، وساق
الله تعالى بذلك سبايا كثيرا ، ومالهم كله ، فأخذ جيش الاسلام المال كله ،
ووزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما أراه الله •

أحكام شرعية فى غزوة حنين

العارية المضمونة :

٦٢٨ — جاء فى أول غزوة حنين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
علم أن عند صفوان بن أمية عارية فأعار الجيش الاسلامى دروعا وأسلحة ،
والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعهد بضمانها ، وقال عارية مضمونة ،
أفمؤدى هذا الضمان أن يردها عليه ، ولا يغتال لها الجيش الاسلامى ، أم المراد
أنها واجبة الإرجاع بقيمتها إن تلفت ، أو نحو ذلك •

اختلفت انظار الفقهاء فى فهم ذلك •

وخلصتها أن الفقهاء أجمعوا على أن الاعارة في يد المستعير كالوديعة لا تضمن إلا إذا تلفت بالتقصير في الحفظ ، أو استعمالها في غير ما أعييرت له ، فإن ذلك يكون تعديا ، والتعدي يوجب الضمان ، ولأن الاعارة تبرع ، والتبرعات لا تضمن أن تلفت إذا كان التلف بالاستعمال الذي أعييرت له •

وإن الشافعي رحمه الله قال أن الشروط الظاهرة في العقود توفى كما نص عليها ، فالعارية تقبل الضمان إذا اشترط الضمان ، وتكون مضمونة بالشروط ، ولا تكون كالغصب لأن الغصب مضمون بالتلف دائما ، لأن اليد فيه يد معتدية ، وهي توجب الضمان عند التلف •

أما العارية فالأصل أنها تكون أمانة في يد من أخذها ، إذ لا يكون اعتداء ، ولكن يجوز أن يتفق الطرفان على الضمان ، خصوصا إذا كانت الاعارة لأمر يكون مظنة التلف كأسلحة لحرب ، أو طاحونة للإدارة ، فإن التلف يكون مظنونا وقريبا •

وقال أبو حنيفة ومالك وبعض جمهور الفقهاء : أن العارية لا تضمن ولو بالشروط ، لأن ذلك قلب لحقيقة معناها ، إذ هي وديعة في معناها ، والوديعة لا تضمن ، فهي لا تضمن ، ولكن يجب أن يلاحظ أن ثمة فرقا بين الوديعة والعارية ، فالعارية تستعمل باذن المالك ، والوديعة لا تستعمل ، بل استعمالها بغير إذن صاحبها ، يخرج من معنى الوديعة إلى معنى آخر ، وهو العارية ، وبغير إذن المالك تتحول اليد إلى يد معتدية •

وإن أولئك الفقهاء الذين قالوا : أن العارية لا تكون مضمونة ، قالوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرد الضمان برد العين ، أو بقيمتها أن تلفت إنما أراد أنها مؤداة أي مضمون أن تعاد إلى صاحبها أن سلمت ، فإن تلفت ، لا يتصور ضمان قيمتها ، وذلك لأن العبارة رويت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه قال مؤداة في بعض الروايات ، فهذا يدل على أن المراد من كلمة مضمونة في الرواية الأولى أن تكون مؤداة ، والضمان على الأداء ، لا على التلف ، ولأن كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان إجابة لصفوان ، إذ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أغصبا - يا محمد ، فتضمن كلام صفوان الاستفهام عن أن تغتصب عينها ، فكانت إجابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليها مؤداة ، أننا لا نغتصبها ، بل نأخذها على أنها عارية ترد ، فكان الأقرب أن تفسر بأنها مردودة أو مؤداة ، لأن السؤال لم يكن عن الوصف ، بل كان عن أصل الأخذ عن العين بالرضا أو بالكره ، وعن نوعه أعلى وجه الملكية أم على وجه العارية •

وفوق أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصف الضمان بأنه للعين ، ولا يتصور ذلك الا بردها ذاتها فليس الكلام فى ضمانها اذا تلفت بأداء قيمتها ولهذا كان الواضح هو ضمان ردها .

وفى أحكام الاتلاف فى الحرب ، أنه يجوز اتلاف كل ما يكون اتلافه مضعفا للعدو ، اذا كان موضوع ذلك اداة من ادوات الحرب يملكونها ، قتل الحيوان الذى يركب فى الحرب فقد عقر على كرم الله وجهه الجمل الذى كان يركبه من اتخذ رمحه كاللواء ، يقتل بالرمح ان وجد من يقتله ، ثم يرفع الرمح من بعد ذلك كاللواء ، فجاء على ، وضرب الجمل ، قسقط الرجل فتلقاه بعض الانصار فقتله .

وهذا يدل على أنه يباح من اتلاف الحيوان ما يكون اداة حرب ، ولا يعد ذلك تعذيبا للحيوان بقطع طرف من أطرافه فى ميدان القتال .

عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن

٦٢٩ — للمؤلفة قلوبهم فى الزكاة يثبت بقوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » .

هذا سهم مقرر فى الزكاة ، وهو ينفق فى سبيل تأليف القلوب ، لتؤمن ويؤمن قومها من ورائها ، ولايواء من يسلم ، فيجرد من ماله أو يقطع من أهله ، فيعان ، ولذلك قرر بعض العلماء أن يصرف سهم المؤلفة قلوبهم فى الدعوة الاسلامية .

ولذلك جعل له سهم قائم فى الزكاة ، ليكون لهم مورد دائم مستمر ، فلا يقتصر على أن يكون موردها الغنائم التى ليس لها صفة الدوام .

والعطاء الذى أعطيه المؤلفة قلوبهم هو من الخمس الذى وضع تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنفسه ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الذى نص عليه فى قوله تعالى : « واعلموا انما غنمنا من شيء ، فان لله خمسته وللرسول ولذوى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ان كنتم امنتكم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .

أكان عطاء المؤلف قلوبهم من هذا الخمس ، أم كان من أربعة الأخماس العامة .

قال الشافعي ومالك رحمهما الله تعالى هو من الخمس الذي يخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأربعة الأخماس قد وزعت على المحاربين ، ولأن أربعة الأخماس صارت حقا للفاتحين ، ولا يؤخذ شيء من صاحب حق إلا بعد استئذانه ، ولم يستأذنهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن هذه العطايا من كل الخمس الذي كان تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه مقسم على خمسة أحدها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ ذلك من نصيبه هو .

ويرى الامام أحمد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عد ما أخذه هؤلاء من الأنفال وهي لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكما قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله ولرسوله » .

وكان الغنائم لا تقسم ابتداء ، وليست حقا ثابتا للفاتحين بمجرد الفتح ، وإنما هي حق لهم بعد أن ينفل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرى نفعه تقوية للدعوة ، وتأييدا للقلوب وتقريب البعيد ، وأنه يجب أن يعلم أن الحروب في الاسلام ما كانت لجمع الغنائم ، وإنما كانت لدفع الاعتداء وفتح الطريق أمام الدعوة ، فما يكون للدعوة بتأليف القلوب ، أجدى من غيره ، وأن الأنفال يكون التصرف فيها قبل توزيع الغنائم ، إنما الغنائم بعد الأنفال والأنفال يكون التصرف فيها لمصلحة الدعوة الاسلامية .

وهل هذا يكون الذي أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنفال فهل يكون لغيره من أمراء المسلمين وأئمتهم ، ونقول في الإجابة عن ذلك ، أن ذلك يجوز أن كانوا كآبى بكر وعمر وعلى ، وعمر بن عبد العزيز فلهم ذلك ، لأن عدالتهم ودينهم يمنعانهم من أن يتخذوا أنفالا لغير المصلحة الحقيقية التي تعود الى مصالح الاسلام والمسلمين ، والدعوة الحق الى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وغير هؤلاء الذين يكونون على غير ما هم عليه من العدل ، والإيمان ، يتخذون ذلك لهواهم ، وتقريب الصديق ، وإبعاد المستحق .

وما قرره أحمد وعلماء السنة من أن ذلك كان قبل التخمين ، يؤيده ما جاء على السنة الأنصار من المودة والمعتبة ، لأن هذا العطاء لأبى سفيان ولديه ، وقد كان ينقص من أنصبة المستحقين في أربعة أخماس الغنيمة ، ولكن إيمانهم مكنهم من أن يعرفوا مقصد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

تبادل الرقيق بالحيوان

٦٣٠ — عندما اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى السبايا من هوازن الى اهلهم ، بعد ان دخلوا فى الاسلام ، وكان العدد كثيرا ، أربعة آلاف ، أطلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من فى يده وبنى عبد المطلب من السبايا ، وعرض على المؤمنين أن يفعل ما فعلوا ، فرضى باتباعه المهاجرون الأولون والأنصار ، وغيرهم ممن لم يرتضوا بإجازة ما أجاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم إطلاق سراح النساء والأبناء على أن يكون لكل رقبة من السبايا ستة نوق مما يجيء فى المستقبل من غنائم ، فرضوا جميعا الا عينية بن حصن فقد أبى حتى هذا وتلكا ، ثم رضى بأن يطلق سراح عجوز كانت عنده ، ولم يكن عنده غيرها ، فهل كان هذا الذى فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاوضة •

لقد تكلموا فى هذا فبنوا عليه النظر فى أمرين :

أولهما : جواز بيع الحيوان بالحيوان مع التفاضل فى القدر والنسيئة ، كما يجوز بيع الرقيق بالحيوان ، أو شراء الرقيق بالحيوان •

وثانيهما : جواز التأجيل الى أجل غير معلوم ، إذ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه يعطيهم عن كل رقبة من السبايا الستة من النوق فى الغنائم المقبلة •

أما بالنسبة للأمر الأول ، فقد قالوا — أنه يجوز بيع الحيوانات بعضها ببعض متفاضلا ولا يشترط التسليم ، ومنع ذلك بعض الفقهاء على أنه من ربا البيوع التى لا يجوز فيها التفاضل عند اتحاد الجنس ، ويجب القبض مع جواز التفاضل عند اختلاف الجنس لأنها مضمونات ، وقد أخذوا هذا من آثار أخرى •

وأما تأجيل أحد العوضين الى أجل غير مسمى ، ولا معين ، فقد أجازاه أحمد بن حنبل وطائفة من علماء السنة إذا تراضى عليه الطرفان ، إذ لا محذور فى ذلك ، ولا عذر ، وكل منهما قد دخل على بصيرة ورضا •

وقال أبو حنيفة أن ذلك يفضى الى المنازعة ، وإن كل ما يؤدى الى المنازعة يكون باطلا •

وإن تخريج عمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أنه بيع فيه نظر ، فلم تكن مقايضة بين القائمين وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

انما كان هناك عتق فى نظير مال ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم أن يطلقوا ما فى ايديهم من السبايا ، وأن يعرضهم عن هذا العتق بمال تكون قيمته هى قيمة من اعتقوهم فى نظر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ارتضوا ما قدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو عتق بشرط وليس ببيع .

وان العتق هو تبرع مالك الرقبة للرقبة نفسها ، لأنه اعطاء الحرية فهو هبة بشرط. العوض والهبة (والعتق بالذات) يتسامح فيها بما لا يتسامح فى غيره ، وما كان العوض المؤجل ثمنا ، حتى تكون جهالته مفضية الى المنازعة ، انما هو عوض فى عتق فلا يؤدى الى التنازع ، ولذلك نقول انه ما كان ثمة حاجة الى مناقشة كونه ربويا ، أو غير ربوى ، وكون التأجيل الى أجل مجهول جائز أو غير جائز ، فان تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعيد عن ذلك كل البعد .

غزوة الطائف

٦٣١ — تتبع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هوازن حيثما سارت سار وراءها ، سار وراءها الى اوطاس ، اذ دخلتها هوازن وتحصنت بها ثم ساروا الى الطائف ، وهى ذات حصون قوية ، وهم أشداء ، ورماة ، فسار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما علموا بمسيرته تحصنوا بحصونهم ، وجمعوا طعاما وزادا يكفيهم سنة ، بحيث يصبرون اذا طال الحصار عليهم ، فيجهد أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يجهدون وهم فى حصونهم يرمون ولا ينالون ، فيقتلون ولا يقتلون .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما اتجه الى حصونهم أشار عليه سلمان الفارسى بالمنجنيق يرمى بها حصونهم ، فيأتيها من قواعدها ، فتتهار قوة تحصينهم .

وصنع لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دبابات من خشب تقتحم عليهم حصونهم .

مضى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى حصون الطائف ، فرموا جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار النبل ينزل على المؤمنين كأنه جراد ، فقتل من المسلمين عدد قيل انه بلغ اثنى عشر شهيدا أو يزيد ، فأوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكان بعيد عن رمى النبل ، ولكنه يريد ان يعرف حالهم فى الداخل .

فنادى منادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، من خرج منهم ،
ودخل جيش المسلمين من العبيد ، فهم أحرار •

فخرج نفر من العبيد ، وقالوا حرّيتهم بحكم الشرع ، وبحكم ذلك النداء
المحمدي الحر الكريم ، ولقد تعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحوالهم ،
وعلم أن عندهم الزاد الذي يكفيهم سنة •

وأخذ عليه الصلاة والسلام يعمل على أن يخرجوا من الحصون مختارين
فأمر بالنخيل أن يقطع ، وبالكرم أن تجتث - فأرأوا أن ذلك ضياع لثروتهم ،
وقالوا ما يكون لنا أن قطعتم كرومنا ونخلنا ، وقال مناد من بنى ثقيف قد بعثوه
يقول ، لا تفسدوا الأموال ، فانها لنا أو لكم •

هز ذلك نفوسهم ، وأضعف عزيمتهم ، وخصوصا أن عبيدهم أخذوا
يتركونهم ، وكان العبد الذي ينال الحرية يدفعه النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم الى بعض المسلمين يعولونه ، حتى ينال خيرا فى حرّيته ، واستمروا
يقاومون مع ضعضة نفوسهم والمسلمين ينالون من حصونهم ، حتى انهم
ليحمون الحديد ، يرمونه على الدبابات الخشبية ، ليحرقوها ، ويخرجوا
الرجال من تحتها •

وقد كان بين الطائف وقريش رحم ومصاهرة •

ولذلك تقدم ناس من قريش لثقيف يمنعونهم من المطالبة ، فالنذبة
ليس، لهم ، وإن العاقبة للمتقين •

تقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يطالبون ثقيفا بأن تؤمنهم
ليتمكنوا من كلامهم ، وقد لانت شكيمة ثقيف ، وقبلت التفاهم ، فأمنوهما ،
تقدم أبو سفيان ودعوا نساء من نساء قريش وكنانة ليخرجن اليهما ، ولكنهما
لم يجبن خشية السبى كما كان لنساء هوازن ، منهن أمنة بنت أبي سفيان •

فلما أبين عليهما قال لهما الأسود بن مسعود يا أبا سفيان وبالمغيرة ألا
أدلكما على خير مما جئتما له ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
نازلا بواد يقال له العقيق قال ابن مسعود هذا انه ليس بالطائف مال أبعد
رشاء ، ولا أشد مؤنة ، ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود ، وإن محمدا أن
قطعه لم يعمر أبدا ، فكلماه ، فليأخذ لنفسه ، أو ليدعنه لله وللرحم فان بيننا
وبينه من القرابة ، ما لا يجهل •

لان القوم ، وثقيف لا يلينون الا اذا أرادوا أن يباعدوا بينهم العنف ،

ويريد السلم ، ولقد وجدوا أن الحصار عضهم ، وإن كانت لديهم المؤن والذخائر ، فهو حبس كيفما كانت صورته ، وإن جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ أموالهم من الذخيل والكروم ، ويأتى حصونهم من قواعدها وهم لا قبل لهم ، فنادوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحم والقراية ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصم أذانه عن نداء الرحم والقراية ، وهو الذى يأمر أن يوصل ما أمر الله تعالى بوصله .

وقد رأى الاسلام يدخل فى الطائف من مكة المكرمة وما حولها ، وإن بعض بنى ثقيف دخلوا فى الاسلام وأكثرهم مال اليه ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا داعيا الى الحق والى صراط مستقيم ، وإن اللين مع من عندهم عنف كثيف قد يكون سببا فى أن تصفى قلوبهم الى الاسلام ، بينما العنف يعمى قلوبهم ويغلظ أكبادهم ويزيدهم عنادا .

فراى عليه الصلاة والسلام استجابة لداعى الرحم الذى اثاروه ، والقراية التى تناودوا بها ، والاصلاح فى الأرض أن يرحل ، وقد غاب عن المدينة المنورة أكثر من شهرين .

وإن ذلك كان فى شوال ، وإذا استمر فانه سيجيء ذو القعدة وهو من الأشهر الحرم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقاثل مهاجما فى الأشهر الحرم ، التى هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان .

وموقف للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان موقف هجوم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يخالف أمر الله تعالى باحترام الأشهر الحرم .

لذلك أخذ فى الرحيل عائدا الى المدينة المنورة بعد أن حاصر الطائف سبع عشرة ليلة ، وفى رواية سبعا وعشرين ليلة ، وقال ابن اسحاق : مكث بضعا وعشرين ليلة .

اتخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الاهبة فى الرحيل ، وذكر أن الله تعالى لم يأذن له فى الطائف ، وذكر ذلك لخويلة بنت حكيم بن أمية .

فخرجت خويلة وذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما حديث حدثتنيه خويلة ، زعمت أنك قلته . أفلا تؤذن بالرحيل ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بلى ، فأذن عمر رضى الله تعالى عنه بالرحيل .

رحل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى يثرب عائداً من تلك الرحلة المباركة غير مهزوم ولا مغلوب ولا عاجز ، ولكنه قادر ومنفذ لحدود الله ، غير مقاتل مهاجماً فى الشهر الحرام ، مراعياً الرحم والقربة ، وأخذاً القوم الى الاسلام فى رفق وغير غلظة ، وخرج من بين ظهرانيهم ، ليلقى وفد هوازن وثقيف فى المدينة المنورة بين ظهرائى المسلمين .

ولما ارتحلوا وأخذوا يستقيمون على الطريق بعد هذا الفتح المبين ، والنصر المؤزر ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « آيئون عابدون لرينا ، حامدون » .

وقيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ادع على ثقيف ، فقال نبى الرحمة : « اللهم اهد ثقيفا وآت بهم » .

ويروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أتبعه فى أثره عروة بن مسعود حتى أركه قبل أن يدخل المدينة المنورة مسلماً ، وسأله أن يرجع الى قومه بالاسلام فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان فيهم ، فقال عروة يارسول الله : أنا أحب اليهم من أبكارهم ، وكان حقيقة مجاباً مطاعاً فيهم ، فخرج يدعو قومه الى الاسلام رجاء الا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف عليهم من مكان مرتفع يدعوهم الى الاسلام رموه بسهم فقتله ، فقال رضى الله عنه : كرامة أكرمنى الله تعالى بها ، وشهادة ساقها الله تعالى الى ، فليس فى الا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم فدفنوه .

ويظهر أن قتلهم عروة ، وهو المحبب فيهم ، قد أثر فى نفوسهم ، وقد رأوا أن العرب قد دخلوا فى طاعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم وحدهم الباقون على عدائه ، ولا قبل لهم به ، ولا بحرب من حولهم من العرب الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلموا .

لذلك أجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « فكلموا عبد بن ياليل ، وكان فى سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يجيبهم ، وقد رأى ما صنعوه مع عروة ، وكانوا هم الذين أرسلوه ، كما يحاولون إرسالهم ، فخشى أن يقع به ما وقع بصاحبه ، فقال لهم عبد ياليل ابعثوا معى وفداً فبعثوا معه ستة ، ووصلوا المدينة المنورة ، فلقيهم المغيرة ابن شعبه ، ولنترك الكلام فيما صنعه الوفد ، وما قاله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام فى الوفود من بعد ذلك فى وقتها من الزمان » .

٢٠٥٧ -

(م ٦٧ - خاتم النبیین)

وان كلامنا الآن فى وفد ثقيف كلام مبتسر ، ذكرناه لنبيين ان ترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير عاجز ، كان الحكمة العالية التى الانت قلوبا بعد شماسها ، حتى انه يروى ابو داوود ان العيلة الأحمسى واسمه صخر ، أخذ على نفسه عهدا وذمة أن يحمل ثقيفا على مبايعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وقد استطاع أن يلين قلوبهم وأن ينزلهم على حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد كتب صخر هذا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له : « أما بعد فان ثقيفا قد نزلت على ذلك يارسول الله ، وأنا مقبل بهم ، وهم فى خيلى » .

عندما جاء ذلك الكتاب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سر سرورا لا حد له ، لأنهم جاءوه مسلمين ، ولم تكن حرب تخرب الديار ، وأمر بأن ينادى الصلاة جامعة ، فقرأ على المسلمين كتاب صخر ، ثم دعا لقبيلة أحمس التى منها صخر هذا ، وقال عشر مرات : « اللهم بارك لأحمس فى خيلها ورجالها » .

ولقد جاء صخر هذا ببعض ثقيف ، ولكن لم يكن هو الوفد الذى جاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ذكرنا أننا سنتكلم فى وفد ثقيف من بعد عند الكلام فى الوفود فى سنة الوفود .

عود الى غنائم هوازن

٦٣٢ — تكلمنا فى توزيع غنائم هوازن ، ولعلها كانت أكبر غنائم غنمها من العرب ، أو لعلها تماثل غنائم خيبر أو تقاربها ، وفعلنا ذلك عقب هزيمة هوازن ، ولكن لم نسر سيرا زمانيا ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يوزعها الا بعد الانتهاء من حرب الطائف ، فلم ننتظر حتى يجيء الزمان الذى وزعها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، بل ذكرنا توزيعها فور الانتهاء منها .

والآن نبين زمان التوزيع ، وان كان متأخرا عن الغزوة لراى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد ذكرنا ما أعطاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، المؤلف قلوبهم ، ولم يكن فى المؤلف قلوبهم أحد من بنى عبد المطلب قط ، فلم يكن فيهم المباس ،

ولا أولاد الحارث بن عبد المطلب ولا غيرهم ممن ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم هم وأبو بكر وعمر ولم يثبت أحد غيرهم ، ولم يجد أحد من المهاجرين في نفسه شيئا ، لأنهم يريدون عز الاسلام ، ولا يريدون مالا ولا نسبا بل يريدون عزة الاسلام ، فلم يجد في نفسه أبو عبيدة ، ولا عبد الرحمن بن عوف ، ولا غير هؤلاء .

ولكن وجد الأنصار في أنفسهم موجدة لا من أجل المال ، ولكنهم حسبوا أن النبي صلى الله عليه وسلم ، نسيهم بقومه إذ التقى بهم ، فقد كان الأنصار الذين آووا ونصروا لا يريدون المال ، ولكن يريدون الرسول عليه الصلاة والسلام ذاته ، يريدونه هم والمهاجرون ، يريدون بقاء محبته لهم .

هؤلاء الأنصار كانوا أطهارا حتى في موجدتهم ، ولكن وجد ناس ليسوا مهاجرين ولا أنصارا ، وليست الدعوة الاسلامية في حسابهم ، ولا تأليف القلوب التي لم يدخلها الايمان في نفوسهم قد تكلموا في هذا ناكرين مما يدل على أنهم لم يكونوا أنصارا بل كانوا منافقين ، وعدهم القرآن الكريم منهم .

لقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم المؤلفة ، فقام ذو الخويصرة من بني تميم ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد رأيت ما صنعت في هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت ، قال لم أرك عدلت ، فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنها غضبة الرفيق الحكيم ، فقال ويحك اذا لم يكن العدل عندي ، فعند من يكون .

فقال عمر بن الخطاب ألا تقتله ؟ فقال الهادي الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، دعوه فإنه سيكون له شيعة ، يتعسفون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .

وان قائل هذا القول لا يمكن أن يكون مؤمنا ، كما يبدو من لحن قوله ، فهو يقول في ندائه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله ، يا محمد ؟ ولم يقل يا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكذلك قال قوله واحد مثله ، فقد رأى بلالا في ثوبه مال يوزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : أعدل يا محمد فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ويليك من يعدل اذا لم أكن أعدل » ، لقد خبت وخسرت اذا لم أكن أعدل .

فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، أفاقتل هذا الرجل ؟ فقال الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم « معاذ الله أن يتحدث الفاس

انى اقتل اصحابى ، ان هذا واصحابه يقرءون القرآن الكريم لايتجاوز حناجرهم ،
يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية » •

ولقد بلغه ان بعض الناس عندما أعطى رسول المؤلف قلوبهم قال هذه
قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم ، قال « رحم الله تعالى موسى ، لقد أودى بأكثر من ذلك » وهذه
اشارة الى قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آتوا موسى
فبراه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها » •

وان هؤلاء أساس كلامهم ، وان كنت أحسب أنهم جميعا لم يدخل
الايمان قلوبهم ، وهم من الأعراب الذين قال الله فيهم : « الأعراب أشد كفرا
ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » •

لقد فهموا خطأ طوعية لأهوائهم ومطامعهم ، أن كل من حضر القتال له
حق فيها يساوى غيره ممن حضروا ، وظنوا أن هذه المساواة عادلة ، وأخطئوا
اذ أن المساواة أحيانا قد تكون ظلما ، فالمساواة بين العامل المجاهد ، ومن وقف
ينتظر النتيجة تكون لأى الفريقين تكون ظلما •

وفهموا خطأ أن الذين يحضرون الحرب فى الغنيمة لهم حقوق ، وأن من
يحول بينهم وبين ما زعموه حقا لهم يكون قد ظلمهم ، وتلك أوهام قد أوجدها
المطامع ، وهى باطلة ، ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد وضع الله تحت
تصرفه خمس الغنيمة ، والغنائم كلها تحت تصرف النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم ، يقيم القسطاس والعدل والرحمة فيها ، ألم تره عندما رأى الرحمة
ونظام الاسلام أن ترد السبايا الى أهلن ، وأن يطلق سراحهن نفذ ذلك ، وقد
صارت السبايا الى من هى فى أيديهن ، فنزعها منهم بحكمته ، قدمها المؤمنون
طوعا واختيارا واتباعا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونفذها على
بنى عبد المطلب ، ولم يحاول ان يأخذ رضا منهم ومن امتنع من المسلمين
الذين لم يدخل الايمان قلوبهم حملهم على رد السبايا وعوضهم •

فالغنائم كلها فى يده يتصرف فيها بما توجب النبوة والدعوة الاسلامية ،
والرحمة والعدل الاسلامى ، لا طلب الأهواء الذى هو الظلم ذاته •

لقد وجد أن الدعوة الاسلامية توجب تأليف قلوب لهم فى قومهم ، منزلة
وليس لهم فى الاسلام جهاد ولم يدخل الايمان قلوبهم ، وقد اكلتهم الضغينة
وقتل الجهاد والمجاهدون من قتل منهم ، ويريد تأليفهم الى الاسلام ، ونسيان
الأخن ، فاعطى أبا سفيان وأولاده ، وأعطى الأقرع بن حابس وغيره •

لقد قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وتركيت جعيل بن سراقاة الضمرى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مبينا سبب العطاء ، وهو لم يمنع أحدا حق له •

« أما والذى نفس محمد بيده لجعيل خير من مثل عيينة والأقرع ، ولكن تألفتهما ليسلما ، وولكت جعيل بن سراقاة لاسلامه » •

هذا هو أساس العطاء ، وهؤلاء نظروا الى الأموال ، ولم ينظروا الى واجب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نشر الدعوة ، وما يراه طريقا لتأليف القلوب •

وان قوله تعالى : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون » فهذه الآية نزلت فى المنافقين ، والذين اعترضوا كانوا من الأعراب الذين هم « أشد كفرا ونفاقا » ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » •

وما كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليخضع فى أمر الدعوة ومقتضياتها لناس حديثى عهد بجاهلية ، وحسبه أن يكون معه المهاجرون والأنصار ، والذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى •

عمرة الجعرانة

٦٣٣ — لم يدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة عند الفتح محرما لعمرة ، بل دخلها فاتحا غير محارب ، ويريد الاتصال ، ويعيد المودة ويعلن الأخوة بعد طول الاقتراق ، وان المودة تجذب القلوب النافرة ، وتقوى العقول الشاردة •

ولقد كان طواف فى غير احرام ، ولم تكن مناسك عمرة وتعظيم للبيت •
ولما انتهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الفتح شغل بجذامة ، وارضاء قلوبها ، ومداواة الجراح التى جرحها خالد بن الوليد •

ولما أخذت هوازن تهتم بالهجوم على جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان لابد من لقائها ، فكان اللقاء المرير ، ذو النتائج الباهرة ، وأتبعها

بالبطائف ، فلما أذن الشهر الحرام بمجيء عاد الى الجعرانة وهى ميقات من مواقيت الاحرام ، فأحرم منها بالعمرة ، ودخل بيت الله تعالى معتمرا •

وكانت تلك العمرة فى ذى القعدة ، وذهب الى المدينة المنورة لست ليال بقلين من ذى القعدة •

ولم يحج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذا العام الثامن بنفسه ، ولا بأحد ناب عنه ، وترك الحج لما كان عليه العرب من قبل •

ولكن كان مع المسلمين الذين أرادوا الحج عتاب بن أسيد ، فحج بهم •

ولكن عندما عاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ، ترك أميرا عليها عتاب بن أسيد ، وكان سن عتاب كما جاء فى شرح المواهب اللدنية عشرين سنة ، فخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه السن ، وكان مباركا فى عمله مخلصا فى نيته ، قنوعا فى ذات اليد ، لا يطمع ، بل يشبع بالقليل •

أجرى عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رزقا درهما كل يوم فكان به راضيا ، غير متطلع لأكثر منه ، وكان يقول داعيا الى القناعة •

أيها الناس أجاج الله تعالى كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم درهما كل يوم ، فليس بى حاجة الى أحد •

وقد خلف صلى الله تعالى عليه وسلم بعد العمرة معاذ بن جبل الحافظ للقرآن الكريم الراوى للسنة بجوار عتاب بن أسيد ، وخلفه ليعلم الاسلام ، ويحققهم فى الدين ، ويحفظهم القرآن الكريم ، فقد كانوا فى حاجة الى ذلك ، لحدائث عهدهم بالجاهلية ، ولم يعيشوا فى ظل القرآن الكريم كاهل المدينة المنورة ، بل كانوا يناوئون أهل القرآن الكريم ، وان علم بلغاؤهم مكانته ، وأنه يعلم ولا يعلم عليه •

وقد عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الجعرانة بعد عمرته ، ولم يمكث بها الا قليلا ، وفيها وزع بقية الفىء والغنائم ، ومنها سافر الى المدينة المنورة حتى بلغها لليال ست بقيت من ذى القعدة •

وقه ترك البطائف على شركها ، وان أخذت تميل نحو الاسلام على عنجهية الجاهلية •

وكان مالك بن عوف يغير عليها أنا بعد أن ، فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه منه وأسلم وحسن إسلامه ، فكان من بعد ذلك يرهقها بالغارات ويحجى إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما يدل على أنها تليين إلى الإسلام شيئاً فشيئاً ، حتى لأنوا كما سنيين فى وفدهم .

قدوم كعب بن زهير

٦٣٤ — قدم كعب بن زهير على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد عودته من عمرته ، وما كان لنا أن نهتم بما نكتب بشاعر أو كاهن ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاج إلى داعية يدعو بمفاخره فرسول الله صلى الله عليه وسلم مقامه عند الله عظيم ، وما كان يحتاج إلى شاعر يشيد بمنصبه فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد دان بالطاعة له كبراء العرب ، وغيرهم هو فى مكانته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان يلقي عليه أبو جهل فرث الجزور ، فمكائته عند الله وفى نفسه ، وعند كل ذى لب واحدة .

ولكننا ذكرناه لأن قدومه يدل على بلوغ الدعوة الإسلامية كل نواحي البلاد العربية فأصيحها ودانيها ، وأن فتح مكة المكرمة جعل القلوب تتجه إليه ، والمنكرين يصدقون ، والنافرين يدنون ، ويأوون .

لقد كان كعب هذا يشارك المنكرين وينشده شعره فى ذم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما ظهر النور الذى لا ينطفىء مال إلى أن يتقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم مهدياً ، بعد أن جافاه ، وهو ابن زهير بن سلمى حكيم الشعراء فى الجاهلية ، فهو من بيت جاهلى فيه شعر الحكمة .

وعندما هم بأن يذهب إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حذرته أخوه بجير بن زهير بن أبى سلمى ، وكتب إليه يخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجلاً بمكة المكرمة ممن كان يهجو ويؤذيه ، وأن من بين شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب ، قد هربوا منه فى كل وجه ، فإن كانت فى نفسك حاجة ، فطر إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تأثياً ، فإنه لا يقتل أحداً جاء إليه تأثياً ، وإن انت لم تفعل ، فأنج إلى نجاتك من الأرض .

وكان قد قال قصيدة فيها ذم للإسلام ، وقد أسلم أخوه ، وأرسل إليه الكتاب المذكور آنفاً .

ولما بلغ زهيراً هذا الكتاب ضاقت به الأرض ، واشفق على نفسه من قصيدته ، ويقول ابن اسحاق أرجم به من كان فى حاضره من عدوه وقالوا هو مقتول ، أى أنهم أرادوا أن يحذروه ايقاده على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولكنه لم يجد بدا من أن يذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر فيها خوفه ، وارجاف الوشاة من عدوه .

ولقد خرج وقدم المدينة المنورة فنزل على رجل كان يعرفه فغدا به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم اشار به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقم اليه فاستأمنه .

فقام الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جلس اليه ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله ان كعب بن زهير جاء يستأمن منك تأييداً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ، ان انا جئت بك به ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم - فقال يا رسول الله انا كعب ابن زهير وكان فى المجلس بعض الأنصار ، فوثب عليه رجل منهم ، فقال : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « دعه عنك ، فانه قد جاء تأييداً ، نازعاً عما كان عليه ، وغضب كعب على الحى من الأنصار كما يقال ، وما يضر غضبه على هؤلاء الذين أووا ونصروا ولم يقل فيه أحد من المهاجرين الا خيراً .

ولقد مدح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقصيدة هزت اعطاف رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان كريماً يقبل طيب القول .

ولقد روى أنه قال ان من الشعر لحكمة ، ولننشد أبياتاً منها ، لكرم موضوعها .

يقول فى مطلعها :

بانث سعاد فقلبى اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

وبعد أن يذكر سعاد وهى كما قيل زوجته ، وغريته عنها ، يقول متجها الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقال كل صديق كنت آمله لا الهينك انى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا ابا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدياء محمول
نبئت ان رسول الله اوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى اعطاك نافلة القرآن فيها مواعيط وتفصيل
لا تاخذنى بالقوال الوشاة ولم اذنب ولو كثرت فى الأقاويل

ثم يقول فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
فى عصابة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

ويقول فى وصف أصحاب الرسول :

ليسوا مفاريح ان نالت رماحهم قوما ، وليسوا مجازيع اذا نيلوا
لا يقع الطعن الا فى نورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

وفى هذه القصيدة لم يذكر الأنصار ، لأن رجلا منهم أراد قتله ، فيروى
أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أنشد قصيدته قال : لولا ذكر
الأنصار فأنهم لذلك أهل ، فقال مادحا الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر ان الخيار هم بنو الأخيار

الى آخر قصيدة ليست مهلهلة طويلة ، بل هى موجز قصيرة •

وانا نذكر أننا ذكرنا كعب بن زهير لبيان انه اذا كان الاسلام قد فقد
عبد الله بن رواحة شاعر الدعوة الاسلامية والمذود عنه وعن الرسول
الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء الشاعر كعب بن زهير ، والشعراء
كانوا السنة الدعوة الى المكارم ونشر الفضل والفضلاء فى الجزيرة العربية •

السرايا بعد هوازن

٦٣٥ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما كان فى هوازن والطائف يرسل السرايا فى القبائل العربية داعية الى الاسلام ، متعرفة لأحوالها ، وكان يشغل بذلك الذين أسلموا حديثا ليألفوا الاسلام ، ويتحملوا واجباته ، ولتحملوا عبء الدعوة الى الاسلام من بعد ، وليكون منهم المجاهدون فى سبيله ، وليتعودوا القيام بواجباته ، وليرضى نهمتهم من حب السلطان • ولكى ينالوا من الغنائم بالحق ممن تابوا على الاسلام من القبائل •

فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عيينة بن حصين فى المحرم من السنة التاسعة الى بنى تميم ، فى خمسين رجل ، ليس فيهم من المهاجرين ولا الأنصار أحد •

فسار اليهم يكمن نهارا ، ويسير ليلا ليفجأهم من حيث لا يشعرون ، فهجم عليهم ، وهم يسرحون مواشيهم ، فلما رأوا الجمع ولوا الأدبار ، فاستطاع أن يسبى منهم نساء عددهن إحدى وعشرون ، وأخذ ثلاثين صبيا وأحد عشر رجلا •

ساق هؤلاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل فى أحد بيوت المدينة المنورة •

وجاء من بعد ذلك كبراء من تميم منهم عطار بن حاجب ، والزريقان ابن بدر ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس بن الحارث ، وعمرو بن الأهم ، ورباح •

فلما رأوا نساءهم وذرايرهم بكوا اليهم •

فعجلوا فجاءوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنادوا : يا محمد اخرج الينا فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأذن بلال للصلاة وهؤلاء تعلقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى فصلى الظهر ، ثم جلس ، ثم قدم فتكلم ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس فرد عليهم أسراهم وسباياهم وأبناءهم لأنهم ما كانوا محاربين ، ويظهر أنهم كانوا غير مطيعين •

وقد قال ابن اسحق فى ذلك : دخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا محمد اخرج الينا ، فتأذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

عليه وسلم ؛ قالوا جئنا لنفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا ، ويظهر أن ذلك بعد أن استردوا الأسرى والسببا . ولقد قال الله تعالى في عدم استئذانهم : « ان الذين يتنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم » .

ولقد ذكر ابن اسحق المباراة البيانية ، أو المفاخرة الشعرية والخطابية فروى قول شاعرهم ورد حسان ، وذكر قول خطيبهم .

لقد قال خطيبهم حاجب بن عطار : « الحمد لله الذى له الفضل علينا ، جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل الشرق ، وأكثره عددا ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا فى الناس ، أسنا رءوس الناس ، وأولى فضلهم ، فمن فاجر ، فليعد مثل عدونا ، فلو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكن نستحي من الاكثار لما أعطانا أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا » .

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس قم فأجبه ، فقام فقال :

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وقضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ثم ان من فضل الله أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسباً وأصدقته حديثاً ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابا ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرة الله تعالى من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان بالله ، فأمن به المهاجرون من قومه وذوى رحمته ، أكرم الناس أحسابا وأحسنهم وجوها ، وخير الناس فعلا ، ثم كان أول الناس استجابة لله حين دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنحن أنصار الله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن سكت جاهدناه فى سبيل الله تعالى ، أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول هذا وأستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

فتح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه المباراة البيانية ارضاء لرغبة القول عندهم وليعلمهم أن المفاخرة ليست بالأنساب ، ولكن المفاخرة بالايمان والأعمال الصالحة ، والتقوى ، وليضرب المثل لهم بقومه ، وليقدم لهم الحق سائغا ، ولقد قال الزبيرقان بن بدر من بعد : ان هذا الرجل خطيبه خير من خطيبنا ، وشاعرهم أحسن من شاعرنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، وقد أعطاهم جوائز ، يشبه ما يعطى المؤلفات قلوبهم .

سرية الضحاك بن سفيان :

٦٣٦ — كانت هذه السرية كأخواتها لتعرف أحوال العرب فى صحرائهم ، ونشر الاسلام بينهم ، وجعل الحبل ممدودا بينه وبينهم من غير أن يقطع ، أرسل فى هذه السرية الضحاك بن ثابت الى بنى كلاب وهو منهم فى ربيع الاول من السنة التاسعة •

اتجه اليهم ابن سفيان فدعاهم الى الاسلام فلم يستجيبوا فقاتلهم فهزمهم •

سرية قطبة بن عامر :

وكانت قبل هذه السرية فى صفر من هذه السنة سرية قطبة بن عامر ، الى خثعم فى عشرين رجلا خرجوا على عشرة ابل يتعقبونها ، فلما التقوا ببعض بنى خثعم اقتتلوا قتالا شديدا ، وكثر الجرحى من الفريقين جميعا وكان فى القتلى قطبة بن عامر ، ولكن الجيش بقى بعده ، وساق النعم والنساء وعادوا الى المدينة المنورة بهذه الغنائم •

وقد تجمع كثيرون من بنى خثعم وساروا وراءهم ، ولكن كان مطر شديد حال بينهم وبين تتبعهم •

سرية علقمة بن محرز :

٦٣٧ — وكانت فى ربيع الآخر من السنة التاسعة ، وذلك ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلغه ان ناسا من اهل الحبشة ظهروا امام جدة ، وبدا انهم يريدون الغارة عليهم ، فأرسل اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذهبوا اليهم ، وطاردوهم ، وخاضوا البحر ، وراءهم فلجئوا الى جزيرة ، وقد تعجل قوم فى الأوبة فاذن لهم ، وأمر عليهم بعض المتعجلين ، وقد أراد أن يداعب من معه فأوقد لهم نارا ، وأمرهم بالتواشب عليهم ، فأراد بعضهم أن ينزل فيه ، فرده ، وقال انما كنت أضحك منهم ، ولا شك أن هذا تعابت ما كان يجوز ، ولذلك لما عادوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبروه الخبر ، فقال : « من أمركم بمعضية فلا تطيعوه » •

وكندا لا نصدق ذلك الخبر لولا أنه روى فى الصحيحين عن على ابن أبى طالب ما يؤيده ، فعن على أنه قال : « بعث رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم سرية ، واستعمل عليها رجلا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه ، فقال اجمعوا لى حطبا ، فجمعوا ، فقال أوقدوا نارا ثم قال : « ألم يأمركم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تسمعوا ، قال فادخلوها ، فنظر بعضهم الى بعض ، وقالوا انما فررنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النار ، فسكن غضبه ، وأطفئت النار ، فلما رجعوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا لو دخلوها ما خرجوا منها ابدا ! لا طاعة فى معصية الله ، انما الطاعة فى المعروف .

وفى هذه الرواية ان رئيس السرية ركه الغضب ، فعصى الله وعصى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأمر بما أمر ، واذا اطاعوه فقد اطاعوه فى معصية فعصوا الله ، وفيه ان الأمر بالطاعة انما هو فى المعروف المعقول لا المنكر عقلا وشرعا ، فليعتبر أولئك الذين يقتلون ويرتكبون أشد المنكرات باسم الطاعة ، فبذلك تضيع الأمم والجماعات ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

سرية على بن أبى طالب لهدم صنم طيىء :

٦٣٨ — بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا فى خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير ، وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ، ولواء أبيض الى الفلص ، وهو صنم طيىء ليهدمه ، فشنوا الغارة على محلة حاتم ، وكان بعث على فى ربيع الثانى سنة تسع من الهجرة .

ذهب على بجيشه الأنصارى فهدم الصنم ، وكان القتال مع الفجر ، وفروا امام جيش المسلمين بقيادة المجاهد على ، وتركوا نساءهم وأموالهم .

فسيبوا النساء ، وأخذوا النعم والمشاء وفى السبى أخت عدى بن حاتم أى بنت حاتم الطائى ، وفر عدى الى الشام وكان نصرانيا ، وقد وجدوا فى خزانة عدى ثلاثة أسياف ، وثلاثة أدرع .

وقد أقام على على السبى أبا قتادة ، وعلى الماشية والفضة عبد الله ابن عتبك وقسم الغنائم فى الطريق ، وجعل السقى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يقسم السبايا حتى أتى بهم المدينة المنورة وليس فيهم عدى بن حاتم .

ولقد جاءت ابنة حاتم الطائى ، فقالت : يا رسول الله لقد غاب الواقد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك ،

ان رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بنا أحياء العرب فانى ابنة سيد قومى ،
وان أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ،
ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ،
أنا ابنة حاتم طيء .

رق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لحالها ، وذكر بالخير أباهما
أيناسا لها ، وتخفيفا لفزعها ، فقال لها : « يا جارية هذه صفات المؤمنين ،
ولو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان أباهما كان يحب مكارم
الأخلاق .

ويروى أنها قالت داعية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم لا تجعل
حاجتك الا عند كريم .

ولما التقت مع أخيها عدى بن حاتم حثته على الاسلام . فقالت عن
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، أثته
راغباً أو راهباً لقد آتاه فلان فأصاب منه وآتاه فلان فأصاب منه ، وبذلك
كانت هى السبيل لاسلام أخيها ، وتسليم نفسه للنبي صلى الله تعالى عليه
وسلم . فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وليس معه كتاب أمان ولا
أمان ، فقال القوم هذا عدى بن حاتم ، وقال عدى فلما دفعت اليه أخذ بيدي ،
وكان قبل ذلك قد قال انى أرجو أن يجعل الله يده فى يدي .

وظهرت أمام عدى أخلاق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفقه
بالضعفاء ، لقد رأى امرأة لقيته ومعها صبي فقالت له ان لنا اليك حاجة
فقام معها ، حتى قضى حاجتها .

ويقول عدى بن حاتم ، ثم أخذ بيدي ، حتى أتى داره ، فالتقت له الوليدة
وسادة فجلس عليها ، وجلست بين يديه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
ما يضرك ، أضررك أن تقول : لا اله الا الله فهل تعلم من اله سوى الله قلت :
لا ثم تكلم ساعة ، ثم قال ، أضررك أن يقال الله أكبر وهل تعلم شيئاً أكبر من
الله قلت لا قال فان اليهود مغضوب عليهم ، وان النصارى ضالون فقلت
انى حنيف مسلم ، فرأيت وجهه ينبسط فرحاً ، ثم أمرنى فنزلت عند رجل من
الأنصار وجعلت آتية طرفى النهار ، فبينما أنا عنده اذ جاء قوم فى ثياب من
الصوف من هذه الثمار فصلى ثم قام فقال : يا أيها الناس ارضخوا
من الفصل ولو بصاح أو بنصف صاح ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، يقى
أحدكم وجهه حر جهنم ، فان لم تجدوا فكلمة طيبة ، فان أحدكم لاقى الله
وقال له ما أقول لكم ، ألم أجعل لك مالا وولداً ، فيقول : بلى ، فيقول أين
ما قدمت لنفسك ، فينظر قدامه وبعقبه ، وعن يمينه وعن شماله يقى به وجهه

نار جهنم ، ليق احذكم وجهه النار ، ولو يشق ثمرة ، فان لم يجد فبكلمة طيبة ،
فانى لا اخاف عليكم الفاقة فان الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة
ما بين يثرب والحيرة ، واكثر ما يخاف على مطيتها السرقة •

قال عدى بن حاتم فجعلت أقول لنفسي أين لصوص طيء •

نقلنا هذا الحديث ، لنرى أولا الرفق والتقريب النفسى فى المعاملة ،
والعطف وحث الناس على الأخلاق الطيبة ، وذكر مآثر ذوى الأخلاق ، حتى
خرج الرجل من مجلس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أحب
الناس وكان من قبل يكرهه أشد ما تكون كراهة الرجل للرجل •

وان هذا الخبر يرى القارئ مجلسا من مجالس النبوة ، وانه لمجلس
يهدى الى الرشده ، أجف الناس حلقا ، وأبعدهم عن الحق ، اذا لم يكتب الله
تعالى عليهم الضلالة ، ويقربهم من الغواية ، والله ورسوله صلى الله عليه
وسلم لهم المن والفضل •

غزوة تبوك

٦٣٩ — استوعبت الدعوة الاسلامية البلاد العربية ، فمنهم من آمن
ومنهم من كفر ، ومنهم من أسلم ، ولما يدخل الايمان فى قلبه ، ومنهم من آمن
وأخلص للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحمل عبء الدعوة وجاهد فى
سبيلها ، وليس من العرب من لم يعلم بالاسلام ، والنبي صلى الله تعالى عليه
وسلم ، والحق الذى يدعو اليه ، من غير مواناة ولا تقصير • ولا هوادة •

ولابد أن يتجاوز بعد ذلك دائرة البلاد العربية الى ما يساقبها ، من
البلاد المجاورة خصوصا البلاد التى فيها العنصر العربى ، فانه بتكوينها
أقرب الى الاستجابة الى ما يعم بلاد العرب التى هى مثابتهم ، وفيها الحرم
الآمن الذى جعله الله آمنا ، والناس يتخطفون من حوله •

وأخص بذلك بلاد الشام ففيها الفساسنة من العرب ، وكان فيها
اعتداء على من أسلم وكانت غزوة مؤتة ، بسبب قتل رسول النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم والى بصرى •

وانتهت مؤتة ، ولم تكن بنصر حاسم ، وان لم تكن بهزيمة ، فان جيش
الاسلام لم يرجع مهزوما وانما تراجع منتظما بمهارة خالد بن الوليد ، وكانت
هذه اول قيادة ناجحة له فى الاسلام •

ولم تكن النتيجة على المسلمين ، فلم يقتل منهم أمام مائتى ألف الا نحو اثنى عشر رجلا وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة ، حتى انه فى هذه المعركة يطوى فى يد خالد تسعة سيوف ، وقتل الأمراء لم يؤثر بالهزيمة فى الجيش الأقل فى عدد .

وان شئت أن تقول ان غزوة تبوك امتداد لغزوة مؤتة فقل ، فهى سير فى الخطة التى ابتدأت بها ، ولم تنل ما ربتها من قتل قتلة الرسول الذى بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومع انها امتداد لغزوة مؤتة فى سببها وسيرها ، والمقصد ، قد كان لها وحدها سبب قائم بذاته ، ذلك انه باللقاء بين المسلمين وغيرهم من الانتصار ومن معهم من العرب ، أوجد الالتحام الحربى ، بين العرب الذين عاونوا الرومان والعرب المجاهدين مع اتحاد الجنس ، من يميل الى الاسلام ، لأنه الدين الجديد فى قومهم ، وقد صار رمز القوة عندهم ، وخير لهم أن يعتزوا بأنفسهم عن أن يعتزوا بالرومان ، ففرق بين من يقول أنت أخى ، ومن يقول أنت عبدى أو تابعى ، ولذلك كان اقبال الخاضعين للغزو الرومانى شديدا لأنه الدين الجديد لآخوانهم ، ولاضطراب الدولة الرومانية ، واضطراب الأحوال فيها .

ولقد أسلم من العرب الذين استعان بهم الرومان عدد كبير .

لقد أسلم فروة بن عمرو الجذامى الذى كان قائدا لحدى الفرق الرومانية عندما اقتتل الرومان مع المسلمين فى مؤتة .

فضاق الرومان ذرعا بإسلامه ، واتهموه بالخيانة وقتلوه ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يترك دم هذا الرجل المسلم هدرا ، بل لابد من القصاص ، وان قتله فتنة تمنع غيره من أن يدخل فى الاسلام ، فحق أمر الله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله » ووجبت الطاعة لقوله تعالى : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدا فيكم غلظة » قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وهناك أمر آخر ذكره كتاب السيرة أنه لما نزل قوله تعالى : « اتما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ظن التجار الذين كانوا يقيمون المتاجر فى سوق عكاظ ، وذوى المجاز ومجنة ، وغيرها من

الأسواق في موسم الحج ، ظنوا أن متاجرهم تكسد ، فكان لهذا ولغيره غزوة الشام في تبوك ، وفي ذلك فتح لأبواب التجارة .

ذلك سبب ذكره كتاب السيرة ، وما كنا لنذكره لولا أنهم نكروه ، فما كانت غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لتسهيل تجارة مادية ، إنما كانت لتسهيل الدعوة الإسلامية ، وإن هذه تجارة لن تبور ، بل فيها مكسب أغلى وأعلى ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى .

وإن الرومان بعد غزوة مؤتة قد رأوا أن الدين الجديد يغزو النفوس بأحكامه . ويغزو البلاد برجاله ، وأنهم يجب أن يعدوا العدة للقضاء عليه قبل أن يقضى على دولتهم ، فكانوا يستعدون لغزو الاسلام ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتركهم حتى يغزوهم في داره ، فما غزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الروم يجمعون الجموع وأن قيصر قد أعطى أرزاقهم لسنة ، وإن في غزو الرومان تقوية لبأس العرب الخاضعين للرومان في الشام ، إذ يجدونهم يتحفزون لرفع النير عنهم ، وإخراجهم من سيطرة من يذلهم ، الى عز قومهم .

الحال عند الغزو :

٦٤ — في رجب من السنة التاسعة ، ويظهر أنه في آخره أي في آخر الشهر الحرام ، أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس بالتهيؤ لحرب الروم الذي قد أعدوا له عدة لحربه ، وكان ذلك في وقت حر شديد ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يبين للناس اتجاهه إذا خرج لحرب الا في تبوك لبعد المشقة ، ولعظم المهمة ، وليستعد الناس لنوع من الجهاد شاق مرير ، في وقت شديد غليظ إذ كان الحر شديدا ، وكانوا يجمعون ثمار حرثهم ، وغلالهم ، وفي بعض البلاد جدد ، وقد طابت ثمار الأرض التي أنتجت ، والإرادة المادية عندهم ربما تغالب النية المحترقة عند بعضهم ، ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يختبر النفوس ، والغزوة كلها اختبار للمؤمنين ، وإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما اختار الزمان ، إنما اختارته له العناية الإلهية ، وإرادة الروم وقد خاطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الرجال ليعرف ما في بعض النفوس ، قال للجد بن قيس ياجد ، هل لك في جلاء بنى الأصفر (يريد الروم) .

فأجاب إجابة المتردد ، غير المعتزم : « أو تأذن لي ولا تفقني ، فوالله لقد عرف أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإنني أخشى أن رأيت نساء بنى الأصفر لا أضرب » .

اعتذار بغلبة هوى النفس عنده على الجهاد ، وأنه لا يستطيع جهاد نفسه عن الآثم ، فهو عبد هواه ، وأى فتنة أشد على الرجل من أن يكون عبد هواه ، وقد آذن له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه لا جدوى فى رجل لا ارادة له ، وإنما هى حرب ضروس تحتاج الى صبر وجهاد نفسى ، فالوصول الى العدو ليس سهلا ، والحر شديد ، واللقاء مع عدو كبير .

وان هذه الغزوة كان فيها الناس على أنواع شتى فى نفوسهم .

١ - فمنهم من قعدت بهم هماتهم ، فتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واعتذروا بالمعاذير ، وهؤلاء يقولون مع المنافقين : « وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » .

وهؤلاء منهم ضعفاء الايمان ومنهم ضعفاء العزيمة وليست لديهم قوة نفسية يتحملون بها الشدائد ولذلك كان فيهم جزع ، وخوف من الاقدام .

٢ - ومنهم المنافقون الذين يثبطون ، ويريدون الفتنة ويبتغون تشبيد المؤمنين عن المجاهدين ، ويقول سبحانه وتعالى فيهم : « لو كان عرض قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم ، والله يعلم انهم لكاذبون ، عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين ، لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين ، انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ، ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خيالا ، ولاوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون » .

الصنف الثالث اهل الايمان . وكلهم مجاهد بنفسه وماله ، لا يدخرون جهدا ولا مالا ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم وقرنهم فى الذكر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والآنصار الذين اتبعوه فى ساعة المعسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم » .

هؤلاء هم الذين حملوا الدور الأول حتى صارت الكلمة العليا لله
ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بلاد العرب ، فهم أيضا الذين حملوا
عبء الجهاد ، عندما أخذ الاسلام ينتشر فى غير البلاد العربية ، وخرج
الجهاد الى بنى الأصفر (الرومان) الذين كان اسمهم يرهب العرب .

٦٤١ — كان على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحتاط من
المنافقين وكان على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحرض المؤمنين
الذين كانوا معه ويجمع شملهم ، وأن يكون بعضهم عوناً لبعض فى هذه
العسرة الشديدة .

أما بالنسبة للمنافقين فانهم كانوا دائبى الحركة ليثبطوا المؤمنين ، وهم
يقولوا لا تنفروا فى الحر ، ليمنعوهم نفسياً من الجهاد ، بل وصلت بهم الحال
الى أن يجتمعوا ببعض اليهود يأترون معهم .

حدث ابن هشام بسنده أن ناساً من المنافقين كانوا يجتمعون فى بيت
سويلم اليهودى ، وكان بيته فى موضع اسمه جاسوم ، يثبطون الناس عن
الجهاد ، وعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فبعث
اليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه
وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم هذا ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة
من ظهر البيت ، فانكسرت ساقه وأقلت أصحاب البيت .

كانت عين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المجاهد تترصد
أولئك المثبطين الذين بلغت حالهم حد التآمر ، فرد الله كيدهم فى نحورهم .

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ حذره ممن يثبطون العزائم ،
وهذه المعركة معركة عزائم ، وقوة نفوس ، وجلد وصبر وقوة احتمال .

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك الوقت العصيب يثير
عزائم أصحابه ، ولا يكتفى بأن يحثهم على الخروج ، بل يحثهم على أن
يعين بعضهم بعضاً ، وأن ينفقوا فى الحرب ولا يلقوا بأيديهم الى التهلكة ،
وانه يحتاج الى المزاد والراحلة والشقة بعيدة ، ولم يكن له اختيار فى الأمان
كما ذكرنا بل انه اذ علم أن الروم يتجمعون لاقتلاع هذا الدين من الأرض
العربية ، وليستذلوا العرب ويقضوا على منبع العزة فيهم ، فما كان له أن
ينتظر ، بل لابد أن يبادرهم ، ولا ينتظرهم . لقد أراد أن يخرج لهم بأكبر
غزوة يغزوها ، أن يخرج بثلاثين ألفاً ، فلأبد أن يكون فى يده ما يغزوهم به ،
وما يحملهم عليه ، ولا يكون معه الا القوى الأمين .

ذكر ابن اسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جد في سفره ، وأمر الناس بالجهاد والانتكماش (الاسراع) وحض أهل الغنى على النفقة ، والحملان في سبيل الله تعالى فحمل رجال من أهل الغنى ، وكان لعثمان ذى النورين الحظ الأكبر من الانفاق ، حتى كاد يحمل الجيش كله .

روى الامام أحمد أن عثمان ابتداءً بألف دينار فصبتها في حجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه بسنده قال خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فحث على الانفاق على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان على مائة يعير بأحلاسها واقتابها ، ثم نزل مرقاة من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان على مائة أخرى بأحلاسها واقتابها ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما ضر عثمان عمل بعد هذا » ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من جهز جيش العسرة غفر الله تعالى له » .

هؤلاء المؤمنون كان منهم من حمل نفسه وحمل معه زاده كعبد الرحمن ابن عوف ومنهم من تبرع بزاد وحملان لغيره كأبي بكر وعمر ، وغيرهما من ذوى اليسار من المهاجرين والأنصار .

ولكن كان من بين المؤمنين الصادقين البكاؤون ، وأولئك أرادوا الجهاد ولا يتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غير كهذا النفي ، الفاصل بين نشر الايمان في الأرض وبين أن يقضى عليه في مهده أهل القوة فيها .

كان هؤلاء النفر السبعة الذين سموا البكائين ، وقد ذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فاستحملوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن طلبوا منه ما يحملهم عليه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا أجد ما أحملكم عليه » .

ولقد قال الله تعالى في ذلك الجمع الحاشد : « وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأنذك أولو الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع المقاعد ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالم ، وطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون ، لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم ، ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون

خرج ، اذا نصحوها لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون ، انما السبيل على الذين يستأذنونك ، وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » •

وقبل أن يسير الجيش الكبير كان بعض البكائين من الأنصار الذين لم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحملهم عليه — وقد وجد من يعينه ، فابن يامين بن عمير بن كعب لقي اثنين منهما وهما بيكيان ، فقال ما بيكيكما ، قالا جئنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ، فأعطاهما ناضحا له فارتحلاه •

وان بعضهم ، وهو عطية بن زيد قد أخذ يعتذر الى الله تعالى عن عدم خروجه ، ويقول « اللهم انك أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وانى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو حد جسد أو عرض ، ثم أصبح مع الناس » •

المسير

٦٤٢ — أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السير بجيشه الذى بلغ نحو ثلاثين ألفا ، وتبعه عبد الله بن أبى مع المنافقين وأهل الريب فلما سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تخلف ، وما كان سيره ثم تخلفه الا ليخذل المؤمنين ليثير الريب بعمله ، كما اثاره بقوله •

وقد جعل على المدينة المنورة محمد بن سلمة الأنصارى •

وخلف على بن أبى طالب فى أهله ، ويظهر أن هذه تشبه ما خلفه به على الودائع يوم الهجرة ، لأن الشقة كانت بعيدة ، فاختار رجلا من أهله ليقوم على أهله وأهله ، وما كان لعل أن يكون له بعد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخيرة من أمره ، بل عليه الطاعة المجردة ، ولكن المنافقين الذين من شأنهم أن يثيروا الريب ، والافساد ويسعوا بالنميمة بالأحبة — أشاعوا قالة غير صحيحة أصلا ، قالوا ما خلف رسول الله على بن أبى طالب الا استثقلا له وتخفقا منه •

فلما أكثروا من القول في ذلك ، أخذ على رضى الله تعالى عنه سلاحه ، ثم خرج حتى لحق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كذبوا ، ولكنى خلفتك لما ورائى فارجع فأخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى » روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبو داود الطيالسى .

وروى الامام أحمد رضى الله تعالى عنه أن عليا المجاهد ، استكثر على نفسه أن يكون ميدان الجهاد متسعا ، وفى غزوة كثر فيها التخلف ، أن يبقى ولا يحمل سيفه البتار ، فقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم « يا رسول الله لا تخلفنى فى النساء والصبيان ! فقال : يا على أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى » .

وان هذا كان المنتظر من على هذا ، فان المؤمنين المتقين كانوا يتسابقون فى الخروج لأنهم لا يرضون لأنفسهم أن يبقوا فى راحة بين أهليهم والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يسير فى الصحراء حيث الحر الملافح .

قعد أبو خيثمة وله امرأتان عريبتان قد رشتا حول عريشهما الماء لتكونا مع زوجهما فى جو رطيب ، فلما رأى ذلك قال : « يكون رسول الله فى الضح والريح والحر » وأبو خيثمة فى ظل يارد ، ومكان مهيا وامرأة حسناء فى حاله مقيم ما هذا بالنصف ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما ، حتى ألحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتهيألى زادا » ، وأخلف عنه بعض الصحابة فى أهله ، وارتحل ناضحا له ، وأسرع حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معتمدا على الله تعالى ، والناس معه ، وبعضهم يقول تخلف فلان ، فيقول عليه الصلاة والسلام دعوه ، فان يكن فيه خير فسيلحقه بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحنا الله منه ، حتى قيل تخلف أبو ذر ، وتلوم به بغيره .

ولما أبطأ بغير أبى ذر ، وهو يريد أن يلحق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، نزل وترك البعير ، وتخفف ماشيا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قارب ركب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال يا رسول الله هذا رجل ماش على الطريق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كن أبأ ذر ، فلما تأمله الناس قالوا يا رسول

الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر ،
يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

وقد مات أبو ذر ، وقد نفاه عثمان الى الزبدة ، فمات وحيدا حتى عثر
به فى الصحراء عبد الله بن مسعود ، فدفنه ، وبكاه ، وقال صدق رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولقد كانت هذه الغزوة رحلة اسلامية الى حيث اثار عاد وثمود ، فمر
بها ، ولقد مر بالحجر ، فسجى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثوبه
على وجهه واستحث راحلته ، ثم قال لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا انفسهم ،
الا وانتم باكون ، خوفا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم فهو يدعو الى الاعتبار
بالآثار ، لا بمجرد التطواف بالرسول من غير نظر الى ما تدل .

وبينما المؤمنون سائرون أصابهم عطش شديد ولا ماء يروون به غلتهم ،
فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدعا عليه الصلاة والسلام
واستسقى ، فأرسل الله سحابة مملوءة ماء ، فأمرت ، وألقت حمولتها ،
وارتوى الناس ، واحتملوا معهم ماء يرويههم عند حاجتهم الى الماء .

ولقد ضلت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخبر عن مكانها
وبعث بعض الناس فوجوها ، وقد مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
فى لأواء الصحراء وشدتها ، والمؤمنون الذين نصحوا الله ولرسوله صلى الله
عليه وسلم ، يركبون الصعاب وهم حوله يعاونونه ، ويشدون من أزره ، وكان
بعض الذين تخلفوا منهم منافقون لا يكتفون بأن يكونوا مع الخوالم ، بل
يتكلمون ويسخرون من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من
المؤمنين ، وهو فى منطلقه الى تبوك يقولون : اتحسبون جلاذ بنى الأصفر
كقتال العرب ، والله لكأننا بكم غدا مقرنين بالجبال يقولون ذلك أرجاها
وترهيبا .

ولقد بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا ، فاتوا اليه يعتذرون
يقول قائل انما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن انما
كنا نخوض ونلعب » .

كان ذلك أمر الذين نصحوا الله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،
واخلصوا ، وهذا الذى ذكرناه شأن الذين رضوا بالقعود ، وأولئك يقطعون
الفيافي والقفار ليصلوا الى الغاية التى يتحقق فيها أمر الله ولرسوله صلى
الله تعالى عليه وسلم ، وقد وصلوا سالمين وعادوا سالمين .

وصول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى تبوك وخطبته :

٦٤٣ — وصل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان الى تبوك من أرض الشام ولم يلق حربا ، لأنه لم يجد جندا من جنود الرومان يحاربهم ، وقد عقد عقود ذمة مع بعض النصارى ، وأرسل سرايا لمن لم يكونوا فى طريقه ، وسنشير اليها .

والآن نذكر أنه عندما وصل الى تبوك ، وقف بجوار نخلة هناك ، واللقى خطبة فيها حكمة النبوة ، وخلق الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى أجمع الخطب فى الأخلاق ، رواها الامام أحمد رضى الله تعالى عنه ، وهذا نص الرواية :

أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خطب الناس ، وهو مسند ظهره الى نخلة فقال :

لا تحبون أن أخبركم بخير الناس وشر الناس ، أن من خير الناس رجلا عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو على قدمه حتى يأتية الموت ، وأن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله لا يرعوى الى شيء منه .

وروى البيهقى بسنده لما أصبح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أيها الناس ، أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأوثق العرا كلمة التقوى ، وخير المثل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله تعالى ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلال بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة الا دبرا ، ومن الناس من لا يذكر الله تعالى الا هجرا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل وخير ما قرئ فى القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الاثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكول أكل

مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره وانما يصير أحدكم الى موضع أذرع والأمر الى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله تعالى يكذب ، ومن يستغفره يغفر له ، ومن يعف الله عنه ، ومن يكظم يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، قالها ثلاثا ، استغفر الله لى ولكم « هذا الحديث بهذه الخطبة رواه البيهقى ، ولكن قال فيه الحافظ ابن كثير هذا حديث غريب فيه نكارة وفي أسناده ضعف ، والله أعلم بالصواب »

ولعل روايته مجتمعا هكذا هو الذى كانت فيه النكارة وكان فيه الضعف فى أسناده وذكرناه ، لأن أجزاءه لا يمكن أن يكون فيها نكارة ، كل واحد منها بمفرده وكله حكم رائعات ان لم تكن حديثا صحيحا فهى فى أجزاءها من جوامع الكلم الذى اتصف بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وليس لنا أن نكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونقول عنه ما لم يقل ، فإنا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه فى حديث متواتر أو شبه متواتر : « من كذب على متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار »

ولكننا نقلنا هذا الكلام كما نقله الحافظ البيهقى ، وأنه يسعنا ما يسعه والعلم عند الله .

نتائج تبوك

٦٤٤ — لم نجد فى تبوك معركة حربية ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهب الى الروم لما علم أنهم يجمعون جيشا وأنفق قيصر الروم على هذا الجيش رزق عام ، سبق به لتتوافر إعطيات الجند ، وذلك ليفرض ارادته ونفوذه على العرب كما كان ، وقد هزته مؤنة بكثرة القتل فى الرومان وان انسحب جيش النبوة انسحابا ليس فرارا ، وخافوا أن يتبعوه ، ولكى يقضى أولئك النصارى على هذا الدين الجديد ، الذى يقوض الدولة الرومانية فى الشام على الأقل .

ولم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لينتظر فى المدينة المنورة ، بل انه يجيء اليه ، وقد جاء اليه فى جيش يريد الاستشهاد ، فلما علم ذلك

هرقل وقواده ، وقد ذاق جيشه الذى كان مائتى ألف أمام ثلاثة آلاف تردد فى اللقاء ، ويظهر أنه لم يستطع أن يستعين بمن حول الشام من الأعراب كما كان فى مؤتة ، ولذلك فض جمعه ، ولم يلاق المسلمين فلم يلق النبی صلى الله تعالى عليه وسلم حربا ، ولم يكن من نتيجة لتبوك الا أن أُرهب الله الرومان فارتدوا على أديبارهم خاسرين ، واقتصر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم من انسحاب جيشه بتخاذلهم عن لقائه •

وكان لابد من منع الفتنة فى السدين الذى تكرر منهم ، ولذلك أوصى بارسال جيش أسامة اليهم ، ليعلمهم أن أهل الايمان لا يسلمون مسلما أو يخذلونه •

وإذا لم تكن ثمة نتائج حربية الا هذه الصورة التى ذكرناها ، فقد كانت هناك نتائج أخرى لا تقل آثارها عن النتائج الحربية بل تزيد عليها •

أولها : أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم علم أحوال القبائل العربية التى تتأخم الشام من صحراء العرب ، وألقى فى نفوس أهلها روح العزة الاسلامية لكيلا يكونوا من بعد ذلك للرومان تبعاً يضربون بسيوفهم العرب ، ويكونوا شوكاً فى جنب ، وليريهـم أن الرومان فروا من لقائه ، وبذلك يستهينون بالرومان ، ويمزقوا نفوسهم ، ويستعدوا لينالوا من الرومان ، ويضربوهم بالسيف الاسلامى ، كما كان فى واقعة اليرموك من بعد •

ثانيها : ان كلمة الاسلام أخذت تتردد فى الشام بين نصارى غسان ، فكثر التابع ، وقل المانع وعلم أولئك العرب أن المستقبل للاسلام فى تلك الأرض لأنه دين الله ودين الحق الواضح الذى لا ضلال فيه ، وأنه الدين المستقيم الذى لا التواء فى معانيه ، وبذلك لا يناصرون الرومان ، ولذلك كانت واقعة اليرموك فى الشام بين الرومان والمسلمين ، ولم يكن للعرب دور فيها يعاونون الرومان به •

ثالثها : أن الفكر الاسلامى أخذ يتلاقى مع النصارى وتميزت الحقائق الاسلامية لدى كبراء النصارى ، ومن أسلم منهم كان له اسلامه ، ومن لم يسلم كان عقد الهدنة ، وكانت بعض السرايا تذهب فى الأرض القريية من الشام •

ولعل أبرز الاتصال بين مبادئ الاسلام ، والنصارى ، مكاتبة قيصر للنبی صلى الله تعالى عليه وسلم •

كتاب قيصر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

٦٤٥ — لما نزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك بعث اليه قيصر كتابا بعد أن لم يبعث جيشا ، روى الامام أحمد أن قيصر الروم قال : « ادع لى رجلا حافظا للحديث عربى اللسان أبعثه الى هذا الرجل بجواب كتابه (أى الذى بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيام الهدنة) فجىء بالرجل فدفع اليه الكتاب ، واسم الرجل التنوخى ، والقول عن الكتاب يسند اليه ، فهو يقول جاءنى فدفع هرقل الى كتابا ، فقال اذهب بكتابى هذا الى هذا الرجل ، فما سمعت من حديثه ، فاحفظ لى منه ثلاثا ، فلينظر فى صحيفته أكتب الى بشىء ، وانظر اذا قرأ كتابى هل يذكر الليل ، وانظر فى ظهره ، هل به شىء يريدك » .

قال الرجل فانطلقت بكتابيه حتى جئت تبوكا ، فقلت أين صاحبكم ؟ قيل ها هو ذا ، فاذا هو جالس بين ظهران أصحابه محتبيا على الماء ، فاقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجره ، ثم قال من أنت ؟ فقلت انا أخو تنوخ . قال هل لك الى الاسلام الحنيفية ملة أبىكم ابراهيم ؟ قلت انا رسول قوم ، وعلى دين قوم لا أرجع عنه ، حتى أرجع اليهم ، فضحك وقال : « لك لا تهدى من أحبيبت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو اعلم بالمهتدين » يا أخا تنوخ اناى كتبت بكتابى الى كسرى والله ممزقه ، وممزق ملكه ، وكتبت الى صاحبك بصحيفة فأمسكها . ولن يزال الناس لا يجدون منه بأسا مادام فى العيش خير . قلت هذه احدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى ، فأخذت سهما من جعبتى ، فثبته فى جنب سيفى ، ثم آتاه ناول الصحيفة رجلا عن يساره قلت من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ قالوا معاوية ، فاذا فى كتاب صاحبى « تدعونى الى جنة عرضها السموات والأرض ، قايين النار » فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبحان الله ، قايين الليل اذا جاء النهار ؟ قال فأخذت سهما من جعبتى ، فآلقته فى جلد سيفى فلما أن فرغ من قراءة كتابى قال ان لك حقا ، وانك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، اناسفر مرسلون ، قال فناداه رجل من طائفة الناس : انا أجيزه ، ففتح رحله فاذا هو بحلة صفورية ، فوضعها فى حجرى ، قلت من صاحب الجائزة ؟ قيل لى عثمان ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أيكم ينزل هذا الرجل ، فقال فتى من الانصار : انا فقام الانصارى وقمت معه حتى اذا أخرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يا أخا تنوخ ، فاقبلت اهوى ، حتى كنت قائما بمجلس فى مجلسى الذى كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره ، فقال ها هنا امض لما امرت به فجئت فى ظهره فاذا انا بخاتم النبوة فى موضع غضون الكتف » .

انفرد برواية هذا الحديث الامام أحمد بن حنبل فى مسنده ، ولم يكتب فى الضعاف التى قيل انها أحصيت فى المسند ، وقال فيه الحافظ بن كثير « هذا حديث غريب ، واسناده لا بأس تفرد به الامام أحمد » .

ومادام الخبر لا مطعن فيه ، وأخبار الثقات تقبل لأن الأصل فى خبر الثقة أن يكون صدقا ، واننا بهذا نقرر أن تبوك كانت موضع ذلك الاتصال الفكرى الذى التقت حقائق الاسلام بما عند النصارى ، وأصلحت الأفهام وتشفت الأوهام .

مصالحته عليه الصلاة والسلام ملك ايلة :

٦٤٦ — قلنا ان الوصول الى تبوك أتى بخير كثير ، فقد كان الاتصال الفكرى والسياسى ، وقد ذكر خير مكاتبة هرقل والنبي صلى الله عليه وسلم فى تبوك ، وقلنا ما فيه ، وركنا الى صدقه قبولاً لأخبار الثقات .

والآن نذكر خبراً مشهوراً ، وهو أن ملك ايلة أتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمه يحنة بن رؤبة ، فصالح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل خرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتاباً بذلك ، وقال ابن اسحاق انه عندهم .

وهذا نص كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليحنة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل ايلة سفنهم ، وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله تعالى ، وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريده ولا طريقاً يريده من بر أو بحر .

ونرى أن هذا العهد الذى أعطى صاحب ايلة عهد يعم ، ولا يخص ، فهو لا يقصر على أهل ايلة ، بل من معه من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، والمعية المذكورة هى التى يجمعها النصرانية وإذا كان أهل اليمن وهم فى الجنوب ليسوا مع فى الحكم والسياسة ، فهم مع فى الملة والاتباع الدينى ، فعقد الذمة يسرى على هؤلاء جميعاً ، اذا التزموا شروطه ، ويكون الذى عقد هو فيه صاحب ايلة ، فمن يعلمه منهم ، ويأخذ بحكمه فهو منهم .

وبذلك العهد يكون قد أخذ أكثر نصارى العرب يغدون اليه .

وكتب مثل هذا الصلح الى جهنم بن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة ، أو
أذن لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يكون لهما ما اشتمل عليه
من حقوق .

وكتب مثله لأهل جرباء ، وأذرح ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل جرباء
وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى ، وأمان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،
وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ومائة أوقية ، وأن الله تعالى عليهم كفيل
بالنصح ، والاحسان الى المسلمين ، ومن لجأ اليهم من المسلمين .

وهكذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعقد العقود الخاصة
بالسلم بين المسلمين والنصارى ومهد السبل للمسلمين يسيرون في تلك
الديار دعاة للإسلام ، ولا شك أن هذه نتيجة من أعظم النتائج التي تتفق مع
الدعوة الإسلامية ، فما جاء محمد صلى الله عليه وسلم محارباً ، ولكن جاء
هادياً مبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً صلى الله تعالى
عليه وسلم .

ولم يكتف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقد يعقدها ، وهو في
تبوك بل أرسل السرايا الى القبائل الشمالية القريبة من تبوك ، يسالهم .

سرية خالد الى أكيدر دومة

٦٤٧ — أرسل الى أكيدر بن عبد الملك ، من كنانة ، كان ملكاً على
دومة ، وكان نصرانياً ، وقد كان في هذه السرية عشرون وأربعمئة فارس ،
ودومة هي دومة الجندل ، وقال البيهقي كان الجيش مكوناً من المهاجرين ،
وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، وكان خالد على رأس الأعراب .

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أرسل هذه السرية .
قال لخالد : « انك ستجده يصيد البقر » وهذا يدل على أنه أمير لا يعنى بالجد
من الأمور .

خرج خالد حتى دنا من حصنه ، وصار منه بمنظر العين ، وكان ذلك في
ليلة مقمرة صائغة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، وباتت البقر تحك

بقرونها بأب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ، قال • لا والله قالت فمن يحرك هذه ؟ قال لا أحد ، عندئذ نزل بغرسه ، وقيل انه ماكرهم قبل أن ينزل •

وكان معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان ، خرجوا ، فتلقاهم خيل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذته وقتلوا أخاه ، لأنه أخذ يقاومهم •

وأكيدر هذا مرفه فاكه فى نعيم ، عليه ديباج مخوص بالذهب فاستلمه خالد ليعيـث به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد راع الديباج أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعلوا يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون وقد لفتهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن اقتنائهم بهذا الثوب الذى هو من نعيم الدنيا الذى يطغى وأخذ يدعوهم الى نعيم الآخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام « أتتعجبون من هذا ، فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » وقد عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أكيدر عقده على أن يقدم اليه الجزية •

ولقد روى الواقدى أنه كان مع أكيدر ألفا بعير ، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح • ومهما يكن من صحة هذه الرواية فإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خلى سبيله وعاد الى قريته ويظهر أنه ما خلى سبيله الا على أساس الذمة ، فيكون هو ومن معه على الذمة ، كما ذكر الواقدى ومما يذكر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يصطاد البقر ، ففى هذه الموقعة كانت البقر هى التى اصطادته لأنها دقت بقرونها الباب ، فنزل من أعلى حصنه ، فاصطاده جيش خالد ، ثم كان عفو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وفى رواية البيهقى أن سرية خالد الى أكيدر واستسلامه هى التى حملت يحنة صاحب أيلة على المجيء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعقده معه عقد الذمة •

عودة المسلمين من تبوك

٦٤٨ — كانت غزوة تبوك غزوة مباركة ، كانت الدعوة الى الاسلام هى لبها وغايتها ، ونهايتها ، فقد نشر الاسلام بها فى شمال البلاد العربية ، واستأنس به العرب فى هذه الاقاليم ، وأخذ يسرى نوره فى الشام ذاته ، مما

كان تمهيدا لجيوش المسلمين لفتحه ، حتى تكون المواقع من مواجهة بين الاسلام والرومان ، والعرب ، ومنهم عرب الشام ، اذ غزوا باسم الاسلام .

وقد عاد النبي بعد ذلك الى المدينة المنورة ، ويقول ابن اسحاق اقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا الى المدينة المنورة .

ويفهم من هذا ان مدة الاقامة بتبوك بضع عشرة ليلة لا تدخل فيها مدة السفر ، ذهابا وعودة ، وقد ألف في هذه المدة الناس ، وعقد عقود نمة ، وأزال سبطوات ناس ما كان يهمهم الا القرف والصيد ، وأوصل دعوة الاسلام الى الأراضي المصاوبة للرومان لكيلا تكون لهم قوة منهم اذا اشتدت الشديدة ، وقامت الحرب بين المسلمين والروم لتزول فتنة المسلمين في بلادهم .

وقد حدثت وهم في الرجوع خوارق للعادة على يد النبي صلى الله عليه وسلم وان ذلك لكثير في حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، تتبعه دلائل النبوة وتساييره ، وحيثما كان في حله وترحاله بينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسير ، والعطش شديد ، والماء نادر ، والأرض صحراء رملة وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ينحدر قليلا من مرتفع ، فنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يستقي منه قبل أن يصل ، فاستقى منه ناس ، فاستقوه ، اذ لا يسقى الا راكبا أو راكبين الى ثلاثة .

فلما جاء اليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد ماء ، فدعا على الذين استقوه ، ثم وضع يده تحت الوشل (المكان المرتفع) ودعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما شاء أن يدعو الله تعالى ضارعا اليه فانخرق ويقول في وصفه ابن اسحاق ما ان له حسا كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لئن بقيتم أو من بقى منكم ، لتسمعن بهذا الوادي .

وان هذا الحال كحال موسى اذ استسقى لقومه ف ضرب الحجر فانثقت منه اثنتا عشرة عينا ، فقد قال الله تعالى في ذلك : « واذا استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل اناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

انها نبع النبوة وصل اليه موسى بعصاه ، ووصل اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، فقد نشز الأرض يقطر قليلا فسمعه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانخرق ، وصار له حس كحس الصواعق ، كما قال ابن اسحاق .

القائد يرمى جنده حيا وميتا :

٦٤٩ — ان القائد يجب أن يكون محبا لجنده يحنو عليهم كما تحنو الأم على ولدها ، لأنهم خرجوا مقدمين أنفسهم فى سبيل الله تعالى ، غير مدخرين مال ، تاركين الأهل والولد ، والراحة ، فلا جزاء لهم الا جنة الله فى الآخرة ومظاهر التكريم فى الدنيا •

وقد مات أحد الغزاة فى الطريق ، وكان مؤمنا صادق الايمان ، قاوم فى سبيل الاسلام قومه حتى نازعوه ثوبه ، ذلكم هو عبد الله ذو البجادين قد مات فتولى دفنه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووزيراه أبو بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فهو يقول « راويا عن عبد الله بن مسعود قال : « قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية المعسكر ، فاتبعتها انظر اليها ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حفرة ، وأبو بكر وعمر يدياناه ، وهو يقول الدنيا الى أخاكما ، فدياه اليه ، فلما هياه بشقه قال : « اللهم انى أمسيت راضيا عنه • فارض عنه » فيقول عبد الله بن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب هذه الحفرة •

ويقول ابن هشام فى سبب تسميته بذى البجادين أنه كان ينزع الى الاسلام فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيقون عليه ، حتى تركوه فى بجاد ليس عليه غيره والبجاد الكساء الغليظ الجافى ، فهرب منهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما كان قريبا من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم شق البجاد اثنين ، فانتزى بواحد ، واشتمل بالآخر ، ففيل له ذو البجادين لذلك •

انظر الى تكريم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأمين المجاهد للمجاهدين ، لا يتركهم للذئاب تنوشهم ، بل يكرمهم فى مماتهم ، كما يكرمهم فى محياهم ، ليقدموا على الفداء كراما •

عصمة الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم

٦٥٠ — قال الله تعالى : « يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » فالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم دائم على الدعوة لاينى ، ينتقل فى لأواء الصحراء

من مكة المكرمة الى المدينة المنورة وما بينهما ، ثم يتجاوز الفيافي والصحاري ليكون في أرض الشام شامخا بالرسالة الالهية على الرومان ، ومن يتبعهم ، ومن يخضع ، فاذا لم يكن الله تعالى عاصمه من الذين يريدون به السوء في كل مكان من هذه الجرداء ، فمن يكون العاصم غير الله تعالى القوى الجبار .

لقد تسلل الى جيش الاسلام بعض المنافقين ، ورجع المدينة المنورة طائفة منهم ليخذلوا المؤمنين ، وبقيت أخرى لتخذل اذا سنحت لها الفرصة في السير ، أو في المعترك ، فقوت الله تعالى عليهم الفرصة التي ينتهزون أمثالها دائما .

ولما تمت أمور تبوك ، وتحولت الى دعاية اسلامية صادقة ، ولم تكن معركة قتال ينفثون فيها سموم التردد والهزيمة ، ووجدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم راجعا بجيش العسرة ، وهو في يسر وأمن وسلام واطمئنان ائتمروا بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومكروا محاولين أن يطرحوه من عقبة عالية في الطريق ، واذا كان قد أراد الخائنون اخوانهم أن يرموا عليه حجرا ثقيلا وهو جالس بجوار جدار لهم ، فقد أراد الخائنون من المنافقين أن يطرحوه من فوق عقبة في الطريق ، ولكن الله تعالى أعلمه بما بيتوا في الثانية كما أعلمه في الأولى .

لما بلغوا العقبة التي كان تدبيرهم الخبيث ومكرهم السيئ عندها ، فلما بلغها صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الجند أن يسيروا في بطن الوادي ، وقال : من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي ، فانه أوسع لكم . وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العقبة ، وأخذ المسلمون وكل الجيش بطن الوادي الا الذين ائتمروا ، وبيتوا الشر ، فقد أخذوا العقبة التي أخذها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لينفذوا ما مكروا به ، ومكروا مكرًا ، ومكر الله تعالى مكرًا ، والله خير الماكرين .

لقد علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكرهم الخبيث .

ان أولئك المنافقين لما علموا ذلك ، وما اتخذته النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنفسه من طريق استعدادوا وتلثموا ، فأخفوا وجوههم لكيلا يعرفوا ، فعرفوا بذلك التلثم الذي أرادوا أن يستتروا به ، فكشفهم المسلمون به .

لقد هموا بأمر عظيم ، وهو أن يطرحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من فوق العقبة . فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلازمه عمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وأن يمشيا أمامه ، على أن يأخذ عمار ابن ياسر بزمام الناقة ، وأمر حذيفة بسوقها .

وبينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سيره هو ومن معه ، اذ سمعوا وكذا أولئك الذين تأمروا لركائبهم ، وتدفعها عليهم ، وقد أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماذا يريدون حسا ، بعد أن علم بنياتهم من الله ، وقد ساروا وراءهم من غير أن يعلموا ، وظنوا أنهم مدركون ما يريدون •

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حذيفة ، وهو الذى يسوق الدابة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبدا ما يتوقعه عليه الصلاة والسلام من شرهم فى وجهه ، فرجع حذيفة ، ومعه المجن •

وأهم حذيفة ملثمين ، واستقبل وجوه راحلهم فضربها فى وجوها بالمجن ضريا ، وأبصر القوم وهم ملثمون ، وظن أن ذلك فعل المسافر ، يتقى باللائم حر الشمس ، أو حرور الهواء ولكن المتأمرين فزعوا واضطربوا بافزاع الله تعالى لهم ، شأن من يريد جريمة ويشرع فيها إذ أنه يضطرب عندما يظن أن أمره قد كشف ، فيفزع من تميمها ويتراجع •

ولذلك أسرع أولئك الملتثمون المتأمرين الى الاندماج فى وسط الناس فى بطن الوادى وأبطل الله تعالى كيدهم •

بعد ذلك رجع حذيفة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أدركه ، قال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش يا عمار ، فأسرعوا حتى استقوا بأعلاها ، ثم من بعد ذلك خرجوا من العقبة • وهم ينتظرون الناس •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحذيفة وهو الذى كان يسوق الناقة اذهب ، وأرسله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فذهب اليهم ومن معهم ، وتبين به أنه انكشف أمرهم - قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم له هل عرفت من هؤلاء الركب أحدا ؟

قال حذيفة عرفت راحلة فلان ، وفلان ، وكانت ظلمة الليل ، قد غشيتهم وهم ملثمون •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا •

قالوا : لا يا رسول الله ، قال فانهم مكروا ليسيروا ورائى ، حتى اذا طلعت الى العقبة طرحونى منها •

قالوا اذن نضرب أعناقهم • قال أكره أن يتحدث الناس ، أن يقولوا
أن محمدا قد وضع يده في أصحابه « أي بالقتل » •

ويقول ابن اسحاق في هذه القصة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه
قال : ان الله قد اخبرني بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وسأخبر بهم ان شاء الله
تعالى عند وجهه الصبح ، فانطلق (والخطاب لحذيفة) حتى اذا أصبحت
فاجمعهم ، وقالوا انه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبره وفي ذلك كلام بين
الرواة •

ومهما يكن فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى حذيفة بالآ يذكر
أسماءهم ، وهم منافقون ، وقيل كان حذيفة عنده العلم بأسماء المنافقين ،
وكان هذا سر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسره اليه حتى قيل انه اذا
مات أحد بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعرفوا حال حذيفة معه ، فان
رأوا حذيفة صلى عليه علموه مؤمنا غير منافق ، وان لم يصل عليه كانوا في
ريب من أمره •

مسجد الضرار

٦٥١ — كان من أولئك الذين ائتمروا بالنبي صلى الله تعالى عليه
وسلم ليطرحوه من فوق القمة أو من المتقوا معهم في قلوبهم ، من أنشئوا
مسجد الضرار ، وقد ذكروا انشاءه قبل سفر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،
وهو يجهز الجيش ، ويجمع النفقة والرواحل ، ويدعو الجميع أن يخرجوا
معه •

جاءوا الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في هذه الحال ، فقالوا
يا رسول الله ، انا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة ، والليل المطيرة
الشاتية ، وانا نحب أن تأتينا فتصلي فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام انى على
جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ان شاء الله تعالى لصلينا لكم فيه •

وبينما هو في عودته ، وهو (بذى أوان) موطن بينه وبين المدينة
المنورة نحو ساعة جاء خبر هذا المسجد من السماء ، ونزل فيه القرآن الكريم
اذ يقول سبحانه وتعالى في بنائه ومن بنوه : « والذين اتخذوا مسجدا
ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وارضادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ،
وليحلفن ان أردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبدا ،
مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون
أن يتظاهروا ، والله يحب المطهرين أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله

ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » •

لما نزل ذلك القول الحكيم من عند علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور •

والموضح أن الذي بناه طائفة من المنافقين وليسوا من الأنصار ، إلا أن يكونوا من الأوس والخزرج الذي كان المنافقون ينتمى كثير منه إلى الخزرج ولا يمكن أن يكونوا من أنصار الله الذين أودوا ونصروا ، الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة •

والآية الكريمة واضحة في البواعث التي بعثتهم لبنائه إنما اتخذوه ليضاروا المؤمنين الذين يلازمون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مسجده والمساجد التي بناها كقباء وغيره ، التي أسست على تقوى من الله تعالى ورضوان ، أنهم يريدون بذلك تفريق المسلمين بترويج ما يفرق جماعتهم ، وبث الفتن والسوء فيها ، وليترصدوا فيه ويتربصوا من يحارب الله تعالى ورسوله ، ومن يأتهمون معهم •

ولقد قال لهم بعض الذين لم يدخلوا في الإسلام « ابنوا مسجدكم ، واستعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر الروم ، فأتي بجنده من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه » •

وأن هذا المقصد السيئ واضح من أن البناء كان والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتجهز ، بجمع الجموع للذهاب إلى تبوك ، وقد كانوا يتوقعون ما يتمنون ، وهو انهزام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجيشه أمام الرومان ، ولذلك دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من صحابته فقال انطلقا إلى هذا المسجد الظالم فاهدماه وحرقا فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف فقال أحدهما لصاحبه ، انظر حتى أخرج اليك بنار من أهلى ، وهم بنو سالم بن عوف وذهب إلى أهله ، فأتى يسعف من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتردان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقا وهدماه ، فتفرقا عنه •

ولقد خيب الله ظنهم ، فقد تضائل الرومان عن أن يلتقوا مع جيش الإسلام ، وذهب عنهم ما كانوا يتحدثون فيه من كلام منبعث من نفاقهم إذ جاء على لسانهم أن المسلمين لا يستطيعون جلاء الروم ، فقد خاف الروم ولم يخف رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذين قدموا أنفسهم لله تعالى •

الثلاثة الذين خلفوا

٦٥٢ — انقسم المؤمنون الذين دعاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند الخروج الى تبوك الى ثلاثة أقسام :

وأول الأقسام وأظهرها ، وهم قرة الاسلام الأولى ، الذين شروا أنفسهم لله بأن لهم الجنة يقاتلون ويقتلون ، وهم الذين تقدموا للذهاب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والألتصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب الله عليهم انه بهم رءوف رحيم » *

والقسم الثانى : جماعة تخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنهم منافقون ، ومنهم ضعفاء الايمان ، ومنهم من فيه خور ، وضعف ، وفى كل أحوالهم ليسوا من أقوياء الايمان الذين يفسدونه بأنفسهم وأموالهم ، وراحتهم *

وأولئك اعتذروا وقبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اعتذارهم ، وبعضهم كاذب لا محالة ، وقال فيهم سبحانه وتعالى : « إنما السبيل على الذين يستأننونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون ، يعتذرون اليكم اذا رجعت اليهم ، قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون ، سيطفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ، يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » *

عندما دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ، ثم جاء اليه المخلفون الذين تخلفوا لمرضهم وضعفهم ، والذين لا يجدون ما يحملهم ، فكان عذرهم باديا ، يسقط تكليفهم هذا الخروج الذى لا يكون الا على أهل القوة والسلامة ، والذين يجدون ما ينفقون ، ولا ما يحملهم فالله تعالى قد أسقط عنهم الحرج بقوله تعالت كلماته : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » *

والباقيون القادرون الأغنياء تقدموا بالاعتذار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطفقوا اليه يعتذرون ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أظهره ، وكما يقول ابن اسحاق

قبل علانيتهم ، وبايعهم ، ووكل سرائرهم الى الله تعالى ، وهو يعلم أنه ان رضى عنهم ، لا يرضى عنهم الله سبحانه وتعالى ، ولكنه مأمور بالآلا يحكم الا بالظاهر ، واذا قبل الظاهر ، فقد يسيرون فى تحسين الباطن .

القسم الثالث - من أخلصوا دينهم لله تعالى ، ولكنهم تخلفوا من غير معذرة ، ولم يرتضوا الكذب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخير لهم أن يعترفوا بتقصيرهم عن أن يكذبوا على رسول الله تعالى عليه وسلم ، وهؤلاء ثلاثة ، لم يعدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا من أقوياء الايمان ، ولكن غلب هواهم فى القعود فى ساعة التجهيز أو غلب فيهم ضعف وقتى ، واحساس ببعد الشقة ، فرضوا أن يكونوا مع الخوالم ، ولكن فيهم قلوب ، لم يطبع عليها كأولئك الذين طبع الله على قلوبهم .

لذلك كان لابد من علاج نفسى لهذه القلوب التى لم ترن عليها روائى الاثم المقصود ، وان كان تقصير فقد أدركوه ، وكان ذلك العلاج الذى رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى وذلك بالاعراض عنهم ، ومهاجرتهم ، وذلك لا يقاط نفوسهم ، وتعويدهم الصبر ، وكانت هذه العقوبة تشبه الكفارة بالصوم ستين يوما متتابعة ، لأنها تكون قربة للنفس وتهذيبها ، لقد أعرض عنهم المؤمنون خمسين يوما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله تعالى الا اليه .

ولنترك الحديث عنهم وعن نفوسهم وعن معاملة المسلمين الى الذى تحدث بعوالج نفسه ، وما تلقاه وما كان فيه من صبر فريد وهو كعب بن مالك :

« جاء كعب بن مالك ، فلما سلم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم « تبسم له تبسم المغضب ، ثم قال تعال ، قال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه . فقال ما خلفك ! ألم تكن قد ابتعت ظهرك . »

فقلت بلى والله ، انى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت ان حدثتك اليوم حديث كذب ترضى على ليوشكن الله تعالى أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه على انى لأرجو فيه عفو الله تعالى عني والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى منى ولا أيسر حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما هذا فقد صدق فقم ، حتى يقضى الله تعالى فيك ، فقممت ، وكان رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى يؤنبونى فقالوا لى ، والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبيك
استغفار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لك ، فوالله ما زالوا يؤنبوني ،
حتى أردت أن أرجع ، فأكذب نفسي ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا
نعم رجلان قالوا مثل ما قلت ، فقلت لهما مثل الذي قيل لك ، فقلت من هما ،
قالوا مرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية ، فذكروا لى رجلين
صالحين شهدا بدرا ، فهما أسوة ، فرضيت حين ذكرنا لى ، ونهى رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ،
فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض ، فما هى بالتى أعرف ،
فلبئنا على ذلك خمسين ليلة ٠٠ فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما
يبكيان ٠ وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة
مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وأتى رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى
نفسى هل حرك شفتيه يرد السلام على أم لا ، ثم أجلس قريبا منه ، فأسارقه
النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل الى وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى
إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط
قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس لى ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد على
السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلمنى أحب الله ، ورسوله صلى
الله تعالى عليه وسلم ، فسكت ، فعدت له لنشدته ، فقال الله ورسوله صلى
الله تعالى عليه وسلم أعلم ، ففاضت عينائى وتوليت حتى تسورت الجدار ،
فبينما أنا أمشى بسوق المدينة المنورة وإذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم
بالطعام يبيعه فى المدينة المنورة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس
يشيرون الى حتى إذا جاءنى دفع الى كتابا من ملك غسان فإذا فيه :

« أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك جافاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ،
ولا مضية فالحق بنا نواسك » فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء ، فقيممت
التنور فسجرتها حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين إذ رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم يأتينى فيقول : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
يامرك أن تعزل النساء فقلت : أطلقها ، أم ماذا ٠ قال : لا ولكن اعتزلها
ولا تقربها وأرسل الى صاحباى مثل ذلك ، فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى
عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت :
يا رسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ٠ فهل تكره أن أخدمه
قال : لا ، ولكن لا يقربك ٠ قالت : والله انه ما به حركة الى شيء ، والله ما زال
يبكى منذ كان من أمره الى يومه هذا ، قال كعب : فقال لى بعض أهلى لى
استأذنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال
ابن أمية أن تخدمه ٠ فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم ، وما ندرى ما يقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا

استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، وليثت بعد ذلك عشر ليال حتى اذا كانت لنا خمسون من حين نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا ، بينما أنا جالس على الحال فى ذكر الله تعالى ، قد ضاقت على نفسى وضائق علينا الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا ، فعرفت أن قد جاء فرج الله تعالى ، وأذن له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوبة الله تعالى علينا ، حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبلى صاحبى مستبشرين » *

هناك الناس فلم يقبل تهنئتهم وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم المربى المكمل أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك قال له مالك أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ، قال لا — بل من عند الله *

صفت نفس الرجل ، وتهذب ، وخرج من كل ماله صدقة لوجه الله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبق بعض مالك ، فابقى سهمه من الغنائم التى استولى عليها المسلمون فى خيبر *

ولقد خص الله سبحانه وتعالى أولئك الذين تخلفوا فى الأرض بذكر قبول توبتهم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع المهاجرين والأنصار فقال تعالى كما تلونا « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ، يا ايها الذين آمنوا ، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » *

المعبرة والقريبة :

٦٥٣ — ذكرنا حديث كعب بن مالك مع طوله ، لأنه حديث النفس التائبة النادمة التى زلت ، وحديث الندم بعد الزلل ، وكما يقول الصوفية : ان زلة أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا ، لقد ذل الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه أحس بالنفس اللوامة تحركه الى ارضاء الله ورسوله *

وقد مكث خمسين ليلة بذكر الله فى كل ساعاتها ، ويحس فى كل آنية منها بوخز ضمير ، وما يوقظ ذلك الوخز يرى فى نظرات النبي صلى الله تعالى

عليه وسلم ، وفى نظرات الناس ، وفى الأسواق ، وهو يصابر نفسه ويجيء خطاب من ملك غسان يطلب أن يلتحق ، فيراها نكبة أخرى ، ويجيء إلى التنور ليسجره فيه ، وهكذا وان هذه القصة تدل على أمرين :

أولهما : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فى هذا الرجل وصاحبيه خيرا لم يره فى غيرهما من الذين اعتذروا ومنهم منافقون ، وضعاف الايمان اما هذا فقد أبدى صفحته ، ولم يرض فى موقفه بالاعتذار ، ولا يريد أن يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو موقف طاهر وقلب طاهر ، ولكن علق به درن قليل ، يمكن أن يزول ، ولا يتوب عليه الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه هذا الدرن ، ويريد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن تكون منه توبة نصوح تليق بالمؤمن الصادق فى ايمانه و يقينه ، فكانت هذه لتكون منبها يستمر خمسين ليلة ، وكأنه اعتكف خمسين ليلة - منصرفا فيها الى الله تعالى ، حتى كانت القاطعة التى حملت الثلاثة على الاعتكاف ، فاعتكف اثنان ، وصار الثالث بين الناس ، وكأنه بينهم ، فهو الغريب بين أصحابه وأهله ، حتى أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبول توبتهم .

الأمر الثانى : الذى يدل عليه ذلك الخبر أن الانسان خلق لياتلف مع غيره يتلمس التشجيع النفسى من نظرات ، وملامح الوجوه ، ومظاهر الأقوال والأفعال والجوارح التى تصدر عن الناس ، وان الاستنكار النفسى يفعل فى نفوس الأخيار مالا تفعله العقوبات بالنسبة للأشرار ، فالذين يستهينون بالاستنكار القلبي فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع ، فليسانه فان لم يستطع فبقلبه » مخطئون ، وما كان عقاب هؤلاء الثلاثة الا استنكارا قلبيا بدا فى الوجوه والجوارح ولم يبد فى القول .

وان هذا الذى سنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يجب علينا اتباعه ، فلا يصح لنا - أن نبش فى وجوه الأشرار ، ولا الذين يرتكبون الآثام لأنه عسى أن يثير ذلك ضماثرهم قتلوم ، واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد فعل ذلك مع ثلاثة لدن يسير أصاب قلوبهم ، افلا نفعله مع اشرار هذا الزمان ، واذا كنا نعجز عن مقاطعتهم ، فاننا لا نمالئهم ، ولا نلتف حولهم مع ظلمهم ، لأن مجرد الالتفاف حولهم يجعل الرجل من شيعتهم ، وان لم يعمل عملهم ، ويجعلنا ذلك سائرين معهم ، وان لم نعاونهم بالفعل ، فاننا نعاونهم بالالف ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من مشى مع ظالم ، فقد سعى الى جهنم » .

سبعة ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد

٦٥٤ — كانوا عشرة تخلفوا ، لعل منهم أولئك الثلاثة الذين ذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يستمع الى الأعداء للمتخلفين يقبل علانيتها ، ويترك السرائر الى الله تعالى ، وما كان للرقيق الطاهر الذي قبل لفظ اللسان وليس لفظ القلب الا أن يقبل العلانية ، ويترك الله ما بطن ، لأنه لا يفتش عن القلوب .

ان أولئك الثلاثة ذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون لا عذر لنا ، ولا سبيل لأن نكذب عليك ، فصدقهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطهر قلوبهم ، وهذب نفوسهم وأزال الضر بتلك العقوبة الهينة في ظاهرها القوية في تأثيرها .

ولكن سبعة آخرون لم يذهبوا معترضين ، لأنه لا عذر لهم ، ولم يذهبوا ينفون الاعتذار بل جاءوا وعاقبوا أنفسهم بأنفسهم ، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد النبوي ، فلما رأهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ، قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويعذرهم ، فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم ، حتى يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فأطلق سراحهم ، ومنع الوثاق بأمر الله تعالى ، وقيل نزل فيهم « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، ان الله غفور رحيم » أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ففك وثاقهم ، وأطلقهم وعذرهم .

ولم يجدوا أن ما فعلوه بأنفسهم فيه تكفير لتقصيرهم الذى تخلفوا به عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأوا أن الصدقة تطفىء الذنوب كما يطفئ الماء النار ، فتصدقوا بكل أموالهم ، وقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أمرت أن آخذ أموالكم » فقبل نزل قوله تعالى فيهم « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان هلاكك سكن لهم والله سميع عليم » .

هذا قسم أخذ في تطهير نفسه ، ولم يطهرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأبعاد الناس ، وهم فريق واحد ، أبى أن ينتحل عذرا شعورا منه

بالتقصير فى التخلف عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانهم بذلك وقعوا فى خطأ جسيم يكاد يكون خطيئة .

ولقد ذكر ابن كثير رضى الله تعالى عنه أقسام المخلفين ، فذكرهم أربعة أقسام قريبا مما ذكرنا ، قال : « كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام :

١ - مأمورون مأجورون كعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن سلمة وابن أم مكتوم .

٢ - ومعذورون ، وهم الضعفاء والمرضى ، والمقلون وهم البكاءون .

٣ - وعصاة مذنبون وهم الثلاثة ، أبو لبابة ، وأصحابه المذكورون .

٤ - وآخرون ملومون مذمومون ، وهم المنافقون .

وقد ذكرنا هذه الأقسام فى القرآن الكريم ، ونوافق الحافظ بن كثير على هذا التقسيم ، ولكن لا نسمى أبا لبابة وأصحابه مذنبين ، ولكن نسميهم مقصرين مخطئين .

وفى الحق ان غزوة تبوك التى كانت آخر غزوات فيها اختبار لنفسوس الذين مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد بدت فيها أحوال الذين كانوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بدأ الأقوياء الذين لا يصدرون الا عن أمره ، وبدأ المنافقون الذين لازموه مخذلين بخروجهم ، ومخذلين فى سيرهم ومتأمرين يريدون اغتيال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وبدا الذين ينقصهم الهمة والاستجابة فى الشدة ، وان كان لا ينقصهم الايمان وقوة اليقين ، وقد عالجهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نفسيا بأمر ربه ، وعالجوا أنفسهم ، والجسم القوى يقبل العلاج ، ولم يعالج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غيرهم ممن تخلفوا ، بل تركهم الى ما هم فيه يحاسبهم الله تعالى .

الوفود

٦٥٥ — فى العام التاسع جاءت الوفود الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة تبوك ، ويقول كتاب السيرة ، انها آخر غزوة غزاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد عمت الدعوة الاسلامية البلاد العربية وصار العرب بين مجبيين ، وكافرين ، ومتريدين يسرون فى طريق الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وقد جاءت وفود ممن أسلموا ، ووفود أخرى تقدم ذكرها وقد قال ابن اسحاق ، وانما كانت العرب تتربص باسلامها أمر هذا الحى من قريش ، كانوا امام الناس وهداتهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك . وكانت قريش هى التى نصبت الحرب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة المكرمة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام عرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله كما قال عز وجل : « أفواجا » يضربون اليه من كل وجه ، يقول الله تعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك ، واستغفره انه كان توابا » أى فاجمد الله على ما ظهر من دينك ، واستغفره انه كان توابا . وقد قال كانت العرب تتلوم باسلامهم قبل الفتح ، فيقولون اتركوه وقومه ، فانه ان ظهر عليهم فهو نبى صادق ، فلما كانت واقعة الفتح بادر كل قوم باسلامهم .

ومؤدى هذا أن فتح مكة المكرمة لم يكن فتحا لمدينة لها قدسيته فقط ، بل كان فتحا لقلوب الناس نحو الاسلام ، اذ هم لقريش تبع ، ولم يكن الفتح اكراها لقريش على الاسلام ، بل ازالة نقمة الزعماء والكبراء ، وتبين الحق الصريح الواضح ، حتى ان الكبير منهم كان يقدم على الاسلام ، لأنه علم انه العقل وأنه الحق ، كما رأينا فى اسلام عكرمة بن أبى جهل ومن كان معه من اخوان له الى آخر لحظة من مقاومته .

ولكن مع ذلك يجب التمييز بين من دخل فى دين الله ، والبلاء بلاء ، وحمل عبء المصابرة على الأذى فى مكة المكرمة ، والتهكم والاستهزاء ، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله ، وحملوا السيف ، وقتلوا وقتلوا ، وهم السنن اشترىوا أنفسهم وباعوها ، حتى بلغ الاسلام ما بلغ وفتحت مكة المكرمة أو مهد للفتح بالحديبية ، يجب التفرقة بين الذين دخلوا وحملوا العبء مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبين الذين جاءوا من بعد ، ولذا يقول الله تبارك

وتعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح ، وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » •

ويقول فى ذلك ابن كثير ، فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين زمن الفتح ممن يعد وفوده هجرة ، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله تعالى خيرا وحسنى ، ولكن ليس فى ذلك كالمسابق له فى الزمان والفضيلة •

ونحن نرى أن الفتح الذى جاء به القرآن الكريم كان سنة ست بصلح الحديبية لأن الله تعالى سمى صلح الحديبية فتحا ، وقد كان كذلك ، لأنه فرق بين قوة الحرب وقوة السلام ، وقد دخل الناس بعد صلح الحديبية أفواجا فى الاسلام ، والذين كانوا قبل صلح الحديبية هم الذين قرر الله تعالى فى كتابه الكريم ، أنهم الذين رضى عنهم ورضوا عنه فى قوله تعالى : « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله ، فسيؤتيه أجرا عظيما » •

وقال سبحانه وتعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت المشجرة فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا » •

هؤلاء هم الذين أنفقوا من قبل الفتح ، ومن جاء بعدهم ليس مثلهم ، فليس عمرو بن العاص كعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وغيرهم ، هؤلاء هم الذين سبقوا بالحسنى وقاموا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجهاد والاسلام غريب ، وكان من بعد ذلك عموم الدخول فى الاسلام ، ولذلك كان الذين أسلموا بعد الحديبية والفتح أضعاف الذين أسلموا من قبل •

وقد مزينة

٦٥٦ — جاء هذا الوفد عند الحديبية وقبل الفتح ، ومجيئه فى ذلك الوقت يدل على أن دخول الناس فى دين الله أفواجا كان بعد الحديبية ، وامتد الى ما بعد فتح مكة المكرمة وتبوك •

روى أن أول وفد من مضر كان وفد مزينة بأربعمائة من مضر ، وروى أن ذلك فى رجب سنة خمس ، وقد جاءوا مهاجرين ، وقالوا ان أول من وفد من مزينة خزاعى بن عبد سهم ، ومعه عشرة من قومه ، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على اسلام قومه ، ولما رجع اليهم لم يجدهم كما ظن فيهم إذ تأخروا عنه •

ويظهر أن أولئك الأربعمئة جاءوا بعد أن فشا الإسلام فيه ، وبعد أن أغلق باب الهجرة الى المدينة المنورة ، وأريد أن يعمر الإسلام البلاد العربية كلها ، فقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا الى أموالكم » .

وبذلك يكون تعيين الزمن بأن القدوم سنة خمس ، إنما كان وقد خزاعي الذي بايع عن اسلام قومه ، ولم يكونوا قد أسلموا ، ثم جاء بعد ذلك أربعمئة فرأى أن يمكثوا دعاة للإسلام في بلادهم وذلك بعد أن تكاثر المسلمون عندهم ، وذلك بعد الحديبية أو بعد الفتح ، وإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زود هؤلاء بالطعام من التمر إذ لم يكن معهم زاد .

وقد بنى تميم

٦٥٧ — وذكرنا من أخبار بنى تميم عندما هموا بالاعتداء على خزاعة ، فأرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلا ، فأسر منهم أسرى ، وسبى سبايا ، فجاءوا لذلك ، وقالوا من وراء الحجرات في جفوة أخرج اليها يا محمد ، فقال تعالى : « أن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم » . وقد رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسراهم ، وقد تكلموا بعد ذلك مفاخرين بأنفسهم ، ورد الأنصار مفاخرتهم .

والآن نقول ما رواه البيهقي بسنده . قال قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزبيرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم التميميون ، فوقف الزبيرقان بن بدر وقال :

أنا سيد بنى تميم والمطاع فيهم ، والمجاب ، وأمنعهم من الظلم ، وأخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك ، وأشار الى عمرو بن الأهتم .

قال عمرو بن الأهتم انه لشديد المعارضة مانع لجاره مطاع في أدنيه . فقال الزبيرقان بن بدر ، والله يا رسول الله لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم الا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم ، أنا أحسدك فوالله انه للئيم الخال حديث المال أحق الوالد مضيع في العشيرة والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا ، وما كذبت فيما قلت أخرا ، ولكنى اذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، واذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، ولقد صدقت في الأولى ، والأخرى جميعا .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان من البيان لسحرا ،

وان من الشعر لحكمة ، ولعل هذه المجاورة كانت فى قدومهم لفك أسراهم ، فهو قدوم وليس بوفد •

وقد روى البخارى فى فضل بنى تميم قول أبى هريرة : « لا أزال أحب بنى تميم بعد ثلاث سمعتهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولها فيهم : هم أشد أمتى على الدجال ، وكانت فيهم سببة عند عائشة ، فقال اعتقيها ، فانها من ولد اسماعيل ، وجاءت صدقاتهم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذه صدقات قومي » •

هذا ما رواه البخارى ، ورواه مسلم كذلك •

وأقول قال على كرم الله وجهه ، فى أيام شدائد البغى ومقاومته « ما أقل لبنى تميم نجم الا بزغ لهم نجم آخر » والله أعلم •

وقد ثقيف

٦٥٨ — امتنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هدم حصون ثقيف ، وحرق كرومهم ، وأنهى الحرب ، لأنها كانت آخر شوال ، وأقبل ذو القعدة الحرام ، ولأن منهم من مال الى الاسلام ، وفشا الاسلام فى الطائف ، ولكن نخوة الجاهلية وغلظ قلوبهم منعهم من التسليم ، وان كان الاسلام قد فشا فيهم •

فلما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم ، اتبع أثره عروة بن مسعود ، وقد ذكرنا لقاءه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعودته الى قومه ، وقتلهم له بالنبل •

بعد قتل عروة ، وكان محبوبا فيهم ، أحسوا بأنهم صاروا منفردين بين العرب ، وخصوصا أن مكة المكرمة التى تقرب منهم قد أسلمت وأذعن ، وأن القبائل تدخل فى الاسلام ، وربما كان مقتل عروة المحبوب فيهم كان له أثر فى نفوسهم بالندم على قتل محبوب ، فصغت قلوبهم لما كان يدعوهم اليه ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بالعرب ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان أعاد الكرة عليهم لم يكن لهم به طاقة ، بل انهم اليوم لا طاقة لهم بين العرب •

اتجه عمرو بن أمية من كبرائهم الى كبير آخر فيهم هو عبد ياليل ، فقال له :

« انه قد ذهب أمر ليست معه هجرة ، انه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيته ، قد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم »

عندئذ ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض ، أفلا ترون أنه لا يؤمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد الا اقتطع ، فاجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا ، كما أرسلوا عروة ، فامتنع الا أن يكون معه نفر منهم خشية أن يصنعوا به مثل ما صنعوه بعروة ابن مسعود .

بعثوا عبد ياليل في وفد من خمسة كانوا في جملةهم ستة .

قدموا المدينة المنورة ، فكان على رعية ابل الصحابة وكان بها المغيرة ابن شعبة . لأنها نوبته ، وكانوا يتولون عليها بالمناوبة ، وعندما رآهم المغيرة نهض مسرعا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلقه أبو بكر ، فأراد أن يسبقه هو الى اخبار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره .

عاد المغيرة اليهم ، وهو يعلم أنهم جفاة ليعلمهم كيف يحيون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يفعلوا الا بتحية الجاهلية .

ضرب عليهم رسول قبة في المسجد ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيء اليهم فيه وكانوا يطمئنون الى خالد بن سعيد بن العاص ، وكانوا اذا جاءهم الطعام من قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يطعمون الا اذا طعم منه خالد .

وبعد ذلك أعلنوا اسلامهم ، ولكن في بقية جاهلية طلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقى الملت ثلاث سنين ، فرفض ، طلبوا سنتين فأبى ، طلبوا سنة فأبى ، طلبوا شهرا ، فأبى ، وكيف يقرهم على الوثنية ساعة من زمان .

سأله صلى الله تعالى عليه وسلم الا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأجابهم وأرسل المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان بن حرب ، أن يهدموها .

طلبوا أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا خير في دين لا صلاة فيه » ، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقامهم في خباء في المسجد ليروا الناس ، اذا صلوا ، فيستأنسوا بالصلاة وليعلمهم ، ولكن جفوة الجاهلية حالت بينهم وبين الانس بالصلاة .

وكانوا يرون أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذا خطب لا يذكر نفسه فقالوا كيف يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله وهو لا يشهد به في خطبته ، فبلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا ، قال ، فاني أول من شهد أني رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وكان فيهم عثمان بن أبي العاص وكان أصغرهم فكانوا يخلفونه على رجالهم ، فكان القوم كلما عادوا الى رجالهم بالهجرة ليقبلوا ، ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسأله عن الدين ، واستقرأه القرآن الكريم ، وكان يختلف اليه مرارا ، حتى فقه في الدين ، وعلم ، وكان إذا وجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نائما عمد الى أبي بكر ، وكان يكتفم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأحبه .

مكث الوفد يختلف الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يدعوهم الى الاسلام ، فأسلموا .

قال كنانة بن عبد ياليل الذي كان على رأس الوفد ، كما توهنا هل أنتم مقاضينا حتى نرجع الى قومنا ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان أنتم أقررتم بالاسلام أقاضيكم ، والا فلا قضية بيني وبينكم .

قال : أفرايت الزنى ، فانا قوم نغترب ، ولابد لنا منه .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرام ، فان الله تعالى يقول : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

قالوا أفرايت الربا ، فانه أموالنا كلها .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لكم رموس أموالكم ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » .

قالوا أفرايت الخمر ، فانه عصير أرضنا لابد لنا منها .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ان الله تعالى قد حرمها وقرا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

أخذوا بما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ، ولكن بقية الوثنية فيهم . فقد سألوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقى الربية (اللات) ، فقال اهدموها ، فقالوا واهمين لو علمت الربية أنك تريد هدمها لقتلت أهلها .

فقال عمر بن الخطاب وكان حاضرا ويحك يا ابن عبد ياليل انما الربة حجر ، قالوا انا لم نأتك يا ابن الخطاب وقال ابن عبد ياليل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • تول أنت هدمها فنحن لا نهدمها ، وأرسل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة فهدهما كما ذكرنا •

أكرمهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن علمهم ، وطلبوا أن يؤمر عليهم أحدا ، فأمر أصغرهم عثمان بن أبي العاص ، وكان قد حفظ سورا من القرآن الكريم وأدرك معاني الاسلام •

ولكن كان المتحدث عن ثقيف بن عبد ياليل ، لأنهم الذين نصبوه المتحدث باسمهم ، وكان عليهما بنفوس قومه ، يعلم كيف يدخل الى نفوسهم ، وأمامه تجربة عروة بن مسعود الذي كان محبوبا أكثر من أبنائهم فلما جاءهم مسلما قتلوه •

ولذلك كنتم قصة اسلامهم وما سلموا به للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قبولهم لتحريم الزنى والربا والخمر ، وجاءوا اليهم مخوفين ، ولم يجيبوا اليهم مسلمين •

خوفهم بالحرب ، وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سألهم أمورا فأبوا : سألهم هدم الملات والعزى وتحريم الخمر والزنى والربا فأبوا •

أظهر الوفد الحزن والكرب ، وسرى ذلك الى ثقيف ، وذهب الوفد الى الملات وثن ثقيف يكرمها ، وأظهر كل من فى الوفد لخاصته ، أنه جاء من عند رجل فظ غليظ القلب يأخذ من شاء بظهر السيف ، وأدان له العرب فقرض علينا أمورا شدادا ، هدم الملات والعزى وترك الاموال ••• الى آخر ما طلب •

قالت ثقيف لا نقبل ذلك أبدا •

فقال الوفد المدرك : أصلحوا السلاح ، وتهيئوا للقتال واستعدوا له ، ورموا حصنكم •

فكرت ثقيف يومين أو ثلاثة يدبرون القتال ، ثم القى الله فى قلوبهم الرعب ، وقالوا والله ما لنا به طاقة ، وقد دان له العرب كلها ، فارجعوا اليه فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه ، فلما رأى الوفد أنهم قد اختاروا الامان على الخوف والحرب • عندئذ أظهر لهم ما أخفى ، وقال لهم الوفد ، فانا قد

قاضيئنا ، وأعطيناها ما أحببنا ، وشرطنا ما أردنا ، ووجدناه اتقى الناس وأوفاهم وأصدقهم وأرحمهم ، وقد بورك لنا ولكم فى مسيرنا ، وفيما قاضيئنا عليه فاقبلوا عافية الله •

قالت ثقيف ، فلم كتمتمونا هذا الحديث وغمتمونا أشد الغم ! قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان فأسلموا مكانهم ، وجاءتهم رسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد امر على هذه الرسل خالد بن الوليد ، وفيهم المغيرة •

أقدم المغيرة ليهدمها ، وثقيف كلها رجالا ونساء يزعمون أنها لا تهدم أبدا يظنون أنها ممتنعة عن الهدم ، فأخذ المغيرة يخادعهم مستهزئا بزعمهم ، وقال لأضحكتكم اليوم من ثقيف ، فأخذ المعول يضرب به ، ثم أسقط نفسه وركض ، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا • أبعد الله المغيرة ، قتلتها الربة ، وفرحوا حين رأوه ساقطا ، وقالوا من شاء فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله ما استطاع •

بعد أن أثار المغيرة ثقيفا مستهزئا بهم وثب وأخذ المعول ليهدم ، وقال قبحكم الله معشر ثقيف ، إنما هى خجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال معه فهدموها حجرا حجرا حتى سووها بالأرض •

ولكن صاحب مفتاح اللات مازال على ضلاله فجعل يقول ليغضين الأساس ، فليستخفن بهم فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد ، دعنى أحفر أساسها ، فحفره ، حتى أخرجوا ترابها فبهتت ثقيف ثم انتزعوا حليها وكسوتها وأتى بها الوفد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وروى أن ثقيفا ، قد اشترط وفدها أن لا صدقة عليه ولا جهاد فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيتصدقون ويجاهدون » •

ويظهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يظهر ذلك الشرط ، أو لم يظهر اجابته انتظارا لما يكون بعد اسلامهم • ويروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يبنى مسجدا ، حيث كان طاغيتهم (اللات) •

٦٥٩ — ذكرنا أحوال وفد ثقيف مع طوله ، لأن فيه بيانا لأحوال النفوس وكيف تعالج ، أنهم قوم أشداء غلاظ فانه يتبين من حديثهم كيف تسيطر

الأوهام عند نقص المدارك ، لقد هدمت كل الأوثان في مكة المكرمة ، فما رأينا من قریش ما ظهر من ثقيف عندما هدمت اللات أو الطاغية كما يسمونها وكيف كانوا يعتقدون أن من يهدمها ، يسقط ، وكيف تعابث بهم المغيرة ، فأسقط نفسه عند ضرب أول ضربة فصاحوا ثم كان الهادم هو خالد بن الوليد القرشي الذي كان حديث عهد بالجاهلية •

ثم فى القصة كيف تستولى الأهواء والشهوات على النفوس غير المؤمنة ، حتى أنهم ليطالبون منه إباحة الزنى والخمر ، والربا ، وقد ردهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وما أشبه أجيال ثقيف بالمسلمين العصريين المجددين الآن الذين يستبيحون الربا ، ويعاضدهم بعض الذين يتسريلون سربال العلماء ، وكانوا يحفظون القرآن الكريم ، ويستبيحون الزنى أحيانا باسم المتعة وأحيانا باسمه الصريح ، ويعدونهم تقدما ، ويستبيحون الخمر جهارا نهارا •

وبين أيدي الذين أباحوا المتعة عندما طلبوا إباحة الزنى لأجل اغترابهم ، فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يشير اليهم بالمتعة ، لو كانت مباحة ، كما يقول أولئك المتفلسفة الذين يريدونها لأغراب التلاميذ • ولا حول ولا قوة الا بالله •

وهناك أمر تربوى رائع ، وهو علاج كنانة بن عبد ياليل لشماس ثقيف إذ أنه أخفى أسلامه وصحبه وطلب اليهم الاستعداد للحرب ، ففكروا مليا ، وطلبوا هم التسليم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو أظهر أسلامه • ومن معه ابتداء ، لقتلهم كما قتلوا عروة بن مسعود ، أن الأمر إذا عرض مقررًا قاطعا ، قاومتها النفوس المشاكسة الشامسة ، لأن من طبيعة هذا النوع من النفوس أن ترد ما يعرض عليها على أمر لا بد منه إذ ليسوا من الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فاتبع كنانة بن عبد ياليل ، طريق التمهيد للأمر الذى قرره ، حتى يطلبوه هم ، فلا يكون مفروضا عليهم ، بل يكون استجابة لما فى نفوسهم •

وننبه هنا الى أن بعض الروايات ذكرت أن ثقيفا عرضت الأمر على أبى بكر ، فى حجته ، ولكن نجد السياق التاريخي لا يؤيد هذا ، ذلك أن ابن اسحاق يقول أن وقد ثقيف كان فى رمضان ، فبينهما زمن ، وحج أبى بكر متأخر عن رمضان ، والله أعلم •

وفد بنى عامر

٦٦٠ — أخذت وفود العرب التى وصل اليها الاسلام تجيء وفدا بعد آخر ، منهم من يعلن اسلامه ويتلقى تعاليمه بالمدينة المنورة ، ومنهم من كان فيه شك ، أو عنجهية جاهليته أو لا تزال الوثنية فى قلوبهم فيتلقاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالموعظة الحسنة وتآليف قلوبهم ، وبعضهم جاء اقرارا بالخضوع لحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يهديهم ويرشدهم ، وينقذهم من الضلال *

روى البيهقى فى دلائل النبوة أن وفد بنى عامر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا له أنت سيدنا وذو الطول علينا ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا يسخرن بكم الشيطان السيد هو الله *

لقد جاء ذلك الوفد مسلما ، ولكن كان فيه عامر بن الطفيل يريد غدرا ولا يريد اسلاما ، وقد نهاه قومه عما يريد ، وقالوا له يا عامر ان القوم قد اسلموا فقال والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، وأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش *

ثم قال لمن دبر أمر الغدر معه وهو أريد : إذا قدمنا على الرجل فإني شاغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فافعله بالسيف *

فلما قدموا أمر عامر أن ينفذ الغدر ، فقال مواجهها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد خاللى ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له *

أبى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون له خليلا ، حتى يكون مؤمنا ، فلم يذعن للإيمان بل انقلب إلى التهديد ، وكان المخاللة تجيء بالنصر والقهر ، فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا *

فلما ولى قال الذى يعصمه الله من الناس اللهم اكفنا عامر بن الطفيل *

فقد خذله صاحبه أريد ، فلم يعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليه بالسيف ، فقال له : ويحك يا أريد ، أين ما أمرتك به ؟ فقال والله ما كان وجه الأرض أخوف على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم ، ثم قال أريد ، لا أنا لك لا تعجل على ، فوالله ما هممت بالذى أمرتنى به الا دخلت بينى وبينه فأضربك بالسيف ، وهكذا وقى الله تعالى رسوله عليه الصلاة

والسلام بأن كانت صورة أريد قتاله بينه وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

خرج القاتلان من عند رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأصاب ابن الطفيل الطاعون ، ومات فى بيت امرأة ، وقيل مات على فرس ، وقد خرج متألما من مرضه ، قائلا ، أغدة كفدة البعير .

وأما أريد الذى كان يد الغادر ، فإنه خرج وحمله بعد عودته الى بنى عامر ، فنزلت عليهما صاعقة فقتلتهما ويروى أنه كان من حديث عامر ابن الطفيل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لما أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قائلا أخيرك بين ثلاث خصال ، يكون لك أهل السهل ، ولى أهل المدر أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، وهذه رواية البخارى ، ويقول البخارى طعن (أى أصيب بالطاعون) فى بيت امرأة ، فقال أغدة كفدة اليكر فى بيت امرأة اثتوني بفرسى أركب ، فمات على ظهر فرسه .

وقد ذكرنا شيئا من ذلك من قبل .

وان الظن أن وفاة عامر بن الطفيل كانت قبل الفتح ولم تكن فى العام التاسع ، لأن منطقها ، يومئذ الى أنها كانت قبل الفتح وتبوك ، أى قبل أن يصير السلطان كله فى البلاد العربية للإسلام ، سواء فى ذلك من أسلم ومن لم يسلم .

ومهما يكن فانه لم تكن الوفود بعد الفتح وتبوك كلها مسلمة ، بل كان فيهم غيرهم ممن دانوا بالطاعة .

وفد عبد القيس

٦٦١ — فى الصحيحين البخارى ومسلم أن وفد عبد القيس قدموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبش فى وجوههم ، وقال ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى .

وقد رحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ربيعة ، لما كان من التنافس بين ربيعة ومضر ، فمجيئهم دليل على أن العصبية الجاهلية خفت صوتها بجوار صوت الاسلام ، وصارت تحت قدم الاسلام وهو فوقها .

جاء هذا الوفد مريدا الاسلام مطمئنا اليه ، ويريدون ان يعلموا من
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يجب عليهم ان يعلموه •

قال قائلهم المتحدث عنهم : « يا رسول الله ان بيننا وبينك هذا الحى من
كفار مضر ، وانا لا نصل اليك الا فى شهر حرام ، فمرنا بأمر نأخذ به ،
ونأمر به من وراءنا ، وندخل الجنة •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أمركم بأربع وأنهاكم عن
أربع : أمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله ، شهادة أن لا اله
الا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ،
وأن تعطوا الخمس من المغنم ، وأنهاكم عن أربع ، عن الربا والخيتم والنكير
والمزمت ، وهى أسماء أنواع من الخمور تختلف أسماؤها باختلاف أديتها •

ولقد كان فى وفد عبد القيس الجارود بن بشر بن المعلى ، وكان
نصرانيا ، فلما انتهى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلمه ودعاه
الى الاسلام وعرضه عليه ورغبه فيه • فقال يا حصص ، انى قد كنت على دينى ،
وانى تارك دينى لدينك ، أقتضين لى دينى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم انا ضامن أن هداك الله الى ما هو خير منه • فأسلم وأسلم من معه
من أصحابه •

عاد الجارود الى قومه ، وكان حسنا شديدا فى دينه حتى مات •

ولما قامت الردة بعد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان من قومه من
ارتد ، فوقف فيهم يقول بشهادة الحق ودعا قومه أن يتوبوا ويعودوا الى
الاسلام ، وهو يقول : أيها الناس ، انى أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا
رسول الله ، وأكفر من لم يشهد هذه الشهادة •

وهكذا كانت الوفود تجىء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا
تخرج من بين يديه الا وقد خالطت بشاشة الاسلام قلوبهم ، فيعودوا الى
أقوامهم ، ليعلّمهم ما تعلموا •

وان ذلك تطبيق واستجابة لقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم
طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينبذوا قومهم اذا رجعوا اليهم ، لعلمهم يحذرون » •

وفد بنى حنيفة

٦٦٢ — كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يستقبل الوفود ، ويدعوهم الى الاسلام ، سواء منهم من اهتدى ، ومن ضل وغوى ، والناس قسمان قسم يطلب الحق ويبتغيه ، ويجانب الشر ، ولا يريد الا الحق ، ولم تدنس نفسه بدران الهوى والباطل ، ولم تركس فى مهاوى الهوى ، وما يسول به الشيطان فى الأنفس ، وقسم سيطرت عليه الأهواء فلا يتجه الى الحق يبتغيه ، ولكن يتجه الى ما تهوى الأنفس ، وما تضل به الأفهام ، وتسيطر الأوهام .

والنبي صلى الله عليه وسلم يستقبل الفريقين ، فمن طلب الحق واستقامت نفسه استجاب للحق ، وأسلم ، ومن ركبته الأهواء ، حاول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ازالة الغشاوة التى تنسجها الأوهام ، ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد الهداية للجميع ، ولكن الله تعالى يقول : « انك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » .

ومن هذا الصنف الثانى قوم مسيلمة الكذاب ، وهو وفد بنى حنيفة .

جاء وفد بنى حنيفة ، وفيهم مسيلمة ، وقد ستروه بثيان والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى يده عسيب من سعف النخل وقد سأله مسيلمة بعض ما تحت سلطانه ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لو سألتنى هذا العسيب الذى بيدي ما أعطيتكه ، وإن الشر لا يظهر الا فى أشرار ، فقومه هم الذين شجعوه على ذلك ، وكذلك قال لقومه : أما انه ليس بشركم .

وكان مسيلمة قبل أن يحضر قومه كتب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا قال فيه :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

« أما بعد فانى أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقریش نصفه وليس قریش قوما يعدلون » .

قدم رسوله على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا الكتاب .

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وقدم من عند مسيلمة هذا رسولان. قيل اذهما قدما بالكتاب الذى ذكرناه عنه ، فقال لهما محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، « تشهدان ائى رسول الله ، فقالا نشهد أن مسيلمة رسول الله ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكما » .

أتى بنو حنيفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم على هذه الحالة النفسية ، وعلى هذا الضلال العقلى ، ولكن منهم من أسلم ، ومع ذلك ارتدوا من بعد ، ولقد استهزأهم ضلال مسيلمة الكذاب عن الحق ، وذلك بسبب العصبية الجاهلية ، حتى كان قائلهم يقول : كاذب ربيعة خير من صادق مضر .

ولقد كان يزعم ذلك الكذاب المتوفى العقل أنه يأتى بمثل القرآن الكريم ، فيقول زاعم أن ما يقوله يشبه القرآن الكريم فى سجع سمج ، « ولقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسخة نفى من غير صفات وحشا » .

وقد أخذ من قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وليس بشركم ، وهى ترمى الى أنهم جميعاً أشرار ، وليس هو بشرهم ، أخذ من هذا أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أشركه فى رسالته ، وأسقط عنهم الصلاة وهكذا يذهب الضلال فى النفس ، وتفعل العصبية الجاهلية فى الادراك .

وقد قال أفراداه ان ذلك الوفد المشئوم ، جاء فى السنة العاشرة ، حتى عمت الدعوة الاسلامية ، ولم يكن لهم مناص من الاتباع ، فأنحرفوا ذلك الانحراف .

وفد طيء

٦٦٣ — قدم وفد طيء ، وقد كان الاسلام ابتداءً فيهم قبل حضور هذا الوفد من وقت أن كانت السرية اليهم ، وهم قوم فيهم خير . ولم يكن فيهم عناد كثيف والانحراف فى الفكر كحنيفة واليمامة . كان على رأس الوفد زيد الخيل — الذى سماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زيد الخير ، وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى ، الا رأيت به دون ما يقال فيه الا زيد الخيل ، فانه لم يبلغ كل ما فيه » .

وقد عرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام على الوفد ، فأسلموا وحسن إسلامهم .

وروى أن زيد الخير قد مات بحمي المدينة المنورة عقب مغادرة الوفد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وروى أنه مات بعد ذلك في خلافة الامام عمر رضى الله تعالى عنه .

وكان له والدان قد نالا صحبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرضى الله تبارك وتعالى عنه .

ولقد أقطعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرضين ، وكتب له كتابا بذلك ، وكان ذلك الاقطاع فيما يظهر اقطاع منفعة ، يستخرج المعادن والزيوت ، ويزرع ما يصلح للزراعة ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك فى الأراضى النائية عن المدينة المنورة ليتمكن استغلالها ، واخراج ينابيع الثروة فى باطنها ، ويقدمون فى ذلك أجرا لها ، وقد يكون من غير أجر تأليفا للقلوب النافرة .

وفد كندة

٦٦٤ — قدم الأشعث بن قيس على رأس وفد من كندة عدتها ستون أو ثمانون رجلا ، وقد دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسلاحهم ويزينة ، قد لبسوا جببا حبرات مكففة بالحرير .

دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يسلموا فنكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حالهم ، فقال لهم أو لم تسلموا ، قالوا بلى ، ثم قال ما هذا الحرير فى أعناقكم ، فكانوا طائفتين ، فأجابوا عن الاستنكار بأن شقوا الحرير ونزعوه من ثيابهم ، وألقوه ، فقال الأشعث بن قيس : نحن بنو أكل المرار ، وأنت ابن أكل المرار ، (يظهران ذلك اشارة الى قوة البأس ، وأبى أن يعرب أشرفه الذى ظهر بادية الرأى) وقد ضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال هذا النسب ربيعة بن الحارث ، والعباس ابن عبد المطلب ، فقد كانا تاجرين ، وكانا اذا سارا فى بلاد العرب ، فسئلا من أنتما ؟ قالوا نحن بنو أكل المرار ، يستعلون بذلك عند الناس ، ويعتزون ، ويظهرون البأس ، والقوة ، لأن أكل المرار كان ملكا فى كندة وكان أولاده ملوكا ، فكانوا يسيرون باسمه آمنين .

فلما قال الأشعث بن قيس للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نحن بنو أكل المرار ، وأنت ابن أكل المرار. يشير الى ما كان بين الأشعث والعباس من صحبة ،

وما كانا يقولانه فى صحبتهما وتجارتهما ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستضحك مما كان يصنعه هو وعمه العباس الذى كان تاجرا .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر نسبه الصادق ، وأنه لا ينفيه .

روى أحمد فى سنده بسند متصل الى الأشعث بن قيس قال : قدمنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفد كندة ، ولا يرون الا أنى أفضلهم فقلت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لا ، نحن بنو النضر ابن كنانة ، لا نجفوا أمتنا ، ولا ننتفى من أمتنا .

وكان للأشعث بن قيس ولاية فى بعض الدولة الاسلامية فى عهد بنى أمية ، فكان يقول لا أوتى برجل نفى رجلا من قريش نسبه عن النضر بن كنانة الا جلدته .

أكرم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوفد ، وأعلن اسلامه ، وعاد مرضيا أمتنا مسلما .

وفد الأشعرين وأهل اليمن

٦٦٥ — ان الأنصار ينتمون الى قبائل يمنية ، وكانوا هم الذين أحبوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين أووا ونصروا فكان لليمن محبة فى قلبه

ولقد جاء الأشعريون وأهل اليمن ، أو ناس من أهل اليمن جاءوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين يريدون أن يتعرفوا مبادئ الاسلام ، ويستحفظوا القرآن الكريم .

ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال عند قدومهم : قدم قوم هم أرق منكم قلوبا .

فقدم الأشعريون ، وجعلوا يرتجزون .

غدا تلقى الأحبه . . . محمدا وحزبه

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول ، وقد وفدوا عليه ، جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة ، وأضعف قلوبا للايمان ، والحكمة يمانية والسكينة فى أهل الغنم والفخر والخيلاء فى أهل الوبر .

وروى عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال :
اتاكم أهل اليمن ، كأنهم السحاب ، وهم خيار من فى الأرض ، فقال رجل
من الأنصار : الانحن يا رسول الله ، فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، ثم قال الانحن يا رسول الله : فسكت ثم قال الا انتم كلمة ضعيفة •

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل استثناءهم من أهل اليمن ،
وهم الذروة والسنام •

وان الاسلام فى ذاته بشرى الخير لمن دخلوا فيه ، لقد قال صلى الله تعالى
عليه وسلم لوفد بنى تميم ابشروا يريد بالاسلام ، فقالوا بشرتنا ، فأعطينا ،
فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه المادية الطامعة وقال
للأشعرين اقبلوا البشرى ، فقالوا قد قبلنا ، وفهموها معنوية لا مادية ، ثم
قالوا يا رسول الله جئنا لنتفقه فى الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال
عليه الصلاة والسلام كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ،
وكتب فى الذكر كل شيء •

وهنا نجد ظاهرة تبدو غريبة • وهى مسارعة أهل اليمن ومن حولهم
الى الاسلام ، ومقاومة أهل مكة المكرمة للدين الجديد مع أن النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم منهم ، وكان معروفا لديهم بالصدق والأمانة والبعد عما يؤثر
فى الكمال الانسانى •

ويبدو لنا أن السبب فى ذلك تشير اليه أمور :

أولها : تمكن الوثنية عند كل أهل مكة المكرمة ومن حولها ، وسيطرة
الأرهاب عليهم ، واعتزازهم بأنسابهم •

وثانيها : حب الرياسة فيهم التى نشأت من اقامتهم بالبيت الحرام ،
والاستمساك بسيطرتهم على العرب من طريق خدمتهم للبيت الحرام ، وأنهم
سدنته ، وأن ذلك الدين الجديد ينزع منهم ما بأيديهم من سلطان ، فاشتدت
مقاومتهم ، لا من جهة الايمان ، ولكن من جهة السلطان •

وثالثها : أن أهل الجنوب اليمنى ، كان فيهم علم بالاديان ، فكان فيهم
اليهود والنصارى ، ولهم بذلك علم بالرسائل السماوية •

ولم يكن اليهود الذين كانوا باليمن من بنى اسرائيل ، بل كانوا من
السامرة ، وهم اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام من غير بنى اسرائيل ،
فلم تكن عندهم العصبية الاسرائيلية الحادة التى كانت تؤمن بأنه لا نبي الا من

بنى اسرائيل ، ولما جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنكروا « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » •

وكانوا لا يعترفون بالسامرة على أنهم من اليهود أتباع موسى ، لأن اليهودية عندهم جنسية وليست بعقيدة ، فكانوا يضطهدونهم ، كما يحاولون إيذاء غيرهم من أى دين ، وربما كان مجيء نبي من العرب مثيرا لحماستهم له •

ورابعها : أنهم نظروا الى الاسلام على أنه الدين الظاهر فى البلاد العربية ، فسارعوا اليه ، لأنه صار الدين الغالب ، وصارت كلمة الله تعالى هى العليا ، والله أعلم •

وفد الأزد

٦٦٦ — وهم من اليمن تجرى عليهم الأسباب التى ذكرناها فى مسارعهم الى الاسلام بعد أن امتدت كلمته فى البلاد العربية •

قال ابن اسحاق قدم وفد من الأزد ، وكان على رأسهم صرد بن عبد الله الأزدي ، قد أسلم وحسن اسلامه فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ومن جاورهم •

أخذ صرد بن عبد الله يجاهد من حوله من المشركين ، وكان بجوارهم مدينة مغلقة يقال لها جرش ، وبها قبائل من اليمن ، وقد انضمت اليهم خثعم ، فتضافروا معهم عندما علموا أن جيش المسلمين يسير اليهم بقيادة صرد ابن عبد الله •

حاصرهم فى مدينتهم جرش نحو من شهر ، وهم فيها ممتنعون ، فترك الحصار ، وأوى الى جبل يقال له اشكر ، واعتصم به رجاء أن ينتهز فرصة ، فيأتيهم من حيث لا يشعرون ، ويفرقهم عن بلدهم •

ظنوا أن صرد بن عبد الله ومن معه ولى عنهم منهزما أو يائسا من أن يقتحم بلدهم ، فزين لهم أن يخرجوا فى طلبه ، فكان خروجهم تمكينا له من ضربهم ، فأنهم إذ أدركوه عطف عليهم ، ولم يكن لهم معتصم يعتصمون به فقتلهم قتلا شديدا ، وكانت الهزيمة الشديدة قد نزلت ، وعلم رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك النصر الذى كان من عند الله تعالى العزيز الحكيم ، ولم يكن بسرية من المدينة المنورة ، ولكن بمن أسلم من العرب .

وفى الوقت الذى علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهزيمة المشركين كان عنده وفد من جرش جاءه عشية أن علم ، وكان مسلما .

سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفد جرش وكان مكونا من اثنين بأى بلاد الله تعالى شكر ، فقالا يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كثر ، ولذلك تسميه أهل جرش ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انه ليس بكثر ، ولكنه شكر .

قالا له فما شأنه يا رسول الله .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ان بدن الله لتنحر عنده الآن » . لم يفهم الرجلان مؤدى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلسا الى الشيخين الجليلين فى الصحابة ، أبى بكر وعثمان ، رضى الله تبارك وتعالى عنهما ، فسللا ماذا يريد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لهما صاحبا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ويحكما ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينمى اليكما قومكما ، فاقدا اليه ، فاسللاه أن يدعوا الله أن يرفع عن قومكما .

فذهب الرجلان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سأللاه الدعاء لقومهما ، فقال اللهم ارفع عنهم .

خرج الرجلان الى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا فى اليوم الذى قال لهما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، بل فى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر .

ولقد جاء بعد ذلك وفد جرش فاسلموا وحسن اسلامهم ، وحمى لهم حمى حول قريتهم ليستغلوه ، وكان يفعل ذلك مع من يسلمون من أهل البلاد ليتمكنوا من استغلال الأرض كلها ، وذلك نظير أجرة أو خرج يخرجونه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفد بنى الحارث بن كعب

٦٦٧ — كان يستقبل الوفود الذين يجيئون اليه مسلمين ، وان لم يكونوا مسلمين دعاهم الى الاسلام اذا جاءوا اليه ، وفى أكثر الأحيان يجيبون ، وفى بعض الأحيان يجيبون بعد تردد ، ومهما يكن فالاسلام يدخل ديارهم ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ومن بقى على دينه ورضى أن يعيش فى ظل الاسلام عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عقد الذمة .

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف القبائل وأحوالها ، فمن يجيء منها دعاه الى الاسلام ، وقبل منه ما يتقدم به ، وإذا تخلفت قبيلة ولم يعرف إيمانها ، ولم يتبين حالها ، أرسل اليها سرية فدعوها الى الاسلام ، ومن هؤلاء بنو الحارث ، فأرسل خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة الى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ، قبل أن يقاتلهم يدعوهم ثلاثا ، فان استجابوا قبل منهم ، وان لم يفعلوا قاتلهم .

ذهب اليهم خالد بن الوليد ، وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون الى الاسلام يقولون لهم أسلموا تسلموا .

أسلم الناس ، ودخلوا فى دين الله ، فأقام فيهم خالد يعلمهم الاسلام ، وكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك .

كتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل ، ويكون معهم وفد منهم ، فأقبل وأقبل معه وفدهم فيهم قيس بن الحصين ذو العصبه ، ويزيد ابن عبد المدان وغيرهما .

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا لم نكن نغلب أحدا ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . بلى . قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدا أحدا بظلم ، استنطقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . ليعلنوا أخلاقهم ، لأنه يقر هذه الأخلاق ، ويريد منهم الاستمرار عليها ، لأنها أخلاق اسلامية أمرهم واحد يجتمعون ولا يتفرقون ولا يعتدون ، فهم لا يحاربون .

وقد أمر عليهم قيس بن الحصين ، فرجعوا الى قومهم ، بعد أن مكثوا فى المدينة المنورة أشهراً تعرفوا فيها الدين واستحفظوا بعض القرآن الكريم .

وأنا نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى من وفودهم استجابة

للاسلام ، وشيوعه بينهم أمر عليهم أميرا ، يكون متصلا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبذلك يكونون جميعا فى ولاية واحدة ، هى ولاية الاسلام التى يجتمعون حول لوائها ، غير متفرقين ، ولا متخاصمين •

وقد همذان

٦٦٨ — أقبل وفد همذان مسلما ، غير متردد ، ولا متلوم ، وكان فيهم مالك بن النمط ، وغيره ، وكان هذا الوفد عقب رجوعه من تبوك •

وقد حضر هذا الوفد على أتم زينة ومظهر ، فقد حضروا وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العنيدية على الرواحل ، ويظهر أن ملابسهم وأن كانت منمقة فيها زينة وزخرف لم يكن فيها حرير ، أو ذهب ، ولذلك لم يستنكر شيئا من لبسهم •

وقد جاءوا فى سرور باسلامهم ، ولقائهم بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى أن مالك بن النمط أخذ يرتجز بين يدي النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

اليك جاوذن سواد الريف فى هبوات الصيف والخريف
مخططات بحبال الليف

وتكلموا بكلام فصيح أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد قدم لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمرين :

أولهما : أنه أمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وأمره بجهد من يقرب منهم من المشركين أو الكفار بشكل عام •

وقد عاونهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإرسال خالد بن الوليد فى سرية كما روى البيهقى ليدعو فى اليمن الى الاسلام ، وقال البيهقى مكث ستة أشهر يدعوهم •

وقال البراء بن عازب كنت فيمن أرسلهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع خالد بن الوليد ، الى أهل اليمن ، وقد مكث يدعوهم الى الاسلام ستة أشهر ، فلم يجيبوه ، ويظهر أنه كان قائد حرب ولم يكن داعيا الى الاسلام •

ولذلك بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد ذلك بعلى ابن أبى طالب فلما دنا من الجمع اليمنى المسالم ، وإن لم يكن قد دخل كله فى الاسلام ، وقد خرجوا قلم يقاتلهم ولم يدعهم الى الاسلام بالقول ، بل برسالة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصنف من معه من المسلمين صفاء واحدا ، ثم تقدم فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

بعد قراءته كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسلمت همدان كلها .

وهذا ما جاء فى صحيح البخارى .

وفى الحق انه قد جاء فى أخبار الوفود كلام لم تثبت صحته ، فقد قيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كلف همدان بقتال ثقيف ، وهذا غير معقول فى ذات نفسه ؛ لأن ثقيفا بالطائف وهمدان باليمن ، ولأن ثقيفا كانت قد أسلمت برسالة وفدها ، وهدمت اللات طاغيتهم .

وفى الحق ان تاريخ قدوم الوفود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدون بدقة .

قدوم وفد دوس

٦٦٩ — قدم وفد دوس على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يجاهد فى خير فهو لم يقدم عليه فى السنة التاسعة التى توصف بأنها عام الوفود ، والدعوة الى الاسلام عن طريقهم وكان على رأس هذا الوفد المسلم الطفيل بن عمرو الدوسى : وقد أسلم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يهاجر الى المدينة المنورة ، وأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه دوس يدعوه الى الاسلام فأسلم بعض عشيرته الأقربين ، ولم يجرى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موفدا من قومه المسلمين الا بعد ذلك فى السنة السابعة وهو فى خير ، ولقد أسلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم فى الغنيمة ، لأنهم اشتركوا فيها .

وقصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ودعوته لقومه ، ثم امتناعهم ، ثم اسلامهم يحكيها رضى الله عنه ، فلنتركه يحدثنا بها ، ان كان قد قدم مكة المكرمة وكان رجلا شريفا لبيبا ، مستقيم النظر فأحاطت به قریش تمنعه من أن يستمع الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقول له : ان كلامه كالسحر يفرق به بين الرجل وولده وأبيه وزوجه .

أصاخ الى كلامهم ، ويقول فى ذلك « فوالله ما زالوا بى ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا ، فرقا من أن يبلغنى شيء من قوله ، فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلى ، فقمتم قريبا منه ، فأبى الله تعالى الا أن يسمعنى بعض قوله • فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أماء ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان ما يقول حسنا قبلت ، وان كان قبيحا تركته • فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فقتبعته ، حتى اذا دخل بيته ، دخلت عليه فقلت : ان قومك قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك ، حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، فأبى الله تعالى الا أن يسمعني ، فسمعت قولا حسنا • • • فاعرض على أمرك ، فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا على القرآن الكريم ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله ، انى امرؤ مطاع فى قومى ، وانى راجع اليهم ، فداعيتهم الى الاسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون عوناً لى فيما أدعوهم اليه ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اجعل له آية » ، وبعد أن ذكر هذه الآية ، وهو نور جاء على وجهه ، ثم على وسطه • قال بعد ذلك : « لما نزلت اثنان أبى وكان شيخا كبيرا ، فقلت : اليك عنى يا أبت ، فلست منى ، ولست منك ، قال ولم يا بنى ، قلت قد أسلمت وتابعت دين محمد ، قال يا بنى دينى دينك • فقلت اذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال ، حتى أعلمك ما علمت • • • ثم جاء فعرضت عليه الاسلام فأسلم ، ثم اتتني صاحبتي فقلت لها اليك عنى ، فلست منك ، ولست منى : فقالت لم بأبى أنت وأمى ؟ قلت فرق الاسلام بينى وبينك ، أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم • قالت فدينى دينك ، قلت فاذهبى فاغتسلى • • • ثم جاءت فعرضت عليها الاسلام فأسلمت •

بعد ذلك انتقل من الدعوة الخاصة الى دعوة دوس عامة ، فدعاهم الى الاسلام ، فلم يستنكروا ولكن أبطثوا •

عاد الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله انى قد غلبنى على دوس الزنى (أى اتباعهم لأهوائهم وشهواتهم) فدع عليهم ، ولكن الهادى الأمين رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم لم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اهد دوسا » ثم قال لطفيل : ارجع الى قومك فدعهم الى الله تعالى وارفق بهم •

فرجع اليهم ، واستمر بأرضهم يدعوهم الى الاسلام ، حتى استجابوا او أكثرهم .

بعد هذا جئت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ، فنزلت المدينة المنورة بسبعين أو ثمانين فى وقت توزيع الغنائم من خير ، فأسهم لهم مع المسلمين .

ولقد حسن اسلام الطفيل وقوى ايمانه ، وان الابتداء يدل على قوة الانتهاء ، فقد ابتدأ طالبا للحق مع الموانع والسدود التى وضعتها قريش فى سبيل ايمانه فاجتازها ، ووصل الايمان الى قلبه وكان الداعية فى قومه ، حتى هداهم الى سداد .

وان قصة ايمان ذلك الرجل تدل على قوة نفسه وعقله وخلقه ، وان المنع لم يجعله يمتنع بل جعله يبحث ويفكر ، فاذا كانوا قد زينوا اليه الا يسمع من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد زين الايمان فى قلبه ان يذهب وراء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى داره .

وهو قد باعد التقليد عن قلبه ، والتقليد هو الذى يعمى عن الحقائق ، ويمنع الاتجاه اليها .

قدوم رسول ملوك حمير

٦٧٠ — الاسلام بعد علم للعرب أجمعين به صار هو يدعو لنفسه ، لما اشتمل عليه من حقائق ولأنه دين الفطرة ، ولم تعد الحوائل تحول بينه وبين الناس ، فصار الناس يدخلون فيه طوعية من غير أى نوع من الأنواع الاكراه أو التقليد ، أو الاتباع من غير علم ، بل صارت الحقائق واضحة نيرة . لا يمنع نصرانيا ولا يهوديا من الاتباع ، فاستقامت قلوبهم . ورضوا بالاسلام ديناً ، ولم يعد الأمراء يقفون محاززين بين الأقوام والايمان ، وخصوصاً بعد أن علموا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يبقى الأمير على امرته ما استقام أمره ، وما عدل فى قومه . ولم يرهقهم من أمرهم عسراً .

وكانت الوفود تجيء اليه معلنة الاسلام . ومنهم من كان يرسل رسولا ، وملوك حمير وهم يمثلون الكثرة الكاثرة فى اليمن لما رأوا الاسلام قد غلب فى كل أرض الشمال ، وتراجعت أمامه جيوش الروم التى كدسوها لغزو الاسلام ، واقتلعه ، واقتلاع عز العرب ، فعاد جندهم ولم يلاقوا محمداً صلى

الله تعالى عليه وسلم بعد أن قتلت جنوده مع قلة عددهم منهم مقتلة عظيمة ،
وعادوا بحكمة خالد بن الوليد سالمين لم يفتقدوا الا بضعة عشر رجلا .

أدرك ملوك حمير قوة الاسلام منطقا وعقلا وحقا ، وأدركوا شوكة
الاسلام أمام الرومان فأرسلوا رسلا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
يعلنون اسلامهم والملوك كحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال والنعمان
قيل ذى رعين ، ومعاشر وهمدان وزرعة ذويران مالك بنى مرة الرهاوى ، قد
أعلنوا الاسلام ، ومفارقة الشرك .

وقد كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا للوفد الذى جاءه يبين
فيه حقائق وما يجب على الأفراد ، ليعلموا به من وراءهم ، واليكم الكتاب ،
كما رواه الواقدي :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبي الى الحارث بن عبد كلال ،
ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذى رعين ومعاشر وهمدان .

أما بعد ذلكم - فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، فانه قد وقع
نبا رسولكم منقلبين من أرض الروم . فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ،
وخبرنا ما قبلكم ، وأنبأنا باسلامكم ، وقتلكم المشركين ، وأن الله تعالى قد
هداكم بهداه ، أن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وأتيتم
الزكاة ، وأعطيتم من الغنائم حق الله تعالى ، وسهم النبي (صلى الله تعالى
عليه وسلم) ، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة العقار عشر ما سقت العين ،
وما سقت السماء . وعلى ما سقى الغرب نصف العشر .

وأن فى الأبل فى الأربعين ابنة لبون ، وفى ثلاثين من الأبل ابن لبون
ذكر ، وفى خمس من الأبل شاة وفى كل عشر من الأبل شاتان ، وفى كل
أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين تبيع جذع أو جذعة ، وفى كل أربعين
من الغنم سائمة وحدها ، شاة .

وأنها فريضة الله تعالى التى فرضها على المؤمنين فى الصدقة ، فمن
زاد خيرا فهو خير له ، ومن أدى ذلك ، وأشهد على اسلامه ، وظاهر المسلمين
على المشركين ، فانه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وانه من أسلم
من يهودى أو نصرانى فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم .

ومن كان على يهوديته أو نصرانيته ، فانه لا يرد عنها ، وعليه الجزية
على كل حاله ذكرا أو أنثى حر ، أو عبد دينار وافر من قيمة المعافى (ثياب

وبرود منسوبة الى معافر) أو عرضه ثيابا ، فمن أدى ذلك الى رسول الله فان له نعمة الله ونعمة رسوله ، ومن منعه ، فانه عدو لله ورسوله .

أما بعد . الى زرعة ذى يزن اذا أتاك رسلى ، فأوصيكم بهم خيرا معاذ ابن جبل ، ومالك بن عباد وعقبة بن عمر ، ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ، ما عندكم من الصدقة ، والجزية من مخالفيكم ، وأبلغوها رسلى ، وإن أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبوا الا راضيا .

أما بعد فان محمدا يشهد أن لا اله الا الله ، وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الراوى قد حدثنى أن اسلمت من أمرك حمير ، وقتلت المشركين . فأبشر بخير ، وأمرك بحمير خيرا ولا تحزنوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ، ولا لأهل بيته ، انما هى زكاة مزكى بها على فقراء المسلمين ، وابن السبيل ، وأن مالكا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وأمركم به خيرا ، وإنى قد أرسلت اليكم من صالحى أهلى ، وأولى دينهم وأولى علمهم فأمركم بهم خيرا ، فانهم منظور اليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للملك حمير ، وقد كان يخص بعضهم بخطاب ، ان تعدد فيه لفظ أما بعد ، مما يدل على أنه يخص بعضهم بالخطاب ، وإن كان مضمونها جميعا واحدا .

وفى هذا الكتاب بين الله سبحانه وتعالى فريضة الزكاة فى الزرع والثمار والسوائم ، ويلاحظ أنه لم يذكر الا زكاة الأموال الظاهرة ، والأموال الباطنة وهى الدراهم والدنانير ، وما يتعلق بها من عروض التجارة قد بينها صلى الله تعالى عليه وسلم فقال فى كل مائتى درهم خمسة دراهم ، وروى أنه قال فى كل عشرين مثقالا من نصف مثقال ، ولعله لم يذكر زكاة الأموال الباطنة ، لأنه يذكر ما يجمعه الامام ، أو والى الصدقات ، أما الأموال الباطنة ، فان أصحاب المال يؤدونها .

ولعل هذا هو المسوغ به الامام ذو النورين عثمان ولاية الصدقات ، بأن يجمعوا زكاة الأموال الظاهرة ، ويتركوا الأموال الباطنة ، وكأنه أنابهم عنه فى أدائه ، بحيث اذا ثبت أنهم لا يؤدونها أخذها منهم .

ويلاحظ فى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ذكر زكاة الزرع والثمار بأنها زكاة العقار ، وإن كانت تؤخذ من غلاته ، نصف العشر ، ان سقيت بألة ، والعشر ان سقيت بماء العيون أو ماء السماء وإن هذا النص

يفهم أن العقار فيه زكاة ، وقد كان العقار المثمر هو الأراضي الزراعية وثمار الأشجار .

وذلك لأن النصاب في الزكاة مال نام ، والزرع ثمار الأرض ، والشجر نماؤه الثمر .

وقد كانت البيوت والدور والحوانيت تتخذ للحاجات الأصلية ، فلم يكن لها ثمار بذاتها ، وكذلك أدوات الصناعة .

والآن قد صارت الدور لا تتخذ للإقامة فقط ، بل تتخذ للاستقلال ، والنماء باجارتها فكان لا بد من زكاتها ، لأنها مال نام بالفعل ، ولأنها عقار ، وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زكاة العقار المزروع بأنه العشر أن سقى بغير آلة ، وأن سقى بالآلة فنصف العشر ، وهنا نجد القياس لا يتجه إلى أصل زكاة العقار ، فهو ثابت بالنص ، إنما يتجه إلى طريقة أخذ الزكاة ، فتقاس الغلات بالاجارة على الزرع والثمار .

ولذا نرى أن يؤخذ عشر الصافي بعد النفقات التي تنفق على المبنى والتحصيل .

٦٧١ — كتاب آخر لليمن :

كان الكتاب السابق فيه دعوة إلى الإقرار بالاسلام والحث عليه وما يجب عليهم من جمع الزكوات ، والجزية ، أي تكوين ميزانية دولة الاسلام ، وهناك كتاب آخر كتبه لعمر بن حزم عندما بعثه إلى اليمن ، وهو خاص بالواجبات التي تجب على الأحاد ، فهو يفقههم في الدين ويعلمهم السنن ، ويأخذ صدقاتهم ، وهذا نص الكتاب وقد رواه الحافظ البيهقي :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهدا من رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتقوى الله تعالى في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحق ، كما أمره الله تعالى . وأن يبشر الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وأن ينهى الناس ، فلا يمس أحد القرآن الا وهو طاهر ، وأن يخبر الناس بالذي لهم ، والذي عليهم ، ويلين لهم في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم ، فإن الله حرم الظلم ونهى عنه ، فقال الا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ، وأن يبشر الناس بالجنة ويعملها ، وينذر الناس بالنار

وعملها ، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه ، وما أمر الله به ، والحج الأكبر الجامع ، والحج الأصغر ، العمرة وأن ينهى الناس أن يصلوا فى ثوب واحد صغير ، إلا أن يكون واسعاً ٠٠٠ وينهى الناس أن كان بينهم هيج أن يدعو العشائر والقبائل ، وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس بأسباب الوضوء وجوهرهم وأيديهم الى المرافق وأرجلهم الى الكعبين وأن يمسحوا رؤوسهم ، كما أمر الله عز وجل ، وأمروا بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود ، وأن يغلس بالصبح ثم يذكر بعد ذلك أحكام الخمس فى الغنائم ، وأحكام الزكوات ، ونصابها وما يؤخذ من مقاديرها ا هـ .

وفى هذا يتبين أن أولى الأمر عليهم أن يجمعوها اذا كانت ظاهرة ، وعلى الناس أن يؤدوها ظاهرة وباطنة ، وان كانت الثانية الأمر فيها الى الضمائر ، والله أعلم بالسرائر .

وفد نجران

٦٧٢ — أخذ المشركون يسلمون تباعاً لما عم سلطان الوجدانية البلاد ، وما أسلموا رهبا من قوة فى أكثر الأحوال ، بل أسلم الأكثرون رغبا فى الاسلام ، وقد زالت عنهم غشاوة الوثنية وخرجوا من التقليد للأباء الى الاستنارة بنور الاسلام ، ورأوا أن آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون هذا ما كان من المشركين ، كان الاسلام يدعو لنفسه فيهم بعد أن زالت عنهم عمية الجاهلية وغشاوة الوثنية — أما اليهود والنصارى — فقد علمت أمر اليهود منهم ، ومغالبتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالخيانة والنفاق ، وتآليب الناس عليه ، بعد عهود أخذوها على أنفسهم ، ومن كان منهم فى غير جوار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد أخذ عليهم ميثاق الأمان على أن يؤدوا الجزية ، كما رأينا فى كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمراء الجنوب عندما ذكروا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عندهم يهودا ومجوسا ، يريدون أن يبقوا معهم من غير أن يغيروا دينهم الذى ارتضوا ، فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدوا الجزية ، ولا يرد عليهم دينهم .

أما النصارى فانهم لم يكونوا فى حرب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يثيروا عليه أحداً ، الا ما كان من الروم ، أما نصارى العرب ، وخصوصاً من كانوا فى الجنوب ، فكانوا على مودة نسبية أو أقرب الى المودة ، ولذلك قال الله تعالى فى نصارى العرب الذين كانوا يوالون المسلمين :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن

أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون . « هذا وصف عام لوفد نجران الذى سنتحدث عنه ، وهناك سبب خاص حركهم للمجىء ، وهو كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم الى الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، وذلك نص كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب أما بعد فانى أدعوكم الى عبادة الله ، من عبادة العباد ، وأدعوكم الى ولاية الله تعالى من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية ، فان أبيتم فقد أدننكم بحرب والسلام » .

أرسل الكتاب الى أسقفهم ، فلما قرأه زعر زعرا شديدا فبعث الى رجل من آل همدان اسمه شرحبيل بن وداعة وكان من همدان وكان مستشار الأسقف اذا حدثت معضلة .

فلما قرأ الكتاب قال الأسقف ما رأيك يا أبا مريم ، فقال قد علمت ما وعد الله ابراهيم فى نرية اسماعيل من النبوة ، فما يؤمن بأن يكون هذا هو الرجل ليس لى فى النبوة رأى لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأى وجهدت لك فيه فنحاه ، واستشار غيره وتعدد المستشارون ، وكلهم أجاب بمثل جوابه فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة ، أمر الأسقف بالناقوس ف ضرب ، ورفعت المسوح فى الوادى ، أعلاه وأسفله فاجتمع حين ضرب بالناقوس بطول الوادى مسيرة الراكب السريع يوما .

وسألهم الرأى بعد أن قرأ عليهم الكتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فاجتمعوا على ارسال وفد منهم يأتهم بخبر هذا الرجل ، ولما وصلوا المدينة المنورة خلعوا ثياب السفر ، ولبسوا حللا يجرونها من الحبرة ، وخواتيم الذهب ، ثم دخلوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتصدوا له ليلا ونهارا فلم يرد عليهم ، وعليهم تلك الحلل وخواتيم فذهبوا الى عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وكانوا يعرفونهما اذ كانا يتجران ويخرجان العير لهما فى الجاهلية .

ولما التقوا بهما قالوا لهما : ان نبيكما كتب الينا كتابا فاقبلنا مجيبين ، فسلمنا عليه ، فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه ، فاعيانا أن يكلمنا ، فما الرأى منكما ، انعود .

اتجه عثمان وابن عوف الى على بن أبى طالب يسألانه : ما رأيك يا

أبا الحسن فى هؤلاء القوم ، فقال على رضى الله عنه • أرى أن يخلعوا حللهم ،
وخواتيمهم . ويلبسوا ثياب سفرهم ، ففعل الوفد ذلك ، ثم جاءوا الى رسول
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسلموا عليه ، فرد سلامهم •

وظهر من هذا أن السبب فى أنه لم يرد سلامهم أنهم جاءوا مختالين
مفاخرين وأنهم يلبسون لباسا محرمة على الرجال •

وليعلمهم أنهم ليسوا داخلين على ملك فى أبهة ، بل على نبي يعيش
عيشة الفقراء ، وأن شرفه ليس من مال وثياب ، ولكن من رسالة الرحمن
الرحيم ، وفوق ذلك أن عدم رده يخفف من خيالهم ، ويجعلهم يعيشون كما
يعيش •

وبعد أن رد سلامهم - يش فى وجوههم كشأنه عند لقاء الناس ودخلوا
عليه مسجده بعد العصر ، وقد صلوا متجهين الى المشرق ، فأراد بعض
المسلمين منعهم ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم السمع الكريم قال
للمانعين دعوهم ، فصلوا مطمئنين •

كان الوفد ستين راكبا منهم أربعة وعشرون من كبارهم ، فيهم ثلاثة لهم
فضل رياسة أو شبه رياسة أو لهم العاقب ، وهو أميرهم ، وذو الرأى فيهم ،
وصاحب مشورتهم لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح •

وثانيهم : السيد ، وهو ممثلهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم •

وثالثهم : أبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم ،
وصاحب مدارسهم وان أبا حارثة هذا قد صار ذا شرف فيهم ، ودرس كتبهم
وملوك الروم من النصارى قد أعلوه فيهم ، أمدوه بالمال ، وجعلوا له خدما ،
وبنوا له الكنائس ، وكرموا لما بلغهم من علمه واجتهاده ، ولعل ذلك ليجعلوا
نجران تحت نفوذهم مع بعدهم •

وكان أبو حارثة يعظم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى جهره وغيبه
يروى أنه عندما اتجه أبو حارثة الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان
يركب بغلة ، وبجواره أخ له يركب مثلها ، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال أخوه :
تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • فقال له أبو حارثة :
تعست أنت ، انه والله النبي الأمى الذى كنا ننتظره • فقال له أخوه فما يمنعك
من اتباعه وأنت تعلم هذا •

قال أبو حارثة ما صنع بنا هؤلاء القوم (الرومان) شرفونا ومولونا

وأكرمونا ، وقد أبوا الا خلافه ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى ، فأضمر عليها أخوه واسمه كرز بن علقمة ، حتى أسلم بعد ذلك .

وقد روى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أنه اجتمع نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت الأخبار ما كان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنزل الله عز وجل : « ياهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ، هاتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون ، ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين ، ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

وقال بعض أخبار اليهود أتريد منا يا محمد أن نعبدك ، كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم .

وقال رجل من نصارى نجران أو ذلك تريد يا محمد واليه تدعوننا .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله أن أعبد غير الله ، أو أمر بعبادة غير الله ، ما بذلك بعثنى الله ، وأمرنى ، فأنزل الله عز وجل : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

ثم ذكرهم عليه الصلاة والسلام ما أخذ عليهم وأبائهم من الميثاق بتصديقه ، وأقرارهم به على أنفسهم ، فتلا قوله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة » الى آخر الآيات وآخر سألوا عن عيسى ابن مريم وآخر مثله فأجيبوا بأنه رسول من عند الله وتلى عليهم ما جاء بالنسبة لعيسى عليه السلام فى سورة آل عمران من أولها الى ثمانين آية من السورة .

بعد ذلك أخذ النصارى يسألون أسئلتهم ، قالوا ما تقول فى عيسى فانا نصارى ، يسرنا ان كنت نبيا أن نعلم ما تقول فيه فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ، ونساءنا ونساءكم

وانفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » فأبوا أن يقرروا بذلك .

فلما أصبح الغد أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعدما أخبرهم بالمباهلة . مشتملا على الحسن والحسين رضى الله عنهما فى خميل له ، وفاطمة تمشى وراءه وله يومئذ عدة نسوة ولم يختر واحدة منهن وكان الوفد غير الثلاثة الذين ذكرناهم كما أشرنا فى صدر كلامنا عن نجران ، مع رئيسه شرحبيل لا تصدر نجران الا عن رأيه . وعندما طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المباهلة قال :

« ان الوادى اذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يصدر الا عن رأيى ، وانى وانى أرى أمرا مقبلا وأرى والله ان كان هذا الرجل ملكا ، كنا أول العرب طعن فى عينه ، ويرد عليه أمر لا يذهب من صدره ، ولا من صدور قومه ، حتى يصيبونا بجائحة .

وان كان هذا الرجل نبيا مرسلا ، فلا يبقى على وجه الأرض مناصرة ، ولا ظفر الا هلك ، ثم ذكر رأيه فقال : انى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا .

لقى شرحبيل الذى لا يصدرون الا عن رأيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : « انى رأيت خيرا من ملاعنتك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما هو . قال شرحبيل : احكمك اليوم الى الليل وليلته الى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز .

فقال رسول الله تعالى عليه وسلم مستوثقا من نفاذ حكمه عليه وعلى من وراءه . لعل وراءك أحدا يثرب عليكم . فقل صاحبى (صاحبان له كانا فى مجلس القول) قالا : ما يرد الوادى ولا يصدر الا عن رأيه حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكان الحكم هو هذا الكتاب الذى أعطاهم اياه .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما كتبه محمد النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) لنجران ، ان كان عليهم حكمه ، فى كل ثمرة ، وفى كل صفراء وبيضاء وسوداء ، ورقيق ، فأفضل عليهم ، وترك ذلك كله ، على ألفى حلة ، فى كل رجب ألف حلة . وفى كل صفر ألف حلة ، وكل حلة أوقية ما زادت على الخراج أو نقصت على الأوقى فبحساب ، وما قضوا على دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم ليحاسبه . . . وعلى نجران مئواة رسلها عشرين فدونه ، ولا يحبس رسول فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين فرسا ، وثلاثين بعيرا ، واذا كان كبير باليمن وما هلك مما أعاروا

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من دروع أو خيل أو ركاب ، فهو ضمان على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يؤديها عليهم .

ولنجران جوار الله تعالى وذمة محمد النبي (صلى الله تعالى عليه وسلم) وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم ، إلا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيتهم ، ولا راهب من رهبانيتهم . وكل ما تحت أيديهم من مال ، وليس عليهم ربيعة ، ولا دم جاهليت ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سال منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر . . . وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، حتى ياتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب » .

وقد شهد هذه الوثيقة من حضر مجلس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، منهم أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع ابن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة .

هذا كتاب ذمة إذا بقوا على نصرانيتهم ، أما إذا اختاروا أو بعضهم الاسلام ديننا فانه من يختار الاسلام يأخذ حكم المسلمين ، ولا يكون ثمة فرق بينه وبين المسلمين .

وان من أساقفة نجران ورهبانهم من دخل فى الاسلام معترفا بأنه النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر من أولاد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام له ذلك .

ومن الرهبان من مال الى الاسلام ، وأراد الذهاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذهب اليه وأهداه بردا ، وكانت رغبته فى الحضور للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرى كيف ينزل الوحي . وأن يعلم الفرائض والحدود والسنن ، ومع ذلك أبى الاسلام ، وأستاذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع الى قومه . وقال ان لى حاجة ومعادا ان شاء الله تعالى ، ولكنه لم يرجع حتى قبض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن ذلك كان فى السنة العاشرة .

هذا وان السيد ، والعاقب ، وأبا الحارث الذين ذكرناهم فى أول البحث فى وفد نجران ، قد مكثوا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستمعون اليه ويتعرفون حاله ، وهم غير وفد شرحبيل ، وكأنه وفد من نجران وفدان لتعدد أقاليم نجران ، وكنائسهم ، واختلاف أساقفتهم .

ومهما يكن فان وفد أبى الحارث الذى فيه السيد والعاقب قد غادر المدينة المنورة ومعهما كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى الى الأسقف أبى الحارث ، وأساقفة نجران ، وكهنتهم ورهبانهم ، وأهل بيوتهم ، ورقيقهم وملتهم ، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا سلطانهم ، ولا مما كانوا عليه على ذلك جوار الله ورسوله ، أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليه غير منقلبين بظالم ولا ظالمين » .

فهذا كتاب آخر الكتاب ، وفيه عقد ذمة .

ما يدل عليه أمر هذا الوفد

٦٧٣ — كان لنجران وفدان ، كما رأيت ، وكان ذلك لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعاهم الى الاسلام ، أو العهد (عهد الذمة) على أن لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، أو أن يقاتلوا ، فجاءوا اليه فى وفدين ، وكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتاب عهد لكل وفد منهما .

ولعل السبب فى مجيء وفدين ، اختلاف الكنائس ، وان لم يكن ثمة اختلاف فى المذهب ، وان كان فانه لا يكون مفرقا بينهم فتعدوا .

وان هذا الوفد وغيره سواء تعدوا أم لم يتعدوا يدل على أن الاسلام أخذ ينشر نفسه بدعوته من غير حرب ، وما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحارب قوماً اعتزلوا حربه والقوا اليه السلم ، فما كان القتال ، كما يبدو من أخباره ، لأجل خلاف الدين ، انما كان لحماية الدعوة لتصل الى الشعوب ، فلا يحاجز بينهم وبينها أمراء أو ملوك ، أو أحبار ورهبان ، بل تكون وجوههم لله تعالى ، يختارون فى الأديان ما يرونه حقاً ، ولأن الدعوة الاسلامية ، لابد أن يسمع الناس دعوة الحق من غير ارهاق أمير ، أو اغراء زعيم دينى أو غير دينى .

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرحب بهذه الوفود ، ويبش لهم الا أن يجد فيهم أمرا من شأنه أن يكون مفرقا بين الجماعات . بحيث يحق الفقير ، ويرمض قلبه ، فلم يبش فيمن يدخلون عليه بزيئة من الحرير محلى بالذهب ، كما كان يخرج قارون على القوم بزيئته .

ولحسن لقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستقبلهم فى المسجد وان فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدل على جواز أن يدخل الكتّابى المسجد ، وانى لا أرى بأسا فى أن يدخل غير الكتّابى لأجل سماع العلم الاسلامى ، وعقد المعاهدات كما كان يفعل عمر .

وان دخولهم المسجد حسن ، اذ يرون المسلمين يؤدون الصلوات ، ويقومون بالفرائض ، ويحيطون بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم احاطة الدائرة بقطرها ان ذلك من شأنه أن يؤثر فى نفوسهم فيستجيبوا لداعى الحق .

الاذعان والايمان :

٦٧٤ — هنا مسألة يثيرها ابن القيم حول وفد نجران ، فقد كان منهم من يعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه النبي البشر به فى التوراة والانجيل ، ولكنه لا يستجيب لداعى الاسلام بالانقياد والاذعان والرضا بحكم القرآن الكريم واعلان الطاعة ، ويقول ان ذلك الاذعان لخوف أن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فيقرر ابن القيم أن ذلك لا يعد قد دخل فى الاسلام أو وصف الايمان ، لأن الايمان ليس هو مجرد المعرفة ، بل الايمان معرفة وتصديق ، واذعان ، فاذا لم تكن هذه الأوصاف مجتمعة لا يكون ثمة ايمان . لأن الانقياد والاذعان غير قائمين .

وان ذلك كلام حق ، لأنه لابد أن يدخل فى ولاء المسلمين ، وينضم الى جماعته ، وتكون ولايته للمؤمنين والله كما قال تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والمؤمنين آمنوا » .

ونرى الاذعان قسمان : اذعان قلبى ، ويكتفى به اذا كان ما يمنع من اظهار خوف اتلافه كخوف من عدو قاهر ، أو اخفائه لكى يجذب الناس الى ما اعتنق من دين بتشكيكهم فيما يعتقدون من باطل ، وقد أجاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك لبعض وفد ثقيف ، فان الايمان الحقيقى قائم فى معناه وهؤلاء يؤدون الفرائض ، ويكتفى منهم بذلك ولا يطلب خوفا من الاذعان العلنى ، فالتصديق قائم والاذعان قائم .

والقسم الثانى : يوجد فيه معرفة كمعرفة بعض المشركين ، وأثر هذه المعرفة تصديق لسانى يظهره كالأولئك الذين قالوا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نعرف أنك النبي ، ولكن لا نسلم ، لأننا نخشى أن يقتلك اليهود ، فأولئك وان عرفوا لا يؤمنون ، بل يكفرون .

قدوم وفد بنى سعد بن بكر

٦٧٥ — هذا الوفد كان رجلاً واحداً جاء مسلماً معلناً إسلامه عندما علم بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعوته ، وانتشرت الدعوة ، وصار لكلمة الله السلطان ، وتجاوبت بها الركبان ، فجاء يستوثق من الأمر من صاحب الدعوة الحق ، ولقد قال ابن اسحاق بسنده ، بعثت بنو بكر ، ضمام ابن ثعلبة وافداً على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأناخ بغيره على باب المسجد وعقله ثم دخل وهو لا يعرف شخص محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال فى جفوة من لا يعرف : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ابن عبد المطلب ، وكانت المجاورة على الوجه الآتى :

قال ضمام : انى سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تجدن فى نفسك •

فقال النبي الرفيق : لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك •

فقال ضمام : أنشدك بالله الهك ، واله أهلك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك الله بعثك إلينا رسولا ، قال اللهم نعم •

قال ضمام فأنشدك بالله الهك واله أهلك واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعك ، الله أمرك أن نعبد لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان أبائنا يعبدونها • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم نعم •

ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة ، فذكر فريضة الصلاة ، والزكاة • والصيام ، والحج ، فى كلها ينشده عند كل فريضة ، بالصيغة التى نكرها •

حتى اذا فرغ منها ، قال : « فانى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وسأؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتنى عنه ، لا أزيد ولا أنقص •

ثم انصرف عائداً الى بغيره •

وقد أثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيراً •

عاد الى قومه مؤمناً داعياً شاهداً بالحق ، وفاجأهم بأن أعلن كفره بالأصنام • وقال : بئست اللات والعزى •

فخشي عليه قومه من أن يصاب بسوء لزعهم في الأصنام . فقالوا مشفقين . مه يا ضمام اتق البرص والجذام ، اذ يزعمون أن من سبها يصاب بذلك ، وثبت ذلك الزعم في أوهامهم .

فقال لهم : « انهما ما يضران ولا ينفعان ، ان الله تعالى قد بعث رسولا وأنزل عيله كتابا استنفذتم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، واني قد جئتكم من عنده ، بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

استجاب قومه لداعى الايمان ، ويقول ابن اسحاق ما أمسى فى اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما ، فما سمعنا بوفاد قوم أفضل من ضمام ابن ثعلبة .

والقصة رويت بهذا السياق فى الصحيحين .

فهى ثابتة ، وهى تدل على مدى انتشار الاسلام فى ربوع البلاد العربية ومدى الاستعداد لدعوة التوحيد ، ولدين الفطرة ، فما كانت الوثنية مع معرفتهم بالله الا غشاوة أزلتها الحقيقة النيرة الناصعة ، فكانوا مسلمين موحدين .

وفد تجيب

٦٧٦ — قلنا ان البلاد العربية قد دخلها الاسلام عندما أعلنت للجميع حقائقه ، وعرفوا خصائصه ، وزالت غشاوة الوثنية عن نفوسهم ، اذ العرب فى جاهليتهم كانوا أقرب الى التوحيد من غيرهم لأنهم يعرفون الله تعالى وفيهم بقية ملة أبيهم ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

كان وفد تجيب خير وفد جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما ذكر ذلك عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء مسلما منقادا لأوامر الاسلام ، مجتنباً نواهيه .

جاء بالصدقات ، بما فضل من فقرائهم ، ولقد قال فيهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الهدى بيد الله فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للاسلام » ، وقال أبو بكر صديق هذه الأمة . يا رسول الله ، ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من تجيب .

أخذوا يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن القرآن الكريم وعن السنن ، ويسألونه عن أحكام تفصيلية فكتب لهم بها •

ولم يطيلوا الإقامة ، فقليل لهم ما يعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكلامنا اياه • وما رد به علينا •

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحسن ضيافتهم •

ولما هموا بالسفر ذهبوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليودعوه فأرسل بلالا ليعطيهم جوائز من مال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من خمس خمس من الغنائم ، فقد جعله عليه الصلاة والسلام للدعوة ، وما كانت هذه الجوائز من قبيل اعطاء المؤلفة قلوبهم ، فأولئك قد جاءوا مؤلفين للاسلام من تلقاء أنفسهم ، انما هذه الجوائز أعطيت رمزا لمحبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومرضاته •

وبعد أن أعطى الجوائز لهم واحدا واحدا ، قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم « ألم يبق منكم أحد ؟ » قالوا : غلام خلفناه على ركبنا •

جاء الغلام الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله انى امرؤ من الرهط الذين أتوك أنفا ، فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتى يا رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام • وما حاجتك ؟ قال الغلام حاجتى ليست كحاجة أصحابى وان كانوا قد قدموا راغبين فى الاسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وانى والله ما أعجلنى من بلادى الا أن تسال الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى ، فأقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الغلام ، وقال • « اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه » •

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه •

انطلق الوفد ، وكان مؤلفا من ثلاثة عشر رجلا راجعا الى قومه •

ثم وافوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمنى سنة عشر ، ويظهر أن ذلك كان فى حجة الوداع ، بل من المؤكد ذلك ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدخل بعد عمرة الجعرانة الا فى حجة الوداع ، حيث تمت رسالته ، ونزل قوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديننا » •

عندما التقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد تجيب فى منى سألهم عن الغلام القنوع الذى دعا له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون غناه فى قلبه ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينا مثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله تعالى : لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت إليها عاش ذلك الغلام الى أن انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، ورجع من رجع من أهل اليمن ، فقام فى قومه ، فذكرهم الله والاسلام فلم يرجع منهم أحد .

وفد بنى سعد من قضاة

٦٧٧ — كان العرب قسمين — أحدهما — دخل فى الدين راضيا مختارا ، وهذا هو البناء الأول للجماعة الاسلامية ، ومن دخلوا فى دين الله تعالى من البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وقسم رأى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخضع المعاندين والجاحدين لأن يستمعوا ومن وراءهم لسدين الحق .

فما كان لغير القسمين الا أن يختار مطمئنا راضيا الا أن يتقدم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم طالب منه المعرفة ، وهذا ما رواه الواقدي بسند عن كبير وفد بنى سعد من قضاة ، فقد قال : « قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأفدا فى نفر من قومي ، وقد أوطأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البلاد وأداخ العرب ، والناس صنفان . اما داخل فى الاسلام راغب فيه ، واما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه » .

ونقف هنا وقفة قصيرة عند كلمة كبير هذا الوفد ، وهى كلمة العرب فاننا نرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أداخ العرب ، ولكن أداخ الجاحدين المعاندين الذين رفعوا عليه السلاح وأذوه ، فهم الذين أداخهم لتذهب الفتنة ، ويكون الدين لله تعالى ، وقد يكون من العرب الذين ينتظرون من دخل فى الاسلام بعد أن زالت المحاجزات بانتصار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن الأعراب من دخل فى دين القوى ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » .

دخل الوفد مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدوه يصلى على جنازة ، فقاموا فى ناحية من المسجد ، ولم يشتركوا فى صلاة الجنازة .

التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألهم : أمسلمون أنتم ، قالوا نعم قال فهلا صليتكم على أخيكم ، فقالوا يا رسول الله ظننا أن ذلك لايجوز لنا حتى نبايعك • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أينما أسلمتم فأنتم مسلمون ، يشير بذلك الى أن الدخول فى الاسلام لا يحتاج الى مبايعة ، وأن الاسلام قد تم ، وأنتم فى مكانكم شهدتم أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله •

بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، على أن يقوموا بحقه ، فيطيعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه ، ثم انصرفوا الى رحالهم وقد خلفوا عليها أصغرهم • وقد طلبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليتقدم هذا الذى تركوه على رحلهم ، فبايعه على الاسلام كما بايعهم ، وقال أصغر القوم خادمهم ، وكأنه أقره وأقرهم على خدمته لهم ، وقيامه على رحلهم ، ولقد كان ذلك الصغير أقرأهم للقرآن الكريم ، فكان يؤمهم ، وذلك لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعا له بالبركة ، ولما اعتزموا الانصراف أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بجوائز ، فأعطى كل رجل أوأقى من فضة وان ذلك بلأريب من خمس الخمس المخصص للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم والله ، فكان ينفقه فى سبيل الدعوة الاسلامية •

وفد فزارة

٦٧٨ — جاء فى كتاب الاكتفاء أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك وفد بنى فزارة وهو مؤلف من بضعة عشر رجلا منهم الحسن بن قيس ابن أخى عيينة بن حصن وهو أصغرهم ؛ جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقررين بالاسلام ، وكانوا فى شدة فكانوا على ركاب عجاف ، سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بلادهم ، فشكوا اليه حالهم • وقالوا :

أسنتت (أى أصابتنا شدة) بلادنا ، وهلكت مواشينا ، وأجذب جنابنا ؛ وغرث (جاع) عيالنا ؛ فادع لنا ربك بغيثنا ؛ واشفع لنا الى ربك ، وليشفع لنا ربك اليك ، فرأى فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم جهلا بربهم فقال هاديا مرشدا لمن خاطبه بهذا : ويلك هذا انما شفعت الى ربى عز وجل ؛ فمن الذى ربنا يشفع اليه ؛ لا اله الا هو العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهى تنط من عظمتها وجلاله ، كما يئط الرجل من الحديد •

رق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحالهم ، ودعا ربه مستسقيا ،

وصعد المنبر ، ورفع يديه بالدعاء ، وكان لا يرفع يديه فى الدعاء الا فى الاستسقاء .

ومما جاء فى دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم اسق بلادك وبهاثمك ، وانشر رحمتك ، واحى بلادك الميتة ، اللهم اغثنا مغيثا مريحا مريحا واسعا عاجلا غير اجل ، نافعا غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب . ولاهدم ولا غرق ، ولا حرق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء ، بهذا الدعاء الضارع الى الله من أحب خلق الله تعالى اليه أدت السماء غيثا لا عيث فيه ، ونال بنى فزارة ما ازال شدتهم .

وفد بهراء

٦٧٩ — قدم وفد بهراء من اليمن ، كما نكر الواقدي ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا فاقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا الى باب المقداد بن الأسود وكان قد أعد طعاما لأولاده جفنة حيس (ثريد) فقدمه لهم وبارك الله تعالى فيه ، فأكل منه الوفد ، وبقي لأولاد المقداد ما كفاهم ، وكأنه لم ينقص منه شيء ، وقد بقي بعد أكل آل المقداد مقدار أرسلوه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى قصعة صغيرة ، وكان فى بيت أم سلمة ، فأكل منه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم رد ما بقى ، فأكل منه الوفد ، وهكذا استمر الوفد يأكل منه مدة اقامته ببركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكانت هذه امرا خارقا للعادة ، ثبت اسلامهم ، وقد جاءوا مسلمين ، وبايعهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وجعلوا يقولون : نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

وتعلموا الفرائض ، واستحفظوا بعض القرآن الكريم ، واقاموا اياما ، ثم ودعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أجازهم ، كشأن كل وفد يجرى اليه ، وذلك من خمس الخمس الذى آفاه الله تعالى به .

ونرى أن هذه الوفود جاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن وصلتهم الدعوة وأسلموا ، فجاءوا ليستوثقوا لاسلامهم ، ولينالوا بركة السماء .

قدوم وفد عذرة

٦٤٠ — فى صفر سنة تسع قدم اثنا عشر رجلا هم وفد قبيلة عذرة ،
ولهم بقصى جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلة ، لأنه كان أخاهم من
أمه .

ولذلك لما سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من القوم ؟ قال منكلهم
من لا تنكره ، نحن بنو عذرة أخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا ،
وأزاحوا من بطن مكة المكرمة خزاعة وبنى بكر ، ولنا قرابات وأرحام قال
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أهلا بكم ، ورحبا ما أعرفى بكم ،
فاسلموا .

وقد بشرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهاهم عن بعض أوهام
الجاهلية بشرهم بفتح الشام ، وفرار هرقل حيث امتنع فى ممتنع من بلاده ،
وقد حدث ذلك فقد خلصت الشام من قبضة هرقل بعد واقعة اليرموك التى
قال فيها وقد علا نشزا من الأرض سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ،
ونهاهم عن سؤال الكهنة ، فإن الله وحده هو الذى اختص بعلم الغيب ، ونهاهم
عن الذبائح التى كانوا يذبحونها تقربا لله فى زعمهم ، وأخبرهم أنه ليس عليهم
الأضحية قربانا لله ، وما عداها طعام يطعمونه .

وفد بلى

٦٨١ — قدم هذا الوفد فى ربيع الأول من سنة تسع ، فأنزلهم ربيعة
ابن ثابت البلوى عنده ، ولم يذكر عدد هذا الوفد ، ولكن يظهر أنه لم يكن
عددا كبيرا ، يضيق بضيافته ربيعة بن ثابت ، وقد قدم بهم على رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال له هؤلاء قومي ، فقال رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك وقد أسلموا ، فقال لهم الرسول عليه
الصلاة والسلام : « الحمد لله الذى هداكم للإسلام ، فكل من مات على غير
الإسلام فهو فى النار » .

وكان فى الوفد رجل مضياف ، هو هو شيخه ، وهو أبو الضبيب فسأل
الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضيافة فقال ، يا رسول الله انى رجل لى رغبة
فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ، قال عليه الصلاة والسلام : نعم ، وكل
معروف صنعتته الى غنى أو فقير فهو صدقة ، قال يا رسول الله ما وقت
الضيافة : قال : ثلاثة أيام ، فما كان بعد ذلك فهو صدقة ، ولا يصح للضيف

أن يقيم عندك فيخرجك ، ثم سأل في أمر آخر ، وهو ما يضل من الشاء أو البعير ، فقال يا رسول الله ، رأيت الضالة من الغنم أجدتها في الفلاة من الأرض ؟ قال : هي لك أو لأخيك أو للذئب قال فالبعير ، قال مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه .

وقد انتقلوا بعد ذلك الى منزل من استضافهم وهو رويغ بن ثابت البلوى ، فكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى هذا المنزل يحمل تمرا ، ويقول : « استعن بهذا التمر » وكانوا يأكلون منه ومن غيره .

وان كلام النبى صلى الله عليه وسلم مع هذا الوفد اشتمل على أدب كريم من آداب الاسلام ، وعلى حكم شرعى ، يتعلق باللقطة ، ومن الحق علينا أن نشير الى الأمرين .

لقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يروى عنه « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وان من مكارم الأخلاق الضيافة ، وانها فى ذاتها ترابط انسانى ، وتعاون ومحبة بين الناس ، وهى ضرورة اجتماعية فى البوادرى وما يشبه البوادرى ، فالرجل يسير فى البادية قد ينبت به الطريق ، فلا يجد مأوى يأوى اليه ، الا أن تكون ضيافة كريم ، ولذلك تكون فضيلة الضيافة ضرورة انسانية فى البادية ، ثم تخف ضرورتها كلما ابتعدت عن البادية ، فهى فى القرى شبه ضرورة ، وهى فى الحواضر حيث تتوافر الحاجات من طعام ومنام تكون معروفا ، أو مروءة .

وهى تأخذ الحكم الشرعى على حسب هذه الأحوال ، فهى واجبة اذا كان الانسان لا يجد له مأوى ، وقريب من الواجب اذا كان لا يجد المأوى الا بعسر ، وهى معروف يوجد ألفة ومحبة اذا كان يجد .

هذا ما يكون شرعا بالنسبة للمضيف ، أما الضيف فان عليه الا يطيل الإقامة ، بحيث يخرج رب البيت بل انه لا يقبل المبيت اذا كان فيه حرج لرب البيت ، ولم تكن ثمة ضرورة ملجئة ، ولا حاجة تدفعه .

وفى حديث اتفقت عليه الصحاح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ويعطه جائزة ، قالوا وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يخرجه » .

وفى خبر هذا الوفد أنه سأل الله تعالى عليه وسلم أحدهم عن الضالة من الغنم ، وعن البعير ، فقال عن البعير مالك وله ، دعه حتى يجده

صاحبه ، فلا يأخذه ، لأنه اذا غاب عن صاحبه طلبه ، ويحث عنه ، ولأن البعير يقوم بذاته امدا طويلا ، ولأنه ان أخذه غيبة عن صاحبه ، فلا يهتدى اليه ، ان يطلبه .

وعن الشاة الضالة التي يجدها الرجل فى الصحراء ، حيث لا مرعى وحيث لا مأوى ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : هى لك أو لأخيك أو للذئب ، وهذا النص يفيد أنها حلال له ، وهو نص فيه حكمته . ذلك أن الشاة وجدت فى الصحراء ، حيث يصعب التعريف ، وفرض أن لها صاحبا يمكن أن يعثر عليها بالتعريف بعيد ، لأنه لا يوجد من يعرف بها ، ان هى فلاة ، وفرض أنها تخلفت من قافلة مضت هو الأقرب .

وفى هذه الحال يكون ان تركها ، ربما يجدها غيره ، فيأكلها ويذبحها ، وذلك يكون احتمالا ، وربما لا يجدها أحد فتموت جوعا ، أو يلتهمها الذئب . وانه بعد هذا الترديد يكون الأولى أن يذبحها ويأكلها ، لاحتمال الضياع ، ولا تجوز اضاءة المال .

وهذا المفرض يفرض أن الشاة فى فلاة غير ممكن معرفة صاحبها ، فان كانت قريبة من خباء أو من نبع ماء ، يجىء اليه الناس ، ويمكن تعرفهم ، فانه فى هذه الحال يكون التعريف واجبا .

وفى الحق ان الواجد للشاة الضالة فى الصحراء تكون حالة مترددة بين أمرين : أولهما : أن يكون كالملتقط الذى يذهب فى الصحراء يبحث عن بعض النباتات المتخلفة فيها ، ويجرى التقاطها ، لأنه لا مالك لها ، وبين أن تكون الشاة لقطة وجدها ، ولها صاحب غير معروف ، ولا يمكن معرفته فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حكم بأنها تأخذ حكم الالتقاط ، لأنها ان تركت أكلها الذئب .

والفقهاء يفرضون أنه قد يعلم مالكة من بعد ، فقرروا أنه ان وجد إعطاه قيمتها .

وفد ذى مرة

٨٦٢ — كان العرب يجيئون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرفهم ، ويتعرف أحوالهم ، وقد جاء وفد ذى مرة وهو مؤلف من ثلاثة عشر رجلا على رأسهم الحارث ابن عوف ، وقد ذكروا أنهم ينتمون الى نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،

فقالوا : يا رسول الله انا قومك وعشيرتك نحن بنو لؤى بن غالب ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسأله عن أهله ، وفى أى مكان تركهم ، ثم سأله عن أحوال البلاد لأنهم باسلامهم صاروا رعيته • فقال الحارث أنهم (لمسنتون) (أى فى شدة وقل) ما فى المال منخ ، فادع الله لنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اسقهم الخيث » •

أقاموا أياما ، ولما أرادوا الانصراف الى بلادهم جاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مودعين له ، فأمر بلالا فأجازهم ، فأعطى كل واحد عشر أواق من فضة • وجعل للحارث اثنتى عشرة ورجعوا الى بلادهم فوجدوها مطيرة ، فسألوا متى أمطرت ، فتبين أن ذلك المطر الذى أغاثهم أنزله الله تعالى وقت دعاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وفد خولان

٦٨٣ — هذا وفد خولان ، وفد قوم آمنوا بالله ورسوله ، وقد قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعددهم نحو عشرة ، قدموا فى شهر شعبان سنة عشر •

وقال قائلهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول الله ، نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل ، ومصدقون برسوله ، وقد ضربنا اليك أباط الابل ، وقد ركبنا حزون الأرض وسهولها ، والمنة لله ورسوله علينا ، وقد جئنا زائرين •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما ماذكرتم من مسيركم الى ، فان لكم بكل خطوة خطاها بغير أحدكم حسنة ؛ وأما قولكم زائرين ، فانه من زارنى بالمدينة كان بجوارى يوم القيامة » •

ولقد كان لهم صنم كانوا يسمونه عم انس ، وكانوا مفتونين به ، يستندون اليه بأوهامهم خوارق للعادات ، أو نعماء يجريها الله تعالى ، فيحسبونها له وذلك لفرط ضلالهم ، وقتنتهم به • فلما أعلنوا إيمانهم وتبين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم صدق إيمانهم ، ويقينهم الحق سألهم عما صنعوا فى صنمهم ، ومن يؤمن منهم فهل لهم من بقية •

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما فعل عم انس •

قالوا : أبشر : بدلنا الله تعالى به ما جئت به ، وقد بقيت منا بقايا من

شيخ كبير ، وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه لهدمناه ان شاء الله تعالى . فقد كنا منه فى غرور وفتنة .

يتقصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبارهم ، ويتعرف ما كانوا عليه ، قبل هذا اليقين .

سألهم رسول الله : ما أعظم ما رأيتم من فتنته .

قال متكلمهم : لقد أسنننا (أى أصابتنا سنة شديدة) ، حتى أكلنا الرمة فجمعنا ما قدر عليه ، وابتعنا مائة ثور ونحرناها - لعم أنس قربانا - فى غداة واحدة ، وتركناها للسباع ، ونحن أحوج إليها من السباع فجاءنا الغيث من ساعتنا ، ولقد رأينا العشب يوارى الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس .

وان هذه المصادفة الغريبة قد فتنتهم ، فاعتقدوا أن الصنم هو الذى أغاثهم ، وهو لا ينفع ولا يضر ، وكثيرا ما تجيء الأمور مصادفة فيحسبها الواهمون أثرا للالتجاء لحجر أو لشخص ، أو لكاهن ، أو لتعويذة ساحر ، وان ذلك فتنة ، ولعل هذه المصادفات كانت من أسباب عبادة الأصنام التى لا تملك من الأمر شيئا وكان ما ينتجونه يجعلون نصفه لهذا الصنم قربانا ، ونصفه لله ، وما يجعلونه لله ، يعطونه لصنمهم شيئا ، ولا يعطون مما لصنمهم شيئا لله تعالى ، وذلك كله فيما يحسبونه للقربات .

وقد ذكر متكلم الوفد ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أنهم كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون ذلك جزءا له وجزءا لله فى زعمهم ، قالوا كنا نزرع الزرع ، فنجعل له وسطه (أى أحسنه) فنسميه له ، ونسمى زرضا آخر حجر الله تعالى ، فإذا مالت الريح ، فالذى سميناها الله جعلناه لعم أنس ، ولم نجعله لله تعالى ، فذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أنزل فى كتابه عملهم مستنكرا ، فقال تعالى : « وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون » .

وهكذا كانت الأروهام مسيطرة عليهم تلك السيطرة ، وقد اقتلعتها عقيدة الوحدانية اقتلاعا من نفوسهم ، وكانت دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وما اقترن بها ظاهرة لهذه الأروهام مبينة ما فيها من زيف وباطل ، وتبين الرشد من الغى والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

وقد أوصى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوصايا كريمة ، أوصاهم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وحسن الجوار لمن جاوروا ، وألا يظلموا أحدا وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الظلم ظلمات يوم القيامة » • وسألوهم عن فرائض الدين وأحكامه فعلمهم إياها • ثم غادروه بعد أيام ، وأجازهم العطايا ، ولما رجعوا الى قومهم لم يحلوا عقدة رحالهم حتى هدموا عم أنس صنمهم •

وقد محارب

٦٨٤ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في السنتين الأخيرتين من مقامه بمكة المكرمة قبل الهجرة وذلك في موسم الحج ، بعد ان علم أنه لن يؤمن من قريش الا من قد آمن ، فكان أشد القبائل غلظة في الرد وعنقا في اللقاء قبيلة محارب ، ردوا دعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى التوحيد ردا فظا غليظا منكرا ، وذلك لغلظ رقابهم ، ولذلك كانوا من آخر القبائل ايمانا ، فلم يجيء وفداهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا الا في السنة العاشرة عام حجة الوداع •

ولقد كان عدد الوفد عشرة جاءوا نائبين عنم وراءهم ، وقد أعلنوا اسلامهم ، واسلام قومهم •

ولقد نزلوا في ضيافة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان بلال يأتيهم بالغداء والعشاء ، حتى التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معلنين اسلامهم واسلام قومهم •

وقد جاء معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما من الظهر الى العصر • وكان فيهم رجل أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنظر فيه ، وإداه فيه •

فقال المحاربى كائنك يا رسول الله توهمتنى •

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : لقد رأيته وكأني الى أنه كان منه شيء •

قال المحاربى : أى والله لقد رأيته وكلمته ، وكلمته بأقبح الكلام ، ورددته بأقبح الرد ، بعكاز ، وأنت تطوف على القبائل •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم •

قال المحاربى : ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الاسلام منى . فأحمد الله الذى أبقانى حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم .

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل .

قال المحاربى : يا رسول الله استغفر لى من مراجعتى اياك .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ان الاسلام يجب ما كان قبله من كفر . ثم انصرفوا من بعد ذلك عائدين الى اهلهم .

وقد نرى فى هذا الوفد ولقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهرتين واضحتين :

احدهما : أن الله تعالى قد يخرج من القلوب القاسية قلوبا مدعنة طيبة .

الثانية : ضلال العقول وسيرها فى الشر ، فاذا قذف الله تعالى فيها بنور الحق اهتديت وآمنت وسبحان مقلب القلوب .

وانك ترى سماحة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفقه ، واتباعه القلوب من حيث اقبالها .

وفد صداء

٦٨٥ — جاء هذا الوفد مكونا من نحو ١٠٠ من أهل صداء باليمن .

ويرجع أمر هذا الوفد الى سنة ثمان من الهجرة عندما اعتمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمرته الجعرانه ، فانه أرسل الى صداء باليمن جيشا مكونا من نحو أربعمئة مقاتل بقيادة قيس بن سعد بن عبادة .

فقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجل منهم قد علم بأمر الجيش ويظهر أنه كان يعلم من قومه أنهم يميلون الى الاسلام خصوصا بعد أن فتح الله تعالى على نبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة .

فجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله جئتكم وافدا على من ورائى فاردد الجيش ، وأنا أتى لك بقومى .

فرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الجيش • وقد ذهب الرجل الصدائى واسمه زياد بن الحارث ، كما ذكر الواقدى فى تاريخه الى قومه فأتى منهم بوفد عدده خمسة عشر رجلا ، وقد قال سعد بن عبادة • دعهم يا رسول الله ينزلوا على فنزلوا عنده ، فحياهم وأكرمهم ، وكساهم ، ثم ذهب بهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبايعوه على الاسلام ، وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا •

رجعوا الى قومهم ففشوا فيهم الاسلام ، وقد توافرت أسباب فشوه ، فهو حق فى ذاته ، ولا غرابة فى أن يفشو دين الفطرة ، بين قوم أرادوا الحق اذ لم يعاندوا ، أو يفرضوا خصومه ، ولأنه قد تم فتح مكة المكرمة التى كانت تتاوىء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبالغ فى مناوراته • ولأن السلطان فى البلاد العربية صار للاسلام وما لعربى أن يناهى بجانبه عن دين ساد البلاد العربية الا لأنه رأى أن فى غيره ما هو خير منه ، والاسلام خير الأديان ، وهو الحق الباقي •

فشوا الاسلام فى صداء ، ويظهر أنه كانت لهم صلة بالخزرج بدليل ضيافة سعد بن عبادة •

ولذلك جاء من بعد ذلك مائة رجل منهم وافدين على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع ، ويظهر أنه الوفد الذى جاء فى النهاية مسلما •

وعلى ذلك نقول ، انه جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صداء ثلاثة وفود •

اولها : زياد بن الحارث الذى جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب اليه أن يرد الجيش ، وقد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يا أخا صداء أئتلك مطاع فى قومك • فقال له بلى من من الله عز وجل ومن رسوله •

وثانيها : الوفد الذى حضر مع زياد وعدده خمسة عشر رجلا ، قد استضافهم سعد بن عبادة ، وأولئك بايعوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وأن ينشروه فى قومهم •

وثالثها : وفد الجماعة الذين جاءوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والتقوا به فى حجة الوداع ، حيث يودع رسول الله أمته ، وقد أودعها أمانته ، وحملها رسالته •

ولقد صحب زياد بن الحارث الصدائى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى بعض غدواته وروحاته ، ورأى من الخوارق الحسية والمادية التى جرت
على يديه ما زاده ايمانا •

ويروى أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سأل زيادا فى سيره
فى الصحراء أمعك ماء يا أخا صداء ؟ قال معى شىء فى أداة ، قال عليه
الصلاة والسلام هاته فجاء به • ويقول زياد : صبيب ما فى الأداة • فجعل
أصحابه يتلاحقون ثم وضع كفه على الأثناء ، فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه
عينا تفور ، ثم توضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأذن للصلاة ،
أذن لها زياد وأقامها ؛ وأراد بلال أن يقيمها ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم من أذن للصلاة يقيمها •

ولقد سأل زياد بن الحارث أن يوليه عليه الصلاة والسلام امرة قومه
فولاه ، لأنه وجده كفئا لذلك إذ كان مطاعا فى قومه ، كما وصفه النبى صلى
الله تعالى عليه وسلم ، ولأنه كان داعية الاسلام فيهم فكان من الخير للاسلام
ولهم أن يتولى هو ولايتهم ، ولأنه لم يرد الولاية لذاتها ، ليكون له سيطرة
وسلطان ، بل أراد الامرة على قومه لغاية رأى النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم تحققها ، وذلك جائز ، ولا يعارض قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
« وإنا لن نولى على عملنا من أراد » ، لأن نص الحديث يمنع الولاية ممن
أرادها للسلطان والسيطرة لا للعمل ، واقامة الحق •

ولكن زيادا لم يستبق الولاية ، بل استقالها وأعطى النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم كتابى الامارة ، وولاية الصدقات •

وذلك لأن سائلا شكا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن واليه طغى
عليهم ، ويقول ان عاملنا اخذنا بنحول الجاهلية أو بثاراتها ، ويفهم من القصة
أنه عزله ، وقال لا خير فى الامارة لرجل مسلم • وسأل رجل النبى صلى الله
تعالى عليه وسلم أن يعطيه من الصدقة فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله
لم يكلها الى ملك مقرب ، ولا لنبى مرسل حتى جزاها ثمانية أجزاء ، فان كنت
جزءا منها أعطيتكها ، وان كنت غنيا ، فانما هى صداع فى الرأس وداء فى
القلب •

فهم زياد بن الحارث من هذا ان الولاية لا تأتى بخير للمسلم ، بل هى
ابتلاء له ، فاستقال منها ، وقال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول
الله هذان كتابان (كتاب الامارة وولاية الصدقات) فاقبلهما ، فسأله الرسول
صلى الله تعالى عليه وسلم عن السبب ، فقال : انى سمعتك تقول : « لاخير

فى الامارة لرجل مسلم ، وأنا مسلم ، وسمعتك تقول من سأل الصدقة وهو غنى عنها ، فانما هى صداع فى الرأس ، وداء فى القلب ، وأنا غنى .

أقاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن سألته أن يدلّه على رجل منهم فدله عليه .

وهكذا نرى أن ذلك الوفد كسب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إيماناً وعلماً والله تعالى الهادى .

قدوم وفد سلمان

٦٨١ — هذا وقد جاء من الصحراء وفد سلمان يعلن إسلامه ، ويشكو حاله ، وكان مؤلفاً من سبعة رجال فيهم حبيب بن عمرو ، وقد أسلموا ، وأعلنوا إسلامهم .

وقد أخذوا يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الإسلام ، وعن حقائقه . وكان من أسئلتهم ما أفضل الأعمال ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم — الصلاة فى وقتها — وكانت أفضل الأعمال لأنها تهذب النفس باستمرار إذا أديت فى أوقاتها ، فهى تزيل صدى القلب كلما اشتد فى الظهيرة ، وإذا أزالته وأبتدأ يتراكم فى الأصيل كانت صلاة العصر ، فإذا تراكم جاءت صلاة العشى حتى ينام طاهراً مطهراً ، فإذا جاء الصباح استقبل اليوم فى طهارة ونقاء ، وعامل الناس بالطهر .

وقد صلى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة الظهر والعصر ، فكانت صلاة العصر أخف من صلاة الظهر ، وقد استأنسوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشكوا إليه جدد بلادهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اسقهم الغيث فى دارهم ، فقال عمرو ، لاستئناسه بالرسول صلى الله عليه وسلم ورفقه : « يا رسول الله ارفع يديك ، فإنه أكثر وأطيب ، فتبسم عليه الصلاة والسلام ، ورفع يديه ، حتى بدأ يياض أبطينه . . . »

أقاموا ثلاثة فى ضيافة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم عادوا إلى ديارهم ، وقد أعطاهم عليه الصلاة والسلام جوائز ، كانت جائزة كل واحد خمس أواقى فضة .

واعتذر بلال عن قلة ما أعطى ، وقال : ليس عندنا اليوم مال . فقالوا راضين قانعين ، ما أكثر هذا وأطيبه .

لما عادوا الى بلادهم وجدوها قد أمطرت ، وتحروا فراوا أن ذلك المطر جاءهم فى الوقت الذى دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

• وكان مجيء ذلك الوفد فى صفر من السنة العاشرة .

وفد غامد

٦٨٧ — جاء هذا الوفد مسلما فى السنة العاشرة ، وعددهم عشرة وعندما أقبلوا نزلوا ببيق الغردق وانفصلوا منه لمقابلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركوا أحدثهم على ركابهم ليحرسها ، وقد قابلو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمهم شرائع الاسلام ، وكتب لهم كتابا فيه هذه الشرائع ، أى موجزها ، كما جاء فى خطبة الوداع ، فليس تفصيلها . ولكن فيه جملة خاصة خصوصا ما يكون هدى لأمر جاهلى جاهلى الفوه ، وكانوا له متبعين .

وحدث أن حارسهم الذى هو أحدثهم قد نام عن حراسته ، فسرقت عيبة فيها ثياب أحدهم ، وفر سارقها ، وعندما التقوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بسرقتها ، قال لهم : من خلفتم فى رجالكم ؟ قالوا أحدثنا سنا . قال قد نام عن متاعكم حتى أتى أت فأخذ عيبة أحدهم فقال رجل منهم يا رسول الله . ما لأحد من القوم عيبة غيرى فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . فقد أخذت وردت الى موضعها .

خرج القوم وعادوا سراعا الى متاعهم ، فوجدوا صاحبهم فسألوه عما أخبرهم به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . قال فزعت من نومى ففقدت العيبة فقممت فى طلبها ، فإذا رجل قد كان قاعدا ، فلما رآنى صار يعدو ، فعدوت وراءه وانتهيت الى حيث انتهى ، فإذا أثر حفر وإذا هو يخرج العيبة فاستخرجها ، فقالوا نشهد أنه رسول الله .

عادوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه أن الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، وجاء الغلام وأسلم وعهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الى أبى بن كعب فعلمهم بعض ما تيسر من القرآن الكريم ، بعد أن كتب لهم كتابا بجملة الاسلام وحقائقه .

• وقد أجازهم صلوات الله وسلامه عليه ، كما كان يجيز غيرهم .

وفد الأزد

٦٨٨ — ذكر خبر الوفد أبو نعيم في كتابه معرفة الصحابة بسنده ، وأبو الحافظ بسنده ، وقالوا انه قدم هذا الوفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا ، فدخلوا عليه ، فأعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سمعهم وزيهم ، فقال من أنتم ؟ قالوا قوم مؤمنون فتبسم عليه الصلاة والسلام ، فقال : ان لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟

قالوا خمس عشرة خصلة خمس منها جاء بها رسلك ، ان نؤمن بها ، وخمس أمرتنا ان نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية .

قال عليه الصلاة والسلام : فما الخمس التي أمرتكم بها رسل أن تؤمنوا بها ؟ قالوا أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن نؤمن بالقدر خيره وشره ، قال عليه الصلاة والسلام ما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قالوا قد أمرتنا أن نقول : لا اله الا الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونجس البيت الحرام لمن استطاع اليه سبيلا ، فقال عليه الصلاة والسلام وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ فقالوا ، الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، والصدق في مواطن اللقاء وترك الشماتة بالأعداء .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » واني أزيدكم فتنم لكم عشرون خصلة ان كنتم كما تقولون ، لا تحرموا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدا تزولون ، واتقوا الله الذي اليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلصون » .

هذا وفد مؤمن حكيم ، قد انصرفوا بعد أن أخذوا وصايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعملوا بها ، وتعهدوا بالأخذ بأحكام الاسلام ، وبما به أمر ، وما عنه نهى وأقاموا الخلق الكريم ، والمعروف الذي تؤيده الأخلاق .

قدوم وائل بن حجر

٦٨٩ — قال ابن عبد البر : ان وائل بن ربيعة كان أحد أقبال حضرموت وقد وفد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ضمن وفود اليمن ، والجنوب ، وقد رحب به صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه ، وبشر قبل مقدمه فقد قال عليه الصلاة والسلام قبل مقدمه : يأتيكم بقية أبناء الملوك ، فلما دخل عليه رحب به ، وأدناه من نفسه ، وقرب مجلسه وبسط له رداءه ،

وقد جاء اليه مسلما معلنا اسلام من وراءه من اتباعه فى اليمن ، ورأى فيه
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خيرا ، فدعا له بخير ، وقال فى دعائه : « اللهم
بارك فى وائل وولده ، وولد وولده » •

وعلى طريقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعله واليا على الأقيال
من حضرموت ، وكتب كتباً بهذه الولاية ، وكما يقول الحافظ بن كثير ، منها
كتاب الى المهاجر بن أمية ، وكتاب الى الأقيال والعباهلة •

ولقد أقطعته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرضاً من أرض الجنوب
وهو اقطاع منفعة ، لا اقطاع ملك ، على مال يقدمه لبيت المال •

وذلك لأن هذه أراض نائية عن أراض المدينة المنورة ، فلا يمكن أن يشرف
عليها الامام بالمدينة المنورة بنفسه ، فيعطيه من يديرها ، على خرج يقدمه ،
كأجرة لها ، أو يكون من بعضها •

ولما انصرف من حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معه
معاوية ابن أبى سفيان ، وسارا فى هذه الشقة البعيدة وهو راكب ، ومعاوية
راجل ، فشكا معاوية حر الرضاء ، فقال فى شكواه • انتعل ظل الناقة
(أى لا ظل لها يستظل بها) ويغنى عنى ذلك ، لو جعلتنى ردفا •

فقال وائل : اسكت ، فليست من أرداف الملوك •

ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسله مع ذلك القيل العنيف ،
ليرى معاوية اذلال الملوك لمن معهم ، فيكون رفيقا عندما يحول الخلافة الى ملك
عضوض ، ويسير سير الملوك •

ومن العبر أن وائلا هذا عاش حتى آل الأمر الى معاوية ، وجعله ملكا
عضوضا ، يعرض عليه بالنواجز ، يروى أن وائلا قدم على معاوية ، وهو على
هذه الحال ، فعرفه معاوية وقربه وذكره بالرحلة التى كانت لهما ، ثم عرض
عليه جائزة سنوية ، فأبى أن يأخذها ، وقال : أعطها لمن هو أحوج اليها منى •

وان ذلك الرد عندى أعنف من رده عندما طلب أن يردفه ، لأن مؤدى
هذا الرد ، أنك تعطى لتقرب وتدنى ، وتسكت الألسنة ، ولتعلى اسمك بين
الناس ، والأولى بالعطاء المحتاج ، وان ذلك شأن الذين يبنون حكمهم على
شراء الألسنة ، وادناء ذوى السلطان ، وعدم الالتفات الى بر المحتاجين
والضعفاء والمساكين يجعلون عطاياهم اتجارا ، وصدقاتهم اقتخارا •

وفد النخع

٦٩٠ — هذا آخر الوفود التي قدمت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قدموا عليه في مائتي رجل وقد نزلوا في دار الضيافة ، وقد جاءوا مقرين بالاسلام ، وكانوا قد بايعوا قبل ذلك معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه عندما ذهب الى اليمن داعيا الى الاسلام .

وجاءوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نائبين عن اقوامهم معلنين الطاعة مقرين خاضعين مواليين مناصرين غير خارجين عن طاعة ، مع بعد الديار .

وحادثوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأفضوا اليه بذات نفوسهم ، وكان فيهم رجل يقال له زرار بن عمرو ، وكان رجلا مجلو النفس ، قويا في دينه قد رأى رؤيا فأراد أن يذكرها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتأول هذه الرؤيا .

قال : رأيت في سفرى عجا ، وقص على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رؤياه ، وجاء فيما قص من الرؤيا أن قال : رأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان مدملجان ، وسكتان ، قال عليه الصلاة والسلام « ذلك ملك العرب ، رجع الى أحسن زيه وبهجته » .

ورأيت يا رسول الله : عجوزا شمطاء قد خرجت من الأرض . قال عليه الصلاة والسلام : تلك بقية الدنيا .

ورأيت يا رسول الله نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقال له عمرو ، وهى تقول لظى لظى ، بصير وأعمى ، أطعمونى أهلكم وأموالكم .

قال عليه الصلاة والسلام : تلك فتنة تكون في آخر الزمان .

قال يا رسول الله ، وما الفتنة : قال يقتل امامهم . ويشجعون اشتجار أطباق الأرض ، وخالف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصابعه ، يحسب المسء فيها أنه محسن ، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء ان مت أنت أدركها ابنك .

قال : ادع لى يا رسول الله الا أدركها ، فدعا له رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم ، وأدركها ابنه ، وكان ممن اشترك فى خلع ذى النورين عثمان .

هذا ما جاء فى كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ، ولم يذكر له سنداً ، كما لم يذكر كتاباً من كتب الصحاح أخذ عنه ذلك الخبر .

ولذلك نكل اليه امر هذه الرواية .

ومهما يكن من صحة ما جاء بالنسبة للرؤيا وتأويلها ، فانه مما لا شك فيه انه جاء وقد النخع الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلنوا اسلامهم واسلام من وراءهم ، وأنهم قد علموا الاسلام ، وأن معاذ بن جبل علمهم أمور دينهم ، وحفظهم بعض القرآن الكريم ، فجاءوا اليه مؤمنين :

وان ارسال معاذ بن جبل اليهم معلما للاسلام ، ومحفظا للقرآن الكريم ، يشير الى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . ما كان يرسل سرايا للحروب فقط ، بل كان (خصوصاً بعد الحديبية) يرسل سرايا لتعليم الاسلام ، ولجرد الدعوة ، ولكنهم كانوا مقاتلين ، لا يحملون السيف الا اذا امتنعوا عن الاسلام والعهد ، والله سبحانه وتعالى حامى دينه ، وحامى دعوته لمن أرادها .

المغزى فى هذه الوفود

٦٩١ — اننا ذكرنا عددا من الوفود ، ولكن لم نحصها عدداً ، فقد كانت أكثر من ذلك ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد مكث فى المدينة المنورة يستقبل الناس لتعليمهم الاسلام سواء فى ذلك من يجيئون زرافات فى وفود عن غيرهم ، ومن يجيئون يريدون معرفة الحقائق الاسلامية ، والآحاد الذين يجيئون من قبائل مختلفة أفراداً أو غير أفراد .

مكث صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة لذلك ، ويرسل السرايا داعية الى الاسلام .

ويلاحظ فى هذه أمور ثلاثة :

اولها : أن أكثر هذه الوفود كان من جنوب اليمن وحضرموت ، وما يدانيها من نجران والقبائل العربية التى لم تشترك فى مناواة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ممالة لقريش ، أو متحزبين معهم ، أو يرون مثل رأيهم فى

عبادة الأوثان ، أو يروونه ، ولكن لا يتشددون ، فلم تكن فيهم ممانعة نفسية من اتباع الآباء والأجداد الذين يقولون « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ولا تقف محاذرة من أمرة أو رئاسة تحول بينهم وبين الدخول في الاسلام ، وخصوصا بعد أن سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سنة إبقاء الأمير على أمارته ، أن دخل في الاسلام مؤمنا وكان عدلا يرضى أهل أمارته حكمه ، ولا يشكون منه شيئا ، فإن هذه السنة جعلت الرؤساء والأمراء لا يفرضون في الدعوة المحمدية خصما يناوؤا ، ويحارب ، وذلك لأن الذاتية يكون لها دخل في تحريك النفوس ، ولم يكن أمرهم ككفار قريش في أول الدعوة المحمدية ، إذ فرضوا من أول الأمر أن الاستجابة تذهب بزعامتهم ورياستهم ، فكانت الذاتية أو الأثرة محركة لخصومتهم •

ثانيها : أن الوفود كانت تجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معلنة اسلامها وطالبة تعليم الفرائض وليشاهدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليقبسوا من نور الحضرة النبوية في مجالسه عليه الصلاة والسلام ، وأن ساعة في حضرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغنى عن علم كثير ، بل إنها هادية ملهمة كما أشار الى ذلك الامام أبو حنيفة رضى الله تبارك وتعالى عنه •

أنهم إذ يعلنون اسلامهم ويخبرون عن وراءهم بأنهم ارتضوا الاسلام ديننا ومحمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ، من غير عوجاء ولا لوجاء ، وأن كان فيهم من تلكا أو تردد • فإن كثرة المسلمين فيهم كافية لأن تجعل هؤلاء المترددين يتبعون ولا يخرجون •

ويلاحظ أن بلاد الجنوب كان للنصرانية واليهودية مكان فيها ، وخصوصا النصرانية ، وفيهم مجوس ، فكان رفق الاسلام بهؤلاء وعقد المعاهدات بينهم على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، مقربا لهم ، وكانوا أهل علم بالديانات ، ومنهم من أسلم بناء على ما عندهم من الكتب التي تبشر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيكون اسلامهم شهادة بصدق الدعوة المحمدية ، فوق أنها تشتمل في ثناياها ما يدل على كمال صدقها إذ هي التوحيد ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات وتوثيق العلاقات الانسانية بين الناس أجمعين لا فرق بين عربى وأعجمى ، ولا قبيلة وقبيلة •

الأمر الثالث : أن هذه الوفود جاءت تترى وقدأ بعد آخر في السنة التاسعة والعاشره أى بعد فتح مكة المكرمة ، وتخاذل الرومان عن لقاء الجيش الاسلامى وقد ذهب اليهم فى دارهم أى عند الشام ، وقد تخلت عن نصرتهم القبائل العربية ، فلم يفعلوا ما فعلوه فى مؤتة ، إذ كان منهم جيش كثيف يبلغ مائة ألف أو يزيدون •

وبذلك أخذ النفوذ الرومانى ينحسر عن العرب ، ويذهب ظله كما كان الأمر بالنسبة لفارس .

وان ذلك من شأنه أن ينظر الى الدين الجديد على أنه الغالب ، المزيل للوثنية ، والمحى للعزة العربية ، فهو الذى يجعل العربى يحس بعزته أمام بنى الأصفر من الرومان ، وينفض عنه سيطرة كسرى ومن وراءه وخصوصا أن الكتب التى أرسلها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يظلمها النور المحمدي وقوة الحق أمام ارهاب الباطل ، فاثار فى ذلك نخوة عربية أمام الطغاة فى الشمال والجنوب ، فكان من اثار ذلك أن القوا بكل نفوذ عربى .

وان هذا الوفد الذى لقي النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان من اهل الجنوب الذى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم انا لا نبرم أمرا خارجيا الا بعد استئذان كسرى ، فأشار اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم سيرثون ملك كسرى ، فأعطوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، عهدا بأن يتبعوه .

ومن هذا يتبين رغبة العرب الذين امتد اليهم نفوذ الرومان والفرس فى أن يخلعوا نيرهم ، ويردوا اليهم أمرهم ، وقد وجدوا فى الدعوة المحمدية معيناً لهم من أن يتحرروا من التبعية ، وهم الأحرار الذين فضلوا الشدة فى عزة ، عن الأمن فى ذل .

وقد رأى ذلك المتأخمون لفارس فى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى لقائه للوفود فى مكة المكرمة ، أولا عند عرضه نفسه على القبائل قبيل الهجرة ، وفى المدينة المنورة . ثانيا عندما أخذ يلتقى بالوفود ، من حضرموت واليمن ونجران .

وقد أدرك العزة العربية فى الدعوة المحمدية أولئك الذين يتأخمون الرومان عندما التقى بهم فى مؤتة وفى تبوك ، لقد عاون أولئك الرومان بحكم النفوذ الرومانى فى مؤتة ، ولكنهم لما أدركوا أن العزة فى الأخوة المحمدية لم يعاونوهم فى تبوك ، فلم يريدوا لقاء جيش الاسلام بعد أن أعدوا العدة ، وعينوا المدة ، فكان ذلك اشارة للعربى الحر ، (وكلهم أحرار) الى موطن عزته ، ومكان رفعتته .

لذلك أخذ الاسلام يدخل فى الصدور ، وقد فتحت له الأبواب ، فى القبائل المتأخمة للرومان فى الشمال وفى الجنوب كله ، وخصوصا ما تأخم الفرس ، وكان للفرس فيه نفوذ ، فوجد التخلص من هذا النفوذ المذل ، بالاسلام .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يترك الأمر لتلك المنازع وحدها ، بل كان يرسل الرسل معلمين لهم والبعوث فى السرايا ، فما كان رجال السرايا كما ذكرنا الا رجال تعليم ودعوة ، ولكن لأنهم يجتازون صحراء ويلقون ناساً غلظا شدادا ، كان لابد أن يكونوا من أهل الحرب ، والعلم معا ، فكانوا يحملون علم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو بالأحرى بعض علمه ، ويحملون مع ذلك سيفه ، فهم يجاهدون بالأميرين والوقائع تعين استعمال أحدهما :

• وان الرسل كثيرون ، والسرايا أقل من الرسل

وقد ابتدأت الرسل الى الملوك والأمراء ، سواء فى ذلك العرب وغيرهم فكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما ذكرنا الى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ومقوقس مصر ، ونجاشى الحبشة ، كما أرسلت الى أمراء اليمن وحضرموت ، ونجران وكثيرون من أولئك أجابوا بأن طلبوا من يعلمهم الاسلام ، لأنهم استجابوا له ، وأبقاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ما تحت أيديهم وكذلك منهم من أوفد وفودا بالمبايعة على الاسلام •

ولو وازنت بين أثر هذه الكتب فى العرب ، وأثرها فى غير العرب ، كهرقل وكسرى لوجدت أن أثرها فى الأمراء العرب كان ايجابيا بالاستجابة وعدم المخالفة ، وأما أثرها فى غيرهم ، فان استثنيت النجاشى الذى أسلم فاننا نجد الباقين أجابوا بالرفض فى عنف أو رفق فهو رفض فى الحالين •

وان السرايا كانت كما أشرنا دعاء الى الحق ، ولنذكر خبرين يثبتان مقدار عناية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالدعوة ، وهما خبر ارسال معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب ، وكلاهما كان من علماء الصحابة بالاسلام ، وإذا كان معاذ قد اشتهر بالعلم وفقه الاسلام فعلى المجاهد المحارب ، اشتهر بالعلم وفقه الاسلام ، حتى قيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها » واشتهر من بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بالفقه والقضاء معا ، حتى ان عمر رضى الله تعالى عنه فى امارته كان اذا مسألة تعقدت قال مسألة ، ولا أبا حسن لها ، لأنه قوى العلم والفقه والادراك •

وان الارسال تدل عباراته وما أحاط به على أنه ما كان للقتال ، وان كان على المقاتل الأول ، انما كان للتعليم ، وتفقيه الناس فى دينهم الذى ارتضوه •

بعث معاذ بن جبل

٦٩٢ — عندما بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن بعث أيضا أبا موسى الأشعري ، قال البخاري بسنده ، بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن وأبا موسى الأشعري ، وبعث كل واحد على مخالف ، واليمن مخالفان ثم قال : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ، ولا تنفروا .

وانطلق كل واحد منهما الى عمله ، وكان كل واحد منهما اذا سار في أرضه وكان قريبا من صاحبه فسلم عليه ، فسار معاذ في أرضه قريبا من صاحبه أبا موسى فسلم ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى اليه ، فاذا هو جالس ، وقد اجتمع الناس اليه ، واذا رجل عنده قد جمعت يداه الى عنقه ، فقال معاذ يا عبد الله بن قيس أثم هذا ؟ قال هذا رجل كفر بعد اسلامه فقال لا أنزل حتى يقتل ، قال أبو موسى ، انما جاء به لذلك فانزل ؟ قال ما أنزل حتى يقتل ، فقتل .

سقنا ذلك الخبر من البخاري للدلالة على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اختار طائفة من فقهاء صحابته لتعليم الناس في اليمن وغيره أمور دينهم ، ويدعوهم الى الاسلام .

ولابد أن يذكر في هذا المقام أن معاذ رضي الله تعالى عنه قد بعث مزودا بمقاتلين ، ليبدأ بالدعوة الى الاسلام فان أسلموا علمهم الاسلام ، واقتصرت بعثته على التعليم والهداية .

وان كانت الأخرى قاتل :

وقد روى السرخسي في مبسوطه في السير الصغير وصية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بها معاذ عند قدومه على اليمن ومعه مقاتلون وهذا نص الوصية .

« لا تقاتلهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقاتلوهم حتى يدعوكم ، فان بدعوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتل ، وقولوا لهم : « هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدي الله تعالى على يدك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » (١) .

(١) مبسوط السرخسي ج ١٠ ص ٢١ .

وقد أغناه الله تعالى عن القتال ، فقد استجابوا ، فانتقل من الحرب الى الموعظة الحسنة التى علمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اياها •

واذا كان قد أوصاه الله تعالى بما يجب عند الحرب ، فقد أوصاه أيضا بما يجب على المؤمن فى كل الأحوال ، ولقد ذكر هو هذه الوصية عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيما رواه الامام أحمد رضى الله تعالى عنه فقد جاء فى هذه الوصية : « لا تشرك بالله شيئا وان قتلت وحرقت ، ولا تعقن والديك ، وان أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فان من ترك صلاة مكتوبة متعمدا ، فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمر ، فانه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فانه بالمعصية يحل كل سخط ، وإياك والفرار من الزحف ، وان هلك الناس ، واذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأحبهم فى الله عز وجل •

ومن وصية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوله له : « إياك والتنعيم فان عباد الله ليسوا بالمتنعمين » •

وبهذه الوصايا كان يعلم الناس واجبات الدين ومكارم الأخلاق ، ومما علمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوله : « مفتاح الجنة شهادة أن لا اله الا الله تعالى » •

واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ترك معاذ بن جبل بمكة المكرمة عند فتحها ليقوم فيها يعلم الناس ، فقد أرسله أيضا الى اليمن ليعلم أهله مع صاحبه أبى موسى الأشعرى لتعليم الناس الاسلام •

ومع هذا العمل الجليل ، وهو تعليم الناس ، كان رضى الله تعالى عنه يجمع الجزية دينارا من كل حالم ، ويقول فى ذلك : « بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليمن وأمرنى أن آخذ من كل حالم دينارا وعدد من المعافر (أى الثياب) وأمرنى أن آخذ من كل أربعين بقرة مسنة ، ومن كل ثلاثين بقرة تبيعا حوليا ، وأمرنى فيما سقت السماء العشر ، وما سقى بالدوالي نصف العشر » وذلك فى زكوات الأموال الظاهرة •

ومن هذا يظهر أنه ولاء الخراج والجزية ، وولاه الصدقات فكانت الولاية العامة شاملة – لكل ما يتعلق بإدارة الحكم •

وقد روى الامام أحمد فى مسنده تفصيلا ، وان كان لا يخرج عما اتفق

عليه الأئمة أصحاب السنن ، كما جاء فى الحديث السابق ، وهذا نص
ما جاء فى رواية الامام أحمد •

أمرنى أن آخذ من كل ثلاثين تبعا (١) ، ومن كل أربعين مسنة ، ومن
الستين تبيعين ، ومن السبعين مسنة وتبيعا ، ومن الثمانين مسنتين ، ومن
التسعين ثلاثة أتباع ، ومن المائة مسنة وتبيعين ، ومن العشر ومائة مسنتين
وتبيعا ، ومن العشرين ومائة ثلاث مسنات ، أو أربعة أتباع •

هذه رواية أحمد ، وهى لا تخرج عن الرواية الأولى كما ذكرنا ، وإن
كانت أكثر تفصيلا ، وإن الذى يهمنا فى هذه المسألة التى نترك تفصيلها لكتب
الفقه على نص الرسول صلى الله عليه وسلم فى باب الزكاة بالنسبة للنعم
والزرع والنقود •

إن الذى يهمنا أن نذكر لماذا قصرت تعليمات النبى صلى الله تعالى عليه
وسلم للزكاة على هذين الأمرين وهما زكاة الزرع وزكاة البقر ، ولم يذكر
لمعاذ رضى الله تعالى عنه أمر فيما يتعلق بزكاة غير البقر من النعم وهى الغنم
والابل ، ونقول : أن ذلك فيما يظهر لنا يرجع الى أمرين :

أولهما : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر وإلى الصدقات بأن
يجمع الأموال الظاهرة ، وهى النعم والزروع والثمار ، وترك غيرها من الأموال
التي سميت فى الفقه بالأموال الباطنة لدين الناس يقدمونها من غير تفقيش
أو تكشف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى أن يعددوا الزكاة
مغنما ولا يعدوها مغرما •

الأمر الثانى : وهو الخاص بالعناية بذكر البقر دون غيرها من النعم ،
وقد بين عليه الصلاة والسلام زكاة غيرها من النعم فى مواضع أخرى ،
كان يذكرها لمن يرسله لجمع الزكوات من القبائل التى تسكن الصحراء ، لأن
السوائم فيها كان أغلبها من الغنم والابل •

أما السبب فى أنه سيجابه فى أمره لمعاذ بن جبل ذكر له زكاة البقر
والزرع ، ولم يذكرها ، لأنه فيما يظهر كانت اليمن أرضا زراعية ، وفيها
خصب ، وقد قال الله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين
وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ، ورب غفور » •

(١) التبعية الذى لم يبلغ السنة ويتبع أمه ، والمسننة ؛ أو المسن بالغ سنة •

وان البقر يكثر حيث تكثر الزراعة ، وحيث تكون أرض خصبة منتجة ، ولذلك ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لبعوثه الى اليمن زكاة ما يكثر فى اليمن من زروع وثمار وأبقار .

ويروى أن معاذًا اتجر فى المال الذى جمعه ، لأنه باع كل ما له فى دين مستغرق كان عليه ، وجاء الى اليمن خاليًا من كل عرض من أعراض الدنيا ، فتجر وكسب ، ولم ينقص من هذا المال شيئًا .

وقد كان اتجاره لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم خصائصه ، فأرسله الى اليمن ، وظن أن ذلك ليجبر فقره فى حلال ، ولم يعد الى المدينة المنورة الا بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد صار أبو بكر خليفة رسول الله ولكنه تظن فى حل هذا المال الذى اكتسبه بالتجارة .

جاء الى عمر رضى الله عنه وقص عليه خبر هذا المال ، وسأله ماذا يصنع به فقال الفاروق ادفعه الى أبى بكر ؛ فان اعطاكه فاقبله ، فقال الصحابى الجليل ، لماذا أدفعه اليه ، وانما بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجزنى .

انطلق عمر به الى أبى بكر ، وطلب اليه أن يرسل الى معاذ فخذ منه ودع له ، أى فشاركه كسبه ، فقال الصديق : ما كنت لأفعل انما بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجبره ، فلست آخذ منه .

ولكن معاذًا التقى الذى اقتبس من نور الصحبة انطلق الى أبى بكر يدفع اليه المال كله حتى السوط الذى كان يساق به : فقال أبو بكر خذه فهو لك .

هذا وقد فوض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه أمر قضاء اليمن ، وشرح للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يقضى اذا عرض له قضاء . فقد روى عنه نحو سبعين من أهل حمص أن رسول الله تعالى عليه وسلم حين بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع ان عرض قضاء : قال أقضى بكتاب الله . قال عليه الصلاة والسلام ، فان لم يكن : قال فبسنة رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام . فان لم يكن فى سنة رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) : قال أجتهد رأيي ، وانى لا ألو ، ف ضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) .

وان ذلك الخبر كان أصلاً للاجتهاد فى الفقه ، أخذ به من أخذوا
بالقياس وعارض فيه من عارضوا القياس ، وانهم لشزمة قليلون •

وقد اثر له رأى فى القضاء ، وهو أنه لا يرث الكافر من المسلم ، ولكن
يرث المسلم من الكافر ، وبهذا الرأى أخذ الامامية من الشيعة ، وعمل به
معاوية ، ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء لم يأخذ به •

روى الامام أحمد بسنده عن أبى الأسود الدؤلى قال « كان معاذ باليمن
فارتفعوا اليه فى يهودى مات ، وترك أخا مسلما ، فورث معاذ المسلم من
اليهودى ، وقال : « اننى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول :
« ان الاسلام يعلو ، ولا يعلى عليه » فأخذ الحكم من القياس باعتبار أن
الاسلام يعلو ، والميراث يكون ثمرة لهذا العلو ، ولأن الكفر باطل والاسلام
حق يوجب الميراث ، ولا يزول الحق لأجل الباطل •

ولكن الجمهور الأعظم قالوا غير ذلك ، وحجتهم صريح السنة قولاً
وعملاً ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم كما روى فى الصحيحين : لا يرث
الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر • وقد ثبت عملاً ، فان عقيل بن أبى طالب
هو الذى ورث دور أبى طالب ، ولم يرث منها جعفر ، ولا على ، ولا أم هانئ ،
ولا غيرهم من المسلمين عند وفاة أبى طالب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم
فى فتح مكة المكرمة : ما ترك عقيل من دار ، ولا يرث المسلم الكافر •

وخلاصة القول أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معاذاً
محارباً ، ومعلماً ، وجامعاً للصدقات والجزية وقاضياً فى الخصومات ، فكان
هادياً مهدياً •

ويقول الحافظ بن كثير فى ولايته : كان قاضياً للنبى صلى الله تعالى
عليه وسلم ، وحاكماً فى الحروب ، ومصدقاً اليه تدفع له الصدقات •

وقد ذكرنا ما قاله رسول رسول الله معاذ بن جبل فى اليمن هو وصاحبه
عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعرى) ليعرف القارىء أن رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم كان يرسل الرسل من قبله الى الجهات النائية على أنها
سرايا أحيانا ، وعلى أنهم معلمون ، وان لم تذهب عنهم صفة السرايا •

فالدعوة الاسلامية أو تبليغ الرسالة المحمدية هى الأصل ، وهى الغاية ،
فان لم تقف فى سبيلها عقبات ، اكتفى بها ، وان وقفت محاجزات الأمراء

والملوك كان الجيش المؤمن مزيلا لهذه الحاجات حتى يخلو وجه الاسلام
للدعوة المحمدية دعوة الله والحق .

ولقد كانت كل بعثة محمدية معها قوة ، لأنه يجتاز فيافي وقفار ،
والأمن غير مستتب ، وقد حدث أن جاء ناس من المشركين يخادعون النبي صلى
الله تعالى عليه وسلم ، وذكروا له أن عندهم من يريد الاسلام فأرسل لهم من
يعلمهم ، أرسل معهم قراء ، فأخذوهم ، وباعوهم للمشركين ، وآخرون قد
قتلوهم ، وقد تكرر ذلك ، فكان الحذر يوجب على النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم ألا يرسل قراء وحدهم ، بل لابد من سرية حربية معهم ، والله تعالى
فى عون عباده المخلصين .

بعث على رضى الله عنه

٦٩٣ — كانت اليمن عدة أقاليم ، فبعث عليه الصلاة والسلام عبد الله
ابن قيس (أبا موسى الأشعري) الى مخلاف ، وبعث معاذ بن جبل الى مثله ،
وكانا متجاورين ، فكان كل يذهب الى صاحبه ، ولذا أمرهما النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم بأن يتطاوعا ولا يختلفا .

وبعث على بن أبى طالب بعد خالد بن الوليد ، وهما محاربان ، ولكن
أمرهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ألا يقاتلا الا بعد الدعوة الى
الاسلام ، والامتناع عن الاجابة الى الاسلام أو الى العهد .

ولنذكر وصية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كما
رواها السرخسى فى كتابه شرح السير الكبير للامام محمد ، وهى تشبه وصية
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ التى أسلفناها .

وهذه هى الوصية : « اذا نزلت بساحتهم ، فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ،
فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوك منكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا ،
فلا تقاتلهم حتى تريهم اياه ، ثم تقول لهم : هل لكم الى أن تقولوا : لا اله
الا الله ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس
وغربت (١) .

(١) شرح السير الكبير للسرخسى الجزء الأول ص ٢٣٤ طبع جامعة
القاهرة ، ولم يطبع فيها غيره .

ولكن عليا رضي الله تعالى عنه ، لم يقاتل ، ولم يكن في حال يعرض عليهم ما أمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعرضه ، لأنه جاء الى من أرسل اليهم على من أهل اليمن قبله خالد بن الوليد ، ودعاهم الى الاسلام أو القتال فأسلموا ، ولم يقاتلوا ، وجمع منهم خالد بن الوليد فيئا وغنائم لم تخمس ، فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ليقسمها ، أو ليخمسها ، كما يفهم ذلك من الروايات المتضاربة •

قال البخارى بسنده « بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا الى خالد ليقبض الخمس » وقال أبو بريدة راوى الحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « وكنت أبغض عليا » •

وانه يبدو من السياق التاريخي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عليا لياخذ خمس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذى القربى واليتامى والمساكين •

وان ذلك لم يكن وحده هو رسالة خالد ، بل كانت رسالته مع ذلك الدعوة الى الاسلام وتعليمهم ، وأن يؤمهم فى الصلاة • قال البراد بن عازب فى رواية البيهقي : « كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوههم الى الاسلام ، فلم يجيبوه ، ثم ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث على بن أبى طالب • فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ، ثم تقدم فصلى بنا ، فصفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسلمت همدان جميعا •

فكتب على الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باسلامهم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتاب خرج ساجدا لله ، ثم رفع رأسه ، وقال السلام على همدان ، السلام على همدان •

ويظهر أن خالدا لم يعد الى المدينة المنورة • بمجرد مجيء على كرم الله وجهه ، بل مكث مدة ، ولا نريد أن نفرض أن خالدا كان فى نفسه موجدة من ارسال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، ولكن نترك الحوادث حول على تتحدث والأمور التى تدور حول على تنطق •

لم يكن على رضي الله عنه وكرم الله وجهه محبوبا فى الأوساط العربية ، وخصوصا الذين ينتمون الى اقوام كانت لهم محاربة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى بدر وأحد والخندق ، ثم حنين ، فقد كان سيف على كرم الله وجهه فى الجنة سريعا الى الرقاب ، كما كان سيف عمه حمزة فى بدر ، وقد استطاع الشرك أن يقتل أسد الله حمزة ، فبقى لعللى الاحن •

ان عليا جاء لأخذ الخمس الذى يوضع تحت يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقرايته ، ولقد أخذ على ذلك الخمس ، وكان فيه سبية جميلة ، فأخذها على ، وعاشرها بملك اليمين ، فقامت لذلك ضجة ، وأمر خالد فيما يظهر أن يبلغ ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، على أن عليا ملوم فيه ، ولنترك الكلمة لأبى بريدة . حدث الامام أحمد بسنده الى أبى بريدة « قال ابو بريدة أبغضت عليا بغضا لم أبغضه أحدا ، وأحببت رجلا (١) من قريش لم أحبه الا على بغضه عليا ، فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته ما أصحابه الا على بغضه عليا فأصبنا سبيا ، فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . ابعت الينا من بخمسه ، فبعث الينا عليا ، وفى السبى وصيفة من أفضل السبى ، فخمس وقسم ، فخرج ، ورأسه يقطر . فقلنا يا أبا الحسن ما هذا ؟ فقال ألم تردوا الى الوصيفة التى كانت فى السبى ، فانى قسمت وخمست فصارت فى الخمس ، ثم صارت فى أهل بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . فكتب الرجل الى نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت ابعتنى ، فبعثنى مصدقا فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق فأمسك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدي والكتاب . فقال : أثبغض عليا ، فقلت نعم . قال : فلا تبغضه وان كنت تحبه فازدد له حبا ، فوالذى نفس محمد بيده لنصيب آل على أفضل من وصيفة ، قال أبو بريدة ، فما كان من الناس بعد قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أحب الى من على .

ان هذا الخبر يدل على أن عليا رضى الله تعالى عليه كانت تتقصى هفواته ولكنه لم يفعل حراما ، وحسبنا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستنكر فعله ، بل أيده . ويدل الخبر أيضا على بغض الرجل الذى أشار اليه لعلى ، وأنه كان يريد أن يصوره أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى موقف الظنين .

والطريق لم يكن معبدا أمام على ، لأنه حيث كان البغض ، فانه يد عثر الطريق ، ويصعب الوصول الى الحق المبين الصريح ، ولقد كان لنا أن نعلق على عمل على كرم الله وجهه ، لولا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقره .

ومع أن الطريق لم يكن معبدا أمامه رضى الله تعالى عليه ، فانه كان شديدا فيما يعتقد أنه الحق ، لا تأخذه فيه هوادة ، بل ينفذه فى صرامة ، لارفق فيها ، أو بالأحرى لا لين فيه .

(١) سياق الكلام بما يدل على أنه خالد بن الوليد فكلمة الرجل ، تشير اليه فى كل ذكر لها .

ومن ذلك أنه كان تحت يده ابل الصدقة ، وقد روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري : « كنت فيمن خرج معه (أى على) فلما أخذ من ابل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح ابلنا ، وكنا قد رأينا في ابلنا خلا ، فأبى علينا وقال « انما لكم فيها سهم كما للمسلمين » فهو لا يريد أن يمكنهم منها قبل أن تقسم السهام ، وهو غير الوصيفة ، فانه جاء لتسلم خمس النبي صلى الله عليه وسلم وذوى قرابته ، فبالاستيلاء ، قد استولى على سهمه ، أما هم فهم يريدون الانتفاع بها من غير تقسيم .

وزهد من ذلك على كرم الله وجهه ليلقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع ، واستخلف على بعض من معه على الغنائم ، فسأله الناس ما منعه على كرم الله وجهه فى الجنة ، فسأله ما منعه على ، فأجابهم .

لما حج على مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقفل راجعا بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأى ما حدث فى غيبته فرأى أثر الركوب فى ابل للصدقة فجاء بحق أنابه وقدمه ولامه على ما فعل ، وأعاد المنع كما بدأ .

فقال أبو سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه . لئن قدمت المدينة المنورة لأذكرن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما لقيناه من الغلظة والتضييق .

بلغ ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، ففضى لعلى وأنصفه فيما فعل ، وقال لقد علمت أنه أحسن فى سبيل الله ، ومنها - أنه عندما تعجل فى الحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلف ذلك الرجل المتساهل ، وقد أعطى ما منع على ، كان قد كسا الجيش كله حللا ، كل رجل حلة ، فلما عاد على من الحج ، دنوا منه وعليهم الحلل ، فلما رأى عليهم الحلل ، قال ما هذا ؟ قالوا كسانا فلان ، فقال لمن خلفه ما دعاك الى هذا قبل أن تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفى الحق ان توقف على كان فى هذه المسألة سليما لأن هذه الحلل كانت من جزية موضوعة ، فما لأحد أن يوزعها ، قبل اعلان الرسول صلى الله عليه وسلم بها . وتلقى أمره فى توزيعها .

كانت الشكوى من على كرم الله وجهه قد شاعت فى الحجيج وكثر القول فيه ، وكل من تكلم كان مغرضا لا يروم الحق ، ولعلى الحق فى كل ما فعل ،

ولكن البغض له خصوصاً من له فى الجيوش الاسلاميه مكان من قبل ومن بعد .

ولقد قال فى ذلك الحافظ بن كثير فى تاريخه : « والمقصود أن عليا كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش بسبب منعه إياهم استعمال إبل الصدقة ، واسترجاعه منهم الحلل التى أطلقها لهم نائبه ، وعلى معذور فيما فعل ، لكن اشتهر الكلام فيه فى الحجيج ، ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من حجته وتفرغ من مناسكه ، ورجع الى المدينة المنورة فمر بغدير خم ، قام فى الناس خطيباً فبرأ ساحة على ، ورفع من قدره ، ونبه على فضله ، ليزيل ما فى نفوس كثيرين » .

وننبه هنا الى أمور ثلاثة يوجب الحق التنبيه اليها :

أولها : أن كلمة ابن كثير بالنسبة لعلى كرم الله وجهه « انه معذور » لانرى انها فى موضعها ، والأولى أن يقول انه كان فيها محقاً ، ففرق كبير بين المعذور والمحق ، فان المعذور مخطئ له عذر ، وأما المحق فانه غير مخطئ ، وما كان على فى أمر الحلل والرواحل الا محقاً منفذاً ، ولو كان فى شدة .

ثانيها : أن الكلام الذى قيل فى غدير خم انتهى بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

ثالثها : أن هذا كله من بغض على كبغض أبى بريدة الذى ذكرناه وبغض الرجل الذى كان يحبه أبو بريدة ، لأنه يبغض علياً ، وأن ذلك الرجل الذى أشار اليه أبو بريدة ، وقد نالته موجدة من ارسال على كما أشرنا ، وقد عاد قبل عودة على كرم الله وجهه ، فعمل على اشاعة القيل والقال على امام الهدى ، ولقد كانت عبارة النبى صلى الله عليه وسلم تومىء الى أن الذين اشاعوا ذلك معادون لعلى ، مبغضون له بغض أبى بريدة أولاً ، ولكن الله تعالى هداه بهداية النبى صلى الله عليه وسلم .

وعلى رضى الله تعالى عليه جدير بأن ينفس الناس عليه فضله ، فقد مكث الرجل ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا ، وبمجرد لقاء على رضى الله عنه ، قد استجابوا لداعى الحق ، وعلى فوق ذلك العالم الجليل ، والشجاع المحارب ، وبطل بدر وأحد ، وهو الذى حمل اللواء ، وعلا ، ورأى المشركون أنه لا سنبل لأن يبقوا أمامه فعادوا كأنهم المهزومون ، وهم الذين أصابوا جراحات فى المسلمين .

لقد كان على فريسة المبغضين فى موطنين :

أحدهما : فى جماعة على ، وقد برأه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،
ورد كيد الكائدين وأطفاً نيران الغضب عند من ظهر غضبه •

الموطن الثانى : فى خلافته ، وخروج البغاة عليه ، وتحرك الضغائن ،
وفى هذه المرة لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حيا ، فلم يقف بغدير خم
يقول : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » •

تولية على قضاء اليمين :

٦٩٤ — كان القضاء فى العادات العربية يتولاه أسن الرجال ،
وأكثرهم تجارب ، ومعرفة لعادات القبائل ، فكان يقضى مثل أكتم بن صيفى
الذى عاش حتى بلغ نحو التسعين من عمره ، لأن القضاء يحتاج الى فضل
تجربة ، وفضل تأثير ، لتنفيذ الأحكام نفسيا ، ويذعن المتخاصمون لها قلبيا
ويكون له من الجلال فى وسط قومه ما يجعل قوله فصلا ، يؤمنون بالعدل
فيه •

ولذلك لما عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى على أن يقضى فى
اليمن فى غير الحيز الذى كان فيه معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعرى ، اذ كان
اختصاصه بعم اليمن كله ، لما عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الى
على استصغر سنه وعرض على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه حدث السن ،
اذا لم يكن الا فى حدود الثانية أو الثالثة والثلاثين •

روى ابن ماجه ، والامام أحمد عن على كرم الله وجهه ، قال : بعثنى
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثنى الى
قوم أسن منى ، وأنا حدث لا أبصر القضاء ، فوضع يده على صدرى ، وقال :
اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، يا على اذا جاءك الخصمان ، فلا تقض بينهما ،
حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول ، فانك اذا فعلت ذلك تبين لك الحق ،
فما اختلف على على قضاء بعد •

وان هذه الدعوة النبوية قد صدقت فى على كرم الله وجهه ، فقد ثبت الله
تعالى لسانه ، حتى كان أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم ، وأثبت الناس قولا بعده عليه الصلاة والسلام وكان مهديا ، فما لان
فى حق ، ولا مالا مبطلا ، وهده فى القضاء • حتى روى أن النبى صلى
الله تعالى عليه وسلم قال : « أقضاكم على » وكان عمر كما ذكرنا يسأله

إذا أعضل عليه القضاء فى مسألة من مسائله ، فيقول : مسألة ، ولا أبا حسن لها .

وقد رويت عنه روايات فى قضائه دالة على نفاذ بصيرته ، وانفتاح عقله الذى هو قبسة من الهدى المهدى ، اذ رضع لبان هذه الهداية صغيرا ، وتربى عليها ، ونزح بدلو المعرفة من أعظم ينبوع لها :

وقد ذكرت له مسائل فى القضاء هداه الله تعالى اليها ، فقد كان يحاول الوصول الى الحقيقة . خصوصا فى الأنساب ، فلا يترك ولدا من حلال من غير أب .

تنازع اثنان فى نسب ولد ، ولم يكن لأى واحد منهما دليل ، وكان المنتظر أن يتهاترا الادعاءان ، ولا يكون للولد نسب ، فلما لم يجد سبيلا أقرع بينهما ، وحكم بالنسب لمن تحكم له القرعة ، وعليه أن يدفع الدية للآخر ، وبهذا أنصف الرجلين ولم يهدر نسب الولد ، وبهذا أخبر الامام أحمد عن على ، وقد أفرد عن غيره بهذا الرأى ، وروى عن على كرم الله وجهه قضاء فى مسألة معقدة ، وانتهى فيها الى حكم ، لا يزال موضع أعجاب رجال القضاء الى اليوم .

روى الامام أحمد أن قوما كان يغير عليهم أسد ، فبنوا له زبية (مكانا يتردى فيه) فتدافع الناس فسقط رجل ، فتعلق به آخر ، ثم تعلق بالآخر ثالث ، وتعلق بالثالث رابع ، وقد جرحهم جميعا الأسد وماتوا . فجاء أولياء المقتولين ، وهموا بأن يقتلوا . فقال لهم امام الهدى بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أتريدون أن تتقاتلوا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حى ، انى أقضى بينكم قضاء ان رضيتم به ، فهو القضاء ، والا أحجز بعضكم عن بعض ، حتى تأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليكون هو الذى يقضى بينكم ، فمن عدا بعد هذا فلا حق له .

كان قضاء على فى القضية ، يسير على مبدئين : أحدهما أنه لا يطل دم فى الاسلام ، وذلك مبدأ مقرر روى بعبارته عن على كرم الله وجهه فى الجنة .

الثانى - أن العجماء جبار ، أى ما تجنى الدواب ، لا غرامة فيها الا أن يكون صاحبها المتسبب ، فيغرم هو الدية كلها أو بعضها .

ونجد أن الأول تسبب فى هلاك الثلاثة بعده ، وقد تمكن السبع من الجميع يترديه أولا ، ثم تعلقه بالثانى والثالث والثالث بالرابع .

وكانت الدية واجبة كاملة لهم جميعا بناء على القاعدة الأولى ، ولكن يستنزل من دية كل واحد دية من تسبب فى قتله ، وقد تسبب فى قتل ثلاثة ، فيأخذ ربعا ، باسقاط ثلاثة أرباع لمن تسبب فى قتلهم ، فهو السبب فى قتل ثلاثة .

والثانى تسبب فى قتل اثنين ، فينقص من ديته الثلثان ، فيكون له الثلث ، والثالث ، تسبب فى قتل الرابع ، فيخصم من ديته النصف ، والرابع ، وهو الذى سقط أخيرا لم يتسبب فى قتل أحد ، فلا يخصم من ديته شيء قط ، وبذلك يكون المطلوب ديتان وسدس دية ، هذا معنى قول على فى قضائه ، فقد قال : « اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ، ربع الدية ، وثلاث الدية ، ونصف الدية ، والدية كاملة » .

فللول الرابع ، لأنه هلك ، والثانى ثلث الدية والثالث نصف الدية ، والرابع الدية ، هذا قضاء على ، وقد طلبت هذه الديات ممن حفروا البئر ، لأنهم المتسببون ابتداء ، والتسبب الآخر نسبى ، فى دائرة التسبب الأصلى .

ولا نعلم فى هذه القضية المعقودة المتشابكة التى ترابطت فيها الأسباب ، وتشابكت أعدل من هذا . وإذا كان ثمة بعض الانفكاك فى المقدمات ، أو بتوهم ذلك ، فإن قضاء على فى هذا هو أحكم القضاء .

ولكن أولياء المقتولين ، لم يرتضوا ذلك ، وكان كل ولى يريد دية كاملة لمقتوله .

وذهبوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى حجة الوداع ، وهو عند مقام ابراهيم ، فقصوا عليه القصة ، فقال أنا أحكم بينكم ، فقال رجل من القوم . يا رسول الله ، ان عليا قضى علينا ، وقصوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قضاء على ، فأجازه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبعد فهذا على كرم الله وجهه فى اليمن ، كان الداعية المستجاب فى دعوته للإسلام ، فأمنوا لفرط تقواه ، وأشراق نور الايمان فى قلبه ، فما خرج من القلب يصل الى القلوب ، وإخلاص الداعى هو الجاذبية التى تحوط المدعو .

فتهدية الى الايمان ان لم تعتكر القلوب . وتفسد الضمائر ، وهذا على الحاكم الحازم ، لم تأخذه فى الحق هوادة ، وليس للباطل عنده ارادة ، وان شكا الناس منه غلظة فلسفاد قلوب تستغلط الحق ، وتستطيب الباطل ، وقد أنصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم — ونعم المنصف العادل .

وهذا على فى قضائه العدل الحكيم ، والله ولى المؤمنين .

بعث الصديق ليكون أمير الحج

٦٩٥ — فى زحمة الوفود لم نسر فى مسار التاريخ ، فلم نذكر الوقائع فى مواقيتها ، ميقاتا بعد ميقات لأن الوفود لم يكن ميقات كل واحد منها محدودا بحد لا يقبل الاختلاط بغيره ، ولذا ذكرناها فى مواقيتها على وجه التقريب ، لا على وجه التعيين ، ومهما يكن فان غالبها ذكر فى ميقاته وفى مناسباته ، ولكن الأمر الذى لم نذكره فى ميقاته ، بل ذكر ما بعده — قبله ، هو حجة أبى بكر التى تولى فيها امرة الحج ، وهذه أول حجة كانت بامرة من النبى صلى الله عليه وسلم ، أى كانت فى ظل الاسلام ، بعد أن هدمت الأوثان من فوق الكعبة الشريفة ، ومن حولها ، بل من حول أم القرى كلها .

كان حج أبى بكر عقب غزوة تبوك التى كانت آخر غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن بعدها ، أخذ يستقبل الوفود ، ويرسل الدعاة الى الاسلام ، ويقف فى أثارهم فى دعواتهم ، ومقدار الاستجابة لهم ، فانتهى بهذه الغزوة ، عهد تأمين الدعوة فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وتفرغ عليه الصلاة والسلام للدعوة ذاتها ، وقد زالت كل المحاجزات المانعة ، واستمر دخول الناس فى دين الله تعالى أفواجا ، وقد ابتدأ ذلك من بعد صلح الحديبية كما أشرنا الى ذلك فى موضعه من القول .

وعلى ذلك فالدعوة كان لها ثلاثة أدوار : الدور الأول دور وضع الأسس وتكون جماعة قوية فى إيمانها ، وإن كان فيها ضعف فى السلطان ، وقلة فى العدد ، وأولئك هم الحواريون لحمد عليه الصلاة والسلام ، كالحواريين لعيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

والدور الثانى دور الدعوة ، وتذليل العقبات ، وإزالة الحجزات ، فالدعوة لم تكن السبيل أمامها معبدة ، بل كان لابد من عمل لتعبيدها بإزالة كل العقبات التى تقف فى طريقها .

الدور الثالث كان بعد أن زالت العقبات فى الجزيرة العربية وصار الدين لله تعالى ، وقد كانت حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته من المهاجرين والأنصار الذين حضروا بيعة الرضوان خالصة للدعوة ، وتبيين الحقائق الاسلامية ، وبذلك كان كل من يبعثهم من أهل بيعة الرضوان ، وإن بعث من غيرهم أرفه بواحد من الحواريين الأولين أو أهل بيعة الرضوان ،

كما فعل مع خالد وعلى رضى الله عنهما بالنسبة لليمن ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

اتجه عليه الصلاة والسلام فى الدور الثالث الى تطهير مكة المكرمة من أن يدخل فيها رجس الجاهلية من عبدة الأوثان ولقد جرى حج السنة الثامنة على ما كان يجرى عليه من قبل فلم يصد عنها مشرك ، فلما آلت امرة الحج الى الاسلام ، منع الله المشركين من أن يدخلوا المسجد الحرام فى السنة التاسعة ، ونزل قوله تعالى فى سورة براءة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، إن شاء ، إن الله عليم حكيم » .

يقول ابن اسحاق انه بعد تبوك التى انتهت فى رمضان قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية رمضان وشوالا ، وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع ، ليقم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، لم يصدوا بعد عن البيت ، ومنهم من له عهد مؤقت الى أمد .

كان هناك اذن عهدان : عهد جاهلى ، وهو عام ، فيه اذن بالآ يصدوا عن البيت ، قد كان هذا على العادة الجارية ، وقد توثق بعد الحديبية ، وعهد خاص قد عقده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا يبقى الى أمله .

وان العهد الذى جرى على مجرى العادة الجاهلية ، قد انتهى بأن صار للاسلام الكلمة العليا ، وصار التوحيد هو الحاكم ، وجاءت ملة ابراهيم الصحيحة فى الاسلام بعد أن انحرف الغرب ، وعبدوا الأوثان فلم يكن منع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القرآن الكريم ، نقضا للعهد ، ولكنه تصحيح للوضع .

أما عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو قائم على أسسه حتى ينتهى أمره .

وان أبا بكر ما ان فصل بركبه ، حتى لحق به على بن أبى طالب يحمل سورة براءة ، وكانت قد نزلت بأنه لا عهد للمشركين عبدة الأوثان فى أن يحجوا البيت الحرام بعد عامهم هذا .

قال ابن اسحاق : لما نزلت سورة براءة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد بعث أبا بكر ليقم للناس الحج ، قيل له يا رسول الله :

لو بعثت بها الى أبى بكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى » ، ثم دعا على بن أبى طالب ، فقال له اخرج بهذه آيات من صدر براءة ، وأذن فى الناس بالحج يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، فخرج على بن أبى طالب على ناقه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ! فقال على : بل مأمور ثم مضى ، فأقام أبو بكر للناس الحج اذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأجل أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم الى ماأنهم ، وبلاهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، الا عهد كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو الى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان •

وروى الامام أحمد أن على بن أبى طالب قال : « بعثت يوم بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبى بكر فى الحجة بأربعة : لا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا •

وهذا الكلام يستفاد منه ابطال العادات الجاهلية فى الحج كطواف غير قريش عرايا ، وقريش تمتاز بأن يطوف حجاجها لابسين •

ولقد قسم الحافظ ابن كثير الحجاج من المشركين الى قسمين من لهم عهد ، فانه يلتزم بعده الى نهاية مدته ، ومن ليس له عهد يؤجل الى أربعة أشهر •

وهذا التأجيل ، والغاء العهد ثبت بقوله تعالى فى أول سورة براءة :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتكم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب اليم ، الا الذين عاهدتكم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين ، فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

وجدتموهم وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ،
واقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » *

وان هذا النص الكريم فيه الوفاء بالعهد للذين أوفوا بعهودهم ، وأن
من يكونون غير معاهدين ينتظرون أربعة أشهر ، حتى يصلوا الى مأمهم في
بلادهم *

وليس معنى الوفاء لذوى العهد الذين عاهدوا النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم أن يمكنوا من دخول البيت الحرام الا وهم باقون على شركهم ،
فان الآية الكريمة صريحة فى المنع ، ان قد تلونا قوله تعالى : « يا أيها الذين
آمنوا انما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » *

وان التأجيل أربعة أشهر ، انما هو خاص بقتالهم وقتلهم ، فأعطوا مهلة
أربعة أشهر ليصلوا الى مأمهم ولا يؤخذوا على غرة ، وقد جاءوا حاجين
طائفين فى زعمهم *

٦٩٦ — ونقف هنا وقفة قصيرة فى اختصاص أبى بكر وعلى فى هذه
الحجة المباركة *

لقد اختص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبى بكر بأن تكون له امرة
الحج ، ولما لاقاه على قال أبو بكر أمير أم مأمور ، فقال له بل مأمور ، هذا
ما اختص به أبى بكر ، وان ذلك بلا ريب تشريف لأبى بكر ، واكبار لامرة الحج
فى ذاتها ، واختص عليا بأن يكون المبلغ لنزول سورة براءة ، وفى أكثر
الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى اختصاص على بتبليغ نزول
سورة براءة « لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى » ان ذلك بلا ريب اختصاص
فيه تكريم ، وثقة كاملة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم *

وقد أخذ الشيعة الامامية وغيرهم ممن يجعلون عليا أولى بالخلافة من
الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، قد أخذوا من هذا أن عليا
أفضل أو أولى بالخلافة عنه عليه الصلاة والسلام منهما ، لأن الخلافة خلافة
عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يقوم بما كان يقوم به الرسول صلى
الله تعالى عليه وسلم فى أمر أمته ، ورياستها ، والقيام بحق التبليغ ، الذى
هو أخص أوصاف الامامة الكبرى ، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام :
« لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى » فكون الخلافة لعلى كرم الله وجهه فى
الجنة ، لأن الخلافة أداء لبعض أحكام النبوة ، أو لكلها ، وان كان لا نبى بعد
النبى صلى الله تعالى عليه وسلم *

استدلوا بهذا ، ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما تركه في المدينة النورة ليقوم على أهله : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدي » .

فأخذوا من هذا الحديث أن لعلى عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منزلة فوق منزلة غيره من الصحابة الأكرمين فإذا كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وعمر الفاروق لهما فضل الصداقة ، فعلى بالنص له فضل الأخوة ، والمشاركة بيد أنه ليس بنبي ، ولا يوحى إليه ، وإن هذا يجعل عليا في مكانة أعلى منهما ، ويتوا على ذلك أنه وصيه ، كما بنى الزيدية على هذا أنه أفضل من أبي بكر وعمر ، وإن لم يكن وصيا .

واستدلوا ثالثا - بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غدير خم عند رجعته من حجة الوداع ، من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وإن هذا يدل على أن الولاء لعلى ولأهله للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعاداته معاداة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة غيره ، وهو بذلك أولى بالخلافة من غيره ، وهو أفضل من الشيخين وغيرهما .

ذلك ما قالوه ، وما اتفقوا عليه ، فقد اتفق الشيعة جميعا على فضل على رضى الله عنه ، وأنه مقدم على أبي بكر وعمر . وإن اختلفوا في ذلك كثيرا .

ونحن نقرر أن ما ساقوه يدل بلا ريب على فضل على أولا ، وعلى محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثانيا ، وعلى أنه عليه الصلاة والسلام كان يعهد إليه بأشد المهام وثيقة بالدين ثالثا .

ولكنه لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين رضى الله تعالى عنهما ، لأنه إذا كان قد آتاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تبليغ سورة براءة ، فقد ولي أبا بكر رضى الله عنه ما هو أقدس بالامرة والخلافة ، وهو إقامة المصح ، كما اختاره لإقامة الصلاة ، وهى الإمامة الصغرى ، وقد يكون ذلك إيذانا له بالإمامة الكبرى كما جرى على السنة بعض الصحابة ، واختاره لأمر ديننا ، أفلا نختاره لأمر دنيانا ، وعلى ذلك لا نجد في هذا أن يكون على أولى بغيره من الخلافة .

وأما الدليل الثانى ، وهو أنه قال له في معرض توضيح السبب في تركه وعدم الذهاب معه في غزوة تبوك فهو بيان محبته له ولصحبته ، ردا على الإشاعة الكاذبة التى أشاعها المنافقون والمرجفون ، وهو أنه تركه استثقالا

لصحبته ، فكان لابد أن يظهر محبته ومنزلته عنده ، وهى أخوته له ، كما أن هارون أخو موسى ، ولذلك ازدياد فى القول بما يؤكد هذا المعنى ، ان قال عليه الصلاة والسلام : غير أنه لا نبوة بعدى ، وان عليا كان أخا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المؤاخاة التى عقدها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد بينا ذلك ، وذكرنا صحة الخبر ، وردنا على ابن القيم فى موضعه •

وكونه أخاه ، وأبو بكر صديقه أبلغ ما تكون الصداقة ، فلا دليل فى هذا أيضا على أنه أحق بالخلافة ، وفوق ذلك ان الخلافة تحتاج الى الشورى ان يقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » •

فاذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذكر أخوة على ، وصداقة أبى بكر ، وتقديره لعمر ، فليس فى ذلك الزام ، ما دام أساس الأمر شورى المسلمين •

وأما الدليل الثالث ، وهو حديث غدير خم الذى يقول : من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فقد بينا المناسبة التى قيل فيها هذا الحديث ، وهو رد الاشاعة الكاذبة ، ورد المنافقين أو من عندهم شبهة النفاق ، وبيان أنه لا يصح لمؤمن أن يبغض عليا ، لأنه اذا كان قد قتل كثيرا فهو فى سبيل الله ، وبأمر من الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمن يبغضه لذلك ، انما يريد أن يحط من قدر الجهاد والمجاهدين ، واذا كانت النفس لا تحب من يكون سببا فى ازهاق نفس حبيب ، فالإيمان يوجب ألا يظهر ذلك فى قول أو عمل ، وفوق ذلك فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافقه فى أحكامه التى حكم بها •

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولى كل مؤمن صادق الايمان ، كما قال تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فكل مؤمن ولى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويصح أن يقال ذلك عن المؤمنين جميعا بأنهم اولياء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ومهما تكن قوة هذه الاستدلالات ، فانه من المؤكد ، أنها تدل على فضل محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه ، وأنه يجب على كل مؤمن يحب الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحبه ، لأنهما يحبانها كما جاء فى غزوة خيبر ، ولقد ذكرت ذلك عائشة رضى الله تعالى عنها ، فانه عندما بلغها مقتله ، وقفت على قبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : جئت أنعى حبيبك المرتضى ، وصفيك المجتبى ، وأحب أصحابك إليك ، جئت أنعى إليك على بن أبى طالب •

فعلى كرم الله وجهه هو الحبيب ابن الحبيب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا كاف لرفع منزلته ، ومحبته ولعن كل من ينال منه ، أو يلغنه •

تنبيهان لا بد منهما :

٦٩٧ — التنبيه الأول : نقف هنا وقفة قصيرة ننبه فيها الى امر جدير بالتنبيه ، وهو اننا نقلنا عن الحافظ ابن كثير وغيره من رواة السيرة أن الذين ليس لهم عهد مقيد محدود يؤجلون أربعة أشهر حتى يبلغوا مأمنهم ، وانه بتتبعنا وتبصرنا للآيات الكريمة وجدنا أن هذه الأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم ، لأنه ذكر بعد ذلك في الآيات الكريمة ما يدل عليها ، فقد قال سبحانه بعد ذلك : « فإذا انسلك الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » وأن ذلك يبين أن الأشهر التي ذكرت في قوله تعالى : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » ذكرت غير معرفة ، ثم عرفت بعد ذلك بذكر أربعة الأشهر معرفة ، ومن المقررات النحوية أنه اذا أعيدت النكرة معرفة كان ذلك تعريفا لها •

• وانا نرجح ذلك ، والله أعلم بمراده •

التنبيه الثاني : أنه قرر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يريد الحج عقب غزوة تبوك ، ولكنه كره أن يحج مع المشركين ، إذ كان منهم من يحج عريانا وقد زادوا أمورا جاهلية على سنة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الحج ، ولقد جاء ذلك في تاريخ الحافظ بن كثير ، فقد قال عن مجاهد براءة من الله ورسوله الى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، ففعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحج ، ثم قال : انما يحضر المشركون ، فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما ، فطافا بالناس ٠٠٠ فأذنوا أصحاب العهد أن يؤمنوا أربعة أشهر متتاليات ، ، وان هذا يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان على نية أن يحضر الحج ، ولكن عوقه عن ذلك أنه قدر أن سيحضر الحج المشركون ، ويطوفون على جاهليتهم عراة ، ويظهر انحرافهم عن سنة إبراهيم في الحج ، فامتنع عن الحضور ، حتى لا يكون حضوره عليه الصلاة والسلام فيه نوع اقرار لعملهم ، ولم يمنعه من الحج ، لأنه لم يعلمهم من قبل بأنه لا يجوز لهم أن يقربوا المسجد الحرام ، والحكمة الاسلامية في الأحكام ألا تنفذ الأحكام المانعة الا بعد العلم بها •

سورة براءة

٦٩٨ — ان المتفق عليه أن أبا بكر رضى الله عنه ، ذهب بالناس يحج بهم ، وأن عليا رضى الله تعالى عنه ، ذهب حامل براءة يتلوها عليهم .

ويروى أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم عندما حملها عليا رضى الله تعالى عنه قال غلى : يا نبی الله تعالى : انى لست باللسن ولا بالخطيب ، فقال عليه الصلاة والسلام لابد لى أن اذهب بها أنا ، أو تذهب بها أنت ، قال على ان كان لابد فسأذهب بها أنا ، وقال له النبی صلى الله تعالى عليه وسلم : « انطلق فان الله تعالى يثبت لسانك ، ويهدى قلبك ، ثم وضع يده على فيه . فهذه دعوة أولى من النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يثبت لسانه ويهدى قلبه . والثانية كانت بعد ذلك عندما بعثه الى اليمن داعيا وقاضيا .

وبهذه الدعوة الطيبة الظاهرة المستجابة كان على كرم الله وجهه أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

حمل على كرم الله وجهه فى الجنة سورة براءة ، أهو حملها كلها ، وهى من طوال السور أم حمل الجزء الأول منها الخاص بعهود المشركين ، ودخولهم البيت الحرام .

نقول فى الجواب عن ذلك ان عبارة ابن كثير فى رواياته تفيد أن الذى حملها على هو أول السورة الخاص بالمشركين ، ودخولهم البيت ، وعهودهم ، فقد جاء فيه عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع ، وبعث على ابن أبى طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر .

وان هذه الرواية تدل على أنها لم تكن قد نزلت كلها ، أو حملت كلها ، بل حمل منها ثلاثون آية تنتهى بقوله تعالى عن أهل الكتاب : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم » ، أو أربعون آية تنتهى بقوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

هذا ما رواه ابن كثير ، أما ما ذكره ابن اسحاق فان ظاهره أن السورة كلها نزلت عقب تبوك وحملها على بن أبى طالب ليتلوها على الناس ، ويبين ما يتعلق بالحج .

ويقول في ذلك ابن اسحاق : نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم ألا يصد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكان ذلك عهدا على ما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهدود بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قبائل العرب خصائص الى آجال مسماة فنزلت فيه ، وفيمن تخلف من المنافقين عنه في غزوة تبوك ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون ، وظاهر هذا الكلام أن سورة براءة كلها نزلت عقب غزوة تبوك ، وان نصوصها السامية كلها تؤكد هذا المعنى وتوضحه ، فهي كما رأينا عند الدعوة اليها تتبين فيها حال الناس مؤمنهم ومنافقهم في هذه الغزوة عندما حال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها ، وحال المخلفين ، وأعداء المستضعفين ، وما ينبغي أن يكون بالنسبة للجهاد .

واننا اذا تركنا ظواهر هذه الرواية فاننا نقول : انها نزلت كلها عقب غزوة تبوك ، ولكن لم يحمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، الا ببعض من أولها — الذي فيه منع المشركين من البيت الحرام ، وصددهم عنه ، لأنه لا يعمر مساجد الله الا من آمن بالله واليوم الآخر ، وذلك ما صرح به ابن اسحاق امام السيرة ، فقد قال رضى الله عنه ، ولأن ذلك كان يشتمل على ما كلف عليا أن يبلغه ، وهي الأمور التي ذكرناها آنفا .

وعبارات ابن اسحاق بعد تعميمه الأول تفيد تخصيصا بأول سورة براءة .

فقد قال : « دعا عليه الصلاة والسلام على بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه ، فقال له اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الكعبة المشرفة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته .

وهذا النص يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمله صدر سورة براءة ، ولم يحمله السورة كلها .

ما اشتملت عليه سورة براءة :

٦٩٩ — وان الروايات كلها ، قد نزلت بعد غزوة تبوك ، ولذا تعد من أواخر السور نزولا ، وظاهر الروايات أنها نزلت دفعة واحدة ، وان ما

اشتملت عليه يدل على انها نزلت بعد غزوة تبوك ، ففيها اخبار المتخلفين
والمعتذرين ، ومن ليس عليه حرج ، وانها اذا كانت قد ابتدأت بذكر عهود
المشركين ، وتحريم دخوله على غير الذين يؤمنون بالله وأنه واحد أحد ،
لا شريك له •

قد توسطتها اخبار المخنذين والمنافقين ، وما يجب أن يكون عليه
المجاهدون ، والدعوة الى استمرار الجهاد فانه ماض الى يوم القيامة ، وتركه
ذل ، أو يؤدي اليه •

لقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر منع المشركين من البيت الحرام ،
ووجوب قتالهم ، ونبذ عهودهم اليهم ، وأن العهد واجب الوفاء بشروط ثلاثة
الا ينقص المعاهد من التزاماته ، والا يظاهر على المؤمنين ، والا يكون مخالفا
للقواعد المقررة في القرآن الكريم •

وجاءت بعد ذلك ببيان جهاد المشركين في الأرض العربية ، بشرط الا
ينتهكوا حرمة من الحرمات ، كحرمة الشهر الحرام ، وأن الدماء يحميها العهد
اذا استقام المعاهد ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ويحميها الأمان
والجوار : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم
أبلغه مأمنه » •

وقد بين سبحانه وتعالى ضلال الشرك ، وأنه لا يصح لهم أن يشفعوا
لأنفسهم بأنهم تولوا عمارة البيت وتولوا سدنته وسقايته ، فان الايمان بالله
تعالى هو الأول ، ولا يمكن أن يكون هذا كذلك وأن لهم فضلا في العمارة ان
أمنوا بالله واليوم الآخر ، « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » •

واذا كانت عمارة المسجد لا تعادل الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن
عمارة المساجد لا ثواب لها مع الكفر فانه لا يمكن أن يكون للمشركين مآثر في
أى عمارة ، لأن ما يفعله المشرك من خير هباء لا اثر له ، اذ يكون كمثل وابل
من المطر أصاب أرض قوم ، فنزل على أحجار لا تنبت ، ولم ينزل على ما ينبت •

ولذلك كان الواجب جهاد المشركين ، ولأنهم لا يؤمنون بشيء لا عهد له
ولانمة ، وليس لمؤمن أن يرقب فيهم الا ولانمة ، « لا ترقبوا فيهم الا ولا نمة » •

ولا طريق الا الجهاد ، وان الجهاد يوجب أن يكون كله لله تعالى لا يؤثر
عليه أحد من مال أو زوج أو ولد ، أو راحة ، فاذا كان الجهاد قوة بشرية
ونفسية ، أو تقديم النفس والمال ، فهو مجرد روحى ، وخصوصى لله تعالى ،

وصدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذ يقول : « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتى فى الجهاد » ، ولذلك أمر الله تعالى عند البدء فى الكلام فى الجهاد بعد أن بين أن المشركين يصدون عن سبيل الله ويعادون المؤمنين ، وينتهزون فرصة لينقضوا ، قال تعالت كلماته •

« قل ان كان أبائكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » •

ونذكرهم سبحانه وتعالى بأن الكثرة ، وقوة العدة لا تغنى عن الاتجاه الى الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا ، ثم ذكرهم بموقعة حنين ، اذ لم تغن شيئا ، اذ لم يكن الاتجاه الى الله من الجيش كله كاملا ، وان كان كاملا كل الكمال فى بعضه كأولئك الذين ناداهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد اشتدت الشديدة ، وكثر الفرار ، وقل الاقدام ، حتى كان المجاهدون الأبدال الذين بدلوا بالهزيمة نصرا ، وبالفرار اقداما •

وكان الجهاد فى هذا الموضع تكميما للكلام فى البيت ، وبيان أنه لا يحميه الا الجهاد فهو الذى يمنع دخول المشركين ، ولذلك ختم آيات البيت الحرام بقوله تعالت كلماته : « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ، ان الله عليم حكيم » •

• ٧ — وقد بين الله سبحانه وتعالى معاملة أهل الكتاب من الكفار ، بأنه لا يجوز لأهل الايمان السكوت عن دعوتهم ، وان كانوا فى الجزيرة العربية أهون على أهل الايمان من المشركين الذين اذ كانوا أقل خطرا وعددا ، وان كان اليهود شرا فى أنفسهم •

ولقد أمر سبحانه وتعالى فى سورة التوبة أن يقاتلوهم ، فقال الله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يصرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » •

وبين سبحانه فى السورة حالهم من اتخاذهم المسيح الها ، واتخاذ اليهود عزيرا الها ، وانهم بذلك يضاهئون قول المشركين فى اتخاذهم الأوثان ، فان الشرك كما يكون بعبادة الأوثان يكون بعبادة الأشخاص •

ونذكر سبحانه وتعالى العماد الذي قام عليه انحراف الذين قالوا انا نصارى عن الوجدانية ، وهو أن قام الأبحار والرهبان بين المسيحيين ، وبين ادراك الحقائق المسيحية ، فقد اتخذ الأبحار والرهبان أربابا ثم ذكر ما كان عليه الأبحار والرهبان ، فقال الله تعالى : « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الأبحار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » *

وان الله تعالى اذ بين وجوب الجهاد لكل من يعتدى على الحق ويعاند أهله ، وينابزهم على سواء ، بين سبحانه أن الأشهر الحرم القتال فيها حرام فذكر السنة فى التقويم المتصل بالقمر والشمس والأشهر الحرم منها • فقال تعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيه انفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين » *

غزوة تبوك فى سورة براءة :

٧٠١ — قلنا ان سورة براءة من آخر السور نزولا ، ويبدو من سياقها كما قلنا أنها نزلت دفعة واحدة ، لمناسبة ما كان من العهود فيها ابتداء وما كان من عمل المنافقين ، ومناسبة تطهير البيت من رجس الجاهلية ومنع المشركين من دخوله ، ولكن الشطر الأكبر منها كان يتعلق بغزوة تبوك التى كانت آخر غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد امتازت هذه الغزوة أنها كانت بعد أن اوشك الاسلام أن يعم البلاد العربية أو عمها ، وأنها كانت وقد خفض العرب الذين كانوا يتأخمون الفرس والرومان من نفوذهم ، ورضوا بالاسلام ديننا ، وخلصوا بذلك من ريق الفرس والرومان واعتزوا بعزة الاسلام •

وامتازت أيضا هذه الغزوة بأن ظهر التخاذل في أولها ، حتى كان التثاقل ، وبث الظنون في المسلمين من المنافقين ، وضعاف الايمان ، ثم فيها بيان حال الذين ينتحلون الأعذار ولا عذر لهم ، وحال الذين يستأذنون في التخلف ، فيؤذن لهم أو لا يؤذن ، وفيها عمل التحذيل في جبريش الحق من أين تجيء ، وإلى أين تتجه •

وإذا كانت غزوة تبوك آخر الغزوات المحمدية ففيها العبر التي توجب على كل جيش أن يتعرفها ، ويأخذ بعظاتها ، حتى يكون الجيش الاسلامي قويا ، قد تجنب أسباب الخور وأسباب التردد والهزيمة ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبضه الله تعالى بعد سنة من وقوع هذه الغزوة التي لم يكن فيها حرب ، ولكن كان فيها عظات تعرف كيف تتقى أسباب الهزيمة والتخاذل ، والآفات التي تعترى الجيوش من أهلي التردد والنفاق ، وما يحدثه من تخاذل •

وقد كانت سورة براءة وعاء هذه التجارب النبوية في تلك الغزوة التي لم تشتمل على قتال ، ولكن كشفت فيها النفوس كشفا ، وابتلى فيها المؤمنون بالنفاق ، والتثاقل ودعاة الخذلان ، وكيف عالج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الأحوال بهداية ربه •

وإذا كان الجهاد ماضيا الى يوم القيامة ، فقد كانت سورة براءة تصورا للآفات التي تعترى الجيوش في تكوينها ، وفي سيرها ، وفي الاتجاه الى غايتها من غير التواء •

ولقد بينت نفوس المترددين ، وعدم ايمانهم بالحق الذي يؤيدونه ، وفيها بيان للمجاهدين المعتز بهم وأول الآفات عدم العزيمة الموجهة المدافعة ، والتثاقل عندما يحق الجهاد ، وقد قال تعالى في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل ، الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ولا تضره شيئا والله على كل شيء قدير ، الا تنصروه فقد نصره الله ان أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ان يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ، انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ، نلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » •

وتستمر الآيات الكريمة السامية في بث الهمم ودفع العزائم ، لأن تكوين

الجيش يكون بايجاد دفعة قوية عازمة ، والاستعداد لتحمل المكاره والوثوق بتأييد الله تعالى ان خلصت النيات ، واستحصدت العزائم •

ولقد بين سبحانه وتعالى بالاشارة السبب فى تثاقل حركتهم وهو توقع المشقة ، وان توقع المشقة يجب أن يكون فى تقدير المجاهد ، وعزمه الحديد •

وبين سبحانه وتعالى أن الخور يعترى النفوس ويخلق المعاذير للاستئذان فى التخلف ، ولا يستأذنك مؤمن « إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارثاث قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » •

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المنافقين والمترددون يثيرون روح الضعف والهزيمة « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنه وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » •

وقد كشف الله نفوس أولئك المخذلين من أهل التردد وضعاف المؤمنين ، وبين ما تنطوى عليه نفوس المنافقين من أنهم يتمنون الهزيمة للمؤمنين • « ان تصيبك حسنة تسؤهم وان تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرا من قبل ويتولوا وهم فرحون ، قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » •

وقد كان منهم من يؤثر أن ينفق فى الجيش فرارا من أن يكون فى ضمن المجاهدين ، فبين الله تعالى أنه لن تقبل نفقاتهم ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون •

لن المنافقين فى الصدقات وغيرها :

٧٠٢ — النفاق هو داء الجماعات فى السلم وفى الحرب ، وفى الحرب يخذلون ، ويبثون روح التردد ، والتشكيك فى الدعوة ، والدعوة الى الاثره ، والجهاد ايثار ، والى الحرص ، والجهاد فداء ، والى متع الدنيا ، والجهاد رهبانية ايجابية ، يدفع الى الحياة العاملة المكافحة •

اما فى السلم ، فانهم يشككون فى تصرفات الأبرار المخلصين ، ليوهموا الناس ، أن كل الناس مثلهم ، ليس فيهم أخيار منزهون ، وأبرار متقون •

فهم يلزمون كل عمل صالح ، ويوهنونه ، ويثيرون الريب ، وان اتقاءهم بعدم السماع لهم ، فهم اثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان اعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ، ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسينا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، انا الى الله راغبون » .

وقد بين الله تعالى للامة كلها مصارف الصدقات ، حتى لا يمارى منافق وليطمئن كل مؤمن ، وقد وزعها سبحانه وتعالى توزيعا فيه التكافل الاجتماعى الكامل .

والمنافقون يؤذون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويؤذون كل داعية للخير ، لانهم والخير نقيضان ، اذا كشف امرهم لا يقولون كشف الله تعالى سرهم ، بل يقولون ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يسمع اخبارهم ، ويتعرف اسرارهم ، وان له من يسعى عليهم ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« ومنهم الذين يؤذون النبي ، ويقولون هو اذن ، قل اذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم » .

والمنافق دائما كثير الحلف بالله لضعفه النفسى ، ان النفاق منشؤه ضعف النفس لا مجرد ارادة النفع ، فهو يحلف لستر موقفه ، ولانه مهين يريد رضا من ينافق معهم ، ويخشى ان يفضح سره ، ويعرف امره .

وانهم مع كفرهم ، وعدم اذعانهم للحق لفرط ضعفهم ، يخشون ان تنزل سورة تكشف حالهم « يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحدثون » .

ومع هذا الهلع من ان يكشف سترهم يحادون الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، ويستهزئون بايات الله تعالى ، ويتخذونها فى مجامعهم هزوا وسخرية ، « ولئن سألتهم ليقولن ، انما كنا نخوض ونلعب ، قل ابالله آياته ورسوله كنتم تستهزئون » .

والمنافقون اشرار قد استمكن الشر فى نفوسهم ، لان الكتمان تفرخ فيه الرذائل ، والضوء يكشفها ، ولان معاولتهم ستر احوالهم ، يوقعهم فى رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر اختها ، حتى يستمرثوا الشر ، ويكون دينهم ، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل اليه خير ، ولا ينضج منه

ومن اللسان الا الشر ، ولذلك قال الله تعالى : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله ، فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون » *

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم ، وأنه عقاب الذين من قبلهم ، وكانوا أشد قوة ، واستمتعوا بالشر ، ونالوا من الدنيا ، وخاضوا في أهل الايمان مثل الذي خاضوا *

ويضرب الله الأمثال من قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم ، وأصحاب مدين والمؤتفة ، فان هؤلاء كفروا برسلمهم ، وكان النفاق والمنافقون من ورائهم ، والنفاق غذاء الجحود * اذ يدفع الجاهلين الى الكفر والعناد *

وفى مقابل ما توعد الله به المنافقين كان وعد الله تعالى للمؤمنين *

جهاد النفاق والكفر :

٧٠٣ — اذا كان النفاق يفعل في الجماعات ذلك الفعل ، فان جهاده يكون في مرتبة جهاد الكفر ، بل يكون قبل جهاد الكفر ، وذلك لأن الكفر لا يستغلط سوقه الا بالنفاق ، والمنافقين هم الذين يفسدون العقول فيصورون الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا ، ولذا أمر الله تعالى نبيه الكريم ، وأمته فقال تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، وماؤاهم جهنم وبئس المصير » *

ويبين سبحانه وتعالى ما يفعله المنافقون في الجماعات الاسلامية ، ووجوب جهادهم ، وذلك الجهاد يكون بالألا يسمع لقولهم ، ولو كانوا يحلفون ، فذلك دأبهم يقولون وينكرون ما يقولون ، ويحلفون أنهم ما قالوا ومن جهادهم أن يكشف أمرهم ، ومن جهادهم أن يحذر منهم ، ومن جهادهم ألا نخوض في خوضهم ، ومن جهادهم ألا نمكنهم من الجماعات الاسلامية *

وقد ذكر سبحانه أمارات النفاق أو بعضها ، وأولها الكذب ، وثانيها نقض العهد ، والشح على الخير ، ويقول سبحانه « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فاعقبهم نقاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون » *

أي أنهم في نفاق مستمر ، نافقوا عندما أعطوا العهد ، ولما اختلفوا زاد

نفاقهم بسبب أنهم يكذبون ، ويكذبون على الله سبحانه وتعالى ، وهو يعلم سرهم وما يتجاوزون به بينهم ، وإن المرء إذا سار في الشر أوغل فيه ، وكلما سار زاد فسادا *

وانهم لا يكتفون بأن يشحوا على الخير ، بل يتجاوزون ذلك الى أن يلمزوا في القول موهين شأن الذين يتصدقون الصدقات المفروضة ، ويتطوعون بالكثير مما فرض ، وهكذا يكون أهل الخير فريسة ، أهل النفاق يصغرون أعمالهم ، ويهجنون ما يكون منهم ، ويستضحكون من أعمالهم *

ولكن ، « فليضحكوا ، قليلا ، وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » *

والنبي عليه الصلاة والسلام يغضى عن سيئاتهم ، ويستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله ، فيبين الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، أن النفاق إذا استمكن في النفس ، غلق باب الهداية ، وكان حجابا كثيفا لا يصل اليه النور قط : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، أن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » *

وان من جهاد النفاق أن يحتاط النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصون للجيش الاسلامي ، فلا يمكنوا أحدا من المنافقين من الدخول فيه ، لأنهم يلقون فيه بروح الهزيمة والفشل ، ولذلك قال سبحانه :

« فإن رجعت الله الى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي أبدا ، ولن تقاتلوا معي عدوا ، انكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » *

هذا أمر قاطع لخير خلق الله تعالى في هذا الوجود الانساني ، وقد أمر سبحانه كسفا لأمرهم وجزاء لهم بما ارتكبوا في الدنيا ، بمنع الصلاة عليهم ، فقال تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون » *

وقد بين سبحانه وتعالى أن الرضا بالشر ، إذا توالى طبع الله تعالى على قلب صاحبه ، فأصبح غير قابل : لأن ينفذ نور الايمان اليه ، ولذلك قال تعالى : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم ؛ فهم لا يفقهون » *

وقد ذكر سبحانه وتعالى من بعد ذلك جهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذين جاهدوا معه ، فبين أن لهم الخيرات ، وأنهم الفائزون ، وأنه سبحانه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها *

أعذار النفاق :

٥٧. — أعذار النفاق دائما واهية ، لأنه لا عذر لهم ، فهم ينتحلونها ، وكان النفاق ابتداء في المدينة المنورة عندما دخلها الاسلام ، ووجد نفاق في الأعراب عندما عم الاسلام ، فهو يتسع باتساع عموم الاسلام وشموله ، لأن النفاق يكون اذا كان كفر مع وجود قوة للحق ، ولم يخرج الأعراب الذين كانوا يحيطون بالرومان لم يخرجوا كلهم للحرب في تبوك ، ولذلك قال تعالى : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم » .

وقد بين الله سبحانه وتعالى الأعذار التي من شأنها أن تقبل ، والأعذار التي لا يمكن أن تقبل ، وبذلك يتميز العذر الحقيقي عن أعذار المنافقين التي لم يكن لها مسوغ ، فقال تعالت كلماته : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، اذا نصحوا الله ورسوله ، ما على المحسنين من سيل ، والله غفور رحيم ، وعلى الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » .

هؤلاء هم الذين يكون لهم عذر ، ولا يؤاخذون في التخلف ، وهم الذين فيهم ضعف في القوة ، أو في المال بالآ يجدوا ما ينفقون منه ، ولا يكون مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعينهم به .

أما غير ذلك فلا يعد عذرا ، ولكن يعد تخلفا وقعودا في وقت يجب أن تتضافر فيه القوى كلها وتجمع الجموع دائما وقد أخرج الى التجمع من التقدم للرومان الذين تعد جيوشهم بمئات الألوف لا بالعشرات منها .

ولذلك ذكر سبحانه وتعالى أنه لا تقبل منهم أعذار ، وإنما عليهم السبيل ، فهم مسئولون عن تقاعدهم ، وهو يدل على أن الايمان لم يدخل قلوبهم .

وقد أشرنا الى أن النفاق لم يكن من الخزرج الذين كانوا بالمدينة المنورة ، بل كان منهم ، وكان من الأعراب الذين دخلوا في الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وكانوا في مجموعهم أميل الى الكفر . وان كان في بعضهم ايمان ، وقد قسمهم الله سبحانه وتعالى الى ثلاثة أقسام :

أولها : قسم لم يدخلوا في الاسلام بقلوبهم ، وان خضعوا له بأبدانهم . وأظهروا الطاعة ، وقد قال تعالى فيهم : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » .

وأولئك علموا الاسلام ممن هم فى باطن الصحراء وحول المدينة المنورة وخضعوا ولم يستجيبوا لداعى الايمان ، وذلك لأنهم حديثو عهد بالدخول ، ولأنهم خضعوا للقوة ، وحيثما كان الخضوع للقوة كان النفاق والكفر •

والقسم الثانى : دخلوا فى الاسلام ، كما يدل ظاهر القرآن الكريم ، ولكنهم برموا بالصدقات ، وعدوها مغرما ، ولم يعدوها مغنما ، وهؤلاء ، ان كانوا مسلمين يعدون من ضعفاء الايمان ، وهذا القسم قال تعالى فيه : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويقرىص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم » •

والقسم الثالث : المؤمن الصادق فى ايمانه ، المتعرف لأحكامه ، « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر • ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا انها قرية لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، ان الله غفور رحيم » وهؤلاء هم الذين أشربوا حب الايمان •

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن النفاق فى داخل المدينة المنورة ، وقد علم أمر الكثيرين منهم ، وأحوالهم ، وكادوا يعرفون باستخفافهم « ولتعرفنهم فى لحن القول » •

وذكر سبحانه وتعالى أن النفاق من الأعراب حول المدينة المنورة ، ولقد ذكر الاثنين ، فقال سبحانه : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » •

ما بين الايمان والضعف والنفاق :

٧٠٥ — ان الايمان فى قوة تدفع فيعمل ، فأولئك هم المهاجرون والأنصار ومن اتبعوهم باحسان ، والضعف تردد وقد يتجه الى الله تعالى فيعترف بتقصيره أو ذنبه ، فيكون منه الندم ، ورجاء الخير ، وقد ذكرهم سبحانه وتعالى بقوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم » وهؤلاء تطهر بعضهم التوبة والصدقات ولذلك قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها » وذلك لأن الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار •

وأولئك الذين لم يعترفوا بذنبهم ، فى التخلف عن القتال من غير معذرة هؤلاء مرجئون الى رحمة الله تعالى اما أن يعترفوا ، ويتوبوا كاخوانهم ممن تخلفوا من غير معذرة صحيحة تسوغ التخلف ، واما أن يستمروا فى غيهم

يعمهمون ، وهؤلاء يعذبهم الله بذنوبهم ، ولقد قال الله تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم ، وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم » .

ولقد ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المنافقين في المدينة المنورة الذين مردوا على النفاق لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد ، وتثبيط المؤمنين عنه ، بل تعدوا وأرادوا التفريق بين المؤمنين ، فانشأوا مسجدا لا ليقموا فيه الصلوات ، بل ليكون وكرا لهم ، وليجروا فيه خياناتهم ، واتصالاتهم بأعداء الاسلام من الرومان ، وليفروا بين المؤمنين ، وسمى هذا المسجد مسجد الضرار ، ولقد قال الله تعالى في مسجدهم هذا وفيهم : « والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وأرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن أن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .

هذا شأن المنافقين ، وذلك شأن ضعفاء الايمان . أما شأن المؤمنين ، فأنهم قد باعوا أنفسهم لله تعالى وأموالهم ، فيقتلون ويقتلون وينفقون غير مدخرين نفسا ولا مالا في سبيل الله تعالى ولقد وصفهم الله أكرم وصف ، فقال تعالى : « الثابتون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ويحرمون المؤمنين » . ووصفهم بالسائحين هنا يراد به الجاهدون الذين يضربون في الأرض جهادا في سبيل الله سبحانه وتعالى ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (سياحة أمتي في الجهاد) .

وبين سبحانه من بعد أن العمل الصالح هو الذي يرفع الى الله تعالى لا القرابة : « ما كان للفي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » ومع ذلك لم يغفر الله تعالى لأبي إبراهيم .

وإن من المؤمنين ناسا تخلفوا ، وأحسوا أنهم ارتكبوا كبرا ، وما أبدوا معذرة ، لأنهم لا يريدون أن يكذبوا على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يرتكبوا جريمتين : جريمة التخلف والكذب على الله . وأولئك لابد أن يتلوهوا . نشاطهم المؤمنون تربية لنفوسهم ، وتزكية لقلوبهم ، وقد ذكرنا

أمرهم في قصة غزوة تبوك ، فرضوا أن يعذبوا بالهجران عن أن يكذبوا على الله ورسوله ، حتى تاب الله تعالى عليهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض ، بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » •

وبعد ذلك التقسيم الحكيم ، والخير العظيم ذكر سبحانه ما كان واجبا على المؤمنين والأعراب ، فقال تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » •

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الوفود ، الذين يجيئون ليتعلموا من المسلمين فذكر سبحانه وتعالى أنه ليس للمؤمنين جميعا أن ينفروا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد جاءت الوفود ، كما أشرنا في السنة التاسعة والعاشر ، حتى قبض صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقى الرفيق الأعلى ، فقال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » •

ثم ذكر سبحانه وتعالى وجوب الجهاد في ختام السورة ، كما أوجبه في أولها فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجذبوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » •

بعض ما في سورة براءة من حكم وعبر

٧٠٦ — نزلت سورة براءة عند حج الصديق رضى الله تعالى عنه ، وعقب غزوة تبوك ، ويلاحظ أنه أول حج تولى أمرته مؤمن من المؤمنين ، ونفذ فيه مناسك الحج على مقتضى حكم الاسلام ، وقد حطمت الأصنام ، فكان الحج اسلاميا بالنسبة للمسلمين ، ولكن المشركين كانوا يسيرون على ما كانوا عليه ، ولم يمنعوا ، لأنه لم يكن قد جاء الأمر بمنعهم ، والاسلام لا يطبق الا ما ينزل به الوحي ، ولم يكن قد نزل الوحي بهذا المنع • ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم امتنع عن أن يتولى بنفسه القيام بالحق ، حتى لا يكون في ذلك اقرار لما يفعلون ، فأتاب أبا بكر عنه •

ولما كانت هذه السورة مبينة لمنع المشركين من الحج ، لأن هذا الحج أول حج إسلامي ، وإن رنق بفعل أهل الجاهلية وكانت مشتملة على أول المنع ، وكانت هذه السورة بعد آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت على منع المشركين أن يدخلوا المسجد بعد عامهم هذا - اشتملت على ما يجب لحفظ الجيوش الإسلامية وحمايتها ، والحذر من الدخلاء فيها ، وكانت غزوة تبوك التي أخذت منها العبرة .

واشتملت السورة على ما يجب أن يتوقاه المؤمنون في بناء جماعتهم ، وما يجب أن يتحلوا به من صفات ليتكون منهم بناء اجتماعي قوى .

وأول ما يستفاد منه هو التوقي من أهل النفاق فإنهم العنصر المخرب في بناء المجتمع ، ولا يمكن أن يتماسك مجتمع إذا ساد النفاق ، أو تحكم فيه المنافقون ، ولذا اكثرت السورة الكريمة من ذكر النفاق وأحواله ، وأن أهله لا يلتئمون مع مجتمعهم ، ولا يندمجون في أهله ، بل يكونون بمنأى عن شعوره ، وعما يحس به ، فهم يؤذون فضلاءه ، ويستنهضون بفعل الخير ، ويخوضون في شئون أهل الفضل والخير ، وإذا قيل لهم في ذلك ، قالوا انا نخوض ونلعب ، وإن قلوبهم دائماً تكون في جانب ، والمجتمع يكون في جانب آخر .

ولذلك وجب أن يكون الجيش خالياً من المنافقين ، فلا يخرجوا فيه لأنهم يخذلون المجاهدين ، ويثبطون هممهم ، ويتخذون من الضعفاء وأهل التردد والهزيمة فريسة ينفثون فيها سمومهم ، وأنهم يتضائلون في وقت الشدة ، ويفرحون بما ينزل بأهل الحق من مصيبة تسوءهم ، فإن تصيبهم مصيبة يفرحوا بها ، وإن تصيبهم حسنة تسوءهم .

وإن الضعفاء إن اعترفوا بذنوبهم ، وتابوا قبل الله سبحانه ، وإن كانوا قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فإذا كانوا قد أساءوا بالقعود ، فقد أحسنوا بالاعتراف ومع الاعتراف الندم ومع الندم التوبة ، فهم لم يصروا على الشر ، وفرق بينهم وبين الذين انتحلوا أعذاراً ، وكذبوا ، وحلفوا وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وما قصدوا إرضاء الله ، بل قصدوا إرضاء العباد ، فلم يتوبوا ، وارتكبوا الشر وأصروا عليه إصراراً .

وإنه إذا كانت التوبة الصادقة جبت ما قبلها . وبينت السورة الكريمة أموراً ثلاثة تدخل في بناء المجتمع الصالح ، وإذا لم تكن تخرب .

أولها : أن الجهاد تجريد النفس عن أعلق الدنيا ، وما يتعلق بالأحباب

والمحبيات من الأشياء والمتع ، وأن المجاهد ان لم يتجرد ذلك التجرد ، فان على الأمة أن تتربص حينها ، وتذهب قوتها ، ان الأمة التي تريد الحياة يجب أن تتسربل سربال الجهاد ، وتستشعر حياته ، ولا جهاد مع الاثرة ، ولا جهاد مع التعلق بالحياة ، فان لم تفعل فانها تنزل وتهون ، ويتحقق فناؤها فى غيرها ، وتعيش ذليلة مهينة •

ثانيها : أن النفاق كما أشرنا هو مقوض الجماعات يمنع توافر الثقة بين أحادها ، والثقة أساس بنيانها ، فما لم توجد الثقة لا توجد المحبة ، والمحبة هى الرباط الذى يربط بين الأحاد ، ويربط الجماعة ، ولا يقطع حبال المودة والمحبة الا أن يظن الانسان بأخيه شرا ولا يمكن أن يكون التثام بين الأمة اذا كان كل واحد يتظن بأخيه ، والنفاق هو المادة التي بها تقطع الصلات • ولذلك وصف الله تعالى المنافقين والكافرين بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل وما أمر الله به أن يوصل هو المودة والمحبة والأخوة ، وان النفاق يفسد نفوس المنافقين ، فيأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ويفسدون الناس فتسرى عدواهم الى الضعفاء ويلقون بالفرقة بين الأقوياء وما ساد النفاق فى قوم الا تقطعوا فرقا ومزقوا مزقا •

ولقد بين القرآن الكريم صور النفاق فى هذه السورة بما لم يبين به فى سورة أخرى ، واذا كانت سورة (المنافقون الصغرى) قد بينت خلافا للمنافقين فى أطواء نفوسهم وانحرافاتهم ، ومعاملتهم فسورة براءة ، وقد أسمىها سورة النفاق الكبرى قد بينت حالهم عندما تشتد الشديدة وعندما تكون الحرب وعندما تكون الأزمات •

وبينت أن النفاق قد يتجاوز العلاقات الانسانية الى مظاهر العبادات ، فهم ينشئون مسجدا يكون ملتقى لاجتماعاتهم المريية ، ويبنونه ارسادا للاتصال بينهم وبين الرومان فى الشام ، فهو ارساد لمن حارب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويتظاهرون بأنه مسجد ، فيكشف الله سترهم ، ويكون فى التاريخ الاسلامى مسجد الضرار •

وانه يجب لكى تكون الجيوش مجتمعة القوى لابد أن تكون مجتمعة العزم ، وذلك بأبعاد المنافقين وعدم دعوتهم فانهم يريدون الفتنة ، ويبتغونها والفتنة فى الجيوش طريق مؤكد لهزيمته •

الامر الثالث : الذى ذكرته السورة الكريمة وأكدته ، أمر المترددين والضعفاء فى ايمانهم لا فى أبدانهم فان أولئك يجب أن يخلو الجيش منهم ، لأنهم يكونون العش الذى يفرخ فيه المنافقون ، ويبثون فيهم روح الفرع والخوف ، والفرار يوم الزحف •

وان أمر هؤلاء مرجأ ، عساهم أن يتوبوا ، ولكنهم لا يكونون فى جيش قوى يخط خطوط النصر ، وأخيرا ان سورة براءة درس حكيم للأمة المجاهدة وقد جعل سبحانه وتعالى من غزوة تبوك التى لم يحدث فيها قتال ، بل رجع المسلمون منها لم يلقوا كيدا ، قد جعلها تعالى درسا فى ذلك فكان التكوين انتقاء للأقوياء ومن تسلل فيه من الضعفاء وأهل النفاق كشف أمرهم •

وفى سورة براءة بيان حال الذين وصل اليهم الاسلام ، فاعتنقوه بحكم اتباع القوى ، لا بحكم الاقتناع كأولئك الأعراب الذين كانوا يتغلغلون فى البلاد العربية ، فدخلوا فى الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم وبينت السورة الكريمة أن مظاهر الخضوع الكامل الزكاة ، فان دفعها من يدفعها مغرما ، سواء اكان الدفع طوعا أم كرها ، فهو ليس من أهل الايمان ، وان قدم الطاعة ، وان دفعها قربات الى الله تعالى فانه يكون مؤمنا مخلصا لله تعالى وللجماعة الانسانية •

هذه كلمات موجزة فى حكمة نلتمسها فى نزول سورة براءة عقب غزوة تبوك ، وعند حج الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه بتأمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير ، لا يسأل عما يفعل ، وكلنا نسأل عما نفعل ، وإذا تلمسنا الحكمة • فانما نقرب الى الأفهام ولا نتعرف الأسباب فنحن نقارب ، ونطلب المعرفة من الله العلى الحكيم •

انتشار الدعوة الاسلامية

٧٠٧ — ابتداء نور الاسلام فى قلوب تقبلت حقيقته ، كما تتقبل الأرض الطيبة النقية البذر الصالح ، والماء الذى يسقى ويغذى ، وكما يتقبل الأحياء ضياء الشمس ، فتتهدى بها فى الدجنة الحالكة ، فتقبله الضعفاء لأنهم وجدوا فيه المعاذ والملجأ والنور والبصر ، والهداية الى الحق فى وسط الظلمات المتكاثفة عليهم ، والظلم المرهق ، وتبعوه طائعين ، راضين •

وانه اذا كان الفقر قد أرهقهم فيه ظلم الظالمين ، فقد أعطاهم قوة احتمال للعذاب والأذى الذى نزل بهم ممن أظلمت نفوسهم ، وختم على قلوبهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى يختار المؤمنين الأولين لكل نبي من هؤلاء الفقراء والعبيد ، لأنهم هم الذين لقوا الصدمة الأولى فيما نالوا من ألم الفقر فى حياتهم يتحملون ألم الأذى ، ويكونون نواة الاستجابة ، وكذلك كان الحواريون لعيسى عليه السلام ، فلم يكونوا من الأقوياء الأشراف ، بل كانوا من الصيادين والعشارين ، وغيرهم من الضعفاء •

ولقد كان الأقوياء الذين دخلوا فى الاسلام ابتداء عددا قليلا ، كأبى بكر وعثمان وحزمة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة عامر ابن الجراح ، وغيرهم فى عدد قليل كانوا يداوون ندوب النفوس الفقيرة لتصبر ، وتصابر وليكونوا قوة نسبية هادية •

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى فى نفسه ويتطامن ليكون الهادى الرشيد المرشد ، وليكون النذير العريان ، كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام ، فلا سيطرة تفرض الدين والرأى ، كما قال تعالى : « لست عليهم بمسيطر » •

حتى اذا اشتد الطغيان ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، وسمع مقالة الله تعالى لنوح : « لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » واستيأس من ايمان أهله اتجه الى القبائل فى موسم الحج ، يعرض عليها دعوة الاسلام ، وأن ينصروه وأن يحموا دعوته من قومه ، فاستعد لاجابته من استعد ونفر منه من نفر ، ولكن قد بلغت دعوته القبائل كلها أو جلها ، ما بين منكر جاف ، وما بين موات مؤتلف راض غير مختلف ، والذين اختلفوا كان السبب الأكبر اختلاف قومه عليه ، فكانوا ينتظرون ولا يعادون استقلالا ، ولكن ربما يعادون تبعا وتقليدا لقريش أقوى قبائل العرب ، وأشدّها نفوذا وسلطانا •

فما سوغت لغيرهم من الذين يتبعونهم أن يخالفونهم ، ولكن الله تعالى

هدى أهل يثرب ، فأمنوا وبايعوا على النصر والايواء ، وفتحوا الصدور للضعفاء وأووا ونصروا •

ولكن قريشا هي القوى ، وهي البعيدة النفوذ في البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وهي في البيت الحرام الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، وهو أول بيت للعبادة وضع للناس وهم الذين يقولون فتنه المؤمنين الذين آمنوا ، وهم الذين اضطهدوا محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه ، وهم الذين هموا بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فكان حقا عليه الهجرة أن يحمي المؤمنين الذين لا يزالون في مكة المكرمة ، فكان لابد أن ينازلهم بالحق كما اعتدوا عليه بالباطل ، وأن يمنهم من الاسترسال في الشر : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ودفع الشر بمجازاة أهله ليس شرا بل خير كله ، وهو الخير القوى الغالب ، وليس الخير المستسلم الذليل •

وان الاسلام فضائله ايجابية ، وليست سلبية ، فضائله عاملة قوية ، وليست ضعيفة مستكنة فلا بد اذن من المغالبة •

فكانت المقابلة وكانت الدعوة وبيان الحقائق الاسلامية والشرائع التي تبنى بها المدينة الفاضلة ، وتقوم فيها الانسانية الكاملة وتكون مثالا ساميا •

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الفترة المجاهدة ، يجاهد في ميدانين متكاملين غير متنافرين يحارب أعداء الحق ، ليجعل كلمة السدين كفروا السفلى ، وكلمة الله تعالى هي العليا ، ويبث السرايا داعية الى الحق ، وفي يدها السيف لقمع الشر ، ان حال دون الحق حائل ، ويرسم الخطط للجيوش الاسلامية المهادية غير الباغية •

وان الغزوات الكبرى كانت من المشركين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدافع ، ولا يهاجم ، فالمدينة المنورة كانت مقصدهم ، والوقائع كانت على مقربة منها ، فغزوة بدر كانت على مقربة من المدينة المنورة ، وقد جاءت قريش بقضها وقضيضها ، نعم ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هم بأن يصادر عيرهم ، كما صادروا أموال المؤمنين ، ولكنهم هم الذين جاءوا بالجيش ليحاربوا ، وقد ردوا خاسرين •

ثم كانت غزوة أحد ، وقد جاءوا بها للثأر ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من مأمته ، وأصاب المسلمين جراح ، ولكنهم هم نكصوا على أعقابهم لم يتألوا خيرا ، وان جرحوا •

ثم لما عجزت قريش أن تنال من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وحدها

جمعت الجموع ، وحزبت الأحزاب من البلاد العربية ، وذهبوا لازالة المدينة المنورة والاسلام ، ولكن هزموا بالريح والرعب فعادوا على اعقابهم خاسرين مذعورين .

هذا هو الميدان الاول لجهاد النبی صلی الله تعالى علیه وسلم ، أما الميدان الثاني فهو تربية المؤمنین وتعليمهم أحكام الدين ، وبيان الشريعة الاسلامية ، وتنظيم المجتمع على أساس العدل والفضيلة ومكارم الأخلاق ، وهو ميدان الرسالة المحمدية ، وهو غايتها ومقصدها ، وما كان القتال الا لحماية الدعوة الاسلامية ، وتوصيلها للقلوب والمجتمعات ، الآحاد والجماعات .

وأنه في أثناء اللقاءات الحربية كانت المبادئ الاسلامية تسرى الى النفوس وسط صليل السيوف ، فكانت تصل الى القلوب ، والمقاتل متأثر بالمقاتل مأخوذ به ، وخصوصا اذا رأوا من خوارق العادات ، ما لا عهد لهم به ، لقد كانت غزوة الأحزاب من قبائل متفرقة ، ورأوا عيانا أن الهزيمة لم تكن بسيف ، ولا بقوى . ولكن بريح عاصف اقتلع أخبيتهم ، وألقى الفزع والذعر في نفوسهم ، وأمامهم رجل يقول انه رسول من عند الله سبحانه وتعالى ، فهلا يفتح ذلك قلوبا مغلفة ، وأذانا تستمع الى صوت الحق ، انهم لابد أن يعودوا الى أقوامهم ، ويذكروا لهم ما عاينوا أو شاهدوا ، وما رأوا بعين البصر ، وإن ذلك لابد أن يصل شيء منه الى البصيرة .

ولقد كانت غزوة الخندق آخر الغزوات التي غزتها قريش للمدينة المنورة ، وقد استنيسوا من بعد ذلك وعلموا أن محمدا صلی الله تعالى علیه وسلم غير مخذول ، وأن أحجارهم التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تغني عنهم ، حتى أخذ بعض عقلائهم يدركون ما هم فيه من ضلال ، وأنه لابد لهم من أن يسمعوا صوت العقل والضمير ، وقد بدا ذلك في بعض كبرائهم كما أشرنا .

الحديبية :

٣٤٥ — كانت الحديبية خطوة للدعاية الى الاسلام من النبی صلی الله تعالى علیه وسلم ، فقد ذهب الى مكة المكرمة بجيش عدته نحو خمسمائة وألف أو يزيدون ، وما ذهب ليقتل مكة المكرمة ، كما كانوا يذهبون الى المدينة المنورة ، بل ذهب ليقیم شعائر الله تعالى ، ولتعظيم البيت ، وعلى الا يسالوه خطة فيها تعظيم البيت الا سلكها .

وقد تم عقد الاتفاق على مدة عشر سنين ، لا يقاتلهم ، وعلى أن يعود من عامه هذا ، وقد سمى الله تعالى ذلك فتحا مبينا .

وانه حقا كان فتحا للاسلام ، فقد لانت قلوب كانت مستعصية ، وفتحت اذان كان فيها وقر عن سماع الحق ، فاذا كانت لم تفتح الا اجلا ، فقد فتحت القلوب نور هذه المدنية ، وكان من قريش انفسهم من يتجه الى الاسلام ويتعرف غاياته ، ومراميه ، وأنه الحق والعقل ، وملة ابراهيم عليه السلام والقبائل التي كانت ترى امارات النبوة ، ولكن تنتظر قريشا ، ورأيها في محمد صلى الله تعالى عليه وسلم - اخذت قلوبهم تصفى ، وأفندتهم تتجه نحوه ، فاسلم الكثيرون ، وتهيات للاسلام قلوب كثيرين ، ولما اتجه عليه الصلاة والسلام الى خيبر لاقتلاع اليهود من بلاد العرب ، كان العرب جميعا مناصرين .

وعندما اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرومان احسوا بعزة العرب تغالب سلطان بنى الأصفر ، وقد كان امرهم مرهوبا مخوفا ، قد استكان بعضهم له رهبا لا رغبا ، فلما رأوا محمدا صلى الله عليه وسلم الهاشمى القرشى العربى يغزو بنى الأصفر ، احسوا بعزة عربية لا بد أن يكونوا معها ، واذا كانوا مع الروم فى بؤسهم فقد هداهم التفكير فى عزتهم الى ألا يكونوا معهم فى تبوك ، وان ذلك بلا ريب يفتح قلوبهم لأن يدركوا الاسلام ، ويتدبروا فى امره وغايته ، ورأوا أنه السبيل الوحيد لعزتهم ، ورفع نيرا الرومان ونفوذهم .

ولقد ذكر كتاب السيرة أنه دخل فى الاسلام ما بين فتح مكة المكرمة وغزوة الحديبية ناس كثيرون بلغوا اضعاف ما دخلوا من وقت البعث المحمدى ، الى الحديبية ، أى بلغ فى سنتين اضعاف اضعاف من دخل فيه فى مدى تسع عشرة سنة .

ولما كان فتح مكة المكرمة ، ودخلت قريش فى الاسلام ، دخل فيه الذين يترددون وقد لانت قلوبهم ، لأنهم رأوا أهل مكة المكرمة ، الذين كان لهم مكان المتبوع يدخلون فدخلوا .

ولذلك جاءت الوفود تترى فى العام التاسع ، بعد أن فتحت فى رمضان من العام الثامن ، ولقد جاءت تلك الوفود مسلمة معلنة اسلامها ، تريد معرفة احكام دينها ، وما يجب أن يقوم به المسلم ، وما يجوز له وما لا يجوز .

وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل البعث لتعليمهم ، ولتأديب الذين يحاولون ابداء المؤمنين أو البعث بالمقومات الدينية ، فكان أحيانا يرسل السرايا ، وأحيانا يرسل فقهاء الصحابة ، كما أرسل أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ، ولما أرسل خالد بن الوليد ، وهو القائد المحارب كان مكلفا أن يدعو الى الاسلام ، لا أن يجرّد سيف القتال ، ثم أرسل على بن أبى طالب عالم الصحابة ، فتولى تعليمهم ، وأخذهم بأحكام الاسلام ، ثم ولاء القضاء ،

فانفتق ذهنه بدعوة النبی صلی الله تعالى علیه وسلم ، ونطق لسانه بالحكمة ، وفك عقدا من مشكلات القضاء وأقره النبی صلی الله تعالى علیه وسلم •

وهكذا نرى أن البلاد العربية - أهل الوبر وأهل المدر - قد دخلها الاسلام ، وتقبله قلوب مؤمنة مذعنة ، وعلم أمره بعض الناس ، ولكن لم يدخل قلوبهم ، فاطاعوا وخضعوا ، ولكن لم تؤمن قلوبهم ، وإن علم الاسلام ، كان الاسلام كالغيث يصيب أرضا نقية فيمدها بالزرع وتأتي بأطيب الثمرات ، وكان يصيب أرضا تحفظ الماء ولا تنتفع به ، ولكنها تكون موردا لطالبه ، وكان يصيب أرضا مجربة لا تحفظه ليكون مصدر سقى ورعى ، ولا تنتفع به •

ولقد كان الناس بعد أن علموا الاسلام على هذه الأنواع الثلاثة ، فكان منهم الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله تعالى ، وأولئك الذين كانوا في المدينة المنورة ، وبعض مدائن البلاد العربية ، ورجال كانوا في البادية •

ومنهم من علموا الاسلام وحفظوه ، ولكن لم يعملوا به ، وأطاعوا ، ولكن لم تدعن قلوبهم ، ومنهم الذين مر عليهم الاسلام فعرفوا أن هناك دينا يحارب الوثنية ، ويدعو إلى الوحدة ، وأحياء ديانة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكن التدين لم يكن موضع اهتمامهم ، فمر عليهم علم الاسلام كما يمر الماء في الميزاب يتصدر ولا يبقى منه شيء ، وأكثر هؤلاء كان في أعراب البادية ، ولهذا قال الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » •

ومهما تكن حال الذين علموا الاسلام ، ووصلتهم الدعوة الاسلامية كاملة ، فإن التبليغ قد تم : وكمل العلم • وما على النبی صلی الله تعالى علیه وسلم أن يدخل الهداية في القلوب ، ولكن عليه أن يبلغ ، وينذر ويبشر كما قال تعالى : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » أن عليه أن يبين المود العذب وعلى الناس أن يردوه ، فمن ورد استقى ، ومن لم يرد شقى ، وإن النبی صلی الله تعالى علیه وسلم ، أكمل رسالته في أمرين :

أولهما : أن الشريعة نزلت عليه كاملة ، فاصولها كلها قد نزلت عليه ، وعلمها أصحابه ليحملوا العبء كاملا من بعده ، فبين أحكام العبادات ، والزواج الاجتماعية والعلاقات الانسانية في معاملات بين الناس وعلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها ، وأحكام الحروب الفاضلة ، وغير ذلك مما يسير بالانسانية في طريق السلام والكمال •

وثانيهما : أبلغ الدعوة كاملة لقومه العرب ، ليكونوا المهلفين للناس كافة ، أو حماة هذا التبليغ ، ويتولى علماءهم الدعوة • ويتولى سائرهم حماية هذه الدعوة ، والله بكل شيء عليم ، وأنه لم يبق بعد الكمال الا الوداع •

حجة الوداع

٧٠٩ — كانت حجة الوداع فى آخر التبليغ المحمدي ، اذ عم العلم بالدعوة الاسلامية البلاد العربية كلها ، وخرج نور الاسلام الى الشام ، فدخل فيه من العرب الذين كانوا يخضعون لحكم الرومان ، وسميت حجة الوداع ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انتقل الى الرفيق الأعلى بعدها بأمد قصير ، ولأن العبارات فى خطبة الوداع كانت تفيد بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يلقاهم بعد عامهم هذا ، وسميت حجة البلاغ . لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يذكر فى خطبتها عبارة التبليغ ، ونحن نرى أنها سميت حجة البلاغ ، لأنها خاتمة البلاغ الى البلاد العربية ، فعمهم العلم بالدعوة الاسلامية ، ودخلوا فى الاسلام وأشرب حبه فى قلوب بعضهم ، حتى صاروا مؤمنين ، وقدم بعضهم الطاعة له ولأحكامه ، ولما يدخل الايمان قلوبهم .

وقد حمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عبء الدعوة وتبليغ ما علموا وما أدركوا من حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحمل الأمانة الذين شاهدوا وعانوا وقبسوا من نور الوحي الالهى ، وان كان قد ختم الوحي برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين رضى الله تعالى عنهم ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيعة الرضوان ، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأبى عبيدة وغيرهم من الذين كانوا كالحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام ، حمل هؤلاء الأطهار الأمانة ، ورعوها حق رعايتها ، وكانت البلاد العربية كلها بعد أن ارتد من ارتد ، قد تجردت لحماية الدعوة ، حتى أشربوا حب الايمان ، فكانت القيادة الحربية أحياناً لغير أهل البيعة ، ولكن يكون بجوارهم مرءوسون لهم من بعض أهل البيعة ، كأبى عبيدة ، كان بجوار خالد بن الوليد ، وان كنا نعتقد أن خالداً ممن دخل الايمان قلبه ، ولكن لم يكن كأهل البيعة فى العلم بالاسلام ، وأحكامه وفرائضه .

وأحياناً تكون القيادة لأهل البيعة كما كان فى فتح فارس ، فقد كان القائد سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة .

الخروج لحجة البلاغ ، وما قام به من مناسك :

٧١٠ — يقول ابن القيم ان الحج فرض فى السنة التاسعة ، وما كان من حج الناس قبلها انما كان على العادة التى كانت عند العرب ، ولذلك لم يرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أميراً على الحج الا فى السنة

التاسعة ، ولم يحج هذا العام ، لأن المشركين كانوا يحجون على عادة الجاهلية ، فأرسل أبا بكر ولم يذهب بنفسه ، حتى لا يكون سكوته اقرارا لهذه الأمور الجاهلية ، ولما منعت بمنع المشركين من القرب من المسجد الحرام ، قام صلى الله تعالى عليه وسلم بالحج وتولى امرته بنفسه •

وقد اعتزم الخروج من المدينة المنورة ميمما وجهه شطر المسجد الحرام لست بقين من ذى القعدة ولما عزم أعلن على الحج فى المدينة المنورة وما حولها - فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولما شاع الخبر فى البلاد العربية ، واقام فى الطريق خلق كثير ، لا يحصون فكانوا من بين يديه ، وعن يمينه وعن شماله على قدر رؤية البصر •

خرج بمن حول المدينة المنورة نهرا فى التاريخ الذى أشرنا اليه ، وخطب الذين صحبوه من المدينة المنورة وعلمهم مناسك الحج ، وكان كلما وفد عليه ، وهو فى طريقه وفد علمه مناسك الحج ، وأبعدهم عن بقايا الجاهلية التى كان المشركون يتخذونها فى بيت الله الحرام كالطواف عرايا •

وبين لهم كيف يكون الاحرام ، ومواقيت الحج ، وبين لهم أنواع الاحرام وما يلزم فى كل نوع فبين لهم أن من أحرم بالحج والعمرة فعليه أن يسوق الهدى ، ولا يتحلل الا يوم النحر بعد أداء الحج ، فيتحلل بنحر الهدى يوم النحر ، ومن نوى العمرة ولم يسق الهدى فله أن يتحلل بعد السعى بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت سبعا ، يجب فى ثلاث منها الهرولة ، ويستسلم فى ابتداء كل واحدة الحجر الأسود تعرفا لكمالها •

وفى السعى سبعا بين الصفا والمروة يرمل بين الميلين الأخضرين ، وأنه يلبى بعد الاحرام بأن يقول لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك لبيك •

ثم بعد أن علم هذه المناسك قولا ، وأراهم اياها عملا من بعد أن أحرم من ذى الحليفة ميقات المدينة المنورة ، وعلمهم المواقيت كلها ، وأنه يحرم عندها أو قبلها ولا يمر عليها الا محرما •

وأهل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد احرامه بالحج والعمرة وأهل بعض من معه ، بالحج فقط ، لأن العمرة تدخل فيه ، وبالعمره فقط ، وقد فهم بعض الناس من اهلاله بالحج والعمرة أنه كان قارئا أى جامعا بينهما لأنه ساق الهدى ومن أهل بالحج كان مفردا أى لم ينو العمرة فى حجته ، ومن أهل بالعمرة فقط فانه متمتع ، لأنه ألتمتع ، يهل بالعمرة ، ويؤديها ثم يتحلل

منها ، ثم ينوى الحج ، ويذبح الهدى يوم النحر ، وقد سمي القرآن القرآن تمتعاً فجمع بينه وبين التمتع في عبارة واحدة ، وهي قول الله تعالى : « فإذا أتمتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجعت ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله شديد العقاب » •

وان الروايات تتضافر على أن حجه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قرآناً وأنه عليه الصلاة والسلام يرتضى لنفسه أشدها كلفة ، ولا شك أن القرآن يجمع كمالين الهدى يساق ويعلم من أول أهله والاستمسك بالتحريم في مناسك الحج ، حتى تؤدي كلها من السعي والطواف والوقوف بعرفات ثم بالمزدلفة ، ثم الذهاب الى منى بعد المشعر الحرام ، والتمتع فيه رخصة في أحد الأمرين ففيه رخصة التحلل قبل الحج ، ثم الاحرام له ، والحج بافراده من غير عمرة معه فيه رخصة من عدم الالتزام بالهدى ، فاختر سبحانه وتعالى القرآن ، لأنه لا سهولة فيه أولاً ، ولأن فيه تعليم العمرة عملاً ثانياً ، ولأن فيه سوق الهدى من أول الحج ، وأشعاره بوضع مزادة فيه ، فقد وضع المزايدة وشق جانباً من سنام زاملته ، لكان ذلك كله تعليمياً ، وما كان ليعلم ذلك عملياً لو كان قد أحرم بالحج مفرداً ، أو أحرم متمتعاً ، فكان القرآن فيه كمال التعليم •

ومع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اختار لنفسه القرآن نسكاً في الحج فقد رخص للناس ، من غير بيان أيها أفضل في أن يختاروا بين الأنسك الثلاثة : القرآن ، أو التمتع ، أو الأفراد ، ولكنه اشترط في حال القرآن سوق الهدى ، وفي التمتع الهدى يوم النحر •

وقد حدث في أثناء سير ركب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن أصاب الحيض أم المؤمنين عائشة ، فأمرها بالاستمرار في حجها على ألا تدخل المسجد الحرام ، وتطوف ، وولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر ولده محمد ابن أبي بكر ، وقد أمرها أن تغتسل لأحرامها ، كما أمر عائشة رضي الله عنها وعن أبيها •

امضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحجته ، والمسلمون وراءه يتعلمون من عمله ، وهو يلبي ، كلما تحول من مكان الى مكان ، وكلما علا مرتفعاً ، أو انخفض في واد •

وقد منع أن يصاد حيوان من الحرم ، وأن يؤكل صيد الحرم ، لأنه حرام ، فما يؤدي اليه يكون حراماً ، ولكن أباح للمحرمين أن يأكلوا صيد غيرهم ممن يكونون في حل •

وفى أثناء سيره ، كان يبين العبر فيما جربه من أرض ، وبوادي عسفان فقال لصاحبه أبى بكر ، يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : وادى عسفان ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لقد مر به هود وصالح » .

٧١١ — ومن الروايات الراجعة يثبت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا جمع بين الحج والعمرة فى اهلل واحد ، وقد ساق الهدى وكان ثلاثا وستين بدنة ، ولما جاء اليه على من اليمن أشركه فى بدنه ، وقد قلد البدنة وأشعرها .

ولكن لم يكن من معه قارنين ، بل قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كان منهم من كان قارنا كالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنهم من أفرد بالحج ، ومنهم من تمتع ، فقد روى ابن أبى شيبة أن عائشة رضى الله عنها قالت : « خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، للحج على ثلاثة أنواع ، فمننا من أهل بعمرة وحجة ، ومننا من أهل بحج مفرد ، ومننا من أهل بعمرة مفردة فمن كان أهل بحج وعمرة معا ، لم يحلل من شئ مما حرم منه ، حتى يقضى مناسك الحج ، ومن أهل بحج مفرد ، لم يحل بشئ ، مما حرم منه حتى يقضى مناسك الحج ، ومن أهل بعمرة مفردة فطاف بالبيت ، وبالوصفا والمروة حل ما حرم منه ، حتى يستقبل حجا . » وان هذا يدل على أمرين :

أحدهما : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا ، ولم يدع الناس جميعا الى القران ، لأنه ربما يكون فيهم من لا يستطيع الهدى ، ومن لا يحتمل تحريم محرمات الحج مدة طويلة ، فأجاز لهم التمتع والقران والافراد ، وبين لهم ما يلزم كل نوع من هذه النسك ، ولم ينه عن واحد منها ، بل لم يبين أفضلها ، وان كان الأفضل يعرف من اختيار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا من قوله ، وربما يفهم من التخيير من غير مفاضلة المساواة فيها .

وان الحق أن كلاله فضله فى حاله ، ففى حال الضعف ، أو عدم القدرة على الهدى يكون الأيسر ، هو الأفضل ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يختار الأيسر ، فما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن اثما .

وقد رأى عمر (وعثمان رضى الله عنه قد تبعه) أن يكون الافراد أولى ، حتى لا يخلو البيت الحرام من قاصديه طول العام ، لأنه اذا شاع اجتماع العمرة والحج فى أشهر الحج ، ما قصد البيت فى أثناء العام ، وعمر يريد ألا يخلو البيت طول العام من قاصديه .

ولقد تبع ذلك عثمان رضى الله عنه ، لأنه قد تعهد عند مبايعته أن يعمل

يكتتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسنة الشيخين
أبى بكر وعمر ، واختيار الافراد فى الحج كان من سنة عمر رضى الله عنه ،
ولم يقره على ذلك كثير من الصحابة كسعد بن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب
وعبد الله بن عباس ، وعائشة رضى الله تعالى عنها •

وقد روى أبو داود والامام أحمد أن معاوية قال كان فى ملأ من أصحاب
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن جلود النمر أن يركب عليها ؟ قالوا اللهم
نعم ، قال وتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن لباس
الذهب الا مقطعا قالوا اللهم نعم قال أتعلمون أنه نهى عن الشرب فى أوانى
الذهب والفضة ؟ قالوا اللهم نعم ، قال : « وتعلمون أنه نهى عن المتعة (أى
الجمع بين العمرة والحج) قالوا اللهم لا • » قال فوالله أنها لمعنه •

وان هذا يدل على أن معاوية اتبع ما سار عليه عثمان اتباعا لعمر ،
للمقصد الاجتماعى الذى راه ، ولعل معاوية ظن ، أو أراد أن يوهم أن عمله
وعمل ذى النورين عثمان لنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم • والحقيقة
... أن لانهى عن نوع من الأنساك الثلاثة « القران والتمتع والافراد » وخصوصا
أن التمتع بالجمع بين العمرة والحج قد نص عليه فى القرآن الكريم ، وما كان
لأحد مهما تكن مكانته بين المسلمين أن ينهى عن أمر أجازاه القرآن الكريم وبين
أحكامه •

ولكن عمر رضى الله تعالى عنه اختار الافراد لهذا المعنى الاجتماعى
الذى ذكرناه ، وخالفه فيه كثيرون من الصحابة ، حتى ان ابنه عبد الله لم
يوافقه •

وخالف على عثمان رضى الله تعالى عنه ، ورد نهيه عن التمتع ردا
شديدا وأعلن التمتع أمامه وفى حضرة جمع من الصحابة •

ولقد روى أن عبد الله بن عمر كان يرى التمتع بالقران ، أو مجرد
الجمع فى أشهر الحج بين العمرة والحج قارنا أو متمتعا ، فقال قائل ان أباك
نهى عن العمرة « أى مع الحج » فقال الصحابى التقي : « أمر رسول الله صلى
الله تعالى عليه وسلم أحق أن يتبع أم أمر أبى • » ولقد قال ابن عباس لمن كان
يعارضه فى القران والتمتع بعمل عمر « يوشك أن ينزل عليكم حجارة من
السماء • أقول لكم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقولون :
قال أبو بكر وعمر • »

الأماكن التي نزلها ، والأدعية التي ذكرها

رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧١٢ — نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار في الطريق إلى مكة المكرمة بعد إهلاله من ذى الحليفة بالعمرة والحج ، أي قارنا وسار في طريقه حتى نزل بذي طوى وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل ، من يومه ، ونهض إلى مكة المكرمة فدخلها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون ، ثم سار حتى دخل المسجد الحرام واستقبل الكعبة الشريفة ، وقال : (اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما ومهابة) .

ويروي أنه كان عند رؤيته البيت الحرام يقول هذا الدعاء : (اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة) .

والقد طاف ، ولما حاذى الحجر الأسود استلمه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ولما فرغ من طوافه ، جاء خلف المقام ، وقال : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت ، فلما فرغ من صلاته ، أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه مرة أخرى .

ثم اتجه إلى الصفا من الباب الذي يقابله ، وقرأ قوله تعالى : « أن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

بعد السعى ، استمر صلى الله تعالى عليه وسلم ممسكا بأحرامه ، فلم يتحل ، وفعل مثل من أفرد بالحج ، أما من تمتع بالعمرة إلى الحج ، وكان مهلا بالعمرة فقط فإنه تحلل ، واستمر متحلا ، حتى نوى الحج من بعد ذلك .

استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على إحرامه ، حتى تحلل يوم النحر ، والذين كانوا معه ولم يسوقوا الهدى ، وقد أهلوا بالعمرة تحللوا بعد طوافها حتى إذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة أهلوا بالحج ، وأصابوا في أحرام ، حتى تحللوا يوم النحر .

ثم اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى منى ، ومعه من أصحابه من المسلمين ، ومنهم من كان يلي ، ومنهم من كان يكبر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يته أحد .

وقد صلى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين في منى صلاة الظهر والعصر وجمع بينهما جمع تقديم في وقت الظهر ، وقد سار من بعد ذلك إلى عرفة .

ويقول ابن القيم ، ضربت له إبرة بنمرة ، وهى مكان فى شرقى عرفات فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرجلت ثم سار حتى أتى بطن الودانى ، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام ، وهذم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها ، وهى الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا ، وذكر الحق الذى لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف ، ولم يقدر ذلك بتقدير ، وأباح للأزواج ضربهن إذا أدخلن الى بيوتهن من يكرهه أزواجهن ، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم إن يضلوا ما داموا معتمدين به ، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون ، وبماذا يشهدون فقالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ، ونصحت فرفع أصبعه الى السماء ، أن يبلغ شاهدكم غائبهم •

ذكر ابن القيم خلاصة الخطبة التى كانت بعرفة ، ولم يذكر نصها ، ولا ندري لماذا لم يذكر النص ، وقد ذكر النص ابن اسحاق فى السيرة ، فقد قال :

« مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على حجته ، فأزى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين •

فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس اسمعوا قولى ، فإننى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبدا •

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وأنكم ستلقون ربكم ، فيسألکم عن أعمالکم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدها الى من أئتمنه عليها •

وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله تعالى أنه لا ربا ، وإن ربا عمى العباس بن عبد المطلب موضوع كله •

وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دم أضعه دم ابن عمى رببعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتله هذيل ، فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية •

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم •

أيها الناس ، انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان •

أما بعد أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن (١) فرشكم أحد تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن ، فان الله قد اذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انما اخذتموهن واستحلتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فانى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما ان استعصمت به ، فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه •

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن المسلم أخ المسلم ، وان المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم • اللهم هل بلغت •

ويقول ابن اسحاق : « ذكر لى أن الناس قالوا : اللهم نعم • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد •

وهنا ننبيه الى أمرين آخرين يتعلقان بالخطبة •

أولهما : أن الجمع كان حاشدا ، والخلق كانوا مزدحمين ازدحاما لم يكن له مثيل من قبل ، فقد جاء الناس من كل فجح من الجزيرة العربية ليسعدوا بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجته •

ولذلك لم يكن من الممكن أن يسمع الناس جميعا صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يتكلم ، فكان بجواره صارخ يصرخ للناس بما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن اسحاق : كان الرجل الذى يصرخ فى الناس يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ربيعة بن أمية بن خلف ، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أيها الناس ، ان رسول الله يقول : هل تدرون أى شهر هذا فيقولون الشهر الحرام • • » •

(١) معناها يدخلن بيوتكم من لا تريدون دخولهم •

وهكذا كان ذلك الصارخ ينطق بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ليسمع القاصي والداني ، والقريب والبعيد من حضرة النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما : أنه روى عن بعض الثقات زيادة عما رويها من الخطبة الجامعة
وزيادة الثقة مقبولة ومن الزيادات التي رويت قول النبي صلى الله عليه وسلم ،
وذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

أيها الناس ، إن الله قد أدنى لكل ذي حق حقه ، وإنه لا يجوز وصية
لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، فمن ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى
غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا
عدلا .

٧١٣ — بعد أن وقف بعرفات ، وألقى خطبته الجامعة ، لما غربت
الشمس ، واستحكم غروبها ، كما قال ابن القيم ، بحيث ذهبت الصفرة — اتجه
إلى المزدلفة فأفاض من عرفة إليها ، وأردف إليه على ناقته أسامة بن زيد ، وهو
يقول : « أيها الناس عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالايضاع (١) ، ثم جعل
يسير العنق وكان في مسيره هذا لا ينقطع عن التلبية كلما علا ، أو انحدر » .

وقد صلى المغرب والعشاء في وقت العشاء فجمع بينهما جمع تأخير ،
بأذان واحد ، وأقامتين .

ثم صار من بعد ذلك إلى منى بعد أن نام ، ولما اتجه إلى منى أمر من معه
ألا يرموا الجمار إلا بعد طلوع الشمس .

وقد رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمار ثم نحر ، ثم تحلل من
الأحرام ، وقد كان معه بدن كثيرة ، نحر بيده منها ثلاثا وستين في النصر
بمنى ، ثم نحر على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه الباقي ، وأمره أن يتصدق
بلحومها وجلودها في المساكين .

وقد ذكر ابن القيم أنه خطب في منى خطبة عظيمة بليغة ، وكل كلامه
عليه الصلاة والسلام بليغ ، وقال ابن القيم في هذه الخطبة ، أعلمهم فيها
بحرمة يوم النحر ، وفضله عند الله تعالى ، وحرمة مكة المكرمة على جميع البلاد
وأمر بالسمع والطاعة ، لمن قادهم بكتاب الله تعالى ، وأمر الناس أن يأخذوا

(١) أى ليس بالأسراع ، وهو السير بين الأسراع والإبطاء .

مناسكهم عنه ، وقال : لعلى لا أحج بعد عامي هذا ، وعلمهم مناسكهم ، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمرهم بالتبليغ عنه وأخبر أنه رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال في خطبته لا يجنى جان إلا على نفسه ، وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها ، والناس حولهم ، وفتح الله تعالى أسماع الناس حتى سمعها أهل منى في منازلهم .

وقال في خطبته قلت : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم وودع حينئذ الناس » .

ويفهم من كلام ابن القيم هذا أن خطبة الوداع ليست التي ألقيت في عرفات ، إنما خطبة الوداع هي هذه لأنها متأخرة عن الأولى ، والوداع للأخيرة ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيها الوداع ، والذي أراه أن الحجة كانت حجة الوداع ، فكل ما فيها من كلام يتضمن معنى الوداع .

وبعد أن نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حلق وفعل أصحابه ما فعل ، أتجه إلى البيت الحرام ، فطاف طواف الاقضية ، وهو طواف الزيارة ، وهو الركن من الحج .

وشرب من زمزم ، ثم عاد إلى منى ، وبعد الزوال رمى الجمار ، فابتدأ بالأولى التي تلى مسجد الخيف ثم الوسطى ، ثم العقبية .

وتكرر ذلك في أيام التشريق الثلاثة التي تلي يوم النحر .

وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ثانية في منى ، وهي الثالثة الخطب باحتساب خطبة عرفة ، ويقول ابن القيم في هذه الخطبة :

خطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس بمنى خطبتين ، خطبة يوم النحر ، وقد تقدمت ، والخطبة الثانية في أواسط أيام التشريق قبل ثاني يوم النحر ، قال فيها : « وهل تدرون أي شهر هذا ، قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الشهر الحرام ، ثم قال اني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد هذا ، إلا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فليبلغ أبنائكم أقصاكم ، ألا هل بلغت » .

ويروى أنه نزلت بعرفة آية « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » ويروى أنه نزلت بمنى سورة « إذا جاء نصر

الله والمفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمده ربك
واستغفره انه كان توابا » •

لقد انتهى حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى الحجة الأولى
والأخيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يحج قبلها في مكة المكرمة ،
لما كان يحوط الكعبة الشريفة من أوثان ، وما كان يفعله أهل الجاهلية من
ذلك ، ويلاحظ أن حج النبي صلى الله عليه وسلم كان قرانا كما ذكرنا ، ولم
يلزم الناس ، ولم يذكر للناس أنه أفضل من غيره ، وأن كان أفضل لأن النبي
صلى الله عليه وسلم قد اختاره ، وأنه مع ذلك ترك الناس أحرارا يختارون من
أنواع الحج الثلاثة ما يكون أسهل عليهم ، فمن ساق هدبا يختار القرآن أن
أراد ، ومن لم يسق وأهل بالعمرة ، ولم يسق هدبا ، فقد اختار التمتع ، ومن
أهل بالحج ابتداء ، فقد اختاره ، ولا يسوق هدبا •

وقد كان المسلمون الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم في حجه
منهم من اختار القرآن ، ومنهم من اختار التمتع ، ومنهم من اختار الإهلال
بالحج ، ولا حرج مادام يختار ما يستطيعه ، ولا يشق عليه •

وما يزوى من أن عمر اختار للمسلمين الأفراد في خلافته ، لم يكن ذلك
الزما ، وكيف يلزم مؤمن المسلمين بغير ما ألزمهم به الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم ، ولم يعرف عنه أنه وضع عقابا على من قرن أو تمتع ، وكيف ذلك
وابنه عبد الله لم يوافق ، ولكن عمل عمر كان رأيا •

وهو رأى له وجهه ، وهو ألا يخلو البيت الحرام من زواره •

دعاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم في عرفه :

٧١٤ — لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كثير الدعاء في حجه ،
لأنه في ضيافة الرحمن ، وفي أرض الله ، ففي كل منسك من مناسك الحج كان
يدعو الله تعالى ، ولقد كان يدعو عندما أهل بالعمرة والحج ، وكان يدعو في
طوافه ، وفي سعيه ، ويدعو في عرفه وفي الشهر الحرام •

ولقد روى عن على رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان دعاؤه
على عرفه في الموقف : اللهم لك الحمد كالذى نقول ، وخير مما نقول ، اللهم
لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة
الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم انى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح •

« وروى عن على أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أيضا فقال على : « انه دعائى يوم عرفة أن أقول : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل فى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى قلبى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، اللهم انى أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج فى الليل ، وشر ما يلج فى النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، وشر بوائق الدهر » .

وروى عن ابن عباس أنه كان فيما دعا به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع :

« اللهم انك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شيء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتل اليك ابتهاج الدليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلل لك جسده ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيمًا ، يا خير المسئولين » .

وروى أبو داود الطيالسى فى سنده عن ابن عباس قال : رأيت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء فأوحى اليه انى قد فعلت الا ظلم بعضهم بعضا ، وأماذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها ، فقال يا رب انك قادر على أن تثيب هذا المظلوم خير من مظلومه . وتغفر لهذا الظالم فلم يجب تلك العشية .

هذه أخبار عن أدعية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى سمامية فى معناها ، وقد رويت ، وفى بعض رجالها ضعف عند رجال الحديث ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

العودة الى المدينة المنورة

٧١٥ — عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة بعد أن أدى مناسك الحج ، وبينها للناس ، وفى اثناء عودته عند غدِير خم وهو قريب من الجحفة ، وصله شكوى الشكاة من على كرم الله وجهه فى الجنة .

ويقول الحافظ ابن كثير انه خطب فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، خطبة عظيمة وكان بغدير خم تحت شجرة هناك فبين فيها أشياء كثيرة ، وذكر

من عدل على رضى الله تعالى عنه وأمانته وقربه اليه ما أزاح به ما كان فى نفوس كثير من نفوس كثيرين من الناس عنه •

لقد أقبل أهل اليمن يشكون عليا من شدته فى منع ركوب ابل الصدقة ، وتوزيع حلل البز فى غييبته ، ونزعها منه •

فجاء فى خطبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما وافق فيه على مسلك على كرم الله وجهه فى الجنة : فقال : أيها الناس ، لا تشكو عليا ، فوالله انه لأخشى فى ذات الله من أن يشكى •

وفى بعض الروايات الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد على ، فأقامه عن يمينه ، وقال الست أولى من كل امرئ من نفسه ، قالوا بلى ، قال فان هذا مولى أنا مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه •

فلقى عمر بن الخطاب عليا ، فقال له : « هنيئا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، وقد روى حديث من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه •

رواه أصحاب السنن الأربع ، والامام أحمد بطرق صحيحة •

فكان حقا أن يكون أولى أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بينا ذلك فيما مضى ، وبيننا أنه مع صحته لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين أبى بكر وعمر ، فالخلافة تقتضى النظر الى أمور كثيرة ، يصح أن يكون بعضها محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ليست كلها ، فمحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا تجعل غيره ليس أهلا للخلافة • والله تعالى أعلم •

الوداع بعد التمام

٧١٦ — نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » وقال الرواة فى الصحاح ، ان نزولها كان والمسلمون واقفون بعرفة يوم الجمعة ، فلما سمعها عمر بكى فقبل له ما يبكيك ؟ قال ما بعد الكمال الا النقصان ، والنقصان هو وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ، وكأنه فهم رضى الله عنه بعقله المدرك وبصيرته النافذة • أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ رسالة ربه ، وأنه ان بلغها ،

فلم يبق الا ان يذهب الى ربه ، وقد أدى واجبه وبلغ وأنذر وبشر ، وعلم الناس علم الشريعة ، وعلم القرآن الكريم .

وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم بعلم ربه أنه قد أن الوداع ، فكان فى خطبه فى الحج ، لعل لا القاكم بعد عامى هذا .

ولقد نزل وسط أيام التشريق سورة النصر : « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسيح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » وقالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف أنه الوداع ، وقد فسر ابن عباس فى حاضرة جمع من الصحابة بأن السورة تدل على أجل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووافق عليه عمر رضى الله عنه ، ولم يعترض عليه أحد ، وذلك بطريق الاشارة أو التظنن ، لأنه اذا تم النصر ، وعم الاسلام فـ ان اوان المفارقة .

وان آيات القرآن الكريم تدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مبعثه وحياته لأجل محدود ، وأنه ليس بمخلد وأن وفاته كغيره من البشر أقرب اليه من حبل الوريد لبشره .

١ - ومنها قوله تعالى : « انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » .

٢ - ومن ذلك قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون » « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

٣ - ومنها قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » هذه قبسة من الآيات القرآنية ، وغيرها كثير .

ومن الأحاديث التى تنبأ فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقرب أجله ولقاء ربه قوله لابنته فاطمة : « ان جبريل كان يعارضنى القرآن الكريم فى كل سنة مرة وأنه عارضنى به العام مرتين وما أرى ذلك الا اقتراب أجلى » .

٤ - وروى البخارى ، كان يعتكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى توفى فيه اعتكف عشرين يوما .

وهكذا تتضافر الأخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه توقع وفاته في العام الذي حج فيه ، أو بعده بقليل .

بعث أسامة بن زيد

٧١٧ — ومع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتوقع الموت القريب وقد ظهرت أماراته كان قائما بواجب التبليغ واعزاز الاسلام لآخر لحظة من لحظاته ، فالواجب مستمر ، لا يعوقه مرض ان كان قادرا على الارسال والبعث ، ولا يعوقه توقع الموت وقربه ، لأنه مادامت الحياة ، فالواجب قائم .

بعث أسامة الى أرض فلسطين :

وقد أجمع الرواة على أنه عليه الصلاة والسلام جعل في امرته الشيخين أبي بكر وعمر ، ولقد بنى الشيعة على ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد توقع الموت ، ودخل جسمه المرض وأذن بوداع ، بعثهما في جيش أسامة ليخلو الجو لعلى كرم الله وجهه ، ولا ينازعانه الخلافة .

ولا نحسب أن ذلك يصلح تعليلا ، أو حكمة ، لتولى أسامة امرّة الشيخين ، وقد كان يمكن أن يولى أحدهما الجيش ، والآخر يعاونه ، فان ذلك قد يتحقق فيه ما فرضوه مقصدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق أن اختيار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأسامة يمكن أن تتعرف حكمته بغير ذلك .

فأبوه زيد بن حارثة — كان القائد الأول للمسلمين الذي كان يحمل الراية ، وقد قتله الرومان ، فكان من حكمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنه من قتلة أبيه ، فيكون أكثر حمية من غيره ، وأشد حماسا ، وأيضا فان أسامة كان شابا ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد توقع الموت أن يولى الشباب .

وان زيدا لم يكن قرشيا ، بل كان أبوه من الموالي أعتقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبناه ، حتى ألغى التبني بحكم القرآن الكريم من بعد الهجرة ، وان تعيينه وهو بهذه الحال ، بيان لأن السيادة لا تكون دائما للقرشيين ، وتوكيدا لهذا المعنى السامي جعل شيخين من شيوخ قريش والمسلمين في امرته وكانت لهما مكانتهما في قريش جاهلية واسلاما ، فكان جعله أميرا عليهما منعا للسيطرة القرشية ، ومنعا للاستقراطية الاسلامية .

وان هذه الأمور تلمس لحكمة فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليست تعليلاً دقيقاً ، ولقد كان هذا البعث آخر سرية أرسلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكأنها كانت إشارة الى أن يتجه المسلمون بالدعوة الإسلامية الى خارج الجزيرة العربية ، ولقد شدد عليه الصلاة والسلام في تنفيذ هذه السرية ، شدد فيها وهو حي ، وشدد في التوصية بتنفيذها اذا مات ، ولكن لم تنفذ الا بعد حياته •

وتخلف عنها الشيخان أبو بكر وعمر ، فأما أبو بكر ، فقد اختبره الله تعالى بالخلافة ، وارتداد الأعراب ، وكان لابد أن يبقى ليحمي المدينة المنورة ، وليحمي العقيدة ، وليحمل المرتدين على التوبة •

وأما عمر ، فلأنه كالوزير لأبي بكر ، استأذن أسامة في أن يبقى بجواره في هذه الشديدة لتكون قوة المسلمين المؤمنين متضافرة ، في دفع هذا البلاء ، والشديدة شديدة ، والبلاء بلاء ، فقد اجتمع أبو بكر وعمر وعلى ، والزبير وطلحة ، وعبيدة وعبد الرحمن بن عوف ليصدوا الردة ، ويتحقق قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرقد منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أئمة على المؤمنين ، أعزّه على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » •

الوداع

٧١٨ — عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لخمس بقين من ذي الحجة في السنة العاشرة ، وعاش أكرمه الله تعالى ببقية ذي الحجة ، والمحرم كله ، واعتراه بعد ذلك وجع مرض الموت متجها الى لقاء الرفيق الأعلى في صفر من السنة الحادية عشرة ، روى أن ذلك ابتداء في الليلة الحادية عشرة منه وروى أنه ابتداء لليال بقين منه في آخره ، ثم كانت الوفاة بعد حياته المباركة للبشرية كلها في ربيع الأول ، وروى في أوله في ليال مضت منه • وروى أنه في الثاني عشر منه ، ويرجح ذلك الأكثرون من الرواة ، وكان ذلك في يوم الاثنين من ذلك الشهر الذي كان فيه ميلاده ومبعثه ، وهجرته ، ثم توديعه الدنيا الى لقاء ربه الكريم •

وكانت أمارات الوداع ظاهرة بيّنة ، ونذكر أموراً ثلاثة كانت في أولى مرضه :

أولها : أنه روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبي مويهة مولى

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • قال بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جوف الليل ، وقال ان الله تعالى أمرنى أن استغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلقت •

وفى رواية الامام أحمد عن أبى مويهبة أنه قال : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصلى على أهل البقيع ، فصلى عليهم ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قال يا أبا مويهبة أسرج دابتي ، فركب ومشيت حتى انتهى اليهم فنزل عن دابته ، وأمسكت الدابة ، فوقف فقال : ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، أتت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا ، الآخرة أشد من الأولى ، فليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، ثم رجع فقال يا أبا مويهبة انى خيرت بين مفاتيح ما يفتح على أمتى ، ولقاء ربى ، فاخترت لقاء ربى •

وان هذه الرواية تدل على أن الصلاة على أهل البقيع من موتى الصحابة كانت قبل ذهابه عليه الصلاة والسلام الى قبورهم ، وخطابه اياهم •

وقد روى ابن اسحاق عن ابن مسعود عن عائشة أنها قالت رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من البقيع ، وأنا أجد صداعا فى رأسى وأقول وأرأساه ، فقال : بل أنا والله يا عائشة وأرأساه ، ثم قال : وما ضرك لو مت • قلت ، والله لكأنى بك لو فعلت ذلك • لقد رجعت الى بيتى ، فأعربت فيه الى بعض نسائك •

وفى هذا الخبر نجد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعلن تقديره وتكريمه لصحابته ، وهم أموات كما كانوا أحياء ، وهم أحياء •

الأمر الثانى : الذى يجب التنبيه اليه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بالأنصار خيرا • روى البيهقى بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فى مرض موته وقد اشتد به وعكه خرج فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله تعالى والثناء عليه ذكر أصحاب أحمد فاستغفر لهم ثم قال :

« يا معشر المهاجرين ، انكم أصبحتم تزيدون ، والأنصار على هيتئها لا تزيد ، وانهم عييتى التى آويت اليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئتهم • ثم قال عليه الصلاة والسلام أيها الناس ان عبدا من عباد الله تعالى قد خيرته الله تعالى بين الدنيا ، وبين ما عند الله : فاختار ما عند الله ، ففهمها أبو بكر رضى الله تعالى عنه من بين الناس فبكى ، وقال : « بل نحن نفديك بانفسنا وابنائنا وأموالنا يا رسول الله » •

وان هذه الرواية فيها الوصية بالأنصار ، لأنهم قوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين آووا ونصروا ، وقد نفذت هذه الوصية في عهد الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، أما ما كان من بنى أمية نحو الأنصار فالله أعلم بهم وهو مجازيهم عليه .

الأمر الثالث : ما رواه البخارى عن الفضل بن عباس أنه قال : أتاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يوعك وعكا شديدا وقد عصب رأسه ، فقال خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده حتى قعد على المنبر ثم قال : ناد في الناس ، فناديت الصلاة جامعة فاجتمعوا ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا فقال :

أما بعد أيها الناس قد دنا منى خلوف من بين أظهركم ، ولن أفي هذا المقام فيكم ، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عني حتى أقوم فيكم ، إلا فمن كنت قد جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقدمه ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ومن كنت قد شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقدمه ، ولا يقولن قائل أني أخاف الشحناء من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، إلا وإن الشحناء ليست من شأنى ، ولا من خلقى ، وإن أحبكم الى من أخذ حقا كان له على ، أو حللنى ، فلقيت الله عز وجل ، وليس لأحد على مظلمة ، فقام رجل ، وقال : يا رسول الله لى عندك ثلاثة دراهم فقال عليه الصلاة والسلام ، أما أنا فلا أكذب قائلا ، ولا أستحلفه على يمين ، فيم كانت لك عندي ؟ قال أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتني ، فأعطيته ثلاثة ، قال عليه الصلاة والسلام : « أعطه يا فضل » .

ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا في مقالته الأولى وقال : أيها الناس من عنده من الغلول شيء فليرده ، فقام رجل فقال يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في الله فقال عليه الصلاة والسلام ، فلم غللتها ؟ قال : كنت محتاجا اليها : قال عليه الصلاة والسلام خذها منه يا فضل .

ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا في مقالته الأولى وقال : يا أيها الناس من أحس من نفسه شيئا فليقم أدمو له . فقام اليه رجل ، فقال : « انى لمنافق ، وانى لكذوب ، وانى لشئوم » فقال عمر ابن الخطاب ويحك لقد سترك الله لو سترت على نفسك ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون عند الله من فضوح الآخرة ، اللهم أرزقه صدقا وإيمانا وأذهب عنه الشئوم اذا شاء .

توبيعه لابنته :

٧١٩ — اختبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام وهو بشر بفقد أولاده ، واحدا بعد الآخر ، لقد رزقه تعالى من خديجة أحب أزواجه اليه ستة : نكران وأربع بنات ، فقد القاسم والطيب ، وهو فى قوة شبابه ، وفقد بعد ذلك وهو فى دار الهجرة ثلاث بنات من بناته ، فقد رقية وهو فى غزوة بدر الكبرى ثم فقد زينب ، ثم أم كلثوم .

وأصيب وهو فى كهولته بموت ابراهيم اصغر أولاده ، وكان قره عين ، وقال بعد دفنه متحاملا على أصحابه ناظرا الى اهد ، يا جبل انك لا تحمل ما أحمل . وقال نبي البشر ذلك ، وهو هادىء ، فبكى عليه الصلاة والسلام ، والبكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان .

لم يبق له من أولاده الا فاطمة الزهراء زوج أحب أصحابه اليه ، فتجمع حب من فقدوا جميعا اذ صارت هى الوحيدة ، والمستاثرة بالابوة المحبة العطوف .

وكان لابد أن يخصها بوداع لها بعد ذلك الوداع العام الذى ذكرناه .

وروى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت اجتمع نساء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنده ، لم يغادره منهن امرأة فجاءت فاطمة (رضى الله عنها) تمشى ، لا تخطىء مشيتها مشية أبيها ، فقال عليه الصلاة والسلام مرحبا يا بنتى فأقعدها عن يمينه (أو شماله) اختلاف فى الرواية ، ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقلت لها خصك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسرار ، وأنت تبكين فقلت أخبريني ما سارك ، فقالت ما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما توفى عليه الصلاة والسلام قلت أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتنى . قالت أما الآن فنعم ، فقد سارنى فى الأول ، قال لى ان جبريل كان يعارضنى فى القرآن الكريم كل سنة مرة وقد عارضنى فى هذا العام مرتين ، ولا أرى ذلك الا لاقتراب أجلى ، فأتق الله واصبري فنعم السلف أنا لك ، فبكيت ، ثم سارنى فقال أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة ، فضحكت .

هذا وداع النبي صلى الله عليه وسلم لابنته ، ويروى انه قال لها انها ستكون أول أهله لحاقا به .

هذا وداع الأب البار لابنته الزهراء سيدة نساء هذه الأمة .

انك ميت وانهم ميتون

٧٢٠ — روى البخارى أن عبد الله بن مسعود دخل على النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : انك لتوعدك وعكا شديدا !! فقال له النبی صلى الله تعالى عليه وسلم أجل ، انى أوعدك كما يوعدك الرجلان منكم ، قلت أن لك أجريين !! قال عليه الصلاة والسلام نعم : نعم ، والذي نفسى بيده ، ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، الا حط الله عنه خطايا كما تحط الشجرة ورقها .

وروى عن أبى سعيد الخدرى ، أنه وضع يده على النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم انى لا أستطيع أن أضع يدي عليك لشدة حماك ، فقال النبی صلى الله تعالى عليه وسلم : « انا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر » .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى مرضه : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة شدد عليه » .

أخذ المرض يدب الى جسم نور الوجود محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ضعف ، ومن قرابته من يحسب أن ما فيه من ذات الجنب ، وكان هذا رأى أقرب أهله اليه العباس ، وكان من طبهم لذلك أن يلد المريض فى فمه ، وقد لدوا رسول الحق صلى الله عليه وسلم وهو فى غفوة منه ، فلما صحا أحس بأثره فى فمه ، فأمر بأن يلد من كان فى حضرة واستثنى العباس ، ولعله لمكانته من كبر السن ، وفعل ذلك مع علمه بأن الذى أمر ببلده هو عمه العباس رضى الله تعالى عنه ، وقال عليه الصلاة والسلام فى اللد والتخوف من ذات الجنب : « انها من الشيطان وما كان الله تعالى ليسلطة على » .

اشتد المرض برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولزم فراشه ، فاستأذن نساءه فى أن يمرض فى بيت عائشة ، وقد روى البخارى خبرها فى ذلك ، قالت لما ثقل المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واشتد ، استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى ، فأذن له ، فخرج ، وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض بين العباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر . ولقد سئل ابن عباس عن الرجل الآخر الذى لم تذكر اسمه ولم تكن على جهل به ، قال هل تدري من الآخر الذى لم تسمه عائشة فقال السائل لا — قال ابن عباس هو على بن أبى طالب . لم تذكر اسم على فعفا الله عنها ، ورضى عنها .

نقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى بيت عائشة ، وقد اشتدت الحمى ، فكان يقول : اهريقوا الماء على ، فأراقوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ماء كثيرا ، حتى لقد روت أم المؤمنين عائشة أنه اهريق عليه سبع قرب من الماء ، لم تحل أوكيتهن .

ولقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فيما رواه البخارى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طففت أنفث عليه بالمعوذات التى كان ينفث بها .

صلاة أبى بكر :

٧٢١ — اشتد المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشق عليه أن يؤم الناس للصلاة ، فكان لابد أن ينوب أحدا من المؤمنين الأولين الذين كانوا من أول الناس اسلاما ، وكان خليله وصديقه وصفيه أبو بكر أول الرجال اسلاما هو المختار ، فاختره ليصلى بالمسلمين فلا تتعطل الامامة للصلاة ، ويخشى أن تتعطل الصلاة ، وهى عمود الاسلام ، ولا دين من غير صلاة .

روى الامام احمد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخرج للصلاة ، فصلى بالناس عمر رضى الله تعالى عنه ، وكان ذلك استجابة لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال مروا من يصلى بالناس ، فلم يكن من كبار الصحابة الا عمر وزير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثانى ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه مجلا مجهرا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولين أبو بكر ، فبعث الى أبو بكر وهذا الخبر يدل على أن الامام عمر ما صلى الا فى غيبة أبى بكر ، والاستجابة لأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمرا عاما ، اذ يقول : مروا من يصلى بالناس ، ثم عين من بعد صلاة عمر ، من يؤم الناس وهو أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

روى البخارى عن الأعمش عن عائشة قالت لما مرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرضه الذى مات فيه ، فحضرت الصلاة ، فأذن بلال ، فقال : مروا أبى بكر فليصل بالناس ، فقل له : ان أبى بكر رجل أسيف اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس ، وأعاد عليه الصلاة والسلام أمره فأعادوا كلامهم ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : انكن صواحب يوسف ، مروا أبى بكر فليصل ، فخرج أبو بكر فوجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نفسه خفة ، فخرج يهادى بين رجلين ، كأنى انظر الى رجله تخطان من الرجوع ،

فأراد أبو بكر أن يتأخر فأولم اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن مكانك
ثم أتى حتى جلس الى جانبه ، قيل للأعمش الراوى عن عائشة : فكان النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر يصلى بصلاته ، والناس يصلون بصلاة
أبى بكر ، فأولم برأسه • نعم •

وقد استمر أبو بكر طول مدة مرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
يصلى بالناس ، حتى توفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانتهى الى
الرفيق الأعلى ، تاركاً وراءه ذلك الميراث الانسانى الخالد ، وهو شريعة الله
تعالى التى بلغها ، وعلم الناس بها ما بين مشرق ومغرب فى الجزيرة العربية ،
ثم ترامى أمرها الى ما وراءها •

وقد انقطع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مرضه ثلاثة أيام لم
يخرج الى الناس فيها ، وكان يصلى بهم أبو بكر كما ذكرنا ، وقد كانت آخر
صلاة صلى مع الناس صلاة الظهر ، قبل الثلاث •

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه ، وكان ملازماً
للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن أباً بكر كان يصلى بهم فى وجع النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم الذى توفى فيه ، حتى اذا كان يوم الاثنين وهم
صفوف فى الصلاة ، فكشف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ستر الحجرة
ينظر اليها ، وتبسم يضحك ، فهممنا أن نفقتن من الفرح برؤيا النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم ونكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف ، وظن أن النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم خارج للصلاة ، فأشار اليها أن اتموا صلاتكم ،
وأرخى الستر ، وتوفى من يومه •

★ ★ ★

هكذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قائماً على تبليغ رسالة
ربه ، حتى آخر جزء من حياته ، فهو اذ يحتضر ينظر الى مقدار استجابة
الناس لدعوته الى ربه ، حتى اذا اطمأن تبسم ضاحكاً ، ثم أسلم نفسه لله
تعالى ، الذى قبضه اليه ، ففاضت روحه الطاهرة ، وانتقل الى الرفيق الرحيم ،
انتقل الى الملا الأعلى •

لكل اجل كتاب :

٧٢٢ — استبشر المسلمون خيراً عندما أراح عليه الصلاة والسلام
الستر لينظر اليهم وهم يصلون وقد تبسم ضاحكاً ، فظنوا البرء والسلامة ،

وقد فرحوا ، حتى كادوا يخرجون من الصلاة فرحاً ، ولم يظنوا أنها الوداع الأخير • ورؤية البلاغ الكامل الذى اعتقد أنه قد أتم تبليغ الرسالة •

كان ذلك فى يوم الاثنين اذ كانت هذه الرؤية المودعة ، لأجل المكتوب ، وكان أبو بكر الصديق الأمين قد اطمأن بهذه النظرة ، فذهب الى السنح حيث يقيم ، ولكن ما لبث الا قليلا ، حتى نعى الناعى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فجاء لتكتحل عيناه برؤية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان ملء السماء والأرض وكان مسجى فى فراشه ، ولنترك الخبر الأليم كما وصفته أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنترك لها البيان :

بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على منكبي ، اذ مال رأسه نحو رأسى فظننت أنه يريد من رأسى حاجة فخرجت من فيه نقطة باردة ، فوقعت فاقشعر لها جلدى فظننت أنه غشى عليه ، فسجيت ثوباً فجاء عمر ، والمغيرة ابن شعبة فاستأذنا فاذنت لهما ، وجذبت الى الحجاب • فقال عمر وأعشياه ما أشد غشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قاما ، فلما دنوا من الباب قال المغيرة لقد مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عمر : كذبت ، بل أنت رجل تحوطك فتنة ، ان رسول الله لا يموت حتى يفنى المنافقين • فكان عمر رضى الله عنه كبر عليه أن يموت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما يموت الناس ، وقد دفعه الى ذلك فرط محبته ، وجاء أبو بكر الصديق ، فنظر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال انا لله وانا اليه راجعون • مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتاه وقبل رأسه وقبل جبينه ، وقال واصفياه ، ثم قبل جبهته ، وقال • واخليلاه ، مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

خرج عمر رضى الله عنه الى المسجد يخطب فى الناس ، ويقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يموت حتى يفنى المنافقين • عندئذ تقدم أبو بكر ثم قال : « انك ميت ، وانهم ميتون » ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » • وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » فمن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، ومن كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات •

وروى أن ابا بكر عندما قبل جبهة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فذاك أبى وأمى ما أطيبك حيا وميتا •

وروى أن عمر رضى الله عنه توعد بالقطع أو القتل من يقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات .

وروى أن خطبة أبى بكر كانت أطول مما ذكرنا ، ويروى أنه رضى الله عنه ، حنى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقبله وبكى ، وكل هذه الأخبار ثقات ، يجمع بينها ، ولا تنافر فيها ، فكل حفظ ما سمع ، وشهد بما رأى ، والناس جميعا كانوا فى فزع وجزع .

وخطبة أبى بكر التى هى أطول مما ذكرنا ابتداء ، قال فيها :

ليس ما يقوله ابن الخطاب شيئا ، توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال باكيا ، والذى نفسى بيده ، رحمة الله عليك يا رسول الله ، ما أطيبك حيا وميتا ثم غشاه بالثوب ، ثم ذهب الى المسجد سريعا ، وقال : ان الله عز وجل نعى نبيه الى نفسه ، وهو حى بين أظهركم ، ونعاكم الى أنفسكم ، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد الا الله عز وجل قال تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » وقال تعالى لحمد « انك ميت ، وانهم ميئون » وقال تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وقال تعالى : « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة » .

ان الله عمر محمدا وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد فى سبيل الله ، ثم توفاه الله على ذلك ، وقد ترككم على الطريقة ، فلن يهلك هالك الا من بعد البينة والشفاء ، فمن كان يعبد الله ربه ، فان الله حى لا يموت فاتقوا الله أيها الناس ، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا على ربكم ، فان دين الله تعالى قائم ، وان كلمة الله تامة ، وان الله ناصر من ينصره ، ومعز دينه ، وان كتاب الله تعالى بين أظهرنا ، وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله تعالى محمدا ، وفيه حلال الله تعالى وحرامه ، والله لا يبالي من أجلب علينا ، من خلق الله ، ان سيوف الله تعالى لمسلولة ما وضعناها بعد ، ولنجاهدن من خالفنا ، كما جاهدنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يبين أحد الا على نفسه .

هاتان خطبتان للصديق رضى الله تعالى عنه ، فى يوم الفزعة العجبر ، ولعله كان يكرر قوله كلما رأى هلمنا ، وجزعا ، ليرد اليها شاردا لبها ، وقد طاشت أحلام ، وهلعت قلوب ، فكان يكرر التثبيت .

غسل الجثمان الطاهر ودفنه :

٧٢٣ — اتجه المؤمنون الى اقامة خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ان يغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويوارى جثمانه الطاهر ، فقد اجتمع الأنصار ، وعلى رأسهم سعد بن عبادة ليفكروا فى هذا ، فأسرع اليهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما خشية أن يتفرق أمر المؤمنين ، فى سقيفة بنى ساعدة ، وأنهم أمر الخلاف باختيار أبى بكر رضى الله تعالى عنه خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يحضر الاجتماع أحد من بنى هاشم أو اقرباء النبی صلى الله عليه وسلم الأذنون ، العباس وعلى وغيرهما من بنى هاشم ، ولعل ذلك كان لانشغالهم بأمر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد انتقل النبی صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ضحى يوم الاثنين ، فمكث بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء ، حتى اذا تمهدت الأمور وتمت كما ذكر الحافظ بن كثير شرعوا فى تجهيز النبی صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول ابن اسحاق : لما بويح أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد كانت وفاته يوم الاثنين ، وغسله ودفنه ليلة الأربعاء .

اجتمع الناس لغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليس فى البيت الا أهله ، وعمه العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل ابن عباس ، وقتب بن العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ودخل من بعد أوس بن خولى الأنصارى البدرى الخزرجى نادى عليا ، فقال : يا على ننشدك الله ، وحظنا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له على ادخل فحضر الغسل .

وغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه قميصه ، وتولى الغسل على كرم الله وجهه فأسنده الى صدره ، وعليه قميصه ، وكان العباس وفضل وقتب يقلبونه مع على ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاه يصبان الماء ، وجعل على يغسله ، ولم ير منه شيئا ، وهو يقول بأبى وأمى ما أطيبك حيا وميتا ، وكانوا يغسلونه صلى الله تعالى عليه وسلم بالماء ، والسدر ، جففوه ، ثم صنع به مما اختلط بالماء .

وقد كفنوه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ثلاثة اثواب اثنان أبيضان وثالث حبرة .

ودفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيت عائشة حيث مات ،
لخير نسب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأنبياء يدفنون حيث
يموتون •

وقد تولى دفنه عليه الصلاة والسلام أربعة من أهله ومواليه العباس
وعلى ، والفضل بن عباس ، وصالح مولاة لحدوا له لحدا ، ونصبوا اللبنة
نصباً •

هكذا انتهت الحياة الدنيوية لأكرم خلق الله على الله ، وأكرم إنسان
للإنسانية ، عاش حياته مجاهدا منذ خلقه الله تعالى الى أن قبضه سبحانه
وتعالى إليه ، جاهد الرذيلة غلاما ، فكان الفاضل فى صباه ، وكان الأمين
فى شبابه لم تكن الحياة أمامه رخاء سهلا ، بل ذاق اليم ، وإن لم يقهر ، كما
يقهر اليتامى ، وذاق طعم الفقر ، وإن لم يترب نفسه ، حتى إذا كلف أداء
الرسالة حمل عبثها ، وذاق مرارة الأذى فى سبيلها ، وهو صابر مصابر ، حتى
إذا هاجر حمل السيف مجاهدا ، كما حمل القرآن الكريم هاديا معلما ، يعلى
الإنسانية ويكرمها ، ويسامح ويواد ، حتى كان الإنسان الكامل فى هذا الوجود ؛
وإذا كان قد دفن جسده فلن تدفن شريعته •

تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٢٤ — لم يترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مالا • ولم يكن لديه فى آخر حياته عند وعكة الموت الا ذهبية تصدق بها فى آخر حياته ، فلم يكن مالكا لمال ، ولكن اذا كان مال كان لما يقدمه للبر ، فكان يعيش على خبز الشعير ، ويمر المال بيده ، مرور الماء ، ويسيل الى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل واليتامى فلا يبقى فى يده شئ ، واذا بقى لا يكون ميراثا لأهله ، وهو يقرر فى شريعته « نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة » ، فكان كل ما يتركه صدقة لا يملكه ولد ولا عم ، بل فى مصرف الخير والبر ، فما كان الأنبياء ليختزنوا مالا ، ولا يورثوا تراثا ، ولكن يورثون علما ، وشرعا ، وبلاغا للناس ، فذلك ميراثهم ، وهو خير تركة زاخرة ، وهى العلم الكامل •

ولقد كان ثمة خلاف فى أرض « فذك » ذكرناه فى موضعه ، ولم تكن فذك كما يصور التاريخ ملكا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان على حكم ملك اليتامى والمساكين والفقراء ، وأبناء السبيل ، يصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يفيء اليه من غلاتها فى مصارفها ، وكان لأهل البيت وذوى القربى حظ مقسوم ، ولما جرى الخلاف بين سيدة نساء المؤمنين فاطمة الطاهرة بنت أظهر من أقلتة الأرض ، وأظلتة السماء ، لم يكن خلافا على الملكية ، كما توهم عبارات المؤرخين ، بل كان خلافا على ادارتها ، وصرفها فى مصارفها ، اذ كان فيها نفقات لأمهات المؤمنين ، فيتولى ذوى القربى ما كان يتولاه هو عليه الصلاة والسلام ، فعارض فى ذلك الصديق رضى الله عنه •

ثم كان من بعده أن وافق عمر رضى الله تعالى عليه ، على أن تكون الادارة بين العباس وعلى ، على ما ذكرنا من قبل • وإن الميراث العظيم الذى تركه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شريعته ، وهى محفوظة بحفظ القرآن الكريم اذ يقول سبحانه : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » •

زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٢٥ — يحلو لبعض الكتاب غير المسلمين أن يقولوا ، ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان رجلا شهوانيا ، بدليل أنه تزوج نحو ثلاث عشرة ، وتوفى عن تسع وقد أسرفوا على أنفسهم في القول ، وعلى الحقيقة فطمسوها في زعمهم ، ولكن الحق أبلج ، نير يكشف دائما ما يكون من غمة يحاول أصحابها أن يعموا الحق ويدلسوا على أهله .

لقد زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم شهواني ، لزوجه ، ونحن نتخذ من زواجه دليلا على أنه لم يكن شهوانيا ، بل كان أقرب الى أن يكون سلبيا ، لا تغلبه شهوة ، ولا يسيطر عليه هوى في أى ناحية من النواحي .

لقد تزوج أم المؤمنين خديجة وهو شاب مكتمل قوى في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هي في الأربعين من عمرها ، وعاش معها نحو ست وعشرين سنة ، أى تجاوزت نحو السادسة والستين ، وأنجب منها ستة أولاد ، ولم يفكر في أن يتزوج عليها ، وكان معروفا بالعفة ، والشهوات تنقز في نفس أمثاله ممن هم في مثل سنه ، وهو بالنسبة لهم العفيف النزيه الذى لا يزن بريئة قط ، ونساء قريش يتمنين أن يكون ضجيعا لهن ، ولكنه كان في عزوف عن كل شهوة ، ونظرة الى النساء .

حتى اذا توفيت أم المؤمنين خديجة وقد تكاثرت مشاغله ، فكان مشغولا بالدعوة الى التوحيد ومكابدة الأذى الذى تفاقم بعد وفاة خديجة وأبى طالب .

ولقد كان التعدد من بعد ذلك ، ولقاصد ليست هي الشهوة ، كما أن الشهوة ليست بعض هذه العناصر ، والدلائل تدل على أنها كانت بعيدة كل البعد .

وانا نذكر أن هذا التعدد كان أما لأن امرأة بعض الصحابة الذين جاهدوا معه قد قتل وهو يهاجر ، وكانت امرأته أهلها في الشرك ، فاما تعود اليهم فتعرض للعذاب والردة ولا أحد معها في دار الهجرة من قومها ، فيتحمل هو عبء الزواج منها حفاظا لها ورعاية ، ولا ينظر في ذلك الى أنها يرغب في الزواج منها ، أو ليس فيها ما يرغب الا رعايتها وحمايتها ، اما هذا ، واما ليربط بها مع معين له في التبليغ ، فيرتبط معه برباط المصاهرة

مع رباط الايمان • واما لانقاذ امرأة من الرق ، من غير نظر الى كونها جميلة أو غير ذلك •

واما لبيان احكام شرعية ، فيطبقها عملا ، ليكون أسوة للناس في محاربة أمر جاهلي قد اعتادوه ، وان لم يقره الاسلام ، فيفعله النبي صلى الله عليه وسلم لكيلا يكون حرج على الناس في أن يفعلوه • واما ليرتبط بالقبائل العربية ، ليتخذ منها دعاء للاسلام • واما لازلة النفرة ، وجلب المودة •

هذه بعض مقاصد التعدد وكلها أو جلها لحماية المرأة من الضياع ، فقد حمل نفسه عليه الصلاة والسلام بأمر ربه عيب ذلك ، فكان الزواج تكليفا ، لا للرغبة بله الشهوة •

وهذا اجمال ، ولنذكر تفصيله في زواج كل امرأة من أمهات المؤمنين بعينها •

لقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن يعقد زواجه ممن كتب عليه أن يتزوجها ، لا يدخل بها الا بعد أن يتأكد رضاها بهذا الزواج ، وانها راغبة فيه راضية ، فيطلب اليها أن تهب نفسها له •

٧٣٦ — وعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث عشرة ، وكانت له جاريستان مارية القبطية وريحانة بنت زينب ، وقد أعتق ريحانة فأسلمت ، ولحقت بأهل لها ، وبقيت مارية ، وروى أنه أعتقها وتزوجها ، وبقيت عنده ، حتى توفي صلى الله عليه وسلم •

وأول أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم أم المؤمنين خديجة ، وقد ذكرنا خبر هذا الزواج في موضعه من حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بقى معها نحو ست وعشرين سنة كما أشرنا ، وكان له منها أولاده الستة ، القاسم والطيب ، وقد ماتا قبل الهجرة ، أو قبل البعثة ، ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة ، وماتا قبله ، ولم يمت بعده الا فاطمة ، وقد ماتت رضى الله عنها بعد وفاته بستة أشهر ، وبأولادها حفظت العترة المحمدية في ولديها الحسن والحسين وهما سيذا شباب أهل الجنة ، كما ورد بذلك الأثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • ولم يتزوج في حياتها غيرها ، كما ذكرنا •

وتزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بعدها قبل الهجرة سودة بنت زمعة ، وكانت في نحو سن خديجة أى في نحو ست وستين من عمرها ، ولم تكن في جمال خديجة •

وكانت قد اسلمت مع زوجها ، وهاجرا الى الحبشة فرارا من اذى الجاهليين من قريش ، ومات بعد أن عادا ، وكان أهلها لا يزالون على الشرك ، فاذا عادت اليهم ففتنوها في دينها ، فتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حماية لدينها من الفتنة •

وتزوج من بعدها أم المؤمنين عائشة بنت صاحبها الصديق ، وكانت في نحو التاسعة من عمرها فما كانت لتشتبه لأنها كانت ضاوية ، حتى يقال انه تزوجها للشهوة ، ولم يدخل بها الا بعد الهجرة ، وما كان الزواج اذن لشهوة يبتغيها ، ولكن لصحبة بالصديق يوثقها ، بالمصاهرة ، وهي تشبه النسب ، وقد كان احد وزيري •

ويروى انه تزوجها قبل سودة ، ولكن الرواية الراجحة ما ذكرنا ، ولعل التقارب في الزمن بين الزوجين لم يعين السابق منهما تعيينا دقيقا في الروايات •

٣ - وبعد الهجرة تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت زوجا لخنيس بن حذافة مات عنها مؤمنا •

وكان الزواج لتوثيق الصحبة بأبيها رضى الله عنه ، فقد كان الوزير الثانى للنبي صلى الله عليه وسلم • وما أحاط بزواجه يدل على أن مودته عليه الصلاة والسلام هي التي دفعت الى هذا الزواج ، ذلك أن عثمان رضى الله تعالى عليه لما ماتت زوجته رقية وغزوة بدر قائمة ، رغب عمر رضى الله عنه في أن يزوج ابنته حفصة من عثمان رضى الله تعالى عنه ، فعرض عليه ، فسكت عثمان ، فشكا عمر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سيتزوجها من هو خير من عثمان ، وسيتزوج عثمان من هي خير من حفصة ، فتزوج النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ، وتزوج عثمان أم كلثوم بنت النبي صلى الله عليه وسلم •

وترى من هذا أن زواجه عليه الصلاة والسلام منها كان ربطا للمودة ، وارضاء للقلوب •

٤ - وتزوج عليه الصلاة والسلام والحرب قائمة بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين بقيادة كبيرهم أبى سفيان ، تزوج أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان هذا •

كانت قد سافرت مع زوجها عبد الله بن جحش الى الحبشة ، ولكنه تنصر ، وخرج عن الاسلام فكانت بين أن ترجع لأبيها زعيم الشرك ففتنت في دينها ، وبين أن تعود الى المدينة المنورة لا مأوى لها ، فاواها النبي صلى الله

عليه وسلم بزواجه منها ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى أرض الحبشة فخطبها عليه الصلاة والسلام ، فزوجها منه عثمان ابن أبي العاص ، ودفع النجاشي صداقها • وهو أربعمئة دينار • وبعث بها الى النبي صلى الله عليه وسلم •

• وبهذا الزواج اصاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هدفين : احدهما انه وقاها من الشرك وأن تفتن في دينها ، وأصهر من أبي سفيان الذي سر منه ، ورحب به ، وروى أنه قال نعم الفحل محمد •

٥ - وتزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت خزيمة ، وهى من بنى عيد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، ويقال لها أم المساكين ، وقد قتل زوجها يوم أحد ، وكان ذلك ايواء لها ، وتشجيعا لها على اعانة المساكين ، ولكنها لم تليث الا قليلا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم توفيت في حياته عليه الصلاة والسلام •

٦ - وتزوج النبي عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ، وكانت زوجا لزيد بن حارثة ، وقد تزوجته على أنه ابن محمد صلى الله عليه وسلم ان اطلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الاسم ، لما رفض أن يعود مع أهله ، ورضى أن يبقى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : « وما جعل ادعياءكم ابناؤكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آبائهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » تعلمت ببقائها مع زيد ، ان تبين أنه ليس بقرشى ، وقد تلمل زيد من كبرياتها واستأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في طلاقها ، فقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك ، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها بعد أن يطلقها زيد ، ولكنه أخفى ذلك ، وخشى مقالة الناس أن يقولوا تزوج محمد زوجة ابنه •

ولكن الله تعالى أمره بقوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » وان الله تعالى أمره بذلك لكى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الزواج لكى تزول تلك العادة المستحكمة فيهم وهى عادة التبنى التى سرت اليهم من الرومان ، وليست من طبائع القرابة ، بل هى كذب ، واقتراء وفساد للأسرة ، ان يدخل فيها ما ليس منها ؛

٧٢٧ — واقرأ الآيات التي اشتملت على ذلك .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ، وإن تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم ، إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا ، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » .

هذا أمر زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة كما ساقها القرآن الكريم ، وهي تدل :

أولا : على أنه في الجاهلية كان يعتبر الدعى — أى المتبنى — ابنا والذى الله تعالى حكم هذه العادة ، وقد تلونا من قبل في أول سورة الأحزاب ما يدل على ذلك .

ثانيا : على أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يؤكد إبطال ذلك الحكم الجاهلي الذي يدخل في الأسرة بحكم النسب من ليس منها ، فلا تتعاطف بحكم الفطرة ، وتفسد الأسر ، واقتضت حكمته أن يكون تأكيد الإبطال بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتزوج زوجة دعيه ، وقد فسدت العلاقات بينهما بتمسك القرشية من أن تكون تحت غير قرشى هو عتيق وليس ابنه ، فاستكبرت ، وتعلم زيد من كبريائها فأراد تطليقها ، فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن الله كتب أن يطلقها ، وكتب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها ، ولكنه يخفى في نفسه ما لا يبديه من أن الله تعالى كتب الطلاق من زيد ، وللزواج منه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه يخشى أن يجابه العرب ، بمخالفة ما ألفوا .

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتزوجها بعد الطلاق لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهم وطرا .

ودلت الآيات ثالثا : على أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن أبا لأحد من رجال العرب ، أن انتفت أبوة الأدياء ، هذا ما تدل عليه الآيات الكريمات بظاهرها ، ومقصدها ومرماها .

ولكن الذين يفسدون المعانى ، ويريدون الكيد للإسلام اخترعوا هذا اختراعا فى العهد الأموى ، اخترعها يوحنا الدمشقى ونشرها بين المسلمين ليقلوها أتباعه ، ويفشروها بين بعض التابعين ، وقد توهم صدقها بعض الذين تبهرهم الروايات من غير تمحيص ، ومع الأسف كان من بين هؤلاء أبو جعفر ابن جرير فنقلها مصدقا لها ، ونقلها أكثر المفسرين عنه ، حتى بين كذبها وافتراءها ابن كثير فى كتابه تفسير القرآن العظيم ، رضى الله تعالى عنه ، وعفا الله عن الطبرى فى أن نشر ذلك الضلال وإن نقل الكذب لا يحوله الى صدق ، ولو كان الطبرى ناقله .

ومن الغريب أن حملوا الآية الفرية التى افتروها ، وكان المتعصبون من غير المسلمين هم الذين ادعوا ، لقد ادعوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رآها تغتسل ، فوقع فى قلبه حبها ، فأراد من زيد أن يطلقها ليتزوجها ، وادعوا أن ذلك هو ما أخفاه ، وخشى من الناس ، وأن الله أبداه ، وأن ذلك لا يمكن أن ينطبق بحال من الأحوال على معانى الآية وظواهرها ، الا أن يكون ذلك اختراعا اخترعوه ، ويدل على مناهضة الآية لهذه المعانى الفاسدة ما يأتى :

أولا : أن الزواج منها لم يكن كما تدل الآية برغبة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تكون الشهوة هى المحركة ، بل أن الزواج كان بأمر الله تعالى وذلك بنص الآية بقوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

ولأن الله تعالى نسب التزويج الى ذاته العلية ، بأن الله تعالى هو الذى قال « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » وذكر سبحانه وتعالى السبب فى هذا الزواج الذى فرضه الله تعالى وتولى تعالى عقده ليس الشهوة ، وإنما هو الا يكون على المؤمنين حرج فى أن يتزوجوا أزواج الذين يتبنونهم وليس شهوة ، ولا ما يشبهها .

والخشية التى خشىها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى مجابهة ما عليه الجاهلية ، فعاتبه سبحانه وتعالى على هذه الخشية بأن الله تعالى أحق بأن يخشاه فيطيع أوامره .

وثانيا : أن الله تعالى قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فيقولون هو العشق الذى أخفاه ، والآية تناقض ذلك ، لأن الله تعالى ما أبدى عشقا ، ولكن أبدى الأمر بالزواج ، فكان هو الذى أخفاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على زيد ، وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله .

وثالثا : أن الآية الكريمة تدل بنصها ومعناها على أن موضوعها منع أن يكون المتبنى ابنا ، ولذلك أمر الله تعالى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوج امرأة دعيه ، ليكون ذلك بيانا للشرع عمليا ، كما بينه النص القرآني ، قولاً مفروضا بالمنع المؤكد .

ولذلك أكد سبحانه وتعالى النفي بقوله تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله » هذا هو المعنى الجلى من غير تلبيس كذاب ، ولا اتباع متوهم .

وكنا نود أن يدرك المفسرون ، واللذين يتكلمون فى معانى القرآن الكريم ، وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة هذه الفرية ، ومصدرها ، الذى أراد افشاءها كيذا للمسلمين بعد أن بين ابن كثير الحافظ للسنة ، كذب هذه الرواية ، ورد كلام ابن جرير ردا قويا .

وكنا نود أن يتعرف الذين يكتبون الآن فى السيرة ذلك ، وكنا نحسب أن لهم ذوقا بانيا ، وعمقا فى دلالات الألفاظ ومراميها ، كنا نود منهم أن يمحسوا القول ويدركوه ، ولكن غلبت النزعة الروائية التى نسمع أمثالها منسوباً اليهم ، فكتبوا فيما تصدوا له من كلام فى السيرة عنوانا يقول : النبى العاشق ، وقد كتبوا تحت العنوان تلك الفرية المفتراة على أنها وقائع وقعت ، وكأنها قصة من الروايات التى كتبوها .

وتبعهم من يقلدونهم من غير أن يفرقوا بين حق وباطل ، ولا أقول عفا الله عنهم ، لأن أقوالهم لا تزال تردد منسوبة اليهم ، ولهم فى المجتمع الأدبى مكانة ، جزاهم الله تعالى بمقدارها .

زواجه عليه الصلاة والسلام ببقية نسائه :

٧٢٨ — ١ — وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية بن المغيرة ، وهى مخزومية ، وقد مات عنها زوجها ، أبو سلمة ، وهو عبد الله بن عبد الأسد .

وعند موت زوجها ، وقد توفى عنها وهى شابة طلب إليها أن تتزوج من بعده ، ودعا لها مخلصا أن يتزوجها من هو خير منه ، وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنها ذات عيال ، ويحتاجون الى من يرعاهم ، وكانت هى وزوجها مهاجرة ، فانقطعت عن ذويها ، ولابد لها هى وأولادها من يحوطهم ويرعاهم ، فكان عليه الصلاة والسلام ، وتزوجها لرعايتها ورعاية أولادها .

٢ - وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جويرية بنت الحارث ، ويقول ابن هشام فى زواجها : « لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ، ومعه جويرية بنت الحارث - دفع بجويرية الى رجل من الأنصار وديعة عنده - وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التى جاء بها للفداء ، فرغب فى بيعين منها ، فغيبهما فى شعب من العقيق ، ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد : أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين البعيرين اللذين غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا ؟ فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنت رسول الله صلى الله تعالى عليك وسلم ، فوالله ما اطلع على ذلك أحد فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له ، » .

وان الغزاة كانوا قد أسروا من قومها نحو مائة ، فلما تزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، وكانت قد أسلمت أطلق كل من كان فى يده أحد من الأسرى أسراه ، وقال : كيف نسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعتق بزواجه عليه الصلاة والسلام أهل مائة من بيوت بنى المصطلق ، وتقول أم المؤمنين عائشة فى ذلك : « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية ، لقد عتق بها مائة بيت من بيوت قومها » .

ونرى من هذا أن زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان بقصد سام ، وهو أن يعتق هؤلاء الناس ولا يسجل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انشاء الرق ، فيكون ممنوعا الى الأبد ، ولو كان الأعداء يسترقون منا ، ومن غير أن يتركهم يسترقون ، فيكون مباحا الى الأبد .

فما كان الزواج للشهوة ، بل كان للعتق .

٣ - وتزوج صلى الله تعالى عليه وسلم صفية بنت حى بن أخطب ، وقد سيقنت مع أختها ، وأمرهما بلال على قتلى خبير ، والذين أسروا فيمن أسر منهم ، فلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا ، وقال له : اليس فى قلبك رحمة ، أتمر بالفتاتين على قتلى قومهما ، وعرض الفتاتين ليتزوجهما بعض الصحابة فتزوجت أختها ، وبقيت هى فتزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطيب نفسها ، وليرقأ جرحها .

٤ - وتزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ابن حزن الهلالية وقد اختارها زوجها له العباس بن عبد المطلب ، لتوثيق ما بينه

عليه الصلاة والسلام ، وبين القبائل العربية ، وقد أصدقها العباس رضى الله عنه من ماله أربعمئة درهم ، ويروى أنها هى التى وهبت نفسها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أنها لما علمت خطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قالت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : البعير وما عليه الله ولرسوله ، وكانت على بعير عندما انتهت اليها الخطبة ، وقد قال الله تعالى : « وامرأة مؤمنة ، ان وهبت نفسها للنبي ... » .

٧٢٩ — هؤلاء عددهن عشر ، وهن يعد خديجة ، ويضمنهن اليها يكون العدد احدى عشرة وكلهن دخل بهن ، ولذلك يعدون امهات المؤمنين ، ولا يتزوجن احدا من بعده ، ولذلك قال تعالى « وأزواجه امهاتهم » وقال فى منع زواجهن من بعده : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تتكحوا أزواجه من بعده أبدا » .

ويقول الرواة ان عدد أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث عشرة ، فهن امهات المؤمنين ومات عن تسع ، اذ ماتت فى حياته خديجة ، وزينب أم الساكنين .

وتزوج باثنتين لم يدخل بهما ، وهما — أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها ، فوجد بها بياضا فى ابطنها ، فسرحها بمعروف ومتعها ، بعد أن طلقها ، وقد كانت كندية ، وقبائل كندة كانت بعيدة عن المدينة المنورة ، وقد أسلمت ، فكان لابد أن يربط النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برياط بينها وبينه ليؤنسها بهذه المصاهرة فى هذا البعد المترامى .

والثانية : امرأة من سلالة النعمان اسمها أميمة بنت النعمان بن شرحبيل وقد أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها ، لأنها من أطراف الجزيرة العربية فى الجنوب ، وعليه الصلاة والسلام يريد أن يقرب البعيد ، ويزيل الوحشة ، وقد كانت المصاهرة رباطا وثيقا بين كبراء القبائل تنهى حربا أو تدفع قتالا ، وما كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غضاضة فى أن يوثق ما بينه وبين القبائل بهذه المصاهرة .

ويروى فى زواجه منها أنه عليه الصلاة والسلام عندما دخل بها ، وكان عليه الصلاة والسلام اذا تزوج امرأة طلب منها أن تهب نفسه له عليه الصلاة والسلام ، استيثاقا من رضاها به زوجها ، فقد كان يعقد أولياء المرأة ، وخشية ألا يكون ذلك برضا حرفيه اختيار كامل ، فلما اختلى بها قال لها هبى نفسك لى ، اعترتها نكرة جاهلية فقالت وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ، ثم قالت أعوذ بالله ، فقال عليه الصلاة والسلام لقد عدت بمعاذ عظيم ، فطلقها ، وسرحها سراحا جميلا .

العبرة

٧٣ — هذه زيجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت عدتهن ثلاث عشرة من الأزواج ماتت اثنتان فى حياته الكريمة الطاهرة ، وهما أم المؤمنين خديجة أفضلهن ، وأكثرهن عطا ، وقد سمي عام موتها مع عمه الحانى الكريم عام الحزن ، والثانية زينب أم المساكين رضى الله عنها •

واثنتان لم يدخل بهما ، وطلقهما قبل الدخول لعيب جثمانى فى احدهما ولنفرة من الثانية بدت فى قولها ، وقد عاشت الى ستين عاما بعد الهجرة ، وكانت تسمى نفسها الشقية لحرمانها من جوار اكرم من فى الوجود من خلق الله سبحانه وتعالى •

وقد كان يعتزل بعضهن أحيانا ، ويرجىء الاتصال بهن أحيانا ، وعلى أى حال فقد انتهى الحل له صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العدد اذ تحققت فيه كل المقاصد الاجتماعية التى تتعلق بالدعوة ، وقال تعالى فى ذلك :

« ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت ، فلا جناح عليك ، ذلك اذنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ، ويرضين بما آتينهن كلهن ، والله يعلم ما فى قلوبكم ، وكان الله عليما حكيما ، لا يحل لك النساء من بعد ، ولا تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيبا » •

وان هذا النص الكريم يدل على أمرين جليلين :

اولهما : منع الحل بعد هذا العدد ، اذا ستوفى التعدد بالنسبة لتعدد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مقصده ، وان هذا العدد خاص بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال تعالى من قبل فى تحليل هذا القدر من العدد : « خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم ، وما ملكت أيماهم » •

ثانيهما : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يتصل بنسائه جميعا كل ليلة — كما توهم عبارات بعض المحدثين — مما أخذ منه أعداء الاسلام ادعاء أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان شهوانيا ، واستندوا الى اقوال هؤلاء والى تهافت بعضهم فى القول حتى انه ليقول كان عند النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم قوة أربعين رجلا ، فالآية ترد كل هذا ، فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرجىء من يشاء منهن ، ويؤوى اليه من يشاء ، ويعتزل بعضهن ، ويبتغي من يعتزل من بعد ذلك ، مما ينافى ما ادعاه بعض المحدثين من أنه عليه الصلاة والسلام كان يمر عليهن ويتصل بهن واحدة ، واحدة كل ليلة ، مما فتح الباب للمغرضين والكذابين من أعداء الاسلام والمنحرفين ممن تسموا بأسماء المسلمين .

بقى أن نتكلم فى بعض أسباب هذا التعدد .

قد اشرنا من قبل الى أن تعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان لايواء الضعيفات من أزواج المهاجرين اللاتى لا مأوى لهن فى هذه الغربة التى انقطعن فيها عن أهليهن ، ولربط الصلات بينه وبين كبار أصحابه ، وللمنع تحكم الوثنيين فيمن تربطهم بهن رابطة نسب من نساء المهاجرين الذين يقتلون أو يموتون أو يرتدون ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك فى قوله تعالى : « يا ايها النبي انا احللت لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك ، وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك التى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ، ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيماهم » .

ويستفاد من هذا النص أن زواج المهاجرات كان للرحم التى تربطه بهن من عمومة أو خثولة ، وان ذلك يشمل قرابته لقريش ، فلا يضيعهن عند موت أزواجهن شهداء ، بل لابد أن يتولى هو ايواءهن فى ظله الظليل .

وقد رأيت أن بعضهن تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه تبينا للشرع وتنفيذا لأحكامه ، وقد تعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه لمجابهة العرب فيما كانوا يالفون ، ويرونه أمرا طبيعيا لا يخالف ، وقد تأثر به بعض المؤمنين ، حتى ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد حدث منه ذلك قبل الحكم بالمنع ، فبين الله تعالى أنه ضد الحقيقة ، وأن البنوة تكون من الصلب ، لا من الادعاء ، وأشار سبحانه وتعالى الى أنه ادخال فى النسب ما ليس منه ، اذ قال سبحانه : « ادعوهم لبائهم هو اقسط عند الله ، فان تعلموا آباءهم فآخوانكم فى الدين ومواليكم » .

٧٣١ — وهناك أمران آخران فى حكمة تعدد الزوجات للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير ما سبق ذكره أو أشير اليه ، من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتزوج لتوثيق المعاونة بمن يحب من أصحابه ، وأعانة

الضعيفات من النساء ، حتى انه كان يتحمل عبء من ليس له ولى من قريب
أو ذى حسب ، ولكيلا ترتد بعد ايمان ، والارتباط بالمصاهرة بين من تنأى
ديارهم ، وقد يلحون فى العداوة وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم .

نقول هناك أمران غير هذا الذى ذكرناه أو أشرنا اليه .

أحدهما : أن يتولى نساء النبی صلى الله تعالى عليه وسلم النساء أمور
دينهن ، فما كان النساء بعد النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فى عهد الصحابة
والتابعين يغشين مجالس العلم يتعلمن أمور الدين ، بل كن يذهبن الى النبی
صلى الله تعالى عليه وسلم يسألنه فى حياته ، ومن بعده كن يسألن أزواجه
أمهات المؤمنين ، كعائشة وأم سلمة وغيرهما ممن عمرن بعد الرسول صلى
الله تعالى عليه وسلم ، ولعله من فضول القول أن نقول أن كثيرا من الأحكام
الخاصة بالمرأة رويت عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها
الصدیق .

وإن حفصة أم المؤمنين كانت الأمانة على المصحف الذى انتهت كتابته
فى عصر أبيها الامام الفاروق رضى الله تعالى عنه ، وجزاه عن الاسلام خيرا .

ولعل الأمر الالهى بالأى ينكح من بعده أبدا كما تلونا من قبل كان لهذا
المعنى وليتفرغن لتعليم النساء أحكام الدين وفضائله ، وأدابه ، وروحه
ومعناه ، وأخبار النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فى أهله ، وفى ذاته
الطاهرة ، وإنك لترى من ذلك الشئ الكثير فى رواية عائشة رضى الله عنها ،
فقد كان لها ذكاء يندر فى نساء العرب ، وأنه قد نركى ما روى من أنه يؤخذ
منها نصف الدين ، وهو النصف الخاص بأحكام النساء .

ثانيها : أن نساء النبی صلى الله تعالى عليه وسلم كن يتخذن قدوة
حسنة للنساء فى عقتهن واحتسابهن وأدابهن لأنهن اخذن بأداب النبوة ،
والمرأة تتأثر بالمرأة أكثر مما تأثر بالرجال ، تصلح بصالح صواحبها من
النساء ، وتفسد بفساد صواحبها منهن ، فالمرأة تصلح المرأة ، أو تفسدها .
وإنا لنعلم ذلك واضحا اليوم ، وأنه كان كذلك فى الماضى ، فالانسان ابن
الانسان .

وإن الله تعالى تعهد نساء النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بالارشاد
والتأديب ، لأنهن الأسوة والقدوة قال تعالى : وهو أصدق القائلين : «يا أيها
النبي قل لأزواجك أن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن ،
وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن

الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة
مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت
منكن لله ورسوله ، وتعمل صالحا ، نؤتها اجرها مرتين وأعدنا لها رزقا
كريما ، يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقين فلا تخضعن بالقول
فيطمع الذي فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن
تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، واطعن الله ورسوله ،
انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا ، واذكرن
ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » •

فبناء على ما صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا التأييد الإلهي الذي لم
يخرجن عن نطاقه كن بالنسبة للنساء الصورة المثالية ، والقدرة القائمة
الثابتة لنساء المؤمنين ، بل نساء العالمين ولأنهن المثل السامى عقب ذلك بما
يجب أن تكون عليه المؤمنات المقتديات بنساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
فقال تعالى عقب ما أمر به نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما أمر به
من ارشاد • وتهذيب • وتوجيه للعلو :

« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ،
والصادقين والصادقات • والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات
والمصدقين والمصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم
والحافظات • والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا
عظيما » •

هذا وان الاقتران فى التلاوة بين ارشاد نساء النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم ومنزلتهن ، وبين أوصاف المؤمنات يشير الى أن أخلاق نساء النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم مثل أعلى لنساء المؤمنين ويوعز باتباعهن ،
واتخاذهن مثلا ساميا غاليا ، لأنهن القدوة الصالحة الطيبة •

واذا كان فى الآيات أمر بأن يقرن فى بيوتهن ، بالأى يخرجن الى الطرقات
متبرجات متزينات يبيدين زينتهن ما ظهر منها وما خفى ، بل يلتزم القرار
فى البيت لا يخرجن الا لصلحة تقتضى الخروج ، فلا يقررن فى البيت الا
للاستعداد للخروج ، فتفص الطرقات بهن ، هذا وان النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم بتفرق نسائه فى القبائل والعشائر من بعض وفائه قد عم تعليمه ،
وعمت الآداب الإسلامية ، والأخلاق الكريمة نساء المسلمين ، وكلما كثر العدد
عم الهدى الحمدي وشاع ، وسر فى الأمة سريان النور فى الأرضين •

أما بعد

٧٣٢ — فهذه سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خاتم النبيين ، لا ندعى أننا وصلنا الى الغاية من تصويرها ، أو توضيحها ، أو ازلنا غشاوة عنها ، ولا ندعى أننا تسامينا حتى ادركناها وعلما أسرارها ، وكونها ونورها في هذا الوجود ، ولكننا رأيناها فوق طاقتنا ، وادركنا منها ما استطعنا ادراكه ، وسددنا وقارينا ، وإذا لم تبلغ الشاؤ . ونصل الى الغاية فأننا قصدنا وأردنا واحتسبنا النية ، ومثلنا كمثله من أراد أن يبلغ قمة تتصل بالسماء ، فعجز عن بلوغها ، فرضى بأن يقف على السطح ، ويرى النور فوقها فحسبه منها المشاهدة ، دون الوصول ، ولقد رأينا فيما رأينا قمة العلم النبوى وان لم نستوعبه ، واستغرقنا نور الهداية ، وان لم ندرك كل ما جرى .

اللهم اغفر لنا تقصيرنا ، فان منشأ قصورنا ، وانا نلتمس ونقرب ، ولا نعلو ، فان ذلك فوق طاقتنا ، وتجاوز وسعنا ، وهو فوق تكليفنا ، فانك قلت وقولك الحق « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ولا تكلفنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد ما كان وعدد ما يكون ، وعدد ما هو كائن الى يوم القيامة ، انك نعم المعين ، ونعم النصير ، وانك الموفق والهادى ، وما توفيقنا الا بك ، وهو يشد العزم فى محيط قدرتنا ، ويقرب البعيد يا أرحم الراحمين .

(تم الكتاب بأجزائه الثلاثة بحمد الله وتوفيقه فى مجلدين)

الفهرست

ما يشتمل عليه المجلد الأول

الجزء الأول

٥ - الافتتاحية *

٩ - التمهيد

٩ - الاضطراب الفكرى فى القرن الخامس الميلادى ١٠ - الديانات السماوية والفلسفة اليونانية ١١ - المجوسية المانوية ١٢ - المزدكية ١٢ - البراهمة ١٤ - الكلام فى أن للبرهمية أصلا سماويا ١٥ - كلام البيرونى فى ذلك ١٦ - كتب البراهمة ١٧ - البوذية ١٨ - المبادئ السلبية فيها ١٩ - الكونفوشيوسية - مبادئها الخلقية ٢٠ - عقيدة الصين القديمة ٢١ - الكون والأخلاق ٢٢ - وثنية اليونان والرومان ٢٣ - مزج الفلسفة بالدين ٢٤ - التثليث فى الفلسفة اليونانية ٢٥ - المسيحية فى القرن السادس الميلادى ٢٧ - مجمع نيقية ٢٨ - توالى المجامع بعده ٢٩ - العرب ٣٠ - دخول الوثنية أرض العرب ٣٠ - العرب لم ينسوا الله فى وثنيته ٣٨ - الفرق بين العرب واليونان فى الوثنية ٣٩ - القلوب فارغة من إيمان *

٤١ - أرض النبوة الأولى هى أرض العرب

٣٣ - لماذا بعث المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجزيرة العربية ٣٤ - ادريس عربى ٣٥ - نوح عربى ٣٥ - هود عربى ٣٦ - صالح عربى ٣٧ - ابراهيم أبو العرب المستعربة واسماعيل ٣٨ - بناء الكعبة المشرفة ٣٩ - شعيب والعرب ٤١ - موسى كلف الرسالة فى أرض العرب ٤٣ - أرض العرب مأوى الفارين بدينهم ٤٤ - هجرة اليهود والنصارى إليها ٤٥ - دعوة بعض النصارى الى التوحيد ٤٥ - اضطهاد بعض الملوك للنصارى الموحدين ٤٦ - أصحاب الأخدود *

٤٧ - اختصاص الجزيرة العربية بالرسالات الأولى

٤٧ - ليست البلاد العربية متوخشة ٤٨ - قوة نفس العربى وصفاءها

٤٨ - الله أعلم حيث يجعل رسالته ٤٩ - لا تتصور النبوة عند الرومان
٥٠ - لا تتصور في مصر ٥٢ - مكة المكرمة ٥٤ - موقعها التجارى والأدبى
٥٥ - أول بناء فى مكة المكرمة وبلوغها هذه المنزلة ٥٧ - الكعبة الشريفة
فى التوراة والتبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيها ٥٨ - تاريخ
العرب العدنانية ٥٩ - مكة المكرمة موطن تقديس لأجل الكعبة الشريفة .

٦٠ - المكان والزمان فى الرسالة المحمدية

٦١ - الرسالة فى أرض العرب من البادية ٦٢ - البادية موطن الصفاء
٦٣ - السامية والآرية فى نظر الفرنجة ٦٤ - زمان الرسالة ٦٥ - إشارة
إلى المظالم فى حكم الرومان للمرأة والرقيق ٦٥ - المظالم فى فارس
٦٦ - الظلم الطبقي فى الهند ٦٧ - البشارات بالرسالة المحمدية ٦٨ - فى
كتب البراهمة ٧٠ - بشارة كتب الزرادشتية ٧٢ - محمد فى التوراة
٧٥ - محمد فى الانجيل ٧٦ - بعثه صلى الله تعالى عليه وسلم على فترة من
الرسول .

٧٩ - الرسول صلى الله عليه وسلم

٨١ - محمد من أوسط قريش نسبا ٨٢ - ولماذا كان ذلك ٨٣ - بعثته
صلى الله تعالى عليه وسلم فى قومه ، واضطهاد أصحابه له وإيذاؤه
٨٥ - عيشة فى وسط الضعفاء ورحمته بهم ٨٧ - النسب الطاهر ٨٨ - بعض
ذرية عدنان أقام باليمن ٨٨ - قبائل من ولد عدنان ٨٩ - فهر مجمع قريش
٩٠ - قصى ٩٢ - هاشم وعبد المطلب ٩٣ - كشف زعم ٩٦ - الذبيح
عبد الله - قداؤه وتاريخه وزواجه ٩٩ - أمنة الطاهرة أم الرسول صلى الله
عليه وسلم ١٠١ - صفات سامية فى السيدة الطاهرة أمنة .

١٠٤ - الجنين المبارك

١٠٥ - انقاذ البيت والجنين فى بطن أمه ١٠٦ - مجيء ابرهة بأصحاب
الفيل ١٠٦ - مسير أصحاب الفيل ١٠٧ - تلاقى ابرهة بعبد المطلب
١٠٧ - عبد المطلب والطاغية ١٠٨ - امتناع الفيلة عن السير ١٠٩ - انتهم
ريح عاصفة وطير أباييل .

١١٠ - ولد الهدى

١١٠ - ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم قبل وفاة أبيه ١١٢ - ظواهر
تعلن مكانته صلى الله عليه وسلم ١١٥ - تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم

١١٧ - ارهاصات النبوة يوم مولده صلى الله تعالى عليه وسلم ١٢١ - ارضاعه صلى الله عليه وسلم ١٢٢ - قصة المراضع ١٢٣ - قصة حليلة ١٢٥ - مدة رضاعته ١٢٦ - اخبار شق الصدر وجوازها فى العقل وما يقال حوله ١٢٩ - سفر أمه به الى قبر أبيه فى يثرب ١٣٠ - موت أمه الطاهرة فى الطريق وهى عائدة ١٣١ - كفلة أم أيمن ١٣٢ - العبرة فى فقد أمه بعد أبيه وهو فى غربة ١٣٤ - فى حضن عبد المطلب ١٣٦ - فى كنف أبي طالب .

١٣٨ - الى العمل

١٣٨ - رعيه الغنم ١٣٩ - حماية الله تعالى له ١٤٠ - الى التجارة ١٤١ - سفره مع عمه ١٤٢ - ارهاص وبشارة بالنبوة ، ولقاؤه ببخيرى الراهب ١٤٤ - يقظة اللات والعزى ١٤٦ - تخويف أبي طالب عليه من اليهود ١٤٧ - محمد التاجر ١٤٨ - مشاركته فى الامور العامة ١٤٩ - حرب الفجار ١٥١ - حلف الفضول .

١٥٤ - زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم

١٥٥ - السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ١٥٦ - تفكيرها فى اختياره زوجها ١٥٧ - رغبة أبي طالب ١٥٧ - تجارته صلى الله عليه وسلم لها ١٥٨ - ارهاصات فى الرحلة ١٥٨ - التقاؤه بالراهب بخيرى ١٥٩ - كان الريح مثل رأس المال ١٦٠ - الاملاك ١٦١ - ارسالها جاريتها ١٦٢ - تمام الخطبة ١٦٣ - مهرها وسنها ١٦٤ - أغناه الله وواساه ١٦٥ - ضم على بن أبي طالب اليه .

١٦٧ - اعادة بناء الكعبة المشرفة

١٧٠ - بناء قريش ١٧٢ - معاونة رجل قبطى فى الرسم والبناء ١٧٣ - اختلافهم فى وضع الحجر الأسود ، تحكيم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ١٧٤ - اقامة ابن الزبير لها على قواعد ابراهيم ١٧٩ - طواف الحمس .

التكامل الانسانى فى محمد صلى الله عليه وسلم

١٨١ - صفاته الفطرية والمكتسبة ١٨٢ - وفور عقله غلاما ، وشابا ١٨٦ - بلاغة قوله صلى الله عليه وسلم ١٩٠ - كلام القاضى عياض ١٩١ - أمثلة فى كلامه ١٩٦ - الخلق الكامل ١٩٩ - أخلاقه خارقة للعادة ٢٠١ - معاملته فى اللقاء والبعد عن فحش القول ٢٠٤ - هيبته صلى الله عليه وسلم ٢٠٦ - العفو والتسامح ٢١٠ - حياؤه صلى الله

عليه وسلم ٢١٥ - جوده عليه الصلاة والسلام ٢١٨ - شففته ورحمته
 ٢٢٣ - صدقه وأمانته وعفته صلى الله عليه وسلم ٢٢٥ - الوفاء ورعاية العهد
 ٢٢٧ - العابد ٢٢٩ - عبادته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ٢٣٣ - عبادته
 صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ٢٣٥ - الزاهد ٢٣٦ - الزهد الصوفى
 وزهده صلى الله عليه وسلم ٢٣٨ - زهده صلى الله عليه وسلم بعد البعثة
 ٢٤٠ - قوت الزاهد ٢٤٤ - شكوى أزواجه ٢٤٦ - الصابر المصابر
 ٢٥٣ - العادل ٢٥٥ - العدل من نفسه ٢٥٨ - الشجاع ٢٥٩ - بعد البعثة
 ٢٦١ - شجاعته فى ميدان القتال ٢٦٢ - لا يخشى فى الله لومة لائم
 ٢٦٣ - يستجيب لداعى النجدة ٢٦٥ - أثر التناشق الجسمى فى الدعوة
 ٢٦٦ - وصف هند بن أبى هالة للرسول صلى الله عليه وسلم ٢٦٧ - وصف
 أم معبد له ٢٦٨ - ما يدل عليه كلامها ٢٧٠ - نظافة جسمه صلى الله عليه
 وسلم ٢٧١ - خاتم النبوة ٢٧٢ - تقديم صفاته على إخباره
 ٢٧٣ - البشارات بالنبي المنتظر ٢٧٤ - اضطراب العرب الفكرى والاعتقادى
 ٢٧٦ - بشارات التوراة ٢٧٧ - بشارات الانجيل ٢٧٩ - بشارات الزبور
 ٢٨٠ - ما راج فى البلاد العربية من بشارات عن بنى يرسل ٢٨٠ - ما كان
 عند يهود المدينة اعلنوه ثم كتموه ٢٨٢ - الحنفاء الأربعة ٢٨٣ - علم ورقة
 ابن نوفل ٢٨٤ - علم سلمان الفارسى بالنبوة قبل أن يلقى النبى صلى الله عليه
 وسلم ٢٨٦ - نبذة عن تاريخه صلى الله عليه وسلم ٢٨٨ - يهود تخبر عن
 النبى المنتظر ٢٩١ - أخبار الكهان ٢٩٣ - خبر ابن ذى يزن الحميرى
 ٢٩٥ - رد فرية الفرنجة فى ادعائهم أن محمدا كان يتبع أخبار اليهود من غير
 أى سند تاريخى *

٢٩٧ - البعثة المحمدية

٢٩٩ - التجلى الأعظم ٣٠٠ - تعبه صلى الله عليه وسلم بغار حراء
 ٣٠٣ - خبر الوحي ٣٠٤ - ابتداء الوحي بالرؤيا الصادقة ٣٠٥ - ثم بالرؤية
 فى الصحو ٣٠٦ - الالتقاء بالروح القدس ٣٠٧ - كان صلى الله عليه
 وسلم فى الأربعين من عمره عندما التقى به الوحي فى غار حراء ٣٠٨ - قلق
 الزوجة الصالحة ، وقولها المطمئن ٣٠٩ - لقاءه صلى الله عليه وسلم بورقة
 ابن نوفل ٣١٠ - فترة غياب الروح القدس ٣١١ - مدة الفترة ٣١٣ - الشهر
 الذى نزل فيه الوحي ٣١٤ - أول ما نزل من القرآن الكريم ٣١٦ - مراتب
 الوحي وشكله *

٣٢١ - دعوة الحق

٣٢١ - التكليف بالتبليغ ٣٢٢ - مراتب الدعوة ٣٢٢ - انذار
 العشيرة ٣٢٢ - انذار قومه ٣٢٣ - انذار غيرهم ٣٢٤ - الاستخفاف

بالدعوة ٣٢٥ - أول من أسلم ٣٢٦ - اسلام زيد بن حارثة ٣٢٧ - الاسلام
فى بيت النبوة ٣٢٧ - آمنت خديجة منذ التقى بجبريل ٣٢٧ - منزلتها عند
الله سبحانه ٣٢٨ - اسلام على وموقفه مع أبيه ٣٣٠ - اسلام زيد ٣٣١ - النور
يشرق من بيت النبوة ٣٣٢ - اسلام أبى بكر ٣٣٤ - تتابع المخلصين
٣٣٥ - فرضية الصلاة ٣٣٦ - تعليم جبريل الصلاة للنبي صلى الله عليه
وسلم ٣٣٧ - وإنذر عشيرتك الأقربين ٣٣٨ - سريان الدعوة الخفية
٣٤٠ - بين أبى طالب وأبى لهب ٣٤١ - تطاول امرأة أبى لهب على مقام
النبي صلى الله عليه وسلم ٣٤٣ - حكمة الله تعالى فى عدم اسلام أبى طالب
٣٤٤ - فاصدع بما تؤمر ٣٤٥ - المرتبة الثانية فى الدعوة ٣٤٦ - المرتبة
الثالثة ٣٤٦ - مرتبة الدعوة العامة فى قريش ٣٤٧ - مراتبهم فى الهداية
٣٤٨ - استجابة المصطفى صلى الله عليه وسلم لأمر ربه ٣٥٠ - السابقون
السابقون ٣٥٢ - حال الضعفاء ٣٥٣ - الاسلام يخرج للقبائل .

٣٥٥ - المناوأة والايذاء والمهجرة

٣٥٦ - سببها والفروق الطبقية والجاهلية ٣٥٧ - ما كان بين النجاشي
والمهاجرين الى الحبشة ٣٥٨ - مادية قريش ٣٦٠ - ادعاء الوليد بن المغيرة
انه أولى بالنبوة لثروته ٣٦١ - المناقسة على الشرق ٣٦٣ - تلقى الناس
للدعوة ٣٦٤ - النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماض فى دعوته
٣٦٥ - تزايد المقاومة ٣٦٦ - الذين استجابوا لله ورسوله اختبرت قلوبهم
٣٦٩ - اسلام حمزة ٣٧١ - اسلام عمر ٣٧٤ - وقفة بين عهدين
٣٧٦ - محاولة كفه عنهم بالاستمالة ٣٧٨ - لقاء أهل مكة المكرمة به لاستمالاته
٣٧٩ - كلام النضر بن الحارث ٣٨٠ - كلام عتبة بن الوليد ٣٨٠ - جدلهم
مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٣٨١ - محاولة اخراج النبي عليه
الصلاة والسلام ٣٨٣ - مطالبهم لاعجازه ٣٨٥ - الاستعانة بأهل الكتاب
٣٨٩ - اسماعهم الكتاب بعد أن اتفقوا على ألا يسموه ٣٩٠ - انجذابهم
نحو القرآن الكريم وسماعه اياهم كارهين .

٣٩٢ - الايذاء والفتنة

٣٩٤ - ايذاء الضعفاء وايذاء بلال واخوانه ٣٩٥ - ايذاء عامر
ابن فهير ٣٩٦ - شراء أبى بكر لهما ٣٩٧ - آل ياسر ٣٩٧ - التشنيع على
من يسلم من نوى الكرامة ٣٩٨ - مصابرة النبي صلى الله عليه وسلم
٣٩٩ - الأذى ينزل بشخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٤٠١ - نهاية
الهلل وهيئته ٤٠٣ - لماذا لم يرهبهم بهيئته .

٤٠٥ - الهجرة الى الحبشة

٤٠٦ - اجارة ابن الدغنة لأبى بكر ، ورد جواره ٤٠٧ - متابعه

الأولياء والأعداء ٤٠٨ - كتابان للنبي صلى الله عليه وسلم الى النجاشي
٤٠٩ - متابعة المشركين لهم ٤١٠ - مناقشة بين المؤمنين والنجاشي
٤١٣ - انتظار النجاشي للحق ٤١٤ - خديعة ليعود المهاجرون الى مكة المكرمة
والكلام فى ذلك .

٤١٨ - النبي صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر بمكة المكرمة

٤١٨ - لقاء المشركين بأبى طالب ٤١٩ - المجاورة بينهم وبينه
٤٢٠ - مقالة أولى العزم من الرسل ٤٢١ - أبو طالب صار فى أمر مريب
٤٢١ - حماسة أبى لهب لأخيه شيخ الطحفاء ٤٢٢ - المقاطعة ٤٢٢ - الأرضة
تأكل اسم الله من مواليهم ٤٢٣ - نقض الصحيفة ٤٢٤ - قصة حكيم
ابن حزام ٤٢٥ - الرسول صلى الله عليه وسلم يستمر فى دعوته
٤٢٦ - سعى فى نقض الصحيفة ٤٢٧ - سعى هشام بن عمرو بن الحارث ،
والمطعم بن عدى ٤٣٠ - سعى فى نقض الصحيفة ٤٣٤ - نقض الصحيفة فعلا
٤٣٧ - انطلاق الدعوة الاسلامية .

٤٣٨ - عام الحزن .

٤٤٠ - لماذا لم يؤمن أبو طالب وقد كان حاميا للرسول صلى الله عليه
وسلم ٤٤١ - موت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها وأبى طالب
٤٤٢ - كان هذا العلم قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ٤٤٣ - الكلام فى ايمان
أبى طالب ٤٤٤ - ميل بعض المؤرخين الى ايمانه ٤٤٥ - تبشير السيدة
خديجة رضى الله تعالى عنها ببيت فى الجنة ٤٤٧ - مات أبو طالب قبل السيدة
خديجة على أرجح الروايات ٤٤٩ - حماية الله تعالى للمصطفى صلى الله
تعالى عليه وسلم ٤٥٠ - المهابة مع المحبة .

٤٥٣ - المصطفى عليه الصلاة والسلام فى الطائف

٤٥٤ - لم تكن استجابة فى هذه الرحلة ٤٥٦ - عداس النصرانى
والنبي صلى الله عليه وسلم ٤٥٨ - سماع الحق له ٤٥٩ - سماع الجن
٤٦٠ - فى جوار مطعم بن عدى ٤٦٢ - انشقاق القمر ٤٦٣ - تحقيق
ذلك .

٤٦٦ - الاسراء والمعراج

٤٦٦ - لماذا كان الاسراء والمعراج ٤٦٨ - الاسراء كان بالروح
والجسد ٤٧٠ - المعراج كان بالروح ٤٧٢ - بطلان القول بأن الاسراء كان
بالروح ٤٧٤ - الاسراء والمعراج فى صحاح السنة ٤٧٨ - انتشار الاسلام

فى البلاد العربية ٤٧٨ - انتشار أخبار النبى صلى الله عليه وسلم
 ٤٧٩ - اسلام الطفيل بن عمرو وقومه ٤٧٩ - اسلام أبى نر ٤٧٩ - وفد
 نصارى نجران ٤٨١ - عرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل
 فى موسم الحج ٤٨٢ - جماعات تقبل دعوة الوجدانية ٤٨٤ - تعرف أحوال
 القبائل ٤٨٥ - القبائل المتاخمة للفرس ٤٨٦ - ما بين الروم والفرس
 ٤٨٨ - التقاؤه صلى الله عليه وسلم بالأوس والخزرج ٤٨٩ - ابتداء الاتصال
 بأهل يثرب ٤٩٠ - يوم بعاث وأثره فى الاستجابة للدعوة ٤٩١ - بدء اسلام
 الأنصار ٤٩٢ - العقبة الأولى أو البيعة الأولى ٤٩٤ - مصعب بن عمير معلم
 الأنصار ٤٩٥ - أول جمعة أقيمت بالمدينة المنورة ٤٩٨ - العقبة الثانية
 ٤٩٩ - استيثاق العباس لابن أخيه ٥٠٠ - البيعة ٥٠٢ - علم قريش
 بالبيعة ٥٠٣ - متابعة قريش الأوس والخزرج ٥٠٣ - ادراك سعد
 ابن عباد ة

٥٠٤ - ابتداء الهجرة

٥٠٥ - توقع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الهجرة ٥٠٦ - الاذن
 للمؤمنين بالهجرة ٥٠٧ - الهجرة الخفية ٥٠٨ - هجرة الفاروق عمر
 ٥١٠ - هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٥١١ - ما اقترن بالهجرة
 الحمندية ٥١١ - مؤامرة قريش ٥١٢ - تنفيذ المؤامرة وخروج
 النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومبيت الامام على فى مكانه مغطى ببردته
 ٥١٤ - اجتماع المشركون فى العتمة ٥١٧ - النبى صلى الله عليه وسلم مع
 صاحبه فى الغار ٥١٨ - فى غار ثور وتظليل العنكبوت والحماسة
 ٥١٩ - سراقاة والسير الى المدينة المنورة ٥٢١ - الركب يسير
 فى طريق وعرة ٥٢٢ - مروره صلى الله عليه وسلم بأى معبد
 ٥٢٤ - ما جرى من خوارق ٥٢٦ - وصول الرسول صلى الله تعالى عليه
 وسلم الى قباء ٥٢٧ - التقاء على بن أبى طالب بالنبى صلى الله عليه وسلم
 فى قباء ٥٢٨ - دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة
 ٥٢٩ - نشيد طلع البدر علينا والكلام حوله ٥٣٠ - ناقة رسول الله صلى الله
 تعالى عليه وسلم مأمورة ٥٣٠ - مروره صلى الله تعالى عليه وسلم بدار
 عبد الله بن أبى ٥٣٠ خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورواياتها
 ٥٣٣ - بناء مسجده عليه الصلاة والسلام ٥٣٤ - اشتراكه صلى الله تعالى
 عليه وسلم فى البناء ٥٣٥ - بناء مسجد قباء بأقل تكلفة ة

الجزء الثانى فى المجلد الثانى

٥٤١ - مقدمة .

٥٤٣ - انشاء دولة الاسلام

٥٤٣ - بالهجرة ابتدا قيام الدولة ٥٤٤ - الدولة الفاضلة ٥٤٥ - العرب
أصلح الناس لتجربة قيام الدولة الفاضلة ٥٤٦ - قيام رأى عام فاضل
٥٤٧ - تأسيس الدولة للكرامة الانسانية ٥٤٧ - العدالة ٥٤٩ - التعاون
٥٥٠ - مع اليهود ٥٥٠ - الرحمة والمودة ٥٥٢ - المصلحة ودفع الفساد .

٥٥٥ - أول أعمال النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة

٥٥٥ - الاسلام دين ودنيا ٥٥٦ - الاخاء بين المهاجرين والانصار
٥٥٧ - وبين الانصار بعضهم مع بعض ، والمهاجرين بعضهم مع بعض
٥٥٨ - مناقشة كلام ابن القيم فى هذا ٥٦٠ - الاخاء كان تأليفا بين سكان
المدينة المنورة ٥٦١ - حال الكفار مع المسلمين ٥٦٢ - التأليف الاجتماعى
والاقتصادى والسياسى والحربى ٥٦٣ - الحلف بين النبى صلى الله عليه وسلم
واليهود ٥٦٤ - عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على اليهود
٥٦٦ - نظرة فى وثيقة العهد فاحصة .

٥٦٨ - شرعية الأذان

٥٦٩ - الروايات فى ذلك ٥٧١ - الاذن بالقتال ٥٧٣ - أول القتال
٥٧٤ - أول السرايا ٥٧٤ - سرية حمزة وسرية عبيدة بن الحارس
٥٧٥ - سرية سعد بن أبى وقاص ٥٧٦ - زمن هذه السرايا .

٥٧٧ - خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للجهاد

٥٧٧ - ابتدا الغزوات فى السنة الثانية ٥٧٨ - الحرب الفاضلة أو حرب
النوبة ٥٨١ - الفضيلة فى الحرب الاسلامية ٥٨٢ - الباعث عليها
٥٨٣ - قبل المعركة ٥٨٤ - فى المعركة ٥٨٦ ملاحظة الفضيلة ٥٨٧ - احترام
الكرامة الانسانية ٥٨٨ - انتهاء المعركة ٥٩٠ - معاملة المهزومين
٥٩١ - الأسرى ٥٩٣ - حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبادة
٥٩٤ - المشابهة بين المجاهد والراهب ٥٩٥ - حرب الرسول كانت أمرا لا بد
منه لاقامة الحق وخفض الباطل ٥٩٦ - أدوار الحرب المحمدية ٥٩٧ - الدور
الأول ٥٩٨ - غزوة بواط ٥٩٩ - غزوة العشيرة ٦٠٠ - بدر الأولى
٦٠١ - سرية عبد الله بن جحش ٦٠٤ - القتال فى الشهر الحرام ٦٠٥ - لماذا
كانت هذه الغزوات .

٦٠٩ - تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة وفرض الصوم

٦١٠ - تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة ٦١١ - تحويل القبلة بعد الهجرة بست عشر شهرا ٦١١ - كان ليلة النصف من شعبان ٦١٢ - وقع التحويل على المسلمين واليهود ٦١٣ - صوم رمضان ٦١٤ - كلام الحافظ ابن كثير ومناقشته ٦١٦ - فرضية زكاة الفطر .

٦١٨ - يوم الفرقان (بدر العظمى)

٦١٨ - السرايا كانت لتعرف الأرض العربية (بدر العظمى) ٦١٩ - العير ٦٢٠ - متابعة عير قريش ٦٢١ - خروج جيش لحماية العير ٦٢١ رجاء بنو زهرة لنجاة العير ٦٢٢ . استشارة النبي صلى الله عليه وسلم الرجال ، وخصوصا الأنصار ٦٢٢ كلام المقداد بن عمرو وكلام سعد بن معاذ ٦٢٣ - الجيشان - عدد جيش المشركين ، وعدد جيش الايمان ٦٢٤ - التردد فى جيش الشرك ٦٢٦ - هبة جيش الايمان ٦٢٧ - الملائكة فى جيش الايمان ٦٢٩ - التقاء الجمعين يوم الفرقان ٦٣٢ - القيادة والتنظيم ٦٣٤ - مظاهر القيادة النبوية ٦٣٩ - القتل والأسر ٦٤٠ - نتائج المعركة ٦٤٢ - الكرامة الانسانية فى أعقاب المعركة ٦٤٣ - دفن القتلى من المشركين فى بئر ٦٤٤ - الأسرى ٦٤٥ - الاستشارة فى شأنهم ٦٤٦ - الانتهاء ٦٤٧ - المن مع الفداء ٦٤٨ - المن على زوج ابنته زينب من غير فداء بأشارة الصحابة على أن يرد ابنته ٦٤٨ - بيان الله تعالى لخطأ الأسر ٦٤٩ - فطنة الصحابة والرسول فى الأسرى ٦٥٠ - موافقة رأى سعد بن معاذ لا عمر ٦٥١ - الأنفال .

٦٥٢ - أثر المعركة فى المدينة المنورة

٦٥٣ - ظهور القوة الاسلامية ٦٥٥ - اليهود ٦٥٦ - حى بن أخطب ٦٥٧ - ظهور النفاق ٦٥٧ - اخراجهم من المسجد ٦٥٨ - افساد اليهود بين المسلمين ٦٦٠ - ليسوا سواء ٦٦١ - محسنون من اليهود ٦٦٤ - ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هى أحسن ٦٦٥ - مجادلهم ٦٦٦ - يسألون من خلق الله .

٦٦٩ - فى الفترة بين بدر وأحد

٦٧٠ - شرعية الزكاة ٦٧١ - مصارفها ٦٧٢ - المعاقل والديات ٦٧٤ - بناء على بن أبى طالب بفاطمة الزهراء ٦٧٦ - حروب فى الفترة بين الغزوتين الكبيرتين ٦٧٦ - غزوة السويق ٦٧٩ - غزوة ذى أمر ٦٨١ - غزوة الفرع من بحران ٢٨٢ - تكشف الوجه اليهودى فى قينقاع ٦٨٣ - موقعة بنى قينقاع ٦٨٤ - موقف رأس النفاق واجلاؤهم ٦٨٥ - سرية

زيد بن حارثة ٦٨٦ - كعب بن الأشرف اليهودي ٦٨٨ - تحريضه على المؤمنين ٦٨٩ - الرد على المستشرقين في قتل كعب بن الأشرف *

٦٩٢ - غزوة أحد

٦٩٣ - أسبابها ٦٩٣ - القوة بدل العير ٦٩٣ - جمعهم قبائل من العرب ٦٩٤ - اجتمع ثلاثة آلاف ٦٩٥ - قدوم ذلك الجيش في أول شوال من السنة التالية ٦٩٥ - شورى النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ٦٩٦ - كان الرأي الغالب الخروج للقتال ٦٩٧ - النبي صلى الله عليه وسلم يعد المؤمنين للقتال ٦٩٨ - المنافقون وتخذيّلهم ٧٠٠ - مقاعد القتال ٧٠١ - الجيشان ٧٠٢ - الحال في الجيشين ٧٠٣ - المعركة ٧٠٤ - ابتداء القتال ٧٠٥ - الخسارة الفادحة ٧٠٥ - مقتل حمزة مع المضاء في القتال ٧٠٦ - تحرك الرماة مخالفين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٠٧ - شن المسلمين جيش لولا حركة الرماة ٧٠٨ - كانت المعركة أولا للمسلمين ٧٠٨ - طلب جيش الشرك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٠٩ - اشاعة قتل الرسول ٧٠٩ - استقتال المسلمين بعد الهزيمة ٧١٠ - حمل على ابن أبي طالب اللواء - علو جيش المسلمين الى الهضبة - أخذوا يقاتلون ٧١٠ - فرار جيش أو انهائهم القتال ٧١١ - لا يسمى ما في أحد هزيمة ٧١٢ - قتل النبي صلى الله عليه وسلم مشركا بيده ٧١٣ - النساء في المعركة يداوين الجرحى ٧١٣ - كانت الزهراء تداوى جروح ابنها ٧١٣ - التمثيل بجثث قتلى المسلمين ٧١٣ - من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ٧١٥ - فرحة أبي سفيان بنصر فأنهى الحرب سريعا ٧١٥ - وصف المعركة في القرآن الكريم ٧١٦ - الغم الذي أصاب بعض الجيش ٧١٩ - لم تكن غزوة أحد هزيمة ٧٢١ - رحمة النبي صلى الله عليه وسلم القائد ٧٢٣ - مقابلة بين رجال المشركين في بدر ورجال المسلمين في أحد ٧٢٥ - العبرة فيما أصاب المسلمين وسببه ٧٢٦ - دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ٧٢٧ - أعقاب أحد ٧٢٨ - المنافقون ٧٢٨ - الهيبود ٧٣٠ - اجازة خروج النساء ٧٣١ - السنة في الشهداء الا يغسلوا ٧٣٣ - قتل مؤمن يحسبه كافرا ٧٣٥ - صدق أحد *

٧٣٧ - سرايا وغزوات

٧٣٧ - سرية لبنى أسد ٧٣٩ - يوم الرجيع ٧٤٢ - سرية عمر بن أمية ٧٤٤ - بئر معونة ٧٤٨ - غزوة بني النضير ٧٤٩ - اجلاؤهم ٧٥٠ - تحريض رأس المنافقين لهم ٧٥٢ - أحكام شرعية اقترنت بجلال بني النضير ٧٥٣ - التخريب في الحرب وكلام الفقهاء ٧٥٥ - غنائم بني النضير ، والحكم العام فيها ٧٥٨ - تجريم الخمر ٧٥٩ - ادوار

النصوص القرآنية فى الخمر مع استهجانها فى كلها ٧٦٠ - اثر غزوة بنى النضير فى يهود ٧٦٢ - غزوة ذات الرقاع ٧٦٣ - صلاة الخوف ٧٦٥ - فى ذات الرقاع ٧٦٨ - النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ٧٧٠ - غزوة بدر الآخرة ٧٧٢ - غزوة دومة الجندل ٧٧٣ - النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة •

٧٧٥ - غزوة الخندق

٧٧٥ - تجمع الشرك من كل القبائل ٧٧٦ - تحريض اليهود لقريش وغيرهم ٧٧٧ - كتاب أبى سفيان بهدف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورده عليه ٧٧٨ - استشارة أصحابه ٧٧٨ - حفر الخندق ومشاركة النبى صلى الله عليه وسلم فى الحفر ٧٨٠ - ما جرى فى الحفر من خوارق ٧٨١ - الجوع والطعام ٧٨٢ - بركة الطعام ٧٨٤ - اللقاء ٧٨٤ - تحريض حى بن أخطب لبني قريظة ٧٨٥ - رد رئيسهم ووصول خبر محاولته الى النبى صلى الله عليه وسلم ٧٨٦ - تصوير القرآن الكريم للأحزاب ٧٨٦ - جيش المسلمين ثلاثة آلاف أمام العرب جميعا ٧٨٦ - المشاورة فى الصلح وعرضه ٧٨٧ - عرض الصلح كان تخذيلاً للمشركين ٧٨٨ - التخذيل بين اليهود والمشركين ٧٨٩ - جاسوس اليهود على بيت النبى صلى الله عليه وسلم ٧٩٠ - الجيشان ٧٩١ - اجتياز الخندق ٧٩١ - مبارزة على ابن أبى طالب لعمر بن عبدون العامرى وقتله ٧٩٢ - عدوة الذين اجتازوا فارين ٧٩٣ - الهجوم على بيوت المؤمنين ٧٩٣ - كتيبة عند منزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٧٩٤ - دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واستجابة دعائه وهزيمتهم بالخوف والرعب ٧٩٦ - المكاتبة بين أبى سفيان والنبى صلى الله عليه وسلم ٧٩٧ - نتائج غزوة الخندق •

٧٩٨ - غزوة بنى قريظة

٧٩٨ - خانوا فى وقت الشدة ، عرضهم الجلاء لبني النضير ٧٩٩ - الراية لعل بن أبى طالب ٨٠٠ - مشاورتهم فيما بينهم ٨٠١ - نزولهم على حكم سعد بن معاذ ٨٠٢ - قتل الرجال وسبى النساء والذرية ٨٠٢ - نظرة فى هذا الحكم العادل ٨٠٤ - أحكام شرعية ٨٠٤ - توزيع الغنائم ٨٠٥ - قتل أبى الحقيق الذى كان يحرض المشركين ٨٠٦ - قصة أبى لبابة ٨٠٨ - الايماء بالصلاة للضرورة ٨٠٩ - تحريم التبنى ٨١٠ - زاج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بزينا بنت جحش بعد أن طلقها زيد لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أديانهم ٨١٢ - القصة كما جاءت فى القرآن الكريم ٨١٣ - منع دخول بيوت النبى صلى الله عليه وسلم من غير اذن ٨١٤ - وجوب الاستئذان عامة ٨١٥ - غزوة بنى لحيان

٨١٧ - غزوة ذي قرد ٨١٩ - غزوة بنى المصطلق ٨٢٠ - اثاره فتنة واطفاؤها
 ٨٢٢ - عمل رأس النفاق ٨٢٣ - ما نزل من القرآن الكريم ٨٢٤ - الأسرى
 والسبايا من بنى المصطلق ٨٢٥ - زواج جويرية بنت الحارث ٨٢٦ - خطأ
 فى الادراك ٨٢٧ - حديث الافك ٨٢٨ - ذكره كما جاء فى الصحاح
 ٨٢٩ - كما جاء على لسان أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تبارك وتعالى
 عنها ٨٣٠ - تولى كبر الافك رأس المنافقين ٨٣٠ - كلام على بن أبى طالب
 ٨٣٢ - شاع الافك وردده مهاجرون وأنصار ٨٣٣ - تحقيق النبى صلى الله
 تعالى عليه وسلم باشارة على بن أبى طالب ٨٣٤ - براءتها رضى الله تعالى
 عنها من الله سبحانه وتعالى والآيات التى نزلت فى ذلك ٨٣٥ - ما تشير اليه
 الآيات ٨٣٧ - الأثر النفسى من على كرم الله وجهه ٨٣٨ - حد القذف
 ٨٣٩ - حد اللعان ٨٤١ - حد الزنى ٨٤٢ - تنصيف عقوبة العبد .

٨٤٢ - الحديبية

٨٤٢ - وقتها وابتداؤها ٨٤٤ - لم يرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
 حرب ٨٤٤ - سوق الهدى ٨٤٥ - مراسلة بين الفريقين ٨٤٧ - عذر وعفو
 ٨٤٨ - رسول النبى صلى الله عليه وسلم اليهم هو عثمان بن عفان
 ٨٤٩ -بيعة الرضوان ٨٥٠ - عقد صلح على هدنة ٨٥٠ - شروط الصلح
 ٨٥١ - تملل بعض المسلمين فى بعض الشروط ٨٥٢ - أبو جنسندل
 ٨٥٣ - التحلل من الاحرام ٨٥٤ - أحكام شرعية ثبتت فى الحديبية
 ٨٥٥ - منع زواج المسلمة بغير المسلم ٨٥٧ - أحكام فقهيه أخرى
 ٨٦٠ - كانت الحديبية فتحة ٨٦١ - انتشار الاسلام بعد الحديبية
 ٨٦٢ - تنفيذ شروط الصلح ٨٦٣ - تطبيق الشرط الذى كان يوجب رد المرتدين،
 ويمنع محمدا عليه الصلاة والسلام من رد من أن يذهب اليه ٨٦٤ - اجتماع
 من ردهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومصادرتهم متاجر قريش
 ٨٦٥ - طلبهم من النبى صلى الله عليه وسلم أن يقبلهم ٨٦٦ - سرايا وبعوث
 ٨٦٨ - سرية عكل وعرينه ٨٦٩ - اشارة الى حد الحراية .

فهرست الجزء الثالث من المجلد الثانى

٨٧٥ - المقدمة .

٨٧٧ - رسائله صلى الله تعالى عليه وسلم .

٨٧٨ - الى خيبر ٨٧٩ - القائد حامل الراية فى خيبر ٨٨٠ - القتال
 حول حصونها ٨٨١ - أخذها الأدنى فالذى يليه ٨٨٢ - بيان الحصون

٨٨٢ - تسليحهم ٨٨٣ - الصلح والغنائم ٨٨٤ - حضور النساء فى غزوة خيبر ، وأخذهن من غنائمها ٨٨٥ - عهده عليه الصلاة والسلام لهن ٨٨٥ - الأرض والنخيل ٨٨٦ - حكم الأراضى المفتوحة وتقسيم الربيع بين أهل خيبر والنبي صلى الله عليه وسلم ٨٨٧ - توزيعه عليه الصلاة والسلام للنصف الذى يخص المسلمين ٨٨٨ - اجلاؤهم فى عهد عمر ٨٨٩ - فدى ٨٩٠ - ما بين أبى بكر والسيدة فاطمة الزهراء بالنسبة لفدىك والخلاف كان على ادارتها لا على امتلاكها ٨٩١ - فدىك فى عهد عمر ٨٩٢ - حوادث ذات مغزى فى خيبر ٨٩٣ - أمر الراعى الأسود ٨٩٣ - أعرابى يجاهد ويرد الغنم ٨٩٤ - مؤمن يتحايل لماله بمكة المكرمة ٨٩٥ - شفقة العباس على النبي صلى الله عليه وسلم ٨٩٧ - زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأمة المؤمنين صفية ٨٩٩ - غدر وسماحة ٩٠١ - عودة جعفر بن أبى طالب من الحبشة ٩٠٢ - خلاف ودى بين عمر وبعض مهاجرة الحبشة ٩٠٣ - وادى القري ٩٠٤ - قسم عليه الصلاة والسلام غنائمه ٩٠٥ - صلح تيماء واجلاء عمر الفاروق لليهود •

٩٠٦ - الأحكام الشرعية التى تقرر فى خيبر

٩٠٧ - إباحة المزارعة والمساواة ٩٠٨ - تحريم أكل لحوم الحمر الانسية ٩٠٩ - تحريم سباع البهائم ٩٠٩ - تحريم وطء الحبالى من السبايا وغيرهن ٩١١ - قسمة الغنائم وما لا يقسم منها ودقتها ٩١٣ - الامانة واجبة مع الأعداء ٩١٤ - فوات الصلاة لنوم ٩١٥ - تحريم المتعة فى خيبر ٩١٦ - حقيقة المتعة ٩١٨ - النهى عنها ٩٢٠ - بطلان قول الجعفرية ٩٢٢ - ختام الكلام فى المتعة ٩٢٣ - تحريم الأئمة الجعفريين لها ٩٢٤ - تحريم ربا البيوع ٩٢٦ - الأموال الربوية ٩٢٧ - القياس فيها ٩٢٨ - لماذا كان تحريم البيوع فى خيبر ٩٣٠ - شرعية الجزية والمقصد الشرعى منها ٩٣١ - نظام الجزية كما طبقه النبي صلى الله عليه وسلم ٩٣٢ - صحيفة مكدوبة ٩٣٣ - ما كان يأخذه المصطفى عليه الصلاة والسلام من الجزية •

٩٣٥ - سرايا بعد خيبر

٩٣٥ - سرية أبى بكر الصديق الى فزارة ٩٣٦ - سرية عمر بن الخطاب ٩٣٧ - سرية عبد الله بن رواحه الى يسير يهودى - سرية بشير بن سعد الى بنى مرة من فدىك ٩٣٩ - سرية أبى حدود •

٩٤١ - عمرة القضاء

٩٤١ - تنفيذ اتفاق صلح الحديبية ٩٤٢ - فزع قريش من السلاح مع المعتمرين وخروج أهل مكة إلى رؤوس الجبال ٩٤٣ - كيفية سعيه صلى الله عليه وسلم وطوافه ٩٤٤ - إقامة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال ٩٤٥ - عمرة القضاء في القرآن الكريم ٩٤٥ - حكم شرعى فى عمرة القضاء ٩٤٧ - سرية ابن أبى العوجاء المسلمى *

٩٤٨ - اسلام خالد بن الوليد

٩٤٨ - سبب اسلامه ٩٤٩ - ما كان بينه وبين أخيه ٩٥٠ - التقاؤه بعمرو بن العاص ٩٥١ - خالد ممن تركوا مكة لمكرمة فى عمرة القضاء غيظا ٩٥٢ - الأطوار النفسية لإيمانه *

٩٥٢ - اسلام عمرو بن العاص

٩٥٢ - عداوته للإسلام ٩٥٣ - حملته الهدايا ليقول النجاشي المهاجرين إليه ٩٥٤ - التقاؤه بخالد بن الوليد ٩٥٥ - ابتداء اسلامه وخالد كان لمصلحة *

٩٥٥ - سرايا للتعرف بأحوال البلاد

٩٥٦ - إلى بنى قضاة *

٩٥٧ - غزوة مؤتة

٩٥٧ - سببها ٩٥٨ - فتنة المسلمين فى الشام بأمر الرومان ٩٥٨ - كثرة جيش الرومان - وقوته وكلام عبد الله بن رواحة وقتل حملة الراية وقتل زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبى طالب ومن بعده عبد الله ابن رواحة ٩٥٩ - حمل خالد الراية - كثرة الجيش الرومانى وتفرق نواذعه ٩٦٠ - أخذ خالد يتقهقر بحكمة حتى نجا بجيشه ، وكان قتلى الرومان أضعاف من قتلى المؤمنين *

٩٦١ - نتيجة الغزوة

٩٦٢ - سرية ذات السلاسل ٩٦٤ - سرية أبى عبيدة ٩٦٤ - سرية أبى قتادة *

٩٦٦ - انتشار الاسلام فى البلاد العربية

٩٦٧ - انتشار الاسلام بين الأعراب واختلاف أحوالهم *

٩٦٩ - بعث الرسائل الى الملوك

٩٧٠ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل ٩٧١ - لقاء أبى سفيان بهرقل ٩٧٤ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى كسرى ملك الفرس ٩٧٥ - ارساله الى النبی صلى الله عليه وسلم بمن يأتى به الى نائبه باليمن ٩٧٦ - مقتل كسرى ٩٧٧ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ٩٧٩ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم مصر ٩٨١ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى ٩٨٢ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى ملك عمان ٩٨٦ - كتابه صلى الله عليه وسلم الى صاحب اليمامة .

٩٨٨ - الذمى

٩٨٨ - عهود الاسلام ٩٨٩ - رعاية الذميين مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

٩٩١ - الفتح المبين (فتح مكة المكرمة)

٩٩٢ - نقض قريش لصلح الحديبية ٩٩٤ - مساعدة قريش لبنى بكر على خزاعة حلفاء النبی صلى الله عليه وسلم ٩٩٥ - ذهاب أبى سفيان الى النبی صلى الله عليه وسلم بعد غدره واصابته بزل الغدر ٩٩٦ - استعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للحرب اعتماده على السرية ٩٩٧ - موقف حاطب بن أبى بلتعنة ٩٩٨ - ما نزل من قرآن كريم ٩٩٩ - خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة ١٠٠٠ - قريش تتحسس الأخبار ١٠٠٠ - العباس بن عبد المطلب ومحبتة للنبی صلى الله عليه وسلم ١٠٠١ - هول الجيش الحمدي في قلب أبى سفيان ١٠٠٢ - لقاء أبى سفيان مع النبی صلى الله عليه وسلم ١٠٠٣ - لم تكن معركة بل كانت لقاء ١٠٠٤ - دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة ١٠٠٥ - اسلام أبى قحافة والد أبى بكر الصديق ١٠٠٦ - قتال في جوانب من مكة المكرمة ١٠٠٨ - دخوله صلى الله عليه وسلم البيت الحرام ١٠٠٩ - العفو الكريم الشامل ١٠١١ اذان بلال على الكعبة المشرفة ١٠١٢ - اباحة دماء من لم ينلهم عفو ١٠١٢ - عبيد بن سعد بن أبى السرح وشفاعة عثمان له ١٠١٣ - العفو والصفح عن بعض قريش واثره في الانصار ١٠١٤ - اتجاهه عليه الصلاة والسلام الى الانصار ١٠١٥ - حرمة مكة المكرمة ١٠١٦ - محط الأوثان .

١٠١٨ بعثة خالد بن الوليد الى جذيمة

١٠١٩ - قتلهم خالد بعد أن أعلنوا اسلامهم وصلاتهم وأخذ سلاحهم ولم يشاركه من معه من المهاجرين والانصار في القتل ، وقد حذرهم بعضهم

من وضع السلاح خشية غدر خالد ١٠١٢ - النبي صلى الله عليه وسلم رفع يده متبرئاً من عمل خالد ١٠٢٠ - أرسل علياً ليدفع ديات القتلى ١٠٢٠ - ثارات جاهلية ١٠٢١ - مدة إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة .

١٠٢١ - أحكام فقهية شرعت في الفتح

١٠٢١ - مكة المكرمة فتحت عنوة أم سلمة ١٠٢٢ - ما يحرم في مكة المكرمة ١٠٢٣ - إقامة الحد والقصاص جائزان فيها ١٠٢٤ - دية شبه العمدة ١٠٢٦ - الميراث بين المسلم والكافر ١٠٢٧ - الولد للفراش ١٠٢٧ - قطع اليد ١٠٢٨ - المتعة وتحريمها ١٠٢٩ - المباينة على الإسلام ١٠٣٠ - نفقة الزوجة ١٠٣١ - حكم الهجرة بعد الفتح ١٠٣٢ - ملكية أرض مكة المكرمة ١٠٣٤ - سب النبي صلى الله عليه وسلم .

١٠٣٦ - غزوة هوازن

١٠٣٧ - سببها - لم يكن الجيش من المهاجرين والأنصار ، بل كان فيهم الطلقاء ١٠٣٨ - استعارته صلى الله عليه وسلم دروعاً من مشرك ١٠٣٩ - الانتصار بعد بوانر هزيمة ١٠٤٠ - من ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ١٠٤١ - أسباب الانتصار ١٠٤٢ - من قتل قتيلاً فله سلبه ١٠٤٣ - انهزمت هوازن هزيمة ساحقة ١٠٤٤ - ثمرات المعركة ١٠٤٥ - إعطاء المؤلفة قلوبهم من قريش ١٠٤٦ - موجدة الأنصار وأسبابها ١٠٤٧ - الشفاعة في الغنائم بعد توزيعها .

١٠٤٩ - أحكام شرعية في غزوة حنين ١٠٤٩ - العارية المضمنة ١٠٥١ - عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن ١٠٥٢ - الاعارة جائز من الكافر ١٠٥٣ - تبادل الرقيق بالحيوان .

١٠٥٤ - غزوة الطائف

١٠٥٥ - أسبابها - قداء النبي صلى الله عليه وسلم العبيد ١٠٥٥ - توسط قريش ١٠٥٦ - انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم الحرب قبل دخول ذي القعدة لأنه من الأشهر الحرم ١٠٥٧ - عودته صلى الله عليه وسلم إلى يثرب .

١٠٥٨ - عود إلى غنائم هوازن

١٠٥٩ - اعتراض بعض من في قلبه ضعف .

١٠٦١ - عمرة الجعرانة

١٠٦٢ - قدوم كعب بن زهير ، وقصيدته وقصته .

١٠٦٦ - السرايا بعد هوازن

١٠٦٧ - سرية عينية بن حصين ١٠٦٨ - سرية الضحاك بن سفيان
١٠٦٨ - سرية قطيبة بن عامر ١٠٦٨ - سرية علقمة بن محرز
١٠٦٩ - سرية على بن ابي طالب بهدم صنم طيء .

١٠٧١ - غزوة تبوك

١٠٧١ - اسبابها ١٠٧٢ - اسلام العرب الذين استعان بهم الرومان في
مؤتة ١٠٧٣ - الحال عند الغزو ١٠٧٤ - اقسام الناس فيها
١٠٥٥ - الاحتياط من المنافقين ١٠٧٦ - تمويل الجيش والبكلاء
١٠٧٧ - المسير ١٠٧٧ - اعفاء النبي صلى الله عليه وسلم عليا ليقوم على
اهلهما ١٠٧٨ - أبو خيثمة وابو ذر ١٠٧٩ - المرور على أرض عاد وثمود
١٠٨٠ - خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ١٠٨١ - نتائج تبوك
١٠٨٢ - كتاب قبصر الى النبي صلى الله عليه وسلم ١٠٨٣ - مصالحته عليه
الصلوة والسلام ملك ايلة ١٠٨٤ - وصالح يمثل هذا اهل جرياء
١٠٨٥ - سرية خالد الى اكيدر دومة ١٠٨٦ - العودة ١٠٨٧ - اللقاء
يرعى جنده احياء وامواتا ١٠٨٨ - غدر وعصمة الله ١٠٩١ - مسجد الضرار
١٠٩٢ - لماذا بناه المنافقون ١٠٩٣ - الثلاثة الذين خلفوا ١٠٩٤ - مقاطعتهم
حتى تابوا وتاب الله عليهم ١٠٩٦ - العبرة في أمر هؤلاء والتربية
١٠٩٧ - السبعة الذين ربطوا انفسهم بأعمدة المسجد ١٠٩٩ - اقسام
المتخلفين عن غزوة تبوك .

١١٠٠ - الوفود

١١٠١ - وفد مزينة ١١٠٢ - وفد تميم ١١٠٣ - وفد ثقيف
١١٠٤ - وما كان من علاج النبي صلى الله عليه وسلم لنفوسهم ١١٠٦ - هدم
الملاط ١١٠٩ - وفد بني عامر ١١١٠ - وفد عبد القيس ١١١٢ - وفد
بنى حنيفة ١١١٢ - ما كان بين مسيلمة الكذاب ، ورسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم ١١١٣ - وفد طيء ١١١٤ - وفد كنده ١١١٥ - وفد الاشعريين
واهل اليمن ١١١٧ - وفد الازد ١١١٩ - وفد بني الحارث بن كعب
١١٢٠ - وفد همدان ١١٢١ - قدوم وفد دوس ١١٢٣ - قدوم رسول ملوك حمير
١١٢٤ - مكاتبتهم ١١٢٦ - كتاب آخر لليمن بشأن الزكاة ١١٢٧ - وفد

نجران ١١٢٠ - عقد الذمة معهم ١١٣٢ - ما يدل عليه أمر هذا الوفد
 ١١٣٤ - الانداعان والايامن في وفد نجران ١١٣٥ - قدوم وفد بنى سعد بن بكر
 ١١٣٦ - وفد تجيب ١١٣٨ - وفد بنى سعد بن قضاة ١١٣٩ - وفد فزارة
 ١١٤٠ - وفد بهراء ١١٤١ - قدوم وفد عذرة ١١٤١ - وفد بلى
 ١١٤٢ - بيان أبواب الزكاة لهم ١١٤٣ - وفد بنى مرة ١١٤٤ - وفد خولان
 ١١٤٦ - وفد محارب ١١٤٧ - وفد صداء ١١٥٠ - قدوم وفد سلامان
 ١١٥١ - وفد غامد ١١٥٢ - وفد الأزد ١١٥٢ - قدوم وائل بن حجر
 ١١٥٤ - وفد النخج *

١١٥٥ - المغزى في هذه الوفود

١١٥٦ - ما يلاحظ في هذه الوفود ١١٥٨ - زهاب النفوذ الرومانى
 والفارسى وحل محلها النفوذ الاسلامى *

١١٥٩ - البعث

١١٥٩ - بعث معاذ بن جبل وما أوصى به وما فرضه من زكاة ولساناً
 خصها وذكر ما يجب عليه في القضاء ١١٦٢ - كل بعث معه قوة من الجند
 ١١٦٤ - بعث على رضى الله عنه ١١٦٦ - بعثه ليأخذ خمس الزكاة الذى
 يخص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وذوى القربى واليتامى والمساكين
 وابن السبيل ١١٦٨ - شدته في تنفيذ الحق وإثارة الناس عليه ودفاع القبى
 صلى الله عليه وسلم عنه ١١٦٩ - تولية على قضاء اليمن ١١٧٠ - صور
 من أفضيته *

١١٧٢ - بعث الصديق ليكون أميراً للحج

١١٧٢ - ادوار الدعوة الاسلامية ١١٧٣ - نزول سورة براءة بعد
 انفصال أبى بكر ١١٧٤ - كان الحجيج من المشركين غير ممنوعين
 ١١٧٦ - منزلة أبى بكر ومنزلة على ١١٧٧ - الأشهر الحرم والعهد
 والمواثيق ١١٧٨ - كراهة الحج والبيت يدخله المشركون ١١٧٩ - عمل
 على صدر سورة براءة ليتلوها على الناس واعتذار على بانه ليس باللسن
 ١١٨١ - قول النبى صلى الله عليه وسلم انطلق ، فان الله يثبت لسانك ويهدى
 قلبك ثم وضع يده على فيه ١١٨٢ - ما اشتملت عليه سورة براءة
 ١١٨٣ - أحوال أهل الكتاب ١١٨٥ - لمز المنافقين في الصدقات ١١٨٧ - جهاد
 النفاق والكفر ١١٨٩ - أعذار النفاق والكفر ١١٩٠ - ما بين الايمان
 والضعف والنفاق ١١٩٢ - بعض ما في سورة براءة من حكم وغبر
 ١١٩٤ - صور النفاق ١١٩٥ - للاسلام اتباع *

١١٩٦ - انتشار الدعوة الاسلامية

- ١١٩٦ - الضعفاء والعبيد هم الذين ابتدأوا بالايمان وبعض الأقوياء
١١٩٧ - تتابع الغزوات أثر في معرفة الناس بالاسلام ١١٩٨ - الحديدية
وأثرها ١١٩٩ - انتشار الاسلام بعدها .

١٢٠١ - حجة الوداع

- ١٢٠١ - الخروج لحجة الوداع ١٢٠١ - المناسك كما قام بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ١٢٠٢ - الحيض لا ينقض الاحرام ١٢٠٣ - كان
النبي صلى الله عليه وسلم قارنا ولم يكن كل من معه قارئين ١٢٠٦ - الأماكن
التي نزلها صلى الله عليه وسلم والأدعية التي ذكرها ١٢٠٧ - خطبته صلى
الله عليه وسلم بعرفة ١٢٠٩ - خطبته عليه الصلاة والسلام بمكة
١٢١١ - دعاؤه عليه الصلاة والسلام بعرفة ١٢١٢ - العودة الى المدينة
المنورة .

١٢١٣ - الوداع بعد التمام

- ١٢١٤ - التنبؤ به ١٢١٥ - بعث أسامة بن زيد الى أرض فلسطين
١٢١٦ - الروايات في الوداع ١٢١٩ - توديعه صلى الله عليه وسلم لابنته
فاطمة الزهراء ١٢٢٠ - أنك ميت وأنهم ميتون ١٢٢١ - صلاة أبي بكر
بالناس ١٢٢٢ - لكل أجل كتاب ١٢٢٣ - وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم
١٢٢٣ - ما كان من عمر الفاروق ١٢٢٤ - خطبة أبي بكر ١٢٢٥ - غسل
الجثمان الطاهر ١٢٢٦ - انتهاء حياته الدنيوية (صلى الله عليه وسلم)
١٢٢٧ - تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ١٢٢٨ - زوجات النبي صلى
الله تعالى عليه وسلم ١٢٣٤ - زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم ببقية
نسائه .

- ١٢٣٧ - العبرة ١٢٤١ - أما بعد ١٢٤٣ - بيان ما يشتمل عليه
المجلدان .

(تم بحمد الله وفضله)

● قام بمراجعة هذه الطبعة للمجلدين واعطاء امر الطبع ، وتصويب
الفهرست ، العبد الفقير الى ربه العلى القدير محمد عبد الغنى السيد رئيس
حسابات دار الفكر العربى ايمانا واحتسابا وتقربا الى المولى سبحانه وتعالى
بأن يتقبل منه أو يغفر له أن وقعت بعض أخطاء مطبعية هامشية لا تخفى على
فطنة القارئ رغم ما بذل من جهد وخاصة مراجعة الآيات القرآنية الشريفة •
والله سبحانه وتعالى هو الذى ترجى منه المثوبة والرحمة والمغفرة •

(والصلاة والسلام على خير البشر الرسول الامى صلى الله تعالى عليه
وسلم وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين) •

(وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) •••

★ ★ ★

● كما لا يفوت دار الفكر العربى أن تخص بالشكر والعرفان
الأستاذ هانى أحمد غريب مدير دار غريب للطباعة الذى كان له فضل السبق
فى اظهار هذه الطبعة بهذه الصورة الكريمة •

والله المن والفضل علينا اجمعين ٥

رقم الايداع بدار الكتب ٧٩/٤٤٨٧
التقديم الدولي ٦ - ١٩٠ - ٣٠٦ - ٩٧٧

دار غريب للطباعة

٦٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة

تليفون : ٢٢٠٧٩

تطلب جميع منشوراتنا من

مؤسسة

دار الكتب والوثائق

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضي
ت ٤٣٦٧٦٥٠ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة

تليفون : ٢٢٠٧٩

Bibliotheca Alexandrina



0205495

